رحلة أبرهام

كهولة

قبل البلوغ

د. إيهاب عويص

رواية
Rewayah

كهولة قبل البلوغ

د. إيهاب محمد عويص

الطبعة الثانية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ح دار الرواية، ١٤٣٤ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عويص، إيهاب محمد

كهولة قبل البلوغ. /إيهاب محمد عويص - الرياض، ١٤٣٤ ..

ص ٦٩٧؛ ١٦ × ٢١سم

ردمك: ٠ - ٢ - ٩٠٤٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- القصص الروسية

أ. العنوان

ديوي ٨٩١,٧٣٠٣ ١٤٣٤/٣٦٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٦٥٠

ردمك: ٠ - ٢ - ٩٠٤٣٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

• إلى مسك الختام، أبنائي الأحباء: محمد ودارين ونادين ونزار، سائلاً المولى العظيم أن يجعلهم من الصالحين، وأن يقيهم، وسائر أبنائنا، من شر الفتن وتلبيس إبليس. وأن تكون العبر الواردة في هذه الرحلة خير عون لهم في ذلك.

والله من وراء القصد.

تقديم

إن المتأمل للمفاهيم الدينية يجد أن نهر الإيمان الدافق تُغَذِّيه ثلاثةُ روافد؛ الرافد الأول هو «الفطرة» التي وضعها الله - سبحانه وتعالى - في الإنسان منذ نشأته الأولى، ونجد الدليل عليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . كما نجده في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] . سبحان الله؛ يكاد زيت الفطرة أن يضيء دالاً الإنسانَ على ربه، حتى ولو لم تمسسه نار النبوات، ثم يأتي نور النبوة على نور الفطرة ليحقق للإنسان الهداية.

وقد أشار الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانت في كتابه «نقد العقل الخالص» إلى دور الفطرة بقوله: «أُدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكُنْه الأشياء، وأنه مؤهل بطبيعته لإدراك الجزئيات والظواهر فقط، في حين أنه عاجز عن إدراك الماهيات المجردة مثل الوجود الإلهي، وإنما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل؛ فشوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل، كما أن ظمأنا للمياه هو دليلنا على وجود الماء».

ولما كانت «النبوة» هي الرافد الثاني لنهر الإيمان (كما تشير سورة النور)، فإن

اللـــه - عزَّ وجلَّ - لم يترك أمة إلا وأرســـل إليها من يُعَرِّفها بربهـــا وبالطريق إليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤]. وتُكمل «التنشـئة» رافد النبوة، فنحن نربي أبناءنا على مـــا نعتنق من دين، وفي ذلك يقـــول المصطفى ﷺ: (كل مولود يُولَـــد على الفطرة، فأبواه يهودانـــه أو ينصرانه أو يمجسانه...)[1].

أما الرافد الثالث، فهو رافد «العقل»، الذي جعله الله - سبحانه وتعالى - المخاطَب والمُكَلَّف والمحاسَـــب. والقرآن الكريم يدعو الإنســـان ـ في مواقف تفوق الحصر ـ إلى التفكر في ثلاثة مجالات من الآيات: الآيات المســـطورة في القرآن والخاصة بالألوهية والرســـالة والعبادة، وآيات هي المعجزات الإلهية التي يخـــرق فيها الله - عزَّ وجلَّ - نواميس الكون ليدرك العقلُ قدرتَه، وآيات هي الإبداع في الآفاق والأنفس، والتي قال فيها الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣].

نعم، إنها ثلاثة روافد تتجمع لتُكَوِّن في نفس الإنسان نهر الإيمان الدافق الذي يزيل في طريقه ضلالات الشرك والشك.

والمستنكرون للإيمان الديني يقفون في معارضتهم عند أحد ثلاثة مستويات؛ فمنهم مـــن ينكر الوجود الإلهي كُلِّية، وهؤلاء هم الملاحدة. ومنهم من يُقر بوجود الإله الخالق للكـــون وبأنه قد وضع فيه قوانين الطبيعة التي تديره دون تَدَخُّل منه، أي أن الإله قد اعتـــزل الكون، ومن ثَـــمَّ ليس هناك حاجة للتواصل بين الســـماء والأرض، فينكـــرون الديانـــات، ويُعرف هـــؤلاء بالربوبيين، وينطبق عليهم قول الله - ســـبحانه وتعالى -: ﴿ وَلَئِن سَـأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١].

---

(١) أخرجه البخاري عن حديث أبي هريرة.

والمســـتوى الثالث من المنكرين على المؤمنين إيمانهم يمثله القائلون بالوجود الإلهي، وبفكرة التواصل بين الأرض والســـماء، لكنهم لا يرضون عن أي من الديانات المتاحة! سواء عن مكابرة أو لعدم الفهم وعتامة الرؤية.

وأرى أن العمل الكبير الذي بين أيدينا (رحلة أبراهام) يســـتنفر فينا روافد الإيمان الثلاثـــة، كما يخاطب الفئـــات الثلاث من المنكرين، الذين تُشَـــوِّش على رؤيتهم ديانةٌ مُحَرَّفَة تَرَبَّوا عليها، أو إلحاد نشـــؤوا في كنفه، وينطبق عليهم قول الحق - ســـبحانه وتعالى -: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُـــمْ إِلَى عَذَابِ السَّـــعِيرِ ﴾ [لقمان : ٢١] . وقد افتقد هـــؤلاء النور الهادي إلى الحق، واحتاجوا إلى من يمد إليهم يدَ العون.

وبعـــد قراءتي لهذه الملحمة، التي تقع في أكثر مـــن ألفي صفحة، وجدت أن خير تعريف بها هو ما اســـتخدمه المؤلف بنفسه: «رحلة حاخام اقترب من الكفر بعد تعمقه فـــي طائفة آبائه. وراح يتنقل بين عقائد الإلحـــاد، إلى أن تأكد من عقمها ومن وجود اللـــه، فعاد إلى اليهودية باحثاً في بقيـــة طوائفها الأخرى، لكن رحلته تتطور بعد ذلك لتشمل مختلف الطوائف المسيحية أيضاً، وتقوده إلى الكشف عن خفايا الصدام واللقاء بين الحضـــارات، وعن حقائق أخرى لم تكن في الحســـبان». ويمكن تصنيف الرواية باعتبارها دراســـة عميقـــة ثرية تجمع بين تاريخ الأديان وعلـــم الديانات المقارن، كما سيتضح لك أثناء إبحارك بين صفحاتها.

والملحمـــة من ثلاثة أجزاء، قد تبدو منفصلة، لكنها في الحقيقة تمثل رحلة واحدة متصلة، تذكرني في بنائها بثلاثية نجيب محفوظ المنفصلة المتصلة.

وفي الجزء الأول بعنوان «الهـــروب إلى العاصفة»، يقوم المؤلف في أســـلوب روائي بـ «متابعـــة تاريخية» و«تفكيك فكري» للديانة اليهودية، مـــن بدايتها وحتى الآن، كما يُلقي الضوء على العلاقة بينها وبين الحركة الصهيونية. وقد ركز الكاتب على سلبيات

الفكر اليهودي، وكيف تطرق إليه التحريف والاقتباس، حتى صارت كتاباتهم المقدسة تنضح بكم كبير من السخرية والانتقاص من الإله ومن الأنبياء. ويبين المؤلف كيفية انقسام اليهود إلى شُعَب متعددة تفوق القدرة على الاستيعاب وربما على الحصر، حتى صار من الصعوبة - بل من المستحيل - أن يضع الباحث يده على تعريف محدد للديانة اليهودية، أو الشعب اليهودي، أو الإنسان اليهودي.

وفى الجزء الثانى من الملحمة «بشارات هائمة»، تنتقل أحداث الرواية إلى الديانة المسيحية، فيتناولها المؤلف بنفس منهج تناول اليهودية: تفكيك العقيدة - تاريخ نشأة المذاهب والفرق - التحريف والسلبيات... حتى وصل الأمر إلى أن صار كل من بابا الأرثوذكس وبابا الكاثوليك يُكَفِّر بعضُهم بعضاً. ويُلفتنا المؤلف إلى ما بين المذاهب المسيحية من خلافات حول الأقانيم الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) التي تمثل إلهاً واحداً، ويلجأ في ذلك إلى مقولة ڤولتير الساخرة في كتابه «الملحد والحكيم» حيث يقول: «هل تؤمن بأن المسيح شخصية واحدة لها طبيعة واحدة وإرادة واحدة، أم شخصيتان لهما إرادة واحدة وطبيعة واحدة، أم شخصيتان لهما طبيعتان وإرادتان، أم شخصيتان لهما طبيعة واحدة وإرادتان؟؟!!»، هذا في الحقيقة هو جوهر الخلاف في المسيحية!!

ويفسر لنا المؤلف الامتزاجَ الذي حدث بين الديانتين اليهودية والمسيحية - بالرغم من العداء الشديد بينهما - حتى صار الكتاب المقدس للمسيحيين يشتمل على التوراة تحت اسم العهد القديم، وعلى الإنجيل تحت اسم العهد الجديد. ويطرح علينا الكاتب الأمور التي تدفع اليهودي والمسيحي إلى الشك في دياناتهما؛ وأهمها أن كلاً منهما يرى أن دينه قد نقل بعض الأساطير عن شخصيات تنتمي إلى ديانات قديمة، كزرادشت وبوذا وميثرا. كما أحصى الباحثون تناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد وصلت إلى مائة وخمسين ألفاً. وكذلك التناقضات الجذرية بين ما في العهد القديم (خاصة سفر التكوين) وبين العلم، بخصوص نشأة الكون وكوكب الأرض والحياة والإنسان.

وأخيراً ـ وليس بآخراً ـ عدم منطقية بعض ما في الديانتين من أفكار، كنظرية فداء المسيح عليه السلام للبشرية، وفكرة الصلب والقيامة.

وفي طرحه للديانتين (اليهودية والمسيحية) يتأرجح المؤلف ـ بحبكة روائية كبيرة ـ كالبندول بين المفاهيم الفكرية للديانتين وبين نشاطاتهما وتأثيراتهما السياسية والاجتماعية. ويطرح علينا بالتفصيل ما أحدثتاه من إفساد في الأرض وإفساد في النفس البشرية؛ كالحروب والإبادة والاستعباد والتعصب والاحتيال والإغراق في المادية والشذوذ والزنا.....

وفي الجزء الثالث والأخير من الملحمة بعنوان «كهولة قبل البلوغ» نصل إلى ذروة العمل الدرامي. فيستهله المؤلف باستعراض مقارن بين الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، يُسلم أبراهام إلى بحار الحيرة والقلق، فتعصف به رياح التوتر والتردد، حتى يكاد يتمنى أن تبتلعه الأرض. وإن كنت ـ أيها القارئ الكريم ـ قد مررت بمثل هذه الحالة فستدرك مرارة ما عاناه بطلنا أبراهام، فهو عذاب تتضاءل أمامه العذابات المادية والجسدية، ربما يفوق معاناة أبطال ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسا، لذلك استحق هذا العمل أن يصنف كملحمة.

وإذا كان المؤلف قد أوقد بعض شموع الهداية بالحديث عن الإسلام في مواضع متفرقة من ملحمته، فإنه في الثلث الأخير من الجزء الثالث تحدث بشكل أكثر تركيزاً عن الإسلام. وكان طبيعياً ونحن نعيش مع دراسة مقارنة بين الديانات أن يشير الكاتب إلى إنجيل برنابا الذي جاءت فيه البشارة بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ وبالرسالة الخاتمة، ثم انتقل إلى استدلالات كونية على صدق الرسالة من خلال إثبات مركزية بيت الله الحرام في الأرض بما لذلك من دلالات فلسفية وعلمية. ولم يفت الكاتب الإشارة إلى جوانب الإعجاز العلمي والتاريخي في القرآن الكريم، كما لم يفته الرد على أهم الشبهات التي تُطرح ضد الإسلام.

وإذا كانت رحلة البحث عن الحقيقة تبدأ بالتحرر من الأوهام «تخلية» ثم طرح حقائق الطريق القويم «تحلية»، فهذا ما فعله الكاتب مع بطله أبراهام ومعنا. ثم نجده في آخر الملحمة لم يدفعنا لتبني رأي محدد من خلال تلخيص وتصنيف ما طرحه من أفكار، بل تركنا لنقوم بعملية التقويم بأنفسنا بعد أن طرح علينا على مدى أجزاء الملحمة الثلاثة الرأي والرأي الآخر.

إن معاناة بطل الملحمة أبراهام في بحثه عن الحقيقة وتردده بين الديانات تذكرني بخليل الله إبراهيم عليه السلام (ولعل اسم أبراهام مأخوذ من اسمه) وتفرسه في السماء، باحثاً عن الإله الحق ومستلهماً الهداية من الله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

ونسأل الله - سبحانه وتعالى - دائماً الهداية وحسن الخاتمة.

ويلتقي أبراهام بعد الربع الأول من الجزء الأول من الملحمة بالشخصية المحورية المقابلة له في الرواية، وهي شخصية «أحمد»، المسلم المتوازن عقلاً وانفعالاً، والأقرب إلى ما ينبغي أن يكون عليه المفكر المسلم المعاصر. فأحمد قد حافظ على شخصيته الإسلامية وجذوره الفلسطينية ورفض تبني القيم الليبرالية بالمنظور الغربي. ولم يكن أحمد انتقائيّاً عند الأخذ بمنهج الإسلام ونصوص القرآن الكريم؛ فقد رفض ذم الكتابيين ولعنهم دون تمييز، باعتبار أن القوى الاستعمارية والمحتلة هي نتاج الحضارة «اليهومسيحية الصهيونية المستحدَثة»، بالرغم من أنه قد عانى على المستوى الشخصي من هذا الاحتلال الذي ما زال يدنس وطنه ووطننا فلسطين. وفي نفس الوقت لم يركن

أحمـــد إلى النصوص التي يغلب عليها التســـامح واللين متخلياً عن قضية دينه ووطنه وحضارته. ولا شـــك أنه في هذا الموقف المتوازن يتبع خطوات الرسول الكريم ﷺ في مواقف حياته المختلفة. وإذا كان أحمد هو الشخصية التي قامت بتجلية الأوهام وأيضاً الحقائق لأبراهام، فإنني أرى أن كلا الشـــخصيتين تمثلان كاتب الرواية، تارة وهو في طور الحيرة والقلق، وتارة وهو في طور سكينة اليقين.

وقد اســـتخدم المؤلف أســـلوب الرواية في توصيل الكم الكبير من المعلومات التي يطرحها علينا، فهو الأكثر تشويقاً والأيســـر في توصيل المعلومة وتبسيطها وتحليلها، وأيضـــاً لتذكرها. وقد كان ذلـــك اختياراً موفقاً تَطَلَّب من الكاتـــب جهداً إضافيّاً لما بذله في جمع مادته العلمية. وأحســـب أن لولا هذا الأسلوب لعجز القارئ عن تحقيق التواصل والمتابعة المطلوبة مع المؤلف، وهذا الأســـلوب مطروق في عالم الفكر المعاصر من حين لآخر، فنجده في الفكر الإســـلامي في الكتاب العظيم (قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر، ونجده في الفكر العالمي في كتاب (عالم صوفي) تأليف الكاتبة النرويجية جوستين جاردر.

وبالرغم من اتباع المؤلف للأسلوب الروائي، فقد توافرت في دراسته سمات العمل العلمـــي الموضوعي؛ فجميع البيانات والمعلومات الـــواردة في الرحلة صحيحة ودقيقة استخلصها الكاتب من أمهات الكتب والموسوعات المتخصصة في الدراسات الأكاديمية للتاريخ والعقائد المختلفة، وأرجعها إلى مصادرها في هوامش الكتاب الغزيرة والثرية، والتـــي زادت الكتاب ثـــراءً وموضوعية. كمـــا اجتهد الكاتب في الالتـــزام بالحيادية والإنصاف في صياغة آراء الأبطال المعبرة عن معتقداتهم وعن نظرتهم للإسلام.

وقد انعكســـت شخصية الكاتب إلى حد كبير على عمله المتفرد، فلا شك أن كونه فلســـطينياً مخلصاً لقضيته قد وجهه لاختيار الموضوع، وهو نقض العقيدة والحضارة «اليهومسيحية الصهيونية المستحدثة». كما يظهر من الملحمة أن حياته ودراسته وعمله

في روسيا الاتحادية لأكثر من عشرة أعوام، واطلاعه على الأدب الروسي العظيم. قد انعكسا على أسلوبه الروائي، فنجده في عمله الفكري الأول يميل إلى الموسوعية والتفصيل والتحليل والتوليد والنزعة الإنسانية، وربما ساعد على تحقق هذه السمات تخصص الكاتب كطبيب أسنان مدقق متخصص في التقويم. ويتمشى توجه الكاتب إلى عالم الفكر والأدب مع أمر كاد أن يكون ظاهرة، وهو اتجاه عدد من الأطباء إلى هذا العالم، ومنهم الدكاترة محمد حسين هيكل، وأحمد ذكي أبو شادي، وإبراهيم ناجى، ويوسف إدريس، ومصطفى محمود، ويحيى الرخاوي، ومحمد الجوادي، وكاتب هذه المقدمة. وعلى المستوى العالمي تقابلنا أسماء أنطوان تشيكوف، وآرثر كونا نان دويل، وجون كيث، وسومر ست موم وغيرهم.

وفي حوار لي مع د. إيهاب عويص كاتب الملحمة، سألته عن الأهداف وراء هذا العمل، فأخبرني أنها موجهة إلى ثلاث فئات؛ الأولى «القراء المسلمون» لمساعدتهم على تحقيق فهم أكثر واقعية لطبيعة الآخر، وعلى الخصوص أهل الكتاب، وأن يزيل بعض الغموض عن حقيقة العلاقة بين اليهود والمسيحيين. والفئة الثانية هم «الكتابيون» لمساعدتهم على فهم الإسلام من خلال كتبهم المقدسة بعد أن تشوهت رؤيتهم لنا. وأخيراً يخاطب المؤلف «القراء العلمانيين» ليصل بهم من خلال اكتشافات العلم الحديثة إلى تأكيد وجود الحياة الآخرة بالمنطق الدنيوي الذي يتبعونه.

وكما أخبرني الكاتب أن ما دفعه لإخراج هذا العمل هو ما آل إليه حال العالم بعد أن أصبحت سماواته مفتوحة، وصار الشاب المسلم يطالع ببساطة ويسر من خلال الشبكة العنكبوتية كل ما يموج به العالم من أحداث وما يسود فيه من معتقدات. لذلك لم يكتف الكاتب بطرح اليهودية بالتفصيل باعتبارها ديانة الصهاينة أعداء العرب والمسلمين، كما لم يكتف بتحليل المسيحية لفهم شركائنا في الوطن، لكنه عرض أيضاً «البوذية» باعتبارها قد بدأت بالانتشار في العالم الغربي كمنافس لانتشار الإسلام.

كما افتتح كتابه الأول بالحديث عن «عبدة الشيطان»، بعد أن صار شبابنا العربي يتابع أخبارهم، بل صار بعضهم يتبنى أفكارهم.

وبعد قراءتي للملحمة، أرى أن الكاتب قد نجح إلى حد بعيد في الوصول إلى أهدافه التي وضعها نصب عينيه عند تأليفه للرواية. بل وأضيف إلى نجاحه هذا نجاحاً آخر، وهو إظهار الكثير من أمور العقيدة والتاريخ التي كانت مخفية في بطون المراجع المتخصصة حتى كاد أن يغرقها النسيان، لولا أنه أثبتها في هذه الملحمة.

القارئ الكريم...

بعد هذه الجولة المتأملة لأجزاء الرواية الثلاثة، والتي كانت وقفات سريعة تعجز عن الإحاطة بهذا العمل الملحمي والموسوعي؛ أرسل للكاتب ـ من خلال هذه السطور ـ رسالة تحمل طلبات ثلاثة:

أولاً: نظراً لغزارة وثراء وتخصُّص ما طُرح في أجزاء الرواية الثلاثة، فإنني تَوَّاق لأن أقرأ ـ في القريب ـ جمعاً وتلخيصاً بالأسلوب الأكاديمي لما تحويه من أفكار، وذلك كأسلوب آخر لعرض ما بها من معلومات ومعارف، حتى تَعُم الفائدة من وراء الجهد الهائل الذي بذله المؤلف. وإذا كان التلخيص وإعادة العرض للأعمال التراثية أسلوب مُتَّبَعاً في الفكر الإسلامي، فإنه ما زال منهجاً متبعاً في الفكر المعاصر، وربما كان من أشهر ما تم تلخيصه من أعمال معاصرة هو «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبد الوهاب المسيري، فقد قام بنفسه بتلخيصها من ثمانية مجلدات إلى ثلاثة مجلدات، كما قمت أنا بإعادة عرض أهم أفكارها بأسلوب آخر في كتاب واحد.

ثانياً: وكما قرأنا في الملحمة طرحاً لنشأة المذهب والفرق في الديانتين اليهودية والمسيحية والاختلافات بينها، فإنني تُوَّاقٌ لأن أطالع طرحاً مماثلاً عن الإسلام، خاصة فيما يخص السنة والشيعة.

ثالثاً: حديثاً عكف رجال متخصصون من غير المسلمين على القرآن الكريم وتفسيراته والسنة والنبوية وتفسيراتها وباقي كتب التراث، وأخذوا يستولدون منها ما اعتقدوا أنه مآخذات وتناقضات، ونشروها على مستوى العالم عن طريق الشبكة العنكبوتية، فوصلت للمسلم والكتابي والملحد. لا شك أن رد هذه الشبهات المستحدثة يحتاج إلى جهد علمي كبير تشارك فيه جهات إسلامية متخصصة، وأنا أعتقد أن كاتبنا بما يمتلكه من مثابرة ومن قدرات تحليلية وتركيبية قادر على المساهمة في هذا العمل الكبير، بنفس النجاح الذي حققه حين وضع يده على مآخذات اليهودية والمسيحية.

وختاماً أتمنى لك ـ القارئ الكريم ـ ساعات وأياماً ماتعة في صحبة هذه الملحمة الموسوعية.

د. عمرو شريف
أستاذ الجراحة العامة
كلية الطب ـ جامعة عين شمس

تمهيد

بطل روايتنا ابراهام هو حاخام روسي شاب من أحد البيوتات اليهودية العريقة، ضايقته المتناقضات التي اكتشفها أثناء تعمقه في دراسة شريعته، وصُدم بردة فعل كبار الحاخامات على محاولته لتقصي الحقائق بشأنها، مما أورثه خيبة أمل وريبة في الدين حتى وصل به الشك إلى الوحي، فراح يبحث عن الحقيقة خارج نطاقه، بدءً من عبادة الشيطان حتى العلمانية والتداخل الالحادي في الأديان، مروراً بالبوذية وغيرها، إلى أن تأكد من عقمهم جميعاً ومن وجود الله فعلاً، ليعود إلى اليهودية باحثا في بقية فرقها الأخرى، عله يجد ضالته في أحدها. وبعد أن عاش فترةً في الأرض المقدسة، وجد أن بقية الفرق اليهودية كانت أشد ضلالاً من فرقته السابقة، وأن حكماء صهيون قد ذهبوا بما جاء به أنبياء بني إسرائيل. ولكن فجيعته لم تكن على الصعيد الديني فحسب، بل تعدتها إلى الصعيدين الاجتماعي والسياسي، فعاين عن قرب دسائس أبناء جلدته ومؤامراتهم، وعانى شخصياً من مطاردة الموساد وتلفيقاته حتى اضطر إلى الهرب إلى مصر، ثم اكتملت فجيعته عندما طالت حياته العاطفية، وخَبر الخيانة بأبشع صورها بعدما ظن أنه قد عثر أخيراً على حب حياته[١].

ثم يقرر أن يتبرأ من اليهودية ويتابع رحلته متنقلاً بين الطوائف المسيحية المختلفة من مصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية مروراً بألمانيا يبحث عن الدين الحق، ولكنه يفاجئ أن الأصابع التي عبثت باليهودية قد طالت المسيحية أيضاً، ويتطور بحثه ليقوده إلى الكشف عن خفايا الصدام واللقاء بين الحضارات، وعن حقائق أخرى لم تكن في الحسبان[٢].

---

(١) راجع رواية "الهروب إلى العاصفة" للمؤلف، وهي الأولى في سلسلة "رحلة أبراهام".

(٢) راجع رواية "بشارات هائمة" للمؤلف، وهي الثانية في سلسلة "رحلة أبراهام".

تأليه التوحيد

وتشمل:

الأرثوذكس الثلاثة

بدعة أم أساس؟

روما

قسطنطين ونيقية

القانون

تلمس الطريق

السياسة مرة أخرى

هارفارد وأكسفورد

تأليه التوحيد

الأرثوذكس الثلاثة

جلس أبراهام وأحمد في أحد المقاهي قبالة كتدرائية آخن التي تعتبر من أقدم معالم تلك المدينة الألمانية العريقة، وكالعادة، فكيفما يبدأ الحديث بينهما، فلا بد أن ينتهي أخيراً في موضوع الأديان. وعندما تعمقا في الحديث عن تأثير اليهودية على المسيحية الحالية، اقترب من طاولتهما رجل وقور، حياهما بلطف باللغة الروسية، طالباً الإذن بالجلوس معهما قليلاً من الوقت، وبعد ترحيبهما بذلك، جلس قائلاً:

- أنا الأب «ديمتري»، وأعتذر كثيراً على تطفلي، ولكن من الصعب في الغربة أن يتجاهل المرء حديثاً بلغته الأم دون أن يحاول الاشتراك فيه، خاصة إن كان ذلك الحديث حول موضوع حساس كالذي تتناولانه. صدقاني أنا لم أتعمد التنصت، ولكن الكلمات الروسية كانت تجد طريقها إلى أذني مباشرة متجاوزة ضجيج نظيراتها الألمانية.

- لا داعي للاعتذار يا أبانا. فلنا الشرف بالتعرف إليك والحديث معك.

- أشكر لطفكما.

- وأما عن حديثنا، فكما سمعت، نحن لم نكن نتكلم بأمور شخصية خاصة.

- وهذا ما شجعني على المشاركة. خصوصاً أنني لا أريد منكما أن تحكما على المسيحية من منظور الكاثوليكية أو البروتستانتية، فمع احترامي لهما، فكلاهما لا يمثلان العقيدة الحقيقية التي جاء بها السيد المسيح[1]؛ لأن الكثيرين من لاهوتيي هذين الدينين مسحورين باليهودية واليهود، لدرجة أن كبيراً من أحبارهم سماهم "الإخوة الأبكار"[2]ج، وهم يعتبرون أن العهد القديم لا يزال يشرعنهم على أنهم شعب الله، مع أن آباءنا قالوا جميعاً إن الكنيسة هي إسرائيل الجديدة، وإن العهد الشرعي بات الآن بين الله والكنيسة بدم يسوع.

- لقد كانت الكاثوليكية على ذلك الرأي أيضاً في الماضي.

قال أحمد معقباً، فهز الأب ديمتري رأسه بأسى قائلاً:

- أجل. ولكن منذ القرن الماضي بدأ موقفهم بالتغير، وغدا أكثر وضوحاً بعد

---

(١) الكلام الذي سيرد على لسان الأب ديمتري في الصفحات القادمة مقتبس من "كلمة الراعي" لسيادة راعي أبرشية جبيل والبترون وما يليهما (جبل لبنان) للروم الأرثوذكس المطران "جاوروجيوس" بعنوان "ميول يهودية في الغرب"، كان قد وعظ بها في أحد السامرية يوم الأحد ٩ أيار/ مايو ٢٠٠٤م، ونشرت في مجلة الأبرشية العدد ١٩. وفي الصفحات التي تليها، سيرد على لسان شخصية (الأب ديمتري) اقتباسات أخرى أيضاً من حوار صحافي مع غبطة الأرشمندريت "ألكساندر" ممثل بطريرك موسكو. أجرته معه "النور" عدد ٢٦٥ بتاريخ ١١/١٠/٢٠٠٦م عن صراع الحضارات والموقف الرسمي للكنيسة الروسية الأرثوذكسية بذلك الشأن. كما أن شخصية الأب ديمتري الروائية ستستمر معنا ببطولة كافة مواقف(فصول) هذه المحطة والمحطة التي تليها، وسيرد على لسانها اقتباسات أخرى متعددة من تصريحات بعض الشخصيات الكنسية العامة. وكل ذلك في سبيل تحري الدقة في التعبير عن المواقف الأرثوذكسية الرسمية. ولكن يجدر التنبيه هنا إلى أن بقية الحديث (الشخصي) على لسان ذلك البطل الروائي، ينبغي أن يؤخذ كما هو ضمن سياق الرحلة وحبكتها القصصية، وكذلك تصرفاته وتفاعلاته وارتباطاته بأحداث أخرى مرت علينا في فصول سابقة. وعلى ذلك، فلا يوجد أدنى علاقة من قريب أو بعيد، بين الشخصية الروائية الخيالية التي أسميتها الأب ديمتري، وبين أي شخصية كنسية عامة، اقتبست من كلماتها لإضفاء أبعاد لاهوتية، أكاديمية، وواقعية على أحداث الرحلة.

(٢) يقصد البابا يوحنا بولس الثاني. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

مجزرة اليهود في عهد هتلر في الحرب العالمية الثانية. فقد خلقت هذه المجزرة عقدة لدى المسيحيين الغربيين، مع أن رجلاً واحداً اقترفها، والمسيحية الغربية قد شجبت التفريق العنصري بنصوص واضحة، كما شجبت ذبح أولئك اليهود. فكيف تستطيع حادثة، ولو على هذه الفظاعة التي لا توصف، أن تحدث انحرافاً في اللاهوت الغربي عما ورثناه عن آبائنا القديسين؟ ونحن نعلم أن المواقف اللاهوتية مبنية على كلمة الله وحدها لا على حادثة من حوادث الزمان.

- كيف تنظر إلى ما جاء في وثيقة مجمع الفاتيكان الثاني في أواسط الستينيات عندما قررت أن "ما ارتكب أثناء آلام المسيح لا يمكن أن ينسب إلى كل اليهود العائشين آنذاك، ولا إلى يهود عصرنا"؟!

- إن الإنجيل لم يكن في صدد تبرئة فئة من ناحية القانون الجزائي! وما كان موقفه موقف محقق عدلي! ولما قال اليهود: "دمه علينا وعلى أولادنا"، كانوا واعين تماماً إلى أن أمة اليهود هي التي تقتل السيد وتكلم باسمها كاهنهم الأكبر "كيافا". وعندما كان الأنبياء يؤثمون إسرائيل[1] كان إسرائيل عندهم آثماً، وما كانوا يهتمون لهذا الفرد أو ذاك. وإلى جانب اليهود، كل البشرية مذنبة إلى المسيح، ولن تتبرأ بوثيقة مجمعية، ولكن بتوبتها إليه وبقبولها المعمودية. ولا يستطيع أحد نيابة عن السيد أن يعطي أحداً من الناس إفادة بحسن السير والسلوك.

- ولكن مع ذلك، ألا ترى أنه أمر طيب، أن تشعر الكنيسة الكاثوليكية بالندم على اضطهادها السابق لليهود.

- ولماذا لم تبد الكنيسة الكاثوليكية ذاك الندم عن اضطهاداتها للمسلمين في إسبانيا، وللبروتستانت في غرب أوربا، والمسيحيين الأرثوذكس في أثناء حملاتها الصليبية على الشرق؟

---

(١) يقصد بني إسرائيل أو "شعب" إسرائيل، كما أوضحنا سابقاً في رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- لقد اعتذر البابا عن ذلك أيضاً.

- ليس اعتذاراً بمعنى الكلمة، لذلك فما سيطر على المسيحية الغربية أكثر هو الاعتذار من اليهود.

هز أبراهام رأسه موافقاً، وكذلك فعل أحمد مستذكرين حديثهما السابق حول هذا الموضوع[1]، فتابع الأب ديمتري قائلاً:

- لقد أصبحت الميول اليهودية سمة للغرب. أنا لن أتحدث عن السينما التي ملئت عن آخرها بالرموز اليهودية، ولن أتحدث عن مشاهدها الساخنة وعن الفنانات وعارضات الأزياء اللائي يظهرن وهن نصف عاريات، معلقات صلباناً كبيرة على أعناقهن للدلالة على أن العراء إنما يختص بالمسيحيات، وذلك كي لا أتهم بالإيمان بـ"نظرية المؤامرة"، ولكني سأتحدث عن البرامج الجادة التي تسمى زوراً بـ"التثقيفية" والأفلام التي تسمى زوراً بـ"الوثائقية"، وهي التي أعمل حالياً على نقدها. فمنذ فترة ظهر على محطة "سي بي بي" فيلم وثائقي بعنوان "الأسفار المستبعدة"[2]، يقوم فيه قس مسيحي بالتنقيب عن أناجيل الأبوكريفا، ليثبت في النهاية زيف العهد الجديد، ومن ثم المسيحية. ولكنه مع ذلك يتعرض ببالغ التقدير لليهودية وأسفارها! وبينما يلمح بزيف كل المقدسات المسيحية فإنه يبدي احتراماً كبيراً للمقدسات اليهودية!! ولقد حصلت على موعد معه للتحدث في ذلك، وسأسافر بعد أسبوع إلى لندن.

- وماذا تفعل في ألمانيا حالياً؟

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) الفيلم الوثائقي موجود فعلاً، واسمه الحقيقي هو "الأناجيل المفقودة" The lost Gospels، أما القناة التي أنتجته، فهي قناة بي. بي. سي أربعة BBC F•ur. ولكنني عكست اسم القناة إلى سي بي بي، وحورت اسم الفيلم إلى الأسفار المستبعدة، لأنني أدخلت نصه في فصلين كاملين ونقدته في حواشيهما.

- لا بد أنكم قد شـــاهدتم هنا برنامج "جسد المسيح"[١] إنهم يدعون إليه قساوسة كاثوليكاً، وإنجيليين وحاخامات، ولاســـيما من "الجامعة العبرية". وفيه يقومون، باسم علم التاريخ، بتشـــويه الأناجيل، ودحض كل موقف التراث المسيحي المتعلق بالمخلص. وفي هذا البرنامج تأويلات مبنية على افتراضات، وتركيز على "إخوة الله". ولقد مللت من ذلك كله وأسعى إلى محاورة أولئك الناس.

- أنت محق. فأنا أيضاً أرى شذوذاً في التسمية، وأظنها تستحق النقد فعلاً.

- إن المعروف عند آبائنا أن هؤلاء كانوا أنســـباء للرب يســـوع، حيث لفظة "أخ" في اللغة العبرية تشـــمل ابـــن العم وابن الخال أو الخالة، ولكنهم يثيرون ذلك للتشـــكيك ببتولية مريم[٢]، كما يقدِّم الآن برنامج في المحطة نفسها عن نشأة المسيحية، الغاية منه هي تبيان أن تبشير يســـوع إنما هو حركة يهودية، وأن مسيحية يسوع يمكن اعتبارها فرقة من الفرق اليهودية حتى جاء بولس وأســـس هو (لا المسيح) المسيحية التي نحن نعرفها. وهنا أيضاً بعض المتكلمين علماء من الجامعة العبرية في أورشليم.

نظـــر أبراهام إلى أحمد، كأنه يستشـــيره في عرض حصيلـــة ما توصلا إليه في موضـــوع بولس، إلا أن أحمد الذي فهم ما يدور بخلـــد صديقه، رفع حاجبيه محذراً بسبب حساسية هذا الأمر عند متديني المسيحيين كما أوضح له سابقاً. فعاد أبراهام إلى الموضوع الذي طرحه الأب ديمتري في البداية قائلاً:

---

(١) برنامج شهير في محطة arte الفرنسية - الألمانية.

(٢) ذكرت الأناجيل المعتمدة أنه كان هناك أربعة إخوة للمسيح (مت ١٣ : ٥٥). كما ذكرت أنه كان له أخوات أيضاً. (مر ٦ : ٣) وهناك من يقول إنهم أولاد يوسف النجار من زوجة أخرى قبل أن يخطب العذراء مريم. (يذكر أن الإسلام يعرف يوسف النجار على أنه رجل صالح كفل مريم بعد وفاة زكريا، ولم يكن زوجها ولا حتى خطبها.) ولكن الذي دفع إلى المزيد من الخيال بشأن هويتهم، هو تكرر كلمة "ابنها البكر" في الكتاب المقدس عند التحدث عن ولادة أمه له.

- إن الذي تســميه ميولاً يهودية في الغرب، نعتبره نحن خطوة أخرى على طريق تهويد المسيحية يا سيدي.

- ولهذا بالذات رغبــت في التحدث إليكما. فالتعميم هنا ليس دقيقاً، وما ينطبق على كثير من الكنائس التي تعتبر نفســها مســيحية لا ينطبق بالضرورة على كنائس الأرثوذكس ذات العقيدة المستقيمة. فقد شطبت الكنيسة اللاتينية من طقوس الأسبوع المقدس جملاً تتهم اليهود بأنهم هم الذين قتلوا المســيح. وأخذ الفكر الغربي يقول إن الرومان لا اليهود هم المسؤولون عن قتل الرب، مع أن اليهود هم الذين حاكوا المؤامرة، وهم الذين اتهموه بالتجديف وساقوه إلى الوالي "بيلاطس البنطي"، وهم الذين قالوا: "اصلبه، اصلبه". وهم الذين أعلنوا أن دمه عليهم وعلى أبنائهم، وهم الذين يتفاخرون بقتله في تلمودهم وبقية كتبهم الخفية التي يســبون بها الرب يســوع بأقذع الشتائم. والأرثوذكس لا ينسون ذلك.

- ولكنهم ينسون أن السيد المسيح نفسه قد ولد يهودياً؟!

- إن الغربيين يشددون تشديداً كبيراً على أصول المسيح اليهودية في الجسد، غير أن القديس بولس الرســول يقول بوضوح: "إننا لا نعرف الآن المسيح حسب الجسد بل حسب الروح". وما يهمنا على الأكثر أنه كلمة الله المتجسد الذي يفوق كل عرق وجنس. نحن نعرفــه مخلصاً للعالم أجمع، وقد أتى إليه المؤمنون من اليهود ومن الأمم. وأكثر المسيحيين كانوا من أصل وثني، ولا علاقة لهم بشريعة موسى التي حررنا منها مجمع الرسل الذي انعقد في أورشليم.

- ومع ذلك لا أجد مفراً من التعميم، خاصة أن جميع القوى المســيحية المؤثرة في العالم تناصر اليهود وتعادي المسلمين، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة.

فتنهد الأب ديمتري بحسرة قائلاً:

- لا أدري متى يهتدي إخوتنا في الغرب إلى الرب يسوع، كما رآه آباؤنا المشتركون قبل هذه الموجة التهويدية الضالة! ولا أدري متى تميزان أنتما وبقية المسلمين، أنه لا صراع بيننا نحن المسيحيين الحقيقيين، وبين دينكما الإسلامي، الذي نكنّ له الاحترام، وأننا متوحدون معكم في حماية القيم الأخلاقية.

نظر أبراهام إلى أحمد، ليجد أنه يحاول إخفاء ابتسامته عن طريق التظاهر بتأمل السقف، فالتفت إلى الأب ديمتري وتابع حديثه معه دون أن يصحح ظنه بكونه مسلماً، بل إنه قال مجارياً له في ذلك:

- ولكن روسيا الأرثوذكسية لا تشذ كثيراً عن موقف إخوانها الغربيين في محاربة الإسلام.

- أريد أن أؤكد أن العداء على أسس دينية، أو أي شكل من أشكال العداء، ليس من طبيعة أو صفات الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا. فخلال مئات السنين تعايش ممثلو مختلف الأديان والطوائف الممثلة هناك فيما بينهم بسلام ضمن دولة واحدة، ولم يكن بينهم أي عداء على الإطلاق. حتى إن ثقافات الشعوب والقوميات من مختلف الأديان في روسيا كان يكمل بعضُها الآخرَ، لتخلق هذه الحالة الفريدة من التعايش السلمي. لهذا أكد الأب الراحل[1] "ألكسي الثاني" في أثناء لقاء موسكو الأخير الذي كنت حاضراً فيه، وجودَ رغبة لدى بعض القوى لأن يمنحوا أي خلاف صفة دينية.

- بالمناسبة، تعازينا الحارة لنياحة البطريك ألكسي الثاني.

قال أحمد، فأضاف أبراهام موافقاً:

- أجل. فقد ترك فعلاً أطيب الأثر في نفوس الجميع.

---

(١) في أثناء الحوار الصحفي الذي اقتبسنا منه هذه العبارات كان نيافة البطريك ألكسي الثاني هو البطريك الحالي لموسكو وعموم روسيا، ولكنه توفي في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨م.

- أشكركما. وقد أوضح البطريك الراحل في أثناء الاجتماع أن تلك القوى قد تكون سياسية أو من أصحاب الرساميل[١] في روسيا. وعلينا أن ندافع معاً عن مواقف أدياننا التي لم تتناحر يوماً بل يكمل بعضها بعضاً، وتعمل على تربية أتباع مختلف الديانات للعيش تحت سقف واحد بمحبة ووئام وسلام واحترام متبادل في كل المجالات. وهذا بالضبط هو موقف الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا بشكل عام، والذي يتبناه الأب "كريل" أيضاً[٢].

- إذن أنتم لا تتبنون نظرية "صراع الحضارات"؟

- مطلقاً، بل نؤكد أنه لا وجود لهذا الصراع أصلاً، لأن الحضارة المسيحية بمعناها الفكري هي حضارة الطهارة والصبر والتحمل، ولا يمكن أن تكون في موقع العداء من الحضارة الإسلامية التي تدعو الناس أيضاً إلى السلام والمحبة وتطبيق التعاليم الإلهية أي تعاليم القرآن. وما يحاولون تسميته اليوم صراع حضارات قد يكون صراعاً بين الحضارة الإسلامية وتلك الحضارة التي لم تعد مسيحية؛ التي لا تلتزم بتعاليم يوحنا ووصاياه، ولا تطبقها. هؤلاء هم من لا يستطيعون تقبل الحضارة الإسلامية وتفهمها. من هنا لا صراع بيننا وبين الإسلام، ونحن اليوم متوحدون في حماية القيم الأخلاقية والروحية الدينية. لكن إذا كان هناك صراع سياسي، وهناك من يرغب من العالم الغربي في أن يكون المسيطر والحكم في الشرق الأوسط، والمتحكم بالخليج العربي وثرواته الطبيعية، نفطاً كانت أم غازاً وغيره، فإن هذه مشكلتهم. إنها مشكلة السياسة، مشكلة التجارة، ولا يجوز مطلقاً جر تلك الاختلافات إلى الأديان، لا يجوز ربطها بهذه المشاكل السياسية والتجارية وجرها إليها.

---

(١) يقصد الأوليجاركيين. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) متروبوليت سمولنسك وكالينيغراد، الذي أصبح بطريك موسكو وعموم روسيا اعتباراً من شباط/ فبراير من ٢٠٠٩م.

- لقد قدمت من الولايات المتحدة منذ فترة قريبة، وهناك اطلعت على تقرير سنوي عن الكونغرس يتحدث عن الحريات الدينية في العالم. وفاجأني أنه يؤكد عدم وجود حرية دينية في روسيا.

- أعلم ذلك. إن هذا التقرير يعمل على إعداده مختصون يعيشون في الولايات المتحدة، ولديهم -كما أعتقد- مصادر معلومات في كل بلد. ومن خلال تجميع ما يحصلون عليه من معلومات خلال العام وتحليله، يضعون نص التقرير المذكور، طارحين فيه وجهة نظرهم وموقفهم عن الحرية الدينية في كل بلد. ولكن غالباً ما تكون الآراء ووجهات النظر التي يعرضها التقرير متناقضة مع الواقع في كل بلد.

- ما أدهشني أن ذلك التقرير يتمتع بمصداقية كبيرة، ليس في الولايات المتحدة وحدها، بل في أوربا والعالم.

- ذلك لأنهم يستغلون كل نفوذهم وإمكانياتهم في نشر هذا التقرير في وسائل الإعلام، ويوزعونه على مختلف المنظمات العاملة في مجال الدفاع عن الحريات، وعلى غيرها من المنظمات المدنية في أكثر من دولة في العالم. وهذه الدعاية المكثفة تجعل البعض يتعامل مع التقرير على أنه مصدر موثوق للمعلومات، مع أنه مجرد وثيقة مصطنعة لتصفية الحسابات، وترسيخ الرؤية الأمريكية لمعنى الحرية، دون أن تأخذ بالحسبان الصفات القومية المميزة للمجتمعات في دول يملك معظمها تاريخاً غنياً أكثر عراقة من تاريخ الولايات المتحدة التي لا يزيد عمرها على مئتي عام. أما روسيا فإن عمر المسيحية فيها يزيد على الألف عام[1]، لذا فمن الطبيعي أن يكونوا عاجزين عن فهم تلك القوانين والحقائق المتعارف عليها لدينا وإدراكها. ومن المنطقي أن نرفض من جهتنا قبول مثل هذه التقارير، ونقول لهم ادرسوا تاريخ روسيا كما يجب، أو تعالوا

(١) كانت روسيا وثنية في السابق، وقد دخلتها المسيحية بوقت متأخر نسبياً عن بقية أوربا. وتحديداً في منتصف القرن التاسع الميلادي (سنة ٨٤١م). راجع رواية الهروب إلى العاصفة، وهي الرواية الأولى من سلسلة رواية رحلة أبراهام للمؤلف.

إلى روســـيا، وتحدثوا مع أشخاص غير أولئك الذين انتدبتموهم لتزويدكم بالمعلومات، ومن ثم اعملوا على وضع تقاريركم، حتى لا تعود مجرد ضغط غير مباشـــر تمارســـه الولايات المتحدة على المستوى الديني في روسيا.

- لا تنس أن عمر المســـيحية في الأوطان الأصليـــة للمهاجرين الأوائل إلى القارة الأمريكية -وإن كان عمر الولايات المتحدة أقل بكثير من عمر روسيا- كان أطول بكثير من عمر المسيحية في روسيا.

- لا أنكر هذا. ولكن أولئك المهاجرين الأوائل كانوا بتاريخ أوطانهم الأصلية العريق في المســـيحية، يختلفون تماماً عن مســـيحية أحفادهم في المجتمع الأمريكي الحالي الذي لا تاريخ له، أو ذو التاريخ القصير في أحسن الأحوال.

- وبم يتجلى الاختلاف برأيك؟

- بأشياء كثيرة، ولكن ما يعنيكما منها كمسلمين، هو تنبههم للتأثير اليهودي.

قال هذا وهو يخرج من جيبه كتيباً صغيراً، ثم أردف قائلاً:

- لن أقول أي شـــيء من عندي، بل ســـأقرأ عليكما بعض الوثائق التي تستطيعون التأكد منها بمنتهى السهولة.

- تفضل.

- ســـأقرأ أولاً ترجمة للجزء الخاص باليهود من خطاب "بنيامين فرانكلين"[1] أمام الكونغرس:

"أيها السادة: هنالك خطر كبير يتهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا الخطر هو اليهود. ففي أي أرض يحل بها اليهود يعملون على تدني المســـتوى الأخلاقي والتجاري فيها. وعلى مدى تاريخهم الطويل ظلوا متقوقعين على أنفسهم في معزل عن الأمم التي يعيشـــون فيها، ولم يندمجوا في حضاراتها، بل كانوا يعملون دوماً على إثارة الأزمات

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

المالية[١]، وخنق اقتصادياتها كما حصل في البرتغال وإسبانيا. لأكثر من ١٧٠٠ سنة وهم يبكون على قدرهم ومصيرهم المحزن، أعني طردهم ونفيهم من وطنهم الأم. ولو أن العالم المتحضر أعاد إليهم فلسطين الآن، فإنهم على الفور سيختلقون الكثير من الأسباب والأعذار والحجج الواهية ليبرروا عدم رغبتهم في العودة إليها[٢]، لماذا؟ لأنهم "كائنات طفيلية"، والطفيليات لا تستطيع أن تتطفل على طفيليات أخرى. فهم لا يستطيعون العيش بعضهم مع بعض، مما يستدعي ضرورة وجودهم بين المسيحيين أو بين أناس من غير جنسهم. وإن لم يطردوا من الولايات المتحدة بموجب الدستور، فإنهم خلال مئة عام على الأقل من الآن، سيتوافدون إلى هذا البلد بأعداد كبيرة، وبتلك الأعداد سوف يحكموننا ويدمروننا من خلال تغيير أنظمة الحكم لدينا، التي بذلنا نحن الأمريكيين من أجل توطيدها على مر السنين الغالي والنفيس من دمائنا وأرواحنا وممتلكاتنا وحرياتنا[٣]، وإن لم يتم طردهم، فبعد مئتي سنة من الآن، سيعمل أحفادنا في الحقول ليل نهار من أجل إشباع بطونهم وجيوبهم، في حين يجلسون هم في قصورهم يفركون أيديهم فرحاً واغتباطاً بما حصدوه من غلال وأرباح. وها أنا ذا أحذركم أيها السادة؛ إن لم تطردوا اليهود من هذا البلد إلى الأبد، فإن أولادكم وأحفادكم سيلعنونكم في قبوركم[٤]، ومع أنهم يعيشون بيننا منذ أجيال، فإن مثلهم العليا ما زالت تختلف كلياً، عما يتحلى به الشعب الأمريكي من مثل؛ فالفهد الأرقط

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) هذا هو حال القسم الأكبر منهم حتى الآن، الذين فضلوا البقاء في الغرب وبالذات في الولايات المتحدة التي يعادل عدد اليهود فيها وحدها عدد كل اليهود في الكيان الصهيوني.

(٣) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٤) الذي غاب عن بنيامين فرانكلين آنذاك هو أن المستقبل سيحمل معه تطوراً هائلاً بوسائل الإعلام والدعاية والترفيه والتخدير، بحيث تقلب الباطل حقاً والحق باطلاً، وتبرر الظلم والجور وتسميه بأسماء براقة. وعليه؛ فلن يكون سهلاً على أغلب أحفاد الأمريكيين الأوائل أن يدركوا حقيقة استعبادهم، وفداحة الخطر الذي ارتكبه أجدادهم بالسكوت على تغلغل الأوليجاركيين اليهود في عمق نظامهم ومؤسساتهم.

لا يمكنه تغيير لون جلده[١]، سوف يعرضون مؤسساتنا ومقوماتنا الاجتماعية للخطر، لذلك يجب طردهم بنص من الدستور".

- يبدو أن توقعاته كانت استقراء واقعياً للمستقبل.

- أجل. وهذا قسم من خطاب "أبراهام لنكولن" للأمة، في نهاية مدته الرئاسية الأولى، وفيه استقراء أكثر دقة:

"إنني أرى في الأفق نذر أزمة تقترب شيئاً فشيئاً، وهي أزمة تثيرني وتجعلني أرتجف على سلامة بلدي. فقد أصبحت السيادة للهيئات والشركات الكبرى، وسيترتب على ذلك وصول الفساد إلى أعلى المناصب، إذ إن أصحاب رؤوس الأموال، سيعملون على إبقاء سيطرتهم على الدولة، مستخدمين في ذلك مشاعر الشعب وتحزباته. وستصبح ثروة البلاد بأكملها تحت سيطرة فئة قليلة، الأمر الذي سيؤدي إلى تحطم الجمهورية".

وكان هذا الخطاب قبل أكثر من ١٣٠ سنة، بعد أن بدأ تغلغل اليهود في أمريكا. وقد اغتيل هذا الرئيس في بداية ولايته الرئاسية الثانية[٢].

- ولكن لماذا لم تجد تحذيراتهم أذناً مصغية؟!

- إن التحذير لا يجدي نفعاً في دفع المكتوب.

قال أحمد متنهداً. فأجابه الأب ديمتري موافقاً:

- هو ما تقول يا بني.

---

(١) عبارة مقتبسة من التوراة. والحقيقة أن اليهود لم يتغيروا قط، وإنما المسيحيون هم من تغيروا! وتماهت مبادئهم ومثلهم العليا مع تلك التي لدى اليهود، منتجة ذلك الهجين الذي يسمى "الحضارة اليهومسيحية".

(٢) يلمح بذلك إلى أن الاغتيال كان لمنعه من اتخاذ أي خطوة فعالة ضد أصحاب رؤوس المال الأمريكي الذين كان جلهم من اليهود، والذين جنوا أرباحاً هائلة من وراء الحرب الأهلية. وذلك بعد أن ظهر في خطاباته تنبهه لخطرهم على الجمهورية وعزمه على التصدي لهم في دورته الرئاسية الثانية. ويذهب العديد من المحللين المرموقين إلى تأكيد هذا الافتراض بقوة.

فسأله أبراهام:

- هل لي أن أسـألك عن موقف الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من الصراع العربي الإسرائيلي؟

- لقـد كانت هنـاك مواقف واضحة ومحددة جاءت عبـر تصريحات البطريرك الراحل ألكسي الثاني بضرورة الوقف الفوري لهدر الدماء في الشرق الأوسط، والدعوة إلى السـلام في الأراضي المقدسة. وقد عبر الأب ألكسي غير مرة عن دعمه للشعب الفلسطيني، وأشار إلى أن ما تقوم به إسرائيل هناك ليس عادلاً ولا قانونياً، بل مناف للتعاليم الإلهية، وللأعراف والقوانين.

- هل تعرف أنه مع أنني ولدت في روسيا وعشت فيها حياتي كلها باستثناء القسم الأكبر من السـنتين الماضيتين، ومع أنني تحدثت مع قساوسـة من مختلف الطوائف المسـيحية، إلا أن هـذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها مـع رجل دين من الطائفة البرفاسلافية (الأرثوذكسية الروسية).

- وكيف وجدت ذلك؟!

- وجدت أنكم أقرب إلى الحق من غيركم، وأنكم تسـتحقون لقب البرفاسلافية أو الأرثوذكسـية التي تعني الرأي القويم، وتعني التمسك، قدر الإمكان، بالعقيدة القديمة ورفض المحدثات.

- دعني أحزر، أنت سلفي، أليس كذلك[1]؟

نظر أبراهام بدهشـة إلى أحمد، الذي كان أيضاً مندهشاً بدوره. ثم عاد والتفت إلى الأب ديمتري ثانية، وسأله مستوضحاً:

- ما الذي يجعلك تظن ذلك يا سيدي.

- لأن ما قلته يعني أنك أرثوذكسي أيضاً، وإذ إنك لست يهودياً بالتأكيد، فلابد أن تكون أرثوذكسياً مسلماً، أي سلفياً. الأمر بغاية البساطة كما ترى.

(١) في الكليات اللاهوتية، يدرسون عادة نبذة عن الفقه والمذاهب الإسلامية المتعددة.

- في الحقيقة، أنا أرثوذكسي حقاً، ولكني أرثوذكسي يهودي.

- يهودي!!! أنت؟؟؟

- مفاجأة، أليس كذلك؟

- في الحقيقة أجل، وماذا عنك أنت يا بني.

- أما أنا فمسلم أرثوذكسي فعلاً، هذا إن جاز تعبيرك.

أجاب أحمد مبتسماً، فقال الأب ديمتري:

- إذن فعلى هذه الطاولة يجلس الآن ثلاثة أرثوذكسيين من الديانات الإبراهيمية الثلاث. أليس هذا أمراً يستحق الاحتفال؟

ثم أردف موجهاً كلامه إلى أحمد:

- هل تمانع ببعض الخمر للاحتفال بذلك، فقليل من الخمر تنعش القلب[1]؟

- في الحقيقة أجل؛ لأن ما أسكر كثيره، فقليله حرام أيضاً وفق ديني.

- إذن سيكون الاحتفال عن طريق دعوتكما إلى العشاء. فمع أن هذا المقهى لا يعتبر مطعماً بالمعنى التقليدي، إلا أن أطباقه شهية جداً، على بساطتها. والأهم من ذلك أنني دخلت مطبخهم، وأستطيع أن أضمن نظافته تماماً.

- موافقون شرط أن تسمح لنا بأن تكون الدعوة على حسابنا؛ فلا تنس أنك على طاولتنا.

---

(١) عبارة مقتبسة من الإنجيل. ويجدر التنبيه هنا أن الدكتورة "سارة لويس" Sarah Lewis من قسم الطب الاجتماعي في جامعة بريستول قد أجرت دراسة خلصت منها إلى تأكيد وجود علاقة قوية بين تناول الخمر وبين ارتفاع ضغط الدم، وقالت: إن شرب الخمر يؤثر على ضغط الدم أكثر بكثير مما كنا نتصور سابقاً، حتى لو شرب الإنسان الخمر بكميات قليلة. ويؤكد الباحثون أن الإنسان إذا تناول الخمر ولو كمية قليلة منه ثم تركه، فسيتبقى في جسده كمية من الخمر لا تزول إلا بعد عشرات الأيام، ولم يحدد الباحثون بالضبط كم يبقى الخمر في خلايا الإنسان بعد تناوله، ولا توجد دراسات دقيقة حول ذلك، ولكن النبي # أخبرنا بأن شارب الخمر لا يقبل الله له صلاة أربعين يوماً!!! فسبحان الله! كأن النبي الكريم يريد منا أن تكون كل خلية من خلايا جسدنا طاهرة نقية لنتوجه إلى الله في صلاتنا فيقبل دعاءنا.

- أقدر كرمكما، ويشـــرفني قبول الدعوة في وقت آخر، ولكنني سبقتكم بالعرض اليوم.

- لم نبدأ بالنقاش بعد، وها نحن أولاء نختلف.

فعلق أبراهام قائلاً:

- ليت كل الخلاف كهذا. ما رأيكم بأن يحاســـب كل منا عن طلباته؛ فمع أننا كلنا شرقيون وأرثوذكس هنا، إلا أن بعض الطرق الغربية لن تزعجنا كثيراً. أليس كذلك؟

بعد الانتهاء من تناول الطعام، جلس الثلاثة يشـــربون الشـــاي ويتبادلون أطراف الحديـــث بعيداً عن الدين، إلى أن أعادهم أبراهام إليه دون أن يدري؛ وذلك حين بدر منه تعليق لاذع بحق اليهود. فبادره الأب ديمتري متسائلاً:

- هل أكون متطفلاً على شؤونك الشخصية يا بني إذا ما طلبت منك توضيح بعض الأمور؟

- أستطيع أن أخمن ما الذي تعنيه يا سيدي.

- إذن؟

- إذن؟

- ما ردك؟

- وما سؤالك؟

فقال الأب ديمتري ضاحكاً:

- لم يعد هناك داع لطرح ســـؤالي، فاتباعك لهذا الأسلوب في المراوغة يجيب عنه بأنك يهودي فعلاً.

فضحك الجميع معه. ثم أردف الأب ديمتري قائلاً:

- الآن دعونا من المزاح ولنتكلم بجدية.

ثم التفت إلى أحمد قائلاً:

- إن حديثه يعجبني كثيراً. ولكنه يقلقني في الوقت ذاته، فهو يعرف نفسه كيهودي، ولكنه يتحدث عن اليهود كأنه ليس منهم.

فقال أبراهام:

- أنا فعلاً لا أنتمي إلى أولئك اليهود الذين أتحدث عنهم.

- هل كفرت باليهودية؟!

- مع أنني لم أعد أؤمن باليهودية الحالية، وشبه متأكد من نسخها، إلا أنني لا أريد أن أكون بلا دين، لذلك لا أزال أمارس الشعائر اليهودية الأساسية، التي لا تحتمل التأويل، وسأبقى كذلك حتى أصل إلى دين الرب الحق. وإن كان سؤالك عن كفري بتحريفات الرابيين على دين الرب، فالإجابة قطعاً هي أجل. أما إذا كان سؤالك عن كفري برب إسرائيل وتعاليمه التي لا يتطرق الشك إلى كونها منه، فالإجابة هي قطعاً كلا.

- أي إنك أصبحت "حنيفاً" على ملة إبراهيم عليه السلام.

قال أحمد معلقاً، فالتفت إليه أبراهام مبتسماً، وبعد بعض التفكير قال سارحاً:

- أتمنى أن ينطبق هذا الوصف علي فعلاً.

- أدعو الله عز وجل أن ينطبق عليك، إلى أن تهتدي إلى شريعته الخاتمة.

فقال الأب ديمتري غامزاً:

- بغض النظر عن التلميح المبطن في دعائك، والمعنى الذي تقصده، فسأكون سعيداً بالتأمين على ظاهره الحرفي، وظاهره فقط (آمين).

- آمين.

ردد أبراهام، فقال أحمد موضحاً:

- أنا لا ألمح، بل أصرح بأن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام هي الحق، وأنها خاتمة الشرائع، وأتمنى أن يهتدي أبراهام وجميع الناس إليها، لذا فظاهر دعائي

كباطنه فعلاً. ولكنني، وفي الوقت نفسه، لا أسمح لنفسي بممارسة نشاط دعوي معه، أو حتى بمجرد محاولة التأثيـــر عليه هو بالذات؛ لأنني أعلم أكاديميته ومنطقيته في البحث عن الحقيقة، ومتأكد أنه سيصل إن شاء الله إلى الدين الحق بجهده الشخصي، وباقتناع تام. كما أتفهم أن سيادتك مؤمن بأن المسيحية على طائفتك بالذات هي الحق وأنها الشريعة الخاتمة، وأحترم حق أي فرد باعتبار دينه كذلك، ما دام لا يحاول فرض رأيه على الآخرين. والله ســبحانه وتعالى ســيفصل بيننا يوم القيامة فيما نحن فيه مختلفون، ولكن اختلافنا لا يجب أن يفسد ودية لقائنا.

- أوافقك تماماً، وأتوقع المثل منك يا أبانا.

- اطمئن، فأنا أيضاً كأحمد، مقتنع بأن ديني هو الحق، وأتمنى مخلصاً أن تهتدي إلى الأرثوذكسية المسيحية، ما دمت تبحث عن الحقيقة. ولكنني لن أمارس معك نشاطاً تبشيرياً، ولن أحاول التأثير عليك، وسأحرص على ألا يفسد اختلافنا الود الذي بيننا.

- هذا رائع. إذن فلنحـــاول أن نجري حواراً هادفاً، وبعيداً عن التعصب، أو فرض المعتقد.

- بكل سرور.

بدعة أم أساس؟

افتتح أبراهام الحوار قائلاً:

- الأب ديمتري، قلت قبل قليل إن المهاجرين الأوائل لأمريكا كانوا، بتاريخ أوطانهم الأصلية العريق في المسيحية، يختلفون تماماً عن مسيحية أحفادهم في المجتمع الأمريكي الحالي. وأنا أتفق معك في ذلك إلى أبعد مما تتصور، فما رأيك أن نجعل موضوع أصل مسيحية المستوطنين الأمريكيين الأوائل هي فاتحة حوارنا؟

- تقصد من جهة تنبههم للخطر اليهودي؟!

- كلا، فقد تحدثنا عن ذلك قبل قليل.

ثم أردف غامزاً:

- يبدو أن الجميع هنا ضد اليهود.

فضحك الثلاثة، ثم سأله الأب ديمتري مستفسراً:

- وماذا قصدت إذن؟

- قصدت الأصول الدينية لأغلبية أولئك المهاجرين.

- تريد أن نتحدث عن البروتستانتية، وانشقاقها عن الكاثوليكية. حسناً، لا مانع عندي.

- لا تكن واثقاً من أن البروتستانت كانوا الأغلبية المطلقة من المستوطنين الأوائل يا سيدي؛ فقد أُهملت طائفة أخرى كانت أكثر منها أهمية بشكل كبير.

- ولكن الأقليات هناك، بما فيها الكاثوليكية نفسها، لم تؤثر في تكوين المجتمع الأمريكي الأول.

- أولاً: تلك الطائفة التي أعنيها لم تكن أقلية، وثانياً: لقد كان لها أهمية عقائدية، وعراقة تاريخية، وتأثير كبير على صياغة الدستور الأمريكي، وكان منها خمسة من رؤساء الولايات المتحدة، وكان للكاثوليك رئيس واحد فقط. هذا بالإضافة إلى استمرار حضورها الثقافي والسياسي في الساحة الأمريكية حتى الآن، فهم يمثلون الدين النقيض للأصولية المتطرفة، لأنهم في الجملة محسوبون على التيار الليبرالي الذي لا يرى صراع الحضارات حتمياً، ويرفض المشروع الصليبي المسمى "الحرب على الإرهاب".

فقال الأب ديمتري:

- حسناً، لقد نجحت في إثارة فضولنا، فما هي تلك الطائفة؟

فقال أحمد باسماً:

- ألم تحزر بعد يا سيدي؟! إنه يتحدث عن طائفة الموحدين المسيحيين.

- التوحيديون ذوو الأصول الأريوسية؟!!! هؤلاء ليسوا مسيحيين أصلاً.

قال الأب ديمتري بعصبية، فرد أبراهام مستنكراً:

- تخرجهم من تبعية السيد المسيح، فقط لأنهم يعتقدون أن الرب واحد، وأن المسيح بشر ورسول الرب، ويرفضون التثليث، ويعلنون براءتهم مما أحدثه بولس وأتباعه في المسيحية؟!

- أليس كل هذا كافياً؟!!!

- لقد اتفقنا على أن نضع التعصب، ومحاولة فرض المعتقد جانباً، ونتحدث بموضوعية أكاديمية متجردة! وكما تعلم فأنا لست منهم، ولا مصلحة شخصية لي بالدفاع عنهم أو تبني وجهات نظرهم. كل ما في الموضوع أنني عرفتهم مصادفة عندما كنت في الولايات المتحدة، وأريد الاستفادة من خبراتكما في محاولة وضعهم تحت المجهر، وإخضاعهم للبحث.

- ولكن الأريوسيين انتهوا بنهاية القرن الرابع الميلادي، والشراذم القليلة التي بقيت منهم كانت على مر التاريخ قلة هامشية لا يحسب لها حساب، وليس لهم أي تأثير يذكر.

هنا تدخل أحمد مصححاً:

- كلا يا سيدي؛ فالتاريخ يشهد على ازدهار ممالك وشعوب كاملة كانت على التوحيد حتى نهاية القرون الوسطى رغم الحروب الضروس التي شنتها عليها الكنيسة والإمبراطورية الرومانيتان، ثم الفرنجة لاحقاً[١].

- دعونا لا نقفز من موضوع إلى آخر دون ترتيب، ولنبحث الموضوع من بداياته.

اقترح أبراهام مقاطعاً، فقال الأب ديمتري:

- فليكن. من أين تريد أن نبدأ؟

- من الموحد المسيحي الأشهر في التاريخ؛ أريوس. فماذا تعرف عنه وعن تعاليمه[٢]؟

- في بداية القرن الرابع كان يعيش في إسكندرية مصر كاهن فيلسوف ومعلم مقتدر يدعى أريوس[٣] وكان هذا الكاهن الفيلسوف قد أفلح في إشاعة الفكر المسيحي بين عامة الشعب في تعابير ومصطلحات فلسفية، إلا أنه في الوقت نفسه أدخل إلى اللاهوت النهج العقلاني الذي كان قد تسرب إلى مسيحيي الإمبراطورية في الشرق والغرب. كما أنه استخدم، في عرض الإيمان المسيحي وتفسيره، المناهج الفلسفية

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك بعد قليل.

(٢) الكلام الذي سيأتي في الصفحات القادمة على لسان الأب ديمتري عن أريوس وتعاليمه، مقتبس من كتاب "لله الخالق" للمطران "كيرلس سليم بسترس". ومع أن المطران كيرلس كاثوليكي كما يبدو من كتاباته التي وصلتني، والأب ديمتري أرثوذكسي، إلا أنه لا يوجد خلاف يذكر بين الكنيستين حول هذا الموضوع بالذات.

(٣) أريوس(٢٥٦-٣٣٦م) وهو من المشهود لهم بالصلابة أيام الاضطهاد الكبير الذي قاده "ديوكلسيان" ومن تبعوه، ذلك الاضطهاد الذي بدأ عام ٣٠٣م وانتهى بفوز قسطنطين، وتلاه صدور مرسوم التسامح عام ٣١١ كما سنرى لاحقاً.

اليونانية التي كانت آنذاك قد اجتاحت الأوساط المسيحية[١]، وبدأت تنخر قلب الكنيسة. تخرج أريوس في مدرسة أنطاكية الشهيرة، واقتبس من أساليب مؤسسها "لوقيانوس" الذي رأى فيه "الاسكندروس" أسقف الإسكندرية باعث "العقلانية الأريوسية". لقد أخذ أريوس عن لوقيانوس، إلا أنه فاق معلمه فصاحة في الجدل واتساعاً في النفوذ. فبتأثير من أريوس ومن مدارس التعليم الديني في أنطاكية والإسكندرية، انتشرت المناقشات والمجادلات الفلسفية بين الأساقفة والكهنة وعامة الشعب، وسيطرت على الجميع الرغبة في عرض أسرار الديانة المسيحية عرضاً عقلياً. إن الغيرة والمحبة لوحي المسيح تحملان المسيحيين على أن "يكونوا دوماً مستعدين ليجيبوا كل من يسألهم حجة عن الرجاء الذي فيهم"، حسب قول القديس بطرس الرسول(١ بط ٣: ١٥). لكن بعضاً منهم، من أمثال أريوس، ذهبوا بعيداً في هذا الميدان حتى طغى العقل عندهم على الإيمان. لقد حاولوا أن يفسروا تفسيراً عقلياً ما يفوق قدرة العقل البشري، فتقلص الوحي الإلهي عندهم إلى أفكار بشرية محضة، لذا ضلوا وتاهوا في الهرطقة.

- هل تعتبر توحيد الله هرطقة[٢]؟

---

(١) في الحقيقة، كان أريوس ضد تلك المناهج الفلسفية، بل كان خصومه بالذات هم من يلجؤون إليها كما سنرى بعد قليل.

(٢) تستخدم كلمة هرطقة حالياً بمعنى زندقة أو ابتداع في الدين، راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف. وأصل الكلمة ومعناها هو من الكلمة اليونانية القديمة αἵρεσις "ايرسيس" (أصلها من αἱρέομαι "ايريوماي" بمعنى "يختار")، وهو ما يعني إما اختياراً مغايراً في العقيدة أو نحلة من المؤمنين. وكان إيريناوس هو من أعطى الكلمة زخمها المعروفة به حاليا في مؤلفه الشهير Contra Haerese "ضد الهرطقات" الذي فند فيه آراء مناوئيه واصفاً نفسه بالأرثوذكسي (أي صاحب العقيدة الصحيحة). ثم تطور موقفه ليصبح في النهاية (بعد التعديل) هو موقف الكنيسة الرسمية الناشئة التي اعتبرت نفسها أرثوذكسية، ورمت كل من يخالف تفسيرها لـ "لاهوت السيد المسيح" بتهمة الهرطقة، وكان العقاب على الأغلب هو الحرق والإبادة، سواءً للكتابات أو حتى للأشخاص المتهمين بالهرطقة.

- إن المسيحيين واليهود والمسلمين قد أكدوا على الدوام وحدانية الله. فاليهودية تعلن: "اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا هو رب واحد، وإله واحد"(تثنية ٦: ٤). والإسلام يشهد: "الله أكبر! لا إله إلا الله". والمسيحيون يعترفون: "نؤمن بإله واحد". فالديانات الثلاث تعلم إذاً العقيدة نفسها في وحدانية الله. فالله فيها كلها هو واحد، وما من إله آخر سواه، إلا أن وحدانية الله في الإيمان المسيحي تختلف عما هي عليه في اليهودية والإسلام. فالعقيدة الجوهرية في المسيحية هي الإيمان، ليس بوحدانية الله وحسب، بل بوحدة ثلاثة أقانيم في الله، ولما بلغ وحي الثالوث كماله في وعي الكنيسة، حاول المسيحيون تفسير التناقض الظاهر بين تأكيد وحدانية الله والاعتراف بالأقانيم الثلاثة، الآب والابن والروح القدس. وكان جل اهتمام المسيحيين في بداية القرن الرابع تبيين الانسجام بين الوحدانية والثالوث.

- كيف يمكن التوفيق بين ١ و٣ واعتبارهما شيئاً واحداً؟!!!

- أنت محق، فبالاقتصار على استخدام مفاهيم الفلسفة البشرية لم يكن من سبيل منطقي يمكن من القول: "إن الله واحد، وفي الوقت نفسه آب وابن وروح قدس" كما تقول المسيحية، وكان أريوس يقبل المبدأ القائل أن الله واحد في ثلاثة أقانيم، آب وابن وروح قدس[١]، غير أن تفكيره الفلسفي العقلي قاده إلى القول أنه، من بين الأقانيم الثلاثة في الله، الآب وحده هو حقاً وجوهرياً إله منذ الأزل، أما الابن فليس إلهاً ولا الروح هو إله. ويزعم أريوس أنه كان وقت وجد فيه الآب وحده. ويعترف كذلك أن الابن هو "قبل كل الدهور"[٢]، ويعتقد أنه أعظم من كل خليقة مادية وغير مادية، لكنه يعتبره خليقة محضاً. "ويضيف أنه قد يصح القول عن الابن أنه إلهي وفي صورة الآب، ولكن لا يجوز القول إنه "من جوهر الآب"؛ فالابن مختلف في جوهره عن الآب، لذلك لم يكن المسيح إلهاً حقاً، بل

---

(١) هذا عار من الصحة تماماً كما سنرى من حديثه هو نفسه بعد هذا مباشرة، ومن بقية الأدلة التي سنسوقها تباعاً.

(٢) لا يوجد دليل على أن أريوس كان يعتقد ذلك فعلاً كما سنرى بعد قليل.

إنه مخلوق ومن صنع الآب. ويتابع أريوس تفسيره: بالتأكيد أنه عندما نقول إن المسيح هو ابن الله، فإننا لا نعني البنوة بالمعنى الحقيقي الكياني، بل بالمعنى المجازي الأدبي، وينتج من ذلك، في رأي أريوس وأتباعه، أن المسيح غير مساو للآب؛ فهو ليس إلهاً من إله، إنما هو فقط من أصل إلهي[1]، إلا أن كونه من أصل إلهي يعطيه مركزاً رفيعاً لدى الآب. فهو الوسيط بين الآب والخلائق، وهو أيضاً الوسيط في الخلق. وهو الذي، في لحظة من الأزل، خلق الروح القدس، فكما أن الابن هو صنع الآب، كذلك الروح القدس

---

(١) نجد في هذه الأيام بعض القساوسة يقولون في معرض ردهم على المسلمين أن أريوس كان مؤمناً بلاهوت المسيح!!! الغريب أن أغلب المصادر المسيحية المعتبرة كانت ضد هذا الطرح. ونبدأ بكلمة البابا "شنوده الثالث" عندما أكد أن أريوس كان ينكر لاهوت المسيح ويعتبره مخلوقاً ولا يصل إلى درجة الألوهية أو درجة الآب ولا مساوياً للآب، ونفس هذا الكلام أكده القمص "كيرلس الأنطوني"، وأيضاً القمص "مينا جاد" كاهن بمدينة إسنا، وكذلك الدكتور القس "حنا الخضري". وأيضاً الآب "فاضل سيداروس" الذي قال: "لا يشك أريوس في ناسوت المسيح بل في ألوهيته متسائلاً: هل من المعقول أن يكون هذا الإنسان الذي تألم ومات، إلهاً؟ ولكن هناك فرقاً بين أريوس ومن شك من قبله في لاهوت المسيح: فالاعتراف بألوهية المسيح يخالف في نظره توحيد الله وهذا ما لا يقبله اليهود واليونانيون(!!!) فلا يمكن اعتبار المسيح إلهاً لشدة إيمان أريوس بتسامي الله وتعاليمه وتوحيده فلا يمكن لأي إنسان أن يكون الله لأن الله واحد متعال جداً". وقد أورد الأخ "معاذ عليان" (جزاه الله خيراً) صوراً فوتوغرافية لتلك المقاطع كما جاءت في كتبهم. ويجدها من يرغب في الاطلاع عليها في:
(http://www.horras.net/vb/archive/index.php/t-12103.html.
حراس العقيدة ‹ الإسلام والنصرانية ‹ النصرانية (مواضيع عامة) ‹ هل آمن أريوس بلاهوت يسوع؟ رداً على القس بسيط (القس عبد المسيح بسيط أبو الخير راعي كنيسة العذراء بمسطرد)- مراجع مسيحية مصورة).
حتى زكريا بطرس الذي لم يتوانَ مرات عديدة عن تحوير الحقائق والالتفاف عليها أو إخفائها، كتب قبل انتشار هذه الموضة قائلاً: "نادى أريوس بتعاليم مخالفة للعقيدة المسيحية. فالمسيحية تؤمن بأن الله واحد في جوهره مثلث الأقانيم (الآب والابن والروح القدس إله واحد) فالابن من ذات جوهر الله أي أنه مولود منه ولادة جوهرية كولادة النور من النار(!!!) وقد ظهر الله في جسد المسيح (١تي٣: ١٦). أما أريوس فقد نادى بتعاليم منافية للعقيدة منكراً لاهوت المسيح وأنه لم يكن إلهاً بل هو مجرد إنسان مخلوق. فكان نتيجة هذا التعليم أن حدث انشقاق وبلبلة هددت وحدة المسيحية" (تاريخ انشقاق الكنائس، للقمص زكريا بطرس، ص ٦).

هو صنع الابن[١]. تلك بإيجاز تعاليم الأريوسية. وقد نشر أريوس وأتباعه أفكارهم في كل مكان بالمناقشات الفلسفية العلنية، ولاسيما بالترانيم الشعبية، بحيث أنه في نهاية القرن الرابع أفاقت الكنيسة المسيحية في الشرق والغرب من كابوس المجادلات الفلسفية وإنشاد الترانيم الهرطوقية لتجد نفسها على شفير الأريوسية.

- وأنت يا أحمد. ماذا تقول في أريوس وتعاليمه؟

- في البداية أود أن أحيي سيادة الأب ديمتري على حياده وموضوعيته في الشق الأول من إجابته. فقد قرأت الكثير عن أريوس في المصادر الكنسية الحالية، ولم أجد تقديماً لأريوس بن أصفانوس بهذا الحياد الذي يقترب كثيراً مما كتب عنه في عصره[٢]، فمعظمهم حالياً ينقصونه حقه، وكثير منهم ينعته بأقذر الشتائم. أما عما يدعيه الأب ديمتري من أن أريوس كان يقبل المبدأ القائل أن الله واحد في ثلاثة أقانيم، وأنه يؤمن أن المسيح عليه السلام كان إلهياً، وأنه خلق الروح القدس؛ فهذا عار من الصحة تماماً، كما أنه ليس منطقياً البتة. فما أكسب ذلك القس الليبي المولد شهرته التي طبقت الآفاق آنذاك، هو أنه كان يحارب بدعة "سابيليوس"[٣] المؤله، وعقيدة أزلية المسيح وانبثاق جوهره من الله تعالى. وكان أريوس قد فند كل ذلك

---

(١) وهذا أيضاً ليس صحيحاً، كما سنرى بعد قليل. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أغلب هذه المعلومات مأخوذة من ردود آباء الكنيسة الرسمية على "هرطقة" أريوس، وليس من كلام أريوس نفسه، ولا من كلام أنصاره الذين دافعوا عنه، وبينوا زيف تلك الآراء المنسوبة إليه. وسوف نتطرق إلى كل هؤلاء في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى.

(٢) وقد أنصفه مؤرخ كنسي آخر بقوله: "كان أريوس... طويل القامة، نحيل الجسم، مكتئب المظهر، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش. وكان معروفاً بأنه من الزهاد، كما يستدل على ذلك من ملبسه (وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عباءة) وكانت طريقته في الحديث ظريفة، وخطبه مقنعة. وكانت العذارى اللاتي نذرن أنفسهن للدين، وهن كثيرات في الإسكندرية، يبجلنه أعظم التبجيل. وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين". وقال آخر: "لُقب برشيد قومه، وهو أكبر تلامذة "مار بطرس" بطريك الإسكندرية".

(٣) ظهر في روما أوائل القرن الثالث.

بالتفصيـــل في عظاتـــه البليغة، وأثبت بمختلف الأدلة زيف تلـــك الآراء الدخيلة على المسيحية وأكد حقيقة بشرية المســـيح عليه السلام[١]، وهذا بالذات هو سبب حظوته لدى أغلب أساقفة الشرق باعتباره أحد أفصح المدافعين عن الإيمان والمحاربين للبدع، وهذا هو ســـبب ترقياته المتتالية[٢]، على زهده وتقشفه وصغر عمره باعتراف الجميع. فكيف يمكن بعد ذلك أن نصدق بأنه قد آمن بأن المســـيح خالق، أو أنه حتى من أصل إلهي مشابه لله تعالى والعياذ بالله؟!!!

فرد الأب ديمتري مقاطعاً:

- ولكن هذا ما جاء في شهادته هو نفسه في مجمع نيقية، حيث قال في المناظرة التي دارت بينه وبين البطريك "الإسكندروس" بمحضر قسطنطين الأول، أن المسيح هو ابن الله، وأنه خالق كل المخلوقات. ولكنه ليس واحداً معه في الجوهر، إنما مشابه له، وأنه والروح القدس وسيطان بينه وبين العالم.

---

(١) إذا كان الله والمسيح موجودين منذ الأزل ومتساويين في الجوهر، سبحان الله عما يصفون، فكيف يكون أحدهما أباً للآخر، فالأب لابد أنه قد كان قبل أن يكون الابن، وبدهي أنه لا يتساوى معه أيضاً، وإلا بطل معنى الأبوة والبنوة، بل والرسالة أيضاً؛ فالمرسل لا يساوي الرسول.

(٢) سيم أريوس شماساً من قبل بطريك الإسكندرية الشهير بطرس(٣٠٠-٣١٠) ثم سامه البطريك أخيليانس(٣١١-٣١٢) كاهناً أوَّلَ على الإسكندرية. وعندما جلس الأسقف الجديد الإسكندروس على كرسي بطركية الإسكندرية عام ٣١٣م، كان في البداية معجباً بصلاح أريوس، ووصفه بالطهر والتقشف، والبلاغة، ولطف المعشر. كما أن أريوس "عمل على تأييد انتخاب الإسكندروس أسقفاً للإسكندرية خلفاً لأخيلاس، بما تمتع فيه من شأن كبير في المدينة نتيجة ثقافته وصفاته الشخصية" (الأريوسية للبروفسور ب.ك خريستو أستاذ الآباء بجامعة تسالونيكي باليونان) لهذا فإن اندلاع المجادلات بينهما لاحقاً هو أمر يكتنفه الغموض بسبب ما نجده من روايات متناقضة. المهم أن الإسكندروس طرد أريوس من الكنيسة أخيراً، وعزل بعض المشايخ والشمامسة والراهبات من الإسكندرية، وبعض المطارنة من ليبيا. لكن هذا الإجراء لم يسكت أريوس، خاصة أنه قد جاءه دعم من كثير من الأساقفة الكبار، وبالذات "أوسابيوس" أسقف نيقوميديا. وبعد أن رجحت كفة أريوس وعضده كل أساقفة الشرق، عاد ليستأنف عمله بالإسكندرية رغماً عن الإسكندروس. وبدأت بسبب ذلك أزمة كبرى، لا تزال انعكاساتها مستمرة إلى الآن.

- إن مجمع نيقية غير موثق أصلاً، وقوانينه مفقودة لأنه ألغي لاحقاً[١] بمجامع أخرى[٢]، وكل ما جاء عنه هو من أقوال المتأخرين، وما تفضلت به هو بعض ما ورد في كتابات آباء الكنيسة الرسمية، إلا أن جميع المصادر الأخرى تؤكد، دون أي خلاف، أن أريوس أنكر لاهوت سيدنا المسيح عليه السلام تماماً، كما أنكر بنوته لله عز وجل، وبدهي أنه أنكر أنه خالق.

- ولكن هناك مصادر إسلامية ذكرت ذلك أيضاً، كـ"الملل والنحل للشهرستاني" و"المواعظ والاعتبار للمقريزي".

- لقد كان ذلك استشهاداً بالمصادر الكنسية، كما استشهد هذان الكتابان بمصادر كنسية أخرى تثبت العكس، فلم أهملتها؟!!! فقد ذكرا مناظرات أوسانيوس مع "أثناسيوس"[٣] التي آلت إلى ضربه وفراره لأنه دافع عن تهمهم بحق أريوس قائلاً: "إنه لم يقل أن المسيح خلق الأشياء، وإنما قال إنه كلمة الله التي بها (بالكلمة) خلق السموات والأراضي". فقد خلق الله تعالى جميع الأشياء بكلمته (كن فيكون). كما أن هناك مصادر أخرى غير كنسية أكدت ذلك. فـ"ابن خلدون" نقل في تاريخه صفحات طويلة من كتاب لمؤرخ روماني قريب العهد من فترة الصراع بين بطريك الإسكندرية وأريوس، ويؤكد توحيد أريوس الكامل لله عز وجل. كما أشار ابن حزم، رائد علم

---

(١) فقدت محاضر جلسات مجمع نيقية بعد إلغائه، ولكن بعد إعادة العمل به ثانية، صدر ٨٤ قانوناً نسبت إليه من خلال كتابات بعض الآباء. وقد تبادل الكاثوليك والأرثوذكس تهم التزوير والتحريف لتلك القوانين المنسوبة؛ فالأرثوذكس لا يعترفون إلا بصحة عشرين قانوناً منها، ويؤكدون أن الكاثوليك زوروا ٦٤ قانوناً (خاصة القوانين ٣٧، ٤٢، ٤٤)، وتلك القوانين تعطي سلطات كهنوتية واسعة لكنيسة رومه على بقية الكنائس. كما يؤكدون أنهم أثبتوا عليهم التزوير الديني في عملية مخجلة على حسب تعبيراتهم، وذلك إبان أعمال مجمع قرطاجنة ٤١٨م. ومازال الصراع مستمراً.

(٢) سيأتي تفصيل هذا بعد قليل.

(٣) البابا أثناسيوس الإسكندري ٣٢٦- ٣٧٣م، وقد كان آنذاك شماساً، ومع ذلك سمح له بالحديث بموافقة قسطنطين نفسه، فكان له أكبر الأثر في صياغة، ومن ثم تثبيت، المعتقد النيقاوي في المسيحية الحالية كما سيمر معنا بعد قليل.

مقارنـــة الأديان في عصـــره بلا منازع، في كتابه "الفصل فـــي الملل والأهواء والنحل" (٤٨/١) إلى موضوع اللبس قائلاً: "منهم أصحاب أريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى، التي بها خلق الســموات والأرض". وذلك لا يعني أن سيدنا المسيح الذي هو كلمة الله، قد خلق السموات والأرض بنفسه.

- وماذا عن قصيدة أريوس الشعرية "تاللا"[١]؟!

- تلك القصيدة قد أحرقت منذ قرون عديدة ولم يبقَ منها أي أثر. وإعادة تكوينها المتأخر، قد أُســس أصلاً على اقتباســات من مؤلفات لمعارضي أريوس[٢]، فهي لذلك كانت مشــوهة بشكل كبير، وموضحة بشكل خاطئ تماماً. كما أن الاضطهاد الذي نال الأريوسيين وشوه تاريخهم، وطمس كثيراً من معالمه، وحرق كتبهم وعاقب بالإعدام من يخفيها، قد أوقع خلطاً كبيراً بينهم وبين غيرهم من الفرق المنشقة عن الكنيسة الملكية الرومانية التي سمتهم جميعاً بالهراطقة.

فقال أبراهام متدخلاً:

- حســناً، ليس هدفنا هو الفصل بين مفهوم الكنيســة للتوحيد الأريوسي، وبين مفهوم الآخرين له، ما يهمنا هو مفهوم الأريوسيين أنفسهم للتوحيد.

- يصف العالم "المهتدي الحسن بن أيوب" أحد علماء القرن الرابع الهجري، مفهومهم للتوحيد بقوله: "وجدت صنفاً منهم (من النصارى) يعرفون بالأريوســية يجردون توحيد الله، ويعترفون بعبودية المســيح عليه السلام، ولا يقولون فيه شيئاً مما يقوله النصارى

---

(١) Thalla وتعني "المائدة"، وهو كتاب يحوي ترانيم دينية ألفه أريوس في معرض رده على المحدثات، في محاولة لترسيخ المفهوم النصراني الصحيح من وجهة نظره.

(٢) أورد أثناسيوس بعض النصوص المختارة من هذا الكتاب في معرض انتقاده له في كتابه "ضد الأريوسيين" (١ : ٥-٦). ووصفها بالقصائد، وأنها قد دبجت "بلهجة ونغمة داعرة"!!! مع أن أريوس كان مشهوراً بالزهد والوقار وحسن السمعة باعتراف أغلب أعدائه أنفسهم.

من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرهما. وهم متمسكون بإنجيل المسيح، مقرون بما جاء به تلامذته والحاملون عنه". ويعزو المؤرخون من شرقيين وغربيين سرعة انتشار الإسلام في الأندلس عندما فتحها طارق بن زياد عام ٩٢هـ الموافق لـ ٧١١ ميلادية، إلى أنهم كانوا في الأصل على التوحيد، أي أن "الإسلام جاء مصدقاً لما معهم".

فقال أبراهام موجهاً كلامه للأب ديمتري:

- حسناً، بافتراض أن ما تقوله، عن اعتراف أريوس بالأقانيم، وإيمانه بأن يسوع إلهي وخالق، هو صحيح تماماً، فلماذا إذن حاربت الكنيسة الرسمية تعاليمه بهذه الضراوة المنقطعة النظير فور نشوئها وفي مجمعها الأول؟!!!

- لأنه كان لتلك التعاليم نتائج خطيرة، فهي تهدم كل ما أوحى الله به إلينا عن حياة الثالوث فيه[1]، وتنكر على الجنس البشري التألّه والاتحاد الحقيقي بالله، ولا تعترف للفداء بأي مفعول جذري في الطبيعة البشرية، بل تقر فقط بتأثير له أدبي وروحي. وهكذا تناقض الأريوسية مناقضة صريحة الحقائق الجوهرية في الدين المسيحي؛ فجوهر الدين المسيحي يقوم على أن المصالحة بين الله والبشر لم تتم على يد مرسل من العلاء، ولا على يد نبي ملهم، بل على يد الكلي القدرة نفسه، صانع الكون والخالق الذي أبدع الأشياء كلها، ما يرى منها وما لا يرى. إن فداء البشرية وتألهها قد حققهما الله نفسه، ينبوع الكائنات الأوحد وغير المنقسم. إن المسيحية تؤمن بأنه ليس في مقدور إنسان أن يعيد إلى البشر صورة الله إلا إذا كان هذا الإنسان إلهاً. الإله المتجسد يمكنه وحده أن يعيد إلى جنسنا الساقط صورته الإلهية الأولى، ويؤلهنا حقاً. لذلك كان لا بد من أن يكون المسيح "إلهاً من إله، نوراً من نور، إلهاً حقاً من إله حق". وهذا ما قرره المجمع.

---

(١) لم يكن مفهوم الثالوث قد تبلور أصلاً آنذاك، بل كان الخلاف الأساسي في المجمع يدور حول ادعاء ألوهية الابن إلى جانب ألوهية الآب، دون أي ذكر لألوهية الروح القدس، أو لكلمة الثالوث من قريب أو بعيد!

- وكيف يقرر مجمع بشري حقائق إلهية غير موجودة في كتاب الله نفسه؟

- إن التألّه بمفهوم الكنيسة هو الشركة مع الله من خلال معاينة النور غير المخلوق، ومن ثم يجتمع معاينو النور الإلهي في مجمع مسكوني، ويحددون بدقة الحقيقة الموحى بها بتشويش[١].

- ولكن، ألا ترى معي أن هذا بعيد عن العقلانية والمنطق؟

- إننا، بسبب حدود عقلنا البشري، نميل إلى تقريب ما هو متسام وإلهي إلى مستوانا البشري ليسهل علينا تحليله وإدراكه. إنه لأسهل بكثير على عقلنا البشري أن نقول إن الله لم يصبح هو نفسه كائناً بشراً، بل أرسل باسمه إنساناً إلى العالم. كما أنه لأسهل بكثير أن نقول إننا لم نؤلّه بل رفعنا إلى درجة أدبية.

- ولكن هذا فلسفة غير واقعية.

- إن صراع المسيحية في هذا الميدان من الإيمان ليس فلسفياً وحسب، بل هو نفسي[٢] أيضاً. فقد يصعب جداً إقناع البشر بأنهم من أصل إلهي، وبأن كيانهم الراهن إلهي، وبأن مصيرهم كذلك إلهي، كما يعلم المسيح. لقد اؤتمن الدين المسيحي على الحقيقة القائلة أن الله نفسه أصبح إنساناً لنصبح نحن إلهيين، ونجلس عن يمين الله الآب. قد تبدو تلك الحقيقة أروع مما يمكن تصديقه. إنها رائعة، ولكنها أيضاً واقعة. إننا نخاف من سمو كياننا. إن قصد الله هو الارتقاء بنا إلى مستواه، ولكننا نحن، لوعينا ما نحن عليه من ضعف وعجز، نحاول أن ننزل به إلى مستوانا. لم يستطع أريوس أن يؤمن بقصد الله السامي تأليهَ الكائنات البشرية، فاختلق إلهاً على صورة البشر.

---

(١) إذا كان الله أراد ذلك فعلاً، فما الذي "شوش" عليه حسب قولهم؟ تعالى الله عما يصفون، ولماذا لم يقل ذلك أو يوحي به مباشرة؟ ولماذا ترك مهمة "تحديد ما أراده بدقة" إلى بشر يخطئون ويتناقشون بعنف يصل إلى الشتم، ولطم الوجه، والضرب وكسر الأسنان وغير ذلك من النقائص التي سيمر ذكرها عند الحديث عن ذلك المجمع؟ بل لماذا تراجعت أغلبيتهم عن قانون الإيمان الذي فرض عليهم في ذلك المجمع، وسحبوا توقيعاتهم عليه حالما عادوا إلى كنائسهم، مستنكرين سلطة الإمبراطور في ترجيح معتقدات دينية على غيرها حسب مزاجه الخاص؟!!!

(٢) هكذا وردت في الأصل! ولعل المطران كيرلس كان يقصد: "روحي".

فتنهد أحمد قائلاً:

- وهل ورد هذا في محاضر اجتماعات مجمع نيقية المفقودة؟!

- بالمناسبة، ورداً على زعمك قبل قليل، فإن عدم توثيق مجمع نيقية لا يعني بالضرورة أنه قد ألغي لاحقاً بفعل مجامع أُخر كما تدعي.

- لم أستند في ذلك إلى عدم حفظ محاضر الجلسات فقط، بل استندت أساساً إلى التاريخ وما نقله إلينا من أخبار ما يزيد على ٥٠ مجمعاً خلال القرن الثالث ألغى بعضها بعضاً في محاولة للوصول إلى صيغة ملائمة للعقيدة المسيحية.

فقال أبراهام مندهشاً:

- وهل كان في القرن الرابع مجامع أخرى غير التي نعرفها؟!!!

- بالتأكيد، ولكن المصادر الكنسية الحالية لا تتحدث إلا عمّا وافق منها قرارها النهائي عن طبيعة المسيح والألوهية، وتتجاهل الباقي تماماً.

- ألك أن تحدثنا باختصار عن أهم تلك المجامع وصيغ الإيمان التي صدرت عنها؟

- بكل سرور. فبعد مجمع نيقية قام "تيوغنسي" أسقف نيقية نفسه وأوسابيوس أسقف نيقوميديا، بعقد مجمع في أنطاكية عام ٣٢٩، حيث تقرر فيه تبرئة أريوس، وحكم على بعض الأساقفة المؤلهين بعزلهم عن أسقفيتهم، وكذلك حكم بتثبيت معتقد التوحيد. كما عقد مجمع أورشليم في عام ٣٣٥ حيث ثبتت براءة أريوس ثانية، وقبل في شركة الكنيسة[١]، وفي السنة نفسها قرر الإمبراطور قسطنطين عقد مجمع في صور عام ٣٣٥ حضره كثيرون من الأساقفة الذين حضروا مجمع نيقية الأول[٢]،

(١) ينقل لنا أثناسيوس نفسه في كتابه تاريخ الأريوسية في الفصل الأول أنه في مجمع أورشليم حصل أريوس على حل من الحرم الذي وقع عليه في مجمع نيقية وأرسل إلى الإسكندرية كأسقف.

(٢) يقول المؤرخ "سوزمين" أنهم سجّلوا على أثناسيوس مخالفات داخل مجمع صور، منها عدم ردّه على كثير من الأسئلة والاتهامات التي كانت توجّه إليه، كما بدر منه كثير من الإهانات كان يوجّهها شخصياً لبعض الأساقفة الذين كانوا يوجِّهون إليه الاتهامات. وأنه كذلك كان يرفض قبول أية محاكمة. Sozom. ١١,٢٥.

وأصـــدر المجتمعون قراراهـــم بإلغاء مجمع نيقية واعتبار قانـــون إيمانه باطلاً. ولقد دعاهم الإمبراطور إلى القســـطنطينية للمداولة، وهناك قرروا معاً عزل أثناســـيوس، ونفيـــه إلى تريفس في جنوب غربي فرنســـا. وبعد وفاة الإمبراطور قســـطنطين عاد أثناســـيوس إلى الإســـكندرية عام ٣٣٨، فثار عليه الموحدون، ثـــم عقدوا مجمعاً في أنطاكية عام ٣٤٠، حكموا فيه بعزله عن كرسي كنيسة الإسكندرية، فاضطر إلى الهرب إلى روما. لكن "قسطنطينوس"[١]، أعاده إلى الإسكندرية عام ٣٤٦. وفي مجمع سرديكا ٣٤٣ انقسم قساوسة الإمبراطورية الرومانية ولم يصلوا إلى صيغة ملائمة متفق عليها للعقيدة المســـيحية. وفي عام ٣٥٣ أثار أثناسيوس الاضطرابات ثانية بآرائه التأليهية، فعقد مجمع في مدينة آرلس بفرنســـا، تقرر فيه خلعه مجدداً من أسقفيته، وقد وقع على هذا القرار جميع الأســـاقفة الذين تشـــكل منهم المجمع، ما عدا بولين أســـقف تريفس. وكان في مقدمة الموقعين أسقف رومه (البابا)، وأسقف كابو، وأسقف كمبانيا في إيطاليا. ثم عقد مجمع في مدينة ميلانو بإيطاليا عام ٣٥٥، بأمر الإمبراطور، وكان مؤلفاً من ٣٠٠ أســـقف جلهم موحدون، فحكموا بخلع أثناسيوس عدا نفر قليل منهم. وقد اضطر أثناسيوس إلى الفرار عام ٣٥٦، وجلس الأسقف "جاورجيوس" الموحد على الكرسي الســـكندري. وفي عام ٣٥٧ عقد الأساقفة مجمع سرميوم[٢] الثالث، برئاسة الأسقفين الغربيين أورزاس وفالانس، وحضره الإمبراطور قسطنطينوس بنفسه. وقد وضع ذلك المجمع صورة جديدة للإيمان المســـيحي أنكر فيها مســـاواة الابن لأبيه في الجوهر، وعرف بـ"مرســـوم ســـيرميوم الثاني" حيث تبنى رأياً وسطاً ما بين المسيحية النيقاوية ومســـيحية التوحيد، وهو ما عرف بـ العقيـــدة "الأنومية"، أي عقيدة "إنكار الشبه بين الأب والابن".

---

(١) ابن قسطنطين، وكان ميراثه بعد وفاة والده هو حكم إيطاليا وإفريقيا.

(٢) مدينة في جنوب فرنسا.

- أي إنه في ذلك الزمن ازداد نفوذ المؤمنين بالثالوث وتأثيرهم؟

- حتى ذلك الوقت لم يصل نفوذهم وتأثيرهم إلى درجة كافية بحيث يتمكن من فرض عقيدة التأليه بشكل واضح، بل يمكنني رؤية العكس تماماً، فالإمبراطور قسطنطينوس الذي حضر ذلك المجمع وأقر الرأي الوسط بين المسيحية النيقاوية وبين المسيحية الموحدة، هو نفسه الذي كان يفرض أثاسيوس على قساوسة الإسكندرية الموحدين ويعيده إلى كرسي البطركية غصباً عنهم. وها هو ذا الآن تحت ضغط المعارضة يرضخ لحل وسط. كما أرجو أن يتسع صدرك وتسمح لي أن أصحح أيضاً الشق الثاني من عبارتك.

- تفضل.

- أولئك الذين تقول إن نفوذهم تنامى (بفعل بعض الأباطرة)، وأسميتهم بالمؤمنين بالثالوث، كان من الأجدر بك أن تسميهم المؤمنين بإشراك المسيح عليه السلام بالألوهية (أي المؤلهين).

- وما الفرق.

- كبير جداً. فأولئك المؤلهون لم يكونوا مثلثين حتى تلك اللحظة. وهم لم يضموا الروح القدس(الأقنوم الثالث) إلى قائمة أقانيم الله إلا في مجمع القسطنطينية الذي عقد في عام ٣٨١م.

- حسناً ماذا حصل بعد المجمع الذي أصدر صيغة توفيقية بين الإيمان النيقاوي، كما تسميه، والإيمان التوحيدي؟

- لقد ازدادت الأمور بالتخبط والخلط. فقد عقد مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ الذي أصدر صيغة توفيقية أخرى بين الضدين عرفت بـ"الهومويوسية"، أي "التشابه في الجوهر بين الأب والابن". وفي عام ٣٥٩ تراجعوا قليلاً فعقد الإمبراطور مجمعين أولهما في مدينة ريمنى، وخصه بالغربيين، والثاني في مدينة سلوقية بسورية، وخصه

بالشـــرقيين. والمجمعان أبرزا التشابه بين الآب والابن دون تحديد نوعيته، مما عرف بالعقيدة "الهوموية" أي "التشـــابه بينهما دون تحديد التشابه وماهيته". ثم ما لبث أن علـــت كفة الترجيح ثانية باتجاه التوحيد، وعقد مجمع أنطاكية ٣٦١ حيث تقرر العودة إلى الأنومية ثانية؛ أي إنكار الشـــبه بين الله تعالى والمســـيح عليه الســـلام. ثم عادوا فقرروا في مجمع أنطاكية ٣٦٤ العودة للهومونية. وفي مجمع لامساكوس ٣٦٤ تمسكوا بصيغة أنقرة (الهومويوســـية). ثم خرج مجمع كاريا ٣٦٧ بمعارضة الهوموسية، وإقرار "مرسوم اللوقياني" (الأنطاكي الثاني). ثم عادوا في مجمع رومه ٣٦٩ إلى بعث الإيمان النيقاوي. وفي مجمع هيبـــو ٣٩٣ وقرطاجنة ٣٩٧ تم اعتماد "القانون"، ورفض الكتب الأخرى[١].

كان الأب ديمتري يختلس النظر إلى أبراهام، ليرى مدى تأثير حديث أحمد عليه، ثم ما لبث أن علق قائلاً:

- العبرة في النهاية؛ فالمهم أن الأمور عادت إلى نصابها في نهاية المطاف.
- ولماذا تعتبر أن مجمع نيقية هو نصاب الأمور[٢]؟
- لأنه رد على هرطقة رفض ألوهية الرب يسوع التي ابتدعت في زمنه.

كان أحمـــد مغتاظاً من محاولة الكثيرين إظهار التوحيد على أنه بدعة دخيلة على المســـيحية، واعتبار التثليث هو الأصل، مع أن أتباع المســـيح عليه السلام لم يسمعوا

---

(١) حينما يضع الله تشريعاً لعباده فإنه يوضح ملامحه بشكل لا يفيد الاجتهاد في أساسه حتى لا يغلو في ذلك الدين من يغلو، ولا ينحرف عنه مؤمن. ولكننا بمطالعة إيمان المسيحيين، فإننا نرى تغييراً بمرور الزمن، فيصدر إيمان جديد زائد أو ناقص عما سبقه من الإيمان!!! فهم من يقررون طبيعة ذلك الإيمان، بل يطورونه تدريجياً، واضعين أنفسهم مكان الله في شرعه والعياذ بالله تعالى. والأدهى من ذلك أنهم هم من يحددون طبيعة الله نفسه، ويقررون أن له أقانيم تزداد وتنقص، وتختلف وتتشابه، وتتساوى وتتمايز حسب مجامعهم المختلفة!!!

(٢) تؤكد دائرة المعارف الأمريكية بأن الطريق بين مجمع أورشليم الأول الذي عقده تلاميذ المسيح (الحواريون) ومجمع نيقية لم يكن مستقيماً قط.

بالتثليث أصلاً قبل مسلسل تلك المجامع الرومانية. لذا لم يستطع تجاهل محاولة الأب ديمتري حصر التوحيد بشخص وزمن أريوس ومجمع نيقية، وقال مستنكراً:

- تقصد أن التوحيد لم يكن له ذكر قبل أريوس؟!!!

- بالتأكيد، واسم أصحاب بدعة التوحيد أكبر دليل على ذلك: الأريوسيون[1].

- إذا كنت تريد إلغاء تاريخ المسيحية الأولى التي كانت موحدة بالتأكيد، ولا تعترف إلا بالمجامع والتسميات، فماذا تقول بمجمع أنطاكية الذي عقد قبل نيقية بأكثر من ستين عاماً (سنة ٢٦٢ م) لمناقشة آراء بولس الشمشاطي، بطريرك أنطاكية المعاصر للملكة "زنوبيا"، والذي وافقه الكثيرون على مذهبه التوحيدي الخالص، وعرفوا بالفرقة "البوليانية"، وعقدوا مجمعاً كبيراً في أنطاكية أيضاً سنة ٢٦٨ لإعلان إيمانهم. وقبلهم "ديودوروس" أسقف طرطوس الموحد الذي...

- لا داعي للسرد، فما كنت أعنيه هو أن بدعة رفض ألوهية الرب يسوع جاءت بعد قيامته بقرون طويلة. وتلك التفاصيل الصغيرة عن التواريخ والتسميات لا تهمني كثيراً.

- الموضوع ليس تاريخ ٢٦٢ أو ٣٢٥، وليس البوليانيين أو الأريوسيين؛ ففي أواخر القرن الثاني ظهر "أمونيوس السقاص" بدعوته بأن المسيح إنسان خارق للعادة حبيب لله، عارف بعمل الله بنوع مدهش، وأن أتباعه أفسدوا دعوته. وقبله كان "الكارينثيانيين"، و"الباسيليديين" و"الهيبسيستاريين". وقبلهم كان هناك فرق أخرى كما يقول إيريناوس أحد أشهر آباء الكنيسة، في كتابه "ضد الهرطقات"(١٨٨م): "والذين يدعون باسم

---

(١) هذه التسمية ألصقت بالموحدين النصارى رغماً عنهم، وكانوا ضدها في البداية. فالأسقف أوسابيوس النيقوميدي، الذي عمد الإمبراطور قسطنطين على مذهب التوحيد في أواخر حياته قد أعلن رفضه لهذه التسمية رفضاً قاطعاً. ويبدو أنها كانت فخاً من النيقاويين لتقديم اسم أريوس على الجماعة المناوئة لهم، كي يقللوا من شأن تلك الطائفة، ويوحوا بأنها ابتدأت مع ذلك الشخص، مع أنها كانت أقدم منهم وأكبر كما هو ثابت تاريخياً.

الأبيونيـــون[١] يوافقون على أن الله هو الذي خلق العالـــم، ولكن مبادئهم عن الرب مثل كرنثوس"(عاش في النصف الثاني من القرن الأول) ومثل "كاربوقراط" (كربوكراتوس)[٢]... وهم يستخدمون إنجيل متى فقط، ويرفضون بولس الرسول، ويقولون عنه: إنه مرتد عن الناموس، ويحفظون الختان، وكل العادات المذكورة في الشريعة".

- لكن تلك الطوائف قد اندثرت منذ زمن بعيد.

- بل اســـتمر كثير منها على التوحيد رغم الاضطهاد والتعذيب، ورغم محاولة طمس تاريـــخ ذلك الدين بحصره بشـــخص واحد هو أريوس. وقبل كل هـــؤلاء جميعاً وأهمهم: الحواريون الذين كانوا موحدين أيضاً. فيقول "بطرس قرماج" في كتابه " مروج الأخبار في تراجم الأبرار" عن بطرس ومرقس: "كانا ينكران ألوهية المســـيح"، ويقول "عوض سمعان": "إن المتفحصين لعلاقة الرســـل والحواريين بالمســـيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنســـان". كما أن الدوائر العلمية المحايدة تؤكد أن القـــرون الميلادية الثلاثة الأولى كانت قروناً موحدة في أغلبيتها تعتقد أن المسيح لم يكن سوى نبي من أنبياء الله. ويؤكدون أيضاً أن بعد أريوس وقبله صف طويل من الموحدين الذين رفضوا بدعة تأليه المسيح.

- من تقصد بالدوائر العلمية المحايدة؟!

---

(١) وهم أنفسهم الأسينيون كما أوضحنا، والذين تحدثنا عنهم مراراً. وقيل في سبب تسمية الأبيونيين أنها نسبة لكاهن اسمه "أبيون"، وقيل أن معنى الكلمة هو الفقراء إلى الله، وأنهم سموا بذلك لفقرهم وزهدهم. وقد نشطت طائفتهم بعد عام ٧٠م. واستخدموا إنجيل متى الأصل العبراني، ولم يبالوا بغيره، وشمل نفوذهم فلسطين وسورية وآسيا الصغرى، بل وصل إلى روما نفسها. واستمر وجودهم إلى القرن الرابع الميلادي على أقل تقدير، حيث يفهم من كلام القديس "جيروم" في القرن الرابع، أنهم كانوا في حالة من الضعف والاضطهاد، وذلك بعد مخالفتهم لأوامر قسطنطين ومجمع نيقية.

(٢) وأتباعه كانوا يدعون بـ"المعلمين" أو "المستنيرين"، ولكن هذه الطائفة قد بالغت للأسف في بشرية المسيح حتى قالوا إنه كان كسائر معلمي الشريعة، ففي زحمة إنكارهم لألوهيته أنقصوه حقه عليه السلام، كما كانت لهم بعض العقائد الشاذة. (للمزيد من المعلومات راجع رواية بشارات هانمة للمؤلف)، وفي الحقيقة لا يوجد أي علاقة بين مبادئهم ومبادئ الأبيونيين كما يحاول البعض أن يوهمنا، ولكن الهراطقة في نظر آباء الكنيسة كانوا سواء، وتخبرنا كتاباتهم بمقدار خلطهم ولبسهم الشديد بين تلك الطوائف المختلفة اختلافاً شاسعاً.

- "دائرة المعارف الأمريكيـــة" مثلاً. فهي تقول: "لقد بدأت عقيدة التوحيد كحركة لاهوتيـــة بداية مبكرة جداً في التاريخ. وفي حقيقة الأمر فإنها تســبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين"، كما تقول "دائرة معارف لاوس" الفرنسية: "عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد، ولا في عمل الآباء الرســوليين، ولا عند تلاميذهم المقربين، إلا أن الكنيســة الكاثوليكية والمذهب البروتســتانتي يدعيان أنها كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان!!! إن عقيدة إنسانية يسوع كانت غالبة طيلة مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المتنصرين. فإن الناصريين سكان مدينة الناصرة، وجميع الفرق النصرانية التي تكونت عن اليهودية، اعتقدت بأن يســوع إنســان بحت مؤيــد بالروح القدس. وما كان أحد يتهمهــم إذ ذاك بأنهم مبتدعون وملحدون. فكان المؤمنون في القرن الثاني يعتقدون أن يسوع هو المسيح، ويعتبرونه إنساناً بحتاً. وحدث بعد ذلــك أنه كلما ازداد عدد من تنصّر من الوثنيين ظهــرت عقائد لم تكن موجودة من قبل". وتعترف دائرة المعارف الفرنســية أنَّ: "تلاميذ المســيح الأولين الذين عرفوا شــخصه وســمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لــذات الخالق، وما كان بطرس والحواريون يعتبرونه أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله". وتستشــهد على ذلك بأقوال قدماء المؤرخين مثل "جوســتن ماراستر" من القرن الثاني الميلادي، حيث يصرح بأنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن يسوع هو المســيح، ويعتبرونه إنســاناً بحتاً، وأنه كان أرقى من غيره من الناس. وحدث بعد ذلــك أنه كلما تنصر عدد من الوثنيين ظهرت عقائد جديــدة لم تكن من قبل، وذلك لضياع النصوص الأصلية من الإنجيل نتيجة للاضطهاد من جانب، وللاحتكاك والتأثر بالفلسفات والحضارات الشرقية والوثنية من جانب آخر.

- هذه دوائر علمانية ملحدة.

- وماذا عن "الموسوعة الكاثوليكية الحديثة" التي تقول: "تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلَّمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي"[١]. كما يقول الكاردينال "دانيلو": "إن مسيحية التوحيد، كانت سائدة خلال القرن الأول في القدس وفلسطين حيث عاش بقية الحواريين وأتباع المسيح، مثل بطرس ويوحنا ويعقوب[٢]، وكانت سائدة في أماكن أخرى وجد فيها بولس الرسول مقاومات عنيفة[٣] مثل أنطاكية، وغلاطية، وكورنثوس، وكولوسي، وروما".

---

(١) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث(١٤/ ٣٩٥).

(٢) يقول بولس عن التلاميذ: "لكن بسبب الإخوة الكذبة، المدخلين خفية، الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا، الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة.." (غلاطية ٢: ٤-٥). ومما يؤكد أن قصده التلاميذ قوله: "الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة". وينال بولس من بعض تلاميذ المسيح الذين يقول عنهم المسيح: "ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم، لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم". (يوحنا ١٥: ١٦)، لكن بولس ومدرسته لم يبق لهم ثمر ولم تخلد لهم فكر ولا كتب فيما سوى بعض الصفحات القليلة(بعد تعديلها).

(٣) يعترف بولس بمعارضة تلاميذ المسيح عليه السلام وأتباعه لمبادئه الجديدة ودعوته فيقول: "جميع الذين في آسيا ارتدوا عني" (٢تيموثاوس ١: ١٥)، وقد انفض عنه الجميع، لذا يستنجد بتيموثاوس فيقول: "بادر أن تجيء إلي سريعاً، لأن ديماس قد تركني، إذ أحب العالم الحاضر، وذهب إلى تسالونيكي... لوقا وحده معي، اسكندر النحاس أظهر لي شروراً كثيرة، ليجازه الرب حسب أعماله، فاحتفظ منه أنت أيضاً، لأنه قاوم أقوالنا جداً، في اجتماعي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني" (٢تيموثاوس ٤: ٩-١٦)، "لما خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ" (فيلبي ٤: ١٥). ويحذر بولس أنصاره من التلاميذ فيقول: "كونوا متمثلين بي، ... لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً، والآن أذكرهم أيضاً باكياً وهم أعداء صلب المسيح، الذين نهايتهم الهلاك، الذين إلههم بطونهم، ومجدهم في خزيهم..." (فيلبي٣: ١٧-١٩). وفي أنحاء متفرقة من رسائله يتحدث عن أولئك الرافضين لدعوته من غير أن يسميهم، فيقول في بعض ما تمتلئ به رسائله موصياً تيموثاوس: "طلبت إليك أن تمكث في أفسس، إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية، لكي توصي قوماً ألا يعلموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافات وأنساب لا حد لها، تسبب مباحث دون بنيان الله في الإيمان" (١تيموثاوس ١: ٣-٥)، ويقول: "إن أحداً يعلم تعليماً آخر، لا يوافق كلمات ربنا يسوع=

- إن شئت الحقيقة يا بني، فإن الكاثوليك ليسوا أكثر إيماناً من العلمانيين الملحدين.

- ولكن الكاثوليك يرون ذلك في الأرثوذكس أيضاً.

- هذا موضوع آخر. دعنا منه الآن[1].

- كما تريد. ولكن مع ذلك، وبناء على المعطيات، فإن أغلب أتباع عيسى عليه السلام كانوا موحدين فعلاً في القرون الأولى.

- إذا كان الأمر كما تقول، فما السبب في تناقص أعدادهم مع مرور الوقت في مقابل المؤمنين بالأب والابن والروح القدس؟!!!

- أسباب كثيرة، أهمها اضطهاد الإمبراطورية والكنيسة الرومانيتين لهم، وإجبارهم على ترك دينهم. كما أن قسماً كبيراً منهم آمن بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعد بعثته، وهم أغلب النصارى الذين كانوا يعيشون في البلاد العربية، وأولئك الذين وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلادهم. ولا تنس أن نصارى الأندلس الموحدين قد استعانوا بالمسلمين ضد أعدائهم من المسيحيين الكاثوليك، ثم ما لبث أن دخل قسم كبير منهم في الإسلام تدريجياً، بعدما تبين لهم أنه الحق الذي لا يتناقض مع رسالة نبيهم عيسى عليه السلام.

=المسيح الصحيحة، والتعليم الذي هو حسب التقوى فقد تصلف، وهو لا يفهم شيئاً، بل هو متعلل بمباحثات وممحاكات الكلام التي منها يحصل الحسد والخصام والافتراء والظنون المروجة، ومنازعات أناس فاسدي الذهن عادمي الحق، يظنون أن التقوى تجارة تجذب مثل هؤلاء" (١تيموثاوس ٦ : ٣-٥)، "انظروا الكلاب ... انظروا فعلة الشر ... " (فيلبي٣ : ١٢). ويقول منددا ومحذراً من أولئك الذين تركوا دعوته: "وأما الأقوال الباطلة الدنسة فاجتنبها، الذين ينصرفون إلى أكثر فجور ... الذين منهم هيمينايس وفيليتس اللذين زاغا عن الحق" (٢تيموثاوس٢ : ١٦). وعلى هذا المنوال تمتلئ رسائله بالهجوم على معارضيه من النصارى، فيتهمهم بسائر أنواع التهم من كفر ونفاق و ... (انظر : كولوسي ٤ : ١٠-١١، فيلبي٢ : ١٩-٣١، تيطس ١ : ٩-١١، ١تيموثاوس ١ : ٣-٧، ٦ : ٢٠-٣٤، ٢ : ٢٣، . . . إلخ).

(١) في الحقيقة فإن ذلك يتعدى الأرثوذكس والكاثوليك ليشمل الطوائف المسيحية كافة. حيث إن كلاً منها تكفر الطوائف الأخرى وتلعنها، وتعتبر ذلك سارياً في الأرض ونافذاً في السماء، مع أنهم لم يعودوا يجاهرون بذلك حالياً.

- مهلاً. فأنت تناقض نفسك بنفسك.

- حقاً؟! وكيف ذلك.

- أنت تزعم أن قسماً كبيراً من الموحدين دخلوا في الإسلام!!! كما تزعم أيضاً أن أغلبية المسيحيين في ذلك الوقت كانوا موحدين!!! فلو كان هذان الزعمان صادقين لكانت النتيجة هي انقراض المسيحية تماماً، أو على الأقل قلة أتباعها وتناقصهم في مقابل المسلمين!!!!! ولكن هذا هو أبعد ما يكون عن الصحة، فالمسيحية لم تنقرض، بل لا يزال أتباعها أكثر عدداً من المسلمين حتى الآن.

- كلا يا سيدي إن الأمور لا تقاس هكذا.

- وكيف تفلسفها أنت إذن؟

قال الأب ديمتري ساخراً، ثم التفت إلى أبراهام وملامح الفخر تكسو وجهه للنقطة التي ظن أنه سجلها على خصمه. فأجاب أحمد موضحاً:

- اسمح لي أن أقول إن الأمور قد اختلطت عليك قليلاً يا سيدي. فالإسلام قد جاء في منتصف القرن السابع الميلادي وليس في القرون الأولى التي كان الموحدون فيها هم الأغلبية الساحقة بين المسيحيين. أي إنه جاء بعد ثلاثة قرون اجتهد خلالها كل من الكنيسة الرسمية الناشئة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة في اضطهاد الموحدين واستئصال شأفتهم بكل ما أوتيا من قوة وجبروت، والتاريخ يشهد على ذلك. كما أن المسيحيين أنفسهم، وبكل طوائفهم، لم يصبحوا أكثرية في الإمبراطورية، إلا بعد أن تأسست الكنيسة الرسمية، وبعد أن أصبح دينها هو الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية. ورعايا الإمبراطورية الرومانية الوثنيون قد دخلوا المسيحية بالطبع عبر الكنيسة الرسمية المؤلهة.

اختفت ملامح الانتصار من وجه الأب ديمتري على الفور، إلا أنه ما لبث أن استدرك قائلاً:

- ولكنك مع هذا لا تزال تناقض نفسك.

- مرة أخرى؟!!!

- أجل. فإذا كان الإسلام هو الحق الذي لا يتناقض مع دين يسوع الذي هو دين الموحدين كما زعمت، فإن هذا يستوجب أن يعتنقوا الإسلام أغلبيتهم، ولكن هذا لم يحدث، وأنت نفسك تحدثت قبل قليل عن ممالك وشعوب كاملة كانت على التوحيد حتى نهاية القرون الوسطى، أي بعد ظهور الإسلام بمدة طويلة.

- لا يوجد أي تناقض في الأمر يا سيدي. فبالنسبة إلى من بلغتهم الدعوة الإسلامية، دخل جلهم في الإسلام تدريجياً، وجحدت قلة منهم بنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام. أما القسم الآخر منهم خارج حدود الدولة الإسلامية، وهم الأغلبية، فلم تبلغهم الدعوة لبعد الشقة. أو بلغتهم على الصورة البالغة التشويه التي نشرتها الكنيسة الحاقدة على الدين الجديد الذي ظهر في الصحراء، ولاسيما كنيسة رومه الكاثوليكية، فظلوا على دينهم الذي دخل إليه الفساد تدريجياً.

روما

لاحـــظ أبراهام الامتعاض الذي بدا واضحاً على وجه الأب ديمتري، فقال محاولاً إبعاد الموضوع عن ذكر الإسلام، وإعادته إلى مساره المقصود:

- يبدو أننا خرجنا عن موضوع البحث أيها الســـادة. فهو ليس عن أسباب انتشار الإسلام، بل عن الأريوسيين أو الموحدين!!!

- إن الحديث يجر حديثاً آخر، وقد كنت أجيب عن أســـئلة الآب ديمتري، ولكن مع ذلك أنت محق، فلنعد إلى موضوع الموحدين...أين توقفنا؟

- عند انقســـام المسيحيين في القرون الأولى بين موحد يعتبر السيد المسيح رسول الله، وبين مؤله له.

فرد أحمد مصححاً:

- لم يكن الأمر بهذه البساطة؛ فكما قال عالم اللاهوت الأمريكي "بارت أرمان" في كتابه "الإفساد الأرثوذكسي للكتب المقدسة" (ص ٣-٤): "بعض المسيحيين آمنوا أن الله خلق العالم وأنه قريباً سيفديه، آخرون قالوا إن الله لم يخلق العالم ولم يكن له به أي شأن. بعض المســـيحيين آمنوا أن المسيح كان بطريقة ما بشراً وإلهاً، آخرون قالوا إنه كان بشـــراً وما كان إلهاً، زعم آخرون أنه كان إلهاً وليس بشراً، آخرون أصروا أنه كان بشـــراً سكن الله فيه بشكل مؤقت. بعض المســـيحيين آمنوا أن موت المسيح قد تسبب فـــي خلاص العالم، وزعم آخرون أن موته لا علاقة له بالخلاص، كما زعم آخرون أنه لـــم يمت حتى. قليل من هذه الأفكار اللاهوتيـــة المختلفة أصبح مصادقاً عليها، فنتج عـــن ذلك خلافات أثّرت فيمـــا تبقى من الأعمال الأدبية بشـــكل حقيقي على جميع المســـتويات... لم تكن مخطوطات العهد الجديد نتاج عمل شخصي لآلات قادرة على

إعادة الإنتاج دون أخطاء. لقد تم نسخها بالأيدي، من قبل بشرٍ أحياء يرزقون مرتبطين حتى الأعماق بالأوضاع والخلافات آنذاك. هل أثرت ظروف مناقشات النُسّاخ في كيفية نسخهم للنصوص المقدسة؟ إن جوهر الدراسة الحالية هو أنه أثر في ذلك، إن النزاعات اللاهوتية - وخاصة النزاعات حول شخص المسيح - قد دفعت الناسخين المسيحيين إلى تبديل كلمات النصوص المقدسة لتوظيفها في خدمة النقاش. لقد عدّل الناسخون مخطوطاتهم اليدوية لجعلها أرثوذكسية (شاملة) بشكل أوضح، وأقل عرضة (لإساءة الاستخدام) من قبل خصوم المذهب الأرثوذكسي "وكما نرى فإن المؤلهين لم يكونوا قسماً واحداً فقط، فمنهم من جعل المسيح إلهاً واحداً، وأنه هو الله ذاته دون أية أقانيم، ولكنه نزل وتجسد، ثم عاد إلى عليائه. ومنهم من جعل المسيح أقنوماً آخر لله، ومساوياً للآب الذي جعلوه أقنوماً ثانياً لذات الإله. ومنهم من أدخل مريم العذراء ضمن قائمة أقانيم الله مثل "البربرانية"[1]، ومنهم من جعل الروح القدس من ضمن تلك الأقانيم. ومنهم من رفض أن المسيح والآب أقنومان لإله واحد وجعلهما إلهين مختلفين عادل وصالح. ومنهم من قال إن الآلهة هي صالح وطالح وعدل متوسط بينهما، ومنهم من قال إن الله مبدئي واحد انبثقت منه سبعة آلهة، ومنهم من زاد على ذلك بكثير مثل "برديصان"[2].

- إلى هذه الدرجة؟

---

(١) الطائفة البربرانية هي نفسها طائفة "المريميين" الذين تكلم عنهم المؤرخ الأرثوذكسي المصري "ابن البطريق".

(٢) برديصان (١٥٤ - ٢٢٢م) وكان يعتقد بكثرة الذوات الخالقة، وذكر مار "أفرام الملفان" بأنّه قال بسبعة كائنات، ونقل مار "ميخائيل الكبير" و"ابن العبري" (جريجوريوس أبو الفرج الملطي) بأنه قال بثلاث ذوات أو طبائع كبار، وأربعة كائنات صارت ٣٦٦ كائناً. وقد استمرت طائفته حتى القرن الثامن الميلادي.

- بل أكثر. وأعود هنا إلى "بارت أرمان"، ولكن في كتابه " العقائد المسيحية المفقودة (أي المندثرة)" lost Christianities، الذي قال فيه: "إن الكنيسة المسيحية في القرن الأول كانت "فوضى من العقائد"chaos of beliefs، فمنهم من كان يعبد إلهاً أو اثنين أو ثلاثة. ومنهم من عبد اثنا عشر إلهاً".

- إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن المؤلهين كانوا أكثر عدداً من الموحدين.

- كلا؛ فعلى تعدد طوائفهم، كان المؤلهون في فجر المسيحية لا يزالون قلة لا يعتد بها؛ إذ إن دين عيسى عليه السلام قد انتشر أولاً بين بني إسرائيل المؤمنين بالله الواحد. والمسيح نفسه قال إنه لم يأتِ لينقض الناموس، بل جاء مصدقاً لما بين أيديهم من التوراة، ومن ثم مقراً بالتوحيد بالله تعالى. ولهذا بالذات فإن التأليه لم يجد أرضاً خصبة في فلسطين، ولكنه نما خارجها بين بعض المسيحيين الجدد من ذوي الأصول الوثنية. وحتى هؤلاء، لم يزدهر التأليه بينهم بشكل واضح يشار إليه بالبنان، بل ظهر بين جماعات متناثرة منهم، ومحدودة التأثير. ولولا تضافر ظروف معينة جعلت الإمبراطور قسطنطين يستخدمهم في فترة من الفترات نتيجة لحسابات سياسية خاصة، لما قويت شوكتهم على حساب الأغلبية الموحدة.

- وما هي تلك الظروف التي تضافرت معاً وجعلت إمبراطوراً في أوج عصر الديكتاتورية، يضطر إلى مجاملة طائفة صغيرة لا يعتد بها، كما تزعم، لدرجة أن يجعل مذهبها هو دين أعظم قوة في العالم في ذلك الزمان؟!!!!!!!!

- سؤال رائع يا عزيزي أبراهام. أحسنت؟

عقب الأب ديمتري بفرح، فأجاب أحمد باسماً:

- لقد أحسن فعلاً. وإجابة سؤاله الرائع ستكون أروع إن شاء الله تعالى. هذا إن اتسع صدركما وأعطيتماني الفرصة الكافية للشرح دون مقاطعة.

- كلنا آذان مصغية.

- فـــي الحقيقة فـــإن الدولة الرومانية فـــي ذلك الزمن كانت تشـــهد فوضى لم يســـبق لها مثيل في كل تاريخهـــا؛ فقد تصاعدت الهجمـــات الخارجية، وخاصة من القبائل الجرمانية (الألمانية) والغالية (الفرنســـية)، وعاد التهديد الفارسي (الإيراني) ليطل برأســـه مجدداً. والأخطر من ذلك كله كان التنافس المحموم على السلطة، فقد احتدم الصراع بين ســـبعة قادة أقوياء هم: "ماكسيميان" و"غاليريوس" و"مكسنتيوس" و"مكسيمينيوس دايا" و"فلافيوس ليسينيوس" و"قسطنطين" بالإضافة إلى "دوميتيوس ألكسندر" الذي أعلن استقلاله في إفريقيا.

- كيف يمكن أن يسمح نظام الحكم الروماني المركزي بفوضى كهذه؟

تساءل أبراهام بدهشة، فتبسم أحمد لكون المقاطعة الأولى قد أتت بأسرع مما كان يظن، ولكنه وجد نفســـه ملزماً فعلاً بشرح خلفيات الموضوع لمن لا يملك تصوراً كافياً عنها، فقال موضحاً:

- إن تفاصيـــل نظم الحكـــم الرومانية معقدة جداً، ولكنني ســـأحاول أن أوجزها بأسهل شكل ممكن للإجابة عن سؤالك.

- أقدر هذا، وأعتذر عن المقاطعة.

- لا عليـــك. إن نظـــام الحكم الرومانـــي كان في البداية جمهوريـــاً، وكانت كلمة "إمبراطـــور" اللاتينية تعني قائد الجيش (كلواء أو جنـــرال حالياً)، ثم أصبحت تطلق هـــذه الكلمة على حكام المناطـــق التي تضم أكثر من بلد واحـــد. وكان أول من حمل اللقـــب بمعناه الملكي الجديد هو "أوكتافيوس"[1] وأغســـطس يعني "أبو الوطن". حيث اتســـع نفوذه كثيراً بعد أن هزم "مارك أنتوني" (أنطونيوس)، وضم إلى ســـلطته شـــق الإمبراطورية الآخر الـــذي كان يحكمه. كما هزم حليفتـــه "كليوباترا" الملكة اليونانية

(١) مؤسس نظام الحكم الإمبراطوري الروماني.

الشـــهيرة لمصر، منهياً بذلك الحكم البطلمي[١] هناك، لتصبح مصر منذ ذلك التاريخ تحت الحكم الروماني المباشر[٢]، وقد ظل الأمر كذلك، وتعاقب على حكم الإمبراطورية الرومانيـــة عدة أباطرة (قادة جيوش تحكم أكثر من بلد) وصلوا إلى الحكم عن طريق جنودهـــم. وعندما أصبـــح "ديوقليتيانوس" إمبراطوراً في عـــام ٢٨٤م، أراد أن يجعل جلوس الإمبراطور أمراً "مدنياً" لا علاقة للجيش به. فأســـس نظام الحكم "الرباعي" Tétrarchie [٣] الذي قســـم بموجبه الإمبراطورية إلى جزأين: غربي وشرقي، يحكم كل جزء منهما إمبراطور يحمل لقب "أوغســـطس". وقسم كل جزء إلى قسمين، ووضع نائبـــاً لكل إمبراطور يحمل لقب"قيصر"، بحيث يحكم الإمبراطور (أوغســـطس) أحد القسمين مباشرة، ويحكم القيصر القسم الآخر نيابة عنه. وفي حال وفاة الإمبراطور أو اعتزالـــه، يصبح القيصر إمبراطوراً، ويعين قيصراً آخر بدلاً عنه. ومع أن القرارات والأوامر العامة كانت تصدر باســـم أولئك الحكام الأربعة جميعاً، وامتدت ســـلطتهم المتحدة على الإمبراطورية بأكملها، إلا أن كلاً منهم كان ســـيداً في نطاق إقليمه. ومن ثم فإن هذا النظام المدني الذي قصد به الحد من تدخل الجيش أثبت فشـــله سريعاً. وأفرز مزيداً من التدخل العسكري عن طريق انشقاق بعض القياصرة على أباطرتهم، وتوسيع حدودهم، ومن ثم إعلان جيوشهم لهم كأباطرة. ولم تمر بضع سنين حتى حمل لقب إمبراطور أغسطس ستة في الوقت نفسه، واستقل بعض الحكام عن الإمبراطورية تماماً، رافضين الاعتراف بأي منهم.

- وكيف انتهى الأمر إلى قسطنطين بالذات.

---

(١) السلالة البطلمية هي سلالة ملكية أنشأها "بطليموس الأول" عام ٣٢٣ ق.م، وكان أحد قواد جيش الفاتح المقدوني "الإسكندر الأكبر" الذين اقتسموا تركته. فبعد وفاة الإسكندر استأثر بطليموس بحكم مصر، تماماً كما استأثر "سلوقس" بحكم سورية، والذي أنشأ بدوره السلالة السلوقية هناك.

(٢) حدث ذلك في سنة ٣٠ ق.م.

(٣) وهو نظام ثنائي مزدوج.

- ربما كان إدراك قسطنطين لأهمية السعي من أجل الحصول على دعم مختلف شرائح الشعب في مواجهة خصومه، هو من أهم الأسباب التي مكنته من الوصول إلى التصفيات النهائية في صراع السلطة، فيما بدأ الجميع بالانهيار. وبعد انتصاره الساحق على مكسنتيوس وفتحه لروما، أصبحت كل المناطق الغربية للإمبراطورية تحت نفوذه. ونعمت الإمبراطورية أخيراً بشيء من الاستقرار، خاصة بعد أن تعاهد مع الإمبراطور "ليسينوس ليسينيانوس"Licinus Licinianus [1]، الذي كان بدوره قد بسط نفوذه على كل المناطق الشرقية، على اعتراف كل منهما بسلطة الآخر، وإقامة نوع من التحالف بينهما. ولكن الاستقرار لم يدم طويلاً، فقد كانت التحديات الخارجية لا تزال تقض مضاجع قسطنطين، كما أن طموحه كان أكبر بكثير من مجرد الشق الغربي من الإمبراطورية.

- تريد أن تقول إن قسطنطين هو من غدر بليسنيوس؟!!! لقد زوجه من أخته "قسطنطيا" وجعله من الأسرة المالكة، ولكن ليسينيوس هو من كان غداراً، يتحين الفرصة للقضاء على من أحسن إليه. وقسطنطين كان يسامحه المرة تلو الأخرى، ولكن عندما بدأ ذلك الوثني المنحرف أخلاقياً باضطهاد المسيحيين اضطر القديس قسطنطين إلى الدفاع عنهم.

قال الأب ديمتري محتداً، فنظر أحمد إلى أبراهام نظرة مفادها أن الجدال بدون مقاطعة هو من ضروب المستحيل فعلاً في مثل هذه المواضيع، ثم قال مجيباً:

- لقد قرأت مثل هذا الكلام مراراً وتكراراً في العديد من الكتب المسيحية عندنا، كأن بعضها ينقل عن بعض، دون أن يعرف أحد مصدر ذلك الكلام؟! فأولاً: ليسينيوس كان إمبراطوراً قبل قسطنطين الذي كان لا يزال قيصراً[2] ورث حكم

---

(١) ٣٠٨-٣٢٤م، وأصبح حاكماً لكل الشرق في سنة ٣١٣ م بعد انتصاره على مكسيمينوس الثاني دايا Maximin II Daia حاكم سورية (٣٠٩-٣١٣).

(٢) أي تحت إمبراطور ضمن التصنيف الرباعي آنف الذكر.

غاليا (فرنسا) وإسبانيا وإنجلترا. ولكن بعد أن أعلن القيصر ليسينيوس إمبراطوراً، سارع قسطنطين إلى إعلان نفسه إمبراطوراً هو الآخر، وهذا مثبت تاريخياً. كما أن "قسطنتيوس خلوروس" أبو قسطنطين هو من زوج ابنته قسطنطيا لليسينيوس بهدف التقرب منه، وليس للإنعام عليه بشرف ضمه إلى "الأسرة المالكة" كما يدعي البعض بلا أساس. ثانياً: إن ليسينيوس لم يكن يضطهد المسيحيين بل على العكس تماماً؛ فقد أعطاهم حرية العبادة وأعاد ممتلكاتهم المصادرة وضمن حقوقهم أسوة ببقية الطوائف الدينية الأخرى في الشق الشرقي الذي يحكمه من الإمبراطورية. وعندما اجتمع مع قسطنطين عام ٣١٤م في ميلانو للاتفاق على قوانين للحكم ترسيخاً للتحالف وتمهيداً للاتحاد بين شقي الإمبراطورية، تم إقرار ذلك وتعميمه بشقي الإمبراطورية[١]، وهو ما عرف لاحقاً باسم "مرسوم التسامح الميلاني". ولكن في أدبيات الكنيسة وتأريخها، نسب فضل ذلك إلى قسطنطين وحده دون سبب مقنع. ثالثاً: إن الذي سبب الحرب بين ليسينيوس وقسطنطين هو نصرة ليسينيوس للموحدين، أو للأريوسيين كما تسميهم، وبالتحديد بعد مجمع الإسكندرية الذي حرم أريوس ونفاه مع عدد من الأساقفة والراهبات الذين كانوا ينتقدون التأليه.

- اعذرني عن المقاطعة ثانية، ولكن هل تلمح إلى أن ليسنيوس كان موحداً؟!!!

- ليس بالضرورة يا سيدي. ولكن الأقرب للواقع هو أن الأمر كان أمر سيادة وتنافس ومصالح سياسية، تماماً كما كان الوضع بالنسبة إلى قسطنطين. فالمسيحيون في الشق الشرقي من الإمبراطورية كانوا موحدين، والتأليه أصلاً كان بدعة غربية ابتدعها الهرطوقي المسيحي الغربي سابيليوس. وعندما تبنى أسقف شرقي

---

(١) كلا الإمبراطورين استعانا بالمسيحيين في حروبهما الطويلة على منافسيهم.

(الإســكندروس أسقف الإســكندرية) بدعة مصدرها من الشق الغربي، الذي يسيطر عليه غريمه قســطنطين، وطرد من دافع عن تقاليد الشرق، رأى ليسينيوس في ذلك بوادر موالاة للغرب، بل ربما مؤامرة من الشق الغربي للإمبراطورية للتدخل في الشؤون الداخلية لبلاده. والآن هل أستطيع أن أكمل؟

- تفضل. وآسف مرة أخرى عن المقاطعة.

- لا عليك يا سيدي فهذا أمر لا مناص منه في جدال كهذا. حسناً، وكما قلت قبل قليل: أولاً ليسينيوس كان إمبراطوراً قبل قسطنطين، وثانياً لقد أعطى حقوق المسيحيين في بلاده قبل قسطنطين، ثالثاً الحرب بينه وبين قسطنطين كانت لنصرة المذهب السائد في بلاده، ورفضاً للبدع الدخيلة، ومحاربة للتدخلات الخارجية والتسيس. رابعاً: وهو الأهم، لقد كان قســطنطين هو الغدار؛ ففي خلال تلك الحرب التي دارت بينهما سنة ٣٢٢-٣٢٣ م ظهرت بشــائر النصر في جانب قســطنطين، فاستسلم ليسينيوس بعد أن تعهد قســطنطين بالعفو عنه إن فعل، ولكن قسطنطين غدر بعهده حالما استتب له الأمر تماماً، حيث أعدمه في السنة الثانية. وليته اكتفى بذلك، بل قام فيما بعد بقتل "ليسنيانس" ابن ليسينيوس من قسطنطيا أخته، وبدون أي سبب.

- ما هذا الهراء؟!!! القديس قسطنطين قتل ابن أخته بدون سبب؟

- هذا مثبت تاريخياً. ثم لماذا الاستغراب؟! ألا تعرف بأن ذلك "القديس" قد قتل زوجته "فوستا"؟! بل قتل قبل ذلك ابنه البكر "كرسبس"، ودون أن يعرف أي أحد سبباً لذلــك أيضاً!!! وقد وصفه "هندرليك فان لون" في "قصة الجنس البشــري" بقوله: "لقد كان وغــداً غليظ القلب لا يرحم". على كل حال، فهــذا ليس موضوعنا الآن. فالمهم أن قســطنطين صار الإمبراطور الأوحد في البلاد دون أي منافس. ولترسيخ ســلطته في الشــق الشــرقي من إمبراطوريته، منطقة النفوذ السابقة لليسينيوس، أعاد بناء بيزنطة (بيزانتيوم Byzantium) ببذخ شــديد، وسماها "روما الجديدة"

(Nueva Roma)[1]، جاعلاً إياها فيما بعد عاصمة الإمبراطورية.

- ما دام قسطنطين قد أصبح الإمبراطور الأوحد، ورسخ سلطته في منطقة نفوذ منافسه السابق، فما حاجته إذن إلى الأقلية التي لا يعتد بها؟!

- لم يكن الأمر بهذه السهولة يا سيدي. فقبل ذلك كان عليه أن يروض مسيحيي الشرق المتمردين ويسحب البساط من تحت أقدامهم. ولكن كان عليه في الوقت نفسه، ألا يغامر في الاستمرار باضطهادهم كما فعل بعض أسلافه من الأباطرة. فالمسيحيون، ومع كل ما مر بهم، استطاعوا أن يفرضوا واقع امتدادهم الشعبي في طول البلاد وعرضها. وفوق هذا، وجد من تجاربه معهم، أنهم يمكن أن يشكلوا قوة مساعدة ومرجحة لا يستهان بها، وتقف بعزم شديد وراء من يمنحهم حرية العبادة، وكان بأمس الحاجة إلى أن تكون هذه القوة معه لا عليه، وهنا جاء الدور الأهم للبدعة الغربية. فالمؤلهون كانوا في عداد المسيحيين، وفي الوقت نفسه كانت عقائدهم متماهية مع الأسلوب الروماني الغربي في التدين، وتصادف هوى في نفس الإمبراطور الوثنية.

---

(١) سميت المدينة بعد موته بـ"القسطنطينية" تكريماً له. وفي عام ١٤٥٣، انهارت الإمبراطورية البيزنطية، وفتح العثمانيون المدينة بقيادة السلطان محمد الثاني (محمد الفاتح)، الذي جعلها عاصمةً للخلافة، وغيّر اسمها إلى "إسلامبول"، أي "مدينة الإسلام" أو "تخت الإسلام". ومن الأسماء الأخرى التي عُرفت بها المدينة خلال العهد العثماني: "دار السعادة" (بالتركية العثمانية: در سعادت)، "الدار العالية" (بالتركية العثمانية: دار عاليه)، "الباب العالي" (بالتركية العثمانية: باب عالي)، "مقام العرش" (بالتركية العثمانية: پايتخت)، و"الأستانة" (بالتركية العثمانية: استان) بمعنى "عتبة السلطان" أو "عتبة الحكومة". وبحلول القرن التاسع عشر كانت المدينة قد حصدت عدداً من الأسماء التي عُرفت بها لدى الأجانب والأتراك. فكان الأوربيون يستعملون لفظ "ستامبول" إلى جانب "القسطنطينية" للإشارة إلى المدينة ككل، أما الأتراك فلم يستعملوا اللفظ الأخير إلا للإشارة إلى شبه الجزيرة التاريخية الواقعة بين مضيق القرن الذهبي وبحر مرمرة. وفي عام ١٩٣٠ اعتمد اسم "إسطنبول" رسمياً ضمن إصلاحات "كمال أتاتورك" القومية، ليكون الاسم الرسمي الوحيد للمدينة. يذكر أن كلمة "إسطنبول" تشتق من الكلمة اليونانية البيزنطية "إستنپولين" (باليونانية: εἰς τὴν Πόλιν)، أو "إستانپولين" (باليونانية: εἰς τὰν Πόλιν) باللهجة الإيجيّة، التي تعني "في المدينة" أو "إلى المدينة". وهي اليوم مقر المفتي العام للجمهورية التركية، ومقر بطريرك القسطنطينية المسكوني، وبطريرك القسطنطينية للأرمن الأرثوذكس.

- ولكنـــك قلت أنهم كانوا قلة لا يعتد بها ضمـــن أقلية! فكيف وصلوا إليه، وكيف عرف بدعتهم، كما تسميها، ومماهاتها للأسلوب الروماني الغربي؟

- عـــن طريق أحد المقربـــين إليه من رجال البلاط، وقد كان أســـقفاً من المتبنين لبدعة ســـابيليوس. وفعل كل ما بوســـعه لتقريبها أكثر من المفاهيم الرومانية الغربية (تعدد الأقانيـــم)[١]، ومن ثم من فكر إمبراطوره العتيد. ومـــن الطبيعي أنه قد حاول التضخيم من الحجم الفعلي لطائفته، التي كانت محدودة التأثير فعلاً في ذلك الوقت. وربما كان قسطنطين يعلم جيداً أن تلك الطائفة الغربية لا يعتد بها بالنسبة إلى بقية المســـيحيين، لكن هذا لم يكن حجر عثرة في طريق قســـطنطين الذي كان يتبع مبدأ فرق تســـد، ويهدف إلى تقوية الخلاف بين طوائف المســـيحيين، هذا إن افترضنا فيه ســـوء النية[٢]، بل ربما كانت هذه البدعة نفسها هي من ابتداع الأباطرة الذين مافتئوا يتدخلون في الشـــأن المســـيحي، ومنهم من حاول منذ البداية ضم المسيح إلى قائمة الآلهة الرومانية[٣]، ولا أســـتبعد أن قسطنطين قد ظن فعلاً أن المسيحية لم تكن بعيدة عن بقية الأديان الرومانية متعددة الآلهة، وأنه كان يؤمن بإخلاص أنه يســـاهم بتنقية المسيحية الحقيقية من بدعة التوحيد الشرقية، إن افترضنا فيه حسن النية.

- هل نستطيع أن نفترض به حسن نية بعد كل هذا؟

سأل أبراهام مستنكراً؟ فأجاب أحمد بهدوء:

- ولم لا؟ فالتاريخ يؤكد لنا أن تصرفات قسطنطين في سنواته الأخيرة قد اختلفت جذرياً، وأنه ندم أشـــد الندم على ما فعل. ووقتها كانت نواصي الأمور كلها بيده، ولم يكن بحاجة إلى مداهنة أي أحد.

---

(١) كان سابيليوس ينادي بوحدة المسيح والله في الكيان أي في الأقنوم.

(٢) يرى المؤرخون الغربيون أمثال "ول ديورانت" إن قسطنطين كان وثنياً مع الوثنيين وأريوسياً مع الأريوسيين وأثناسيوسياً مع الأثناسيوسيين لتحقيق أغراضه السياسية.

(٣) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- كيف اختلفت تصرفاته؟

- كما يقول المؤرخون، فقد أصبح قسطنطين في أواخر أيامه أكثر المبشرين في دولته مثابرة على عمله، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها. ويبدو أن عقيدته المسيحية (على دين التوحيد الذي اعتنقه أخيراً)، والتي ربما كانت في بدايتها خطة سياسية، قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص حالما توصل إلى مغزاه الحقيقي.

فتساءل الأب ديمتري مغيراً دفة الحديث:

- من قصدت برجل البلاط المقرب من قسطنطين؟

- الأسقف "هوسيوس القرطبي"[١].

- ولكن هوسيوس هذا هو الذي أرسله قسطنطين إلى الإسكندرية ليحل الخلاف الذي نشب بين المسيحيين الأرثوذكس وبين الأريوسيين، مما يعني أنه كان محايداً.

- يبدو أنه قد أرسله للشد من عضد الأقلية التي تتبع الأسلوب الغربي في المسيحية ضد المسيحيين الشرقيين. فأنت -ولا ريب- تعرف أيضاً أنه ذهب إلى ثغر "ميناء" في الإسكندرية، حيث تشاور مع الأساقفة البولسيين فقط، ثم عاد إلى الإمبراطور دون حتى أن يقابل أريوس نفسه، أو حتى أياً من بقية القساوسة الموحدين. وهناك أخبر الإمبراطور أن وضع عملائه صعب للغاية، وأن فرض معتقدهم الغربي لن يتحصل بمناصرة بعيدة غير مباشرة. لذا أشار عليه بضرورة عقد مجمع حكومي "ملكي"، وأن يدعى إليه رؤساء الكهنة في الشرق، ويحضره بنفسه، ثم يعلن فيه قانوناً رسمياً يحدد شكل المسيحية التي ترضى عنها الدولة وتناصرها بسخاء، ويبت في موضوع إعادة معمودية الهراطقة (الأريوسيين) الذين تعمدوا ولكن ليس باسم الآب والابن معاً، وأن يلمح أن الخروج عنها هو خروج عن القانون. أي أن نتيجة المجمع الشكلي كانت محسومة سلفاً لـ"المفهوم الغربي التأليهي للمسيحية".

---

(١) History of Dogma Harnack VI pp٢٦ "تاريخ العقيدة"، الجزء الرابع، لأدولف هرنك، ص٢٦.

- ألا ترى أنك مخدوع بنظرية المؤامرة؟!

- غريب أن أســـمع هذا منك يا سيدي. ألم تســـفه هذه النظرية أنت نفسك قبل قليل في معرض نقدك للتأثيـــر اليهودي؟!...ثم إنني لا أتحدث عن مؤامرات هنا، بل عن حقائق دامغة، وإن كانت تفسر بفرضيات مختلفة.

هنا تدخل أبراهام كي يئد نقاشـــاً بيزنطياً جانبياً قبل أن يســـتفحل، وقال بشكل حاسم:

- شـــئنا أم أبينا فهناك الكثير من المؤامرات في التاريخ والسياســـة، ولا يجب أن يشغلنا نفي ذلك أو تأكيده عن موضوعنا الأصلي يا سادة.

قسطنطين ونيقية

أردف أبراهام محاولاً إعادة الموضوع إلى مكانه الصحيح:

- والآن ارو لنا يا أحمد كيف حقق الإمبراطور قسطنطين مشروعه؟

- بعد أن وجد أن الشكل الغربي للمسيحية لن يترسخ في الشرق بدون مناصرة مباشرة وحازمة من شخص الإمبراطور، أرسل من فوره منشوراً يدعو فيه جميع رؤساء الكهنة الشرقيين إلى الاجتماع، متكفلاً بوسائل سفرهم، وما يلزم من المال لمسكنهم ونفقاتهم. وقد اختار قسطنطين مدينة شرقية[١] مكاناً لعقد المجمع، "مجمع نيقية" الذي عرف لاحقاً بـ"المجمع المسكوني الأول"، وحرص على أن يكون عدد الأساقفة الغربيين فيه رمزياً[٢] كي يكون الأساقفة الشرقيون هم الأغلبية الساحقة[٣]، كما أصر على أن تسجل محاضر الاجتماعات والقوانين الصادرة عن المجمع باللغة اليونانية السائدة في الشرق، وليس بلغته اللاتينية السائدة في الغرب، كما أمر أن يترجم خطابه ترجمة فورية من اللاتينية إلى اليونانية. بل تقرر في اللحظات الأخيرة أن يكون رئيس المجمع هو بطريك الإسكندرية نفسه[٤]؛ لإضفاء نفحة شرقية أكثر إبهاراً على المجمع. ولكن مع

---

(١) تقع نيقية في آسية الصغرى (تركيا)، وهي المدينة التي شهدت انتصار قسطنطين على الشرق ولقبت بمدينة النصر. وحالياً تسمى بمدينة Iznik.

(٢) كان الأساقفة الغربيون في المجمع قرابة العشرة، وكانوا جميعهم من أتباع سابيليوس، وانضموا إلى جانب الإسكندروس وقساوسته في المجادلات.

(٣) كان عدد الحضور ألفين وثمانية وأربعين حسب المؤرخ المسيحي "ابن البطريق".

(٤) هذا ما تؤكده أغلب المصادر الكنسية. ولكن جاء في تاريخ العقيدة الجزء الرابع لأدولف هرنك، History of Dogma VI pp٥٥ ص٥٥: "إننا حتى لا نعلم من رأس هذا المجمع... ولكن مما لاشك فيه أن هوسيوس كان له تأثير كبير على قرارات المجمع".

كل هذه المظاهر الشـــرقية، فرضت في النهاية الرؤية الغربية دون غيرها[١]؛ ففي ذلك المجمع تغير فجأة معنى "اللوجس" (الكلمة)، وأُعلم الآباء الشرقيون أنها تعني "الجوهر" وليس "الكيان"!!! وهكذا فرض المفهوم الغربي للكلمة التي كانت تستخدم سابقاً للدلالة على الكائن (المســيح كلمة الله)[٢] فصارت تعني "من ذات جوهر" أي (المسيح الذي من ذات جوهـــر الله). وفي نهاية المجمع عقد مجلس مهيب للأســـاقفة المعتنقين للمفهوم الغربي للمســـيحية، وبقية الأساقفة الشرقيين الذين رضخوا له[٣] فأدانوا أريوس، كما

---

(١) يقول هرنك بعد أن ناقش التباين الشديد في وجهات النظر: "لذا يمكننا أن نفترض أن قسطنطين ترك المجمع حتى يصل إلى قرار، ولكن لما وجد أنه لم يصل إلى قرار اضطر إلى التدخل بالقوة وفرض القانون الذي اتفق عليه هوسيوس مع ألكسندر. History of Dogma VI PP٥٥.

(٢) سبب تسمية المسيح بـ"كلمة الله" جاء لأحد أمور ذكرها المفسرون الإسلاميون؛ منها أن المسيح عليه السلام لم يخلق وفق ناموس الطبيعة المعتاد، بل خلق بأمر التكوين الإلهي: "كن"، فكان. أي إنه خلق بكلمة الله التي ترجع إليها جميع المخلوقات التي ننسبها إلى السبب القريب (الأبوة)، إلا أن المسيح ليس له سبب قريب فينسب إلى السبب الأصل الذي نشأ عنه وجوده، فكان مثله كمثل آدم عليه السلام الذي خلقه الله بدون أب (بل بدون أم أيضاً).

(٣) كان عددهم ٣١٨ حسب ابن البطريق. وأغلب المصادر المسيحية تحاول جعلهم كل الحضور أصلاً!!! ولكن العلماء قد أقروا بأن هذا الرقم مشكوك فيه إلى حد كبير؛ فالعالم هرنك يؤكد في كتابه تاريخ العقيدة (الجزء الرابع، ص٥٥) وأيضاً (تاريخ الفكر المسيحي، الجزء الأول، ص٦٢٧) أن الوثيقة، وهي خطاب أثناسيوس، التي تنقل هذا الرقم مشكوك فيها إلى حد كبير. كذلك نجد اضطراب المؤرخين في ذكر العدد؛ فنجد أوسابيوس يذكر أنهم أكثر من مئتين وخمسين، كذلك ثيودريطس يذكر رقماً آخر، وفي رواية افستاثيوس أسقف أنطاكية عددهم مئتان وسبعون، وحتى أثناسيوس يذكر مرة أنهم كانوا ثلاث مئة، وبعد سنة ٣٦٠ جعلهم ثلاث مئة وثمانية عشر ليتساووا مع غلمان إبراهيم المتمرنين (كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى، الجزء الأول، ص ١٩٩-٢٠٠، الدكتور أسد رستم). بل يقول روفينوس المؤرخ أنه حتى الفلاسفة الوثنيون حضروا الجلسات وناقشوا الأساقفة (x ، . Ecc . hist ، Ruin ، ٣). أيضاً الموسوعة الكاثوليكية تقول: "العدد الحقيقي للذين حضروا المجمع غير معروف على وجه الدقة؛ فيوسابيوس القيصري يتكلم على أكثر من ٢٥٠ أسقفاً، وهناك مخطوطات عربية ترفع العدد إلى ألفين، وهذا دليل مبالغ فيه، ومع ذلك فمن المستحيل الحصول على الرقم الحقيقي للأساقفة، وكذلك عدد الكهنة والأرشيدكون ومساعديهم؛ فقد قيل أيضاً أنه قد حضر عدد كبير منهم.
(http://www.newadvent.org/cathen/11044a.htm).

أدانوا "أوريجانوس"[١] أيضاً لترسيخ وتثبيت فكرة تأليه يسوع وسد الباب على أريوس وبقية من يعتقد بمثل اعتقاده. واختلق مجمع نيقية عقيدة إيمان جديدة، وقام بـ"تعديل" العقيدة السابقة المعروفة باسم "عقيدة الحواريين"[٢]، مؤكداً أن يسوع من نفس طبيعة الله ومن نفس جوهره، باستخدام عبارة "هوموأوسيوس"[٣] وترسيخها. وقام بتثبيت عيد الفصح بأول يوم أحد بعد اكتمال قمر الربيع لإبعاده عن عيد الفصح اليهودي، وحدد نظم الكنيسة والكهنوت، وأقر مبدأ اللعنة على كل من يخالف هذه التعليمات الكنسية!! وبعد أن وقع المجتمعون على قانون الإيمان، أقام لهم الإمبراطور حفلاً عظيماً، ثم عادوا إلى بلادهم محملين بالهدايا. ولكن بعد عودتهم إلى كنائسهم، راح الموقعون يرفعون

---

(١) مع أنه يُعد من آباء الكنيسة وأحد آباء تفسير الأناجيل، إلا أنه كان يؤمن بالتصعيد المطلق لله.

(٢) يتفق علماء اللاهوت على أن الصيغة التي وصلتنا حالياً من قانون إيمان الرسل مؤلَّفة من صيغتين دمجتا الواحدة في الأخرى، صيغة طويلة تتكلم على المسيح وصيغة أقصر تتكلّم على الثالوث. وهم ينقسمون بين رافض لذلك القانون رفضاً كليّاً مثل رئيس أساقفة أفسس مرقص أو جينكُس الذي صرّح في مجمع فلورنسة عام ١٤٣٨ قائلاً: "نحن لا نعرف قانون الرّسل هذا. . . "؛ وبين قابل لمضمونه الحالي ولكنه رافض لنسبته هو بعينه إلى الرّسل، مثل لورنسيوس دي فالّا المتوفّى عام ١٤٥٧م؛ وبين معتدل في أحكامه من مثل العالم إيراسْمُس (١٤٦٩ - ١٥٣٦) الذي قال: "لست أدري هل سلّم الرّسل أنفسهم القانون المدعوّ (قانون) الرّسل. إنّما هو يحمل، على الأقلّ، علامة المهابة والنصاعة الرسوليّتين".

(٣) استخدم مجمع نيقية اصطلاح "هوموأوسيوس"(Hyposasis) بمعنى "الواحد" (الأدق بمعنى "المماثل") في الجوهر مع. . أو المساوي في الجوهر لـ. . ". وأرادوا أن يثبتوا بهذا الاصطلاح أن الابن (المسيح) مع الأب (الله) هما واحد. وأن هذا الجوهر هو كيان أساسي واحد. ثم أضاف المجمع بعد قانون الإيمان نصاً جاء فيه أن الابن "ليس من هيبوستاسيس" (Hypostasis) آخر" أي "ليس من جوهر آخر". ويقول اللاهوتي الأرثوذكسي د. خريستو: "ويبدو أن القانون دبجه لاهوتي غربي من المحتمل أن يكون "هوسيوس" أسقف قرطبة (الأريوسية للبروفسور ب. ك خريستو أستاذ الآباء بجامعة تسالونيكي باليونان) ويوضح أن كلمة هيبوستاسيس هي ترجمة للكلمة اللاتينية "Substantia". إلا أنه في الغرب، نظراً لعجز اللغة اللاتينية، كانت كلمة Substantia تعني كلاً من "أوسيا" Oucia أي الجوهر أو الكيان، وكلمة "هيبوستاسيس" Hypostasis أي القوام أو الأقنوم. لذا أعلن مجمع نيقية وحدة تشابه هذين الاصطلاحين.

إمضاءاتهم عن قانون الإيمان واحداً تلو الآخر[١]، تأثراً بالأغلبية الرافضة من أساقفة الشرق، المستنكرين للتغير الطارئ على عقيدتهم والتفسير الشاذ للكلمة[٢]. ومما زاد الطين بلة، هو ابتعاد الإمبراطور عن التلميح وسياسة الإغراء والترغيب، وإصداره قراراً يفرض فيه قانون الإيمان المتفق عليه بالإرهاب والقوة[٣].

- ادعاؤك بأن نتيجة المجمع كانت محسومة سلفاً، هو محض افتراء؛ إذ إن السبب في عقد المجمع أصلاً كان عندما عرف الإمبراطور قسطنطين بالالتباس الذي أنشأه أريوس (الكاهن الأول للإسكندرية) مع الإسكندروس بطريك الإسكندرية، فأرسل دعوات إلى جميع الأساقفة ورؤساء الرهبان للحضور إلى مدينة نيقية والاجتماع بالاثنين حتى يظهر الشخص المخادع بينهما. وكون حجة بطريك الإسكندرية ومن معه

(١) جاء في "قاموس الآباء والقديسون" عن أبي التاريخ الكنسي أوسابيوس القيصري: "في مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ لم يكن يميل إلى القانون النيقاوي لكنه وقّع عليه دون قبول داخلي، وقد انحاز إلى الطرف الأريوسي بعد انفضاض المجمع". J. Quasten: Patrology، Vol ٣، p ٣٠٩ كما جاء في "تاريخ الفكر المسيحي، الجزء الأول، ص ٦٣٢" ما نصه: "وعندما حرم هذا المجمع المسكوني أريوس وأتباعه تنفس الإمبراطور قسطنطين الصعداء، وظن أن الخطر الذي كان يهدد الإمبراطورية من الناحية الدينية قد انزاح، كما أن الكنيسة وخصوصاً كنيسة مصر شعرت بأن هذا العقاب الذي نزل بأريوس ومشايعيه عقاب إلهي فقد انتصرت الكنيسة، فأبواب الجحيم لن تقوى عليها. ولكن للأسف الشديد فإن كثيرين من الأساقفة والآباء الذين اشتركوا في أعمال هذا المجمع عادوا إلى أبرشياتهم وكنائسهم وبدؤوا من جديد ينادون بالتعاليم التي كانوا يعلمون بها قبل هذا المجمع المسكوني" مما يوضح أنهم كانوا موحدين، وأن ما قبلوه في المجمع كان نتيجة الإجبار والخضوع لسلطة الإمبراطور.

(٢) حتى الموحدون المتساهلون أو "الأريوسيون المعتدلون" (شبه الأريوسيين) كما اصطلح على تسميتهم (Semi - Arians) أصروا على التمييز المشدد بين الآب (الله) والابن (المسيح). ورفضوا اصطلاحي مجمع نيقية واعتبروهما سابيليان (نسبة إلى بدعة سابيليوس الغربية). (الأريوسية للبروفسور ب. ك خريستو أستاذ الآباء بجامعة تسالونيكي باليونان).

(٣) في واقع الأمر فإن مجمع نيقية ولد ميتاً، وبعد سنتين فقط تراجع عنه الإمبراطور نفسه، وأعاد أريوس من منفاه، ثم استدعى باقي أنصاره وأعادهم إلى مناصبهم أيضاً. وبعد ذلك بثمان سنين عقد مجمعاً آخر وتبنى قانون إيمان توحيدي، وألغى مجمع نيقية وقانون إيمانه رسمياً (ملاحظة: تم الأخذ بقراراته الأخرى بالنسبة إلى تنظيم الكنيسة غيرها)، ولكن الذي بعث مجمع نيقية وقانون إيمانه كان بعض الأباطرة المتأخرين كما سيمر معنا بعد قليل.

كانت هي الأقوى لأنهم أعطوا اللوجوس معنى مسيحياً خالصاً، وكون نتيجة المجادلات حسمت لمصلحتهم لأنهم أثبتوا فعلاً أنهم على الحق، لا يعني بتاتاً أن كل هذا كان مخططاً له منذ البداية.

- إذا كانت حجة أريوس هي الأضعف فلماذا لطمه "نيقولاوس" (الذي أصبح قديساً بعد ذلك) على وجهه "عندما رآه قد أسكت الحضور بقوة حجته"؟!!!! أو حسب التعبير الحرفي للتاريخ الكنسي: "وعندما رأى القديس نيقولاوس أن أريوس بفلسفته سيسكت رؤساء الكهنة، وبسبب غيرته الإلهية تحركت مشاعره فقام من مكانه ولطم أريوس لطمة على وجهه حركت كل جسمه، فاعترض أريوس قائلاً أمام الملك: أيها الملك العادل أمن العدل أن يضرب الواحد الآخر أمام عرشكم الملوكي، إذا كان له قول فليتكلم كباقي الآباء، وإذا كان جاهلاً فليسكت كما سكت الذين قبله"[1]، وأولئك الذين سكتوا، فعلوا ذلك لأن أريوس أسكتهم بالاستشهاد بآيات الكتاب المقدس نفسه. وأولئك الذين ردوا عليه لم يستطيعوا تأييد وجهة نظرهم من الكتاب، فلجؤوا إلى "الفلسفة" التي تحاول أنت أن توحي بأن أريوس هو من استعان بها!!! مع أن العكس تماماً هو الصحيح؛ فقد جاء في المصادر المسيحية بالحرف أن هذا المجمع قد أدّى "عملاً مبتكراً": "حيث ناقش صيغة موحدة للإيمان، بعد أن أصبح واضحاً بأن إعطاء

---

(١) جاء هذا حرفياً في الموقع الكنسي "نور الشرق"

http://www.nouralsharq.org/forum/searchresult.asp?keyword=%E5%ED%E1%C7%E4%C9

تحت عنوان "أبينا الجليل في القديسين نيقولاوس رئيس أساقفة ميرا (لا أعرف معنى رئيس أساقفة، خاصة أن ميرا كما يظهر من المقال مدينة صغيرة بجانب باترا؟!!!!!) من أعمال ليكية الصانع العجائب". وفي نهاية الحديث عن "دوره الهام في مجمع نيقية" (لم يذكروا من الدور إلا اللطمة) جاءت هذه الملاحظة: "ميرا هي المدينة الوحيدة في الإمبراطورية التي لم تدخل إليها الأريوسية بسبب القديس نيقولاوس". وفي هذا اعتراف بعظم انتشار التوحيد الذي لم يفقد في طول الإمبراطورية وعرضها إلا في مدينة صغيرة فقط.

براهين من الكتاب المقدس لا يمكن أن تحل المشكلة بشكل جذري، فما إن يستشهد المناوئون للأريوسية بآية من الكتاب المقدس حتى يجيبهم الأريوسيون بأخرى، فكان لابد من إيجاد المصطلحات (الفلسفية) التي تعبر حقاً عن الطبيعة المشتركة للآب والابن خارجاً عن النص الكتابي"[١].

فسأل أبراهام مستغرباً:

- هل يمكن أن يعبر عن طبيعة إله خارج النص الذي أوحى به؟!!! ومن أين؟ من الفلسفة[٢]!!!

- هذا ما حصل فعلاً، وأبلغ دليل على ذلك هو تحول لفظة "كلمة الله" (اللوجوس) إلى "ذات جوهر الله". والأهم من ذلك: إذا لم تكن نتيجة المجمع محسومة مسبقاً، وإذا كان المجمع قد عقد للحكم بين طرفين متنازعين بمنتهى الحياد، وبرغبة صادقة لإظهار المخادع بينهما، فلماذا تقرر إذن أن يكون بطريك الإسكندرية، الذي هو متهم بالخداع وطرف أساسي في النزاع، رئيساً لذلك المجمع المحايد الذي ينشد الحق والإنصاف؟!!!! بل لماذا صنعوا له كرسياً عظيماً من الذهب ليجلس عليه كما تقول الرواية الكنسية؟

- فعلاً، هذا ليس حيادياً بتاتاً. فكيف رضي بقية الأساقفة بذلك؟

- لقد كان من المقرر أن يرأسه أسقف البلاط "هوسيوس القرطبي"، ولكن منظمي المجمع وجدوا أن تعيين أسقف شرقي من شأنه أن يحقق فائدة أكبر بالنسبة إلى الهدف المرجو من ورائه.

---

(١) من بحث "الكنائس المسيحية وتاريخها في سورية" للباحث المسيحي السوري "منذر نزهة" منتديات صافيتا ‹ المنتدى الثقافي ‹ أديان وعقائد

http://www.safita.cc/VB/showthread.php?t=6558

وقد قمت بالاقتباس الحرفي من بحثه القيم في أكثر من موضع من هذه الرواية، وبالذات في الفصل (الموقف) التالي. فقد قام بجهد جبار في تلخيص مراجع كنسية ضخمة، وعرضها بأسلوب سلس ومبسط وشامل في الوقت نفسه.

(٢) جاء في تفسير ابن كثير للآية ٣١ من سورة التوبة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا. وقال السدي: "استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم".

- ولماذا الإسكندروس بالذات وهو طرف أساسي في النزاع؟ لماذا لم يعينوا أسقفاً شرقياً آخر؟

- كان القساوسة الشرقيون المؤمنون بالمفهوم الغربي للمسيحية قليلي العدد بشكل ملحوظ، ولم يكن بينهم من يحمل لقب أسقف "بطريك" إلا الإسكندروس فحسب.

- هل يعقل هذا؟

- وأكثر من ذلك، لم يكن أولئك القساوسة الشرقيون ملمين أو متفقهين بالمذهب الغربي الذي ينادون به؛ وهو ما اضطرهم إلى الاستعانة بشماس (أدنى رتبة في الكنيسة) لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين. وقد اعترض الحاضرون على وجوده معهم أصلاً، نظراً لتدني رتبته الدينية، "إلا أن الملك لم يسمع لهم وأصر على وجوده لعلمه وقوة حكمته في الرد على أريوس"[١]، وقد قدموه عليهم رغم تدني رتبته الدينية وصغر سنه، فقط لكونه كان أكثرهم تمكناً في ذلك الموضوع الفلسفي المعقد[٢] الذي "يفوق قدرة العقل البشري" كما أشار الأب ديمتري قبل قليل، والذي استعصى على فهم بقية الحضور في المجمع[٣]، بل يستعصي على فهمنا نحن حتى الآن، لأنه: "أسهل بكثير على عقلنا البشري أن نقول إن الله لم يصبح هو نفسه كائناً بشراً، بل أرسل باسمه إنساناً إلى العالم. كما أنه لأسهل بكثير أن نقول إننا لم نؤلّه بل رفعنا إلى درجة أدبية ما"!!!

---

(١) ورد هذا في موقع الأنبا تكلا:

http://st-takla.org/Coptic-History/CopticHistory-02-History-of-the-Coptic-Church-Councils-n-Christian-Heresies/Encyclopedia-Coptica-History--005-Magma3-Nekia-325.html

تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، المجامع المسكونية المقدسة٥- المجامع المسكونية المقدسة: ١) مجمع نيقية ٣٢٥ م.

(٢) كان أثناسيوس أحد ألمع تلامذة "القديس أنطونيوس"، بالإضافة إلى أنه كان قد ألف كتاب "تجسد الكلمة". وبعد المجمع ألف كتاب "ضد الأريوسيين".

(٣) وربما كان هذا هو السبب الذي جعلهم يجلسون أثناسيوس على كرسي البطركية ليكون بابا للكرازة بعد ثلاث سنوات من ذلك المجمع، مع أنه آنذاك كان لا يزال شاباً صغيراً في السابعة والعشرين من العمر!!!

تنهد الأب ديمتري بعمق، ثم زفر بقوة، وقال غاضباً:

- قال أحد الشعراء: "لا يقبل وحي إلا إذا كان مخطوطاً بأحرف من نور على كبد الشمس". وقانون إيمان نيقية مع صعوبة فهمه على العقل البشري، إلا أنه خط الوحي المسيحي فعلاً كأنشودة مجد على كبد شمس الألوهية. والأغلبية العظمى من المسيحيين يقبلون هذا الإيمان إلى اليوم. فلماذا لا تنظر إلى الأمر على أن من تسميهم بالنيقاويين أو الأثناسيوسيين، أو حتى "المتبنين للمفهوم الغربي للمسيحية"، كانوا فعلاً الأغلبية في الإمبراطورية بشقيها، فضلاً عن أنهم كانوا على الحق، وأن ذلك وحده كان سبب الاعتراف بهم كدين يحظى برعاية الدولة؟

- لسبب بسيط جداً؛ وهو أن ذلك ليس صحيحاً، فكل الدلائل تشير إلى أن أغلبية أتباع المسيح في ذلك الوقت كانوا موحدين، وكذلك كان أغلبية الحضور في مجمع نيقية نفسه، كما هو مثبت في كتابات الآباء أنفسهم[1].

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يعلن قسطنطين مذهبهم ديناً رسمياً للإمبراطورية فيكسب بذلك ولاءهم وينتهي الموضوع نهائياً؟!!! خاصة أن ليسينيوس وولي عهده قد قتلا، ولم يعد هناك ما يخشى منه.

- لم يكن قسطنطين آنذاك قد اعتنق المسيحية على أي مذهب، ولم تكن تحركه إلا مصلحته السياسية في بسط نفوذه الكامل على الشرق كما بسطه على الغرب. ولذلك فهو ليس معنياً بتقوية طائفة شرقية بالأساس وهو غربي، وذات تاريخ حافل بتحدي سلطة الدولة، وإثارة القلاقل والشغب، وتحلم بتحقيق مملكة الرب، وبالذات إذا كانت تمثل الأغلبية في الشرق، وتنبئ بخطر تمدد سريع إلى الغرب نفسه. ما

---

(١) اجتمع في نيقية ٢٠٤٨ من رجال الدين النصارى مختلفي الآراء والأهواء، وكان الموافقون على قول الإسكندروس ٣١٨، (تنكر أغلبهم لذلك لاحقاً) والذين خالفوه في تأليه السيد المسيح كانوا نحو ١٧٠٠، منهم نحو ٧٠٠ كانوا على قول أريوس.

الـــذي يضطره إلى ذلك ما دام يوجد بين المســـيحيين طائفة غربيـــة متفتحة، وعلى اســـتعداد للمجاملة في دينها بهدف هداية الوثنيين، وتســـتثني أتباعها من الكثير من القيود التي لم يرها الرومانيون مناســـبة، كالختان وفرض شرائع طهارة الطعام ويوم السبت وبقية شـــرائع الناموس القاسية، بالإضافة إلى غناها بمناسبات وأعياد دينية متبنـــاة من الوثنيات التي تأصلت لديهم، مثل: صلاة الأحد "عيد الشـــمس"[1]، وعيد رأس السنة "الكريسماس"، وشجرة الميلاد، و"سانتا كلاوس"، و"الإيستر"[2] الذي أصبح مكان "الفصح"، وغيرها. والأهم من ذلك كله أنها أقرب إلى المزاج الروماني المعتاد على حتمية تعدد الآلهة وتجســـدها في الأقانيم المختلفة. وهكذا تمت السيطرة على الدين

---

(١) كان قسطنطين وثنياً يجمع بمهارة بين متناقضات عبادة الشمس والمسيحية (تاريخ الكنيسة لـ"جون لوريمر"، الجزء الثالث، ص ٢٣). وقسطنطين لم يتخل عن عبادته لإله الشمس محتفظاً برموز هذا الإله على العملات النقدية جنباً إلى جنب مع شعار المسيحية، وهو الحرفان الأولان من كلمة "خرستوس" أي المسيح في اليونانية، وفي روما تمثال لقسطنطين يحمل عليه رمحاً عليه صليب منقوش فيه أنه حرر المدينة من الطغاة بفضل علامة الخلاص هذه. وثمة تمثال آخر له في القسطنطينية وهالة إله الشمس تحيط برأسه، ثم إن قوس قسطنطين الشهير الذي مازال قائماً في روما، عليه نقوش واضحة لإله الشمس.

(٢) من الملاحظ أنه يشبه كثيراً عيد "النيروز" الذي لا يزال الفرس والكرد وكثيرون غيرهم يحتفلون به إلى الآن. كما أن النيروز لا يزال هو "رأس السنة القبطية للشهداء" في مصر إلى الآن، وينسبونه إلى الإله "تهوت" أو "تحوت" إله الحكمة والعلوم والفنون والاختراعات ومخترع الكتابة ومقسم الزمن. وهو يصور بشكل رجل رأسه رأس طائر اللقلق. وكانوا يحيونه من الأول من شهر توت ويستمر الاحتفال به أسبوعاً، حتى أيام الظاهر بيبرس الذي منع الاحتفال به عام ١١٠٠ م لتطرف الغوغاء في استخدام الحرية المعطاة لهم. وحالياً عاود الأقباط إحياءه باعتباره رأس السنة القبطية المباركة، ويحفظونه كما تقول أدبياتهم "يوماً مقدساً بكل طهر ونقاوة"، وجاء فيها أنه: "إذا وقع عيد النيروز يوم أحد تقرأ فصول النيروز، ثم ترحل قراءات الآحاد الأربعة على آحاد شهر توت الباقية. + تقال الليلويا فاي بيبى ولحن طاي شورى ومرد الابركسيس الخاص بالنيروز كذلك مرد الإنجيل والأسبسمس الآدام والواطس وفى التوزيع تقال مديحة النيروز. + الفترة من ١ إلى ١٦ توت فرايحي" !!! والمصدر هو موقع
http://www.arabchurch.com/forums/archive/index.php/t-6429.html
منتديات الكنيسة ‹ المنتديات المسيحية ‹ سير القديسين ‹ "السنكسار". راجع الفصلين (الموقفين) المشار إليهما أعلاه.

الذي يثير الشـــغب والقلاقل، واختير[١] من بين رموزه أكثر الزعماء اعتدالاً وتساهلاً وانفتاحاً، بحيث لم يمانعوا بأن يقوموا بدور المطية للحكومة[٢].

اكفهر وجه الأب ديمتري وأخذ يعبث بخصلات لحيته البيضاء دون أن ينبس ببنت شـــفة، مما جعـــل أحمد يفكر جدياً بإنهاء الحوار، والتحـــدث عن أي أمر آخر، فقال محاولاً تغيير الموضوع:

- يبدو أن كثرة الحديث قد أجاعتنا مجدداً، ما رأيكم ببعض الحلويات؟

فتح أبراهام فمه ليتكلم، إلا أن الأب ديمتري سبقه وأجاب شارداً وهو لا يزال يعبث بلحيته، دون أن ينظر إليهما:

- ســـنتناول الحلوى فيما بعد. ولكنني أود أن أنبهك إلى أن آباء الكنيســـة لم يكونوا قـــط مطية للحكومة. والمطية الحقيقية كان أريوس الذي عاد إلى بطركية الإســـكندرية على حراب أسياده الأباطرة رغماً عن الشعب المؤمن. ولعلمك الخاص، يقال إنه فيما كان أريوس في وســـط ذلك الزحام في أثناء دخوله كنيسة الإسكندرية منتصراً، شعر بنفسه مضطراً إلـــى قضاء حاجته، فانفرد في مكان خفي، ولما أبطـــأ في الرجوع ذهبوا إليه فوجدوه ميتاً مطروحاً على وجهه ملطخاً بدمائه وأمعاؤه مندلقة إلى الأرض بين الأقذار.

---

(١) ينقل لنا أوسابيوس القيصري أبو التاريخ الكنسي تدخل قسطنطين صراحة في قرارات المجمع، وأنه هو الذي اقترح نص قانون الإيمان النيقاوي الذي تبناه المجمع. خطاب أوسابيوس القيصري لكنيسته كما ينقله ثيودريتس في تاريخه للكنيسة الكتاب الأول الفصل الثاني

The letter of Eusebius of Cæsarea to his Church(Theodoret. H. E. I. 11

(٢) تعتبر رسائل بولس عماد العهد الجديد عند تلك الطائفة، وفيها ما يدعو إلى الخضوع للحكومة (وإن كانت كافرة)، بل يعطي ذلك قداسة ويجعله أمراً دينياً مثل: "لتخضع كل نفس للسلاطين، السلاطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة... إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذي يفعل الشر. لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضاً بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً، إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، فأعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام" (رومه ١٣: ١-٧).

- لم أكن أتوقع منك هذا يا سيدي؛ فأنت تعرف أن هذه مجرد إشاعة متأخرة، وأنها غير مذكورة في أي مصدر تاريخي في تلك الفترة. ولكن المذكور هو أنه توفي في اليوم الذي كان أنصاره يطوفون به أزقة الإسكندرية في احتفال مهيب. وما دمت قد ذكرت الإشاعات، فهناك إشاعة تفيد بأن بطريك الإسكندرية المعزول أثناسيوس هو الذي دبر قتله. ولهذه الإشاعة ما يؤكدها في المصادر التاريخية، كما لها ما يبررها أيضاً. فعندما جاء أريوس في المرة الأولى لاستلام منصبه الجديد كبطريك للإسكندرية، رفض البطريك السابق قرار الإمبراطور، وأغلق أبواب الكنيسة بوجه أريوس. فحكم قسطنطين بنفيه[1] وإعادة أريوس إلى مقامه بالإسكندرية. وأثناسيوس هو من عاد إلى البطركية على حراب أسياده؛ فالمصادر الأرثوذكسية نفسها تقول: "بعد نفي القديس بولس بطريرك القسطنطينية والقديس أثناسيوس الرسولي من الإسكندرية أيضاً، اجتمع الاثنان برومه وتوصلا إلى المثول أمام الملك "قنسطانس" وأعلماه بأمرهما، فكتب لهما كتاباً إلى أخيه يأمره بقبولهما، ويتهدده بأنه إذا لم يقبلهما زال السلام من بينهما، وحل مكانه الحرب. وصل القديسان إلى القسطنطينية وقدما الكتاب إلى الملك "قسطنطيوس"Constance II فقبل وساطة أخيه وأعادهما إلى كرسيهما"[2].

- رويدكما أنتما الاثنان.

صاح أبراهام ذاهلاً. ثم أردف باستنكار:

- أنا لم أستوعب ما تتحدثان عنه!

- ماذا تعني؟

---

(١) نفاه إلى مدينة تريف في فرنسا عام ٣٣٥م، وقد نفي أربع مرات أخرى. ويقول سقراط المؤرخ: "إن دفاع أثناسيوس عن لاهوت المسيح في المجمع النيقاوي قد جر عليه كل البلايا التي صادفها في حياته".

(٢) موقع http://www.arabchurch.com/forums/archive/index.php/t-6429.html
منتديات الكنيسة ‹ المنتديات المسيحية ‹ سير القديسين ‹ السنكسار.

- مـــا هي قصة انتصار أريوس وتعيينه من قبل الإمبراطور قســـطنطين كبطريك للإسكندرية بدل أثناسيوس؟!!!

فأجاب أحمد مبتسماً:

- أفضل أن يجيب الأب ديمتري عن ســـؤالك هذا، حتى لا يحمل كلامي على غير معناه.

فالتفت أبراهام إلى الأب ديمتري، الذي قال متململاً:

- إن أريـــوس لم يرتدع، ولم يكـــف عن عناده، فواصل جهـــوده لدى الإمبراطور، وتمكن في النهاية من خداعه، فحكم ببراءته، هو وجميع أتباعه الأســـاقفة وإعادتهم إلى كراسيهم.

فعلق أحمد والابتسامة لا تغادر شفتيه:

- في الحقيقة لم يكن أريوس على أراضي الإمبراطورية أصلاً آنذاك، وبالتأكيد لم يكن له أية جهود مع الإمبراطور قســـطنطين، فقد كان منفياً من قبله، وحســـب دائـــرة المعارف البريطانية[1] فقد اســـتدعاه الإمبراطور في عام ٣٣٢ بعد أن أدرك منـــاورات أعدائه ومؤامراتهـــم، ولكن أريوس رفض الحضـــور، وفي عام ٣٣٥ كرر الإمبراطور طلبه، ولم يحضر أريوس إلا بعد رد الاعتبار إليه. وسواء قام قسطنطين بذلك طائعاً بســـبب اقتناعه بدينه الجديد، أو كارهاً نظراً للمعارضة الشديدة التي واجهته لاعتماده ديناً يخالف دين الأغلبية، فالثابت أنه هو من ســـعى إلى استرضاء أريوس ومناصريه، وأعلن مراراً تبرئتهم من تهمة الهرطقة، بل عين أريوس أســـقفاً على الإســـكندرية. وقد اســـتمر التوحيد بعد قســـطنطين على يد ابنه الإمبراطور قسطنطيوس الموحد الغيور.

---

(١) المجلد الثاني ابتداء من ص ٤٠١ .

- كلا؛ لم يكن قسطنطيوس الأريوسي هو الإمبراطور الوحيد آنذاك؛ فقد استولى على الشرق فقط[١]، في حين سيطر "قسطنطين الثاني" الأرثوذكسي على الغرب.

- لقد قرأت هذه الكلمات نفسها في بعض كتب التاريخ الكنسي، وفيها إيحاء بأن قسطنطيوس قد اغتصب السلطة. ولكن التاريخ يقول إن الإمبراطور قسطنطين الكبير قد قسم الإمبراطورية قبل وفاته عام ٣٣٧م على أبنائه الثلاثة: فأخذ "قسطنطين الثاني" الغرب (مهد بدعة التأليه)، و"قسطنطيوس الثاني" الشرق، وأخذ "قنسطانس" الجزء الأوسط من شمال إفريقيا، وأن التنافس والحروب قد نشأت فيما بعد إلى أن توحدت الإمبراطورية تحت حكم قسطنطيوس عام ٣٥٣-٣٦١م بعد وفاة أخيه قسطنطين الثاني، ومقتل قنسطانس. حيث أتى إلى روما، وقتل قاتلي أخيه، معلناً نفسه إمبراطوراً للشرق والغرب معاً. كما أعلن مذهب التوحيد ديناً للإمبراطورية، وأقره على ذلك البابا "ليباريوس" نفسه الذي كان بطريك رومه آنذاك.

- قسطنطيوس هذا هو الذي عمل على تقوية الأريوسيين في طول البلاد وعرضها. ولكن عموم المسيحيين عارضوهم بقيادة البابا أثناسيوس، الذي وقف لهم وقفة الأبطال، حتى كانت جملة مرات عزله ونفيه عن كرسيه خمس مرات، كما قلت. وفي كل مرة يعيده الله إلى كرسيه بكرامة عظيمة.

- هل تقصد من وراء ذلك، أن البابا أثناسيوس كان يمثل الأغلبية حينها؟!!!

- دون شك.

- هذا ليس صحيحاً؛ ففي كتابه "النظام الكنسي"[٢] يقول "ريتشارد هوكر": "لم يذق أثناسيوس طعم الراحة ولم ير السلام يوماً واحداً في الست والأربعين سنة التي

---

(١) توفي قسطنطين سنة ٣٣٧ م. وانقسمت الإمبراطورية من جديد. أصبح قسطنطينوسُ الثاني بن قسطنطين إمبراطوراً (٣٣٧-٣٦١)، وحكم وحده اعتباراً من سنة ٣٥١ م. كان يقيم غالباً في أنطاكية التي أصبحت عاصمةَ الشرق. وقد دافع عن النصرانية (على مذهب التوحيد) في الإمبراطورية.

(٢) مجلد ٢ ص ١٦٢- ١٦٥.

مضت ما بين اليوم الذي ارتقى فيه المنصة البطريركية والساعة الأخيرة من حياته في هذه الدنيا. فقد قلب له قسطنطين ظهر المجن، وتقلب عليه قسطنطيوس فأنزل به من صنوف التعذيب والإيلام كل ما استطاعت الضغينة والحقد أن تخترعا إذا تذرعتا بالسلطان والقوة النافذة! ثم أتى "يوليانوس المرتد" Julien l'Apostat[1] فكان ضغثاً على إباله، وتبعه الإمبراطور "فالنس"[2] فلم يكن بأقل من سلفه شراً، واتهموه بكثير من الجرائم[3]، حتى إذا ما سيق للمحاكمة كان قضاته أجراء متهميه. فلم يكن ثمة بد في نهاية الأمر من استسلام المجموع للعوامل الدنيوية وإدبار الناس عن أثناسيوس إن لم يكن عاجلاً فآجلاً، فكان بعضهم قادة الحملة عليه!!! ولحق بهم آخرون... ساقهم إلى التخلف عنه الخوف أو الفاقة أو أن الدنيا حلت في أعينهم. ومنهم طائفة من سليمي النية وقعوا في إشراك المغرورين الخادعين، ولعل الانخداع مع سلامة النية أحسن ما يلتمس من الأعذار للمارقين... وهكذا اندفع تيار تلك الأيام الجارف فأخلى الناس قاطبة له السبيل... إلا أثناسيوس"! كما جاء في كتاب "تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية"[4]: "بالرغم من انقلاب العالم كله ضده، إلا أنه بقي راسخاً في إيمانه، وجاءت عليه أيام صعبة وجد نفسه يصارع وحيداً في ساحة المعركة، خاصة

---

(١) ابن شقيقة قسطنطين، تولى الحكم عام ٣٦١ بواسطة ثورة جيوش الغال، وكان خبيثاً يطبق سياسة "فرق تسد"، غرضه أن يقوم المسيحيون على بعضهم البعض فتنحل عرا الوحدة الدينية بينهم. لذا بدأ حكمه بإعادة أثناسيوس إلى كرسي الإسكندرية، وأعاد معه كل الأساقفة الأثنوسيين. ويقول عنه المؤرخ "سوزومين": "لم يكن الدافع هو الإشفاق عليهم ولا حباً فيهم، لكنه كان يلذ له أن يرى الكنيسة منقسمة متنازعة في داخلها" (بإيقاظ الفتنة التي كانت قد انتهت أصلاً). كما دافع عن الوثنية الموسومة بالأفلاطونية الحديثة وإسقاطاتها على المسيحية، ثم لم يمض غير قليل حتى أسفر عن وثنيته الصريحة، فأغلق الكنائس كلها ونهب أوانيها وسلمها للوثنيين، وفتح معابدهم، وجاهر بتجديد عبادة الأوثان وقدم بنفسه الضحايا لها.

(٢) سنة ٣٦٤م، وكان موحداً.

(٣) من التهم التي حوكم بها أثناسيوس بالإضافة إلى الهرطقة: ممارسة السحر والاغتصاب.

(٤) ص ٢١٣ مار أغناطيوس يعقوب الثالث.

بعدما أنكر أسقف الغرب (بابا رومه) ليباريوس لاهوت السيد المسيح، واعتنق العقيدة الأريوسية". وكما جاء في موقع "الأقباط متحدون": "آمن القديس أثناسيوس بأن السيد المسيح ليس مخلوقاً بل خالق. وأنه مساوٍ للآب في الجوهر، وهو ذاته: "الله الكلمة المتجسد". وهو التعبير اللاهوتي الرائع الذي اشتهر به هذا القديس العظيم، ومن أجله خاض حروباً عنيفة أمام قوى الظلمة. وتعتبر دفاعياته الإيمانية عن لاهوت السيد المسيح من أروع ما كتب بهذا الخصوص، ولا تزال تدرس حتى الآن في كليات اللاهوت على مستوى العالم". وهكذا فهم يعترفون أن تأليه السيد المسيح عليه السلام كان دين القلة التي اقتصرت أحياناً على شخص واحد، في حين أن الأغلبية كانوا من الموحدين.

فتدخل أبراهام موجهاً الحديث إلى الأب ديمتري أيضاً:

- ربما كان أحمد محقاً في ذلك يا سيدي.

قال ذلك وهو يخرج رزمة من الأوراق من حقيبته ويفتش فيها، ثم قال كمن وجد كنزاً:

- ها هي.

ثم رفع الوثيقة قائلاً:

- هذه إحدى مطبوعات الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، حصلت عليها عندما كنت في مصر. وقد كتب فيها:

"ولما كان هذا الرجل العظيم (يقصدون أثناسيوس) قد شابه الرسل في جهادهم المدهش عن الإيمان القويم، فقد جملته الكنيسة بلقب "الرسولي"، كما استحق عن جدارة لقب "حامي الإيمان"، وأبلغ وصف لعظم ذلك الجهاد الذي قام به أثناسيوس، ذلك المثل الذي اشتهر حينئذ القائل: "كل العالم ضد أثناسيوس وأثناسيوس ضد العالم"، وقال أحدهم: "لعل الترجمة اللاتينية لهذه العبارة التاريخية أصل المثل الإفرنجي المشهور Athanasius Contra Mundum أي (أثناسيوس ضد العالم) الذي يضرب لمن يثبت على رأيه رغم إجماع الناس على معارضته". فلا عجب إذ نظم فيه أحد شعراء الفرنجة قصيدة أسماها "القيثارة الرسولية". وبلغ إعجاب الغربيين

به أن نقلوا رفاته تدريجياً نحو بلادهم من الإسكندرية إلى القسطنطينية فالبندقية ففرنسا فإسبانيا، وأخيراً فقد أحضر رفاته إلى مصر بكرامة عظيمة قداسة البابا شنودة الثالث "أثناسيوس القرن العشرين" في ١٠ أيار/مايو سنة ١٩٧٣م وأودعها في مزار خاص بالكاتدرائية المرقسية بالعباسية".

وهذا اعتراف من الكنيسة الأرثوذكسية المصرية بأن كل العالم كان ضد أثناسيوس وأثناسيوس كان ضد العالم، لدرجة أن يضرب المثل في العالم به لمن يغلب رأيه أخيراً، مع إجماع الباقين على رأي آخر[1]، وكما قال عنه الكاردينال نيومان: "إن هذا الرجل العظيم قد طبع على الكنيسة طابعاً لا يمحوه الدهر".

---

(١) في الحقيقة لم يكن أثناسيوس بهذه الصلابة، ولم يثبت على ذات الاعتقاد حتى النهاية. وأبلغ دليل على ذلك أن عقيدته في مجمع نيقية لا تطابق تماماً عقيدته بعد كل المعارضة الشرقية التي واجهها. حتى عقيدته الجديدة بكل التعديلات التي أجريت عليها، هي غير متطابقة تماماً مع عقيدة أنصاره حالياً. ويقول اللاهوتي الأرثوذكسي المدافع عنه بقوة وحزم البروفيسور خريستو: "وعلى الرغم من صرامته وحزمه لم يكن أثناسيوس متصلباً، بل كان يعرف كيف يتدبر الأمر بتفهم وتسامح. وعندما تخلص من الضغط السياسي الخطير عرض المشكلة بحذر ويقظة أكثر. ووضع موقف الأرثوذكسيين تحت الفحص. وعندئذ تحقق من "قصور حججهم وعجزها"، وسعى لكي يجد لها علاجاً. فإن المطابقة المشار إليها سابقاً بين الاصطلاحين "أوسيا" (أي الجوهر) و"هيبوستاسيس" (أي القوام) صارت مقبولة في الغرب بدون اعتراض. ولكن في الشرق رأى كثير من اللاهوتيين أن فيها خطر البدعة "السابيلية". وأدرك أثناسيوس هذه الحيرة وقام بـ"حركة توفيق" فعالة في أثناء مجمع الإسكندرية عام ٣٦٢م حيث أقر بأن كل من لا يرغب في الاعتراف بصيغة "الاوموأوسيوس" (أي المساواة أو الوحدة في الجوهر)، ولكنه يقبل في الوقت نفسه بوحدة "الآب والابن فإنه يوجد على الطريق المستقيم. وقام بإعادة التسليم بالمبدأ الشرقي للثالوث مع التفريق بين معنى الاصطلاحين "أوسيا"، و"هيبوستاسيس" مع إضافة معنى "طريقة الوجود الخاص بالكيان" إلى "الهيبوستاسيس". وهكذا فإن الله يكون من جوهر واحد ولكنه يوجد في ثلاثة أقانيم (هيبوستاسيس) أو أشخاص (بروسوبا)، وهذه الصيغة توسع فيها أكثر الآباء الكبادوكيوسن بعد ذلك.. ومن ذلك الوقت فتح الباب أمام جماعة "الهوميواوسيين". وأن أغلبية الذين رجعوا وانضموا إلى أتباع مجمع نيقية الأرثوذكسيين، وصلوا أيضاً بعد ذلك إلى قبول مبدأ "الهوموأوسيوس" (التساوي أو الوحدة في الجوهر)". (الآريوسية للبروفسور ب. ك خريستو أستاذ الآباء بجامعة تسالونيكي باليونان).

- Encyclopedia http://www.coptichistory.org/new-page-1904.htm أنسكلوبيديا موسوعة تاريخ أقباط مصر - coptic history بقلم عزت أندراوس.

- أجل فقد كان المسيحيون في طول الإمبراطورية وعرضها مجمعين على التوحيد.

قال أحمد معلقاً، فرد عليه الأب ديمتري بغضب:

- يكفيك تزييفاً للتاريخ.

- أنا من يزيف التاريخ؟!!! هل تنكر أن كثيراً من بطاركة الصف الأول في الكنيسة في تلك الفترة، مثل ليباريوس أسقف رومه و"مارس" أسقف خلقيدونية، و"بافيلينوس" رئيس أساقفة صور، بل و"ثاوغنس" أسقف نيقية نفسها؛ كانوا موحدين؟ وأن بطريك عاصمة الإمبراطورية القسطنطينية أوسابيوس النيقوميدي[1] كان موحداً أيضاً، وأنه هو بالذات من عمد الإمبراطور قسطنطين على مذهب التوحيد، وأن قسطنطين نفسه لم يسبق له مطلقاً أن تعمد على مذهب التثليث، حتى عندما كان يناصره؟

عض الأب ديمتري على شفتيه من الغيظ، ولكنه لم يخرج عن صدقه وأكاديميته، فقال معترفاً:

- كلا؛ لا أنكر ذلك.

- وهل تنكر أن جميع الأباطرة منذ مجمع نيقية حتى عام ٣٧٩م كانوا موحدين باستثناء يوليانوس المرتد؟ وأن دين التوحيد المسيحي، الذي تسميه بالأريوسية، قد ظل حتى ذلك الحين هو الدين المعترف به فيها؟

فسأل أبراهام بفضول:

- وماذا حدث في سنة ٣٧٩؟!!!

---

(١) كان أسقف بيروت، وأحد أهم أتباع لوسيان الأنطاكي الموحد ومن أصدقاء أريوس. ثم نقل لنيقوميديا مقر قسطنطين، إذ إن الإمبراطور وإن اتخذ مقراً في العاصمة الجديدة القسطنطينية، ولكنه لم ينقل إليها كل الجهاز الإداري الإمبراطوري، واكتفى بتعيين موظف كبير برتبة قنصل سابق لإدارتها. وتمتع هذا الموظف فيما بعد بمسؤوليات حاكم المدينة وما حولها نيابة عن الإمبراطور.

القانون

عدل أحمد جلسته وأجاب قائلاً:

- فـــي ذاك العام تولى الحكم الإمبراطور "ثيودوســـيوس"[١] الذي اجتهد في إلغاء مذهب التوحيد والتنكيل بأصحابه. وفي عهده عقد "مجمع القسطنطينية الأول" ٣٨١م للـــرد على مقولة "مقدونيوس"[٢] بأن "الروح القدس مخلوق مثل الملائكة"[٣]، ودعا إليه جميع الأســـاقفة الذين ظن أنهم لن يعصوا أمره. ومع ذلك، فقد انســـحب قسم منهم عندما طلب من المجتمعين في الجلســـة الافتتاحيـــة أن يعلنوا اعترافهم بمجمع نيقية

---

(١) الملقب بثيودوسيوس العظيم ٣٧٩-٣٩٥م. وقد أدى اغتيالُ الإمبراطور ڤالنتينيانوس الثاني (٣٧٥-٣٩٢) إلى ضم الغرب إلى ممتلكاته؛ وأصبح الإمبراطور الوحيد.

(٢) جاء عن مقدونيوس في المصادر الكنسية أنه كان أريوسياً (موحداً) متشدداً قبل أن يفقد كرسي القسطنطينية، وذلك للإيحاء بأن إنكاره لألوهية الروح القدس كان بدعة جديدة لا علاقة لها بالتوحيد! ولكن يظهر بوضوح أن مقولته تلك لا تتعارض مع توحيده، بل تؤكده تماماً في واقع الأمر. ومن ثم فإنه قد كان وظل موحداً متشدداً حتى آخر أيامه.

(٣) كلمة "الروح" وردت في القرآن بمعنيين؛ الأول: جبريل عليه السلام، والثاني: القوة والتأييد الإلهي. والروح من أمر ربي لا يعلمها إلا هو. وأما قوله تعالى عن المسيح: ﴿**وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾ [**النساء**: ١٧١] فلفظة ﴿**مِّنْهُ**﴾ فيه ليست تبعيضية كما قال النصارى، بل هي لابتداء الغاية؛ أي إن المخلوق بدأ من الله، أو هي للبيان؛ أي إن هذه الكلمة من الله، وليست من الشيطان أو من غيره كما يقول اليهود في المسيح عليه السلام. وأما قوله: ﴿**أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**﴾، فهو إلقاء مجازي، كما يقال: فلان ألقى كلمة أو أمراً، ومثله جاء في التوراة والإنجيل (انظر: الخروج ١٥: ٤، المزمور ٥٠: ١٦-١٧، مرقس ٢١: ١). ووصف المسيح بأنه روح منه يعني أن المسيح من روح الله (أي مباشرة، وليس عن طريق سنته في الكون بولادة المرأة نتيجة جماعها بالرجل)، فـ(من) ليست تبعيضية، بل هي بيانية أو لابتداء الغاية، كما قيل في آدم: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ وقال تعالى عن سائر المخلوقات: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [**الجاثية**: ١٣]..

وبقانـــون إيمانه الملغـــي[١]، وأهم ما تمخض عن ذلك المجمع هـــو إعادة العمل بقانون نيقية، وإضافة بند جديد إلى ذلك القانون، يعتبر أن روح القدس هو أيضاً أقنوم لله[٢]! كمـــا أدان المجمع كل المذاهب غير المتفقة معه، وأعلن تحريمها[٣]. وهكذا أصبح الرب عندهم مثلث الأقانيم بعد أن كان مثناها، وأصبح ثيودوســـيوس أول إمبراطور (وربما أول إنســـان) يتعمَّد باسم الثالوث (الآب والابن والروح القدس) الذي اكتمل رسمياً في

---

(١) يقال (ذكرنا فقدان محاضر جلسات مجمع نيقية وقانونه) إن نص ذلك القانون الملغي كان كالتالي: "نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق كل الأشياء، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله المولود من الآب، المولود الوحيد، أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل وتجسد وتأنس وتألم، وقام أيضاً في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات، وبالروح القدس، وأما الذين يقولون إنه كان زمان لم يوجد فيه، وإنه لم يكن له وجود قبل أن ولد، وإنه خلق من العدم أو أنه من مادة أخرى أو جوهر آخر، أو إن ابن الله مخلوق، أو إنه قابل للتغيير أو متغير، فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية". وقد تعرضت هذه الصيغة (في حال كانت الأصل فعلاً) إلى بعض التعديلات التي اعتمدتها المجامع اللاحقة، وأهمها هذا المجمع الذي ألغى الجزء الأخير بعد "وبالروح القدس" واستعاض عنه بما صار يعرف بالجزء الثاني من قانون الإيمان كما سنرى بعد قليل.

(٢) وقد صيغت الإضافة كالتالي: "... وبالروح القدس، الرب المحيّ، المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن، مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ونترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي".

(٣) نص القرار باللاتينية: Fidem non esse violandam Patrum trecentorum decem et octo, qui apud Nicaeam Bithyniae convenerunt; sed manere eam firmam et stabilem, et anathematizandam omnem haeresim, et specialiter Eunomianorum vel Anomianorum, et Arianorum vel Eudoxianorum, et Macedonianorum vel Spiritui Sancto resistentium, eet Sabellianorum, et Marcellianorum, et Photinianorum, et Apollinariorum.

وترجمته: لا إلغاء لإيمان ٣٨١ أباً الذين اجتمعوا في نيقية بيثينية، بل ليبقى نافذاً وإبسالاً لكل هرطقة؛ خصوصاً تلك التي للأقنوميين أي الأنوميين، والتي للأريوسيين أو الأفدوكسيين، والتي تشبه الآريانيين أو البنفماتوماكيين، والتي للسابليين، والتي للمرسليّين، والتي للفوتينيين والتي للأبولينياريين.

مجمعه. ويبدو أن هذا المجمع كان معدّاً ليكون مجمعاً مكانياً، وليس مسكونياً[١]؛ فلا يبدو أن أسقف رومه قد تلقى دعوة إلى المشاركة، أو ربما تلقى الدعوة ورفضها، فهو لم يشارك بأعماله، ولم يبعث حتى ممثلاً عنه.

- كيف تقول هذا؟!!! فمجمع القسطنطينية الأول كان "المجمع المسكوني الثاني".

قال الأب ديمتري محتداً، فأجاب أحمد موضحاً:

- لم يعتبر كذلك آنذاك، خاصة مع المشاكل التي صاحبته[٢]، والخلافات والانقسامات المؤقتة التي نجمت عنه[٣]، كما عقد بعده مجامع كثيرة، وبالذات في الشق الغربي من الإمبراطورية، لم تعتبره مسكونياً. إلى أن عقد مجمع "توليدو" في إسبانيا بعد قرنين (عام ٥٨٩م)، وقررت فيه كنائس الغرب قبول مجمع القسطنطينية الأول، واعتماد الإضافة التي ألحقها بقانون الإيمان مع بعض التعديل[٤]، فعد بذلك مسكونياً! وصار منذ ذلك اليوم يعرف بالمجمع "المسكوني" الثاني، باعتبار أن مجمع نيقية كان المجمع "المسكوني" الأول[٥]!!!

---

(١) مجمع مسكوني، أي يشمل ممثلي كل الكنائس في كافة أنحاء (الأرض) المسكونة، أما المجمع المكاني فهو الذي يشارك فيه ممثلو كنائس منطقة واحدة أو مناطق إقليمية معينة.

(٢) تغيب عن المجمع أسقف رومه وأسقف الإسكندرية، كما توفي في أثناء انعقاد المجمع "ملاتيوس" أسقف أنطاكية، كذلك اعتزل "غريغوريوس" أسقف القسطنطينية المثبت في كرسيه حديثاً. وهؤلاء هم أساقفة الكراسي الرسولية الأربعة في المسيحية.

(٣) أهم ما حفظه لنا التاريخ منها هو أن المجمع قام بالتدخل في انتخاب أسقف جديد لأنطاكية، فرفضه الأنطاكيون.

(٤) كان التعديل كالتالي: "وبالروح القدس، الرب المحيّ، المنبثق من الآب والابن"، وهكذا أصبحت خاصية الانبثاق للروح القدس لدى الكنائس الغربية (وكذلك البروتستانتية لاحقاً) من الآب والابن، في حين بقيت لدى الكنائس الشرقية من الآب فقط.

(٥) وتماماً مثل ما حصل مع مجمع نيقية، فقد ضاعت أعمال مجمع القسطنطينية الأول أيضاً، ولم يبق من قرارات المجمعين (المسكونيين) الأولين سوى ما أعيد ذكره للتثبيت في أعمال مجمع خلقيدونية، بناء على ما ذكرته كتابات الآباء المثلثين الذين غلبوا في نهاية المطاف وحفظت كتاباتهم، في حين أحرقت كتابات الآباء الآخرين أولاً بأول.

- ولكن إن كان الأريوسيون هم الأغلبية الساحقة من سكان الإمبراطورية آنذاك كما تزعم، فكيف تفسر تسليمهم بكل ذلك؟

- أعود فأكرر أنهم كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة من أتباع المسيح، لا من سكان الإمبراطورية بشكل عام. فالإمبراطورية آنذاك كانت لا تزال تعج بمختلف الأديان الوثنية المختلفة بآلهتها المتعددة. أما بالنسبة إلى ما أشرت إليه من استسلام جزء كبير منهم للإيمان النيقاوي وتعديلاته في النهاية، فهو صحيح للأسف. فقد نجحت الإمبراطورية والكنيسة الرومانيتان "بالقوة المفرطة" في فرض العودة إلى قرارات مجمع نيقية، وما أضيف إليها في مجمع القسطنطينية، وحولوا كل سكان الإمبراطورية بلا استثناء إلى مسيحيين مثلثين في نهاية المطاف. ولكن مع ذلك كان نجاحهم ضمن الوثنيين أكبر بكثير من نجاحهم ضمن الموحدين من أتباع السيد المسيح عليه السلام.

- إن الوثنيين لا يعنوننا الآن في شيء. ما يعنينا هم الأريوسيون فحسب. فإذا كانوا يشكلون الأغلبية العظمى بين المسيحيين في الإمبراطورية، فكيف قبلوا بإنكار مبادئ دينهم التي حاربوا طويلاً لحمايتها؟ وكيف استسلموا للفهم الذي قدمه مجمع نيقية ومن ثم القسطنطينية لدينهم؟!!!

- لم يسلموا بسهولة؛ فقد قامت العديد من الصراعات، ودارت الدوائر بين الموحدين والمؤلهين أكثر من مرة كما أوضحت قبل قليل، ولكن وصول أباطرة أكثر حزماً إلى الحكم، دفع أكثرية الموحدين، الذين تعبوا من عصور الاضطهاد والتنكيل الطويلة، إلى التخلي شيئاً فشيئاً عن بعض مفاهيمهم السابقة عن الدين مع تقادم الزمن. خاصة أن تأليه المسيح كان له جذور منذ أيام حياة عيسى نفسه، وله إشارات في بعض الأسفار المقدسة، وبالذات وفق التفسيرات الحديثة التي بدأت تظهر بأعداد متزايدة تحت تشجيع من الدولة.

- ولماذا لم يتعب الموحدون من الاضطهاد، ولم يسلموا طيلة القرون الثلاثة الماضية قبل المجمعين؟!

- لأن سلاح الترغيب، وكما يشهد التاريخ، لا يقل مضاء أو تأثيراً من سلاح الترهيب، فما بالك إن اجتمع الاثنان معاً؟!!!

فتدخل أبراهام قائلاً:

- أي ترغيب ذاك وقد كانت الإمبراطورية والكنيسة تقمعان التوحيد بقسوة منقطعة النظير؟ فكل من وجد بحوزته أي من تلك الكتب التي كانوا يسمونها الأناجيل "الزائفة" أو حتى كتابات أريوس أو أمثاله، أُرسل إلى الموت وأُحرقت كتبه!!!

- مع أن المجمعين قد فرضا على عموم المسيحيين تفسيرات جديدة لأصول دينهم، وكلفا الكنيسة استقلالها، وجعلاها عرضة لتدخلات متزايدة من قبل الأباطرة كلما عنّ لرأسهم خاطر، إلا أن هذين المجمعين أيضاً قد أنعما على المسيحية والمسيحيين بامتيازات عظيمة جداً، حتى أضحت الكنيسة أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية[1]. كما مهد هذان المجمعان، وبالذات الثاني، لجعل المسيحية الدين الرسمي لأعظم إمبراطورية في العالم، ولأول مرة في تاريخها، ومن ثم تمكنت الكنيسة من أن تمارس نفوذاً متزايداً، وصل إلى الأباطرة أنفسهم. وكان الموحدون يراقبون كل ذلك باهتمام، في الوقت الذي كانت عقيدتهم، كباقي العقائد الأخرى، مستمرة بـ"التطور". ومع مرور الزمن تكاثرت الأفكار والتفسيرات المتماهية مع الوضع السائد، وعلت الأصوات التي زعمت أن رموز التوحيد، مثل أريوس مثلاً، كانوا في حقيقة الأمر مؤلهين أيضاً، ولكنهم اختلفوا عن المذهب الحالي بتفاصيل ذلك التأليه فحسب. كما

---

(١) كتب "سبريان" يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حب المال عقولهم، ومن أن النساء المسيحيات يصبغن وجوههن، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدر عليهم المال الكثير، فأثروا، وأقرضوا المال بربا فاحش، وارتدُّوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر. ويبدي يوسبيوس حزنه من تناحر القساوسة في تنافسهم على المناصب الكنسية العليا.

ظهر بين المؤلهين شخصيات اتسمت بالصلاح والحكمة، وتأثرت بها أعداد متزايدة من عامة الموحدين الذين اختلطت عليهم الأمور في خضم الكم الهائل من الآراء المتباينة. ومع تعدد المدارس الفكرية وتفرع المذاهب الدينية[١]، امتزج كثير من الموحدين مع بقية المدارس والمذاهب الأخرى في إطار عقيدة الدولة المسيحية الرسمية، ولم يعودوا يذكرون كيف نشأ دينهم الأول أو لماذا[٢]. أما أولئك الذين لم يستسلموا لتلك الإغراءات، ولم يرضخوا للتيار السائد، فقد هربوا بدينهم، حيث لم يعد لهم مكان في

---

(١) يقول "بارت أرمان" في كتابه "الإفساد الأرثوذكسي للكتب المقدسة"، ص ٧ ما نصه: "إن الفهم التقليدي للعلاقة بين المذهب الأرثوذكسي وبين الهرطقة قد واجه تحدياً مدمراً سنة ١٩٣٤م بعد نشر كتاب "والتر باور" "الأرثوذكسية والهرطقة في المسيحية القديمة" Rechtgl auml ubigkeit und Ketzerei im auml ltesten Christentum الذي يعتبر أهم كتاب في المسيحية القديمة كُتب في وقتنا المعاصر. وقد ناقش باور في كتابه أن الكنيسة المسيحية الأولى في الحقيقة لم تشتمل على أي مذهب أرثوذكسي، الذي انبثق عنه أقليات منشقة متنافسة كثيرة. على العكس، فإن المسيحية الأولى اشتملت على عدد من النماذج المتشعّبة، والتي لم يمثل أيٌّ منها بوضوح الأغلبية العظمى للمؤمنين مقابل البقية في بعض الأقاليم، فإن ما أطلق عليه لاحقاً بـ"الهرطقة" كان في الحقيقة الهيئة الأصلية والوحيدة للمسيحية. وفي أقاليم أخرى، فإن آراء اعتُبرت لاحقاً ضرباً من الهرطقة، تعايشت مع آراء اعتنقتها الكنيسة كما هي فيما بعد، في الوقت الذي لم يضَع فيه أغلبية المؤمنين خطوطاً حاسمة وسريعة لتحديد الآراء المتنافسة. حتى ذلك الحين فإن "المذهب الأرثوذكسي" -الذي يعني جماعة موحدة تدافع عن المعتقدات الرسولية (الباباوية) المقبولة من قبل أغلبية المسيحيين في أي مكان- لم يكن موجوداً بعد في القرن الثاني والثالث، بالإضافة إلى "الهرطقة" التي انشقت ثانوياً عن التعاليم الأصلية عبر غرس أفكار يهودية أو فلسفة وثنية. إن المعتقدات التي اعتُنقت فيما بعد على أنها المذهب الأرثوذكسي، والتي أُدينت بالهرطقة، كلاهما كانا في الحقيقة تأويلات منافسة للمسيحية، ونالت إحداها أخيراً الهيمنة بسبب ضغوط اجتماعية وتاريخية على طرف واحد. ولما تمكنت مجموعة بشرية من تقوية نفسها بشكل كاف فوق بقية الفرق المسيحية، عندها فقط ظهر رأي "الأغلبية العظمى". وعندها فقط أصبح "الاعتقاد الصحيح" يمثّل رأي الكنيسة المسيحية على نطاق واسع".

(٢) ولعل حرق كتب الموحدين ساهم في ذلك أيضاً، حيث يقول المؤرخ "ديورانت" في كتابة الشهير "قصة الحضارة" المجلد الثالث: "وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام".

الإمبراطورية التي أضحت في نهاية المطاف مثلثة تماماً، حكومة وكنيسة وشعباً[١].

- لمـــاذا كل هذا الحقد على قانون الإيمان القويم يا بني؟!!! فهو لا يدعو إلى تعدد الآلهـــة كما تلمح، بل إليـــه يرجع الفضل في إقرار وحدانية اللـــه. ويكفي أنه قد بدأ بعبارة: "نؤمن بإله واحد".

قال الأب ديمتري معاتباً، فأجاب أحمد على الفور:

- ليس الموضوع موضوع حب أو حقد يا ســـيادة الأب ديمتري، بل هو سرد لحقائق واقعية. وسامحني أرجوك إن كنت قد تجاوزت الحدود بصراحتي الزائدة؛ ولكن عذري في ذلك هو أنني لست ممن يقولون شيئاً مرضياً في الوجه، ومن ثم أشياء مسيئة في الظهر. كما أن انتقادي لسلبيات قانون الإيمان النيقاوي لا يعني بأي حال من الأحوال أنني أنتقص من إيجابياته، أو أنني أنكر فضله على المسيحية.

- بالطبع؛ فأنتم المســـيحيون وبأغلب طوائفكم تؤمنون بهـــذا القانون، وتعتبرونه موحداً لله. ومع صراحة أحمد القاســـية إلا أنه يحترم اعتقادكم ذاك، فالاختلاف في الرأي لا يفسد للودِّ قضية.

قال أبراهام موضحاً، ومساعداً فيما ظنه محاولة من أحمد لترطيب الأجواء، فرد أحمد معترضاً:

- أنا لم أقصد المجاملة الدبلوماسية يا أبراهام، خاصة مع شخص متفهم وعقلاني مثل الأب ديمتري، بل قصدت ما قلته حرفياً.

بدا الاهتمام علـــى الأب ديمتري، وتفرس ملياً في وجه أحمد، ليتبين مدى جديته فيما يقول. أما أبراهام فقد بدا مشوشـــاً للغايـــة، فأي إيجابيات وأي فضل يمكن أن يعزى إلى قانون الإيمان بعد كل الذي عرفه عنه! لذا سأل أحمد مستوضحاً:

---

(١) في عام ٣٧٩م أمر الإمبراطور "فالنتيان الثاني" بتنصر كل رعايا الإمبراطورية الرومانية، وقتل كل من يرفض التنصير، واعترف "طومس نيوتن" بقتل أكثر من سبعين ألفاً.

- وكيف هذا؟!!!

- إن قانون الإيمان النيقاوي كان "الكمبروميس"[١] بين من تطرفوا في التركيز على إعجازية المسيح عليه السلام حتى ألهوه من دون الله، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبين من تطرفوا في التركيز على بشرية ذلك الرسول، حتى انتقصوا من عصمته وعزمه، ومن الإعجاز الذي خصه الله به دون كثير من رسله.

- أوضح أرجوك.

- كما تعلم، فهناك من رأوا في عيسى عليه السلام مجرد نبي من أنبياء بني إسرائيل العديدين، وأنكروا ولادته الإعجازية أو أنه كلمة الله، أو أنه أحيا الموتى بإذنه، وجهدوا في نفي كل تلك الأمور التي اعتبروها خرافات تأليهية ألصقت به على مر الزمان، مثلها مثل قصة قيامته من الموت، وزيارته للجحيم، وجلوسه على يمين الله تعالى ليدين الخليقة، وغيرها من القصص الأخرى التي رويت عنه بالباطل. بل وصل الأمر ببعضهم إلى رميه بالشذوذ الجنسي، وغير ذلك من النقائص البشرية التي نزه الله عنها ليس أنبيائه فحسب، بل كل عباده الصالحين أيضاً. وعلى النقيض من ذلك فهناك من غلوا في إعلاء شأنه واعتبروه هو الله الواحد، ومنهم من اعتبره إلهاً سيداً على مجموعة من الآلهة دونه، وبعضهم جعل الله نفسه ضمن تلك الآلهة التابعة! ومع كل عيوب قانون الإيمان وسلبياته، إلا أنه أنقذ أتباع عيسى عليه السلام من الغرق الكامل في تلك المستنقعات الموحلة.

- هل يعني ذلك أنك تؤيده؟

- كلا بالطبع، بل أراه ضل عن الدين الحق الذي جاء به المسيح عليه السلام، ولم يسر على هديه حرفياً دون زيادة أو تنقيص. ولكن ليس مَنْ طلب الحق فَضَلَّ عنه، كمن

---

(١) كلمة لاتينية تستخدم في اللغة الروسية وفي أغلب اللغات الأوربية، وتعني الخيار التوفيقي بين أضداد، أو الحل الوسط.

طلـــب الباطل فأدركه. وذلك القانون هو أقرب إلى الهدى من جميع تلك البدع الكافرة التي كانت ستخرج المسيحية عن دين الله كلية فيما لو انتصرت إحداها.

- وهل يعني ذلك أنك لا تكفر المسيحيين المؤمنين بالثالوث المقدس؟!!!

- ومن أنا لأكفر قوماً، وأقر إيمان قوم آخرين.

- ليس هذا ما عنيته، ولكن ألا يقول قرآنكم أن المثلثين كفار؟!!!

- بل قال الله في القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣].

- وما الفرق؟

- إني أظن، والله أعلم، أن المقصود بالتكفير هنا هم المســيحيون "المارســيونيين" الذيــن قالوا فعلاً أن الله ثالــث ثلاثة والعياذ بالله. أما المســيحيون النيقاويون فقد ضلوا بتعريف الله تعالى وفي فهم الإعجاز في خلق عيســى عليه الســلام وتأييد الله له بالروح القدس، ولكنهم لم يكفــروا بوحدانية الله كلية. كما كفّر الله تعالى طوائف مســيحية أخرى حيث قال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧ و٧٢]، ولكنه قال عن النيقاويين: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ(١) قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(٢) ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ(٣) وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠ - ٣١]، وهو في ذلك، والله أعلم، لم يدخلهم في زمرة الكفرة الوثنيين، وإنما بين ضلالهم وشــركيتهم، ومشابهتهم لأهل الكفر الحقيقيين بما قالوا بأفواههم. كما بين الله تعالى أنه أيد المســيح عليه السلام

---

(١) أي (يشابهون). فمن المفترض أن الكلام هنا باللغة الروسية، ومن ثم فإن أحمد لا يقرأ لهم كلمات القرآن العربية بل يترجم لهم معاني الألفاظ والمقصود بها.

(٢) كيف يضلون، يصرفون عن الحق وهو ظاهر.

(٣) أي استنصحوهم ونبذوا كتاب الله، فأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال.

فعلاً بالروح القدس: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٨٧ و ٢٥٣]، ولكنه قال لهم معاتباً، ومبيناً حقيقة الأمر الذي غلوا فيه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء: ١٧١]، وبيّن بعض الحقائق الإيمانية الأخرى التي صدقوا بها، ولكنهم ضلوا في تفسيرها بجدالهم. فقد أوضح الله تعالى لهم أنه رفع المسيح وجنبه الموت فعلاً، وأنه جاعل الذين آمنوا بذلك فوق الذين كفروا إلى قيام الساعة: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وهكذا أوضح حقيقة قهر المسيح للموت، ولكن ذلك لم يتم بقتله على الصليب ومن ثم قيامته كما يظنون، بل: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧]، كما بيّن لهم أن المسيح عليه السلام سيعود فعلاً إلى الأرض، ويقيم فيها حكم الله، وأن كثيراً منهم سيؤمنون به قبل أن يموت كباقي البشر: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩]، كما قال بعد وصف ولادته الإعجازية: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ[1] ﴾ [مريم: ٣٤].

- إذا كان المسيحيون النيقاويون يؤمنون بالحق فعلاً، ولكنهم ضلوا في تفسيره وغلوا في ذلك كما تزعم، فهل بقية الحق عندهم، وعند اليهود مثلاً، تجنبهم عذاب جهنم باعتقادك؟

- هذا الأمر يعود لله وحده، وليس لأحد من عباده أن يبت فيه دون قول صريح منه جل جلاله. وكل ما أستطيعه هنا هو استذكار قول العدل سبحانه وتعالى في

(١) يتجادلون بالباطل.

محكم آياته: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِند رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقريب منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩] أي إن الإيمان بالله واليوم الآخر وعملَ الصالحات لا يضيع أجرهم عند الله سبحانه وتعالى، ولكننا لا نعرف كيف، فعدله لا يقاس بمقاييسنا البشرية القاصرة، إذ إن الله سبحانه يعلم ما في الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

- وماذا عمن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً، ولكنه ضل في إيمانه بالله كما تقول، وأشرك معه المسيح في الألوهية؟

- أنت تسألني عن أمور فوق طاقة البشر، وليس لي أو لغيري أن يحسمها.

- أريد أن أعرف فقط ماذا يقول قرآنكم عنهم.

- لقد قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام بعد ذكر تأليه الناس له ولأمه: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فالله عزيز في انتقامه ممن عصاه، ولكنه حكيم في عدله وكرمه. وكما قلت قبل قليل، فإن عزته وحكمته لا تقاس بمقاييسنا الدنيوية الظاهرة، فهو يعلم ما لا نعلم. ورب مسلم يؤمن به وبرسوله محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن إيمانه لم يتجاوز لسانه، ولم يقرَّ في قلبه ولم يصدقْه عمله. ورب مسيحي لم تصله دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، أو وصلته على نحو مشوَّه فلم يؤمن بها، ولكنه سار على هدي الحق الذي يجده في كتابه، وآمن به ووقر ذلك الإيمان في قلبه وصدقه عمله، فيدخل الجنة، والله أعلم.

- أي إن بلغته دعوة رسولكم على حقيقتها كما تقول، ولم يؤمن بها مع ذلك، فلن ينفعه إيمانه السابق إذن.

- بلا شك. ولكن بشكل عام، إذا أراد الله بشخص ما خيراً هداه إلى الحق وفقهه فيه ليعبده حق عبادته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]. أما إذا كان ذلك الشخص غير مستحق للخير في سريرته التي لا يعلمها إلا الله وحده، فعندئذ يمده في طغيانه، وييسر له الجدال الذي يبعده عن الحق، حتى تحق عليه كلمته[1]، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٢٥][2].

بدا الانزعاج واضحاً على وجه الأب ديمتري، فقال لأحمد:

- ألا ترى أن كثرة استشهادك بالقرآن يخرجك عن الحياد الذي التزمنا به؟

- وكيف يمكن أن أجيبكما عن رأي القرآن (والحديث إن حققت الحاشية) دون أن أستشهد به؟!

- إنه محق في ذلك يا سيدي. فأنا من سألته عن رأي القرآن (والحديث إن حققت الحاشية) بعد أن أعجبت فعلاً بفهمه له بالنسبة إلى موضوع الإيمان النيقاوي.

قال أبراهام مدافعاً، فعلق الأب ديمتري قائلاً:

- رغم عدم اتفاقي معه مطلقاً بشأن فرضيته الخاطئة عن الضلال في قانون الإيمان القويم، إلا أنني أعجبت أيضاً بتفسيره الذي لا يمكن إنكار ما فيه من تحري العدل والمنطق؛ فالمجامع المسكونية استطاعت فعلاً التغلب نهائياً على كل البدع التي

(١) قال الإمام أحمد: قال رسول الله: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل" ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. رواه الترمذي وابن ماجة وابن جرير.

(٢) بحث عن الحديث وتخريجه لله بمعنى أن الله يطلع على القلوب، والذي يعتبر نفسه مسلماً ولكن سريرته فاسدة فإن الله تعالى يصرفه عن الحق الذي يزعم أنه من أهله وإن كان مواظباً في المساجد، ومن كان داخله خير قربه الله من الإسلام وإن كان كافراً

طرأت على المسيحية في القرون الأولى، فما لبثت أن اضمحلت وتلاشت خلال القرون التاليـــة، ولـــم نعد نعثر على أثر لهـــا إلا في كتب التاريخ والكتـــب اللاهوتية، وبقيت الكنائس مشتركة فيما بينها ومتحدة بالإيمان.

فتدخل أحمد قائلاً:

- أمـــا التوحيـــد فلم يكن بدعة، لـــذا فقد ظل وحده باقياً فـــي وجدان كثير من المســـيحيين. وكانت مكافحة ذلـــك بالذات، من أهم المعالم التي شـــكلت الاختلافات العقائدية في الكنيسة على مر العصور، إلى أن تبلورت العقائد المسيحية الحالية.

تلمس الطريق

سأل أبراهام أحمد مستفسراً:

- ماذا عنيت بقولك إن الرد على بقايا التوحيد كان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى اختلاف عقائد الكنائس الرسمية؟

- لقد كان رد أساتذة مدرسة الإسكندرية مثلاً على التوحيد، هو التشدد في تعاليمهم على الجانب الإلهي، والابتعاد قدر الإمكان عن استعمال تعابير تظهر الجانب الإنساني في المسيح. فتوخوا العبارات التي أوضحت كمال اللاهوت، وصاروا مونوفيزيقيين[١]. وكذلك بدعة "أبوليناريوس" التي ابتدأت في اللاذقية وانتشرت أولاً في سورية، كانت أيضاً رداً على التوحيد، ولكن بتطرف أكبر، فاعتبرته إلهاً تاماً وليس إنساناً بتاتاً[٢]، فأدى ذلك إلى تشدد أساتذة مدرسة أنطاكية على إنسانيته، واجتهدوا في إيضاح كمال الناسوت حذراً من تطرف أبوليناريوس بالرد على الوحدانية، فصاروا من أصحاب الطبيعتين المتحدتين[٣]، أي إن طرائق رد الكنائس الرسمية على دين التوحيد، وانتقاءها لعبارات مختلفة في ذلك، أدّى إلى اختلافات أساسية بينهم في

---

(١) القول بالطبيعة الواحدة في المسيح. طبيعة إلهية ذابت بها الطبيعة البشرية.

(٢) كان أبوليناريوس أسقف أو قس اللاذقية متأثراً بالأفلاطونية التي كانت تعلّم بأن الإنسان مكون من ثلاثة عناصر: الجسد "سوما" والنفس "بسيكه" وهي الحياة، والروح العاقلة "بروما" وهي العقل والإرادة. فقال أبوليناريوس بأن في المسيح حلت الكلمة "اللوجوس" مكان الروح العاقلة في جسد الإنسان. فالمسيح يتألف من جسد ونفس ولوجوس، وهو يعتمد في رأيه على ما ورد في إنجيل يوحنا "والكلمة صارت جسداً"، ويحاجج أبوليناريوس بقوله أنه لو كان للمسيح روح بشرية مثل البشر لكان من المستحيل أن يصل إلى درجة القداسة الكاملة لأن الخطيّة مرتبطة وعالقة بالروح البشرية. وقد أدان المجمع المسكوني الثاني أفكار أبوليناريوس وحكم بهرطقتها.

(٣) طبيعة إلهية وطبيعة ناسوتية اتحدتا دون امتزاج.

فهم وتفسير طبيعة المسيح. ولو تتبعنا كل التغيرات والتطورات التي نشأت على العقائد المسيحية، لوجدنا أن أغلبها كان رداً مباشراً أو غير مباشر على انتشار التوحيد بين المسيحيين، أما الطوائف المسيحية الكافرة، فلم تتطلب كل هذا الجهد من الكنائس الرسمية لقمعها، فتلاشت واضمحلت نهائياً. تماماً كما أشرتم قبل قليل.

فرد الأب ديمتري قائلاً:

- هذا ليس دقيقاً.

- بل هو كذلك. فقد عقدت أغلب المجامع، وبالذات تلك المسماة بالمسكونية، للرد على البدع المثارة في زمنها، وفي الوقت نفسه للرد على دين التوحيد أيضاً. ولكن مع نجاح كل مجمع في القضاء التام على البدع التي كانت تثار في عصره، كان يفشل في القضاء على التوحيد تماماً، فيكمل مسيرته المجمع التالي، الذي يحقق النجاح الكامل في القضاء على البدع التي استحدثت بعصره، ولكنه أيضاً لا يكاد يحقق نجاحاً يذكر في القضاء على التوحيد نهائياً، وهكذا دواليك.

- أنت تلقي الكلام جزافاً.

- مطلقاً. فبالنسبة إلى المجمع المسكوني الأول (نيقية ٣٢٥م) فقد قام أساساً لمحاربة التوحيد صراحة ولكنه فشل وألغي بعد سنتين وعاد التوحيد يسطع من جديد، ثم جاء المجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية ٣٨١م) وأعاد إحياء المجمع الأول ونكل بجميع الفرق المناوئة، ولكن فرقة التوحيد وحدها استطاعت الصمود. وظل الكثيرون مثل أستاذَي المدرسة الأنطاكية "ديودورس الطرسوسي" و"ثيودوروس المصيصي"[1] يعلمان بشرية المسيح الكاملة. ثم جاء "نسطور" أسقف القسطنطينية المتأثر بآرائهم، فأنكر أيضاً ألوهية المسيح أو أن الله يلد ويولد، وقال: إن "يسوع كان شخصاً مملوءاً بالبركة، لم يرتكب خطيئة، وتقدم في الكمال تدريجياً بإلهام من الله،

(١) ثيودوروس المبسواستي أسقف موبسواستيا، وهو أحد الرؤوس الثلاثة الذين سيمر معنا ذكرهم.

ولكنه مساوٍ للناس في إنسانيتهم. ومن ثم لا يجوز أن نصلّي له كإله وهو مائت متألم ومدفون، ولا أن ندعو العذراء مريم "والدة الله"، بل "والدة الإنسان"، فكون العذراء بشراً فهي لا تقبل أن تلد إلهاً". وكان يدعو يسوع إنساناً متوشحاً بالله وابن الله بالتبني، وأن اتحاده مع الله كان بعد الولادة، فاصطدم بأساقفة آخرين (على رأسهم "كيرلس" أسقف الإسكندرية) كانوا يؤمنون أن الاتحاد مع الله كان قبل الولادة وأنه كان تجسداً، وأن المسيح من ثم ذو طبيعة إلهية. وبدأت حرب شعواء بين الفريقين، لم يلبث أن انضمّ إليها "كيليستينوس" أسقف رومه مؤيداً لفريق كيرلس، و"يوحنا" أسقف أنطاكية مؤيداً لفريق نسطور. فقام الإمبراطور "ثيودوسيوس الثاني" بالدعوة إلى عقد "المجمع المسكوني الثالث"("مجمع أفسس الأول") للنظر في آراء الطرفين. وكعادة المجامع المسكونية، كانت الكلمة الفصل للإمبراطور على جهله بالدين. وحُلّ الإشكال بخلع نسطور من كرسي القسطنطينية، ونفيه إلى دير في أنطاكية وإعلان حرمه وبطلان تعاليمه، ووضع مقدمة جديدة لقانون الإيمان تقول: "نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله...إلخ"، وهكذا صارت مريم عندهم هي أم الله. ومع أن أسقف أنطاكية عارض قرارات المجمع، إلا أنه ما لبث أن رضخ بعد فترة من الزمن إلى رغبة الإمبراطور بتأثير من الأساقفة الآخرين الذين عقدوا مجمعاً محلياً تصالحياً في القسطنطينية سنة ٤٣٣م. ولكن عزل أسقف القسطنطينية وترويض أسقف أنطاكية لم يقض على الموحدين تماماً، فقد وجدوا ملاذاً آمناً في الشرق: "كنيسة المشرق"[١] التي بقيت مصرة على التوحيد.

---

(١) كنيسة المشرق، كما اصطلح على تسميتها، كانت تضم أغلب مسيحيي العراق وفارس والهند (التوميين نسبة إلى توما الرسول)، والذين صاروا يوصفون بعد ذلك التاريخ بالنساطرة. ويعود مقدار الحرية التي تمتعوا بها في عدم الالتزام بأمزجة الملوك وصراعات الأساقفة إلى وجودهم خارج نطاق سلطة الإمبراطورية الرومانية أصلاً. ولكن بعد ظهور الإسلام ودخول قسم كبير منهم في الدين الجديد المصدق لما بين أيديهم، لجأ الباقون إلى حفظ هويتهم المسيحية عن طريق انتهاج سياسة أكثر تقرباً من المسيحيين الروم.

- فريق نسطور هم "ديوفيزيقيون"[١] وليسوا موحدين.

قال الأب ديمتري معترضاً، فأجابه أحمد موضحاً:

- هذا ما صاروا إليه لاحقاً. ولكن نسطور وأتباعه الأوائل كانوا موحدين كما تؤكد الكتابات غير الكنسية. ولا تنس أن كل الكتابات الكنسية القديمة نفسها تقول إن نسطور تتلمذ على يد الأريوسيين، وأصر على بشرية المسيح ورفض رفضاً قاطعاً تسمية مريم العذراء بأم الله، بل نجد بين الآباء الذين كتبوا عن النسطوريين من لم يفرق بينهم وبين الأريوسيين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليعاقبة أيضاً.

- ربما كان سبب ذلك هو أن الكنيسة الرومانية كانت تنبز الأريوسيين بأنهم نسطورية أو يعاقبة، وفي الوقت نفسه تنبز النسطورية واليعاقبة بأنهم أريوسيون لتخرجهم من المسيحية وتكفرهم عند العامة.

- في الواقع، فإن هناك الكثير من الأدلة التي ترجح أن كلاً من نسطور ويعقوب، مؤسسي المذهبين المذكورين، وأتباعهما الأوائل، كانوا فعلاً من الموحدين المنكرين تماماً لألوهية عيسى عليه السلام وللتثليث. ولكن مع مرور الوقت تخلت الطائفتان بالتدريج عن الوحدانية، تأثراً بالخط العام للمسيحية السائدة، ودخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض، إلى أن تلاشت معظم الفروق الرئيسية بينهما وبين باقي الفرق المسيحية. وليس من السهل فهم ما وصلنا اليوم عن بدايات تلكما العقيدتين؛ فالتعبيرات المستعملة في وصفهما في كتابات تلك الفترة، وخصوصاً باليونانية، تحتمل أكثر من تفسير، كما أنها معقدة وغير واضحة حتى للمتخصصين. أما مؤلفات نسطور ورسائله، فالكنيسة تفخر

---

(١) أي المؤمنون بطبيعتين وأقنومين للمسيح.

بأنها أحرقتها كلها[١].

فقال أبراهام معترضاً كالعادة:

- لا داعي للخروج عن الموضوع بمجادلات جانبية يا أحمد، فيبدو أن هذا الموضوع يحتمل الكثير من الجدل، وليس هذا مكانه.

- كما تريد.

- إذن أكمل ما بدأته عن المجامع المسماة بالمسكونية؛ ما الذي حصل بعد الثالث منها؟!

- يتفق المؤرخون الكنسيون على أن رضوخ يوحنا أسقف أنطاكية للإمبراطور، وصلحه مع كيرلس أسقف الإسكندرية لم يمنع الانقسام الذي كان يتأجج في نفوس الأساقفة والشعب. فما لبث "فلافيوس" أسقف القسطنطينية أن بعث مقالة نسطور القديمة مرة أخرى، مما أدى إلى انعقاد "المجمع المسكوني الرابع"("مجمع أفسس الثاني" ٤٤٩م).

فقال الأب ديمتري معترضاً:

- أولاً: مجمع أفسس الثاني ليس مسكونياً، بل هو "مجمع اللصوص"[٢].

---

(١) حالياً تطور النسطوريون إلى "الكنيسة الآشورية" التي تحسب على الأرثوذكسية، ثم انشق بعض أتباعها عنها سنة ١٥٥٣م (نتيجة قانون وراثة الكرسي البطريركي الذي سنّه البطريرك "شمعون الباصيدي"، خاصة بعد وصول بعض البطاركة القاصرين إلى عرش البطريركية المورث) وانضموا إلى كنيسة رومه= =تحت اسم "الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية"، وتبعهم الكثير من الآشوريين. كما تطور اليعاقبة إلى "الكنيسة السريانية" الأرثوذكسية، وانشقت عنها أيضاً كنيسة سريانية كاثوليكية. ولو كان هذا حالهما سابقاً، لما كان هناك داع لأن تحاربهما الكنيسة بتلك الضراوة آنذاك، ولا لأن تكفرهم وتلعنهم! وبالتأكيد لما كان هناك ضرورة لنعتهم بالتوحيديين، أو للخلط بينهم وبين الأريوسيين، ولا إلى عدهم ضمن الشيع المهرطقة المتفرعة من الأريوسية!!!

(٢) هكذا تسميه الكنائس الرومية وترفضه جملة وتفصيلاً، وتعتبر أن مجمع خلقيدونية هو المجمع المسكوني الرابع الرسمي.

- ولكن بعضاً من الكنائس تعتبره مسكونياً! ليس هذا فحسب، بل آخر مجمع تنطبق عليه شروط المجمع المسكوني أصلاً[١].

- أولاً: لا يهمني ما يعتقده أولئك الهراطقة المونوفيزيقيون. ثانياً: لم يعقد مجمع أفسس الثاني لأن مقالة نسطور قد بعثت، بل بناء على التماس "أوطاخي"[٢] المبتدع لاستئناف الحكم الصادر بحرمه في مجمع مكاني عقده فلابيانوس أسقف القسطنطينية. وتتلخص بدعته المونوفيزيقية في أنه قال: "إن جسد المسيح مع كونه جسداً إلا أنه ليس مساوياً لجسدنا في الجوهر لأن الطبيعة الإلهية لاشت الطبيعة البشرية. وهذا معناه أن اللاهوت اختلط وامتزج بالناسوت"، وقد كان نتيجة مجمع اللصوص ذاك أن برأه؛ فقد كان أوطاخي ذا نفوذ كبير لدى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وحاشيته.

- إذا كان هذا فقط هو سبب انعقاد المجمع، فلماذا إذن تقرر فيه حرم وعزل كل من أسقف القسطنطينية فلافيوس وأسقف أنطاكية "دومنوس" و"تيودوريطس القورشي" أسقف قورش، وغيرهم ممن اتهموا بالنسطرة؟!!!

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن اللاهوتيين يختلفون في عدد المجامع التي تنطبق عليها هذه الشروط، وتستحق أن تسمى بالمسكونية. فبعضهم يعتبرها اثنين (كالكنيسة الآشورية حالياً، مع أنها لم تكن تعترف بهذين المجمعين أصلاً في بداياتها)، وبعضهم يقول إنها ثلاثة أو أربعة، (مثل الكنائس اللاخلقيدونية بشكل عام والكنيسة القبطية بشكل خاص)، وهناك من يعتبرها سبعة، (مثل الكنائس الخلقيدونية الأرثوذكسية)، وآخرون يقولون إنها ٢١ مجمعاً (أي الكنيسة الكاثوليكية)، وفي الحقيقة فإن أياً من تلك المجامع لا ينطبق عليها مصطلح "مسكونية" طبقاً للتعريف الذي وضعه اللاهوتيون أنفسهم. فكما رأينا كانت كلها مجامع مكانية أو إقليمية في أفضل الأحوال، ولم تتفق عليها جميع كنائس المسكونة. وهي لا تختلف عن بقية المجامع الأخرى، إلا بأنها حظيت باستمرار الدعم الحكومي لها، ووافقت القرار النهائي للكنائس الكبرى الحالية عن طبيعة المسيح والألوهية. أما بقية المجامع الأخرى، وخاصة تلك التي أقرت التوحيد. فقد أهملت تماماً، واستبعدت من التاريخ الكنسي، مع أن بعضها تحققت فيه شروط المسكونية أكثر من كل تلك المجامع.

(٢) رئيس أحد الأديرة قرب القسطنطينية وأشد معارضي نسطور وبقية الموحدين في زمنه.

- وإذا كان بعث مقولة نسطور هو السبب الحقيقي من وراء عقد مجمع أفسس الثاني كما تزعم، فلماذا رفضته جميع الكنائس الرومية؟!!!

- حسب المصادر الكنسية المونوفيزيقية[١] فقد تدخلت الأغراض والمطامع الشخصية في التفرقة بين صفوف الكنيسة الواحدة، فرفضت الكنائس الرومية مجمع أفسس الثاني بسبب الأنانية، وبسبب غيرة "لاون" أسقف رومه، الذي عز عليه تكليف ديوسقوروس أسقف الإسكندرية برئاسة المجمع دونه، وتجاهل رسالته، وإهمال مكانة كرسي رومه الرسولي، الذي كان يشق طريقه آنذاك لفرض صدارته على بقية أسقفيات الإمبراطورية الرومانية[٢]، كما أن المصادر الكنسية الرومية نفسها تقر بأن أوطاخي وزمرته، وبقوة الإمبراطور، كما أشرت أنت بنفسك قبل قليل، قد استطاعوا أن يسيطروا تماماً على مجمع أفسس الثاني، وأن يمنعوا المجمع من قراءة رسالة أسقف رومه لاون التي تدحض آراءه[٣]، كذلك قام أعوانه بأعمال شغب واضح بمساعدة جنود الإمبراطور. كما تعترف بأن لاون أسقف رومه لم يرض عن نتائج مجمع أفسس الثاني وغضب لأن "طومسه" قد أهمل، فأخذ يسعى لعقد مجمع مسكوني جديد. ولكن الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني أصمّ أذنيه عنه، وأيّد قرارات مجمع أفسس الثاني. وبعد وفاة ذلك الإمبراطور في عام ٤٥٠م استلمت السلطة أخته الراهبة "بولخيريا"، التي تزوجت من قائد الجيش "ماركيانوس" شرط أن تبقى عذراء، فتوّج ماركيانوس إمبراطوراً جديداً، وكان صديقاً للاون أسقف رومه، فوجه الدعوة

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الكنائس المؤمنة بالطبيعة الواحدة للمسيح ترفض إلصاق هذه التسمية بها، وتعتبر أنها قد أدانت لاحقا بدعة أوطاخي المونوفيزيقية وتبرأت منها. كما تجدر الإشارة إلى أن تلك الكنائس لا تزال إلى الآن تتمسك بعقيدة الطبيعة الواحدة، ولكن بطريقتها الخاصة.

(٢) تعتبر الكنيسة القبطية أن الصدارة كانت قبل ذلك من نصيب كرسي الإسكندرية الرسولي، وتستدل على هذا بأن بابا الإسكندرية حصرا هو من كان يرأس كل المجامع المسكونية حتى ذلك الحين. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) اشتهرت تلك الرسالة في التاريخ الكنسي باسم "طومس لاون".

فور جلوسه على العرش إلى عقد مجمع مسكوني جديد بهدف محاكمة مجمع أفسس الثاني وإقرار بطلانه! فكان "مجمع خلقيدونية"[١] الشـــهير (٤٥١م) الذي اعتبر أنه هو "المجمع المســـكوني الرابع". وقد اتفقت جميع المصادر تقريباً على ســـير الأحداث في مجمـــع خلقيدونية، وأن ممثلي الحكومة من قادة الجيش والمناطق كانوا حاضرين فيه بقوة، ومتصدرين أماكن الجلوس، مما أعطى إيحاء قوياً بأن رئاســـة المجمع كانت في يد السلطة الحكومية. وكما هو متوقع سارت أعمال المجمع ضمن جو شديد التوتر.

- هل أنت متأكد من هذه المعلومات يا أحمد؟

سأل أبراهام باندهاش، فأجابه أحمد:

- لم آت بها من بيتي، فهذا ما أجمعت عليه المصادر الكنسية.

فالتفت أبراهام إلى الأب ديمتري قائلاً:

- هذا يعني أن المجامع المســـكونية كانت ملعبة للملوك المسيحيين[٢]!!! والأخطر أن هذا يعني أن العقائد المسيحية نفسها قد بنيت على أساس خلافات على السلطة!!!

- للأســـف فإن كل الكنائس والإكليريكيين تصور الانقسامات في كتاباتهم على أن أسبابها كانت دائماً خلافاً على الرئاسة، لكن هذا ليس مقبولاً؛ فصحيح أن الخلافات الداخلية وتدخلات الملوك كانت تؤدي إلى تحزبات وانقسامات، ولكن تلك الانقسامات ما تلبث أن تعود لتنضمّ إلى كنيســـتها وينتهي أمرها بزوال الأشـــخاص المسببين. أما الخلافات المبنية على أســـس عقائدية، فهي التي دامت وتوسعت وتطورت، وأدت إلى وجـــود العديد من الكنائس في عالمنا اليـــوم. وفيما يخص هذا الموضوع تحديداً، فإن

---

(١) كالسيدون أو قاضي كوي، والواقعة على الطرف الآسيوي خارج حدود القسطنطينية.

(٢) للأسف لم يقتصر ذلك على الملوك المسيحيين فقط، فأهم مجمع في المسيحية الحالية (مجمع نيقية الملقب بالمجمع المسكوني الأول) عقده قسطنطين الذي لم يكن مسيحياً آنذاك، ورغم وثنيته وجهله بالمسيحية رجح طائفة على حساب طوائف أخرى وأقر إيمانها كإيمان قويم للمسيحية. وكذلك حاول "كسرى أبرويز" ملك فارس بعد ثلاثة قرون، كما سنرى بعد قليل.

أغلب الكنائس قبلت بمجمع خلقيدونية، ليس لأنه رغبة الملك أو نزاعاً على الرئاسة بين أسقفين، بل لأن تعاليمه متطابقة مع المجامع الثلاثة الأولى، ومنتهى الأرثوذكسية. أما الكنائس الأخرى التي رفضته فهي التي اتبعت البدع والأهواء.

- ولكن أليست الخلقيدونية تعني أن طبيعتي المسيح بقيتا منفصلتين بعد الاتحاد، في حين أن اللاخلقيدونية تعني أن طبيعتيه أصبحتا طبيعة واحدة!؟

- أجل.

- ألا يقول اللاخلقيدونيون بأن الطبيعتين اتحدتا دون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة؟

- بلى.

- ألا يعني ذلك بأنهما بقيتا طبيعتين ما دام الأمر على ما يصفون؟!!!

- ملاحظة موفقة.

- وفي الوقت نفسه، ألا يقول الخلقيدونيون بأن طبيعتي المسيح اتحدتا؟

- بالتأكيد.

- ألا يعني الاتحاد بأنهما أصبحتا طبيعة واحدة؟! أم أن الطبيعتين قد اتحدتا في طبيعتين منفصلتين؟!!!

- حذار. فليس هكذا ينظر إلى مثل هذه الأمور الحساسة.

- اعذرني، ولكن ما دام المسيح والتلاميذ والآباء الأولون لم يتحدثوا بمثل هذه المواضيع "الحساسة" كما تصفها، فلم طرقت أصلاً في المجامع؟!، لم خاض بها الملوك الذين لا علم لهم بالدين؟!! ولم استمر الجدل فيها كل هذه الفترة؟!!!

- المنطق يفرض أن الذي حدث هو ما كان يجب أن يحدث تماماً، فقد بدأت الكنيسة بعقائد بسيطة، وببشارة خلاص النفوس، وأكدت أن المسيح ابن الله، والروح القدس الفاعل. كما أنه لا المسيح ولا الرسل ولا الآباء الأولون قد تركوا مجلداً ضخماً

يحوي التعاليم الأرثوذكسية الكاملة، لذا بدأ البعض يطرحون الأسئلة، وحاول البعض التفكير بها، والوصول إلى نظريات تجيب عنها.

- ولكن نشأ عن ذلك الجدل عقائد جديدة قصمت ظهر الكنيسة على مرّ التاريخ بكثرة الانقسامات!

- لم يكن هناك بد من ذلك؛ فالعقيدة المسيحية كانت في تلك الآونة تتلمَّس طريقها لتجد الصيغة الصحيحة التي تسبك فيها الأسرار المسيحية على أساس سليم.

- وأي الكنائس حظيت بهذا الشرف أخيراً؟ وإذا كانت هاتان العقيدتان مختلفتين، فأي منهما هي الصيغة الصحيحة للعقيدة؟ أي منهما هي المسيحية الحقيقية؟ أياً منهما يريدنا الله أن نتبع؟ ومادامتا كلتاهما أسسها إنسان عادي، فمن يستطيع أن يكون متأكداً؟!!!

صمت الأب ديمتري، فأردف أبراهام متابعاً:

- ويبدو فعلاً أن أغلب المجادلات والمجامع والبدع، بل والعقائد المسيحية، كانت في الأساس محاولة لحل معضلة ما هي طبيعة المسيح، ومحاولة للإجابة عن سؤال: أهي إلهية أم بشرية. وحتى التفسير التوفيقي (الكمبروميس) بأنه مزيج بين الاثنين، لم يكن حاسماً، بل نشأت عنه هو أيضاً مجادلات وبدع ومجامع وعقائد أخرى في محاولة لتفسير العلاقة بين الشق الإلهي والشق البشري في ذلك المزيج المفترض. كما يبدو أيضاً أن الرد على التوحيد أو بدعة الأريوسية كما تسميها كان فعلاً "القاسم المشترك"، وبتكرار عجيب بين كل تلك المجامع والعقائد التي نشأت عنها. مما يؤكد أنها فعلاً، وعلى عكس البدع الأخرى، ظلت حاضرة في الوجدان المسيحي لمدة طويلة من الزمن، ولدى عدد كبير من الأساقفة، ولربما سادت فعلاً لولا تدخل ملوك الروم.

- حذار يا بني؛ فليس الملوك هم من كانوا يوجهون المجامع بل الروح القدس هو الذي كان يحل على المجتمعين فيها.

- إذا كان الأمر كذلك حقاً يا سيدي، أفيعني هذا أن الروح القدس، الذي هو الله كما تقولون، كان يغير رأيه باستمرار، أم أن هناك أرواح قدس مختلفة يحل كل منها على طائفة مسيحية معينة؟!

- أحذرك مرة أخرى يا بني، فأنا لا أطالبك بتبني عقيدتي، ولكنني أتوقع منك، على الأقل، أن تتحلى ببعض اللباقة في انتقادها.

- ولكننا لا نتناول هذه المواضيع من باب التجريح أو الانتقاص من أحد، فما من إنسان في هذا الزمن مسؤول عما تم في تلك المجامع على مر التاريخ، لكننا نطرحها للنقاش كقضايا عامة تهم كل الناس. وقد كنت أظن، كما أوضح أحمد قبل قليل، أننا لسنا في معرض المجاملة أو اللباقة هنا، بل نتناقش بصراحة وتجرد وانفتاح كاملين.

- هذا صحيح. ولأجل ذلك فقط تحملت كل ما قلتماه إلى الآن، ولكن مع ذلك فهناك تابوات (محرمات) لا يصح الاقتراب منها، وخطوطاً حمراء لا يقبل تجاوزها. فما قلته الآن أقرب إلى التهكم منه إلى الصراحة والتجرد والانفتاح التي ألزمنا أنفسنا بها في هذا النقاش، وأرجو ألا يستغل تسامحي أكثر من ذلك.

- أعتذر مرة أخرى يا أبانا، وأعدك أن أكون أكثر حذراً في حديثي.

ثم التفت إلى أحمد سائلاً:

- وما الذي تمخض عنه مجمع خلقيدونية، بالإضافة إلى موضوع الطبيعتين؟

- لقد أصدر مجموعة قرارات، أهمها: - إلغاء مجمع أفسس الثاني واعتباره باطلاً. - الحكم بالحرمان على ديوسقوروس أسقف الإسكندرية (رئيس المجمع السابق) ولعنه، وعزله من كرسيه ونفيه[1]. - إعلان وتثبيت صدارة أسقفي رومه والقسطنطينية على باقي الأسقفيات. - الاعتراف باستقلالية كرسي أورشليم[2] واعتباره كرسياً رسولياً

(١) لم يكتف القائمون على المجمع بذلك، بل ضربوه بالنعال، ونتفوا شعر لحيته. وهكذا خرجت زعامة المجامع من كرسي الإسكندرية إلى الأبد.

(٢) كان في السابق يتبع كرسي أنطاكية، الذي كان لا يزال رافضاً لقرارات المجمع.

مستقلاً[١]. - وضع صيغة "متطورة" للإيمان المسيحي[٢]. وأخيراً فإن المجمع قد أصّر على تيودوريطس القورشي[٣] بأن يحرم نسطور ليؤكد أرثوذكسيته، ففعل. وكما هو معروف، لم يكن لأي مجمع من أثر على الكنيسة أكبر من آثار مجمع خلقيدونية الذي أدى إلى انقسام الكنائس وتعددها واختلافها. وأوضحُ صورةٍ لنتائج ذلك المجمع تجلت في رد أهل مصر الغاضبين لإهانة باباهم[٤] ونزع الزعامة عنه. فقد رفضوا الأساقفة الذين كانت ترسلهم القسطنطينية، واختاروا من بينهم أساقفة آخرين (بابوات)، وسفكوا الدم على مذابح الكنيسة في سبيل إثبات استقلاليتهم[٥]، وهكذا تفاقمت الأزمة وولدت صراعات دامية استمرت حتى عام ٤٨٢م، حيث تم الاتفاق على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، بشرط خضوع كنيستهم إدارياً لرئاسة بابا رومه.

---

(١) ظل كذلك حتى بعد رضوخ أسقف أنطاكية.

(٢) وهي تؤكد الطبيعتين في المسيح بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال، من غير أن تنفي فرق الطبائع بسبب الاتحاد.

(٣) المؤرخ الشهير أسقف قورش المعاد من منفاه، وأحد أهم المدانين بالنسطرة (التوحيد) في مجمع أفسس الثاني، والذي عاد عن تعليمه السابق، وكان له فضل كبير في تنظيم مجمع خلقيدونية. كما أنه أحد الرؤوس الثلاثة الذين سيأتي ذكرهم.

(٤) يلقب في الكنيسة القبطية بـ" المجاهد العظيم".

(٥) رفض الأساقفة الذين اجتمعوا حول البطرك ديسقورُس، الاعتراف بالبطرك الملكي "بروتيريوس"، وقاموا من بعد وفاة ديسقورُس بانتخاب بطريرك آخر من بينهم، هو "تيموثيوس". وفي اليوم الذي كان البطريرك بروتيريوس يحتفل فيه بشعائر الأسبوع المقدس (أسبوع آلام المسيح) في الكاتدرائية، بالإسكندرية، هجم تيموثيوس ومعه أتباعه من العوام المتمردين على الكاتدرائية. حتى إن بروتيريوس احتمى بمكان المعمودية المقدس، إلا أن ذلك لم يجده نفعاً! إذ قام تيموثيوس ومن معه بذبحه على مرأى من الناس ومسمعهم. ثم جلس تيموثيوس على كرسي بروتيريوس، وأعلن نفسه بطريركاً لمصر. (معجم أكسفورد للكنيسة المسيحية سنة ١٩٥٧، للباحث الشهير ف. كروس). و(المجلد الرابع من (الموسوعة الكاثوليكية الجديدة) تحت عنوان "المسيحية القبطية" للباحث المصري "إسكندروس حبيب إسكندر" مطران أسيوط).

- وكيف سمح الإمبراطور بتحدي سلطته إلى هذا الحد؟

- لم يسمح، بل قام باضطهاد معارضيه بكل قسوة. ولكن كما كان هو نفسه معارضاً لقـــرارات الإمبراطور الذي قبله، جاء بعـــده أباطرة عارضوا قراراته أيضاً. وبين تغير الأباطرة ومذاهبهم وترجيحهم لفريق ضد آخر، ترســـخ الانشقاق، وانقسمت الكنائس تحت مجموعتين رئيستين؛ الأولى هي المجموعة التي قبلت بمجمع خلقيدونية، والثانية هي التي رفضتـــه، أو مجموعتي الكنائس الخلقيدونيـــة واللاخلقيدونية. وكل منهما يدّعي الأرثوذكسية لنفسه.

- هل تأرجح الأباطرة بعد ماركيانوس إلى هذه الدرجة؟

- أجل. فنرى أن أســـقف أنطاكية "بطرس الثانـــي القصّار" (٤٦٧ - ٥٠٠م) الذي كان من اللاخلقيدونيين المتحمســـين يخلع ويعاد إلى منصبه فـــي كل مرّة يتغير فيها الإمبراطور الذي كان يعتمد مذهباً يخالف مذهب ســـلفه. وتأرجحت رئاسة بطركية أنطاكية في الأعوام الأولى بعد المجمع بين أساقفة خلقيدونيين وآخرين لاخلقيدونيين حتى عهد أســـقف أنطاكية اللاخلقيدوني "ســـويريوس الكبير" (٥١٢ - ٥٣٨م) حيث دخلت الكنيسة حالة من الفوضى كثرت فيها سيامة الأساقفة زوجاً زوجاً، خلقيدونيين ولاخلقيدونيين! وفي عام ٥١٨م اســـتولى "جوستين الأول" على عرش بيزنطة (٥١٨ - ٥٢٧م) وكان خلقيدونياً متشـــدداً، وأتى الأباطرة كافة بعده كذلك، فأقصى سويريوس عن منصبه، هو والكثير من الأســـاقفة اللاخلقيدونيين، وعين بدلاً عنه "بولس الثاني" الخلقيدوني. أما ســـويريوس فقد فرّ إلى مصر وتابع رعاية شؤون كنيسته من المنفى، عندها أصبح لأنطاكية أســـقفان؛ أحدهما خلقيدوني والآخـــر لاخلقيدوني، ومن كل منهما تتابعت سلســـلة أســـاقفة إلى يومنا هذا. وتجدر الإشارة إلى أن كل طرف كان يظهر عداوته الشديدة للطرف الآخر ويضطهده عندما تكون السلطة إلى جانبه.

- هل كان الانقسام حكراً على بطركية أنطاكية فحسب؟

- كلا؛ فقد تكرر الانقسام في بطركية الإسكندرية أيضاً، حيث أصبح الكرسي كرسيين يجلس على أحدهما أسقف خلقيدوني(ملكي)، وعلى الآخر أسقف لاخلقيدوني(قبطي). هذا بالإضافة إلى أسقف أنطاكية اللاخلقيدوني(سرياني) المقيم في مصر. حتى البطركيات التي لم تنقسم، لحق بعضها شيء من الانشقاق، مثلما حصل مع كرسي القسطنطينية نفسه، الذي خرجت عنه كنيسة الأرمن[١]. ولاحقاً أطلق اللاخلقيدونيون اسم "الملكيين" على الخلقيدونيين اتهاماً لهم باتباع مذهب الملك ماركيانوس، وتهكماً على رضوخهم لأمزجة الملوك وأهوائهم بشكل عام!!! في حين أطلق الخلقيدونيون اسم "الأوطاخيين" على اللاخلقيدونيين في مصر (الأقباط) وأثيوبيا (الأحباش) اتهاماً لهم ببدعة أوطاخي، واسم "اليعاقبة" على اللاخلقيدونيين في بلاد الشام (السريان) اتهاماً لهم بـ"بدعة" يعقوب البرادعي.

- من هو يعقوب البرادعي؟

- البرادعي نفسه كان صنيعة الملوك، بل صنيعة ملكة فاسدة.

قال الأب ديمتري باستهزاء، فسأله أبراهام مستوضحاً:

- من تقصد؟

- "تيودورا" زوجة الإمبراطور "جستنيان" (٥٢٧م حتى عام ٥٦٥م)، مع أن ذلك الإمبراطور التقي كان يعتبر حقاً محامي الإيمان الأرثوذكسي[٢].

- وهل وصل التدخل بالعقائد المسيحية إلى زوجات الملوك أيضاً؟!!!

---

(١) كانت تتبع الكنيسة القيصرية التابعة لكرسي القسطنطينية. وقد بدأت مقاطعة الكنيسة الأرمنية لكنيسة القسطنطينية في "مجمع دفين الوطني الأول" المنعقد عام ٥٠٦م، عندما تخلى الأرمن عن مقررات مجمع خلقيدونية معلنين تمسكهم بالإيمان المعلن في مجمع أفسس، وقد ثبت هذا الاتجاه في عام ٥٥٤م في "مجمع دفين الوطني الثاني" الذي أقرّ موقف الأرمن المعارض لمجمع خلقيدونية. وتنبع أهمية أرمينيا الدينية من كونها أول دولة تتبنى الديانة المسيحية بشكل رسمي. فقد تنصر ملكها "درطاد" الثالث على يد القديس "جريجوريوس" (كريكور) عام ٣٠١م، ثم ما لبث أن تبعته أغلبية الشعب.

(٢) يتهم البعض جستنيان أنه كان متذبذباً في إيمانه وأنه كثيراً ما تأثر بمذهب زوجته المونوفيزيقي.

السياسة مرة أخرى

أحس الأب ديمتـــري بالحرج من ملاحظة أبراهام، ولم يجب. إلا أن أبراهام أعاد طرح السؤال بطريقة أخرى قائلاً:

- حدثنا عن ذلك الإمبراطور وزوجته وصنيعتها يا سيدي.

- إن جستنيان كان إمبراطوراً عظيماً طموحاً، خاض حروباً عديدة لتوسيع مملكته، ورغب في توحيد ســكان الإمبراطوريـــة الرومانية تحت دين واحـــد ومذهب واحد، فاضطهد اليهود والوثنيين وناصر الأرثوذكسية الحقة؛ فعزل الأساقفة اللاخلقيدونيين ونفاهم وسجنهم، حتى كاد يقضي على تلك البدعة قضاءً تاماً لولا تدخل زوجته تيودورا اللاخلقيدونية، فقد اســتعملت تأثيرها الكبير عليه ليخفف من اضطهاداته، وعملت كل ما في وســعها لإنقاذ الأساقفة المنفيين أو المسجونين في القسطنطينية وحمايتهم. وفي تلك الفترة[1] قدم إلى القسطنطينية من عاصمته بصرى "الحارث بن جبلة" ملك الغساســنة العرب المسيحيين اللاخلقيدونيين، وشــكا إلى الإمبراطورة تيودورا حالة اللاخلقيدونيين، ونقص الأســاقفة والكهنة في جميع المقاطعات، فطلبت الإمبراطورة من "ثيودوسيوس" البطريرك الإســكندري اللاخلقيدوني المنفي في القسطنطينية أن يقوم برســامة الراهب العربي "تيودور" مطراناً على العرب (أســقفية فاران) ويعقوب البرادعي مطراناً عاماً على الرها وبلاد الشــام وآســيا (أســقفية أنطاكية). فطاف يعقوب بلاد الشــام وأرمينية وآسيا الصغرى والحبشــة وبلاد ما بين النهرين وفارس وغيرها، وقام برسم سبعة وعشرين أسقفاً، وآلاف الكهنة والشمامسة بناء على بدعة

---

(١) في عام ٥٤٣م.

جديدة أسسها للانشقاق عن الإيمان القويم[١].

- بالمناسبة فإن ذلك الإمبراطور محامي الإيمان الأرثوذكسي(جستنيان) كان -باتفاق مؤرخي اللاهوت- من أكثر الأباطرة تدخّلاً في شؤون الكنيسة اللاهوتية والتشريعية، وهو الذي عقد "المجمع المسكوني الخامس"("مجمع القسطنطينية الثاني" ٥٥٣م).

قال أحمد معلقاً، فسأله أبراهام:

- وما الذي دعاه إلى عقده؟

- لقد أراد وضع حد للنزاع على مسألة "الفصول الثلاثة" أو "الرؤوس الثلاثة".

- ما معنى ذلك؟

- كان الجدال حول الأفكار ذات الشبهة التوحيدية للمدرسة الأنطاكية السابقة ما يزال مستمراً، وكانت تعاليم كل من ثيودوروس المصيصي (المبسواستي) أسقف موبسواستيا[٢] وتيودوريطس القرشي أسقف قورش[٣] و"ايفا الرهاوي"[٤] أي الرؤوس

---

(١) لاحقاً لصق اسم اليعاقبة بكل اللاخلقيدونيين (باستثناء الأقباط بأغلب الأحيان) فأصبح يستعمله الكثير من المؤرخين البيزنطيين والغربيين والعرب المسلمين، وأخيراً استعمله المستشرقون. ولكن كنيسة أنطاكية اللاخلقيدونية الحالية ترفض هذا اللقب، وتؤكد أن يعقوب البرادعي لم يؤسس مذهبها، (وهذا صحيح بالنسبة إلى ما انتهت إليه حالياً، حيث انقرض اليعاقبة الأولون كلية، إما عن طريق الدخول في الإسلام، وإما عن طريق الذوبان التدريجي فيما صار يعرف بالمسيحية اللاخلقيدونية) ويصرون على تسمية "السريان" مع أنهم يعتبرون يعقوب قديساً له فضل كبير على كنيستهم.

(٢) جعل من اتحاد الكلمة بالناسوت في المسيح مجرد سكنى وتلطف ومسرّة، لا اتحاداً في الجوهر. فهي قد سكنت في جسد المسيح الإنسان العادي ابن داوود، تماماً مثلما سكنت في أجساد الأنبياء الآخرين والقديسين.

(٣) كما بينا فقد كان في البداية من أشد المتأثرين بالأستاذ الآخر للمدرسة الأنطاكية ديودوروس الطرسوسي الموحد. كما أنه حتى بعد انقلابه، كان لا يزال يعترض على البند الثاني عشر من بنود كيرلس الإسكندري الذي نص على أن الله الكلمة تألم وصلب ومات في الجسد.

(٤) نقل تعاليم ثيودوروس إلى السريانية، وفنّد أعمال مجمع أفسس الأول في رسالة وجهها إلى "ماري" (مارس) أسقف آردشير (في فارس).

الثلاثة، وهم من المتهمين بالنسطرة (التوحيد)، والذين حكم مجمع أفسس الثاني بهرطقتهم، ثم حكم ببراءتهم في مجمع خلقيدونية. كانت تعاليمهم لا تزال محترمة من قبل المسيحيين. فجاءت الإرادة الإمبراطورية على شكل مرسوم في ثلاثة فصول[١]، يشجب مصنفات المعلمين الأنطاكيين الثلاثة الكبار، ويحرمهم. فثارت ثائرة الأساقفة المسيحيين، ولكن الإمبراطور أصرّ على جميع أساقفة الشرق والغرب بأن يوافقوه على ما ذهب إليه. وبعد أخذ وردّ، وموافقة حيناً ورفض حيناً بين بطاركة الكراسي الكبرى والإمبراطور، قرر جستنيان عقد مجمع في القسطنطينية عام ٥٥٣م لفرض قراره بشكل حاسم. فحضر المجمع "أفتيشيوس" أسقف القسطنطينية، و"أبولينياريوس" أسقف الإسكندرية الخلقيدوني، و"دومنينوس" أسقف أنطاكية الخلقيدوني، وامتنع "فيجيليوس" بابا رومه، مع أنه كان موجوداً في القسطنطينية آنذاك[٢]، ومع ذلك اعتبر المجمع بأنه كان مسكونياً!!! وهكذا أدخل حامي الإيمان الأرثوذكسي قراره في صلب العقيدة المسيحية، بل واعتقل بابا رومه نفسه وأجبره لاحقاً على قبول المجمع والاعتراف بقراراته! تماماً كما أدخل الإضافة المتنازع عليها إلى "صلاة التقديسات الثلاث"(التريصاجيون) قبل ذلك.

- أية إضافة؟

- كان المعارضون لمجمع خلقيدونية يعلّمون بأن الذين قبلوه إنما هم أعلنوا قبولهم بصيغة عقائدية تعتبر تكريساً للنسطورية (لقوله بطبيعتين إنسانية وإلهية حسب

---

(١)ومن هنا تسمية قضيتها بالفصول الثلاثة أيضاً.

(٢) جاء على الموقع الأرثوذكسي "http://ar.orthodoxwiki.org" ما نصه: "قطعه (بابا رومه) المجمع من شركة الكنيسة لعدم مشاركته في المجمع، ولأجل إصداره مذكرة -في أثناء انعقاد المجمع في القسطنطينية- أعلن فيها إدانته (انتقاده فقط) لبعض كتابات ثيوذروس المصيصي وثيوذوريتوس القورشي من دون أن يتعرض لهما شخصياً أو يحرم أحداً منهما، معتبراً أن المجمع المسكوني الرابع قَبِلَ رسالة ايفا الرهاوي على أساس أنها أرثوذكسية. وبذلك كان مخالفاً للمجمع المسكوني الخامس الذي قضى بإدانة كلّ من يدافع عن الفصول الثلاثة وبإسال (تحريم) من لم يسلها".

فهمهم)، وبرز في صفوفهم قادة أقوياء مثل بطرس القصار، الذي ابتدع الإضافة الشهيرة على التسبيحات الثلاث "التريصاجيون" والتي كانت فقط: "قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت" لتكتمل كالآتي: "الذي تألم لأجلنا ارحمنا" أو "المصلوب لأجلنا ارحمنا". ولكن الكنائس الخلقيدونية اعتبرت أن هذه الإضافة تجعل من الألوهية متألمة ومصلوبة، في حين اعتبرتها الكنائس اللاخلقيدونية تقليداً مؤكداً منذ بداية المسيحية[١]، ومن ثم إثباتاً هاماً للطبيعة الواحدة الإلهية في المسيح. وكان كلا الفريقين يدّعي أن صلاته هي الأصل، وأن الفريق الآخر زاد عليها أو حذف منها العبارة الأخيرة. فما كان من الإمبراطور جستنيان إلا أن أصدر في عام ٥٣٣م إرادة سنية، وأجبر كنائس القسطنطينية الخلقيدونية على إضافة العبارة[٢]، حيث اعتبرها موجهة إلى الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس فحسب! ولا تؤلم الألوهية بشكل عام[٣]!!!

- أجد نفسي متفقاً فعلاً مع من يقول إنه لم تكن هناك أي وحدة في العقائد المسيحية الأولى، وأن العقائد الحالية قد خلقتها الانقسامات السابقة. فالمسيحية كما أرى لم تنبثق دفعة واحدة من ذهن يسوع كما كنت أظن، وإنما كانت ثمرة تاريخ ممتد من تلاعب الملوك، وصراعات الأساقفة، والإضافات المتناقضة المتتالية عبر المجامع على مر التاريخ[٤].

---

(١) بموجب التقاليد الرسولية والأبوية لتلك الكنائس سمع "يوسف الرامي" ونيقوديموس في أثناء دفنهما لجسد المسيح، سمعا الملائكة يسبحون يسوع ويمجدونه قائلين: "قدوس أنت الله قدوس أنت القوي، قدوس أنت الحي غير المائت" فأكمل يوسف الرامي ونيقوديموس هذه التسبيحة بقولهما: "يا من صلب عوضاً عنا ارحمنا". لذلك فهي عندهم عقيدة أرثوذكسية كاملة بناء على ذلك التقليد!

(٢) كاللاخلقيدونيين، وربما بتأثير من زوجته التي تعد منهم.

(٣) كيف نفهم ذلك مع قولهم بأن الأقنوم الثاني هو الله أيضاً؟!! وإن كان يقصد الطبيعة الناسوتية بالذات، فكيف نفهم ذلك أيضا مع قولهم بأن الطبيعتين متحدتان؟!!!

(٤) قال "المبارك" رحمه الله: "وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبارٌ سوء ورهبانهم".

ثم التفت إلى أحمد قائلاً:

- نحن نعرف أن الفرس قد احتلوا الشرق (العراق والشام ومصر) في بداية القرن السابع، وبعد ذلك احتله المسلمون، فهل تلاعب ملوكهم أيضاً بالكنائس والعقائد؟

- بالنسبة إلى الفرس، كاد هذا يحصل فعلاً لو طال بهم العهد هناك؛ إذ أمر "كسرى أبرويز" قائد جنده "شهربراز" أن يجلب له الصليب المقدس[١]، ويحرق جميع كنائس القدس عدا كنيسة المهد، لما يوجد في فسيفسائها من تكريم للمجوس[٢]، ثم دعا كسرى أساقفة الطوائف المسيحية في بلاده الجديدة إلى عقد مجمع في قصره ("مجمع طيسفون" سنة ٦١٤م) وشارك بنفسه في أعماله، حيث بحث فيه قرارات المجامع المسكونية جميعها، وكان رأيه مرجحاً لآراء اللاخلقيدونيين. فيستدل من نص المؤرخ "سيبيوس الأرمني" أن كسرى أبرويز تكلم في الطبيعة والطبيعتين، وأنه لم يوافق على موقف النساطرة فأمر بإخراجهم من المجمع! ثم أقر الأرمن في موقفهم وأصبح القول بالطبيعة الواحدة في نظر السلطات الفارسية هو الصيغة المسيحية الشرعية!! ورغم تحالفه السابق مع اليهود ضد المسحيين، إلا أنه عاد فنفاهم من المدينة المقدسة، ثم أمر بترميم الكنائس فيها. أما عن الحكام المسلمين، فأفضل أن يجيبك عنهم سيادة الأب ديمتري حتى لا أتهم بالتعصب لديني.

نظر أبراهام إلى الأب ديمتري، الذي قال بدوره:

- إن للقرن السابع الميلادي أهمية شديدة في تاريخ الشرق، وفي تاريخ الكنائس المسيحية بشكل عام؛ ففيه حدثت تحولات جذرية من حيث السلطة الحاكمة والدين المسيطر. ابتدأ القرن السابع باحتلال الفرس لكامل المنطقة، ثم بإخراجهم مجدداً من

---

(١) جاء في تاريخ أنطيوخوس القائد أن أبرويز أودع الصليب زوجته المسيحية فحفظته في مكان أمين في العاصمة طيسفون. وللمزيد من المعلومات حول تلك الحرب الفارسية الرومانية، والأراضي المسيحية التي احتلها كسرى.

(٢) ملوك المجوس الثلاثة.

قبـــل البيزنطيين، ثم بقدوم جحافل العرب المســـلمين وانتصارهم الهائل على بيزنطة والتام على الفرس، وســـيطرتهم على كامل الشـــرق، واستُبدل بسلطة الدين المسيحي ســـلطة الدين الجديد الذي أخذ يوســـع قواعـــده في المدن أولاً، ثـــم في الضواحي فالأرياف بحيث أصبح اليوم دين الأغلبية هناك. وكان للدين الإســـلامي أهمية معينة في تطور الكنائس في المنطقة، فلم تعد تتغلب كنيسة على أخرى بفضل اعتقاد الحاكم برأيها، اللّهم إلاّ بشـــكل بســـيط جداً أحياناً عندما كانت الكنائس نفسها تسمح للحاكم المســـلم بأن يتدخل في جدالاتهـــا، وذلك بتقرّب بعض رجالاتها منـــه، كما كان يحدث أحيانـــاً بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين (الملكيين واليعاقبة والموارنة) في ســـورية أو بين اللاخلقيدونيين والديوفيزيقيين (اليعاقبة والنســـاطرة) في العراق. ولم تعد تتعرض كنيسة أو طائفة لاضطهاد من قبل كنيسة أخرى من أجل تغيير مذهبها، وإنما أصبح أتباع جميع الكنائس يتعرضون لضغوط هائلة من أجل تحولهم عن المسيحية إلى الإسلام[١].

فأردف أحمد معقباً:

- ويشهد التاريخ أن الحكام المسلمين لم يتدخلوا في الشؤون الدينية المسيحية لدى الكنائس الواقعة تحت ســـيطرتهم، وأبلغ مثال على ذلـــك هو الحرب على الأيقونات. ففـــي الوقت الذي كان فيـــه الإمبراطور "لاون الثالث" (٧١٧- ٧٤١) يعزل الأســـاقفة والقساوســـة الذين يجلونها، وعلى رأسهم البطريرك المســـكوني "جرمانوس"، ويأمر بإخـــراج الأيقونات والتماثيل من الكنائس وتحطيمها، كان الأســـاقفة الموجودون تحت حكم الدولة الإسلامية يمارسون تعظيمهم للأيقونات، ويسجدون لها ولتماثيلهم بحرية متناهية. ويقال إن أتباع الإمبراطور لاون وشـــوا بالقديس "يوحنا الدمشـــقي"[٢] لدى

(١) هذا حسب تعبير الباحث السوري منذر نزهة في بحثه الذي أشرنا إليه سابقاً.

(٢) من أبرز القديسين الأرثوذكس، وقد نشأ في البلاط الأموي وكان مسؤولاً عن الأمور المالية للدولة. وقد غادر البلاط الأموي في عهد "الوليد" إلى دير القديس سابا في فلسطين، وتفرغ للرهبنة ومن ثم الكهنوت. واهتم بنظم الألحان البيزنطية الثمانية المعروفة، ونظم الكثير من تسابيح الكنيسة التي لا تزال ترددها الكنيسة الأرثوذكسية حتى الآن.

الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك"[١] فلم يجدوا منه آذاناً مصغية. أي إن الإسلام قد قدم الحماية بشكل غير مباشر للأيقونات رغم عدائه الشديد لها، واعتبارها من العبادات الوثنية التي أدخلت على دين المسيح وأفسدته. ولكن التزامه بحقوق أهل الذمة منعه من التدخل في شؤونهم الدينية.

استرجع أبراهام معلوماته عن ذلك الموضوع، وقال مستوضحاً:

- ألم يعقد مجمع مسكوني بسبب تلك الحرب على الأيقونات؟!

- أجل. فقد عقد "المجمع المسكوني السابع"("مجمع نيقية الثاني")[٢] لهذا السبب.

- كيف بدأ الموضوع؟

- لقد ابتدأ المسيحيون منذ القرن الرابع بمناقشة أمر الأيقونات وتكريمها أحق أم حرام، وعقدت على مرّ التاريخ عدة مجامع مكانية أخذ بعضها قرارات بتحريم الأيقونات تطبيقاً للوصية الثانية من الوصايا العشر[٣]، وفي بداية القرن الثامن اشتدت الخلافات بين أنصار تكريم الأيقونات وأعدائه، ووصل إلى قمة هرم السلطة: الإمبراطور لاون الثالث، الذي كان من أعداء الأيقونات، فأعلنها حرباً شعواء في سنة ٧٢٦م، وعقد مجمع عام ٧٣٠م لتحريمها، وابتدأ حملة اضطهاد عنيفة ضد الأيقونات

---

(١) كان يوحنا الدمشقي قد ألف العديد من المؤلفات التي تذم الإسلام بقسوة، وتنتقد انتشاره بين المسيحيين، كما كان من أشد المدافعين عن الأيقونات.

(٢) تعمدت القفز عن المجمع المسكوني السادس (مجمع القسطنطينية الثالث)، إذ سيتم الحديث عنه بالتفصيل.

(٣) جاء في سفر الخروج: "لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة مما في السماء فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك، إله غيور" ٢٠: ٣- ٦. ولو كان استعمال هذه الصور والتماثيل (والصلبان أيضاً) صواباً لاستعملت أيام المسيح أو في الأجيال الأولى على الأقل. وجدير بالذكر أنه قد صدر في عام ٣٥٦ قرار بأن يعاقب "بالإعدام" كل من يقيم طقوساً وثنية. وكان الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير، الآنف ذكره، يقوم بإعدام الأطفال إذا لعبوا ببقايا التماثيل الوثنية. وكان بذلك - حسب المؤرخين المسيحيين آنذاك - "ينفذ التعاليم المسيحية بكل دقة"!!!

ومكرميها أدّت بالكثيرين منهم إلى السجون والنفي، حتى القتل. وكذلك فعل خلفه الإمبراطور قسطنطين بن لاون فعقد مجمعاً مسكونياً عام ٧٤٣م[١] من ٣٣٨ أسقفاً حرم فيه إكرام الأيقونات ورفات القديسين والتماثيل والصلبان على أنها عبادة أوثان. واشتد الاضطهاد لمكرمي الأيقونات، فحرم اقتناؤها في البيوت، وألقيت الكثير من رفات القديسين المحفوظة في القسطنطينية في البحر، وحُرمت الحياة الرهبانية، وحولت الأديرة إلى ثكنات أو إسطبلات للخيل، وسجن وعذب المعارضون.

- هل التزم الشق الغربي من الإمبراطورية بهذه القرارات أيضاً؟

- كلا؛ وذلك لضعف السلطة الإمبراطورية البيزنطية في روما آنذاك، ولأن البابا كان يستعد تدريجياً لفصلها عن كنيسة القسطنطينية كما يقول التاريخ. واستمرت حرب الأيقونات الأولى على يد الأباطرة البيزنطيين حتى وصول "قسطنطين السادس"(٧٨٠-٧٩٧م) إلى عرش الإمبراطورية، الذي تولت أمه "إيرينا" زمام الحكم باسمه (كان له من العمر عشر سنوات) وكانت من محبي الأيقونات، فعاد الرهبان إلى أديرتهم، وأخرج ما أمكن من رفات القديسين من البحر، وعزل البطريرك المسكوني عن كرسيه، وعاد إلى الدير وتسلم مكانه "تراسيوس" المحب للأيقونات، والذي أعاد العلاقات شبه المقطوعة مع رومه. ودعا مع الإمبراطورة إلى مجمع لإعادة الاعتبار للأيقونات، فعقد مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧م، وسمي "المجمع المسكوني السابع"[٢].

- وهل انتهى الخلاف بذلك؟

---

(١) اعتبر رسميا "المجمع المسكوني السابع" (مجمع القسطنطينية الخامس)، ولكنه رفض وألغي بعد انتصار محبي الأيقونات كما سنرى بعد قليل.

(٢) كان مجموع حاضريه أقل من المجمع المسكوني السابع (٣٦٧ من رجال الدين)، ولكنه حكم على ذلك المجمع بأنه هرطوقي. وأعلن القائمون عليه أنه هو المجمع المسكوني السابع! وأقر ما يلي: "نحفظ كل التقاليد الكنسية التي ليست مستحدثة والموضوعة لأجلنا في الكتب المقدسة وبدونها، والتي منها ما يتكلم عن تصوير الأيقونات... ونحدد بأن يصير رسم الصليب الكريم المسيحي في كنائس الله على الأواني المقدسة والألبسة والجدران".

- كلا؛ فقد ظل النفور من الوثنية في نفوس بعض الأساقفة الذين وافقوا لفظاً تحت سلطة أمِّ الإمبراطور، وليس اقتناعاً، وكذلك في نفوس الكثيرين من الشعب والنبلاء أيضاً. وما إن اعتلى الإمبراطور "لاون الخامس" (لاون الأرمني) (٨١٣-٨٢٠م) العرش، حتى أعاد شن الحرب ضد الأيقونات، وألغى قرارات مجمع نيقية الثاني (المجمع المسكوني السابع)، واعتبره هرطوقياً. واستمرت هذه الحرب الثانية في عهد خلفائه إلى أن انتهت عندما قامت الإمبراطورة "تيودورا" أم الإمبراطور الصغير "ميخائيل الثالث"(٨٤٢-٨٦٧م) والوصية عليه (حيث كان في السادسة من عمره) وكانت من محبي الأيقونات أيضاً، قامت بإعادة الاعتبار لها، وعادت الأيقونات تظهر مرة أخرى على جدران الكنائس. وقد كرمتها الكنيسة بعد رقادها بأن طوبتها قديسة.

استغرب أبراهام من ذلك المدى الذي وصل إليه تلاعب الملوك والملكات والوصيات على العرش في العقائد المسيحية، والتفت إلى الأب ديمتري مستفسراً:

- هل هذا صحيح؟

لم يفطن الأب ديمتري لما يجول بخاطر أبراهام، فهز رأسه موافقاً، وقال بفخر:

- أجل. وقد صورتها الكنيسة بأيقونة مهيبة بلباسها الملوكي، حاملة أيقونة الرب له المجد. واعتبرت تاريخ انتهاء الاضطهاد "يوم انتصار الإيمان المستقيم"، وسُمي "أحد الأرثوذكسية، أحد الأيقونات". ويعاد للذكر سنوياً في الأحد الأول من الصوم الأربعيني المقدس السابق للفصح. حيث يطوف الكهنة والشعب بالأيقونات المكرّمة ويزيحونها بإكرام في الكنيسة وفي المدينة إعلاناً لانتصار العقيدة الأرثوذكسية في المجمع السابع بعد قرابة ١٢٠ سنة من الاضطهاد الإمبراطوري.

هز أبراهام رأسه بأسى قائلاً:

- وبهذا المجمع تنتهي المجامع التي اتفقت أغلبية المسيحيين اليوم على تسميتها بالمسكونية.

إلا أن الأب ديمتري غفـــل مرة أخرى عما كان يجول بخاطر أبراهام، وأجاب عما فهمه من تعليقه قائلاً:

- أجل. فبعد هذا حصل الانشـــقاق الكامل بين الكنيســـة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، ولم تعد هناك مجامع مسكونية. ولكن مع ذلك لا تزال الكنيسة الكاثوليكية تصر على أنها تمثل كل المســـكونة، وتطلق لقب المجامع المســـكونية على كل مجامعها. وآخر مجمع عقدته سمته المجمع المسكوني الحادي والعشرين!!!

- وهل اختلقت العقائد بين الكاثوليك والأرثوذكس بناء على المجامع اللاحقة([1])؟

- أجل للأسف. فقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية بعض الهرطقات المبتدعة التي ليس لها أصل في الدين.

- مثل ماذا؟

- مثـــل تغيرهم الأخير لقانون الإيمان النيقاوي-القســـطنطيني، الذي بات يُعرف ببدعة "الفيليوكفيه" Filioque [2]، مع أن المجامع المســـكونية اللاحقة منعت أي تغيير أو تبديل في المجامع الســـابقة. وقد روّج الملك شـــارلمان لتلـــك البدعة في تحدٍّ منه للإمبراطور البيزنطي الذي لم يعتـــرف بملكه في الغرب الأوربي! وبالطبع رفض بابا رومـــه "لاون الثالث" هذه الزيادة لما عُرضت عليه، ونقش دســـتور الإيمان الخالي من

---

(١) بقية المجامع التي يطلق عليها الأرثوذكس أو الكاثوليك لقب مسكونية سابقاً أو حالياً هي: مجمع القسطنطينية الرابع (أرثوذكس فقط)٦٩١، مجمع القسطنطينية الخامس (أرثوذكس، ولكنه اعتبر لاحقا مجمعاً هرطوقياً)٧٤٣، مجمع القسطنطينية الرابع (السادس عند الأرثوذكس) ٨٦٩ - ٨٧٠، مجمع القسطنطينية السابع (أرثوذكس فقط) ٨٧٩، المجمع اللاتراني الأول ١١٢٣، الثاني ١١٣٩، الثالث ١١٧٩، الرابع ١٢١٥، مجمع ليون الأول ١٢٤٥، الثاني ١٢٧٤، مجمع فينا ١٣١١ - ١٣١٢(كاثوليك فقط)، مجمع القسطنطينية الثامن (أرثوذكس فقط) ١٣٤١، ١٣٤٧، ١٣٥١، مجمع كوستانس١٤١٤ - ١٤١٨، مجمع بازيليل - فيرارا - فلورنس - روما ١٤٣١ - ١٤٤٢، المجمع اللاتراني الخامس ١٥١٢ - ١٥١٧، المجمع الترنتيني (ترنت) ١٥٤٥ - ١٥٦٣، المجمع الفاتيكاني الأول ١٨٦٨ - ١٨٧٠، الثاني ١٩٦٢ - ١٩٦٥م (كاثوليك فقط).

(٢) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

الزيادة الهرطوقية معلقاً إياه على باب كنيسة القديس بطرس شهادة منه بتمسك رومه بالإيمان الأرثوذكسي الذي كان يوحد كل الكنيسة حتى ذلك الوقت. وكذلك حكم بطاركة الكراسي الرسولية الأربعة أيضاً (القسطنطيني، الإسكندري، الأنطاكي، والأورشليمي) بمخالفة هذا التعليم لتعليم الكنيسة الأرثوذكسية، وذلك ضمن مجمعين انعقدا في ٨٦٧ و٨٧٩م. ولكن هذا التعليم لاقى رواجاً مضطرداً حتى تبنته رومه رسمياً في العام ١٠١٤م.

- وماذا أيضاً؟

- كان في الكنيسة آنذاك البطاركة الخمسة وهم: رومه، القسطنطينية (وهي رومه الثانية)، الإسكندرية، أنطاكية، وأورشليم. وكانوا جميعهم متساوين، ولهم السلطة نفسها مع استقلالية كل منهم في إدارة الكنائس في حدود أسقفيته، ولم يكن ثمة قانون يعطي أياً منهم سيادة أو رئاسة على الباقين، تماماً كما هي الحال في بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الحاليين. كما نشأت بعد ذلك كراسي أخرى أهمها كرسي موسكو (وهي روما الثالثة)[١]، وكان بابا رومه الأولى قد مُنح أولوية فخرية (رمزية) فيما بين الأساقفة لكونه أسقف العاصمة الأولى والعريقة، وهي تكسبه (نظرياً) التقدم عليهم في الاجتماعات التي يحضرها، وترؤس الجلسات، ولكنها لم تعطِه مزايا البت ولا أصواتاً إضافية في المجمع المسكوني، وقد رأينا أن معظم المجامع لم يكن لبابا رومه كبير تأثير فيها، ولم يدعَ إلى رئاسة جلساتها أصلاً. فقد حرره من ذلك نقل العاصمة إلى القسطنطينية[٢]، كما ساد الاعتقاد الخاطئ برئاسة بطرس للرسل في الغرب

(١) بعد فتح القسطنطينية وتحولها إلى عاصمة الخلافة الإسلامية، أبطلت الكنيسة الروسية سيادة كنيسة القسطنطينية عليها، واعتبرت نفسها كرسياً مستقلاً والمركز الحقيقي للأرثوذكسية الصحيحة، وبذلك أصبحت بزعمها: "رومه الثالثة". ويقول الراهب "فليوثيوس" من باسكوف: "لقد سقطت الرومتان (رومه والقسطنطينية) وهذه رومه الثالثة، ولن يكون هناك روما رابعة".

(٢) حرره ذلك أيضاً من التدخلات الإمبراطورية في شؤون كنيسته، وأبعده عنها فتميزت رومه بنوع من الاستقلالية والنفوذ.

المســيحي، وبأن البابا، وهو أســقف العاصمة التي استشــهد بطرس فيها، هو أيضاً رئيس خلفاء الرسل؛ أي رأس الكنيسة المنظور! وكان كرسي رومه يدير أسقفيات أوربا، وبعض أبرشــيات شمال إفريقيا. وظهرت في الغرب ما عُرفَ بـ"القوانين الإيسيدورية الكاذبة" التي بموجبها كان يدعى البابا أنه خليفة بطرس الرسول، وزعيم الرسل، وبأن للبابا كل السلطة في الكنيســة وتخضع له كل كنائس المسكونة وينال رعاتها سلطتهم منه، ودون موافقته لا ينعقد مجمع ولا يُعترف بصحته.

- ما منشأ تلك القوانين؟

- كان رؤســاء الأســاقفة الأوربيين قد تحالفوا مع الملوك في ألمانيا، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكاً واســعة، وحصلوا على سلطات إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات. ومن هنا جاءت تلك القوانين كأحكام بابوية لتقوية ســلطان البابوية، والحد من سلطات الأساقفة الآخرين وإلزامهم بفروض الطاعة والتبعية.

- متى صدرت تلك الأحكام؟

- لا أحد يعرف متى ولا أين صدرت، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متز عام ٨٤٢م، وكان واضعها قس فرنســي تسمى باســم "إزدورس مركاتور". وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو الباباوات، عدداً من المراســيم والخطابات تعزوها إلى البابــاوات مبتدئة من "كلمنت الأول" (٩١-١٠٠) إلــى "ملخيادس (٣١١-٣١٤). وكان الغــرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيســة من تقاليد وعادات قديمة تقضي بألا يُخلع أي أسقف من منصبه، وألا يُدعى مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع، وألا يُفصل في أية مســألة من المســائل الكبــرى، إلا بعد موافقة بابا رومه!! وتدل هذه الشواهد على أن الباباوات جميعاً، حتى الأولون منهم، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمي المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض!!! وكان البابا

"سلفستر الأول"(٣١٤-٣٣٥) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى "هبة الإمبراطور قسطنطين" السلطة الزمنية والدينية الكاملتان على جميع أوربا الغربية. وأن "هبة بابين" بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقياً من زمن بعيد، لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه، وبموجب هذه القوانين الكاذبة يصبح للبابا سلطة أعلى من المجمع المسكوني. وكان أول من أشهر هذه القوانين البابا "نيقولا الثاني" (٨٥٨- ٨٦٧)، ولكن الانشقاق الكبير بين رومه والكنيسة نتيجة ذلك الخلاف حول الأولوية تأخر قليلاً[١] بسبب ١٥٠ عاماً عاشتها البابوية في صراعات داخلية مستمرة على العرش الأسقفي(البابوي).

- ولماذا سميت بالقوانين الكاذبة؟

- لأنها كذلك فعلاً. فكثير من تلك الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس، ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس!!! وفي وسع كل من أوتي قدراً من العلم أن يكشف عن هذا الكذب والتزوير الفاضح.

- ولماذا لم يكتشف ذلك أحد منذ البداية؟

- كان البحث العلمي قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر، وكان مجرد القول بأن تلك الأحكام قد صدرت من هذا البابا أو ذاك من الباباوات الأولين؛ يعد وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد، ولهذا ظل الباباوات ثمانية قرون كاملة يفترضون ويفرضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم.

---

(١) تحديداً إلى سنة ١٠٥٤م. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

هارفارد وأكسفورد

استدعى أبراهام النادل، وطلب منه إحضار إبريق آخر من عصير البرتقال الطازج، ثم التفت إلى محدثيه قائلاً:

- إن الحديث عن المجامع المسكونية وسبب اختلاف عقائد الكنائس كان ممتعاً جداً أيها السادة. ولكن لنعد إلى موضوعنا الرئيسي، أعني الأريوسيين أو الموحدين المسيحيين.

- ألم ننتهِ منهم؟

قال الأب ديمتري بامتعاض، فأجابه أبراهام باسماً:

- أريد أن أعرف فقط ما الذي حل بالفئات الموحدة التي رفضت التسليم والخضوع للمجامع الأولى، ولم تذب في عقيدة الإمبراطورية والكنيسة الرومانيتين. فهذا هو أصل موضوعنا لو تذكرون.

فأجاب أحمد قائلاً:

- لقد استمرت تلك الفئات بالوجود، حتى بعد إعادة العمل بمجمع نيقية وتبنيه كعقيدة رسمية وحيدة للحكومة. فخارج حدود سيطرة الإمبراطورية الرومانية كان التوحيد لا يزال هو السائد بين أغلبية التجمعات المسيحية في العالم. ومن رفض التسليم بالأمر الواقع من تلك الفئات الموحدة، هاجر بدينه خارج الإمبراطورية الرومانية، حيث مارس إيمانه بحرية بين إخوانه في الدين.

- آه ها. وصلنا أخيراً إلى ادعائك بشأن وجود ممالك وشعوب كاملة كانت على التوحيد.

صاح أبراهام كأنه قد أمسك بطرف الخيط الذي يعيد الموضوع الذي يشغل رأسه حالياً. فهز أحمد رأسه مبتسماً وقال:

- سأخبرك عنها. ولكن قبل ذلك سأذكرك بحادثتين نجح فيهما بعض تلك الشعوب الموحدة بالانتقام من الإمبراطورية الرومانية نفسها؛ الأولى سنة ٤١٠م، عندما دمر القوط مدينة روما بقيادة قائدهم الشهير "ألاريك"[١]، والثانية عندما سقطت روما مرة أخرى سنة ٤٧٦م تحت ضغط ثوار النواحي[٢]، وقام هؤلاء الثوار في كل مكان بعزل الأساقفة التابعين لكنيسة الدين الرسمي للدولة (المثلثين) ونصبوا مكانهم أساقفة موحدين.

- لقد سمعت عن ذلك والحادثة الثانية يؤرخ لها ببداية العصور المظلمة (الوسطى)، ولكن مَنْ أيضاً من القبائل الأوربية كانت على التوحيد كذلك، وما الممالك التي أسستها؟

- بالإضافة إلى القوط[٣] والفاندال[٤]، كان هناك اللومبارد[٥] والبريطانيون والسويبيون[٦] والهيرميندیورين[٧] والتوتونين والألان والسويفان[٨] والسلت[٩] وقبائل

---

(١) بعد قتل الإمبراطور "هونوريوس" لجنراله "ستيليتشيو" والقيام بمجزرة قتل فيها عائلات ٣٠ ألفاً من جنود القوط الغربيين، أعلن ألاريك الحرب على الرومان، وكان ذلك في عام ٤٠٨ م. فتوغل القوط في إيطاليا واجتازوا عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية "رافينا" حتى وصلوا إلى روما وحاصروها، ومن ثَم تمت مفاوضة هونوريوس الذي رفض شروط ألاريك. فاتخذ ألاريك قراره بأن يقتحم مدينة روما، وكان له ذلك في ٢٤ آب/ أغسطس ٤١٠ م. ومع أن روما ليست عاصمة للإمبراطورية الرومانية، إلا أن مجرد سقوطها أدى إلى صدمة عنيفة أدت إلى اهتزاز عرش الإمبراطورية العريقة. وفي أثناء الاقتحام توفي ألاريك فخلفه زوج أخته أتولف الذي وافق على طلب هونوريوس بمغادرة إيطاليا مقابل أن يتنازل له عن أراضي أيبيريا وأكويتين.

(٢) قبائل أوربية نعتتهم روما بـ"البرابرة" مقارنة حضارتها بهمجيتهم!

(٣) سكان إسبانيا الوثنيون الذين تحولوا إلى المسيحية التوحيدية بتبشير من القس "أولفيلا" (أو "وولفيلا") ٣١١-٣٨٣ م. وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم.

(٤) أي المخربون أو المدمرون. وقد اكتسبوا اسمهم من تحطيمهم للأصنام التي أطلق عليها أسماء مسيحية.

(٥) وهم الذين سبقوا القوط الشرقيين في السيادة على إيطاليا.

(٦) شعب جرماني قادم من منطقة بحر البلطيق، كون مملكة قوية في غاليسيا. وبالتزامن مع مقاطعة بريطانيا ذاتية الحكم، كانت مملكة السويبيين في غاليسيا أولى تلك الممالك الرومانية الفرعية التي تشكلت نتيجة تفكك الإمبراطورية الرومانية الغربية.

(٧) دعوا بعد ذلك بالـ الثورنجيان وهم الألمان.

(٨) قبائل جرمانية أخرى.

(٩) وتكتب أحياناً "الكلت"، وهم مجموعة من الشعوب الأذربية كان لهم حضارة عريقة (وصلت إلى أوج ازدهارها ما بين عامي ١٢٠٠-٢٠٠ قبل الميلاد) ولهم لغة وأساطير تميزهم عن الرومان واليونان.

الهيرولى وجميع القبائل الشمالية بشكل عام. ويقول "سلفستر شولر" في كتابه الضخم[١]: "من المعلوم أن جميع البرابرة الذين استقروا على ضفتي الدانوب وعلى ضفاف الإمبراطورية (الرومانية) قد اعتنقوا أمة بعد أمة المسيحية الأريوسية (أي كانوا موحدين)..وهكذا أخذت الأريوسية تجتاح البلاد التي يقيم فيها البرغوند والسويفان والفاندال واللومبارد، وغدت ديانة هذه الشعوب الوطنية". فمن الظواهر البارزة في التاريخ الديني الأوربي أن الشعوب البعيدة عن تأثير السيطرة الرومانية (الدينية والسياسية والعسكرية) كانت أقرب إلى الفطرة، ومن ثم ظلوا على التوحيد.

فعلق الأب ديمتري قائلاً:

- حسب معلوماتي، ففي كل تلك الشعوب التي ذكرتها، كان هناك مسيحيون يؤمنون بما تسميه بالإيمان النيقاوي، وأن الباقين تحولوا إليه تدريجياً خلال قرن أو قرنين بعد مجمع نيقية.

- هذا ليس بعيداً عن الحقيقة تماماً يا سيدي. فنتيجة حروبٍ وتحالفاتٍ للإمبراطورية، ومن ثم الفرنكيين (الفرنجة) مع تلك الشعوب، دخل التثليث إليهم تدريجياً، حتى استقر فيهم جنباً إلى جنب مع النفوذ الروماني. فالأيرلنديون مثلاً كانوا موحدين، وسموا أنفسهم "ناصريين"، حتى غزاهم الرومان في القرن الخامس الميلادي، فاستأصلوا عقائدهم، وأحرقوا أناجيلهم المعروفة بالأناجيل "السلتية" (أو الكلتية)، التي كانت خالية تماماً من تأليه المسيح عليه السلام أو من عقيدة التثليث، وأجبروهم على ترك التوحيد واعتناق الكاثوليكية. والفاندال سلموا بالتثليث أيضاً عندما سقطت مملكتهم سنة ٥٣٣ م[٢]، والسويبيون تحولوا إلى الكاثوليكية سنة ٥٦١ نتيجة تحالفهم مع الروم ضد القوط الغربيين[٣]، والقوط أنفسهم حولوا إلى الكاثوليكية سنة ٥٨٦.

---

(١) لاحظ أن تسميتهم جميعاً برابرة!

(٢) على يد "بيليسأريوس" الذي أنقذ عرش "جستنيان" بواسطة إخماد ثورة نيكا في القسطنطينية.

(٣) حلفاؤهم السابقون، الذين استعمروهم لاحقاً.

أما البريطانيون فقد ظلوا موحدين حتى فرضت عليهم الكاثوليكية سنة ٥٩٧، وكذلك اللومبارد سنة ٦٠٣، والهيرميندیورين سنة ٧٤٢. وكما يقول سلفستر شولر في مكان آخر من كتابه[1]: "إجمالاً يمكن القول إن تاريخ شعوب أوربا الغربية وشمال إفريقية قبل الإسلام تاريخ للصراع بين الكنيسة الرومانية وبين الأريوسية. ويشمل ذلك القوط والفاندال والسلت والبربر وغيرهم". وحسب رأي كثير من المؤرخين، فلو لم يتحول الفرنجة (الفرنسيون) إلى الكاثوليكية ويدعموها بقوة متناهية، لربما انتهى التثليث في أوربا تماماً بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية.

- إذن فإن التوحيد كان عقيدة منتشرة في أوربا في القرون الميلادية الأولى!!!

قال أبراهام معلقاً، فقال أحمد مؤكداً:

- هذا ثابت تاريخياً.

هنا قال الأب ديمتري معترضاً:

- وإن كانت العقيدة الأريوسية منتشرة في ذلك الوقت، فماذا يعني ذلك؟! ستظل مجرد بدعة اختلقها مهرطق في القرن الرابع وزالت بزواله، إلا من بعض الشراذم الصغيرة هنا وهناك، فلماذا كل هذا الاهتمام غير المبرر بهم؟!!!

فرد أحمد قائلاً:

- لماذا تصر على تسمية المؤمنين بدين عيسى عليه السلام، والرافضين لمحدثات تأليهه وتثليث الله بالأريوسيين بعد كل الذي سمعته؟! ولماذا تدعي بأن دين عيسى عليه السلام والحواريين كان بدعة دخيلة على تأليه بولس وسابيليوس وأثناسيوس للمسيح عليه السلام؟!!!

- إذا لم يكن المسيح إلهاً، فكيف قام بكل هذه المعجزات؟!

- لأنه رسول الله وقد أيده بالمعجزات كما أيد غيره من الرسل. وهذه المعجزات هي بإذن الله، وإلا لكنا اعتبرنا إبراهيم ونوحاً وموسى وغيرهم كلهم آلهة.

---

(١) الجزء ١٢.

فقال الأب ديمتري كأنه قد أوقع بأحمد في شر أعماله:

- أتفق معك فعلاً بأن الله قد أيد كثيراً من أنبيائه بالكثير من المعجزات.

صمت قليلاً، ثم قال وكأنه يرمي بقنبلة:

- ولكن من يستطيع أن يحيي الموتى غير الله نفسه؟!!!

- أنت تعرف أن الله قد أيد كل رسول بمعجزات تتفوق على نوع العلم الذي برع به القوم المرسل إليهم، حتى يكون علمهم حجة عليهم في التيقن من مدى الإعجاز فيها. فأيد موسى مثلاً بالأفعى واللعنات والخوارق التي حلت بأرض مصر، وهذه قد يرجعها الرجل العادي إلى السحر فيما لو نزلت على قوم لا دراية كبيرة لهم فيه. لكن قوم فرعون كانوا خبراء بالسحر، وهؤلاء علموا أنها -لا ريب- معجزات إلهية لا تقوى أكبر أنواع السحر على الإتيان بها. كما أيد الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام بمعجزة القرآن البلاغية[1]، ولو نزل القرآن في غير العرب آنذاك، لظنوه مجرد قول شاعر بليغ. أما المشركون فقد كانوا ذوي فصاحة وبلاغة ورواة شعر، وكان علمهم هذا حجة عليهم في أن القرآن لم يكن كلام بشر، ويعجز أكبر الشعراء وأهل

---

(١) يقول "ألفونس اتين دينيه" (ولد في باريس سنه ١٨٦١ من أبوين كاثوليكيين، ونشأ في أسرة محافظة، وتعمق في دراسة الأديان. وبعد بحث دقيق قرر اعتناق الإسلام وسمى نفسه "ناصر الدين"، وقد كان له من اسمه نصيب؛ إذ نصب نفسه للدفاع عن الإسلام حتى وفاته سنه ١٩٢٩. وقد ترجم فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر كتابه (حياة محمد ﷺ إلى اللغة العربية): "إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً ﷺ كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآية القرآنية (المعجزة الخالدة)؛ ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، فمن اليسير رؤيتها في كل زمان ومكان بمجرد تلاوة آيات الذكر الحكيم. إن القرآن معجزة في أثره الإنساني، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء، فهي باقية ما بقيت. فالقرآن هو كتاب كل عصر، وله في كل دهر دليل على الإعجاز. ولقد أيد القرآن بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع أشخاص معينين، ونقل بعضها نقلاً متواتراً أو خاصاً، أما القرآن فهو المعجزة العامة، ولزوم الحجة به باق من أول نزوله إلى يوم القيامة، وحكمه في الغيوب مستمر استمرار الخلود. إنه المعجزة التي فاقت في إعجازها كل معجز".

البلاغة على الإتيان بمثله. وكذلك كان الحال مع عيسى عليه السلام الذي أيده الله بمعجزات تتفوق على علم اليهود الذين أرسل إليهم، وكانوا آنذاك قد برعوا بالعلوم المادية والطب، فأنكروا وجود الروح تماماً، بل أنكروا وجود الملائكة والحياة بعد الموت، وكان ذلك كله حجة عليهم، عندما شهدوا معجزات عيسى عليه السلام، الذي أيده الله تعالى بالروح القدس، وأثبت لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك روحانيات وراء المادة، وهناك حياة بعد الموت. وإن عيسى عليه السلام نفسه كان آية للناس في ذلك؛ فقد ولد بغير آب، بشكل ينافي كل قوانينهم المادية، وشفى المرضى وأحيا الموتى بإذن الله، ثم رفع دون أن يموت.

- كيف تجرؤ على تسمية إحياء الموتى بمجرد معجزة رسولية؟!!! إنه عمل مختص بالله وحده!!!

- لقد أحيا عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله، والله يؤيد رسله بما شاء.

ثم لاحت على وجه أحمد ابتسامة وهو يتابع قائلاً:

- لطالما مررت بهذه الحجة في معرض قراءاتي عن إثباتات اللاهوتيين لألوهية المسيح عليه السلام، ولطالما عجبت لها؛ فالتقليد الشريف وأسفار العهد القديم التي تؤمنون بها لا تنسب إحياء الموتى إلى بعض الأنبياء فحسب، بل إلى بعض الصالحين والقديسين[1]!!!

فتدخل أبراهام محاولاً قطع الطريق على النقاشات الجانبية التي قد تتطور إلى ما لا تحمد عقباه، وقال محاولاً إعادة الحوار إلى وجهته الصحيحة:

- إثبات ألوهية السيد المسيح أو نفيها ليسا الهدف من نقاشنا أيها السادة، بل دراسة عقيدة من رفض ذلك التأليه سواء بحق أم بغير حق. وقد عرفنا قبل قليل أن عقيدتهم كانت منتشرة في أوربا في القرون الميلادية الأولى. ولكن ماذا عن القرون الوسطى؟

---

(١) راجع رواية بشارات هاتمة للمؤلف.

فأجاب أحمد على الفور:

- لقد حافظ التوحيد على ازدهاره في ذلك العهد بكثير من الأقاليم الأوربية؛ كـ"ترانسلفانيا" مثلاً، وكان "جون سيجموند" (المتوفى سنة ١٥٧١م) ملك رومانيا[١] من أشهر الملوك الموحدين. وفي المجر قام "فرانسيس دافيد"[٢] الذي صنفت حركته كأول حركة توحيدية معاصرة هناك، مع أنه أدخل السجن بعد وفاة الملك "جون"، وتولي الملك "ستيفن باثوري" الكاثوليكي، الذي أصدر قراراً بمنع الموحدين من نشر كتبهم دون إذن منه. وفي بولندا تكاثر الموحدون حتى أرغمهم البرلمان سنة ١٦٥٨م على اعتناق الكاثوليكية قسراً، ففر عدد منهم إلى هولندا وإنجلترا، وهناك التقوا مع الفارين من الأندلس بعد سقوطها في يد الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا، كما تذكر دائرة المعارف الأمريكية. كذلك ظهر في ألمانيا مذهب "الأناباست" الموحد، ولكن استطاعت الكنيسة سحقه في النهاية. ثم ظهرت في مختلف أرجاء أوربا جمعيات تحارب التثليث؛ منها "الحركة المضادة للتثليث"، وأنشئت في شمال إيطاليا في أواسط القرن السادس عشر، تلتها "الحركة المعادية للتثليث" التي ترأسها الطبيب المشهور "جورجيو بندراثا" عام ١٥٥٨م. وفي عام ١٥٦٢م عقد "مجمع بيزو"، وكان القساوسة يتكلمون على التثليث فيما كان أغلبية الحضور من المنكرين له. وفي القرن السابع عشر قويت بعض الكنائس الموحدة على قلة في أتباعها، وأصدر الموحدون عام ١٦٠٥م مطبوعاً مهماً عن عقائد التوحيد. وفي عام ١٦٥٨م صدر مرسوم طردت بمقتضاه جماعة موحدة في إيطاليا. كما كان من رواد التوحيد في إنجلترا يومها "جون بيدل" (١٦١٥-١٦٦٢)، الذي سمي "أبو التوحيد الإنجليزي المعاصر"، وكان قد دحض الثالوث

---

(١) لا يزال في رومانيا تجمع كبير للموحدين كما مر معنا في رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) ١٥١٠-١٥٧٩ كان أسقفاً كاثوليكياً أولاً، ثم اعتنق البروتستانتية، ثم وصل في النهاية إلى التوحيد الخالص، فأبطل التثليث ونفى ألوهية المسيح. وقد أوجدت أفكاره فرقة من الموحدين في بولونيا والمجر (هنغاريا) وأثرت أفكاره حتى في ملك هنغاريا الذي أصدر بياناً أمر فيه بإعطاء الموحدين حرية العقيدة.

عن طريق الكتاب المقدس نفســـه، بعد أن توصل من خلال دراسته للكتاب إلى الشك في عقيدة التثليث. وقد حوكم مراراً وســـجن، ثم نفي إلى صقلية، وتوفي أخيراً وهو ســـجين بسبب سوء ظروف السجن وسوء المعاملة فيه. وقد أثرت أفكاره في الكثيرين من متحرري الفكر في بريطانيا فآمنوا بها، ومن أشـــهرهم: "ميلتون" (١٦٠٨- ١٦٧٤)، والسير "إسحاق نيوتن"(١٦٤٢-١٧٢٧) العالم الفيزيائي الشهير، وأستاذ علم الاجتماع "جـــون لـوك"(١٦٣٢-١٧٠٤) وكلهم ســـاهم بدوره في نقد عقائد الكنيســـة وتعاليمها المعقدة غير المفهومة؛ كالتثليث والتجسد وإلهامية كل ما في الكتاب المقدس... إلخ، بما كتبوه ونشـــروه من كتب وأبحاث ورسائل قيمة. وفي عام ١٦٨٩م استثنى مرسوم ملكي الموحدين من قانون التسامح الديني. وذلك لا ريب يعود إلى كثرة هؤلاء وتعاظم أثرهم وعددهم، وهو ما يعبر عنه "بردنوفسكي" في كتابه "ارتقاء الإنسان"، بقوله: "كان العلماء في القرن الســـابع عشر يشـــعرون بالحرج من مبدأ التثليث". وفي القرن الثامن عشر ســـمي هؤلاء الموحدون بـ"الأريوسيين"، تخليداً لذكرى الموحد الذي اضطهدته الكنيسة الرسمية الأولى، ومنهم الدكتور "تشارلز شاونسي" (ت ١٧٨٧م) راعي كنيسة بوسطن، وكان يراسل الأريوسيين الإنجليز. وكذلك ناضل الدكتور "يوناثان ميهيو" بشجاعة ضد التثليث. ومثله العالم الطبيعي "جون بربستلي" (ت١٧٦٨م)، وقد طبع رسالته "التماس إلى أساتذة المســـيحية المخلصين الموقرين"، ووزع منها ثلاثين ألف نسخة في إنجلترا وحدها، فأرغم على مغادرتها، ومات منفياً في بنســـلفانيا بأمريكا. واعتزل "ثيوفليس ليندساي" (ت١٨١٨م) الخدمة الكنسية، ثم ما لبث أن نظم أول جماعة مصلين موحدة في إنجلترا الحديثة، وكان يؤكد أنه ليست الكنائس فقط مكان عبادة الله، بل للإنسان أن يختـــار أي مكان لأداء الأدعية والصلوات لله وحـــده فقط. كما عين زميله الموحد "توماس بلشـــام" في منصب كبير في "كلية هاكني اللاهوتية"، ثم أسسا معاً "الجمعية التوحيدية لترقي المعرفة المســـيحية وممارســـة الفضيلة" عن طريق توزيع الكتب. ثم

بعد إقرار الحقوق المدنية، كوّن الموحدون اتحاداً أسموه "الاتحاد البريطاني الأجنبي للتوحيد". ومع مطلع القرن العشرين تزايد الموحدون، وازداد نشاطهم، وأثمر ما يقرب من أربع مئة كنيسة في بريطانيا ومستعمراتها، ومثلها في الولايات المتحدة.

- هل هؤلاء الإنجليز هم من نشروا التوحيد في أمريكا؟

- لقد ساهموا في ذلك بشكل أساسي. فالقسيس والعالم البريطاني الشهير "جوزيف بريستلي"[١] ألف كتاباً رائعاً آخر في دحض التثليث وإبطال ألوهية المسيح سماه "تاريخ يسوع المسيح"، كما ألف كتاب "تاريخ ما لحق بالمسيحية من تحريفات" في مجلدين. وهو ما أثار ثائرة أتباع الكنيسة الرسمية وأمروا بإحراقه فيما بعد. وقد هاجر بريستلي في آخر عمره إلى أمريكا وأنشأ هناك الكنيسة التوحيدية (Unitarian Church)، وتوفي في بوسطن. والقس "ويليام إيليري تشانينغ" (١٧٨٠- ١٨٤٢) أيضاً كان له الفضل في تطوير وإرساء دعائم الكنيسة التوحيدية في بريطانيا ومن ثم أمريكا بفضل مواعظه المؤثرة البليغة وخطبه القوية ومحاضراته القيمة، هو ومساعده القسيس "رالف والدو أيميرسن". ومن الجدير بالذكر أن أفكار فرقة "اليونيتارينز" Unitarians هذه تسربت إلى قادة الحركة التي قامت بتأسيس مدرسة اللاهوت العصرية في جامعة "هارفرد" الشهيرة في سنة ١٨٦١ التي كانت قد تبنت العقيدة التوحيدية صراحة في العام ١٧٨٦. إضافة إلى كليتين لاهوتيتين تعلمان التوحيد هما "مانشستر" و"أكسفورد" في بريطانيا، وكليتين في أمريكا، إحداهما في شيكاغو، والأخرى في بركلي في كاليفورنيا، وما يقرب من مئة وستين كنيسة أو كلية في المجر، وغير ذلك في كل دول أوربا المسيحية[٢].

---

(١) (١٧٣٣- ١٨٠٤) وهو من اكتشف "الأوكسجين"، الأمر الذي أكسبه شهرة عالمية.

(٢) من يريد الاطلاع على تفاصيل كل ذلك، فعليه الرجوع إلى كتاب: "تراثنا الموحدي" تأليف: إيرل مورس ويلبر.

- هارفارد وأكسفورد؟! تقصد أعرق وأشهر جامعتين في العالم على الإطلاق؟!!!

قال أبراهام وقد تملكته الدهشة. فهز أحمد رأسه بالإيجاب متابعاً:

- هما بعينهما.

- لقد سمعت عن أصول جامعة هارفارد التوحيدية عندما كنت في الولايات المتحدة، إلا أنني لم أكد أصدق ذلك. وها أنا ذا الآن أعرف أن الأمر نفسه ينطبق على جامعة أكسفورد أيضاً. ولكن هل كان نشاط أكسفورد التوحيدي مؤثراً؟

- تستطيع قول هذا. ففي أكسفورد عقد سنة ١٩٢١م مؤتمر حضره عدد كبير من رجال الدين برئاسة أسقف كارليل الدكتور "راشدل " الذي قال في خطابه: "إن قراءته للكتاب المقدس لا تجعله يعتقد أن يسوع إله، وأما ما جاء في إنجيل يوحنا مما لم تذكره الأناجيل الثلاثة، فلا يمكن النظر إليه على أنه تاريخي حقيقي، وأن كل ما قيل في ميلاد المسيح من عذراء أو شفائه الأمراض أو القول إن روحه سابقة للأجساد، كل ذلك لا يدعو إلى القول بألوهيته". وقد شاركه في آرائه عدد من المؤتمرين. حتى إن العالم اللاهوتي "إيميل لورد فيج" صرح قائلاً: "لم يفكر يسوع المسيح أنه أكثر من نبي، وليس بقليل أن يرى نفسه في بعض الأحيان دون النبي، ولم يحدث قط من يسوع ما يخيل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم... يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله: إنه ابن الإنسان، وقديماً أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التي تفصلهم عن الله، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الإنسان". أي إن هناك أثراً للتوحيد حتى في نفس الأساقفة التي تتبع لكنائس تقوم على التثليث.

- ولكن لماذا لا نسمع عن مثل هؤلاء في عصرنا الحاضر؟

قال الأب ديمتري وهو لا يخفي امتعاضه، فأجاب أحمد:

- ومن قال ذلك؟!!! ففي عام ١٩٧٧م قام البروفيسور البريطاني المعاصر "جون هيك" أستاذ اللاهوت في جامعة "برمنجهام" بالاشتراك مع ستة من علماء اللاهوت بتأليف كتابهم المشهور "أسطورة الإله المتجسد" رافضين المفهوم المتأخر الذي ينسب الألوهية للمسيح، باعتباره مجرد طريقة تعبير أسطورية وشعرية[١]، ثم أصدر ثمانية من علماء اللاهوت في بريطانيا كتاباً أسموه "المسيح ليس ابن الله"، أكدوا فيه ما جاء في الكتاب الأول، وقالوا: "إن إمكانية تحول الإنسان إلى إله لم تعد بالشيء المعقول والمصدق به هذه الأيام". وفي مقابلة تلفزيونية جرت في نيسان/أبريل ١٩٨٤م في بريطانيا مع الأسقف "دافيد جنكنز"، الذي يحتل المرتبة الرابعة بين تسعة وثلاثين أسقفاً يمثلون هرم الكنيسة الأنجليكانية، صرح بوضوح بأن ألوهية المسيح ليست حقيقة مسلماً بها. وكان لكلماته صدى كبير بين أتباع الكنيسة الإنجليزية، فقامت صحيفة "ديلينيوز" باستطلاع رأي واحد وثلاثين أسقفاً (من الأساقفة التسعة والثلاثين) حول ما قاله الأسقف دافيد، ثم نشرت نتيجة الاستطلاع في عددها الصادر في ١٩٨٤/٦/٢٥م، وكانت نتيجته أنه أصر ١١ فقط من الأساقفة على القول بأنه يجب على المسيحيين أن يعتبروا المسيح إلهاً وإنساناً معاً، وقال ١٩ منهم بأنه كان كافياً أن ينظر إلى المسيح باعتباره الوكيل الأعلى لله، فيما أكد ١٥ أسقفاً منهم أن الآيات المذكورة في العهد الجديد كانت إضافات ألحقت بقصة يسوع فيما بعد، أي إنها لا تصلح في الدلالة على الألوهية. وهكذا فهناك أساقفة مهمون في الكنيسة يرفضون مسألة ألوهية المسيح، ويقرون بأنها عقيدة دخيلة على المسيحية لم يعرفها المسيح ولا تلاميذه، وأنها من مبتدعات بولس والذين تأثروا به ممن نسخوا الأناجيل والرسائل، وبالذات إنجيل يوحنا الذي قصد منه أساساً إثبات ألوهية المسيح والرد على الموحدين[٢].

---

(١) راجع مقتطفات من كتابهم هذا في رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) يجدر التنبيه هنا أن عبارات التأليه التي في إنجيل يوحنا قد حذفت من الطبعات المنقحة، ووضعت في أخرى بين قوسين مع حاشية بأنها لم ترد في أقدم النسخ التي عثر عليها، وأنها من ثم توضيح من النساخ أدمج لاحقاً بالنص.

- هل اقتصر الوجود التوحيدي المعاصر على تلك البلاد فحسب؟

سأل أبراهام باهتمام، فأجابه أحمد:

- كلا بالطبع؛ فالتوحيد ظل حاضراً في أوربا رغم الاضطهاد الكنسي والحكومي، وقد ظهر أنصاره في فرنسا سنة ١٥٥٠م باسم "الهيجونوت" (Huguenots)، إلا أن الكاثوليك شنوا عليهم حرباً ضروساً في أيام الملكة "كاترين" وابنها "هنري"، كانت أشهر وقائعها هي "مجزرة سان بارتيملي"[١]، حيث طلب ارتداء الصليب لتمييز الكاثوليك،

---

(١) نستعرض هنا بعض المشاهد التي جاءت عن مجزرة سان بارتيملي في قصة الحضارة لول ديورانت: وإذا كان المتآمرون قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت، فإنهم اغتنموا الآن فرصة هذا الأمر المجنون الذي نطق به الملك ليستأصلوا شأفة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك. . . . . الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق. . . . وأرسل هنري جيز كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتي يعثرون عليه؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب. وبينما كان الظلام لا يزال مخيماً، قاد جيز نفسه ثلاث مئة جندي إلى المبنى الذي ينام فيه كوليني. وكان على مقربة منه باريه طبيبة، وميرلان سكرتيرة، ونيقولا خادمة. وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين، ثم سمعوا طلقات وصياحاً- كان حرس كوليني يقتلون. واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح "لقد قضي علينا"! وأجاب الأميرال: "إنني أعددت نفسي للموت منذ زمن طويل، فأنقذوا أنفسكم، لا أريد أن يلومني أحباؤكم على موتكم. أستودع روحي لرحمة الله". وهربوا، واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كوليني راكعاً يصلي، وطعنه جندي بسيفه وشق وجهه، وطعنه آخرون، ثم قذف من النافذة وهو حي بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمي جيز. وبعد أن تأكد الدوق من موت كوليني أمر رجاله بأن ينتشروا في باريس ويذيعوا هذه العبارة: "اقتلوا! اقتلوا! هذا أمر الملك". وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر- وقيل إلى روما، أما الجسد فسلم للجماهير التي مثلت به تمثيلاً وحشياً فقطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع، وعلقت بقيته من عرقوبيه. وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف. وكان الجواب أن الأوان فات، أما وقد مات كوليني فلا بد من قتل الهيجونوت وإلا فهم لا محالة ثائرون، وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر. وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى في جنون الحرب، واغتبطت الجماهير بإطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل. فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عدداً يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف، . . . . . ذكر السفير الإسباني في تقريره: "إنهم يقتلونهم جميعاً وأنا أكتب هذا، إنهم يعرونهم. . ولا يعفون أحداً حتى الأطفال. تبارك الله!"، أما وقد أصبح القانون ذاته خارجاً على القانون، فقد انطلق السلب والنهب في غير قيد، وأبلغ=

وأي شـــخص رفض ارتداءه كان يقتل على الفور باعتباره من الهيجونوت الكفرة، حتى استأصلوهم سنة ١٥٧٢م، إلا من استطاع الفرار إلى هولندا ثم إلى أمريكا.

- كنت أظن الهيجونوت من البروتستانت!

قال أبراهام بدهشة، فأجاب أحمد موضحاً:

- هنـــاك حركتان مشـــهورتان في التاريخ الأوربي همـــا "الأيكونوكلازم" أي حركة تحـــريم الأيقونات والتماثيل التي تكلمنا عليها قبل قليل، والبروتســـتانتية أي الحركة الاحتجاجيـــة الإصلاحية، وقد وفرت كل منهما نوعاً من الغطاء لعقيدة الموحدين التي كانت تظهر إلـــى العلن وتختفي بمقدار الحرية المتاحة لها، وكانت حركة الإصلاح في بادئ الأمر فرصة الصراع لانكسار باب السجن الكاثوليكي. فخرج الموحدون في جملة من خرجوا من المأســـورين، ومن هنا اختلط الأمر على الباحثين، وصعب التفريق بين البروتستانت والموحدين، بل ومنكري الدين كله (أي من ينكر وجود الله تعالى)، وبين من ينكر العقائد الكنسية، ولاسيما التثليث، ولكنه يؤمن بالوحي والكتب المقدسة، وبين من يقف بين ذلك فينكر الكتب والقدر، ويعترف بنوع من الوحي والتعبد. ووصل الأمر في غمرة هذا اللبس والاختلاط إلى التنازع الشـــديد في عقيدة بعض الأعلام المشهورين بالعلم والفكر والفلســـفة، مثل "جون لوك"، و"إســـحاق نيوتن"، و"شارل ديكنز"، و"جان جاك روسو"، و"داروين". فالكنيسة الموحدة تدعي أنهم من أتباعها، وغيرهم لا يسلم لها بذلك، بل يجعلونهم "ربوبيين"[1]، أو لاأدريين أو "طبيعيين"(من كلمة الطبيعة)... إلخ.

=الملك أن بعض حاشيته شاركوا في نهب العاصمة. والتمس منه بعض المواطنين المروعين عندما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن. فأصدر الأوامر بوقف المذبحة، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستانت حماية لهم؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء، وأغرق غيرهم بأمره في نهر السين. وهدأت المذبحة هنيهة. ولكن حدث في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، أن شجيرات الشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبيه معجزة، وقرعت أجراس الكنائس في باريس احتفالاً به، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة، فاستؤنف القتل من جديد.

(١) المؤمنون بالله مع إنكار الوحي.

- إذن كان بينهم وبين البروتستانت وفاق وتداخل.

- بل على العكس تماماً؛ فالاضطهاد الذي حل بهم لاحقاً من قبل البروتستانت، بعد أن استتب لهم الأمر، كان أفظع مما تتصور، بل كان مثار دهشة المؤرخين الغربيين ولا يزال.

- وكيف ذلك؟

- كان هناك رجل دين إيطالي يدعى "فاوستو باولو سوزيني"[١] اشتهر باسم "سوسيانوس"، نشر كتاباً إصلاحياً ينقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث وتجسد وكفارة وغيرها، ثم توصل إلى التوحيد الخالص وأخذ يؤكده في كتاباته ورسائله، وانتشرت تعاليمه في كل مكان. وقد عرفت مدرسته أو مذهبه اللاهوتي لاحقاً باسم "السوسيانية"[٢]، أما مخالفوه فسموا أتباعه بـ"الأريوسيين الجدد". وقد ظهرت آراؤه في عنفوان الثورة البروتستانتية على الكنيسة الكاثوليكية بقيادة زعيميها الشهيرين لوثر وكالفن، فأصبح كلٌّ من الكاثوليك والبروتستانت أنفسهم يحاربون الموحدين من أتباعه. لذا تعرض السوسيانيون إلى اضطهاد وحشي منظم منذ عام ١٦٣٨، وحرق الكثير منهم أحياء أو حرموا حقوقهم المدنية، وحرقت كتبهم[٣]، وكان كالفن ينافس لوثر في تزعم الإصلاح، إلا أنه كان أكثر منه اعتماداً على التوراة، ولاسيما في انتهاج القوة، وقد قرر كثير من المؤرخين أنه يهودي الأصل[٤].

---

(١) ١٥٣٩-١٦٠٤. وقد درس اللغة العربية كما ورد في قصة الحضارة ج ٢٤، ص ٢٣٨.

(٢) بعد وفاته جمعت رسائله وكتاباته في كتاب واحد نشر في مدينة "روكوف" في بولندا، ولذلك أخذ اسم "كتاب العقيدة الراكوفية".

(٣) في سنة ١٦٥٨ خُيِّرَ السوسيانيون بين قبول الكاثوليكية أو الذهاب إلى المنفى، فتوزعوا في أطراف أوربا، وقد لقيت السوسيانية رواجاً كبيراً في هنغاريا (المجر) ثم بولندا وترانسلفانيا (إقليم في رومانيا)، وانتشرت منها إلى هولندا ثم بريطانيا، وأخيراً سرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت وراء نشوء الفرقة الشهيرة التي تسمت باسم التوحيديين The Unitarians، والتي تأثرت بآرائه إلى حد كبير.

(٤) يجدر التنبيه هنا أن كالفن، مع أنه كان صارماً جداً في مختلف المسائل الدينية، أقر "الفائدة الربوية" على نقيض النظرة اللاهوتية التقليدية. ولمزيد من المعلومات حول أثر البروتستانت في إفراز الرأسمالية راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- كالفن كان يهودياً؟!!!

- هناك الكثير من القرائن المؤكدة لذلك.

- معلومة مثيرة. تابع أرجوك.

- يقـــول "ديورانت": "إن كالفن كان يرى في مذهب الموحدين بداية النهاية للمســـيحية، وخشي هذه الهرطقة أكثر من أي شيء آخر، لأنه وجدها متفشية في مدينة "جنيف" ذاتها[١]، وبالذات بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا"[٢]، وقد عاصر كالفن من السوسيانيين شخصية مثيرة للجدل يدعى "مايكل سيرفيتوس"[٣]، ولا تزال مأساة سيرفيتوس هذا تعد عند مؤرخي الفكر وصمة عار في جبين الإصلاحيين البروتستانت عامة وكالفن خاصة، فقد حكم عليه سنة ١٥٥٣م بأن يحرق حياً على "نار هادئة" عقوبة له على إنكار التثليث.

- وماذا كان رأي لوثر؟

- لقد لقبه لوثر بـ"المراكشـــي"[٤] وربما كان ذلك دليلاً على أن الضغينة عليه كانت بســـبب تأثره بالإســـلام أكثر من كونه كافراً بالتثليث؛ إذ يقول "ديورانت"، بعد أن نقل فقـــرات من كلامه: "إن مفهومه عن المســـيح قريب جداً من مفهـــوم محمد". فنظراً إلى أصله الإســـباني وقراءته للقرآن، واطلاعه على العقائد الإســـلامية، كان يستحق عندهم أن ينزل عليه أشـــد العقاب، فيكون عبرة لغيره من الخارجين على عقيدة لوثر وكالفن. خاصة أن ســـيرفيتوس كان مندفعاً جـــداً في الثورة على التثليث، فألف كتاباً أســـماه "خطأ التثليث" سنة ١٥٣١م، وفيه شـــبه الرب الذي يعبده المسيحيون بالصنم الخرافي الوثني "ســـربيروس" الذي كان أتباعه يعتقدون أن له ثلاثة رؤوس[٥]، ومع أنه

(١) كان كالفن قد اتخذ من مدينة جنيف مقراً لدعوته، وحكمها حكماً لاهوتياً شديد الصرامة.

(٢) وهذه إشارة إلى سوسيانوس وأمثاله.

(٣) ١٥١١-١٥٥٣ وبعض مؤرخي الفكر الغربي يجعلونه المؤسس.

(٤) نسبة إلى مراكش أو المغرب وهي كناية تحقيرية عن المسلم آنذاك.

(٥) في الأساطير اليونانية ولدت "أخيدنا" وهي نصف امرأة ونصف أفعى "سربيروس" ذا الرؤوس الثلاثة الذي عمل حارساً لهاديس حتى استطاع "هرقل" أن يأسره، وهرقل هذا في أساطيرهم هو ابن المعبود الأكبر "زيوس" وأشهر أبطال المثيولوجيا اليونانية ثم الرومانية.

عاد ليكتب كتاباً عنوانه "إعادة المسيحية"، الذي ربما كان اضطراباً في المعتقد، أو تقية من شر أعدائه، وخوفاً على حياته بعد أن أدرك الوحشية غير المتوقعة لمن ظن أنهم إصلاحيون، إلا أن ذلك لم ينقذه من مصيره المحزن، وكان إحراقه نذيراً صارخاً لأصحاب مذهب التوحيد بالفرار إلى بلاد غير خاضعة للبروتستانت، فاتجهوا إلى بولندا وهولندا وإقليم "ترانسلفانيا"(رومانيا) حيث كان الملك الموحد "جون سيجموند" يوفر حماية للفارين منهم في مملكته.

- حسناً، هذا عن حركة الإصلاح، فكيف وفرت حركة تحطيم الأيقونات والتماثيل غطاء للموحدين؟

- لقد كان لهم دور كبير فيها، بالإضافة إلى تأثير الإسلام.

- وهل كان للإسلام دور في ذلك.

- لقد ظهرت بوادر الإصلاح والتنوير في الأصل نتيجة لتواصل أوربا مع الحضارة الإسلامية التي كانت متفوقة بكل المقاييس، وقاد الاحتذاء بها إلى بدء عصر النهضة في أوربا.

- إذا كان الأمر كذلك حقاً، فلم لم يؤدِّ ذلك التأثر إلى انتشار الإسلام هناك؟!!!

تساءل الأب ديمتري ساخراً، فأجاب أحمد بهدوء:

- كاد الأمر أن يصل إلى ذلك فعلاً لولا حزم الكنيسة الكاثوليكية. ففي القرن الثالث عشر كان الإمبراطور الروماني الألماني "فردريك الثاني" عاشقاً للثقافة الإسلامية. ولما رأت الكنيسة حرصه على تعلم العربية، وكثرة المسلمين في بلاطه، وتأثره الواضح بهم، حاربته بضراوة، وأصدرت بحقه حرماناً، ولقبته بـ"الزنديق الأعظم"[1]، مع أن المؤرخين في الفكر يلقبونه بـ"أول المحدثين" تقديراً لريادته في الحضارة والعلوم والإنسانيات. والتأثر الأوربي بالإسلام كان موجوداً دائماً، ولولا محاربة الكنيسة والإمبراطورية الضروسُ له، لأصبح الكثير من ممالك أوربا مسلمة.

---

(١) كتاب "الزنديق الأعظم"، تأليف: جاي ديس، ترجمة أحمد نجيب هاشم.

- ألا ترى أنك بالغت كثيراً؟!!!

- بتاتاً. فقد كادت الجزر البريطانية مثلاً أن تسلم، بل وصل انتشار الإسلام هناك إلى بعض الملوك، كما نستنتج من الدينار الذهبي الإسلامي للملك "أوفا"[1] الذي اكتشف في عام ١٨٤١م.

- ما الذي تقصده بدينار إسلامي؟ فالمسلمون في عصرنا هذا سكوا عملات مشابهة لعملات الدول المسيحية الأكثر تقدماً منهم، أفإن اكتشفت تلك العملات بعد ألف سنة فسيستنتج المكتشفون أن المسلمين اعتنقوا المسيحية؟!!! ما هذا المنطق الأعوج؟

- الأمر يتعدى مجرد تقليد دولة الخلافة التي كانت أكثر تقدماً من الممالك الأوربية، ففي أحد وجهي القطعة توجد "شهادة الإسلام" باللغة العربية وهي "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، وعند الأطراف كتبت عبارة "محمد رسول الله"، ثم الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]. وفي وسط الوجه الثاني نجد كتابة عربية أخرى وهي "محمد رسول الله"، وفي وسط هذه الجملة نقش اسم الملك أوفا باللغة الإنكليزية.أما عند الطرف فقد كتب باللغة العربية "بسم الله.. ضرب هذا الدينار سبع وخمسون ومئة".

---

(١) جاء في الموسوعة البريطانية والموسوعة الفرنسية (لاروس) أن الملك أوفا حكم إنكلترا ٣٩ عاماً (اعتباراً من ٧٥٧ حتى ٧٩٦م) وكان من أقوى ملوكها في ذلك العهد المبكر من تاريخ إنكلترا. كان أول الأمر ملكاً على "مارسيا" أو ما يطلق عليه اسم "إنكلترا الوسطى" التي كانت مملكة ملكية ضمن ٧ ملكيات موجودة آنذاك. وقد وسع مملكته بعد أن فتح الملكيات الصغيرة حوله أمثال كنت ووست وساكسونس وولش، كما قام بتزويج ابنتيه إلى كل من ايثلريد ملك نورثمبريا، وبيور هتريك ملك وساكس، ضماناً لبقائهما داخل نطاق اتحاده بفضل روابط النسب. وقد دخل الملك أوفا في معاهدات مع الإمبراطور شارلمان ومع البابا أندريان الأول. والشيء الغريب أنه لا الموسوعة البريطانية ولا الموسوعة الفرنسية تشيران إلى فرضية إسلامه أو حتى إلى ديناره الإسلامي المشهور، بل تهملان تماماً كل ما يمت إلى ذلك بصلة!!! وهذا يدعم اعتقاد الذين يرون أن هذه الموسوعات، على اشتهارها بالمصداقية والحياد والتقصي العلمي، إلا أن كل هذا يختزل للدرجات الدنيا عندما يتعلق الأمر بالإسلام.

- يا إلهي. هل أنت متأكد مما تقول؟

صرخ أبراهام بدهشة، فأجابه أحمد بثقة:

- هـــذه القطعة الذهبية محفوظة الآن في شـــعبة النقـــود القديمة في "المتحف البريطاني"[١].

أراد أبراهام الاستفســـار أكثر عن هذا الموضوع، ولكنه لاحظ أن الأب ديمتري قد بدا وكأن الكيل على وشك أن يفيض به، فقال موجهاً حديثه إلى أحمد:

- مرة أخرى نشطُّ عن موضوعنا الرئيسي، وهو الموحدون...

فقاطعه الأب ديمتري قائلاً:

- أخشـــى أننا سنضطر إلى إيقاف المواضيع كلها أيها السادة؛ فالمقهى على وشك الإغلاق.

نظـــر أبراهام وأحمد حولهما، فوجـــدا أن أغلب رواد المقهى قد غادروه فعلاً، وأن عماله قد بدؤوا بالتنظيف اســـتعداداً للرحيل. وبينما كان أحمد مشغولاً بدفع نصيبه من الفاتورة، همس الأب ديمتري في أذن أبراهام قائلاً:

- أود الحديث معك على انفراد. سأنتظرك هنا غداً في الساعة الثالثة بعد الظهر.

---

(١) يمكن معاينة صورها على موقع مركز الكويت العالمي للدراسات والاستشارات للمسكوكات الإسلامية والبيزنطية والساسانيه

http://alhosini-money.com/showthread.php?t=486.

الصراع

وتشمل:

من ألاعيب الشيطان

بعض النجاح بعد قرون من الفشل

المستقبل...لمن؟

وشهد شاهد من أهلها

بين الرهبنة وتعدد الزوجات

الصراع

من ألاعيب الشيطان

وصل أبراهام قبل الموعد المحدد، لكنه وجد أن مضيفه قد سبقه بمدة كافية لإنهاء ثلثي زجاجة النبيذ التي على طاولته. وبعد أن بادله التحية وعبارات المجاملة، قال الأب ديمتري ممهداً للموضوع الذي أراد مقابلة أبراهام من أجله:

- إن صديقك أحمد شـــخص ذكي، ومثقف جداً، ولكـــن لا تدع ذلك يؤثر عليك، فأخشى أنه يقودك إلى الإسلام دون أن تدرك.

ظهر الضيق على وجه أبراهام، وقال ساخطاً:

- أنت مخطئ في ذلك سيدي.

- لم الغضب؟!

- أنا آســـف على انفعالي، ولكن يزعجني كثيراً أن الجميع باتوا في الآونة الأخيرة يظنون أنني سأسلم، حتى أولئك الذين عرفوني جيداً، وقد مللت من سماع ذلك.

- كنت أتمنى أن أكون مخطئاً فعلاً. ولكن ما دمت لست الوحيد الذي لاحظ ذلك، ومـــا دام الآخرون الذين لاحظوا ذلك قبلي يعرفونك جيداً، فيبدو أن الخطأ قد يكون من جانبك أنت، وليس من جانبنا. ألا تظن ذلك يا بني؟

- لم أعد أعرف أي شيء يا سيدي.

- لقد لمست حيرتك وتخبطك، ووجدت نفسي ملزماً بمساعدتك في ذلك. أرجو ألا تفهمني بشكل خاطئ، فأنا لا أحاول أن أقنعك بديني، كما أنني لست معادياً للإسلام، ولكنني أجدك منجذباً نحو إيجابياته، وأريد فقط أن أفتح مداركك على ســلبياته، كي تكون على بينة من أمرك في بحثك عن الحقيقة.

- بل العكس هو الصحيح يا أبانا، فأنا مدرك لســلبيات الإســلام جيداً، وأكاد لا أعرف شيئاً عن إيجابياته.

- وما هي سلبيات الإسلام التي تدركها؟

فتــح أبراهام فمه ليجيب، ولكنه فوجئ بأن أغلب تلك الســلبيات قد انقلبت إلى إيجابيــات، بعد أن فهمها في الآونة الأخيرة، ومع ذلك أخذ يرددها كالببغاء كي ينفي عن طريق هذه المبالغة أي أثر لتهمة تفكيره باعتناق الإســلام، مقدماً ما لا يزال يجده سلبيات الإسلام فعلاً:

- أن الإســلام يدعو إلى الكســل و"التواكل"، باعتبار أنه لن يحصل للمسلمين إلا مــا كتبه ربهــم، وأن جهدهم لن يؤخر أو يقدم في "القدر" المكتــوب[1]، وأنهم يبالغون

---

(١) هذه الفكرة منتشرة بشدة في الغرب عن المسلمين، ولا أجد لها تفسيراً إلا التواكل الذي يتصف به بعض كسالى المسلمين، الذين يبررون عجزهم وتقاعسهم بالاستخدام المتكرر لعبارات مثل "إن شاء الله" أو "هذه إرادة الله" أو "لا راد لقضائه" من قبيل العادة، ودون إدراك مضمونها. وللأسف الشديد فقد تم تفسير تصرفاتهم بأنها من لب الإسلام نفسه، مع أن هذا لم يكن حال أجدادنا حين فتحوا ثلث العالم. وتحضرني هنا بعض الملاحظات المحرجة من زوجتي بعد أن أسلمت وأتت معي للإقامة في البلاد=

باســتخدام اســم ربهم بداع وبغير داع[١]، هذا غير ادعائهم بنبوة رجل ليس من بني إسرائيل أصلاً، والتغني بزهده وتقواه مع أنه كان يعشق متاع الدنيا، ويكثر من الزوجات بشكل مبالغ فيه. وأن الإسلام يقمع الحريات، ويلغي حقوق المرأة ويجبرها على البقاء فــي المنزل للخدمة وإرواء النزوات، وأن تكون كخيمة متنقلة إذا ما خرجت منه[٢]. ومع وجود تناقضات في كتاب الإســلام المقدس[٣]؛ مثل ادعائه مرة أن يوم الدينونة يساوي ألف سنة، وادعائه في مكان آخر أنه يساوي خمسين ألف سنة[٤]، يزعم المسلمون بكل

=العربية. فقد قالت لي: عندما تطالب العرب بشيء ما ويقولون: "إن شاء الله" أو "إذا كتب الله ذلك" فإن ذلك يعني أنهم لن يقوموا به أبداً، إلا إذا "صادف" وشاء الله وكتب ذلك عليهم، دون أي جهد منهم! (أما هي فتعلمت أن الإسلام يطالب الإنسان عند قول تلك العبارات بأن يفعل كل ما بوسعه للقيام بما تعهد به، مع إيمانه بعدم تحقق أي شيء دون مشيئة الله عز وجل، وأن الله يعلم كل ما سنقوم به). وعندما يقولون: "الحمد لله" فهم يقصدون أن الأمور ليست جيدة تماماً، وهم لا يحمدون الله كثيراً عندما تكون الأمور جيدة، ويستخدمون عبارات أخرى للتعبير عن رضاهم. وقالت أيضاً: عندما يقول العرب: "هذه إرادة الله" فهم يبررون عدم قيامهم بأي جهد بناء على تلك الحجة، وأنهم يتجاهلون أن كل شيء خاضع أصلاً لإرادة الله تعالى، وأنه لن يغير ما بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

(١) مما لفت انتباهي في حديثي مع بعض المسلمات الجديدات هو استهجانهن لترديد المسلمين في البلاد العربية للمصطلحات الدينية الحاوية لأسماء الله تعالى من قبيل العادة دون أن يفقهوها، بل أحياناً بشكل معاكس تماماً لما جعلت له. وأكثر ما كان يثير حنقهم هو سماعهم لبعض العرب وهم يستعملون تلك المصطلحات الدينية في تعرضهم للبنات في الشوارع! مثل: "ما شاء الله ما أحلاكي"، "تبارك الخلاق"، "يسلم لي ربك"، "سبحان من صورك"، "اللهم صلِّ على النبي شو حلوة"، "الله أكبر على هذا الجسم"!!

(٢) لقد فرض الله تعالى الحجاب على الشرائع الأخرى قبلنا. وللمزيد حول هذا الموضوع راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٣) يقول المنصر الإنجليزي برجس: "يجب أن نستخدم القرآن ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه، وسواء كانت الوسيلة هي الكذب أم الزيف، فالمهم أن نثير في أنفسهم الشك، وأن نطفئ في قلوبهم جذوة الإيمان بهذا الكتاب الذي يتفوق في جاذبيته وتأثيره على أي كتاب مقدس عرفه الناس من قبل".

(٤) يقصد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. وسأفتتح ردي بعرض مقطع من كتاب (الذين هدى الله) للدكتور "زغلول النجار": "دعيت مرة لحضور مؤتمر عقد للإعجاز في موسكو... من قبل الأكاديمية الطبية الروسية... وفي أثناء استعراض بعض الآيات الكونية، وبالتحديد عند قول=

=الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. وقف أحد العلماء المسلمين وقال: إذا كانت ألف سنة تساوي قدرين من الزمان غير متكافئين، دل ذلك على اختلاف السرعة. ثم بدأ يحسب هذه السرعة فقال: ألف سنة، لابد أن تكون ألف سنة قمرية، لأن العرب لم يكونوا يعرفون السنة الشمسية، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً، ومدة الشهر القمري هي مدار القمر حول الأرض، وهذا المدار محسوب بدقة بالغة، وهو ٢,٤ بليون كم. فقال: ٢,٤ بليون مضروباً في ١٢ -وهو عدد شهور السنة- ثم في ألف سنة، ثم يقسم هذا الناتج على أربع وعشرين -وهو عدد ساعات اليوم- ثم على ستين- الدقائق- ثم على ستين (الثواني)، فتوصل هذا الرجل إلى سرعة أعلى من سرعة الضوء. فوقف أستاذ في الفيزياء- وهو عضو في الأكاديمية الروسية- وهو يقول: لقد كنت أظنني -قبل هذا المؤتمر- من المبرزين في علم الفيزياء، وفي علم الضوء بالذات، فإذا بعلم أكبر من علمي بكثير. ولا أستطيع أن أعتذر عن تقصيري في معرفة هذا العلم إلا أن أعلن أمامكم جميعاً أني (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). ثم تبعه في ذلك أربعة من المترجمين، الذين ما تحدثنا معهم على الإطلاق، وإنما كانوا قابعين في غرفهم الزجاجية يترجمون الحديث من العربية إلى الروسية والعكس، فجاؤونا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ليس هذا فحسب وإنما علمنا بعد ذلك أن التلفاز الروسي قد سجل هذه الحلقات وأذاعها كاملة، فبلغنا أن أكثر من ٣٧ عالماً من أشهر العلماء الروس قد أسلموا بمجرد مشاهدتهم لهذه الحلقات".

وطبقاً لنظرية أينشتين، فإننا إذا تخيلنا أن صاروخاً اقتربت سرعته من سرعة الضوء اقتراباً كبيراً، فإنه يقطع رحلة تستغرق خمسين ألف سنة (حسب الساعة الأرضية) في يوم واحد فقط (بالنسبة إلى طاقم الصاروخ)!! وهكذا أصبح من المقنع للماديين أن السرعة والزمن والقدرة أشياء مترابطة، ولكن إذا كان هناك مخلوق أقوى من الإنسان (ينتمي إلى غير الجنس البشري، كأن يكون من الملائكة مثلاً) فإنه يتحرك بقوانين أخرى غير قوانين الإنسان، فيقطع المسافات ويعبر الحواجز، وأشياء أخرى كثيرة لا يتخيلها الإنسان الذي يسكن كوكبه الأرضي. ولا يغرب عن بالنا أن الحديث في الآية الرابعة من سورة المعارج هو عن معراج الملائكة في خمسين ألف سنة!

ومن المعروف أن سرعة الضوء في الفراغ (أو الهواء) هي أعلى سرعة معروفة حتى الآن، إلا أن العلم الحديث لا ينكر وجود سرعة أكبر من سرعة الضوء في الفراغ، وإن لم يصل إليها حتى الآن، (سرعة سريان دقائق بيتا (B - particles) في الماء أكبر من سرعة الضوء فيه، مما يتسببت في صدور إشعاع يدعى إشعاع كيرنكوف، إلا أن هذه الدقائق قد اخترقت حاجز الضوء في الماء فقط وليس في الهواء أو الفراغ). وطبقاً للنظرية النسبية نفسها، فإذا وُجد كائن يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء، فإن المسافات تنطوي أمامه وينمحي الزمن في قطعه هذه المسافات! ونلاحظ أن الآية الخامسة من سورة السجدة تتحدث عن معراج الله تعالى في ألف سنة، وربما يعزى الأمر هنا إلى اختلاف السرعة والله أعلم. وأستغفر الله العلي العظيم إن كنت قد تجاوزت الحد أو أخطأت التحليل أو حتى أسأت في التعبير، والله من وراء القصد.

صفاقة أن ذلك الكتاب يحوي الكثير من الخوارق كانشـــقاق القمر وغيرها من الأمور التي لا يمكن لعاقل في القرن الحادي والعشـــرين أن يأخذها على محمل الجد، ولكن البدو آمنوا بها آنذاك، لجهلهم، ولانبهارهم بغيبيات وقصص التوراة المســـروقة، التي حشـــيت في القرآن. وأدركُ أيضاً أن الإسلام يحض على الإرهاب والقتل والتكفير[١]، وأنه قد انتشـــر بحد الســـيف[٢]، ورغم ادعائه بتوحيد الرب، إلا أن كثيراً من مظاهر الوثنية والشرك تظهر واضحة في طقوسه؛ كتمريغ وجوه أتباعه في التراب، وانحنائهم حتى يلامســـوا الأرض، وصلاتهم باتجاه صندوق أسود فارغ في الصحراء، زاعمين أن ربهم يســـكن فيه، والدوران حوله كالمجانين مرة كل عـــام، وتقبيلهم لأحد أحجاره[٣]، بالإضافة إلى أنه دين معاد للســـامية[٤]، وقامت نواة دولته على مصادرة أراضي يهود يثرب وتقتيل رجالهم وسبي نسائهم[٥].

بينما كان أبراهام يـــردد الاتهامات الأخيرة التي ثبت له بطلانها تماماً، بدا له أن الأب ديمتري نفسه كان يبذل جهداً كبيراً في تجاهل الضيم المتجني على الحقيقة في بعضها، وأنه ربما آثر الصمت وعدم التعليق، كي لا ينجر لا إلى الكذب، ولا إلى الدفاع عن الإسلام الذي يحاول تنفير أبراهام منه.

ران الصمـــت لفتـــرة قصيرة، قبل أن يقطعهـــا أبراهام، كأنه يحـــاول العودة إلى الموضوعية بعد تجنيه غير المنصف على الإسلام:

- ومع ذلك، ولسبب أجهله، فإن الإسلام ينتشر حالياً بين المسيحيين واليهود بوتيرة متصاعدة، كما تبين لي مؤخراً[٦]، ولا بد أن ذلك يحمل معنى ما.

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة، وأيضاً: رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) المرجع السابق.

(٣) راجع رواية بشارات هائمة.

(٤) راجع رواية الهروب إلى العاصفة.

(٥) راجع رواية بشارات هائمة.

(٦) راجع رواية الهروب إلى العاصفة.

- على العكس تماماً يا بني؛ فهذا العصر في الحقيقة، هو زمن ارتداد المسلمين أنفسهم عن الإسلام.

- كيف هذا؟!!!

- لقد مر نحو أربعة عشر قرناً على الإسلام، لم ينجح أحد خلالها في تحقيق أي نصر يذكر في تنصير المسلمين. أما في هذا العصر، فقد تنصر بعض المسلمين فعلاً، وارتفع عددهم مؤخراً بوتيرة ملحوظة.

- أجد غرابة في تصديق ذلك؛ فعلى عكس المسيحيين واليهود، وجدت من قابلتهم من المسلمين، في روسيا وغيرها، متأكدين حتى الموت من صحة دينهم، ويشمل ذلك غير المتدينين منهم، بل حتى أولئك البعيدين عن دينهم كلية بانغماسهم في اللذات المحرمة[1]، وهو ما أدهشني دائماً! فبالنسبة إلينا وإليكم، ترى أغلبية اليهود والمسيحيين غير المتدينين ينبذون الدين عادة، ويبررون ما يقومون به من تجاوزات على اعتبار أنهم يشكون أصلاً بمنطق وصحة الدين في تلك الأمور، وأن المشكلة تكمن في أن الدين يتطلب إيماناً أعمى، ويبتعد كثيراً عن العقل والواقع، وأنه قد فقد مصداقيته بعد كل ما ظهر فيه من أخطاء. هذا غير تناقضاته وجمعه بين المفاسد والمثاليات الفارغة، بل وكثير منهم يعتبرون أن الدين بشكل عام هو مجرد مجموعة من الرمزيات الفضفاضة، وبعضهم يدخلون وجود الرب نفسه في ذلك!! أما غير المتدينين المسلمين، فأغلبيتهم واثقة تمام الثقة بوجود الله وبصحة دينهم، ويرجعون "المعاصي" التي يقومون بها وتركهم للشعائر، إلى ضعفهم وتأخرهم واستسلامهم لمغريات العصر وملهياته. وإذا تحدثت عن الدين أو السياسة مع أي من أولئك المسلمين غير المتدينين، والغارقين في شؤون الدنيا وأهوائها من رأسهم إلى أخمص قدميهم، لظننت أنك تتحدث إلى أحد رؤساء الأحزاب الإسلامية المحظورة التي تطالب بإعادة الخلافة كي ينصلح حال الكون!!!

---

(١) يقصد أمثال د. أصلانبيك. راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

- كان هذا في الماضـــي. أما الآن فالأمر قد اختلف كثيراً، وأصبحت تجد أعداداً متزايدة من المسلمين، ممن يرفضون كثيراً من الفرائض الإسلامية كالحجاب والسنة، باعتبارها مجرد تقاليد متأخرة، لا علاقة للإسلام الحقيقي بها، وهم يعترفون بالقرآن وحسب، حتى القرآن يرفضون فيه كل ما هو ليس واضحاً، ويتمسكون بأشد التأويلات تساهلاً.

- لا أنكر أن بعض المسلمين قد تأثروا فعلاً بهذه الموضة اليهومسيحية.

- موضة يهومسيحية؟!!!

- أجل، فالبروتستانت قد ابتدعوا هذه الموضة رافضين التقليد الشريف، ومعتمدين على الكتاب المقدس وحده، ومشـــددين على حق كل مسيحي بقراءته وفهمه دون تأثير التقليد، وكذلك فعل التنويريون عندنا بالتلمود. وكما ترى فإن تلك البدعة أو الصرعة كانـــت بيننا فقط، ولم يكن لها أي دوي عند المســـلمين. ولكن في الآونة الأخير، أخذ بعض المسلمين المنبهرين بالحضارة اليهومســـيحية يتخذونها قدوة، ويقلدونها في كل شيء، بحجة الوصول إلى ذاك المستوى من الرقي والتحرر والتقدم! واعتبر بعضهم أن السنة والحديث كالتقليد الشريف عندكم أو التلمود عندنا، رغم ظلم التشبيه.

- ماذا تعني؟!!!

- لقد اطلعت على الســـنة جيداً، ولا أرى وجهاً للشبه بينها وبين التلمود أو التقليد الشـــريف؛ فهي موثقة بأكثر من طريقة، وعلنية ومن فم نبيهم في الوقت نفسه الذي كتب فيه القرآن، وليس بها أســـرار أو خفايا أو شيء اختصت به مجموعة خاصة من الناس دون العامة، وفوق ذلك متواترة وغير مقطوعة السند، والتزم بها في عصر نبيهم وعصور خلفائه وبمختلف عصورهم، دون أي اعتراض يذكر. ولكنها بدعة تقليد الغرب التي أعمت بعضهم حتى جعلتهم إذا دخلنا جحراً دخلوا وراءنا.

- أنت تبالغ.

- لا بتاتاً. وأوضح دليل على ذلك أن بعضهم يدعي الآن تعارض الإسلام مع العلم وكبته له. وهذا الادعاء كما تعلم صحيح تماماً بالنسبة إلى المسيحية واليهودية، ولكنه، شئنا أم أبينا، أبعد ما يكون عن الصحة بالنسبة إلى الإسلام؛ فالقرآن والسنة يحثان على طلب العلم وعلى التأمل والتفكر، والقرآن مليء بالإعجاز. ومع أن بعض المسلمين يبالغون فيما يسمونه بالإعجاز العلمي للقرآن والسنة إلى درجة مضحكة، إلا أن أي عاقل لا يستطيع أن ينكر وجود كثير منه فيهما، كما أن القرآن والسنة لا يتعارضان مع العلم كالتوراة والتلمود والإنجيل والتقليد، وكثير من علماء القرآن وعلماء الحديث سابقاً كانوا علماء بالطب والفلك والكيمياء والتاريخ. وعلماء المسلمين لجؤوا دائماً إلى أدوات علمية مبتكرة في تحديد الاتجاهات وبالذات اتجاه القبلة، وتحديد وقت الصلاة، وحساب الأهلة، وغيرها، كما لجؤوا إلى أساليب علمية في التحقيق والجرح والتعديل والقياس وغيرها.

- أراك معجباً بالإسلام فعلاً.

- وأي منصف يستطيع ألا يعجب بكل هذه الإيجابيات؟!!! ولكن هذا بالطبع لا يعميني عن سلبيات الإسلام، وبالذات بالنسبة إلى ادعاءاته الدينية الخادعة.

- على كل الأحوال، فكيفما حاولت فلسفة سبب التغيرات الحاصلة عند المسلمين حالياً، فالنتيجة واحدة، وهي بدء ابتعاد أعداد متزايدة من مسلمي هذا العصر عن دينهم، وأن سمة هذا العصر هي تنصر البعض منهم، ولابد أن لذلك معنى ما.

- أراك مبالغاً في جعل تلك الحالات الفردية الضئيلة هي سمة لهذا العصر. ولكن على افتراض صحة ذلك، فما معناه بنظرك؟

- أنا شخصياً أراه إشارة واضحة على قرب انتهاء "سحر الإسلام"، وعودة الحق إلى نصابه إيذاناً بانتصار الصليب. فلا يزال يسوع يقيم الموتى ويعيد البصر للعميان،

ولا يزال القديسون يظهرون ليشفوا المرضى، على الأقل حيث يكون الناس في حاجة شديدة، تجعلهم يعلنون حاجاتهم لهم، وعندما تكون قلوبهم بسيطة حتى تصدق أن الرب وقديسيه ظهروا ليعينوهم[١]. وفي حقيقة الأمر إن المسلم لا يؤمن إلا إذا تعرض لمعجزة من السماء، في ذلك الحين يحدث له قيامة حقيقية ويشعر أنه كان في الظلام حتى نظر النور، ويسعى هو بنفسه إلى يسوع، إلى الإله الحقيقي. فنلاحظ اليوم جميع المسلمين الذين يتراجعون عن ديانتهم قد حدث لهم أمر غريب. وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول وأهم ظهور مريمي في القرن العشرين في قرية "فاطمة" بالبرتغال. فعلى مدى ست مرات تجلت أم الله لثلاثة أطفال[٢] وحمّلتهم ثلاث رسائل

---

(١) من أمثلة ذلك ما نراه على قناة الحياة التبشيرية في برنامج آيات وعجائب، حيث يصلي القس إيلي كرم مع زوجته كارلا قائلاً: في ناس صلوا معي، وخلال ستة أشهر حيكون عندهم بيت جديد وواسع، الرب سمع لصلاتك، وهو مستعد أن يرزقك بولد، أنت اللي تنهمر دموعك على خدودك أنا شايفك وأنت قد شفيت من وجع في المعدة. وكذلك في برنامج الأخبار السارة، حيث يطل القس إيليا ملكي قائلاً: صلوا معنا أنت والمدام، الرب لمس بطنك وصار الحمل بالتأكيد، كل واحد يقوم ويضع يده على التلفزيون ويضع يده الأخرى على مكان المرض سوف يشفى. ويستمر طوال الحلقة بتعداد ما يتكشف له، فتارة يرى فتى في السعودية مصاباً بوجع في يده اليسرى والرب نظر إليه وشفاه، وامرأة في سورية عندها ألم في الرقبة، الرب نظر إليها وشفاها، وعجوز عنده وجع من يده ويمتد لفخذه حتى قدمه: اطمئن الرب ينظر إليك الآن وقد شفاك من ألمك. . . وهكذا! الغريب أنه في كل حلقة يتم الكشف عن شفاء عشرات الآلام المستعصية وتوزيع المال والبنين بسخاء منقطع النظير، دون أن يُكشف عن هوية أولئك المرضى والمحرومين!! والأغرب، أن أغلب أولئك المحظوظين هم مسلمون سابقون، أو على الأقل في طريقهم لترك الإسلام والإهتداء للمسيحية، فلماذا التواضع في الكشف عن حقيقة المعجزات التي تحصل لهم؟!!! هل يضن مُعِدُّو برامج قناة الحياة على بقية المسلمين بالهداية إذا ما رأوا بأعينهم ماذا فعل الإعجاز المسيحي بإخوتهم السابقين!!!!!!

(٢) جاء هذا في كتاب "The Thunder of Justice" صفحة ١٣٢ وأسماء الأطفال هي: فرانسيسكو، جاسينتا ولوسيا. وكانت أعمارهم تتراوح ما بين ٧ - ١٠ سنوات في عام ١٩١٧م عندما ادّعوا بأن السيدة مريم العذراء كانت تظهر لهم في الثالث عشر من كل شهر في الفترة ما بين أيار/ مايو، وتشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام.

مهمة لتبليغها للكنيســـة. ولتعزيز مصداقية رســـائلها المهمة، دعت الأطفال لأن يحثوا أكبر عدد من الناس إلى الحضور في منتصف يوم ١٧ تشرين الأول/أكتوبر، حيث كانت ســـتقوم بمعجزات خارقة للطبيعة لإثبات مصداقية ادعاءات الأطفال. وبالفعل تجمع أكثر من خمســـة وسبعين ألف نســـمة في البقعة المحددة، وفي الوقت المحدد، شاهد الجمهور هذه المعجزات الخارقة كما وعدت القديســـة مريم بالقيام بها، وسجل رجال الإعلام، والصحفيون الذين كانوا بين الجمع وقائع هذه المعجزات الخارقة للطبيعة[1].

كان أبراهام يســـتهجن أصلاً انطلاء ألاعيب الشـــيطان تلك على كثير من الناس، ولكن ما اســـتهجنه أكثر هو انطلاؤها على شخص بثقافة وتدين بل وأرثوذكسية الأب ديمتري، خاصة أن ما يســـميها بالظهورات المريميـــة هي بدعة ظهرت بين الكاثوليك بالذات؛ نظراً إلى مبالغتهم أكثر من كل الطوائف المســـيحية الأخرى بالتقديس الفائق لمن يدعونها (بكل ما تحمله الكلمة من معنى) أم الله، لدرجة أنهم يكادون يرفعونها إلى مرتبة الألوهية، وهو ما يتحول إلى مفهوم يقود في واقع الأمر إلى رباعية مقدسة بدل الثالوث الأقدس. فقال مستنكراً:

- هل رغبتك بتنصير المســـلمين تجعلك تحيد عن الإيمان القويم (المعنى الحرفي للأرثوذكسية) مائلاً جهة المفاهيم الكاثوليكية التي تكفرها؟!!!

- السيدة العذراء ليست حكراً على الكاثوليك، فنحن أيضاً نؤمن بها ونعترف أنها أم الله.

- إذا كان الأمـــر كذلك، فلم زعموا أن تلك الظهورات دعت أحياناً إلى الاســـتماع إلى تعليمات بابا رومه؟!!! لا إلى تعليمات بطريك موســـكو أو أنطاكية أو حتى بطريك

---

(١) حسب الكتاب السابق ذكره، وحسب المواقع المسيحية التي لا تزال تتداول تلك القصة إلى الآن رغم مضي نحو مئة عام عليها، اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أن "رسائل فاطمة" هي: "أحد تدخلات الله العظمى بواسطة القديسة مريم في تاريخ العالم منذ موت الرسل" على حد تعبير البابا بيوس الثاني عشر.

القسطنطينية المسكوني؟! لأنكم غير نشطين تبشيرياً؟! ونظراً إلى المكانة السامية التي تحظى بها السيدة مريم العذراء عند المسلمين، فأنا متفق معك تماماً في أنه ليس من قبيل المصادفة مطلقاً أن أول وأهم ظهور مريمي في عصرنا هذا يكون في مدينة فاطمة، وذلك بأمل أن يدخل هذا الشك في قلوبهم. ولكن، حتى المسلمون المتخلفون لا يمكن أن تنطلي عليهم مثل هذه الخرافات الساذجة[١].

- هذه ليست خرافات؛ فقد شاهدها الكثيرون من أهل الثقة[٢].

- وهل تؤمن بأن ذلك الكائن الذي ظهر لهم في هذه "الظهورات" هو في الواقع مريم العذراء أو غيرها من القديسين، أم أن هناك قوى أخرى في الكون من مصلحتها تضليل الناس؟ أنا لن أحدثك بالعلم أو المنطق، اللذين يثبتان زيف تلك الخدع بما لا يدع مجالاً للشك، بل سأحدثك من الكتاب المقدس نفسه؛ فهو يخبرنا بأن "الأَحْيَاءَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ، أَمَّا الْمَوْتَى فَلاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ بَعْدُ لأَنَّ ذِكْرَهُمْ نُسِيَ. وَمَحَبَّتُهُمْ وَبُغْضَتُهُمْ وَحَسَدُهُمْ هَلَكَتْ مُنْذُ زَمَانٍ، وَلاَ نَصِيبَ لَهُمْ بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ، فِي كُلِّ مَا عُمِلَ تَحْتَ الشَّمْسِ"(جامعة ٩: ٥، ٦). ولو كان الموتى مستمرين في الحياة لكان

---

(١) للأسف الشديد فهناك بعض المسلمين من الذين خدعوا فعلاً بظهورات الشيطان، ولكن على شكل بعض الموتى من الصالحين المكرمين في التاريخ الإسلامي. وعن طريق التمثل بهؤلاء يستطيع الشيطان أن يوسوس للبعض بتعاليم وبدع جديدة، ويرسخ الضلالات السائدة، ويوسع مفهوم الشفاعة، ويرجح مذاهب بعينها، ويوقع بالكثيرين ممن يسمعون ذلك ويصدقونه في المعاصي، وهم يظنون أنهم أحسنوا عملاً. والأخطر من ذلك كله هو أنه يقودهم إلى الإشراك بالله تعالى بالدعاء والتوسل والرجاء بغيره، وهم يظنون أنهم يتقربون إلى الله زلفى. هدانا الله وإياهم إلى الصراط المستقيم، وثبتنا على التوحيد ونجانا من الشرك، ما ظهر منه وما بطن. اللهم آمين.

(٢) تحضرني هنا حادثة تكررت مع كثيرين، فأغوت من شاء الله ضلاله، ونجا منها من شاء الله ثباته على الحق، ومنهم عبد القادر الجيلاني رحمه الله إذ قال: "رأيت عرشاً بين السماء والأرض، فناداني صوت قال: يا عبد القادر أنا ربك قد أسقطت عنك الفرائض، فقلت له: اخسأ يا عدو الله، فتمزق ذلك العرش، وذلك النور" (و في رواية أخرى ناداه الصوت أن قد أسقطت عنه الصلاة، فقال: خسئت، لو أسقطت عن أحد لما كان من هو أولى من الرسول عليه الصلاة والسلام).

أول ما يفعلونه هو تسبيح الرب، ولكن لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا نصيب لهم بعد موتهم حتى يوم الدينونة، كما ذكر سليمان الحكيم، فهم لا يقدرون حتى على تسبيح الرب. وهذا ما ذكره الرب على لسان داوود: "لَيْسَ الأَمْوَاتُ يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ، ولاَ مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوتِ"(مزمور ١١٥: ١٧)، لأنه عندما يموت الإنسان "تَخْرُجُ رُوحُهُ فَيَعُودُ إِلَى تُرَابِهِ. فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَفْسِهِ تَهْلِكُ أَفْكَارُهُ"(مزمور ١٤٦: ٤). فالإنسان عندما يموت يعود إلى وضعه كما كان قبل دخول نسمة الحياة (الروح) إلى أنفه، "فَيَرْجِعُ التُّرَابُ إِلَى الأَرْضِ كَمَا كَانَ، وَتَرْجِعُ الرُّوحُ إِلَى اللهِ الَّذِي أَعْطَاهَا"(جامعة ١٢: ٧).

لاحظ أبراهام ملامح الانزعاج التي بدت على وجه الأب ديمتري، فقرر أن يتابع سرد الأدلة، ولكن من العهد الجديد هذه المرة دون التوراة، كي لا يعطي انطباعاً أنه يحاول أن يفرض عليه مفاهيم يهودية نسختها المسيحية، فتابع مستدركاً:

- والكتاب المقدس يحثنا على السعي وراء خلود الحياة الأبدية. وهذه الحقيقة تؤكد أننا حالياً لا نتمتع بالخلود أو صفة عدم الموت، فلو كان جزء من الإنسان يستمر في الحياة بعد موته، وقبل يوم الدينونة، لاتّصَف ذلك الإنسان بالخلود، مع أن الكتاب المقدس يخبرنا أن الله وحده له صفة الخلود، أي عدم الموت. "الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِناً فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الأَبَدِيَّةُ. آمِينَ"(١تيموثاوس ٦: ١٦). ولو كان للإنسان بعد الموت صفة الخلود أو عدم الموت لما كنا في حاجة إلى المسيح أو إنجيله، "وَإِنَّمَا أُظْهِرَتِ الآنَ بِظُهُورِ مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ بِوَاسِطَةِ الإِنْجِيلِ" (٢تيموثاوس ١: ١٠). يتضح من هذه الآيات أن الله وحده له عدم الموت، كما أن الإنجيل يعطي فرصة الحصول على الخلود (أي الحياة الأبدية) بواسطة الإيمان بالله والمسيح والإنجيل، فلو كان الإنسان يتمتع بالخلود لما كان الكتاب يناشدنا بأن نسعى وراء الحياة الأبدية (الجنة): "أَمَّا الَّذِينَ بِصَبْرٍ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَطْلُبُونَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْبَقَاءَ، فَبِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ"(رومية ٢: ٧).

- ولكن أرواح بعض الموتى الأبرار تستطيع -بقدرة الرب- أن تستمر في الحياة.

- يترتب على هذا أن تكون أرواحهم واعية وملمة بكل ما يحدث في الأرض بالنسبة إلى الناس القريبين منهم، وما ذكرته من آيات الكتاب المقدس يؤكد استحالة هذا الاعتقاد.

- ولا لأم الله؟!!!

- لقد سبق وأنذركم يسوع بقوله: "انْظُرُوا! لاَ يُضِلَّكُمْ أَحَدٌ"(متى ٢٤: ٤). هذا التنبيه المتكرر في العهد الجديد يوضح أن الشيطان يسعى باجتهاد لا يعرف الملل أو الكلال، لكي يضل المؤمنين بكل الوسائل والطرائق. "وَلاَ عَجَبَ. لأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلاكِ نُورٍ"! (٢كورنثوس ١١: ١٤). ولا تنس أن الكاثوليك هم أول من قال إن السيدة مريم العذراء بعد موتها قد تم إقامتها ونقلها إلى ملكوت الابن في السماء، وذلك نظراً إلى مكانتها ومنزلتها السامية والمقدسة. وهنا علينا أن نسألهم مع من باتوا يؤمنون معهم بذلك: على أي أساس بنوا هذا الاعتقاد؟ فلا يوجد دليل واحد في الكتاب المقدس يعزّز هذه الفكرة، بل إن الكتاب المقدس يؤكد أنه سوف "تَكُونُ قِيَامَةٌ لِلأَمْوَاتِ، الأَبْرَارِ وَالأَثَمَةِ" (أعمال ٢٤: ١٥). ويسوع المسيح أخبرنا "إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ، حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللهِ، وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ. لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ، وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ" (يوحنا ٥: ٢٥، ٢٨، ٢٩). فالانتقال إلى السماء بالنسبة إلى الأبرار سيتم حسب الإنجيل الذي تؤمن به عند المجيء الثاني للمسيح، وليس قبله. من هنا نستخلص أن جميع الأبرار، بمن فيهم مريم العذراء وجميع التلاميذ والقديسون على مر الأجيال، سينتقلون إلى ملكوت الرب عند المجيء الثاني للمسيح وليس قبل ذلك، وهذه هي القاعدة العامة في الكتاب المقدس.

- لكن الكتاب المقدس يخبرنا بأن أخنوخ مثلاً قد تم نقله حياً إلى السماء (عبرانيين ١١: ٥)، وكذلك موسى تم إقامته من الأموات ونقله إلى السماء (يهوذا ٩)، وإيليا تم نقله حياً إلى السماء في مركبة نارية (٢ملوك ٢: ١١).

- لقد حدد لنا الله جميع الاستثناءات لقاعدته في كتابه، وأية استثناءات أخرى على تلك القاعدة، فلسنا مجبرين بالأخذ بها. وما دام الكتاب المقدس لم يفصح عن انتقال القديسة مريم إلى السماء سواء قبل موتها أو بعد موتها، فهذا يعني أن السيدة مريم العذراء قد خضعت للقاعدة العامة بخصوص الموتى الأبرار. حتى أولئك الثلاثة الذين استثناهم الله من قاعدته، فلم تحدث مرة أنهم نزلوا من ملكوت الرب فقط للقيام ببعض ألعاب السيرك؛ مثل أن يجعلوا الدمع ينهمر من عيون بعض تماثيل العذراء، أو يجعلوا الدم يسيل من جنب بعض تماثيل المسيح، أو أن تنطبع صورته على وسادة، أو غيرها من الخدع السينمائية الأخرى. ولا حتى للتمثل بحلم بعض الشخصيات الخاصة وإخبارهم بأمور لا تقدم أو تؤخر.

- هذا لا ينفي أن بعض المعجزات الحقيقية قد تحدث بين الفينة والأخرى.

- يقول الكتاب المقدس أنه "سيجيء وقت لا يحتمل فيه الناس التعليم الصحيح، بل يتبعون أهواءهم ويتخذون معلمين يكلمونهم بما يطرب آذانهم، منصرفين عن سماع الحق إلى سماع الخرافات" (٢تيموثاوس ٤: ٤).

- ولكن إن سألت المرسلين (المبشرين) الذين يخدمون الرب في الشرق الأوسط، فسيقولون لك أن أغلب المسلمين الذين قبلوا يسوع مخلصاً لهم قد رأوا حلماً أو رؤيا أو زيارة فعلية للرب تجعلهم قادرين على التغلب على الخوف والاضطهاد، ولو كان كل ما تفعله هذه المعجزات التي تعتبرها من ألاعيب الشيطان، هو تحويل المسلمين الذين يتنصرون إلى أناس طيبين، ويتركون الإرهاب، لكان ذلك بحد ذاته دليلاً على أنه عمل ملائكي وليس شيطانياً، فالإسلام مثل شجرة خبيثة تؤتي ثماراً خبيثة، وثمار الإسلام

هي الإرهاب والجريمة والعنف. لنفرح إذن لأن يسوع قد غلب العالم.

سرح أبراهام مفكراً في اجتماع الشيطانيين[١] والملحدين[٢] واليهود[٣] والمسيحيين[٤]، حتى الطوائف المعاصرة منهم[٥] على "العداء للإسلام"، وتساءل في نفسه عن السبب الحقيقي وراء اشتراك كل هؤلاء الأضداد على شيء واحد؟!!! ولماذا أصبحت أسرعُ وسيلةِ نجاحٍ للفاشلين في الغرب هي تصويرَ أفلامٍ وتأليف كتب وكتابة مقالات تهاجم الإسلام؟ ملاحظاً أن اليهود، وبالذات طبقة الإكليروس كالحاخامات[٦]، هم أشدهم عداوة، ولاحظ أيضاً أن بعض رجال الدين المسيحيين[٧] قد أصبحوا في الآونة الأخيرة أكثر عداء للإسلام من اليهود أنفسهم. فها هو ذا يتحدث الآن إلى واحد منهم، يُظْهِر ذلك بوضوح، مع أنه ينتمي إلى أقل الطوائف المسيحية عداء للإسلام، وهو فوق ذلك تقي ومتفهم وموضوعي. فماذا عن الأصوليين المتطرفين من الطوائف الأكثر وضوحاً في هذا الأمر[٨]؟!!!

- أين سرحت؟

سأله الأب ديمتري مستغرباً صمته، فأجاب أبراهام مبتسماً:

- لا شيء، فقط ذكرتني بوزير السياحة الإسرائيلي الحاخام "بيني إيلون"[٩] حين طلب من مجموعة مبشرين التقاهم في الولايات المتحدة مؤخراً: تكثيف جهودهم

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع مثلاً رواية بشارات هائمة.

(٥) راجع المصدر السابق.

(٦) راجع رواية الهروب إلى العاصفة.

(٧) راجع رواية بشارات هائمة.

(٨) المصدر السابق.

(٩) وهو يتزعم حركة "موليدت" التي تنادي بالتهجير الجماعي للشعب الفلسطيني.

لتحويل المسلمين إلى المسيحية ليكونوا "أناساً طيبين" حسب تعبيره. وأشارت "معاريف" أن إيلون قال لهم: "اذهبوا إلى المسلمين "القتلة" واجعلوا منهم مسيحيين مؤمنين ورجالاً طيبين".

- هذا الحاخام الصالح يؤكد قولي.

- ولكن ذلك الحاخام الصالح، كما تسميه، حذرهم بشدة في الوقت ذاته من محاولة نشر التعاليم المسيحية بين اليهود[1]، كما أنه يترأس مجموعة من المستوطنين مهمتها تهويد أورشليم وإخلاؤها تماماً من المسلمين والمسيحيين على حد سواء. وقد قادها شخصياً في اعتداءات متكررة على الكنائس المسيحية هناك، ودعا مراراً إلى مصادرة أملاك الكنائس العربية في أورشليم.

ثم أردف والبسمة لا تزال مرتسمة على شفته:

- بمناسبة ذكر معجزات المبشرين، سأروي لك هذه الواقعة التاريخية الطريفة إن تكرمت وسمح وقتك بذلك.

- تفضل.

- في منطقة جبلية رائعة حيث الطبيعة العذراء والغموض ومسحة من الحزن الدفين، عاش راهب اسمه "خوسيه" في أحد الأديرة جنوب إسبانيا، في المنطقة المحاذية لغرناطة التي تسمى اليوم "البوخاريس"[2]. والجدير بالذكر أن هذه المنطقة

---

(١) يذكر أن الحاخامية الكبرى في الكيان الصهيوني، فضلاً عن الأطر التي تمثل الحاخامات في الكيان تحظر بتاتاً على أي مسيحي التبشير بالمسيحية بين أوساط اليهود!

(٢) تسمية البوخاريس هي تصحيف للمصطلح العربي "جبال البشارات" حسب الراوي؛ وهو الكاتب المجاهر بلادينيته "نادر قريط" في مقاله "بين الدين والدولة(هرطقات)" وقد أورد هذه القصة في معرض رده على تلقيه "تصريح (مؤيل) نُسب للأب زكريا بطرس، يزفّ فيه بشرى اعتناق أربعة ملايين مسلم للمسيحية؟!" ويتابع قائلاً: "في الحقيقة أذهلني الرقم، وخشيت من نضوب مياه النيل في أثناء تعميد تلك الملايين. لكن معرفة متواضعة بتاريخ التبشير في بلاد الشام منذ اندلاعه مطلع القرن ١٩ تثبت عجز البعثات (اليسوعية والإنجيلية) عن تغيير ديانة مسلم واحد، والأدهى والأمرّ أنها عجزت عن تحويل ماروني واحد (إلا نادراً) للبروتستانتية، لهذا واحتفاء بهذا الخبر الطريف رأيت أن أروي هذه الواقعة التاريخية".

تعرضت لأعنف حملات "محاكم التفتيش"[١]، والتنصير القسري بُعيد سيطرة الملوك الكاثوليك على غرناطة عام ١٤٩٢، وبلغت المأساة ذروتها عام ١٦٠٣ عندما اتخذ قرار ترحيل الموريسكين[٢] ورميهم في عرض البحر، علماً أن معظمهم كانوا حينها قد أصبحوا مسيحيين فعلاً، ويجهلون العربية، ولكن لكنة لسانهم وسمرتهم ظلّت تثير ريبة الكنيسة التي شككت دوماً بنقاء قلوبهم. في تلك المنطقة شبّ مطلع القرن العشرين الراهب خوسيه، وتربى ورعى ممتلئاً بالعلم ونعمة الروح القدس، وزيادة في ذلك حرص على تعلم العربية لغة جيرانه. وفي يوم ما وفي أثناء سيطرة إسبانيا على الشمال المغربي، دعاه نداء الإيمان ومحبة الرب، لوعظ هؤلاء (الكفار) المغاربة كي يدخلهم حظيرة الرب، فحمل صليبه على صدره وكتاب البشارة بيمينه، وعبر جبل طارق إلى سبتة، ومنها بدأ يطوف في الشمال المغربي واعظاً بملكوت السموات. وبين تطوان وطنجة وجبال الريف ووسط الأهيين من العرب والأمازيغ، كان الأب خوسيه يقرأ على الناس أسفار الكتاب المقدس، وكان القرويون البسطاء والصبية (وصيادو الأسماك) يتحلقون حوله، فرحين بقصص معجزات أحبتهم موسى وعيسى بن مريم، وكانوا -كعادة بسطاء الريف- يقابلونه بالحفاوة والود، والخبز واللبن والماء في ساعات القيظ. وهكذا مضت الأيام وبقي المغرب على حاله، متشبثاً (بوثنيته)، فبدأ صدر الراهب يضيق ذرعاً بهؤلاء (غلاظ القلوب) وشعر بمرارة الخيبة والفشل، حينها لمعت له الفكرة، وقرر أن يُبهرهم بمعجزة الكتاب المقدس، ويخطف أبصارهم، كما فعل الرب مع شاؤول قبل أن يصبح القديس بولس. في إحدى البلدات هتف الراهب خوسيه بأنه يحمل البرهان على

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) اتقاء للقتل أو التهجير، أظهر بعض المسلمين المسيحية وأبطنوا الإسلام. ومع أن أبناءهم وأحفادهم بمرور الزمن قد أصبحوا مسيحيين فعلاً، إلا أنهم لقوا المصير نفسه الذي تفاداه آباؤهم. ففي ٣٠ كانون الثاني/ يناير عام ١٦٠٨ صدر قرار بالإجماع من قبل مجلس الدولة بتهجيرهم، ثم منحت أراضي المطرودين لِلُوردات بلنسية تعويضاً عن خسارتهم لسفنهم في الأسطول الإسباني. وقد قدر عدد أولئك المساكين الذين لم يكن لهم ذنب إلا أصول آبائهم الإسلامية، بنحو ربع مليون نسمة.

معجزة الكتاب المقدس، وطلب من الناس أن يجلبوا حطباً كثيراً، ويملؤوا ساحة البلدة ثم يضرموا فيها النار، وأخبرهم بأنه سيدخل وسط ألسنة اللهب وسيقرأ الإنجيل دون أن تمسه تلك النار أو تصيبه بأذى ؟! هيه! صاح الصبية: خوسيه أصبح إبراهيم "يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم". بعض العقلاء والشيوخ (الوثنيين طبعاً) حاولوا نصحه وثَنْيه عن مغامرته (فهذه نار وليست مزاحاً) لكن الراهب أصرّ على إثبات حقيقة الرب، فاحتضن الإنجيل وأسبل عيونه كقديس، وتقدم بخطا واثقة وهو يردد مقولة المسيح: "يا قليلي الإيمان لو كان في قلوبكم ذرة إيمان وقلتم لهذا الجبل أن ينتقل لانتقل". وسط الدهشة والذهول سمع الناس أنين خوسيه وزفراته، ولما خبت جذوة النار رويداً رويداً ثم انطفأت نهائياً؟! انطفأ معها خوسيه إلى الأبد[1].

- بغض النظر عن اللهجة الساخرة التي تتحدث بها عن ذلك الراهب المسكين، فهناك معجزات لا تزال تحدث فعلاً لهداية غلاظ القلوب المسلمين[2]، شاء من شاء وأبى من أبى.

---

(١) اختتم نادر قريط مقالته قائلاً: "لهذا أتوجه بهذه الواقعة للأحبة على سواتر الإيمان المنافحين عن عقائدهم والذائدين عن حمى آلهتهم، وأنصحهم بعدم تجربة طريقة الراهب خوسيه، وإذا أصروا على ذلك، فعليهم أن يتكفلوا بنفقات الحطب".

(٢) على قناة الحياة التبشيرية نسمع كثيراً عن مثل تلك "المعجزات"، وإحداها ما جاء على لسان فتاة شيعية عراقية كانت تتعاون مع قوات الاحتلال، وعندما هددت المقاومة حياتها بسبب ذلك، حصلت على فرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة، وهناك شاهدت حلماً رأت فيه جسراً وسمعت عبارات غريبة وأنها ستعيش حياتها دون زواج (كما يبدو أنها تريد فعلاً)، فاستيقظت فزعة، وأرادت أن تسأل أحداً ما عن معنى الحلم، ولما كان الوقت متأخراً ولم ترد أن تزعج أحداً، لجأت إلى الإنترنت وكتبت كلمة جسر في محرك البحث، وكان أول موقع فتحته قد بدأ بنفس العبارات التي سمعتها في الحلم، ويتحدث عن جسر مشابه لما رأته بالحلم، وكان الموقع "للمصادفة" موقعاً تبشيرياً، فحسمت أمرها آنذاك، واستجابت ليسوع الذي كان (حسب تعبيرها) يجري حولها طوال تلك الفترة ويقول لها(باوعي فيي ما تشوفيني) انظري إلي ألا ترينني، ينتظر أن تفتح له الباب، وبالفعل فتحت له الباب بعد تلك المعجزة، ليدخل في حياتها ويمنحها المحبة والتحرر من قيود دينها السابق! يا لها من غليظة القلب فعلاً! كيف تركت الإله ينتظر على بابها متوسلاً كل هذه السنوات قبل أن تسمح له أخيراً بالدخول؟!!!

بعض النجاح بعد قرون من الفشل

أحس أبراهام بعقم الخوض في مثل هذه المواضيع، فقال بسأم:

- حسناً، فلنعد إلى موضوعنا.

- كما تريد.

- كما قلت سابقاً، فأنا ملم تماماً بالجهود التبشيرية لأغلب الطوائف المسيحية، ولكن ليس لدي معلومات محددة بشأن مدى نجاحهم مع المسلمين، فهل تتكرم علي ببعض الأمثلة؟

- بكل سرور. ففي إفريقيا الآن مليون ونصف مليون كنيسة، عدد أعضاء هذه الكنائس ٤٦ مليون نسمة، وفي كل عام ٦ ملايين نسمة يتحولون إلى المسيحية. أي في كل يوم ١٦ ألفاً، أي في كل ساعة يتحول إلى المسيحية ٦٦٧ نسمة، بينهم الكثير من المسلمين. وفي السودان وحدها تجاوز عددهم أربعة ملايين نسمة إلى الآن.

- أنت تعرف أن أغلبية هؤلاء الأفارقة لم يكونوا مسلمين أصلاً بل وثنيون، كما أن هناك الكثير منهم ممن كانوا مسيحيين بالفعل، وتحولوا إلى طوائف أخرى عن طريق حملات التبشير الجديدة، وبالذات البروتستانتي، وبذلك تدخل تعدادهم في عداد المتحولين.

- حسناً، وماذا تقول عن إحصائيات تقدر عدد الذين اعتنقوا المسيحية في الجزائر بنحو ١٠ آلاف شخص، وفي المغرب بنحو سبعة آلاف؟

- لقد برع المنصرون في إذكاء نار الحقد بين الأمازيغ (البربر) والعرب، الذين وصفوهم بالغزاة القادمين من صحراء العرب ليحتلوا أرضهم ويحولوهم قسراً عن

دينهم المسيحي، مع أن البربر قد دخلوا الإسلام طواعية، وأنهم قبل ذلك لم يكونوا مسيحيين تثليثيين أصلاً، كما يحاول المبشرون الآن إقناعهم، بل موحدون كما يشهد التاريخ بذلك.

- وماذا عن جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق في الجنوب، وبالذات قيرجستان وطاجكستان، حيث يدخل عشرات الآلاف في المسيحية؟ ولو كنت ستدعي بالادعاء نفسه فماذا عن السعودية نفسها، حيث وصل عدد المتنصرين فيها إلى نحو ٥٠ ألفاً، وفي الباكستان إلى نحو ٦ ملايين، وفي بنجلاديش ١٠ ملايين؟

- هل كل هذه إحصائيات رسمية في تلك الدول؟

- صحيح أنها إحصائيات كنسية، ولكن بعضها له ما يؤكده من أقوال المسؤولين في تلك البلدان كما في الجزائر. وبعضها تتوافر حوله إحصائيات رسمية أكثر تواضعاً، والبعض الآخر منفي تماماً، كما في السعودية، مع أن الصحف العالمية تطالعنا بين الحين والآخر عن أحد السعوديين أو السعوديات في أوربا وأمريكا ممن يجاهرون بتحولهم إلى المسيحية. كما أن هناك الكثير من الكنائس التي أقيمت في دول الخليج المحيطة بالسعودية كالإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت التي توجد فيها وحدها، وعلى صغرها، سبع كنائس.

- أليست تلك الكنائس للمسيحيين المغتربين العاملين هناك؟

- ليست لهم فقط؛ فعدد الكويتيين المسيحيين مثلاً يصل إلى المئتين[1]، وكان أول كويتي يترسم كقس هو "عمانويل بنيامين غريب". كما قرأت مؤخراً أن رابطة العالم الإسلامي حذرت في ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ من التحول إلى المسيحية في اليمن، وذكرت أن الجهات التبشيرية نجحت في تنصير ١٢٠ يمنياً في محافظة حضرموت وحدها، إضافة إلى أعداد أخرى من اللاجئين الصوماليين والإرتريين في المعسكرات المقامة بجنوب البلاد.

---

(١) وفق أعلى التقديرات الكنسية.

- يبدو أن جهود التنصير المحمومة قد بدأت تؤتي أُكلها أخيراً. وأتذكر أنني قرأت في صحيفة ألمانية[١] مقالاً بعنوان "مليون ضد محمد" ذكرت فيه أن للفاتيكان منظمة اسمها "رابطة الرهبان لتنصير الشعوب"، وهي من أقدم منظمات الفاتيكان وأكثرها نفوذاً وأقلها شهرة. وهي تعمل في كل مناطق العالم بما في ذلك المناطق التي يسمونها مناطق الصمت؛ كالسعودية واليمن والصين. ويعمل تحت لوائها ٨٥ ألف قسيس، و٤٥٠ ألف جمعية دينية، وأكثر من مليون مبشر يجوبون العالم كله، قرية قرية، ومدينة مدينة. وهي تملك ٤٢ ألف مدرسة، و١٦٠٠ مستشفى، و٦٠٠٠ مؤسسة لمساعدة المحتاجين، و٧٨٠ ملجأ لمرضى السرطان، و١٢ مؤسسة خيرية واجتماعية حول العالم. وتقول الصحيفة: أن "المنظمة تعمل اليوم بجيش يضم أكثر من مليون شخص " للحد من انتشار الإسلام في العالم، وتعمل دون كلال على تشويه صورة النبي محمد، ونعته بأبشع الصفات"[٢]، كما علمت من أكثر من مصدر أن الكنائس تعطي كل متنصر جديد ينجح بتنصير مسلم آخر مبلغ خمسة آلاف يورو[٣] فضلاً عما سيحصل عليه المتنصر الآخر من نقود، بالإضافة إلى مغريات أخرى مثل تمويل السفر إلى الخارج بقصد

(١) صحيفة "فليت إم زونتاج" الألمانية في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ أيار/ مايو من عام ٢٠٠٤ م.

(٢) جاء في موقع الدكتورة زينب عبد العزيز تحت عنوان (أسقف كانتربري وخلفيات تصريحاته): "يستعين البابا بجيوش مجيّشة فعلاً من المبشرين، فبخلاف عشرات المنظمات المعروفة (مثل مليون ضد محمد) ومنها أوبس داي، وسانت إيجيديو، وجنود الرب، والأطفال المبشرون إلخ.. فإن عدد المبشرين المتفرغين هو ٥، ١٥١، ٠٠٠، وعدد المجلات التبشيرية ٣٣٧٠٠، وعدد محطات الإذاعة والتلفزيون التبشيرية ٣٧٧٠ محطة، ويخطط أن تصل عام ٢٠٢٥ إلى ١٠٠٠٠، ومن أجل التنصير تم رصد -حتى عام ٢٠٢٥- مبلغ ٨٧٠ مليار دولار و٧ ملايين مبشر و١٠٠٠٠ محطة إذاعة وتلفزيون. إضافة إلى استعانة البابا بكل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفنية والرياضية وغيرها لفرض المسيحية على العالم قبل حلول عام ٢٠١٠، وهو التاريخ الذي كان قد حدده مجلس الكنائس العالمي حينما أسند إلى الولايات المتحدة مهمة اقتلاع الإسلام بعد أن فشل مخطط البابا يوحنا بولس الثاني في تحقيق ذلك، عشية الألف الثالثة، حتى تبدأ الألفية الجديدة وقد تم تنصير العالم".

(٣) نحو ٧٢٠٠ دولار أمريكي، وقد تأكد ذلك في بحث قامت به "جمعية العلماء المسلمين" الجزائرية برئاسة الشيخ عبد الرحمن الشيبان.

الدراسة، أو التدريب على التبشير، أو حتى السياحة، وتوفير فرص العمل في الغرب، وبالذات بالنسبة إلى الشباب[١].

- ليس كل المتنصرين من الفقراء والمستغلين، ولا أظنك تنسى اليوم الذي قطعت فيه المحطات الإيطالية إرسالها لتبث احتفالات التعميد لعيد الفصح ٢٠٠٨، حيث تم تعميد مسلم عربي هو الصحفي المصري "مجدي علام" نائب رئيس تحرير صحيفة "كورييري ديلا سيرا" الإيطالية.

- أذكر هذا. ولكن التكتم الشديد على موضوع التعميد، وعدم التصريح به إلا قبل ساعة واحدة من الحفل، والتغطية المريبة لهذا الحدث وتهويله، بالإضافة إلى علمانية لذلك الصحفي السابقة، واستهتاره بالأديان بشكل عام، وعدائه لدينه[٢]، تلقي بظلال كثيرة من الشك حول دوافع تكريم البابا بندكت السادس عشر بنفسه له. وأن ذلك ليس مجرد رسالة دينية، وإنما مسرحية سياسية دعائية بالغة الاستفزاز، بطلها انتهازي طالب شهرة. كما كتب "ريتشارد أوين" في صحيفة التايمز يقول: "إن بابا الفاتيكان، بندكت السادس عشر، يخاطر بتجدد الشقاق مع العالم الإسلامي بقيامه بتعميد صحفي ترك الإسلام، وكان قد عرف بانتقاداته له".

- لست هنا بمعرض الدفاع عن أسقف رومه، فأنا أعرف مقاصده جيداً. ولكن

---

(١) يقول د. شوقي أبو خليل في كتابه (الحوار دائماً) متحدثاً إلى أحد المستشرقين: "بيوت إيمانكم (كنائسكم) خاوية وقلوبكم مبتعدة عن الإيمان وعوراتكم مكشوفة. أليس من المفروض، بدل إنفاق ملايين الدولارات للتبشير في العالم الإسلامي، أن توجهوا طاقاتكم لإعمار بيوتكم بدل التوجه للعالم الإسلامي المؤمن بالله تعالى؟" ص٦٥.

(٢) ينطبق عليه تحريف المثل المصري الشائع "اشتم في الإسلام تاكل ملبن". ومجدي يجاهر بسب الإسلام، ويفخر بأنه لم يصلِّ يوماً ولم يصم رمضاناً واحداً كما قال، مع أن والدته قد اصطحبته إلى الحج عندما كان صغيراً. ويروى أن ذبابة وقفت على نخلة، فلما أرادت أن تطير قالت: "استمسكي يا نخلة فإني راحلة عنك". فضحكت النخلة وقالت: "ما شعرت بك حين هبطت علي فكيف أشعر بك وأنت راحلة". أما من يسلم من أهل الكتاب، فكثير منهم من علية القوم في مجالات الدين والعلم والأدب والسمعة الطيبة. وأذكر تعليقاً لأحد المسلمين على ذلك بقوله: "إننا نأخذ خيارهم، ويذهب إليهم شرارنا".

لتحري العدل فقط، أذكرك أن مجدي علام هو نائب رئيس تحرير صحيفة كبرى! فأي انتهازية تتحدث عنها، وأي شهرة قد يطلبها بعد أن وصل إلى ذلك المنصب وهو عربي مسلم ضمن الآلاف من المهاجرين المهمشين الذين تعج بهم إيطاليا؟!!!

- وكيف وصل إلى هذا المنصب؟!!! لقد كان في البداية صحفياً مغموراً، ولكنه زار إسرائيل، عدو بلاده، عدة مرات، ثم عاد ونشر كتابات مشبوهة[1] في تأييد سياسات إسرائيل بشكل أثار ضجة واستنكاراً في العالم الغربي قبل العالم الإسلامي، خاصة في الوقت الذي كان الجميع هناك ينتقدون فيه سياساتها الهمجية الأخيرة. ولم يكتف بذلك بل نظم مظاهرات "سينمائية" للدفاع عنها، مما حدا بالحكومة الإسرائيلية إلى منحه جائزة "دان ديفيد" وقيمتها مليون دولار عداً ونقداً! ثم دفعوا به بكل نفوذهم، ليصل إلى قمة الهرم الصحفي الإيطالي، وفتحوا أمامه جميع الأبواب المغلقة. ولكن طموحه وحبه للشهرة لم يقفا عند ذلك الحد، فجاء تنصيره ليفتح به بقية الأبواب التي أغلقها عليه أصله العربي ودينه الذي لم يعرف يوماً ما هو. وقد أثارت انتهازيته ضيقاً شديداً في أوساط النخبة الإعلامية الإيطالية، حيث اشتموا رائحة الفضيحة من وراء التصعيد الخرافي لمجدي علام، رغم "محدودية إمكانياته"، فقط لمجرد أنه يسوق نفسه على جثة الإسلام والمسلمين والعرب. كما أن عملية تعميده أثارت استغرابهم بعد أن عجزوا عن تفسير اهتمام الرجل بإبراز قناعات دينية جديدة يفترض أنها لا تتم إلا عبر رحلة من البحث والتأمل والفكر والمقارنات، مع أن مجدي كان يقدم نفسه دائماً بوصفه علمانياً متشدداً وغير مهتم بخرافات الأديان بمجملها. بمعنى أنهم قالوا إن الانتهازية التي يستخدمها أصبحت مهينة لكرامتهم المهنية، لذلك أصدروا بياناً يدينون فيه هذا "المهرجان" المنصوب لانتهازيته حسب تعبيرهم.

---

(١) من أشهرها كتاب "أنا أحب إسرائيل" الذي امتدح فيه الكيان الصهيوني وسياساته، واصفاً إياه بـ"الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" والتي تحارب "قوى الرجعية في المنطقة". وهذا الكتاب قد هوجم بقوة من قبل اليسار الإيطالي نفسه، لشدة نفاقه وانعدام مصداقيته.

ظهر الإحراج على وجه الأب ديمتري، ولكنه ما لبث أن قال مكابراً:

- وماذا عن "جوزيف" أو "مصعب" سابقاً، ابن الشيخ "د.حسن يوسف"، أحد أبرز مؤسسي حركة حماس.

- أنا أعرف منك بذلك الخائن الذي نجح "الشاباك"[١] في اصطياده فتىً غضّاً طريّاً ابن سبعة عشر، في أثناء وجوده في السجن ليتجسس على أهله وأقاربه[٢]، ولا أفهم كيف تسر بتنصر ابن عاق، وشى بأبيه وتسبب باعتقاله وسجنه حتى الآن[٣]، ثم هرب بعد ذلك إلى الولايات المتحدة، حيث قاده العجز والفاقة[٤] إلى اللجوء إلى إحدى كنائسها[٥]، التي وفرت له الحماية والتمويل، وساعدته على تأليف كتاب[٦] عن إرهاب

(١) جهاز الاستخبارت العامة داخل الكيان الصهيوني.

(٢) حسب تصريح جوزيف الخائن، تم تجنيده عام ١٩٩٦ عندما كان محتجزاً بسجن مجدو عن طريق ضابط مخابرات اسمه الحركي "لؤي". ويقول: "أخرجوني من السجن بعد أن تأكدوا من صدق كلامي وكراهيتي لحماس، وكانوا يسمونني بـ"الأمير الأخضر".

(٣) افتخر الخائن في مقابلة صحفية بأنه كشفت لجهاز المخابرات الصهيونية الداخلية "الشين بيت" عن مخطط لاغتيال "شيمون بيريز" وخط سير المناضل "مروان البرغوثي" الذي اعتقلوه مع والده. كما افتخر بأنه حال دون اغتيال شخصيات مهمة أخرى، مثل الحاخام عوفاديا يوسف، وأن الكثير من الناس تدين له بحياتهم دون أن يعرفوه. فقد ساهم في اعتقال عدد من القادة العسكريين الفلسطينيين، وعشرات الاستشهاديين خلال الانتفاضة الثانية. هذا وقد بلغ عدد شهداء انتفاضة الأقصى منذ عام ٢٠٠٠م حتى عام ٢٠٠٨م أكثر من ٤٨٠٣ بينهم ٨٤٢ طفلاً و١٦٣ امرأة، واعتقلت سلطات الاحتلال نحو ٦٠ ألفاً بقي منهم ١١ ألف أسير بينهم ٩٨ أسيرة و٣٥٥ طفلاً، وفيهم مئات المرضى. ترى كم واحداً منهم يتفاخر ذلك الخائن أنهم من ضحياه؟!، ضحايا المحبة!! محبة العدو وكره الأهل!!!

(٤) صرح الخائن أنه قد مر بظروف صعبة هناك، ولولا الكنيسة وصديق مسيحي لأصبح "مشرداً". وكان ذلك عام ٢٠٠٨م.

(٥) كنيسة سان دييجو بكاليفورنيا.

(٦) لقد اختار من ورائه عنواناً مثيراً لذلك الكتاب هو "ابن حماس: السرد عن الإرهاب والخيانة والمؤامرة السياسية.. والاختيارات اللامعقولة"، وهو من ٢٥٦ صفحة ألفه الخائن بالاشتراك مع الصحفي الأمريكي "رون براكين". وينتهي الكتاب بخلاصة أن قصة مصعب تروي الخطر والشجاعة وإيمانه بأن محبة الأعداء هي السبيل الوحيد للسلام في الشرق الأوسط. وأنه يرغب في تحقيق الإفراج عن الجندي الصهيوني المعتقل لدى حماس جلعاد شاليط، ووضع حد لمعاناة سكان غزة تحت حكم حماس.

الإسلام وفساد حماس وأهله وأبناء وطنه؟!!!

- إذن، فأنت مقتنع تماماً بأن من تنصر من المسلمين لا يخرج عن كونه خائناً، أو انتهازياً، أو مخدوعاً، أو مشترى بالمال أو مغرراً به عن طريق توفير فرص الدراسة والعمل في الخارج، أو عن طريق غيرها من المغريات التحررية؟!!!

- كلا بالطبع، فمع أن كل ما قلته ينطبق على أغلبية القلة الضئيلة التي تنصرت[1]، إلا أنني لا أنكر أيضاً أن ذلك التغير المفاجئ ما كان ليحدث لولا عوامل مساعدة أخرى. فالخيانة والانتهازية والسذاجة والطمع وتصيد الفرص والبحث عن اللذات كانت موجودة دائماً عند بعض المسلمين، ولكن ذلك لم يكن كافياً لدفعهم إلى اعتناق المسيحية، ولم يفكر أي منهم بذلك أصلاً قبل هذا العصر بالذات.

- على تحفظي على أسلوبك في التعبير، إلا أن هذا بالضبط هو ما أحاول أن أشرحه لك.

- أنا لم أقصد ما تظن يا سيدي. دعنا نفكر في الأمر معاً: لماذا تمكن أولئك المنصرون في هذا العصر بالذات من تحقيق بعض النجاح، وإن كان محدوداً، في تنصير المسلمين مع فشل أسلافهم الذريع والمتكرر في ذلك على مر العصور؟!!! وأرجوك دعنا مما تسميه إشارة إلى قرب انتهاء سحر الإسلام، وإيذاناً بانتصار

---

(١) تقول الأخت "ربا قعوار" (أردنية ولدت مسيحية، درست اللاهوت المسيحي، وبدأت بالخدمة في الكنيسة في عمر الثانية عشرة، والدها قسيس لأربع كنائس موجودة في الزرقاء والزرقاء الجديدة والتطوير الحضري والسلط.): "تستخدم الحركات التبشيرية الكثير من السياسات، بالإضافة إلى كونهم أصحاب كنيسة إلا أنه عندهم أهداف سياسية، فهنالك كثير من الشركات والمؤسسات التي تدخل بأسماء مستعارة كحقوق الإنسان أو الطفل ويكون الهدف منها التبشير، ويكون معهم محفزات تساعد على التبشير؛ منها السفر إلى الخارج أو علاقات حب وغرام أو إعطاؤهم أموالاً، وهي إغراءات مادية، كما أنه قد يكون هنالك عمل إرهابي أو عنف يؤدي بالشخص إلى ردة فعل فينجر إلى الدخول في النصرانية وعندها تقوم التبشيرية باحتضانه ويعاملونه بالحب المصطنع والمزيف". وأضافت أن: "الحركات التبشيرية تنشط في أثناء الحروب والأحداث العاصفة كما في العراق وفلسطين وبعد هجمات ١١ سبتمبر".

http://www.quran-m.com/firas/arabic/?page=show-det&id=2145&select-page= 14

الصليب، فســؤالي هو: ما الذي تغير فــي هذا العصر بالذات حتى حدث فيه ما كان يعد ضرباً من المستحيل في العصور السابقة؟!!!

- ما الذي تريد قوله؟

- يتفق أغلب المتدينين اليهود والمســيحيين والمسلمين على قرب مجيء من نسميه بـ"النبي الكاذب" وتسمونه "ضد المسيح" ويسميه المسلمون "المسيح الدجال". ويتفق كثير منهــم أيضاً على أن أكثر ما يمهد لقدومه ولنجاحه في فتنة أغلبية الناس وإضلالهم، هو ما نشــهده حالياً من ثورة في المعلوماتية والإعلام ووســائل الترفيه، وما فيها من انحلال وفســق، وعلمانية وتشكيك في الأديان وفي وجود الرب، وترويج لمفاهيم وآراء معينة عن وحدة الأديان وغيرها من تلك الخدع البراقة التي توجه من قبل قوى خفية.

فقال الأب ديمتري مقاطعاً:

- أريــد أن ألفــت انتباهك هنا أن حكمــاء صهيون وأباطرة الإعلام والسياســة والاقتصاد اليهود، هم المتهمون الرئيســيون بكونهم تلــك القوى الخفية التي تتحدث عنها.

- لا أنكر هذا، بل ربما أؤكده. ولكن ذلك ليس موضوعنا حالياً.

- إذا كنت بهذه الصراحة والأريحية والموضوعية، فأنا أعترف أنني أتفق معك فيما تقولــه عن هذا العصر. فقد أصبح اللصوص والقتلة والزناة هم قدوة أبنائنا، وصارت عمليات ســرقاتهم وبطولاتهم في القتل غير المبرر، وغرامياتهم الســاخنة تطل علينا باســتمرار عبر الفن ووسائل الإعلام وبأشــكال غاية في التأثير، حتى صار الكثيرون منا يتعاطفون مع أولئك "الأبطال" ضد الشــرطة وضد ضحاياهم المســاكين، بل ضد رجال الدين بالذات، الذين يصورون في المقابل على أنهم متخلفون ومكبوتون، ويصور الضحايــا على أنهم حثالة ويســتحقون القتل، في حين يصور رجال العدالة على أنهم هم الأشــرار والمرتشون، حتى انقلبت الصورة رأســاً على عقب. كما أتفق معك أيضاً

على ما تقوله عن نشر العلمانية والتشكيك في وجود الرب وفي الدين[١]، وما وجودي هنا في ألمانيا، ولا سفري القريب إلى بريطانيا، إلا للرد على بعض البرامج التي تصب في ذلك الإطار. وأنت تعلم أنني لست غافلاً عن هذا كله، لست غافلاً كذلك عن دور القوى الخفية فيه.

- أجل أعلم. فقد تحدثت البارحة عن السينما التي ملئت بالرموز اليهودية، وعن المشاهد الساخنة والفنانات اللائي يظهرن وهن نصف عاريات، معلقات الصلبان على أعناقهن للدلالة على أن العراء يختص بالمسيحيات.

- تماماً، ومن أجل ذلك أرى أن المسيحية هي الخاسر الأكبر من نشر الإباحية والعلمانية والتشكيك في الدين والسخرية برموزه، ومن ثم فأنا لا أتفق معك مطلقاً على أن وسائل ضد المسيح تلك تساعد المسيحية في تنصير المسلمين أو غيرهم.

- أرى أننا متوافقان كثيراً في هذا الموضوع يا سيدي، ولكن كان يمكن أن يكون اتفاقنا أكبر، لو تركتني أكمل إيضاح وجهة نظري.

- تفضل.

- شكراً. ما أردت أن أقوله هو أن تلك الوسائل قد ساهمت في إضلال المسلمين وإبعادهم عن دينهم، وكذلك الأمر مع سائر أتباع الديانات الأخرى بمن فيهم المسيحيون أنفسهم، بل ربما ساهمت في إضلال المسيحيين وتشويه دينهم أكثر من غيرهم. ولكن جل ذلك الضلال يتمثل، شئنا أم أبينا، في أسلوب حياة ومفاهيم وقدوات جديدة تمثل حضارة الغرب بالذات. والتي على علمانيتها وتشويهها للدين وتحررها البالغ، تحسب على المسيحية بشكل عام. والمنظمات التبشيرية في العالم الثالث تدرك هذا جيداً، وتلعب على ذلك الوتر الحساس بكل براعة. خاصة وأن الكنيسة قد تماهت فعلاً مع

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

الحضارة الغربية وتبنت الكثير من مبادئها العلمانية[١]، ولا ننس أن الانبهار بالحضارة الغربية قد ولد إعجاباً وإكباراً لها من قبل أغلب الناس، ومن بينهم المسلمون. وقد دفع هذا الكثيرين منهم إلى الاستماتة في الاقتداء بها وتقليدها، وتمكن أخيراً من جعل قلة ضئيلة منهم تقرر الانتماء إليها بشكل كامل عن طريق التنصر. وبالمناسبة كان من الممكن أن يكون أحدهم هو أحمد نفسه، فقد درس المسيحية جيداً في إحدى مراحل حياته وكان يعتزم اعتناقها فعلاً، ولتلك الأسباب بالذات، ولكن على جديته وصدق نيته، إلا أنه لم يستطع ذلك.

- لماذا؟

- لأن المسيحية لم تقنعه مطلقاً رغم محاولاته المستميتة للتغاضي عن التناقضات التي وجدها فيها. فشخص كأحمد كان لابد له أن يقتنع تماماً بدين ما حتى يعتنقه، ويخضعه للبحث والتحليل. ولكن بالتأكيد يوجد غيره ممن بهروا مثله أيضاً بالحضارة الغربية، ولكنهم كانوا أكثر منه تساهلاً جهة التناقضات، وأقل منه خضوعاً للعقل والمنطق، وأكثر منه كسلاً في تحري الحقيقة ومتابعة البحث عنها دون ملل، وليس مستغرباً أن يتنصر بعض هؤلاء.

- لماذا تجعل من الانبهار بالغرب سبباً وحيداً للتنصر؟!!! وماذا عن التطرف الإسلامي المعاصر، وما يراه عامة المسلمين من التفجيرات التي تزهق أرواح الآلاف

---

(١) قال البابا في الخطاب الذي ألقاه أمام الإدارة البابوية يوم ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، بمناسبة تقديمه التهنئة بأعياد الميلاد إلى أعضاء لجنة اللاهوت الدولية: " في الحوار الذي يجب علينا تكثيفه مع الإسلام، علينا أن نضع أمام أعيننا واقع أن العالم الإسلامي يجد نفسه اليوم في حاجة ملحّة أمام مهمة شديدة الشبه بتلك التي تم فرضها على المسيحيين ابتداء من عصر التنوير، والتي أتى لها مجمع الفاتيكان الثاني بحلول جذرية للكنيسة الكاثوليكية بعد أبحاث طويلة مضنية" (!!!) كما قال الكاردينال "جان لوي توران" في حديث له مع جريدة "أفنيري" (Avvenire) الإيطالية: "لدى المسلمين يمكننا تقدير حجم إعلائهم لله، وقيمة الصلاة والصوم، وشجاعة إعلانهم عن إيمانهم في الحياة العامة". ثم أضاف قائلاً: "ومن جانبهم يمكنهم أن يتعلموا منّا قيمة العلمانية الصحيحة" (!!!).

باسم الإسلام؟ ألم يدفع ذلك بالشرفاء منهم إلى نبذ ذلك الدين الدموي وراء ظهورهم والاتجاه إلى "دين المحبة"؟

- أرجوك أيها الأب ديمتري، دعنا نحافظ على الأكاديمية الموضوعية والحياد اللذين يميزان حديثنا حتى الآن، ولا داعي لطرح مثاليات، أنت تعرف قبل غيرك أن التاريخ والحاضر المسيحيين يسيران عكسها تماماً. على أية حال فأنا أوافقك بالنسبة إلى كون الإرهاب من جهة قلة من المسلمين ينفر قلة أخرى منهم من الإسلام برمته.

- ولا تنس ما تكشف مؤخراً من اسوداد تاريخهم الذي كانوا يتبجحون ببياضه الناصع. فالمقابلات التي أجريت مع بعض المتنصرين أظهرت جلياً أن صدمتهم بما عرفوه عن تفاصيل رموز الإسلام الأولين كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تنصرهم.

- وهذا أيضاً ما قصدته عما يميز هذا العصر عن غيره، فبعض الطوائف الإسلامية المنشقة، قد أصبح لها مؤخراً حضور إعلامي مدوٍّ، بإثارتها للشبهات حول أخص أعوان النبي المؤسسين[١] والخلفاء وقادة المسلمين القدماء الذين نشروا الإسلام في كل أصقاع الأرض؛ وذلك بهدف تشكيك أصحاب المذاهب الأخرى، وكسبهم إلى جانب مذهبهم[٢]، وكان مما ساعدهم على ذلك هو نبش بعض المستشرقين لكتبهم القديمة التي تشنع على التاريخ الإسلامي، وجعلوها تناقَش على أنها كتب تاريخية، مع أنها صنفت سابقاً باعتبارها مجرد تنفيس عن أحقاد مذهبية، ولم تكن تتمتع بأي مصداقية مطلقاً، بل كانت محدودة الأثر والتوزيع بين بعض أفراد تلك الطوائف نفسها. وبناء على ذلك كله، حمي وطيس الفتنة المذهبية أكثر بين المسلمين، وقد استغل كثير من المنصرين أكبر استغلال ما أصاب بعض المسلمين من فقدان الثقة بتاريخهم وقدواتهم، بالإضافة إلى مللهم من الصراعات المذهبية.

---

(١) يقصد صحابة الرسول ﷺ، رضوان الله عليهم أجمعين.

(٢) من أهم خطط مؤتمر تنصير العالم الذي عقد في كلورادو عام ١٩٨٧ : "إن الإسلام لابد أن يُضرَب بأيدي أبنائه وأن يُضرَب من الداخل".

- لـــو لم يكـــن لتلك المعلومات أصل، لمـــا دار حولها كل ذلك الجـــدل، ولما أثارت كل تلـــك "المظلوميات" التي نســـمع عنهـــا كثيراً في هذه الأيـــام. وكل ما فعله أولئك المنصرون هو إبراز هذه المعلومات المتكشفة، ومقارنتها بالتسامح والحب اللذين يملآن المســـيحية، واللذين صارا يجـــدان آذاناً مصغية عند عامة المســـلمين، بعد أن عرفوا رموزهم وتاريخهم على حقيقتها المخجلة. فعدد مشـــاهدي القنوات المسيحية الموجهة للمسلمين بناء على آخر إحصائية متوافرة لدي قد بلغ ٢,٣٥٥,٠٠٠,٠٠٠ شهرياً عام ٢٠٠٤م، ولك أن تتخيل إلى كم وصل عددهم اليوم في ٢٠١٠.

- أتخيـــل ذلك. فقد بدأ المستشـــرقون أولاً بنبش الشـــبهات، ثـــم راحت القوى الاســـتعمارية تقوي الأقليات وتستعين بهم بشكل يوازي، بل يضاهي الأغلبية المذهبية في البلاد التي اســـتعمرتها، ومن ثم قامت بتزكية نـــار الفتنة بين الأغلبية والأقليات التي أحسنت إعدادها. وفي النهاية أخذت مختلف مؤسساتها الاقتصادية والعسكرية والدينية (الكنائس)، تتنافس على جني ثمار التشرذم والتنافس الداخلي، بعد أن تصدع بنيانهم وتضعضع كيانهم.

- قبـــل قليل طالبت بالأكاديمية العلميـــة والموضوعية، وها أنت ذا الآن تناقض ما طالبـــت به تماماً!!! وتعمم نظرية المؤامرة علـــى جهود التنصير، مع أن الكنائس بريئة تماماً من ألاعيب السياسة القذرة.

- أنـــا لم أخرج عن الأكاديمية العلمية ولا عـــن الموضوعية والحياد؛ فأنا لا أرمي الكلام جزافاً دون أدلة. هل تعلم أن "المجمع المسكوني الفاتيكاني" عندما أعلن في عام ١٩٦٢م أن مطلع الثمانينيات ســـيكون هو عام القضاء على الشيوعية، وهذا ما حدث فعلاً بالمناســـبة ولكن مع بعض التأخير، فإنه قد أعلن في المجمع ذاته أن عام ٢٠٠٠م ســـيكون عام القضاء على الإســـلام في إفريقيا. وأن هذه الجهود ليســـت كاثوليكية

فحســـب، فقد قال "روبرت ماركس" وهو مبشر بروتستانتي أمريكي مشهور جداً: "لن تتوقف جهودنا وســـعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويقام قداس الأحد في المدينة"[١].

- أؤكد لك أن هذا أيضاً سيحدث مع بعض التأخير.

(١) كشفت مصادر أكاديمية مؤخراً عن ارتفاع أعداد المؤسسات والهيئات التنصيرية العاملة في الدول العربية والإفريقية الإسلامية فضلاً عن قيامها بإصدار عدد كبير من المجلات والصحف الناطقة باسمها وذلك تحت غطاء المساعدات والإعانات الدولية. وقال "إبراهيم الخولي" الأستاذ المتفرغ في جامعة الأزهر أن عدد مؤسسات التنصير وإرسالياته ووكالات الخدمات النصرانية بلغ (١٢٠٨٨٠) مؤسسة، والمعاهد التي تؤهل المنصرين وتدربهم بلغ عددها (٩٩٢٠٠) معهد. وأن المنصِّرين المحترفين العاملين على رأس العمل التنصيري يبلغ تعدادهم (٤٢٠٨٢٥٠)، وأن مؤسسات التنصير هذه تمتلك ٨٢ مليوناً من أجهزة الكمبيوتر، وعدد المجلات التي تصدرها المؤسسات التنصيرية يبلغ (٢٤٩٠٠) مجلة، وعدد الكتب التي أصدرتها هذه المؤسسات بلغ في عام واحد (٨٨٦١٠) كتب. وأضاف الخولي أن عدد محطات الإذاعة والتلفاز التي تبث التنصير يبلغ (٢٣٤٠) محطة، ونسخ الأناجيل التي وزعتها مجاناً في عام واحد هو ٥٣ مليون نسخة، وهم يطالبون بعدم طبع المصاحف. والمدارس ورياض الأطفال التي تشرف عليها كنائس التنصير تبلغ في العدد (١٠٦٧٧) مدرسة. والطلاب الذين يدرسون في هذه المدارس الكنسية يبلغ عددهم تسعة ملايين طالب، والمستشفيات التي تملكها هذه الكنائس يبلغ عددها (١٠٦٠٠) مستشفىً.

المستقبل... لمن؟

كان أبراهام يدرك جيداً أن هاجس القضاء على الإسلام يشغل بال الأصوليتين الكاثوليكية والبروتستانتية، ولكنه استهجن كثيراً انخداع الأب ديمتري أيضاً بذلك الوهم، فقال محاولاً أن يشده قليلاً إلى أرض الواقع:

- لا تكن متفائلاً كثيراً بهذا الشأن يا سيدي.

- لماذا؟!!! هل تعلم أن عند المسلمين أحاديثَ تدل على انحسار الإسلام في آخر الزمان مثل: "إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا"[١]، و"وليربط الإسلام في الحجاز كما تربط الشاة من رأس الجبل"[٢]، و"يأتي زمن يصبح القابض على دينه فيه كالقابض على جمرة من نار"[٣]، و"تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ"[٤]، والروم هم المسيحيون؟ فلا يزال الأرثوذكس يقدمون كلمة الروم على اسمهم، ويطلقون على أنفسهم لقب الروم الأرثوذكس إلى الآن، وكذلك الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. لأن كلمة روم قد أصبح معناها "أصيل"، حيث إن أصل المسيحية الحقيقية كان في بلاد الروم. كما أن الكراسي البطركية الرئيسية في عواصم العالم المسيحي ظلت تتمسك بهذا الاسم، ابتداء من رومه الأولى إلى رومه الثانية (القسطنطينية) وحتى رومه الثالثة (موسكو).

---

(١) رواه مسلم، وأخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد والدارمي، وصححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي، حديث ٢٨٣٩.

(٣) جاء في سنن الترمذي برقم(٢١٨٦) وبلفظ: "يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر". وقد صححه الإمام الألباني رحمة الله عليه بشواهده الكثيرة، وذكره في السلسلة الصحيحة، المجلد الثاني، رقم الحديث: ٩٥٧.

(٤) معجم الطبراني الكبير، ومسند البزار.

- وهل صرت تؤمن بالنبوءات الإسلامية حتى تتفنن في محاولة تفسير نصها ومدى انطباقه على الواقع؟!!!! على كل حال فقد يحصل شيء من هذا القبيل فعلاً، ولكن الوقت لا يزال مبكراً جداً على ذلك. فمع كل ما ذكرته عن هذا العصر، إلا أن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن وتيرة انتشار الإسلام تبقى، للأسف الشديد، في تصاعد مستمر. حتى أصحاب تلك المشاريع الوهمية للقضاء على الإسلام، وبالذات أساطين الأصوليتين الكاثوليكية والبروتستانتية، لا يستطيعون إنكار ذلك؛ فقد حذر البابا بندكت السادس عشر مؤخراً في كتاب سماه "بلا جذور"، مما أسماه بـ"أسلمة أوربا"!!! أوضح فيه أن لديه مخاوف من "انقراض" المسيحيين هناك. وفي بريطانيا أعلن القس والباحث الأوربي الكبير في علم اللاهوت "ديفيد باوسن"[١] عن النتائج الكارثية لبحثه؛ محذراً المجتمع المسيحي الأوربي من إمكانية تحول المملكة المتحدة البريطانية نفسها إلى دولة إسلامية خلال فترة قد تمتد من ١٠ أعوام إلى ٥٠ عاماً على أكثر تقدير له. فقد بلغ الحجاج الإنجليز المسلمون في آخر موسم حج ثلاثين ألفاً أغلبهم من الشباب. وصار اسم "محمد"، وفقاً لتقرير نشرته صحيفة "التايمز" مؤخراً، هو أكثر الأسماء المفضلة هناك بالنسبة إلى المواليد الذكور بعد اسم "جاك"[٢]، وصنفت ١٠٪ من كنائس إنجلترا على أنها "زائدة عن الحاجة". ولا ريب أنك تذكر حادثة انتحار أحد القساوسة

---

(١) من أشهر الباحثين في علم اللاهوت، وهو يتبع الكنيسة الإنجيلية، وله صلاحية إلقاء المواعظ في كل كنائس دول الاتحاد الأوربي.

(٢) نشرت صحيفة "الديلي تليجراف" البريطانية أيضاً تقريراً في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٩ أكد تزايد أعداد المسلمين في أوربا خلال الأعوام الماضية، موضحاً أن أسماء محمد وآدم وريان وأيوب ومهدي وأمين وحمزة، باتت أكثر سبعة أسماء شيوعاً واستخداما في بلجيكا التي تشكل مقر الاتحاد الأوربي. وقدر التقرير تعداد الجاليات المسلمة في أوربا حاليا بين ١٥ مليوناً و٢٣ مليون نسمة، مع توقع أن تصل نسبة الذي يعتنقون الإسلام إلى أكثر من ٢٠ في المئة من سكان أوربا. بل إن أعداد المسلمين ستتفوق على سواهم في فرنسا، وربما في كثير من دول أوربا الغربية في منتصف القرن الحالي.

هنا، كمداً واحتجاجاً على انتشار الإسلام[١].

تنهد الأب ديمتري بأسى قائلاً:

- بالطبع أذكر.

- ولابد أنك تعرف أن وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة "كونداليزا رايس" قد أعلنت في تموز/يوليو ٢٠٠٧م أن "الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في أمريكا"، وأن ذلك ما حدا ببوش إلى الاجتماع بالإعلاميين الأمريكيين المعادين للإسلام لبحث هذا الأمر!! ولربما سمعت أيضاً بتوقعات مجلة "السياسة الخارجية الأمريكية" في أواخر عام ٢٠٠٦م بأن المسلمين سيشكلون ٣٠٪ من الفرنسيين خلال عشرين عاماً. وفي وطننا روسيا نفسها، يشكل المسلمون الآن أكثر من ١٥٪ من السكان، كما أن ٢٠٪ من سكان موسكو (رومه الثالثة) من المسلمين. وقد توقعت مجلة " الأكونوميست " أن يصل تعداد المسلمين إلى نصف تعداد روسيا خلال ٢٥ عاماً. أما هولندا فخلال ثلاثين عاماً سيصبح المسلمون أغلبية فيها. كما لاحظت مجلة "دير شبيجل" الألمانية[٢] " أن الإسلام ينتشر بسرعة بين الهنود الحمر خاصة في جنوب المكسيك". والعجيب أنه كلما هوجم الإسلام، زاد انتشاراً!!! فهذا بابا رومه يسب الإسلام فيسلم أربعة أضعاف ما يسلم عادة في وطنه الأم، ليصل عدد المسلمين الجدد من الألمان إلى قرابة ٤٠٠٠ مسلم سنوياً! وبعد أحداث ١١سبتمبر واستهداف المسلمين، تضاعف عدد معتنقي الإسلام. وبعد إساءة الدنمارك الأولى بلغت مبيعات المصاحف في فرنسا ٣٨٪، وزاد معها عدد المعتنقين الجدد للإسلام، مع أن المسلمين ليس عندهم نشاط تبشيري منظم، وحسن التمويل، مثل ذلك الذي عند أغلب الطوائف المسيحية.

---

(١) في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦م سكب القس الألماني "رولاند ويزلبرج" علبة من البنزين على رأسه وأضرم النار فيها، وذلك في دير أوجيستين بمدينة أيرفيرت. وقال "ألفريدي بجريتش" رئيس كنيسة أيرفرت للصحفيين إن أرملة ويزيلبرج أخبرته أن زوجها انتحر بسبب ذعره وانزعاجه من انتشار الإسلام، وموقف الكنيسة المتهاون بشأن هذا الموضوع.

(٢) عدد ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٥م.

فقال الأب ديمتري معترضاً:

- إن نظامهم التبشـــيري لا بأس به أيضاً، كما أن الســـعودية تضخ لهم الكثير من الأموال.

- لنكن واقعيين يا أبانا. إن تلك الأموال السعودية وغيرها، تنفق في الأساس على المســـاجد وتحفيظ القرآن وتدريس اللغة العربية للجاليات، المسلمة أصلاً، في أوربا. أمـــا الكنائس فلديها ميزانيات ضخمة مخصصة للتبشـــير، بالإضافة إلى ميزانياتها العامـــة. وهي تقدم مطبوعـــات فاخرة، وحفلات ورحلات ترفيهيـــة وعلاجاً مجانياً، ومســـاعدات مالية ســـخية، وأحياناً رواتب منتظمة، ولها مبشرون محترفون يطرقون الأبواب، ويجوبون مناطق تجمع الفقراء، مقدمين مغريات كبيرة لهم. ويبنون في سبيل ذلك المستوصفات والمدارس والنوادي ودور النشر والجمعيات الخيرية والملاجئ ومراكز مساعدة الطلاب الجامعيين، وغيرها من مؤسسات التبشير المتعددة، وكل ذلك بهدف نشـــر المسيحية. في حين ينتشر الإســـلام عن طريق أناس عاديين، وبجهود شخصية متواضعة في أغلب الأحيان.

فقال الأب ديمتري متململاً:

- ليس الأمر كذلك تماماً.

- بل هو كذلك. وأكبر دليل على انتشـــار الإســـلام بجهود شخصية متواضعة هو انتشـــاره في السجون مثلاً. ولا ريب أنك سمعت كيف أسلم المصارع الأمريكي الشهير "مايك تايســـون". وقد لاحظت ســـلطات الأمن الأمريكية أن السجين الذي كان يعرف عنه التمرد وعدم الطاعة داخل السجن، يصبح أكثر استقامة وانضباطاً بمجرد دخوله في الإسلام، وبالذات السود، ولذلك غضت النظر عن التبشير الإسلامي هناك. وهذا لا ينطبق فقط على الســـجون الأمريكية، بل أصبحت سجون أوربا أيضاً مراكز لنشر الإســـلام، خاصة في فرنسا وإنجلترا، مع أنهم لا يتسامحون بذلك كالأمريكيين. فقد

أصدرت الإدارة المركزية للمخابرات العامة الفرنسية في تموز/يوليو ٢٠٠٧ تقريراً تحت عنوان "التبشير الإسلامي في السجون" حذرت فيه من فاعلية الأنشطة التي يقوم بها دعاة مسلمون لنشر الإسلام داخل السجون الفرنسية، مشيراً إلى أن ٧٠ في المئة من الدعاة فرنسيون، والباقون من دول المغرب العربي وتركيا ويوغسلافيا السابقة وباكستان. أما في إنجلترا فقد تم فصل السجناء المسلمين عن غيرهم اعتباراً من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨ لتأثر بقية السجناء بدينهم واعتناق أعداد متزايدة منهم للإسلام.

- إن كان هذا يدل على شيء، فهو يدل على أن نسبة الإجرام، ومن ثم دخول السجون، هي نسبة عالية بين المسلمين.

ابتسم أبراهام، لكون نسبة الجريمة بين الغربيين تفوقها بأضعاف مضاعفة كما يعرف القاصي والداني، ثم تابع حديثه قائلاً:

- وهكذا فإن كل مؤسسات المبشرين وإمكانياتهم المالية الضخمة في البلاد الإسلامية، بالإضافة إلى خطط الاستعمار الحديث في إعلاء شأن الأقليات وإثارة النزعات المذهبية بينهم وبين الأغلبية، ووسائل الإعلام والتوجيه، وطرائق الترفيه والإبهار، كل ذلك لم ينجح بعد عقود طويلة من الجهد المنظم بإصرار، والإسراف في التمويل، إلا في حمل قلة ضئيلة لا وزن لها من المسلمين على اعتناق المسيحية، بل إن جلها من الفقراء أو الأقليات العرقية المثارة ضد العرب، أو الانتهازيين وغيرهم ممن تحدثنا عنهم. وهذه النتائج المتواضعة بعد كل ذلك التخطيط والجهد والتمويل الضخم تبعث على الدهشة البالغة، خاصة أن المسيحية كما أشرنا تمثل دين العالم المتقدم وتقاليده في مختلف المجالات، سواء العسكرية أم الاقتصادية أم التقنية. أما الإسلام الذي ترتفع نسبة الجريمة بين معتنقيه كما أشرت قبل قليل.

وهنا أفلتت ابتسامة ساخرة من فمه رغماً عنه، فتنحنح الأب ديمتري بحرج، فأردف أبراهام متابعاً:

- كنت أقول أما الإسلام، الذي يمثل دين وتقاليد العالم الثالث، الضعيف والمتخلف في المجالات المذكورة، فقد نجح في العالم القوي المتقدم في ضم عدد من المسيحيين إلى صفوفه، أكثر بكثير من تلك القلة المسلمة المتنصرة، ومن مستويات أرفع نوعية وأعلى مقاماً بكثير؛ ففيهم القساوسة والعلماء والمفكرون والساسة والفنانون والمشاهير، الذين اعتنقوا الإسلام بعد أن بحثوا بأنفسهم عن الدين الحق، وفي الغالب دون تخطيط أو جهد أو تمويل من دعاة المسلمين[1]. وكدليل بسيط على كلامي اقرأ رسالة رئيس أسقفية الشباب في أسقفية "كورسك" التابعة لبطركيتكم.

قال أبراهام ذلك وهو يناوله رسالة باللغة الروسية صورها من الإنترنت تقول:

من فلاديسلاف سوخين إلى المطران هيرمان (مورالين)، القائم على شؤون أسقفية كورسك:

بسم الله الرحمن الرحيم!

نيافة الأب: يشرفني أن أعبر لكم عن جزيل الاحترام وأمنياتي بدوام السكينة والسلامة ونوال البركة من الله العلي. أحيط نيافتكم علماً بأنني برحمة من الله الخالق، ثم نتيجة لبحث شخصي وقرار عقلاني واع، قد اعتنقت الإسلام وأصبحت الآن (بحمد الله!) مسلماً. وإنني أؤمن بوحدانية الله وبأن محمداً ﷺ رسوله. وبناءً على هذا أرجو من الآن فصاعداً عدم اعتباري خادماً أو عضواً في الكنيسة الأرثوذكسية أو في أي كنيسة مسيحية أخرى. مع ذلك فسأظل أكن الاحترام "لأهل الكتاب"؛ مسيحيين ويهوداً، وأتوجه بعميق الشكر إلى نيافتكم وإلى جميع زملائي السابقين في الخدمة لتعاملهم معي بالأخلاق المسيحية الطيبة الصادقة. وأحمد الله الواحد الرحيم الذي حباني بمعرفة الحق! وتفضلوا بقبول وافر الاحترام والأمنيات بدوام العافية من الله!

عبد الله، فلاديسلاف سوخين

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

١ آب/أغسطس ٢٠٠٦.

تأملها الأب ديمتري هنيهة، ثم أعادها له قائلاً:

- أنا أعرف ذلك الرجل شخصياً. وقلبي يدمى لأنه خان الرب يسوع.

- هو لا يظن أنه خان يسوع. اسمع ما كتبه. ثم أخرج من حقيبته ورقة أخرى وقرأ منها:

"أثناء قراءتي للعهد الجديد، اصطدمت بكثير من المواضع التي تتناقض مع هذه العقيدة، لكنني حاولت أن أؤمن بسيادة تعاليم الكنيسة المسيحية. فوق ذلك، كانت الكنيسة تقدم لي عدداً كبيراً من الاقتباسات المأخوذة من الكتاب المقدس، التي فيما يبدو تؤكد أن الشخصية الإنجيلية المركزية (يسوع) هي في الحقيقة "إله متأنِّس". كثير من هذه المواضع، كما اكتشفت فيما بعد، كانت تعكس فقط نظرة بعض الناس إلى المسيح، أو بدت أنها إدخالات حدثت في عصور تالية أو تحريفات متعمدة. حتى إن مفسرين أرثوذكساً ومتخصصين في الكتاب المقدس كتبوا عن ذلك. وللتوثيق، سأسوق مثالاً من كلمات بولس الرسول في رسالته إلى تيموثاوس:"عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد"(١تيموثاوس ٣ :١٦). وإليكم ما كتب عن موثوقية هذه الكلمات. جاء في "الكتاب المقدس التفسيري" الأرثوذكسي من منشورات إ.لابوخين: "أولاً، يجب أن نحدد القراءة الصحيحة لهذا الموضع، ففي كثير من المخطوطات القديمة ولدى بعض الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة بدلاً من تعبير "Theos" أي (الله) يوجد تعبير (os) التي تعني (الذي)، وفي بعض المواضع الأخرى (o) التي هي صيغة المحايد (أي لا ذكر ولا أنثى) من الضمير (os). لذلك يناصر المفسرون المعاصرون في الغالب القراءة التالية: "الذي ظهر في الجسد" ويضعون هذه الجملة مسندة إلى تعبير "سر"، أو إلى تعبير "بيت الله". لكننا تمسكنا بالقراءات التي وردت في كتابات الآباء العظام من أمثال ذهبي الفم وثيودور ويوحنا الدمشقي والآخرين اللذين يقرؤونها جميعاً كالتالي: "الله

ظهر..." . مع ذلك، وحتى لو كنا سنقبل القراءة الواردة في المخطوطات القديمة التي تقرأ :"الذي ظهر.."، فمن المحتم علينا جميعاً، بحكم الضرورة، أن نجعل التعبير "الذي" يعود على أي اسم مضمر، مادامت كل محاولات إضافة هذا الضمير إلى أي تعبير سابق تبدو أمراً فاشلاً فشلاً ذريعاً" . هنا نجد مفسري الكتاب المقدس من الأرثوذكس، بعد اعترافهم بعدم موثوقية هذه القراءة، يصرحون بشكل مباشر أنه (بحكم الضرورة) يجب أن نعترف جميعاً بأن هذا الشكل للنص ما هو إلا تفسير متأخر، ذلك لأن "الآباء المحترمين" قرؤوا هذا الموضع في العهد الجديد بهذه الصورة تماماً، لذلك قررت أن أحل اللغز بنفسي عبر توجيه هذا السؤال: وماذا قال يسوع نفسه عن نفسه؟ هل اعتبر نفسه إلهاً؟ هل علّم الآخرين هذه الفكرة عن نفسه؟ لهذا بدأت من جديد أعيد قراءة العهد الجديد بعناية أكبر، بشكل متواز مع دراسة تفاسير الباحثين المشهورين، لكن انطلاقاً من الموقف الذي يرى أن "عيسى" عليه السلام ليس هو "الله" ذاته. واكتشفت أن عيسى عليه السلام لم يسم نفسه إلهاً في أي نص من نصوص الإنجيل ولو مرة واحدة. ألقاب مثل "المسيح" و"ابن الله" لا يمكن أن تعتبر مساوية لكلمة "الله" . فكلمة "المسيح" هي ترجمة للكلمة العبرية "مشيخ" وتعني "المدهون" (المِسِّيَّا)، أي الذي تسكن فيه نعمة الله. لذلك، الملك الفارسي(الساساني) "كورش" كان"مسيحاً" أيضاً (انظر إشعياء ٤٥: ١) "هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ (المقابل اليوناني خريستو) كُورَشَ"، ومواضع أخرى كثيرة. أما كلمة "ابن الله" فتعني فحسب الإنسان المكرس لله عبر المحبة البنويّة، الذي ينفذ إرادته، ولا يخالف وصاياه. ومن ثمّ كان عيسى يخاطب الله بقوله: "آبا" و"الأب" . بالإضافة إلى ذلك، يجب ألا ننسى هذه الحقيقة أنه عندما كانت كتب العهد الجديد تُكتَب أو تُتَرجم باللهجة "الكويني" واسعة الانتشار في هذه الأيام، فإن الكلمات جميعاً كانت تكتب بالحروف العادية الصغيرة. أما الحروف الكبيرة (الكابيتال) فلم تكن معروفة حينها. وكلمتا "ابن الله"، سواء أكانت موجهة إلى يسوع أو إلى أي شخص

آخر، فهي على الوتيرة ذاتها كانت مكتوبة بحروف صغيرة، ثم أصبح النُسّاخ المسيحيون يكتبون كلمة "ابن " بالحرف الكبير كما لو كان المقصود بها شـــخص يسوع. حتى يسوع نفسه كان يتحدث مراراً وتكراراً عن مهمته النبوية والرسالية".

- دعك من ذلك الخائن الآن ولنعد إلى موضوعنا.

أفلتت ابتسامة ساخرة من أبراهام، فسأله الأب ديمتري مستنكراً:

- ما الذي يدعو إلى التبسم الآن أيضاً؟!

- اعذرني يا ســـيدي؛ ولكنني أجريت مقارنة بســـيطة بين رئيس أسقفية الشباب فلاديســـلاف سوخين الخائن المسيحي الذي أسلم، وبين الأمير الأخضر مصعب حسن يوسف الخائن المســـلم الذي تنصر، وبين رسالة الأول المهذبة إلى كنيسته السابقة بعد إسلامه، وكتاب الثاني الحاقد على دينه ووطنه وأهله، وبين البحث عن "الحقيقة" هدف الأول، والبحث عن "المعلومات الاســـتخباراتية والتجسس" هدف الثاني. وشتان ما بين الاثنين؛ فالأول ربح احترامه لنفسه، وربح محمداً دون أن يخسر المسيح، والثاني خسر احترامه لنفسه، وخسر محمداً ولم يربح إلا حماية الكنيسة وتمويلها وكتاباً وضع عليه اسمه مع أنه من تأليف صحفي أمريكي. ولا ننس أنه ربح قبل ذلك لقباً فخماً يدغدغ غروره ويشـــعره بأهمية فارغة، في حين ضحـــى الأول بلقب ديني موقر ومركز محترم جـــداً في بلده، وتواضع كأحد عوام المســـلمين، مجهداً عقله وفكـــره وقراءاته، لكتابة مقالات بجهد شخصي بحت في سبيل نشر الحقيقة التي آمن أنه قد توصل إليها.

صمـــت الأب ديمتري هنيهـــة يتأمل في تلك المقارنة، ولكنه لم يجد شـــيئاً ليقوله ضدها، إلا الدفاع عن كنيسته قائلاً:

- إن الكنيســـة الأرثوذكسية لا تلجأ إلى مثل تلك الأساليب الوضيعة في استقطاب الخونة ونشر الفتن، كما أنها ليســـت معنية بالتخطيط للمؤامرات، وهي من ثم بريئة تماماً مما تلمح إليه.

- أعترف أنكم أنتم بالذات لا تلجؤون إلى مثل هذه الأساليب في التبشير، بل ولا تلجؤون حتى إلى المغريات المادية لجذب مزيد من الأتباع، وأن جل نشاطاتكم هي في خدمة رعيتكم الأرثوذكسية، ولكنك ولا ريب سمعت بالميزانيات الهائلة للتبشير في الطوائف البروتستانتية والكاثوليكية، بل والمورمن وشهود يهوه وغيرهم. وأنا شخصياً أرى أن من يبحث عن الحقيقة يجب أن يجدها بنفسه، دون أن يحاول أحد ما التغرير به واصطياده. ولا بد أنك قد لاحظت من متابعة تاريخ الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية أنها كانت السبب المباشر وراء انفصال الكثير من الكنائس الأرثوذكسية، واعترافها واتحادها برومه، وتأسيسها لكنائس جديدة في الشرق.

تنهد الأب ديمتري بحسرة، وقال معترفاً:

- أوافقك في نقطتك الأخيرة بالذات. فقد أضل مقدمو الرشاوى هؤلاء أعداداً كبيرة من الأرثوذكس فعلاً.

- وأكثر بكثير مما أضلوا المسلمين أنفسهم.

صمت أبراهام قليلاً، ثم أردف غامزاً:

- ولابد أن لذلك أيضاً معنى ما. أليس كذلك؟

تنبه الأب ديمتري إلى غمز أبراهام بتعليقه المشابه في أول الحديث، فقال مؤكداً:

- ومع ذلك يظل تنصر بعض المسلمين هو سمة هذا العصر، وهذا هو المهم.

- لماذا؟!

- لأن هذا يعني أن الإسلام قد بدأ أخيراً بالانحسار.

- ولكن ما فائدة هذه المؤسسات الضخمة والأموال الهائلة التي تستخدم في العالم الإسلامي لتنصير قلة من المسلمين، ما دامت أغلبية كبيرة من المسيحيين في العالم المسيحي نفسه يبتعدون عن الكنيسة أكثر فأكثر!!!

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن المسلمين وإن ارتدت منهم قلة لا وزن لها، إلا أن الأغلبية العظمى من المسلمين تظل أكثر تمسكاً بدينها من كل الأديان، وبالذات المسيحية، بل أكثر من اليهود أنفسهم بمراحل. ويرجع ذلك، في رأيي، إلى أنهم أكثر اقتناعاً بدينهم، ولأن كتابهم لا يزال كما هو زمن نبيهم، ولم يتغير به شيء، ولو من باب أخطاء الترجمة كما رأيت بمثال القس الأرثوذكسي السابق قبل قليل. وقد تحدثت إلى إحدى الفتيات المسيحيات السابقات في روسيا وقالت لي بنفسها أن مثل تلك الأخطاء والتحريف والتناقضات بين أسفار الكتاب كانت من أهم الأسباب إلى اتجاهها إلى الإلحاد[١].

(١) يقصد ما قالته سفيتا في رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

وشهد شاهد من أهلها

امتعــض الأب ديمتري من ذِكر ما يعتبره اتهامات باطلة ابتدعها الإســلام، وكانت بالفعل سبباً لابتعاد الكثيرين عن الكنيسة، فقال مدافعاً:

- إن الكتاب المقدس هو كلام الله، وما يسميه المشككون بالتناقضات، ليس إلا آيات يكمّل بعضها بعضاً.

- هذا ما ادعته الكنيسة الكاثوليكية في "مجمع ترانت"، سنة ١٥٤٦، حيث فرضت قهــراً[١] أن "الله هو المؤلف (الوحيد) للكتاب المقدس"، مع "فرض (اللعنة) على كل من يتجرأ ويســأل عن مصداقية أي شــيء"[٢]. ولكن مع انكشاف التحريف نتيجة لتقدم العلوم والدراســات التاريخية واللغوية، تراجعت عن عبارة أن "الله هو المؤلف الوحيد"، لتقول في "مجمع الفاتيكان الأول" ســنة ١٨٦٩: "أن الله قد (ألهم) التلاميذ والرســل عن طريق الروح القدس لكتابة الكتاب المقدس"! وفي "مجمع الفاتيكان الثاني" المنتهي سنة ١٩٦٥م نوقشت الدراسات النقدية التي أطاحت بمصداقية الكتاب المقدس بشكل عام، وبالعهــد الجديد بصفة خاصة. وبعد مداولات متعددة لدراســة كيفية صياغة الإعــلان عن التراجع المطلوب، المناقض لكل ما تم فرضــه قهراً لمدة قرون، على أنه نصــوص منزّلة، تم التوصل إلى محاولة للتخفيف مــن وقعه على الأتباع عبر خمس صياغات مختلفة، واقترعوا على الصيغــة النهائية، بأغلبية ٢٣٤٤ صوتاً مؤيداً، ضد ٦ أصــوات معارضة. ويقول النص الصادر عن الفاتيــكان: "إن هذه الكتب وإن كانت تتضمن "الناقص والباطل"، فهي مع ذلك تُعد شهادات لـ"علم تربية إلهي" حقيقي"[٣].

---

(١) في الدورة الرابعة، يوم ٨ نيسان/ أبريل من سنة ١٥٤٦م.

(٢) المجامع المسكونية، الجزء الثالث، صفحة ١٣٥١، طبعة لوسير ١٩٩٤م.

(٣) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- الكاثوليك لا يعنونني في شـــيء، ثـــم إن الكتاب المقدس ليس كتاب علوم وتاريخ وجغرافيا أصـــلاً، حتى يتصيد أهـــل الاختصاص أخطاء فيه، فيحـــاول كهنة الزور إرضاءهم! بل هو كتاب إيمان أولاً وأخيراً.

- دعـــك من مناقضة الكتاب المقدس للعلوم والتاريخ والجغرافيا، ولننظر إليه على أنـــه كتاب إيمان فقـــط كما تقول. إننا حتى في هذه الحالـــة نجد أن الكتاب المقدس الحالي يناقض مخطوطاته الأقدم في كثير من الحقائق الإيمانية!!! أليس كذلك؟!

- مطلقاً. لأن الكتاب المقدس ســـلمه إلينا التلاميذ والرسل والآباء كاملاً، ولم يتغير فيه شـــيء، ولم يحرف. فهذه بدعة حاقدة، استحدثها الإسلام أولاً باتهاماته الباطلة، ثم تلقفها عنه المغرضون، وانجر وراءهم الجهلة والمخدوعون. وقد ناقشت هذا مراراً، وأســـتطيع أن أعيد مناقشـــته مع ذلك القس المخادع صاحب برنامج الأســـفار المســـتبعدة، وغيره ممن أدخلوا الشـــك في قلوب الناشئة. فكيف يمكن للمحرفـــين أن يجمعوا كل النســـخ الموجودة في العالم، ويلغوهـــا ويعودوا ويوزعوا نسخة محرفة على الناس الذين جمعت منهم نسخهم الصحيحة؟! ولا ننس اللغات واللهجات التي كتبت فيها هذه النســـخ، فكيف يمكـــن للمحرفين أن يتعلموا لغات ولهجات الكرة الأرضية كلها، فقط لكي ينسخوا المحرفة وليعودوا ويوزعوها على كل بيت وكل كنيســـة في كل مدينة وقرية في الجبال والسهول والبقاع والقبائل المتنقلة في الصحارى. كيف دخلت كذبة كهذه إلى عقول المشككين بالكتاب المقدس؟!! أهم بلا عقل حتى يصدقوا هذا الكلام؟!!!

طأطأ أبراهام رأســـه خجـــلاً، وهو يفكر كيف يمكن أن يكشـــف كذب محدثه الكبير دون أن يجرح مشـــاعره، إلا أن نظرة الانتصار التي ارتسمت على وجه الأب ديمتري مســـيئاً تفسير خجل أبراهام وطأطأة رأســـه كان لهما أكبر الأثر في حل عقدة لســـانه، فأخرج مخزون قلبه وحصيلة دراســـاته موضحاً زيف ذلك الادعاء

الماكر المتكرر بثقة، كأن الناس لا يزالون كالسابق فاقدي القدرة على التحقق من تفاصيل ما يقال لهم:

- بل أنا الذي لا أفهم كيف لا تزالون تكررون مثل هذه الحجج الخادعة وأنتم تعرفون أنه بعد إقرار كتب بعينها تم حرق الكتب الباقية! كما تعرفون أيضاً أنه حتى تلك الكتب التي اعتمدوها جرى تصحيحها أكثر من مرة! بل إن "سلسوس" أحد علماء الوثنيين في القرن الثاني كتب قائلاً: "إن المسيحيين بدلوا أناجيلهم ثلاث مرات أو أربعاً بل أزيد من ذلك، تبديلاً كأن مضامينها أيضاً بدلت". كما أن كثيراً من الآباء كـ"جوستينوس" (في منتصف القرن الثاني) مثلاً كان يمكنه الكلام بطريقة غامضة عن "مذكرات الرسل"بدون الإشارة إلى أي من هذه الكتب (أو ربما الأناجيل)، بل استشهد بعضهم مثل "كليمنت الرومي"(٩٧م) و"بوليكارب"(١١٢م) بأقوال للمسيح في صيغ مستقلة غير موجودة في أي من الأناجيل الأربعة المعتمدة حالياً. وكان كل هذا مقبولاً في الكنائس!!! والأهم هو أن أغلب الناس في ذلك الوقت، كما تعلم، ولا ريب، كانوا أصلاً أميين لا يعرفون القراءة والكتابة! وأفضل دراسة معروفة عن معرفة القراءة والكتابة خلال القرون المسيحية المبكرة (وحتى في اليونان في أثناء الفترة الكلاسيكية) هي تلك التي كتبها "د. ويليام هاريس" البروفيسور بجامعة كولومبيا. حيث تشير إلى أنه: "في أفضل الأوقات والأماكن، أثينا، على سبيل المثال، في أوج الفترة الكلاسيكية في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت معدلات القراءة والكتابة نادراً ما تتعدى نسبة ١٠ - ١٥ في المئة من السكان. وفي القرن المسيحي الأول، في مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، كانت معدلات معرفة القراءة والكتابة ربما أقل بكثير. وحتى وضع تعريف لما تعنيه القدرة على القراءة والكتابة، هو عمل شديد التعقيد؛ فكثير من الناس كان يمكنهم القراءة لكنهم، على سبيل المثال، يعجزون عن تكوين جملة كاملة، ومنهم من كان

عمله هو النســـخ، دون أن يفهم ما يكتب (أو "ينقل" أو حتى "يرسم" إن شئنا الدقة)[١]، وإذا كان هذا هو مقدار جهل الناس بالقراءة والكتابة بلغاتهم المحلية، فما بالك باللغة اللاتينية التي اعتمدتها الكنيسة للكتاب المقدس"[٢]؟!!! كما أن الكتاب المقدس لم يكن

---

(١) أحد الأمثلة التوضيحية الأكثر شهرة تأتي من مصر في القرن المسيحي الثاني. وقد جاء في تلك الدراسة أن: "أحد النساخ الحكوميين المصريين وكان يدعى "بيتاوس"، من قرية كارانيس في صعيد مصر، عُيّن للقيام بواجباته في قرية أخرى اسمها بتوليمايس هورمو، حيث أوكلت إليه مهمة الإشراف على الشؤون المالية والزراعية. وفي عام ١٨٤ ميلادية، كان من المفترض أن يقوم بالرد على شكاوى موجهة ضد ناسخ قرية أخرى من "بتوليمايس هورمو"، وهو شخص يدعى "إيشيريون"، الذي كان قد عُيِّن في مكان آخر للقيام بمسؤولياته كناسخ. سكان القرية تحت ولاية إيشيريون كانوا منزعجين بسبب عجزه عن القيام بواجباته، لأنه كان-كما اتهموه- "أمّيّاً". في تعامله مع هذا النزاع جادل بيتاوس قائلاً إن إيشيريون لم يكن أمّيّاً على الإطلاق، لأنه كان قد وقع بالفعل باسمه على مجموعة من الوثائق الرسمية! أي بمعنى آخر، "معرفة القراءة والكتابة" كانت تعني من وجهة نظر بيتاوس ببساطة القدرة على التوقيع على الوثائق باستخدام الاسم والنسخ حتى دون معرفة المعنى. بيتاوس نفسه كان يجد مشقة في التوقيع على الوثائق أكثر من ذلك بكثير. فلدينا قصاصة من البردي مارس بيتاوس عليها قدرته على الكتابة، حيث كتب عليها، لأكثر من اثنتي عشرة مرة، كلمات (باليونانية) تقول إنه كان مفروضاً عليه توقيع وثائق رسمية: "أنا بيتاوس، ناسخ القرية، قمت بتحرير هذه." الأمر الغريب أنه قام بنسخ الكلمات في المرات الأربع الأولى بطريقة صحيحة، لكنه في المرة الخامسة أغفل الحرف الأول من الكلمة الأخيرة، وفي المرات السبع الباقية استمر في إغفال الحرف، الأمر الذي يشير إلى أنه لم يكن يكتب كلمات يعرف كيف يكتبها، بل ينسخ السطر السابق ذكره ليس إلا. ومن الواضح أنه لم يكن باستطاعته حتى قراءة الكلمات البسيطة التي كان يدونها في الصفحة، مع أنه كان الناسخ المحلي الرسمي. ولو وضعنا بيتاوس بين "القادرين على القراءة والكتابة" في العصور القديمة، فكم من الناس كان بإمكانهم قراءة النصوص فعلياً وفهم معناها؟ من المستحيل أن نحاول التفكير في رقم دقيق، لكنَّ النسبة المئوية يبدو أنها لن تكون عالية جداً".

(٢) كانت النسخة اللاتينية هي النسخة الوحيدة المسموح قراءتها في كل أوربا وأغلب المناطق في العالم. وقد جاء في الصفحة /٧٥٨/ لملحق أكسفورد للكتاب المقدس Oxford Companion to the Bible ما يلي: "لقد كانت حجة "وايكليف" Wycliffe (أول من ترجم الكتاب المقدس إلى الإنكليزية) في إمكانية إصلاح الكنيسة في حال أن الجميع عرفوا شريعة الله، وهذا يتطلب ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات الناس... وفي عام /١٤١٥م/ أُدينت نسخة وايكليف للكتاب المقدس وأُحرقت... وفي سنة /١٤٢٨م/ أُخرجت جثة وايكليف من القبر ثم أُحرقت".

متوافراً أصلاً لدى العامة، بل كان حكراً على رجال الدين، في الكنائس والأديرة، الذين وحدهم من لهم الحق، بل والقدرة، على قراءته للناس وتفسيره[١]! ولما انتشرت نسخ الكتاب المقدس في القرن السادس عشر أكد آباء الكنيسة أن شرح الأناجيل وفهم ما فيها هو من اختصاص البابا الذي يُعينه في ذلك روح القدس. وقد خرج من رفضوا احتكار الكنيسة لتلك الخصوصية، وطالبوا بأن يكون حق قراءة الكتاب المقدس وفهمه لكل مؤمن. ومنذ ذلك الحين كان هناك من يعترض على ما به ويرفضه، لدرجة أن الكنيسة قد منعت أتباعها منعاً باتاً من قراءته وحدهم! واستخدمت كل جبروتها لتفرض تصحيحاتها. ومع انتشار الحداثة وتحت الضغوط، تنازلت الكنيسة في "مجمع تريدنت نوتردام" في ١٥٤٢ - ١٥٦٣م المنعقد للرد على دعوة لوثر، وسمحت بقراءة الكتاب المقدس من قبل عامة المؤمنين، ولكن بشرط رفقة قس، وأن يكون الكتاب معطى

---

(١) في المجتمعات القديمة كان الناس عموماً يحصلون على خدمات المتعلمين لمصلحة غير المتعلمين. لأن "قراءة" كتاب في العالم القديم لم تكن تعني، عادة، قراءة الإنسان كتاباً لنفسه، بل كانت تعني قراءته بصوت عال أمام الآخرين. فمن الممكن أن يقال عن الشخص إنه قرأ كتاباً عندما يكون في حقيقة الأمر قد سمعه يُقْرَأُ على لسان آخر. وينبغي أن نتذكر هنا أن بولس علَّم مستمعيه السالونيكيين أن "تُقْرَأَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ عَلَى جَمِيعِ الإِخْوَةِ الْقِدِّيسِينَ" (١ تس ٥ : ٢٧). وهذا من المحتمل أنه كان يحدث بصوت عال في الاجتماع. وكَاتبَ الرسالة إلى أهل كولوسي كتب: "وَمَتَى قُرِئَتْ عِنْدَكُمْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ فَاجْعَلُوهَا تُقْرَأُ أيضاً فِي كَنِيسَةِ اللاوُدِكِيِّينَ، وَالَّتِي مِنْ لاوُدِكِيَّةَ تَقْرَؤونَهَا أَنْتُمْ أيضاً." (كولو ٤ : ١٦). وتذكروا أيضاً تقرير جوستينوس الشهيد الذي يقول: إنه "في اليوم المسمى الأحد، كل من يعيشون في المدن أو في البلدة يجتمعون معاً في مكان واحد، وتُقرأ عليهم مذكرات الرسل وكتابات الأنبياء، بقدر ما يسمح الوقت" (١ أبولوجي ٦٧). وفي كتاب أقل شهرة يدعى رسالة كلمنت الثانية، من منتصف القرن الثاني، يشير المؤلف، في إشارة إلى كلماته الوعظية، " أقرأ إليكم طلباً أن تصغوا إلى المكتوب، لعلكم تخلِّصون أنفسكم ومن يقرأ لكم" (٢ كلمنت ١٩ . ١). خلاصة القول: كانت الكتب(التي كانت ذات أهمية قصوى في المسيحية المبكرة) تُقرأ في الغالب بصوت عال عبر هؤلاء الذين كان باستطاعتهم القراءة، لكي يستطيع الأمِّيون الاستماع إليها، وفهمها، بل دراستها. ومع أن المسيحية الأولى كانت في العموم تتشكل من المؤمنين الأميين، إلا أنها كانت ديانة أدبية إلى حد كبير.

بإذن رسمي[١]! ويبدو في قرار المجمع هروب وهلع من اكتشاف العامة لأغلاط الكتاب المقـــدس وما فيه من التناقض والأخطاء، وهو ما يؤكده بعض المحققين حين "يربطون بين الإلحاد الذي شـــاع في أوربا وبين انتشار نسخ الكتاب المقدس واطلاع العامة على ما فيه". وكما ترى يا ســـيادة الأب ديمتري، فإن أي قوة متنفذة في تلك العصور كانت تستطيع تغيير ما تريد دون كل الصعوبات التي تحدثت عنها!!! أما في عصرنا الحالي ومع انتشـــار الطباعة[٢] ومعرفة الكثيرين للقراءة والكتابة وانتشار العلم وزيادة الوعي، فـــإن ذلك قد بات أصعب بكثير، ومع ذلك فهو لا يزال موجوداً عن طريق الترجمة[٣]،

(١) قرر المجمع ما نصه: "إذا كان ظاهراً من التجربة أنه إذا كان الجميع يقرؤون في الكتب باللفظ الدارج، فالشر الناتج من ذلك أكثر من الخير، فلأجل هذا ليكن للأسقف أو القاضي في بيت التفتيش سلطان حسب تميزه بمشورة القس أو معلم الاعتراف ليأذن في قراءة الكتاب باللفظ الدارج لأولئك الذين يظنون أنهم يستفيدون، ويجب أن يكون الكتاب مستخرجاً من معلم كاثوليكي، والإذن المعطى بخط اليد، وإن كان أحد بدون الإذن يتجاسر أن يتجرأ أن يأخذ هذا الكتاب فلا يسمح له بحل خطيئته حتى يرد الكتاب إلى الحاكم".

(٢) يقول "جورج كيرد": "إن أول نص مطبوع من العهد الجديد كان الذي قدمه "أرازموس" عام ١٥١٦ م، وقبل هذا التاريخ كان يحفظ النص في مخطوطات نسختها أيدٍ مجهدة لكتبة كثيرين. ويوجد اليوم من هذه المخطوطات ٤٧٠٠ ما بين قصاصات من ورق إلى مخطوطات كاملة على رقائق من الجلد أو القماش، وإن نصوص جميع هذه المخطوطات تختلف اختلافاً كبيراً ولا يمكننا الاعتقاد أن أيّاً منها قد نجا من الخطأ. ومهما كان الناسخ حي الضمير فإنه ارتكب أخطاء، وهذه الأخطاء بقيت في كل النسخ التي نقلت من نسخته الأصلية، وإن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدي المصححين الذين لم يكن عملهم دائماً إعادة القراءة الصحيحة".

(٣) في عهد الملك جيمس عقد مؤتمر ديني عام ١٦٠٤م أسفر عن تشكيل لجنة ترجمة من البروتستانت تولت إنتاج النص الرسمي للكتاب المقدس باللغة الإنجليزية، وختم الملك تلك النسخة بخاتمه (نسخة الملك جيمس). وقد أخبر الملك في إحدى العرائض التي رفعت إليه: "إن المزامير التي هي داخلة في كتاب صلاتنا مخالفة للعبري بالزيادة والنقصان والتبديل في مئتي موضع تخميناً". وقال "بروتن" للقساوسة: "إن ترجمتكم الإنجليزية المشهورة حرفت عبارات كتب العهد العتيق في ثمان مئة وثمانية وأربعين موضعاً، وصارت سبباً لرد أناس غير محصورين كتبَ العهد الجديد ودخولهم النار". وفي عام ١٨٨١م عُدلت نسخة الملك جيمس وسميت بالنسخة القياسية المنقحة، ثم نقحت ١٩٥٢م، وسميت أيضاً "النسخة القياسية المنقحة "(r.s.v)، وكان تنقيحها على يد اثنين وثلاثين عالماً لاهوتياً تساندهم هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية، ثم أعيد تنقيحها عام ١٩٧١م، وصدرت بنفس الاسم(r.s.v)، وجاء في مقدمة هذه الطبعة: "لكن نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جداً... وإن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة، مما يستوجب التنقيح".

واحتكار كل كنيسة لنسختها الخاصة من الكتاب المقدس، وتعديلاتها وتصحيحاتها الخاصة عليها، وحذفها أو إبقائها حسب مزاجها للمقاطع غير الواردة بالمخطوطات الأقدم التي تعتمدها. بل استمرت عملية التغيير عن طريق إعادة تفسير النبوءات والرمزية والالتفاف على المعنى، كما حدث في موقف المسيحية الجديد من اليهودية وإسرائيل[١]، أو بناء على ارتفاع شأن نظرية النشوء والارتقاء، والإيمان المتنامي لكون الإنسان قد تطور عبر آلاف السنين، والتي أجبرت الكنيسة على القول أن آدم وحواء كانا رمزين على بدء البشرية وليسا أول البشر فعلاً!!! وبعد كل هذا تقول بثقة أن الكتاب المقدس سلمه إلينا التلاميذ والرسل والآباء كاملاً، ولم يقدر أحد على تحريفه؟!!!

- غريب أنك يهودي وتقول ذلك، فهو ينطبق على توراتك المقدسة أيضاً.

- أنا لا أتحدث كيهودي، بل كباحث عن الحقيقة، يسعى إلى التحرر من الأوهام كافة، وأخضع التوراة للنقد نفسه الذي أخضع له الأناجيل. وأنا أعترف بأن الاكتشافات العلمية والأثرية أثبتت بطلان كثير من الأوهام التي كنا نعتبرها حقائق مؤكدة بسبب وجودها في التوراة الحالية. فبعد أن تمكن علماء اللغة من حل طلاسم اللغة المسمارية لوادي النهرين في القرن التاسع عشر، وفكوا شيفرة ألواح بابل وآشور وأوغاريت، وما سبقها من نقوش مصرية، ظهر لديهم بما لا يدع مجالاً للشك أن كثيراً من قصص الكتاب المقدس وترنيماته وأناشيده، هي في الحقيقة مجرد نقل حرفي لميثولوجيات الشرق القديم التي سبقت عصور التوراة بآلاف السنين، ولكن مع تغير أسماء أبطالها وأماكن حدوثها والظروف السياسية والاجتماعية لتلك الأماكن. ومما أكد ذلك أكثر أن التنقيب الأركيولوجي، وبعد قرن من نبش أرض إسرائيل، أثبت وجود أخطاء شنيعة في تسميات المدن والمناطق وعدم تطابق ذلك مع

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

أزمنة الكتاب المقدس، ولا مع الأحداث السياسية والاجتماعية التي مرت بها أرض إسرائيل آنذاك، مما يؤكد أن التوراة قد خضعت على مدى آلاف السنين إلى كثير من التعديل والتقديم والتأخير، والمزج بين بعض الأحداث، والاقتباس من مصادر دنيوية ودمجها مع نصوص توراتية[١].

- هل أفهم من هذا أنك لم تعد تؤمن بأن توراتك هي كلمة الله؟!!!

- بل أنا واثق تماماً أن الكتاب المقدس ككل (بعهديه القديم والجديد) هو كتاب الله، ولذلك بالذات فأنا واثق أن الله ليس هو مرتكب تلك الأخطاء الشنيعة التي توجد فيه حالياً، ومن ثم فهناك قطعاً من حرف كلامه. وحين أضاف المحرفون ما اقتبسوه عن الميثولوجيات الوثنية القديمة، وحشوها في الكتاب المقدس على أنها كلام الله، ليحققوا من ورائها أهدافاً معينة، وضعوا معها تفسيرات الحضارات الوثنية لظواهر الكون. وبعد أن تكشف كل هذا للعالم، لم تستطع حتى الكنيسة الكاثوليكية نفسها الاستمرار بالمكابرة، فتنازلت كما رأينا من إقرار لا يقبل الجدل بأن الله هو المؤلف الوحيد لكل كلمة في الكتاب المقدس، إلى أنه ألهم أناساً عن طريق الروح القدس بالمعلومات الرئيسية، ثم تركهم يكتبونها بأسلوبهم البشري وفق ثقافات معاصريهم وأخطائهم الشائعة!!! وأخيراً، ومع اكتشاف مزيد من الأخطاء العقائدية التي لا تدخل حتى ضمن التبرير السابق بكل فضفاضيته، حيث ليس لها علاقة بالأسلوب ولا بمدى علم وثقافة أهل عصور الكتبة الموحى إليهم، اضطرت الكنيسة إلى الاكتفاء بوصف الكتاب المقدس بأنه مجرد "منهج تربوي إلهي حقيقي"!!! وهذا ليس بسبب المسلمين كما ترى. كما أنه لا المسلمون ولا علماء العصر الحديث كانوا أول من تحدث عن تحريف الكتاب المقدس. فبالإضافة إلى الأريوسيين مثلاً، كانت هناك طوائف أخرى تشكك في الأسفار التي تم اعتمادها

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

دون غيرهـــا ويتهمونها بالتحريف، بل بالتزييف التـــام أحياناً، ومنهم طائفة "ماني كيز" في المســـيحية الأولى؟! فقد نقل "لاردنر" في تفســـيره عن "أكستاين" ما يلي: قال "فاستس"[١]: "أنا أنكر الأشياء التي ألحقها في العهد الجديد آباؤكم وأجدادكم بالمكـــر، وعيبوا صورته الحســـنة وأفضليته. لأن هذا الأمـــر محقق؛ إن هذا العهد الجديد لم يصنفه المســـيح ولا التلاميذ، بل صنفه رجل مجهول الاسم، ونسبه إلى التلاميذ ورفقـــاء التلاميذ خوفاً من ألا يعتبر الناس تحريره، ظانين أنه غير واقف على الحالات التي كتبها، وآذى المريدين ليسوع إيذاء بليغاً بأن ألف الكتب التي يوجد فيها الأغلاط والتناقضات".

- هؤلاء مهرطقون، ولن أضيع مزيداً من الوقت في الحديث عنهم ثانية، ويكفيك أن تعلـــم أن مصير الكتب المزيفة التي فضلها أولئك المهرطقون كان الزوال، في حين ظلت الأســـفار المعتمدة وحدهـــا الباقية؛ لأنها هي كلمة اللـــه الحقيقية والوحيدة. وهناك نســـخ قديمة للكتاب المقدس كلها تتطابق مع النسخة الموجودة في أيدينا[٢]، وأقدمها يرجع إلى أكثر من ١٦٠٠ عام، وهي لا تختلف بشـــيء عن النسخة التي بين

---

(١) من أكبر علماء هذه الطائفة، وقد عاش في القرن الرابع الميلادي، أي قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون.

(٢) أشهرها وأجلها لدى أغلب المسيحيين هو "المجلد الفاتيكاني" (سمي كذلك لأنه محفوظ في مكتبة الفاتيكان) ويقال إنه يعود إلى القرن الرابع الميلادي. ولكن هذا الكتاب مجهول المصدر، ومصاب بأضرار جسيمة. كما أنه لا يحتوي على أسفار مهمة من العهد الجديد الذي بأيدينا اليوم مثل: الرسالة إلى العبرانيين٩: ١٤ - ١٣: ٢٥، والرسالتان الأولى والثانية إلى تيموتاوس، والرسالة إلى طيطس، والرسالة إلى فليمون، والرؤيا. . . . ولا على بعض المقاطع المهمة مثل أمر المسيح بتبشير الأمم. وقد قال الأبوان المحققان للطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد "الترجمة الكاثوليكية للرهبنة اليسوعية" في المدخل: "إن نُسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست كلها واحدة، بل يمكن للمرء أن يرى فيها فوارق مختلفة الأهمية، ولكن عددها كثير جداً. . هناك طائفة من الفوارق لا تتناول سوى بعض قواعد الصرف والنحو والألفاظ أو ترتيب الكلام، ولكن هناك فوارق أخرى بين الكتب المخطوطة تتناول معنى فقرات برمّتها".

أيدينا، ما رأيك بذلك[١]؟

هز أبراهام رأسه بيأس من استمرار محدثه بالاستهانة بذكائه وسعة معلوماته، فها هو ذا يعود لتكرار حججه الواهية بطريقة أخرى، على مبدأ تكرار المقولة نفسها بإصرار حتى تصبح حقيقة مسلماً بها[٢]، وقال موضحاً:

- أولاً: من بين كل هذه المخطوطات اليدوية لا توجد مخطوطة واحدة تتفق مع الأخرى تماماً، ويقول القس "شورر" عن هذا: "إن هذه المخطوطات تحتوي على أكثر

---

(١) إن النسخ التي اعتمدتها الكنيسة فيها كثير من الزيادات التي لم توجد في تلك المخطوطة ولا ببقية المخطوطات القديمة المكتشفة مؤخراً. لذلك قامت حملة لتنقية الكتاب المقدس من كثير من هذه الآيات الدخيلة. فمثلاً أزالت NKJV نسخة الملك جيمس المنقحة (المعدلة) ٢٢٨٩ كلمة. والنسخة العالمية NIV أزالت ٥٢١٩ كلمة و١٦ عدداً كاملاً. والأمريكية الحديثة NASV أزالت ٣٥٦١ كلمة و١٧ عدداً. والقياسية المعدلة الحديثة NRSV أزالت ٣٨٩٠ كلمة و١٨ عدداً. والقياسية المعدلة RSV أزالت ٦٩٨٥ كلمة و٢٥ عدداً. وترجمة القرن الحديثة NCV أزالت ١١١١٤ كلمة و١٦ عدداً كاملاً. ونسخة إنجيل الحياة LIV أزالت ١٧٠٠٣ كلمات و٧ أعداد كاملة. هذا فقط من جهة المقارنة بالمخطوطات الأقدم، ولا يدخل فيه التغير من جهة الترجمة التأويلية أو التصحيح أو التنقيح بناء على العلوم الحالية وغيرها من طرائق التغير التي تتفنن بها كل كنيسة على حدة. وإذا كان الحال كذلك في عصرنا هذا مع انتشار العلم والقراءة والطباعة والإعلام وتوافر المعلومات ووجود نسخة من الكتاب المقدس في كل بيت مسيحي، فما مقدار التغيرات الموحدة التي فرضت في العصور التي كانت معرفة القراءة والكتابة بين العامة نادرة، ونسخ الكتاب المقدس مخطوطة باليد وقليلة العدد وبلغات لا يفهمها أغلبية المسيحيين ويقتصر شرحها وتفسيرها على رجال الدين فحسب؟!

(٢) جاء في كتاب "حقيقة الكتاب المقدس" للدكتور "روبرت كتسلر" أن القس "شورر" يؤكد: "أن الأغلبية العظمى من اللاهوتيين والقساوسة يخاطبون رعيتهم عن الكتاب المقدس بطريقة تدعو إلى القول بأنه لم يوجد مؤرخون قط من ذوي العلم"، وأن الدكتورة "مارجا بوريج" مديرة مركز اجتماعات بولدرن لكنيسة البلدية الإنجيلية أعلنت في إحدى محاضراتها التي ألقتها في اللقاء المنعقد في شهر أيار/ مايو ١٩٧٢: "إنه لذنب كبير يقترفه اللاهوتيون تجاه أمتهم بكتمهم هذه المعلومات عن أمتهم مدة طويلة، إلا أن هذا لم يك شيئاً جديداً". وهناك الكثير من الاعترافات والانتقادات الأخرى على ما أسموه "التعتيم الدائم للحقائق الواضحة وطمسها"، يمكن مراجعتها في الكتاب المذكور.

مـــن ٥٠٠٠٠ اختلاف مع النســـخ الحالية[١]. ثانياً وهو الأهـــم: لقد اطلعت على هذه النسخة التي تتحدث عنها، ألا تقصد النســـخة المعروفة باسم "المخطوطة السينائية" (كودكس سيناي)، المكتوبة على نوع من الأوراق النباتية، والتي اكتشفت في عام ١٨٤٤، وتقاسمتها أربع دول هي بريطانيا وروسيا وألمانيا ومصر؟

- هي بعينها.

- ولكن الأمر ليس كما تقول تماماً يا أبانا.

- كيف ذلك؟

- كما أشرت بنفسك، فإن تاريخ تلك المخطوطة يعود إلى القرن الرابع بعد السيد المسيح، أي زمن مجمع نيقية وما بعده، مما يعني أنه حتى لو لم يكن بينها وبين النسخة الحالية من الأناجيل أي اختلاف، لما كان يجب أن تعتبر ذلك نصراً لرأيك، ولاســـيما أنه قد عثر عليها في أحد الأديرة المصرية في سيناء، أي معقل أثناسيوس نفسه وفي مجال سلطته، ومن ثم فمن الطبيعي أن توافق الكتب المعتمدة حالياً. ولكن، ومع ذلك، فإن الاختلاف بينها وبينهم ليس بالبسيط بتاتاً، إذ إنها تحتوي على سفرين كاملين غير واردين في نصوص العهد الجديد، وهما رسالة برنابا ورسالة راعي هرمس.

- هذا طبيعي؛ فتلك من كتب الأبوكريفا.

- هـــذا ما تقوله الكنيســـة الآن، ولكن في زمن كتابة المخطوطة الســـينائية كانت تعتبرهما مقدســـين؛ أي من كلام الله! وهذا منطقي، فـــإذا كانوا قد اعتبروا كتابات بولس ولوقا مقدســـة مع أنهما لم يريا المسيح، فلماذا لا يعتبرون كتابات برنابا كذلك، وهو الذي سبقهما بالإيمان وبصحبة المسيح؟!!! كما أن النسخة السينائية تختلف عن

---

(١) أحصى البعض ١٥٠٠٠٠ اختلاف. ويحددهم "يولشر" بناء على المخطوطات المختلفة من ٥٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠، ويقول "شميث" إنه: "لا توجد صفحة واحدة من صفحات الأناجيل المختلفة لا يحتوي "نصها الأصلي" (النسخة المعتمدة الأقدم) على العديد من الاختلافات".

نســـخ العهد الجديد المعروفة حالياً بأنها تأتي في ترتيب مختلف، بل تتضمن العديد من التصويبات المضافة إلى المتن. فقد أكد د."فون تشـــيندروف" الذي عثر عليها: أنها تحتوي "على الأقل" على ١٦٠٠٠ تصحيح، وترجع على الأقل إلى ســـبعة مصححين أو معالجين للنص، بل وجد أن بعض المواقع قد تم كشطها ثلاث مرات وكتب عليها للمرة الرابعة[١]!!! وعلى خطا العلماء المســـيحيين المحافظين من قبله، قام تشيندورف نفسه بإحداث ١٢٠٠٠ "تصحيحاً" على هذه المخطوطة المؤلفة من ١١٠٠٠٠ ســـطراً قبل أن يقوم بـ"نســـخها"[٢]، ومع أنه من أشرس المدافعين المسيحيين، إلا أنه اضطر أخيراً إلى الاعتـــراف: "إن كتاب العهد الجديد، وفي العديد من فقراته، قد خضع لعدّة تغييرات خطيرة في المعنى، وهذا يتركنا في شكّ مؤلم حول حقيقة ما كتبه الرسل"[٣]. وبالمناسبة فقد عرضوا النسخة على الإنترنت ليتمكن الجميع من دراستها ومناقشتها[٤].

تنحنـــح الأب ديمتري، ثـــم تناول كأس النبيذ خاصته وشـــربه جرعة واحدة، لكن أبراهام لم يصمت، فهو لم يعد يقبل بأن تمرر عليه أخبار، وإن كانت لها أصل، ليست بالضبـــط كما يصورونها له، ففيها من التفاصيل التـــي يعتبرونها تافهة وغير جديرة بالاهتمام، ما ينسف كل الذي يتشـــدقون به من أساسه. لذا تجاهل الإحراج المرتسم على وجه الأب ديمتري وتابع حديثه بقوة وثقة، كأنه ينتقم للاســـتهانة بذكائه وثقافته إلى ذلك الحد:

- كمـــا أن هناك نصوصـــاً ومقاطع كاملة لم ترد في تلك النســـخة، بما في ذلك النصوص التي تتناول "قيام المســـيح". ويقول "خوان غريسز" -القيم على المشروع في

(١) كتاب " Synopse " لهوك ليتسمان " Huck-Lutzmann " ، صفحة ١١، طبعة عام ١٩٥٠م.

(٢) كتاب "أسرار طور سيناء" ، جيمس بينتلي، ص ٩٥

"secrets of Mount Sinai", James Bentley, Doubleday, NY, 1986, p. 95.

(٣) الكتاب السابق، ص ١١٧ .

(٤) أحصى "توني باشبي" في كتابه " تحريف الكتاب المقدس" الاختلافات بين النسخة السينائية والنسخة الحالية فوجدها ١٤٨٠٠ اختلاف.

المكتبة البريطانية-: إنه"ينبغي ألا يكون ذلك مفاجأة، إذ إن النصوص القديمة ليست مماثلة تماماً لتلك الحديثة، لأن الكتاب المقدس 'تطور' وتغير على مر السنين"!!! وأضاف في حديث لشبكة CNN: "إن الإنجيل نص تاريخ ملهم، ولكن هناك بالتأكيد مسائل دينية مرتبطة بالتغييرات"!!!

- هذا صحيح، كما يجب ألا ننسى أن مقابل نقاط الاختلاف تلك، فإن معظم ما تبقى يتشابه حرفياً بين تلك النسخة والنسخ التي بين أيدينا.

- حتى لو سلمت معك بأن الجزء الأعظم يتشابه حرفياً بين تلك النسخة والنسخ التي بين أيدينا، فهذا بحد ذاته اعتراف بأن الباقي، وإن قل، هو تحريف؛ إما في النسخة السينائية، أو في النسخة الحالية، أو في كليهما.

- لا يوجد تحريف لا بهذه ولا بتلك، بل الأمر مجرد اختلافات بين نسخة عصرية والنسخة الأصل، وهذا طبيعي بعد كل هذه المدة.

- إن النسخة السينائية، وإن كانت أقدم نسخة معروفة من الكتاب المقدس فعلاً، هي بالتأكيد ليست النسخة الأصل ولا حتى قريبة من ذلك. فلا تنس أنها ليست باللغة الأصلية التي كتبت بها الأناجيل (الآرامية السريانية)[1]، لا توجد أية معلومات عن هوية من قام بترجمتها ونسخها، ولا عن الكنائس التي اعتمدتها أو رفضتها، ولا توجد أي طريقة علمية لإثبات أن هذه النسخة (التي ترجع إلى القرن الرابع) أو غيرها (مما اكتشف إلى الآن) كانت موجودة أصلاً في القرون الثلاثة الأولى بعد المسيح.

- صحيح أنه لا يوجد لدينا مخطوطات من تلك القرون، ولكنني أؤكد لك أنها لم تكن لتختلف كثيراً عن مخطوطات القرون المتأخرة. فمخطوطات الكتاب المقدس قد نالت من الاهتمام والعناية ما لم تنله أي كتابات أخرى حتى عندما سنحت الفرصة

---

(١) المسيحيون الأولون كانوا جميعهم سوريين فأطلق عليهم الوثنيون اسم "سريان" وهو تحريف من "سوريين" دلالة على دينهم، وهكذا أصبح يطلق اسم سرياني على كل آرامي متنصر وبقي اسم آرامي ليدل على الوثنيين.

للحفاظ على النص الأصلي الصحيح بوسائل الطباعة بدلاً من استخدام وسائل النسخ اليدوي. وفي بحث نشرته مجلة "نورث أمريكان رفيو" كتب أحد الباحثين بعد أن أورد بعض المقارنات المثيرة للاهتمام بين كتابات الشاعر "شكسبير" والكتاب المقدس: "من الغريب أن نصوص شكسبير التي بقيت لفترة تقل عن مئتين وثمانية أعوام لا تحظى بالثقة والصحة التي يحظى بها العهد الجديد، الذي له الآن أكثر من ثمانية عشر قرناً من الزمان، منها خمسة عشر قرناً على الأقل كان خلالها عبارة عن مخطوطات. وباستثناء عشر آيات أو عشرين آية فقط يمكن القول بأن كلمات كل آية من آيات العهد الجديد صحيحة تماماً باتفاق العلماء، حتى إن أي خلاف ينشأ فيما يختص بقراءتها يرجع إلى تفسير معاني الكلمات، وليس إلى الكلمات نفسها. ولكن في كل عمل من أعمال شكسبير السبعة والثلاثين هناك مئات القراءات المختلف عليها بين الدارسين، وأكثرها يؤثر جوهرياً في معنى الفقرات التي توجد بها". وكما ترى فإن الفروق بين الكتاب المقدس الذي بين أيدينا، وبين المخطوطات القديمة، هي فروق طفيفة لا تمس جوهر الإيمان في شيء ولا في ممارسات الحياة المسيحية والعبادة[1].

---

(١) جاء هذا حرفياً في:

http://www.exmuslim.com/books/files/verdict/book/1.html

دار الثقافة - برهان جديد يتطلب قراراً- الجزء الأول: البرهان على صحة الكتاب المقدس - الكتاب المقدس كتاب فريد. وهو يقول ذلك لأنه معتاد على مثل هذه "الفروق الطفيفة" حتى بالنسبة إلى الأناجيل المعتمدة حالياً، كما مر وسيمر معنا. وكذلك بين أسفار الترجمة نفسها بعضها مع بعض. مثل ما جاء في مرقس(٩ : ٢): "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد إلى جبل عال منفردين"، مع أن لوقا كتب في(٩ : ٢٨): "وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ يسوع بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى الجبل". وتوجد مثل هذه التناقضات في الإنجيل نفسه أيضاً. مثل ما جاء في يوحنا في(٨ : ١٤) أن المسيح قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق"، مع أنه قد كتب في(٥ : ٣١) أن المسيح قال: "إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير حق"!!! ولكن الفروق التي بين الأناجيل المعتمدة والمخطوطات القديمة أكبر من ذلك بكثير، كما سيمر معنا.

كان أبراهام حتى تلك اللحظة يحاول النظر إلى الكأس بنصفيها (الفارغ والملآن)، لكن رد الأب ديمتري الأخير أجبره على تحطيم تلك الكأس برمتها، ورد قائلاً:

- أنـــت بهذه المقارنة تحط مـــن قدر الكتاب المقدس وتجعلـــه في مصاف الكتب البشـــرية الأدبية!!! ثم كيف تعتبر عدم وجود نصوص عقائدية رئيسية كنص "التثليث" ١يو ٥: ٧، وخاتمة إنجيل مرقس ١٦: ٩-٢٠ التي تحدثت عن "صعود الرب"، هي مجرد "فروق طفيفة لا تمس جوهر الإيمان في شـــيء ولا في ممارســـات الحياة المســـيحية والعبادة"[١]؟!!!! أليست هذه النصوص بالذات هي أساس الإيمان المسيحي الحالي؟!!! كيف تعتبر أن الاختلاف بين النسخة الموجودة بين يديك والمخطوطة الأقدم من الكتاب المقدس هو مجرد اختلاف بين نســـخة عصرية والنســـخة الأصل مع غياب نصوص عقائدية مهمة (في النســـخة الأصل) بلغت العشـــرين على أقل تقدير، هذا غير آلاف الاختلافات الصغيرة، ووجود أســـفار كاملة قد حذفت في النسخة الحالية؟! أما زلت مصراً أن كل هذا هو مجرد فروق طفيفة؟!!!

فقال الأب ديمتري منتقلاً من الدفاع إلى الهجوم، للتهرب من الإجابة عن استنكارات أبراهام، ومحاولة تشتيت انتباهه وتشكيكه:

- إذا كانت كل تلك الفروق الكبيرة موجودة! فأين ما زعمت إذن من أن التشابه بين المخطوطـــة والأناجيل الحالية لا يجب أن يعد نصراً، لأنها بعد مجمع نيقية ومن زمن ومكان نفوذ أثناســـيوس؟!!! وأين ما زعمت من أن عامة الناس كانوا جاهلين بالقراءة والكتابة وأن الكتاب المقدس كان حكراً على الكنيســـة تغيره كيفما شـــاءت؟!!! ألا ترى أنك تناقض نفسك؟

---

(١) يقول الدكتور "فريديريك كينيون" في كتابه "كتابنا المقدس والمخطوطات القديمة": "إلى جانب العدد الهائل من التناقضات، فإننا لا نكاد نجد آية واحدة تتشابه في مخطوطتيْن مختلفتيْ المصدر. لا يستطيع أي شخص إن يقول أن هذه الزيادات أو الحذف أو التغييرات مسألة ثانوية غير ذات أهمية".

Dr. Frederic Kenyon, "Our Bible And The Ancient Manuscripts", Eyre and Spottiswoode, p. 3.

- مطلقاً. فأنت تتجاهل أن النسخة السينائية كانت مدفونة إلى أن اكتشفت في أواسط القرن التاسع عشر، ومن ثم فلم تخضع للتغييرات النهائية، ووقف التغيير فيها في اليوم الذي حفظت فيه. كما أنك لا تستطيع أن تنكر المرات العديدة التي صححت بها الأناجيل بأوامر من الباباوات، وأحياناً بأوامر من الأباطرة أنفسهم، مثل "أناستيثوس" الذي حكم ما بين سنتي ٤٩١ - ٥١٨م[١].

- هذا ليس دقيقاً، فذلك تنقيح وليس تصحيحاً بمعنى الكلمة.

- وهل كلام الله الذي سلمه إلينا التلاميذ والرسل كاملاً كما تقول، يحتاج إلى تنقيح؟!!! حسناً، فلنقرأ شهادة أشهر "المنقحين" على الإطلاق؛ القديس جيروم، لنعرف ماهية عملية "التنقيح".

ثم أخرج بضعة أوراق وبدأ يقرأ:

المجلد الأول من أعمال الراهب جيروم

بداية المقدمة

حول مراجعة نصوص الأناجيل الأربعة

إلى قداسة البابا داماز، من جيروم

تحثني على أن أقوم بتحويل عمل قديم لأخرج منه بعمل جديد (لاحظ أن أسلوبه لا يدل على أنه يعتبر الكتاب المقدس كلام الله ووحياً منه) وتريد مني أن أكون حكماً على نُسخ كل تلك النصوص الإنجيلية المتناثرة في العالم، وأن أختار منها وأقرر (هو وليس الروح القدس) ما هي تلك التي حادت أو تلك التي هي أقرب حقاً من النص اليوناني (وليس من النص الأصل) أنها مهمة ورعة، لكنها مغامرة خطرة إذ سيتعيّن عليّ تغيير أسلوب العالم القديم وأعيده إلى الطفولة. وأن أقوم بالحكم على الآخرين يعني في نفس الوقت أنهم سيحكمون فيه على عملي.

---

(١) قال "لاردنر" في تفسيره: "حكم على الأناجيل المقدسة لأجل جهالة مصنفيها بأنها ليست حسنة بأمر الإمبراطور أناستيثوس، فصححت مرة أخرى".

فمن مـــن العلماء أو حتى من الجهلاء، حينما سيمســـك بكتابي بين يديه ويلحظ التغيير الذي وقع فيه، بالنسبة إلى النص الذي اعتاد قراءته، لن يصيح بالشتائم ضدي ويتهمني بأنني مزور ومدنس للمقدســـات، لأنني تجرأت وأضفت، وغيّرت، وصححت فـــي هذه الكتب القديمة؟(!!!) وحيال مثل هذه الفضيحة، هناك شـــيئان يخففان من روعـــي، الأمر الأول: أنك أنت الـــذي أمرتني بذلك؛ والأمر الثاني: أن ما هو ضلال لا يمكن أن يكون حقاً (أي أن ما تجرأ على تصحيحه في الأناجيل المعتمدة "كلام الله" كان ضلالاً في نظره). وإذا كان علينا أن نضفي بعض المصداقية على مخطوطات الترجمة اللاتينيـــة، ليقل لنا أعداؤنا أيها أصوب؟ لأن هناك من الأناجيل بعدد الاختلافات بين نصوصها (أي أن الترجمات اللاتينية الســـائدة بهـــا أخطاء واختلاف بين نصوصها) ولماذا لا يروقهم أن أقوم بالتصويب اعتمـــاداً على المصادر اليونانية لتصويب الأجزاء التي أســـاء فهمها المترجمون الجهلاء، أو بدلوها بســـوء نيـــة (!) أو حتى قام بعض الأدعياء بتعديلها؟

وإذا كان علينا دمج المخطوطات، فما يمنع أن نرجع ببساطة إلى الأصول اليونانية؟ ونبعد بذلك عن أخطاء الترجمات الســـيئة أو التعديلات غير الموفقة من جانب الذين تصـــوروا أنهم علماء، أو الإضافات التي أدخلها الكتبة النُّعَّس؟ إنني لا أتحدث هنا عن العهد القديم والترجمة السبعينية باللغة اليونانية التي لم تصلنا إلا بعد ثلاث ترجمات متتاليـــة من العبرية إلـــى اليونانية ثم إلى اللاتينيـــة. ولا أود أن أبحث هنا ما الذي سيقوله أكويلا أو سيماك، أو لماذا آثر تيودوسيان اختيار موقف الوسط بين المترجمين القدامى والحداث، لذلك ســـأعتمد على الترجمة التي يمكن (!!!) أن يكون قد عرفها الحواريون.

وأتحدث الآن عن العهد الجديد، المكتوب بلا شك باللغة اليونانية (ما هو مصدره في هذه المعلومة الخاطئة تماماً، فلا يعقل أن المســـيح أو الصيادين من حوارييه اليهود قد

كتبوا باليونانية كما ثبت حالياً) فيما عدا إنجيل متّى (بحسب الأناجيل كان متى عشاراً يعمل للحكومة، ومن ثـم ربما كان هو الوحيد من بين الحواريين الذي قد يجيد الكتابة باليونانيـة، زد على ذلك أن اثنين مـن الباقين (بطرس ويوحنا)، قيل عنهما بوضوح في سفر الأعمال (٤ : ١٣) أنهما كانا "أمِّيين") الذي كان قد استعان أولاً بالعبرية لنشره في منطقـة اليهودية. إن هذا الإنجيل يختلف يقيناً عن الذي بِلُغَتِنا، نظراً إلى تعدد المصادر التي اسـتعانوا بها لتكوينه. وقد آثرت أن أرجع إلى نص أساسـي، فلا أود الاسـتعانة بترجمات المدعوين لوشـيانوس أو هزيكيوس التي يدافع عنها البعض بضراوة عن غير وجـه حق، واللذين لم يكن من حقهما مراجعة العهد القديم بعد ترجمة السـبعين، ولا أن يقوما بمراجعة النصوص الجديدة. فالنصوص الإنجيلية التي وصلتنا بلغات شـعوب مختلفة توضح مدى الأخطاء التي بها(!) وإذا كنت قد قمت بذلك بالنسـبة إلى النسخ المكتوبة بلغتنا فلا بد أن أعترف بأنني لم أستفد منها شيئاً.

وهذه المقدمة المتواضعة تقترح أن يكون ترتيب الأناجيل الاسمي على النحو التالي :متّـى، مرقس، لوقا، ويوحنا. وقد تمت مراجعتها من عدة مخطوطات يونانية قديمة، وهـي لا تبعد كثيراً عن فحوى النسـخ اللاتينية، فلم أقـم إلا بتصويب الأجزاء التي بـدت بعيدة عن المعنى الحقيقي (!) وتركت الأجزاء الأخرى كما وصلتنا في صياغتها البدائيـة، ووضعت حرف (b). أما الترجمات التي قام بها يوسـبيوس من القيصرية، المقسمة إلى عشرة أجزاء، وفقاً لأمونيوس السكندري، فقد ترجمتها إلى لغتنا التزاماً بالمعنى اليوناني فحسـب. وإن كان هناك أي فضولي يـود معرفة الأجزاء المتماثلة أو المتفردة أو التي تختلف تماماً عن تقسيمة العشرة يمكنه معرفة ذلك؛ لأن الأخطاء قد تراكمت مع الوقت في كتبنا (!) وهو ما يجعل إنجيلاً ما يتفاوت عن الآخر، وأشـرت إليه بحرف (c).

لقد وقعت أخطاء عند محاولة التوفيق بينها، لذلك ترى خلطاً شديداً في الترجمات اللاتينيـة. فأحد الكتبة قد قال أكثر، وفي الآخـر قد أضافوا إذا تصوروا أنه أقل (كذا

!!!)، وأن مرقس في أجزاء كثيرة ينقل عن لوقا ومتّى، وأن متّى ينقل عن يوحنا ومرقس، مع أنه كان كل إنجيل يحتفظ بما يخصه فحسب؛ فكل واحد منهم قد نقل عن الإنجيل الذي وقع في يده. لذلك عند قراءة الكشف الذي أقترحه لن يكون هناك أي خلط، وسيتم تعرف المتشابه بينها وعلى ما يخص كلاً منها بعد أن استبعدت (!!!) الخلط والأخطاء.

ففي الكشف الأول يوجد توافق بين الأناجيل الأربعة متّى ومرقس ولوقا ويوحنا، وفي الثاني لا يوجد توافق إلا بين متّى ومرقس ولوقا، وفي الثالث بين متّى ولوقا ويوحنا، وفي الرابع بين متّى ومرقس ويوحنا، وفي الخامس بين متّى ولوقا، وفي السادس بين متّى ومرقس، وفي السابع بين متّى ويوحنا، وفي الثامن بين لوقا ومرقس، وفي التاسع بين لوقا ويوحنا، وفي العاشر ستجد كل ما هو خاص بكل إنجيل ولا يوجد في الأناجيل الأخرى. وفي كل إنجيل على حدة هناك أجزاء متفاوتة الطول كلما ابتعدنا عن التوافق.

الرقم سيكون باللون الأسود، وسيتضمن رقماً آخر تحته بالأحمر، لكي يدل في أي إنجيل يوجد ذلك الجزء المعني. فعند فتح الكتاب ومحاولة معرفة أي فصل ينتمي إلى هذه الترجمة أو تلك فإن ذلك سيتضح فوراً من الرقم الذي أضفته من أسفل. وعند الرجوع إلى بداية الطبعة التي توجد فيها القوائم معاً وبفضل اسم الترجمة المحدد في بداية كل إنجيل، يتم العثور على رقم كاتبه مع العناوين المختلفة لكل منهم. وبجوار هذا الأخير أسماء الفقرات المماثلة، وهكذا يمكن الاطلاع على الأرقام الموجودة في نفس الفصل. وما إن تتم معاينة هذه المعلومات، حتى يمكن التوصل إلى كل واحد. فمع مراعاة الأرقام التي تم تحديدها، يمكن معرفة الأجزاء المتشابهة أو المتماثلة.

أرجو أن تكون بخير في المسيح وألا تنساني يا قداسة البابا.

بين الرهبنة وتعدد الزوجات

كان الأب ديمتري يستمع إلى مقدمة جيروم بغضاضة، وبالذات بالنسبة إلى تعليقات أبراهام على بعض فقراتها بين الفينة والأخرى. لذا فما إن انتهت حتى قال بلامبالاة:

- إنهـــا في النهاية مجرد ترجمة، وهذه الترجمـــة اللاتينية المعروفة بـ"الفولجاتا" (vulgate) منتشرة فقط عند أتباع الكنيسة الكاثوليكية، ومن ثم فلا تعنيني في شيء، لا هي ولا صاحبها ولا مقدمته البائسة[1].

- ربما تكون هذه الإجابة كافية للكثيرين من الأرثوذكس الورعين أيضاً، ولكنه ليس كذلك للباقين منهم. خاصة أولئك الذين يتســـاءلون عن معنى الآية التي تقول: "تزول الجبـــال ولا يزول حرف واحد من الكتاب" (متـــى ٥: ١٧ - ١٨) فمثل هذه التغييرات موجودة في كل الترجمات، وقد تراكمت بشـــكل خطير. فالمـــؤرخ الإنجليزي "توماس كارلايل" (المتوفى سنة ١٨٨١م) يقول بحق الترجمة الإنجليزية مثلاً، والتي تعتبر اليوم هي الأصل لكل الترجمات الحديثة: "المترجمون الإنكليز أفسدوا المطلب، وأخفوا الحق، وخدعوا الجهال، ومطلب الإنجيل الذي كان مستقيماً، جعلوه معوجاً، وعندهم الظلمة أحب من النور، والكذب أحق من الصدق". وخاطب "بروتن " كبيرُ المسؤولين في مجلس الترجمة الجديدة في بريطانيا القساوســـةَ قائلاً: "إن الترجمة الســـائدة في إنكلترا مملوءة بالأغلاط، وإنّ ترجمتكم الإنجليزية المشهورة حرفت عبارات العهد القديم في (٨٤٨) ثمـــان مئة وثمانية وأربعين موضعاً، وصارت ســـبباً لرد كتب العهد الجديد من

---

(١) يقول اللاهوتي البريطاني الأنجليكاني "توماس هارتول هورن" في تفسيره للكتاب المقدس، ص٤٦٧: "ولا بد ألا يغيب عن ذهنك أبداً أن ترجمة من التراجم لم تحرف مثل اللاتينية الشعبية ... نسخوها دون أي مبالاة فأدخلوا فقرات بعض كتاب من العهد الجديد في كتاب آخر، وكذا أدخلوا فقرات بعض كتاب من العهد الجديد في كتاب آخر، وكذلك أدخلوا تعليقات الهوامش والحواشي في المتن".

قبل أناس غير محصورين". وأنا شـــخصياً أتفق معه تماماً في ذلك، وأخشـــى أن في هذا ميزة للقرآن على الكتاب المقدس[١] الذي تطور عبر الســـنين والكنائس وحتى عبر اللغات والجماعات، في حين بقي القرآن على حالته الأصلية، بل لم يترجم إلى أي لغة.

- يبدو أن المســـلمين قد غرروا بك تماماً بأكاذيبهم التي لا تنطلي على أي عاقل؛ فأنا نفسي قرأت القرآن باللغة الروسية، وأؤكد لك بأنه ترجم إلى معظم لغات الأرض.

- تلك ترجمات لمعاني القرآن[٢].

- وما الفرق؟

- الفـــرق هو أنهم يعتبرون كل كلمة في القـــرآن هي من كلام الله، ولذلك فهي لا تترجم، بل يترجم معناها فقط. ولا تنس أن النص الأصلي للقرآن لا يزال عندهم، وفي هذه ميزة أكبر، يتميز القرآن بها عن كتبنا المقدسة.

ثم أردف أبراهام باسماً، وهو يحاول أن يخفي سخريته:

- وإذا حدثت في أي ترجمة للمعاني بعض "الفروق الطفيفة" فيمكن بكل بســـاطة الرجوع إلى الأصـــل لإزالة أي التباس. وهذا الأصل لا يختلف في أي حرف عن القرآن الذي كان يتلوه نبيهم. ومن هنا بالذات يأتي اقتناع المسلمين الراسخ بأصالة دينهم، ومن ثم صعوبة تخليهم عنه.

- هذا ليس صحيحاً؛ فليس الاقتناع هو الذي يمنع المسلمين من ترك دينهم، وإنما التعصـــب والإرهاب، وكلما خرج منهم كاتب متنور حاربوه واتهموه بالردة والعمالة. أما المسيحية فهي دين المحبة والتسامح وحرية الرأي.

---

(١) نشير هنا إلى مقولة "رودي باريت" التي افتتح بها ترجمته الشهيرة للقرآن: "لا يساورنا شك بأن كل آية في القرآن، تعود لمحمد"، فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذي لم يتغير عبر ١٤ قرناً من الزمان، ومسؤول عنه شخص واحد، ولا يحتاج إلى مجامع مسكونية تقرر المقدس من غيره. ولا يحتاج إلى علم نقد النصوص. وتقول دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٢، المجلد ٣، ص ٦٤٣ (Encyclopaedia Brittanica, 12th Ed. Vol. 3, p. 643): "في الواقع، إن كل سفر من العهد الجديد، باستثناء رسائل بولس الأربع، هي موضع خلاف، وإن التحريفات أصبحت مؤكدة حتى في هذه الأسفار".

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- دعنـــا من ذلك أيها الأب ديمتري، فأنت تعـــرف الرد على هذا الكلام، فتعصب المســـيحية وإرهابها لا يحتاجان إلى توضيح بعد حديث البارحة؛ ففي مجمل تاريخها، كانت الكنيسة تقرر أنه من غير الضروري دحض أدلة المؤلفين الذين تراهم معارضين لها أو تفنيـــد آرائهم، بل يكفي تكميم أفواه المعارضة، وإحراق كتبهم، وإخراج اعتراف منهم بالقسر، ثم نفيهم عن المجتمع أو قتلهم أو حتى حرقهم على الأوتاد.

- كان ذلك في الماضي، وكان ذلك حال الكنيســـة الكاثوليكية وليس الأرثوذكسية. على كل الأحوال فأنا لا أتحدث عن هذا، بل أتحدث عن إرهاب دينهم ضد المرتدين.

- دعك من ذلك أيضاً؛ فحتى في وقتنا الحاضر وحتى في الكنيســـة الأرثوذكسية نفســـها لا يوجد تســـاهل مع المرتدين. وقد تكلمنا قبل قليل على اعتناق ذلك القس السابق للإســـلام، وأنت تعرف أن المجلس الأسقفي لمدينة "كورسك" قد أصدر حينها بياناً رســـمياً تهجم فيه على شخصه (مع احترامه الشـــديد الذي أبداه في الخطاب الموجه لهم)!، بل ثارت في وجهه عاصفة من الغضب، والإهانات، والاتهامات بالخيانة، والتهديد بالقتل.

- هذه ردود فعل عادية، ولا تشـــكل أي خطر عليه، فروســـيا بلد ديمقراطي ينص القانون فيه على "حرية الفكر". والمادة الثالثة من الدستور تنص بوضوح على أنه: "في روسيا الفيدرالية حرية الاعتقاد وحرية الفكر، ومن ضمن ذلك حرية اعتناق أي ديانة أخرى على مســـتوى الفرد أو الجماعة أو عدم اعتناق أي ديانة. وحرية اختيار وتغيير والالتـــزام بالدعوة إلى العقائد الدينية أو غيرها مـــن عقائد العمل بما يتوافق معها، مكفولتان"، أما في القانون الإسلامي فالمرتد يقتل فعلاً.

- وكذلك في دين الرب الحقيقي، فالإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية يتحدث بكامله عـــن حد الردة والداعي إليها، وكيف يجب أن يقتلـــه المؤمن دون أن تأخذه به رحمة أو رأفة، ومهما كانت درجة قرابته إليه.

- كان هذا زمن الأنبياء.

- ولكنه كلام الرب؟!!! وأنت تعرف عدد من قتلتهم الكنيسة بل وحرقتهم بسبب الارتداد. على كل حال فتنفيذ هذا الحد في الإسلام يشترط وجود حكم إسلامي، أما اليوم، وبغياب الخلافة الإسلامية وبانتشار قيم العلمانية بينهم، فلا يوجد أي خطر يتهدد حياة أي مسلم يرتد عن دينه.

- وماذا عن إرهاب الأسرة؟! فكل رب أسرة مسلمة، متسلط وإرهابي على أفرادها. ومجرد تفكير أي منهم بالارتداد، يعرضه للطرد من المجتمع، ولمشاكل جمة قد تصل فعلاً إلى القتل.

- وهذا أيضاً ليس صحيحاً. فقد كنت في مصر، وخبرت بنفسي التعصب والإرهاب اللذين يمارسهما المجتمع القبطي المسيحي، وأرباب الأسر بشكل خاص، ضد أبنائهم الذين يعتنقون الإسلام، والذي يصل إلى الحبس في الأديرة، بل وإلى الحرق والقتل.

- قد أوافقك الرأي بالنسبة إلى الأقباط بالذات؛ فقد سمعت كثيراً عن تصرفاتهم التي تنبع من خوفهم من الانقراض في مصر، كما صرح لي بعضهم[1]، ولكن مع ذلك فإن تسلطهم الأسري في هذه المرحلة الحرجة من تاريخهم لا ينبغي أن يقارن بالتسلط والإرهاب المنهجين لرب الأسر المسلمة الذي يمنحه دينه حق السيادة الكاملة على المرأة، فهو يلغي حقوق زوجته، ويكبح حريتها وحرية بناته، ويقيدهم بالحجاب[2]، بل

---

(١) ورد هذا في تقرير للباحث القبطي "كمال فريد" حذر فيه من احتمال انقراضهم في مصر خلال مئة عام لثلاثة أسباب، أولها التحول إلى الإسلام.

(٢) في تحقيق عن هذا الموضوع في مجلة الحوادث اللبنانية في ٢٧/ ١٠/ ١٩٧٩ قال أحدهم، وهو باكستاني يدعى "أحمد الماوردي": "وقد سألت الأستاذة بالجامعة: أيهما أقسى على المرأة لبس الحجاب أم حرمانها من الأنوثة كزوجة وأم؟ ولماذا تهتمون في الغرب بالحرية الجنسية للمرأة المسلمة ولا تعترضون على تحريم الجنس نهائياً على مئة وخمسين ألف امرأة (راهبة) في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، وما لا يقل عن خمسة عشر مليوناً في العالم؟ فلم تجد ما ترد به سوى أن الحالة الثانية تتم باختيار المرأة وإرادتها، فقلت لها: ولكن الحرية لا تكون مرة واحدة، بل لا بد من حق المراجعة، والبابا يرفض أن يحل أي راهب أو راهبة من القسم، وعلى عكس البابا "بولس السادس" الذي أعفى عشرين ألفاً، لم يوقع البابا "يوحنا بولس الثاني" بالموافقة على طلب واحد حتى الآن، بل قال: "إن السلك الكهنوتي هو اختيار أبدي، فنحن لا نرد عطاء الله".

ويحق له اتخاذ زوجات إضافيات وقتما يشاء.

- ولكن تعدد الزوجات سنة إلهية.

- أنا أدرك أن بعض طوائف اليهود الأرثوذكس تبيح أيضاً تعدد الزوجات، وربما كنت تنتمي إلى إحداها، ولكن[1]..

فقاطعه أبراهام قائلاً:

- كلا؛ أنا لا أتحدث عن طائفة معينة، بل أتحدث عن دين الرب الحق.

- ماذا تعني؟

- أعني أن كل أنبياء بني إسرائيل بلا استثناء كانوا متزوجين بأكثر من واحدة.

أطرق الأب ديمتري مفكراً، فقد كان هذا صحيحاً فعلاً، إلا أنه شعر بأنه لا بد أن يرد على ذلك بأي شيء، فقال متهرباً:

- كان ذلك في الزمن القديم.

- لكن ما دام الرب قد شرع ذلك في العهد القديم الذي تؤمن به، فلم يعد هناك مجال لقول أن الرب قد غير رأيه لأن ذلك أصبح موضة قديمة.

- ولماذا لا تقول إنه يحق للأنبياء ما لا يحق لغيرهم؟

- لم يقتصر الأمر على الأنبياء، بل كثير من أتباعهم فعلوا ذلك، وبالذات الأساقفة والكهنة. كما أن ذلك الأمر استمر بين أتباع المسيحية الأولى على اتفاق الجميع، إلى أن

---

(١) في الحقيقة كل طوائف اليهود تبيح تعدد الزوجات. ولكن الشريعة اليهودية كانت تتكيف وتتلون مع ظروف المجتمعات التي يعيش فيها اليهود، ففي أوربا المسيحية التي تحرم تعدد الزوجات تحريماً مطلقاً، أطلق حاخام يسمى "جرشوم بن يهودا" في عام ٩٦٠م، وكان يعيش في ألمانيا، فتوى تحرم على اليهود تعدد الزوجات كنوع من التقية لاتقاء الضرر في البلاد الأوربية، وقد صادقت محاكم الأحوال الشخصية اليهودية على فتوى "جرشوم" بعد اقتناعها بما فيها من مصلحة في عام ١٢٤٠م. أما في بلاد إفريقيا وآسيا وحيث كانت الشريعة الإسلامية سائدة، فقد وجد الحاخامات أنه لا ضرورة للتحريم، بل شدد بعضهم على نص في التلمود البابلي لا يجيز أن يتزوج الرجل بأكثر من أربع نساء ("يِباموت" ٤٤أ). واليوم في الكيان الصهيوني نجد تعدد الزوجات دون حد لا يزال قائماً.

طالـــب بولس الكهنة بالاكتفاء بالزواج من واحدة[١]، وحتى بعد ذلك بقي كثير من قادة المســـيحية المعتبرين من مفضلي تعدد الزوجات، مثل الإمبراطور شارلمان الكبير مثلاً، والذي يعد المؤســـس الحقيقي للمسيحية الأوربية في القرن التاسع الميلادي، فقد كان متزوجاً من خمس نساء، أو سبع وفقاً لمصادر أخرى.

- كانت هذه هرطقة انتهت وزالت.

- لماذا؟ فما دام أن التعدد كان مسموحاً به في العهد القديم، بل ومفضلاً من الرب، وما دام كل أنبيائه، وعباده الصالحين الذين ورد ذكرهم فيه ليكونوا قدوة لنا، قد ساروا على ذلك، فما العيب في المحافظة على سنتهم الربانية؟

- لم تكن سنة ربانية بالتأكيد، ولا يوجد نص توراتي بأن ذلك كان مفضلاً.

- هـــل تقصد أنه قد تصادف أن الرب قد اختار كل رســـله من متعددي الزوجات بمحض المصادفة، دون أن يكون لذلك حكمة أو هدف؟!!!

- وأي هدف وأي حكمة يمكن أن يكونا لذلك؟!

- لقـــد تحدثت مع أحمد في موضوع التعدد، بعد أن عرفت أن المورمون لا يزالون يجيزونه، فشرح لي رأيه في ذلك من وجهة نظر إسلامية. وستجد فيها شيئاً يتفق مع العهد القديم، فهل ترغب في سماعها؟

- تفضل.

- يقول أحمد إنه في حال وفاة الرجل المعيل، فإن أخاه يصبح مجبراً أخلاقياً بأن يتـــزوج من أرملته، في حال موافقتها، كي يرعى أبناء أخيه بنفســـه. وهكذا لا يتركهم للرجـــل الغريب، الذي من حق أرملة أخيه أن ترتبط به بعد انتهاء حدادها على زوجها الراحل. ولا بد أنك تلاحظ موافقة العهد القديم لذلك.

---

(١) يقول بولس: "على الأسقف أن يكون منزهاً عن اللوم، زوج امرأة واحدة" (١ تيموثاوس ٣: ٢) وكذلك الشماس(١ تيموثاوس ٣: ١٢).

- وماذا أيضاً؟

- وأنـــه في حالِ تعرضِ الزوجة لحادث يعجزها، فإن زوجها لا يجوز له أن يطلقها ويتزوج بأخرى فيكون خائناً للعشـــرة وناكراً للجميل لتلـــك التي كانت معه يوماً على السراء والضراء. كما لا يجوز له أن يحتفظ بها، ويحرم نفسه من متع الحياة المشروعة، وبالتأكيـــد لا يجوز له أن يحتفظ بها، ثم يتخذ الخليلات والأخدان بالشـــهوة الحرام. والأتقى من هذا كله أن يبقيها ويتزوج بأخرى، تحفظ عليه دينه، وتســـاعده في خدمة زوجته العاجزة.

صمت أبراهام ليعطي فرصة للأب ديمتري على الاعتراض، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة، فأردف قائلاً:

- لقد ضرب أحمد بذلك مثلاً من شرائع العهد القديم، ومثلاً من الأخلاقيات، كما ضرب مثلاً آخر اقتصادياً واجتماعياً من واقع الحياة هنا في ألمانيا.

بدا الاهتمام على وجه الأب ديمتري، فتابع أبراهام قائلاً:

- جاء في موسوعة قصة الحضارة تحت عنوان: إعادة تنظيم ألمانيا (١٦٤٨-١٧١٥): "هبطت حرب الثلاثين بســـكان ألمانيا من عشرين مليوناً إلى ثلاثة عشر مليوناً ونصف مليـــون. وبعد عام أفاقـــت التربة التي روتها دماء البشـــر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال، وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمـــة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم. ففي "مجمع فرانكونيا" المنعقد في شـــباط/فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتي: "لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين... وعلى القساوسة ومساعديهم، وكهنة المؤسسات الدينية أن يتزوجوا. ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تذكيراً جدياً، وينبه مراراً من منبر الكنيســـة، للتصرف على هذا النحو في هذه المســـألة". وبعد أن ذهبت الحرب العالمية الثانية بزهرة شباب ألمانيا، وزاد عدد الإناث على الذكور بشكل

مبالغ فيه، طلبت الحكومة الألمانية رسـمياً من "الجامـع الأزهر" في مصر تزويدها بإرشـاداته في شأن التعدد، ولكن الكنيسـة عارضت ذلك بشدة، ووأدت المشروع من بداياتـه[1]، ولو وافقت الكنيسـة على قرار التعدد في ألمانيـا، لأصلح هذا الخلل في نسـبة الرجال إلى النسـاء خلال جيل واحد فقط، ولكنهم استقدموا العمالة التركية بشـكل متواصل. وحالياً، لا يزالون هم وأبناؤهم وأحفادهم يشكلون مشكلة اقتصادية واجتماعية كبرى للكثيرين هنا، خاصة في ظل الأزمة المالية الحالية؛ فهم لم يستطيعوا طردهم بعد أن اسـتنفدت الحاجة إليهم، ولا سيما أن المعجزة الاقتصادية الألمانية قد بنيت على أكتاف آبائهم، وأن العديد منهم قد اكتسبوا الجنسية الألمانية، وولد أبناؤهم هنا، وعاشوا وهم يحملون ثقافة وحضارة مختلفة كلية عن تلك التي في ألمانيا.

واصل الأب ديمتري إنصاته باهتمام، فتابع أبراهام قائلاً:

- ولا تنس أن الطبيعة تحابي الإناث، فعدد المواليد منهن يفوق عدد المواليد الذكور، بالإضافة إلى أن الذكور يقضون نحبهم بواسطة الحروب والشجار وحوادث السيارات بأكثر من الإناث بمراحل، ومن ثم فإن عدد الإناث في مرحلة النشـاط الجنسي يفوق مثيلهن من الذكور، مما يؤدي بهن إلى العنوسة والاكتئاب في المجتمعات المحافظة. أما في المجتمعات المتحررة فيؤدي بهن ذلك إلى شـيوع العلاقات الجنسية غير المشروعة، وتوجه قسـم أكبر منهن إلى البغاء المأجور لعـدم وجود معيل في مثل تلك المجتمعات التي عادة ما يغيب فيها التكافل الأسـري. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فالفيلسوف والرياضي الإنكليزي "برتراند راسـل" يقول في كتابـه "الزواج والأخلاق": "يوجد في إنكلترا مليونا امرأة زائدة على عدد الرجال، وهؤلاء النسوة طبقاً للعرف السائد يجب أن يعشـن عقيمات (يحرمن من الأمومة)، وهذا يشـكل حرماناً عظيماً لهن". ويمكن

(١) كان مما ساعد الكنيسة أن تفرض رأيها على الحكومة آنذاك، خلافاً لما حصل عام ١٦٥٠ هو، في اعتقادي الخاص، أن حكومة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن قرارها مستقلاً عن الدول التي انتصرت عليها، بشقيها العلماني الديني والشيوعي، بالإضافة إلى ظهور العداء القديم للإسلام مجدداً.

تفادي كل الآثار السيئة الناجمة عن ذلك بحل بسيط هو تعدد الزوجات. وهذا ما دفع بالسياسي الروسي المشهور "فلاديمير جيرونوفسكي" إلى المطالبة بتطبيق بعض القوانين الإسلامية في روسيا وبالذات تشريع تعدد الزوجات وتنظيمه[١].

- إن فلاديمير جيرونوفسكي، وإن كان رئيس حزب كبير في روسيا، إلا أنه شخص غريب الأطوار، وأطروحاته المثيرة للجدل تصل إلى حد الجنون في بعض الأحيان.

- لا أنكر هذا، ولكنه محق ببعضها أحياناً. إذ إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، وسيبقى ما بقي العالم، ولأن نظرية الزوجة الواحدة أظهرت ثلاث نتائج خطيرة: العوانس، والبغايا، والأبناء غير الشرعيين. وإن شئت الحقيقة، فإن تعدد الزوجات عند المسلمين أقل انتشاراً منه عند الغربيين، الذين يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم عن مبدأ الزوجة الواحدة. وهناك دراسة أمريكية حديثة تقول: "إن السائد لدى علماء النفس والاجتماع الغربيين هو أن الرجل يميل تكوينياً إلى تعدد الزوجات، ونظام "الزوجة الواحدة" يتعارض مع طبيعته التكوينية"، وأن الرجل "خائن على طول التاريخ"، كما أظهرت دراسة لأكثر من "١٦" ألف شخص من كل قارات الأرض، أن الرجال في أي موقع، عزاباً كانوا أم متزوجين، يرغبون أكثر من النساء في أن يكون لهم أكثر من شريك جنسي واحد، فما المانع من شرعنة ذلك وتنظيمه[٢]؟!

- لأن القوانين لا تسن لإرضاء الشهوانيين والضعفاء.

- إن ما تسميه شهوانية وضعفاً، هو الطبيعة البشرية للأغلبية العظمى من الرجال، وتعدد الزوجات يحميهم من الخطيئة وينظم غرائزهم ضمن الإطار الصحيح، بما يضمن سلامة المجتمع.

---

(١) حسب إحصاء مجلة لندن للكتب، فإن قرابة نصف النساء في روسيا غير مرتبطات رسمياً برجل معين. فمن بين كل ألف امرأة في سن الزواج، المرتفع أصلاً هناك، يوجد: ١٧٥ عازبة، و١٨٠ أرملة، و١١٠ مطلقات، هذا غير المسجلات كمتزوجات، ولكنهن منفصلات عن أزواجهن تماماً.

(٢) ينصح بقراءة كتاب "زوجات لا عشيقات- التعدد الشرعي ضرورة العصر" بقلم الأستاذ حمدي شفيق.

- وماذا عن النساء الشهوانيات، هل يحق لهن الزواج بأكثر من رجل بناء على هذه النظرية؟!!!

ابتسم أبراهام قائلاً:

- الغريب أنني سألت هذا السؤال نفسه لأحمد.

- وماذا كان جوابه؟

- يتفق علماء النفس الغربيون أنفسهم على أن الميل إلى التعدد فطري عند الرجل بالذات، وقد شرح لي أحمد الفرق بين سيكولوجية المرأة وسيكولوجية الرجل، وضرب لي أمثلة عديدة عن كون الرجل، من ناحية نفسية وأخلاقية، يستطيع أن يحب أكثر من واحدة، دون أن يخسر رجولته أو احترامه لنفسه أو احترام المجتمع له، لأن ذلك طبيعة بشـــرية، وإن هوجمت في بعض الأزمان. أما المرأة، فهي بطبيعتها لا تستطيع أن تحب أكثر من رجل واحد، وفي حالة ارتباطها بأكثر من رجل فإن هذا ســيكون وضعاً شاذاً بنظرها هي نفســها. فضلاً عن أن المجتمع المتحفظ سينظر إليها باعتبارها "مومساً" أو مجرد "منحلة أخلاقياً" إن كان مجتمعاً متحرراً. هذا بالإضافة إلى مشكلة "اختلاط الأنســاب" وعدم موافقة أي رجل يحترم نفســه على مشاركة امرأة مع رجل آخر؛ لأن هذا ضد الطبيعة الإنسانية. أم أن لديك رأياً آخر؟

- لقد تحدثت مطولاً عن وجهة نظر أحمد، فماذا عن وجهة نظرك أنت؟

- لقد أوضحتها من حيث اختيار الرب لرسل متعددي الأزواج.

- ولكن لم توضح لي الحكمة من وراء ذلك، إلا إذا كنت تريد إسقاط حجج أحمد على زمن العهد القديم.

- مــن وجهة نظري الخاصة، أظن أن حكمة الرب في ذلك بالنســبة إلى الأنبياء، ولرجــال الدين عامة، هي أن يكتفوا من نســائهم وتمتلئ أعينهم بهن، فلا يعطلهم أي هــوى أو رغبة حرام عن تنفيذ المهمة الصعبة التــي ألقاها الرب عليهم، والتي تتطلب العفاف الكامل في رعيتهم، وعدم الوقوع في الخطيئة، أو حتى عدم التفكير فيها أصلاً.

زفر الأب ديمتري زفرة، خيل لأبراهام أنها لو كانت على حقل يابس لأحرقته، مما نبهه إلى الوضع الرهباني لمحدثه، فحاول تغيير الموضوع، إلا أن الأب ديمتري ما لبث أن انتقل هو نفسه إلى محور آخر قائلاً:

- وماذا عن زواج القصر كما فعل نبيهم بفتاة حرمها من الطفولة البريئة؟

- لا أفهم لماذا يسكت الكثيرون على مرح الفتاة الصغيرة وممارستها الجنس ودراستها له في المدارس (ومراجعة دروسها مع زملائها) باعتباره يدخل في نطاق الحرية الشخصية والتوعية المبكرة، لتثور ثائرتهم إن تزوجت الفتاة بنفس العمر ومارست حريتها الشخصية في نطاق الدين والأخلاق والقانون؟!

- ومن ذا الذي يسكت على ممارسة الصغيرة للجنس؟

- بل من ذا الذي يجرؤ على الاعتراض في عصر الحرية الجنسية الذي نعيشه حالياً؟ فمعدل عمر الفتيات اللائي يبدأن بممارسة الجنس (بشكل كامل) حسب دراسة هولندية حديثة صدرت في ٢٠٠٧ هو سن الثالثة عشرة. وفي بعض المجتمعات الأوربية فإن عذرية الفتاة تعتبر أمراً شاذاً يستوجب خضوعها للعلاج النفسي لمعرفة أين الخلل!!!

- حسناً، ولكن ذلك يحصل بين الأتراب؛ أي فتيات وفتية من نفس العمر، ولكننا نتحدث هنا عن فتاة عمرها إحدى عشرة سنة وعجوز في الرابعة والخمسين.

- إن زواج فتاة بعمر الحادية عشرة من رجل في الرابعة والخمسين أمر مستهجن حقاً، ولكن ماذا تقول عن فتاة بنفس العمر ورجل في التاسعة والثمانين من العمر، أي عجوز حقيقي؟!!!

- لا يوجد أي عاقل في الدنيا يرضى بذلك؟

صمت الأب ديمتري مفكراً في النظرة الخبيثة التي ارتسمت على وجه أبراهام، ثم سأله وَجِلاً:

- من تقصد؟!

- "يوسف النجار" خطيب القديسة مريم العذراء كما جاء في كتابك المقدس؛ فقد كان عمره تسعون عاماً حين جاءت بالمسيح! وكان عمرها اثني عشر عاماً عندما ولدته، ومعنى هذا أنهما كانا مخطوبين وعمره تسعة وثمانون، وعمرها أحد عشر عاماً!!! مما يعني أن الفرق بينهما ثمانية وسبعون عاماً.

- ولكنهما لم يتزوجا فعلاً!

- سنفترض أنهما لم يتزوجا[1]، أفكانت الخطبة للدعابة والتسلية، أم كانت سرية حتى لا يستهجنها الناس؟ ألم تتم الخطبة في العلن ولم يعترض أحد رغم وجود فارق في السن نحو ٨٠ عاماً.

تهرب الأب ديمتري ثانية من ذلك الحوار الجديد قائلاً:

- فلنعد إلى موضوع التعدد عند المسلمين.

- كما تريد. لقد قال أحمد إن نبيهم أمرهم بالتكاثر حتى يباهي الأمم بهم يوم القيامة، وهذا سبب آخر للتعدد، فالمسلم يستطيع الزواج بأخرى في حال كانت امرأته عاقراً.

فقال الأب ديمتري معترضاً:

- أي مكاثرة وأي مباهاة!!! وماذا تتوقع من أطفال كثيرين مرميين في الشوارع، ومحرومين من حق التعليم والرفاهية، فقط بسبب نهم آبائهم بالجماع والإنجاب؟ وهذه فضيلة أخرى للمسيحيين على المسلمين؛ فهم لا يبالغون في الإنجاب ولذلك يحصل أبناؤهم على كل الرعاية والتعليم والرفاهية. وفضيلة أخرى يمتاز بها رجال الدين المسيحيون عن غيرهم، أنهم يكبتون شهواتهم، ويزهدون في كل متع الحياة في سبيل

---

(١) جاء في http://www.stmaryab.org/arabic/home/news.asp?id=127 تحت عنوان "شخصيات سفر أعمال الرسل" مريم ما نصه: " . . . كانت مخطوبة ليوسف، وقد كان المتعارف عليه في ذلك الحين أن الخطبة تعقد لمدة عام واحد قبل الزواج".

الرب يســـوع. ولا يمنعهم ذلك عن الاهتمام بشؤون رعيتهم والعفاف عنهم، كما تدعي في فهمك للحكمة الكبيرة بزواجهم من أكثر من واحدة.

- الأب ديمتري، فلنكن واقعيين. إن اهتمام المســـلمين بأبنائهم الكثر يفوق اهتمام المسيحيين بأبنائهم القليلين. ومع أنني أعرف أنك رجل دين ورع، إلا أنك تعرف-ولابد- أن هناك بعض رجال الدين الآخرين، ممن ينتهكون أعراض تلاميذ المدارس الدينية[1]،

---

(١) نقلت صحيفة "تيرولر تسايتونغ" النمساوية عن اروين اشنفالد الذي كان مقيماً في مدرسة داخلية كنسية بين العامين ١٩٧٠ و١٩٧٦ قوله: "كان المدرس يأمرنا بأن نستحم ونحن عراة وبملابس السباحة، وأن يغسل كل منا الأعضاء التناسلية للآخر. وكان ينظر إلينا من كثب في تلك اللحظات. كان هذا تقليداً يومياً". وتحدث اشنفالد كذلك عن استخدام مفرط للعنف في التعامل مع الأطفال، كما ذكرت صحيفة "دير ستاندر" اتهامات جديدة تتعلق بجوقة الأطفال في فينا في الستينيات من القرن الماضي. وشهدت النمسا منذ التاسع من آذار/ مارس ٢٠١٠ سلسلة فضائح تتعلق بتحرش جنسي بأطفال في مؤسسات دينية، وتم عزل ثلاثة كهنة يقيمون في دير بشمال البلاد بعد اتهامهم بارتكاب تجاوزات جنسية بحق تلاميذ في الثمانينيات. ودعا أسقف سالزبورغ "الفاس كوثغانسر" إلى إعادة التفكير في مسألة عزوبية رجال الدين. وفي ألمانيا أظهر تقرير نشر في ١٣/ ٠٤/ ٢٠١٠ أجراه محقق عينته الكنيسة أن أكثر من ١٥ من الرهبان وعدداً آخر من المدرسين بإحدى مدارس الرهبان المخصصة للنخبة تورطوا في اعتداءات جسدية وحشية على مئات الطلاب وعلى مدى عشرات السنين. ويتعلق هذا التقرير بمدرسة إتال بندكتين الواقعة قرب ميونخ، وهي المدرسة نفسها التي اتهمت خلال شهر شباط/ فبراير الماضي بأنها شهدت حالات عدة من الاعتداء الجسدي وأحياناً الجنسي وعلى مدى عقود من الزمن. وتقع هذه المدرسة ضمن أبرشية ميونخ التي كانت تتبع بدورها للمطران "جوزيف راتسنغر" (البابا الحالي بندكت السادس عشر) ما بين ١٩٧٧ و١٩٨٢. وفي تقريره يقول المحامي توماس بفيستر إن الاستغلال كان أكثر انتشاراً في إتال مما أعلن عنه سابقاً، ويؤكد أن رهباناً في المستوى الإداري "أهانوا الطلاب بشكل وحشي بل تلذذوا بتعذيبهم، هذا فضلاً عن الاعتداء الجنسي عليهم". ورجح المحامي ألا تكون تلك الاتهامات التي شملت أكثر من مئة طالب سابق في هذه المدرسة سوى "الشجرة التي تخفي الغابة". وحسب تقرير بفيستر، فإن جل تلك الاعتداءات الجنسية حدثت قبل ١٩٩٠، غير أنه يشير إلى أن راهباً واحداً على الأقل ممن يتهمون بالتورط في استغلال الأطفال جنسياً ظل يعمل معهم حتى نهاية العام ٢٠٠٩، واستغل ذلك للتحرش جنسياً بأطفال تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة. المصدر: وول ستريت جورنال.

وصغار السن من خدام الكنيسة[1]،

(١) أطلق الدكتور "حنين عبد المسيح" (جاء تعريفه في هامش رواية بشارات هائمة للمؤلف) في كتابه "بدعة الرهبنة" مدفعيته الثقيلة تجاه أسوار الكنيسة الأرثوذكسية، واتهم الرهبان بالشذوذ الجنسي، واصفاً الرهبنة بـ"البدعة الشيطانية التي تتناقض مع تعاليم السيد المسيح". وهو يؤكد في مقدمة الكتاب أن أكبر البدع التي عرفتها الكنيسة الأرثوذكسية وأخطرها هي بدعة الرهبنة التي لم تعرفها المسيحية قبل القرن الرابع، والتي خرجت من الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وانتقلت إلى باقي الكنائس الأرثوذكسية، بل الكاثوليكية أيضاً، ولم يسلم منها ومن مبادئها الهدامة وتعاليمها المضللة إلا الكنيسة البروتستانتية-الإنجيلية التي تمسكت بتعاليم الإنجيل واتخذت منه سراجاً ونوراً لسبيلها حسب تعبيره. وأكد في الفصل الثاني تحت عنوان "العلاقة بين الرهبنة والكبت والشذوذ والنظرة المنحطة للمرأة"، أن هذه الانحرافات الجنسية كانت نتيجة طبيعية للزنى الروحي (العبادة لغير الله) الذي يمارس بغزارة في الأديرة حول مزارات من يعتقد أنهم قديسون وأجسادهم وصورهم. ومن ضمن أمثلة التعاليم الرهبانية التي أوردها الكاتب ولها دلالاتها الواضحة ما يقوله أنطونيوس مؤسس بدعة الرهبنة لتلاميذه محذراً من أمور لا بد أنها حدثت بكثرة: "لا تتحدث مع صبي ولا طفل ولا تعاشره بالجملة ولا تجعله راهباً ولا تقبل إليك شاباً صغيراً قبل لباس الاسكيم لئلا يصالح العدو «الشيطان»، ولا ترقد على حصيرة واحدة مع الأصغر منك. لا تأكل مع امرأة ولا تصادق صبياً بالجملة، ولا يرقد اثنان على حصيرة واحدة إلا بسبب ضرورة ملحة وحينئذ يكون الذي معك هو أبوك أو أخوك وتفعل ذلك بخوف شديد، لا تمسك يد قريبك ولا خده صغيراً كان أو كبيراً"، كما أن الأنبا مكاريوس ثاني أكبر آباء معلمي الرهبنة بعد أنطونيوس يقول: "لا يكن بينكم وبين صبي دالة، لأن الصبي إذا رأيته طالعاً إلى السماء فهو سريع السقوط"، وجاء في سيرة الأنبا مكاريوس الكبير أنه قال: «إن كان أحد من الرهبان يسكن مع صبي فلا يقدر أن يحفظ أفكاره؛ لأن للصبية صفتين، منظر جميل مثل النساء يحرك الشهوة وحدة الطبع، والمزاج الذي يحرك الغضب، فالإخوة الرهبان المنحلون يكون لهم سبب عثرة والشيوخ المتحفظون يكون لهم سبباً للحرب من الشيطان". وجاء في سيرة أبي إسحاق قس القلالي أنه كان يعزو خراب أربعة الأديرة إلى وجود رهبان صغار منحلين وكان يقول: "لا تحضروا هنا شباناً صغاراً فقد تخربت ٤ كنائس بسبب هذا الأمر". كما أن الأنبا أورسيزويس قال: "سأتكلم عن عظمة الرهبنة التي أحط من قدرها. أيتها الرهبنة انهضي وابكي على ذاتك، انهضي وابكي على زيك الذي يستحق الاحترام الذي سيمزقه الذين هم في منزلة الخنازير والبغال، أيتها الرهبنة انهضي وابكي على أبنائك الصغار الذين بخسوا بتولتهم وعلى شبانك الذين فقدوا مثلهم. انهضي وابكي على عظمائك الذين كانوا مرة عظماء وممجدين في زيك ولكن هاهم أولاء على وشك أن يموتوا موتاً مرعباً بسبب جمال الأطفال الذين أغووهم". وفي الباب الثالث يعلق الكاتب قائلاً: "أبعد كل هذه الأمثلة والكثير غيرها من تعاليم آباء الرهبنة المهوَّسين وتصرفاتهم المجنونة الشاذة التي لا تمت إلى المسيح ولا المسيحية بصلة لا تزال الكنسية الأرثوذكسية تزعم بأن رهبنتهم ليست بدعة، وتضعها أمام شعبها كنهج للقداسة والوصول إلى الله، وتضع آباء الرهبنة المرضى نفسياً والمجانين كأمثلة للشعب الأرثوذكسي وتعتبرهم قديسين وتختار قياداتها من بين الرهبان غير المتزوجين وغير المربين وبلا أي خبرة في الأبوة والرعاية في مخالفة صريحة لتعليم الكتاب المقدس؟".

والراهبات[١] ولا ينجو منهم حتى الأيتام واللقطاء الذين ترعاهم الكنيسة[٢]. ومِن رجال الدين مَن يزنون مع نساء رعيتهم عندما يعترفن لهم بخطاياهن[٣]، وينجبن منهن أولاداً بالسر، ثم يهملونهن ويرمونهن في الشوارع، ويتركونهن لقمة سائغة للشيطان.

اتسعت حدقتا الأب ديمتري بشدة، ولكن أبراهام الذي أساء فهم ردة فعله، أردف موضحاً:

---

(١) جاء على موقع الجزيرة

http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=53 80

نقلاً عن مصادر عالمية، أن الفاتيكان يعترف بإرغام رجال الدين الراهبات على "ممارسة الجنس"، وهذه الانتهاكات موجودة في ٢٣ بلداً على رأسها الولايات المتحدة وإيطاليا. المضحك أن رجال الدين لا يلجؤون إلى العاهرات خوفاً من مرض الإيدز!!!كما أفادت تقارير داخلية أن بعض الكهنة والمبعوثين أجبروا الراهبات على ممارسة الجنس معهم وبعض الحالات أجبروا على عمليات الإجهاض.

http://www.aljazeera.net/news/archive/archive?ArchiveId=20 799.

(٢) ذكرت صحيفة "أيريش تايمز" أن التقرير الذي تمّ إنجازه بعد نحو تسع سنوات من التحقيق، وأعدته لجنة برئاسة القاضي "شون رايان"، ركز على أن الإيذاء الجنسي للأطفال قاده الإخوان المسيحيون وراهبات الرحمة الذين أداروا تلك المدارس، وكذلك وزارة التعليم البريطانية، بسبب عجزهم عن تفقد هذه المدارس وضمان عملها بشكل ملائم. وجاء فيه أن الأطفال "عاشوا في رعب يومي لا يدرون من أين سيأتيهم الضرب مرة أخرى، مشيراً إلى أن الصبيان كانوا عادة ضحايا للاعتداء الجنسي، في حين أن التحرش بالبنات كان أقل حدوثاً، ولكنهن كنّ يعاملن معاملة فظة.

.http://www.aljazeera.net/NEWS/KEngine/imgs/top-page.gif

وبعد صدور التقرير، قدم كبير أساقفة أيرلندا الكاردينال شون برادي اعتذاره بسبب الانتهاكات التي ارتكبت بالكنيسة.

http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=102158.

(٣) من أمثلة ذلك ما جاءفي موقع:

http://www.jesus21.com/comments.php?id=160- 0-1-80-C

عن أربع سيدات يتهمن قساً باغتصابهن في أثناء تقديم النصح في كنيسة فنار بريسكوت. وإدانة كاهن باغتصاب طفل على كرسي الاعتراف.

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world-news/newsid-4245000/4245361.stm

- هـــذا ليس تعبيـــراً مجازياً، بل حرفي، وبكل ما تحملـــه الكلمة من معنى. وتلك المســـيحية الســـابقة، التي حدثتك عنها قبل قليل كانت منهم، وقد ســـلمتها لشرطة سانكت بطرسبورغ في الصيف قبل الماضي، بعد أن عرفت أنها باعت نفسها للشيطان، وكانت ستذبح طائعة في قربان شيطاني. تلك الفتاة الصغيرة المسكينة كانت من نتائج ســـفاح أحد رجال الدين الذئاب الذين كان من المفترض أن "يكبتوا شهواتهم، ويزهدوا في كل متع الحياة في سبيل الرب يسوع" كما تقول. وربما كان والدها الذي هو رئيس للرهبان[1] يعظ الآن في إحدى الكنائس عن الأخلاق وقيمة الأسرة وفضيلة المسيحيين.

انفجرت دموع الأب ديمتري، وهو يشـــهق بين عبراته بكلام لم يستطع أبراهام أن يميـــزه، كان يبدو كمن يتضرع إلى الله طالبـــاً الغفران على خطيئة كبرى اقترفها. ثم التفت إليه قائلاً وهو يحاول أن يكفكف دموعه دون جدوى:

- إني أنا ذلك الذئب الخاطئ، ولن أنسَى لك يوماً أنك أنقذت صغيرتي سفيتا من المصير المؤلم الذي قدتُها إليه بنفاقي ومجوني وتهربي من المسؤولية.

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

كشف المستور

وتشمل:

أسفار مخفية

امتحان القبول

اللغز الكبير

تفنيد النبوءات

بين المسيح والمصلوب

استجواب الرواة

نهايات مختلفة لحدث واحد

بين الإبادة والتحريف

هل يوجد اسم للخالق في الكتاب؟!

تسميات مستحدثة

من الدير إلى المسجد

سرقات لاهوتية

كشف المستور

أسفار مخفية

عاد أبراهام إلى المنزل وجلس ينظر إلى تذكرة السفر إلى لندن التي حصل عليها لتوه، ثم وضعها جانباً وهو يفكر في النهاية غير المتوقعة لحديثه مع الأب ديمتري وكيف أنه وافق، بعد إلحاح شديد منه، على أن يسمي له رغبة يستطيع تحقيقها ليعبر عن شكره لجميله. لم يدرِ أبراهام ما الذي جعله يطلب من الأب ديمتري أن يذهب عوضاً عنه لمقابلة القس صاحب برنامج الأسفار المستبعدة. ولم يدرِ كيف سارت الأمور بتلك السرعة التي لم تتح له مجالاً للتراجع عن طلبه الغريب ذاك. فقد أخذه الأب ديمتري من يده إلى مكتب الطيران، حيث تنازل له عن التذكرة، وكذلك عن الحجز الذي أجراه هناك أحد الفنادق وسط العاصمة.

جلس أبراهام في ردهة فندق "الهالكن" (The Halkin) اللندني العريق حسب

الموعـــد المتفق عليه، وبعد فترة من الزمن، جاء القس "ســـينوج"[١] يقوده أحد موظفي الفنـــدق، فقام أبراهام مرحبـــاً، ودعاه إلى الجلـــوس. وبعد تبادل عبـــارات التحية والمجاملات، افتتح القس سينوج الحديث قائلاً:

- لقـــد فوجئت عندما أخبرني الأب ديمتري أنه ســـيبعث أحد أصدقائه للحديث معي بعد أن لاحظت سابقاً حماسته وإلحاحه في إجراء الحوار وجهاً لوجه، وها أنا ذا أدهش أكثر عندما أرى أن صديقه ذاك هو شاب"layman لايمان"[٢] عصري!

- هل يضايقك هذا؟

- على العكس تماماً، فقد كنت أهيئ نفســـي لســـيل مـــن الاتهامات والتوبيخ من قبـــل رجل دين عجوز بلحية طويلة. حتى إننـــي طلبت المدد من أحد أصدقائي، الذي سيحضر بعد قليل.

- أهو ممن شاركوك بإعداد الفيلم الوثائقي؟

- كلا، فصديقي" ليئور أرتسو" هو مخرج الفيلم الوثائقي الشهير "ابن الله...اللغز الكبير"[٣]، وفوق ذلـــك كان من المتفوقين في الكلية الإكليريكية، ودارس جيد للاهوت، ولكنني أرى الآن بوضوح أنني لســـت بحاجة ماسة إلى الدعم، وأن الأمر سيكون أكثر عقلانية وتفتحاً مما ظننت.

---

(١) اسم صاحب البرنامج الحقيقي هو Pete Owen Jones، لذا فقد عكست ترتيب الأحرف في اسمه الأخير Jones(جونز) ليصبح اسم البطل الروائي Senoj(سينوج). وبقية هذا الفصل (الموقف) والذي يليه نقل حرفي لترجمة وقائع الحلقات الثلاث من ذلك البرنامج الوثائقي الهام، مع تصرف في الترتيب لأعيد صياغته على شكل حوار مع أبراهام، وجعلت النقد والتوضيح والتصويب في الحواشي.

(٢) تترجم في العربية إلى "علماني"، ويطلق المسيحيون هذا اللقب على كل من هو ليس رجل دين (من العوام ولا ينتمي إلى السلك الكهنوتي)، بغض النظر عن كونه مؤمناً أم لا.

(٣) هذا الفيلم أيضاً حقيقي، شاهدت النسخة الألمانية منه، والمسجلة من "القناة الثالثة" بعنوان تقديمي هو "اللغز الكبير"، وعنوان رئيسي هو "ابن الله" Der Sohn Gottes، وهو من إخراج روئيل أوسترا Roel Oostra. قد حورت اسم الفيلم إلى ابن الله... اللغز الكبير، وعكست اسم المخرج ليصبح ليئور أرتسو Leor Artsoo.

- سيكون كذلك فعلاً؛ فأنا أرغب فقط في تفهم ما توصلت إليه من الحقائق بالنسبة إلى الأناجيل المفقودة.

- كانت المرة الأولى التي قرأت بها العهد الجديد عندما كنت في مقتبل المراهقة. حدث ذلك بعد أن أوقفت مرة سيارة على الطريق العام لتقلني، ففي أثناء الحديث مع السائق قال لي: "إذا كنت تريد أن تعرف عن الله، فلا بد أن تقرأ الأناجيل". كانت تلك الحادثة نقطة تحول لي. وعندما وصلت إلى بيتي، قرأت أناجيل "متى"، و"مرقس"، و"لوقا"، و"يوحنا". وأظن أن إنجيل يوحنا أثر بي بشكل خاص بسبب الإحساس الغامض للسر المسيحي، وبسبب نظامه وبسبب تصوفه. ذلك اليوم كان أول خطوة في رحلة أدت إلى رسامتي ككاهن في كنيسة إنجلترا.

- وأصبحت تعرف كل شيء عن الأناجيل التي أثارت اهتمامك.

- هكذا كنت أظن. ولكن الذي لم أكن أعرفه حينها، أن تلك الأناجيل إنما هي جزء فقط من المعلومات التي نملكها عن يسوع.

- كيف ذلك؟

- في الحقيقة أظهرت اكتشافات القرن الماضي في الصحراء المصرية أن عدد الأناجيل المتداولة في أول ٤٠٠ سنة بعد موت يسوع، كان أكثر من عشرين[١]، ورسائل متعددة عزيت إلى حواريين مختلفين ونصوص أخرى متنوعة تسجل كلها حياة يسوع وأتباعه، المتداول منه في الكنيسة فقط كان قرابة الثمانين!

---

(١) في الحقيقة كانوا أكثر من هذا العدد بكثير جداً، فقد أعلن "آدم كلارك" في المجلد السادس من تفسيره: "إن الأناجيل الكاذبة كانت رائجة في القرون الأولى للمسيحية، وإن "فايبر بسينوس" جمع أكثرَ من سبعين إنجيلاً من تلك الأناجيل وجعلها في ثلاث مجلدات". وقد كانت هذه الكتابات منتشرة في القرون الأولى واعتمد على كثير منها كبار الكتاب اللاهوتيين المعترف رسمياً بكتاباتهم، ومنها ما وصل إلينا كاملاً، ومنها ما وصل ناقصاً أو مشوهاً، ومنها ما ضاع ولم يبق لنا منه سوى اسمه، إلى أن جاءت الاكتشافات الحديثة لتظهر محتوى بعضها من جديد، وأنه كان هناك أيضاً أكثر من ثمانين كتابة أو نصاً آخرين عن المسيح.

- إذن لماذا تم الإعلان عن تلك الأناجيل الأربعة[١]، وبقية الأسفار الثلاثة والعشرين التي في العهد الجديد دون غيرها من الأسفار المسيحية الأخرى؟!

- إن فيلمي الوثائقي هو محاولة للإجابة عن هذا السؤال، ولماذا فقدت بقية الأناجيل والرسائل والكتابات؟ ما الذي حدث بالضبط لتختفي؟ وعن أسئلة أخرى أيضاً.

- ما الأسئلة الأخرى التي طرحتها في فيلمك الوثائقي؟

- كيف كان نوع الإيمان الذي ستتحول المسيحية إليه فيما لو اعتمدت أسفاراً أخرى مثلاً؟

- هل كانت ستختلف حقاً؟

- بالتأكيد. فلو اعتمدت الكنيسة "إنجيل بطرس"[٢] لكان المسيحيون اليوم يؤمنون أن يسوع لم يمت أبداً، ولو أن "إنجيل يعقوب" تم قبوله لتعلمت في مدرسة الأحد أنه كان طفل يسمى يسوع سبب الصعق لمعلمه من شدة الغضب. ولو أن "إنجيل فليب" انتصر لنودي بمريم المجدلية كـ"أول بابا"، ولو أن أحدها أو غيرها اعتمد لكان شكل المسيحية اليوم اختلف كثيراً عما نعرفه، أو ربما لما ظلت موجودة أصلاً إلى الآن[٣].

- ما جدوى الاهتمام بتلك الأسفار، مادامت لم تتضمن بالعهد الجديد المعتمد؟

- السؤال هو: من الذي قرر عدم تضمينها أصلاً؟ ولماذا؟ لقد كان علي أن أدرس الأسفار المضمنة بالعهد الجديد منذ أصبحت قساً. وكالباقين اعتبرتها من المسلمات،

---

(١) في الحقيقة كانوا خمسة أناجيل أولاً. فعندما انعقد المجمع المسكوني الأول(في نيقية) سنة ٣٢٥م قرر اعتماد الأناجيل الشائعة الحالية وإنجيلاً خامساً يسمى "إنجيل الصبوة"، وهو إنجيل نادر لا يعرفه إلا قله من العلماء الباحثين. وهو منسوب إلى بطرس متحدثاً فيه عن السيدة مريم عليها السلام.

(٢) كان قد اكتشف جزء مبتور وغير كامل من ذلك الإنجيل في أخميم في شتاء ١٨٨٦-١٨٨٧م. وهو الآن في متحف القاهرة، وهو يرجع إلى القرن الثاني للميلاد.

New Testament Apocrypha Vol. 1. P. 184.

(٣) يتعمد أغلب الباحثين في موضوع الأناجيل المفقودة تجاهل إنجيل برنابا تماماً، مع أن به إجابات كثيرة عن الأسئلة التي تدور بخلدهم. ويرجع ذلك إلى وضوح ذكر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فيه.

وأنها هي فقط تشكل أساس الديانة المسيحية. وفي خلال كل دراساتي اللاهوتية وكل المحاورات التي قمت بها مع قساوسة آخرين وأكاديميين مسيحيين. لم يخبرني أحد أن هناك أسفاراً غيرها كان لها فرصة كبيرة، ولكنها "لم تجتز امتحان القبول".

- هل كان لدى تلك الأسفار فرصة فعلاً؟

- بالطبع، فمن خلال رحلتي في التنقيب عن ذلك الكنز، اكتشفت ما كان موجوداً فعلاً في أصل الديانة المسيحية، ولكن تم إبعاده من النظام المحكم، الذي صدقت أنه كذلك.

- لقد سمعت عن هذا.

- إن تقليد آباء الكنيسة الأولى (التقليد الشريف) يعتبر تلك الأناجيل هرطوقية، ولكن بدونها لا يمكننا أن نبدأ في فهم أصول الكنيسة المسيحية الأولى، وعن طريقها نستطيع فهم الكثير عن التشكيلات المسيحية المختلفة في المراحل المبكرة، فتلك الأناجيل توقظ تصوراً جديداً للمسيحية، وتجعلنا نرى المكان الرائع الذي من المفترض أن المسيحية المبكرة كانت فيه.

- من أين بدأت رحلة بحثك؟

- بدأتها من مصر.

- لماذا مصر بالذات؟

- في مصر تبوأ كرسي البطركية في القرن الرابع رجل يدعى أثناسيوس. وقد كان واحداً من أقوى الأساقفة في التاريخ وأنشطهم، حتى إن أحد معاصريه قد وصفه برجل "يشع وجهه من الذكاء". كان يكتب كل عام لكل المسيحيين الذين تحت إشرافه ليخبرهم متى يحتفلون بعيد الفصح. ولكن في رسالته التاسعة والثلاثين والتي كتبت في عام ٣٦٧م كان عنده شيء أكثر إثارة للجدل ليقوله.

- وما هو؟

- الشيء الجديد الذي ضمنه برسالته كان قائمة.

- قائمة؟

- أجل. ولكن ليس كأي قائمة؛ فقد سمى الـ٢٧ سفراً التي تشكل منها لاحقاً قانون العهد الجديد. وقد جعل الأمر واضحاً، بل واضحاً جداً، أن هذه الأسفار، وهذه فقط، هي التي أقرتها الكنيسة ككتاب مقدس، وأن أي سفر آخر قال عنه: "يجب ألا يقرأ"[١].

- هل كانت تلك الأسفار متداولة حتى ذلك الوقت؟

- لم تكن متداولة فقط، ولكن حتى تلك اللحظة كانت تعتبر من أصل المسيحية، وفي جرة قلم واحدة أدانها جميعاً.

- هل يعقل هذا؟

---

(١) حسب المصادر المسيحية، تعب أثناسيوس من المقارعات والمجادلات الدينية التي كانت تجري في الإسكندرية، فآثر العزلة في جنوب مصر. وقد وجد ما يريده في دير "بالامون" في ظل منحدرات نجع حمادي بصعيد مصر، حيث اعتكف هناك طيلة عشرين يوماً يفكر ويتأمل، وفي النهاية توصل إلى أنه يجب أن تسحب بعض الأناجيل المتداولة من الكنائس والأديرة لأنها كانت تفسد العقيدة المسيحية. وأعد لائحة بالأناجيل، لم يدرج فيها الإنجيل الخامس الذي أقره مجمع نيقية وهو "إنجيل الصبوة". والحقيقة أنه لم يجرؤ على اتهام بقية الأسفار بالتزوير، بل اكتفى بالقول بداية أنها "مهمة وضرورية"، لكنها ليست جزءاً من الكتاب المقدس. وقد ضمن أثناسيوس في رسالته قائمة بأسفار العهد القديم أيضاً، وجعل عددها اثنين وعشرين (حسب عدد الحروف العبرية كما قال)، وحذف منها سفري المكابيين الأول والثاني (هل معنى ذلك أن الضربات سوف تزاد عليه ويحذف اسمه من شجرة الحياة(رؤيا ٢٢ : ١٨ - ١٩) لأنه حذف من الكتاب المقدس؟!!!). كما ضمنها سفر نبوة باروخ ورسالة أرميا (وهي غير سفر أرميا المعروف)، والمراثي (وهي من كتب الأبوكريفيا حالياً). وقال: إن هناك كتباً لم يشملها القانون ولكن الآباء حددوا قراءتها للمنضمين إلينا حديثاً، ويريدون أن يتتلمذوا لكلام التقوى، وهي: حكمة سليمان، وحكمة يوشع بن سيراخ وأستير ويهوديت وطوبيت"، وقد قرر مجمع ترنت المنعقد سنة ١٥٤٦ : "إن كل من لا يعترف بجميع الأسفار الموجودة في "الفولجاتا" (النسخة الكاثوليكية من الكتاب المقدس، والتي يعترف بأسفارها الأرثوذكس أيضاً) هو مهرطق، ويعتبر "محروماً"، أي إن "القديس" أثناسيوس بطل مجمع نيقية وصاحب قائمة القانون يعتبر بناء على ذلك: محروماً ومهرطقاً!!!

- أجـــل. فقد تم إقرار أناجيـــل متى ولوقا ومرقس ويوحنـــا، ولكن أناجيل مريم المجدلية ويعقوب وفيليب وبطرس وغيرها، تمت إدانتها. سفر أعمال الرسل تم اعتباره تربوياً، ولكن أسفاراً عن أعمال أخرى للرسل، وسفر"أعمال كثلى" تم رفضها. الرسالة الأولـــى والثانية لأهـــل كورنثوس تمت إجازتها، ولكن الرســـالة الثالثة لم تحظَ بذلك الشـــرف. كانت فتوى أثناسيوس جديرة بالملاحظة لأنها كانت المرة الأولى التي يقترح فيها أحد كبار رجال الكنيسة أن أسفاراً معينة فقط ينبغي إجازتها.

- وماذا كان مصير بقية الأسفار؟

- أبيـــدت بالتدريج، وبعد ذلك كل ما عرفناه عنها هو إشـــارات ناقدة وجدت في كتابات أعدائها من آباء الكنيســـة المسيطرة، كي يدينوها، وكذلك كي يحذروا رعاياهم من التعاليم الهدامة التي حوتها.

- أبيدت تماماً؟

- أجل. وربما كان سيبقى الأمر كذلك إلى الأبد، لولا أن اكتشف في كانون الأول/ ديســـمبر ١٩٤٥ اكتشاف أرغم الباحثين على إعادة التفكير تماماً في طبيعة المسيحية المبكرة.

- أين؟

- في مصر نفســـها، قريباً من النيل في منطقة تسمى نجع حمادي، تقع على بعد ٣٠٠ ميل جنوب القاهرة. هناك عثر قبل أكثر من ٦٠ ســـنة على مكتبة من الأســـفار البرديـــة تحتوي على أكثر من ٥٠ عملاً مخطوطاً من عصر المســـيحية المبكرة، الجزء الأكبر منها غير معروف. وقد ذهبت إلى هناك مع بروفيسور[١] كرس آخر ثلاثين سنة من عمره لدراسة هذا الغموض.

- كيف عثر على تلك المكتبة؟

---

(١) البروفيسور الذي ظهر في الفلم هو بارت أرمان الذي استشهدنا بكتبه في الفصول السابقة.

- لقد أخبرني ذلك البروفسور أنه كان سبعة فلاحين من قرية قريبة بالقرب من الأقصر، يحفرون في نجع حمادي ليجدوا نوعاً من التربة كانت تستخدم سماداً. أحدهم ضرب شيئاً في الأرض مكتشفاً هيكلاً عظمياً، وبجانب الهيكل العظمي وجدوا قارورة يميل لونها إلى الأحمر وطولها قدمان تقريباً، كانت مغلقة وكانت في أعلاها كرة. في البداية خافوا من فتحها ظناً أن بداخلها جنياً، وبعد التداول فكروا أنه قد يكون بداخلها ذهب، عند ذلك كسروها بالفأس، ولكن لم يكن فيها لا ذهب ولا جن، بل كان فيها مخطوطات وأسفار؛ أسفار تشكل المجموعة الأكثر أهمية للأسفار المسيحية المفقودة.

- إلى متى يعود تاريخها؟

- لقد حفظت منذ القرن الرابع، ولكن بعض الباحثين يعتقد أنه ربما تمت كتابتها من أقدم من ذلك بكثير.

- ما الذي كان بها بالضبط؟

- كانت تحوي أناجيل عديدة عن المسيح. ولكن الرجل الذي يصفونه لا يمكن التعرف عليه بيسوع الموجود في الأسفار التقليدية للعهد الجديد؛ فهذا اليسوع لم يمت، وأخذ الثأر من أعدائه، وقبل مريم المجدلية من فمها[1]. إنها كتابات صادمة ومتحدية لم يرها أي دارس غربي قبل ذلك. فمع أنه علم بوجودها في العصور القديمة إلا أنها ضاعت ما يقرب من ألف وخمس مئة من السنين.

- ما الذي تكشفه لنا هذه المخطوطات؟

- إنها تبين أنه في القرون الأولى بعد موت يسوع كان هناك خيارات لحقيقة شخص يسوع، وكيف كانت المسيحية يفترض أن تكون، ومفاهيم أخرى عمن كان الإله،

---

(١) ذكر تقبيله لمريم المجدلية من فمها هو مجرد استنتاج يحتمل الصحة والخطأ نظراً لأن تكملة الجملة أكلها النمل كما سنرى بعد قليل.

أو كـــم إلهاً موجوداً أصلاً[١]؟ ومعظم هذه الوثائق تدعي أنها كانت تقدم رؤيا المســـيح نفســـه! ومن ثم فهذه المعطيات وما تظهره من خيارات لحقيقة شـــخصية يسوع هي تعاليمه التي تكلم بها للعامة.

- ولكن لماذا دفنت المخطوطات في ذلك المكان بالذات؟

- يؤمن الدارســـون بأنها جاءت من دير مجاور أصبح الآن خرائب شاهدت آثارها بنفسي، والكتابات ربما تنسب إلى الرهبان الذين عاشوا فيه. وعندما أصدر أثناسيوس فتواه الصارمة، كان لا بد أن يتخلصوا من تلك الأسفار، ولكنهم لم يتلفوها بل دفنوها على أمل أن يتغير الحال لاحقاً، ويستعيدوها.

- يبدو أن الرهبان بذلوا غاية جهدهم لحماية تلك الأسفار.

- أجل، ولكن لسوء الحظ بعدما تم اكتشافها، كانت على وشك ألا تنجو.

- كيف ذلك؟

- عندما وجد "علي"[٢] رئيس البدو تلك الأســـفار، قطعها ليقســـمها بين أتباعه. ولكـــن عندما زهدوا فيها، وضعها فـــي عمامته وأخذها إلى بيتـــه، حيث رماها في فناء مخصص للحيوانات. وكي يزداد الأمر ســـوءاً، استخدمت أمه بعض تلك اللفائف الورقية في ذلك المساء لتشعل بها النار لطهي طعام العائلة.

- إنها لمعجزة أن ينجو شيء منها بعد ذلك.

- ولكن هذا ما حصل، ونجت بالفعل. وبشـــكل أو بآخر وجدت طريقها شمالاً إلى واحد من أكثر المتاحف احتراماً في مصر؛ المتحف القبطي.

---

(١) موضوع إيمان بعض الفرق المسيحية المبكرة بآلهة متعددة صحيح، وقد تناولته في هذه الرواية، ولكن هذا الموضوع ليس له أصل في هذه المخطوطات بالذات. ويبدو أن هذه المعلومة قد أقحمت في الفيلم بداعي التشويق.

(٢) اسمه هو محمد علي السمان وكان معه أخوه خليفة فقط عندما عثرا على الزلعة التي تحوي المخطوطات، وكانا آنذاك يجمعان السباخ.

- ما الذي يتعلق بالضبط بهذه الأسفار، والذي جعل قادة الكنيسة الأولى يحسون أنه من المهم محاربتها ويدينونها بالهرطقة؟

- هذا السؤال جال بخاطري أيضاً. وقد ذهبت إلى المتحف وتحدثت هناك مع دكتور شهير في القبطيات[1]، قضى أكثر من ٣٠ سنة يصون ويدرس تلك المخطوطات. في المتحف رأيت قطعاً من أناجيل كثيرة لم تضمن بالعهد الجديد، ولكن أحد تلك الأناجيل قد نجا بكامل صفحاته؛ إنه "إنجيل توما".

- توما المشهور في العهد الجديد بأنه الشكاك الذي رفض التصديق بقيامة المسيح حتى عاين الجرح بنفسه؟

- هو بعينه. والإنجيل ينسب إليه ويعلق اسمه على مجموعة لـ ١١٤ قولاً تنسب إلى يسوع كتبت باللغة القبطية؛ اللغة المصرية في بداية الحقبة المسيحية.

- هل تشبه الأناجيل المعتمدة؟

- كلا؛ فأسلوبها وطريقة كتابتها يختلفان تماماً، كما أنه ليس هناك ذكر لموته، أو لقيامته من الموت. التعاليم فيها مربكة ولغزية.

- ماذا قصد بذلك؟

- قصد أن بيت القصيد هو أن يفكر القارئ وليس فقط أن يؤمن.

- هل التعاليم الموجودة في ذلك الإنجيل مشابهة لما نجده في الأناجيل المعتمدة؟

- كثير من الأقوال في إنجيل توما متطابقة مع ما نجده في أناجيل العهد الجديد، وبعضها جديد كلية.

- كيف تقبله العلماء والباحثون؟

- لقد أثيرت الكثير من المناظرات العلمية حول الدقة التاريخية لذلك الإنجيل، وبالذات حول تاريخه. ومع أن الطبيعة الفيزيائية لمخطوطة إنجيل توما يمكن توقيتها بأوائل القرن

---

(١) تحدث معد البرنامج مع الدكتور "ستيفن إيمل".

الثالث، ولكن هناك ما يحملهم على العودة إلى أبعد من ذلك بكثير؛ إلى القرن الأول للميلاد[١]، وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه أقدم من كل الأناجيل المعتمدة. ودكتور القبطيات الشـــهير يرجح أن المعلومات الواردة في إنجيل توما قد تكون أقدم المعلومات المتوافرة عن يسوع.

- لماذا؟

- لأن المنطق يقول إنه إذا تمت كتابة هذا الإنجيل في القرن الأول، فيمكن أن يكون أقدم من الأناجيل المعتمدة.

- وهل هو أقدم فعلاً؟

- هذا ممكن جداً؛ فأســـلوبه، حسب رأي دكتور القبطيات، ليس ببساطة إلا نقلاً لتعاليم يسوع، ومعظم الفقرات تبدأ بـ: "قال يسوع"، وليس هناك هيكل سرد تاريخي، ولكن القليل من هياكل عبارات تاريخية بســـيطة. أما الأناجيل المعتمدة، وبالذات متى ومرقس ولوقا، فهي من أشـــكال "السيرة"[٢]، وهذا الأسلوب الذي ينقل في المقام الأول

---

(١) يتفق الباحثون كافة بشأن تاريخ إخفاء أناجيل نجع حمادي، وهو النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد، وذلك لأن الكتابات التي وجدت على ورق البردي التي استخدمت في تبطين الأغلفة الجلدية للمجلدات تنتمي إلى تلك الفترة (هذه الفترة هي فترة تأسيس الكنيسة الرسمية، واعتماد كتب بعينها مع حرق كل ما يخالفها). أما زمن كتابة تلك المخطوطات فقد تباينت فيه الآراء. فبينما يرجح فريق منهم أن بعضها (مثل إنجيل توما) قد كتب عام ٥٠ بعد الميلاد تقريباً (وعلى رأسهم أستاذ التاريخ المسيحي في جامعة هارفارد البروفيسور "هيلموت كويستر")، يرى رجال الدراسات الإنجيلية أن هرطقتها وانتقادها من قبل آباء الكنيسة، يفرضان أن تكون قد كتبت بعد الأناجيل المعتمدة ذات الطابع الأرثوذكسي القويم!!! وبشكل عام، فإن الرأي السائد بين الباحثين أن زمن كتابة أناجيل نجع حمادي كان بين الفترة من منتصف القرن الميلادي الأول حتى منتصف القرن الميلادي الثاني. (مخطوطات البحر الميت، أحمد عثمان).

(٢) استخدم الفيلم الوثائقي كلمة "بيوجرافي" التي تعني تراجم الأشخاص أو سيرهم. وهذا تصديق لما قاله الشيخ ابن تيمية -رحمه الله-: "هذه المقالات الأربع التي يسمونها الإنجيل، وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلاً، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله التي ليست قرآناً. فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث أو مثل هذه الكتب، وإن كان غالبها صحيحاً". (الجواب الصحيح، (٢/ ١٤)، جواب السؤال رقم(٤٧٥١٦)). وجدير=

ما قاله المســيح وما علمه، هو الذي كان العلماء لمئات الســنين يفترضون بأنه الشكل الأصلي للإنجيل في سياق وظيفته الدينية، لذا فهذا الإنجيل بالتحديد قد يكون طبقاً لصياغته أقدم تاريخياً من أي إنجيل معتمد.

- هل كان إنجيل توما منتشراً بين الناس.

- إن القطــع الكثيرة التي عثر عليها من ذلــك الإنجيل تدعم ذلك الاعتقاد بقوة. والحالة الجيدة لمخطوطات نجع حمادي على الخصوص، هي بسبب أنها كتبت بأفضل أنواع البرديات، والتي تخصص عادة للكتابات عظيمة الشأن.

- لكن ما الذي أدى إلى إبعاده عن العهد الجديد؟ هل ذلك بسبب عدم ذكره لموت يسوع وقيامته؟

- ربما. وربما لأن فيه ما يشير إلى معتقدات "الغنوصيين"[١]؛ ففي إحدى الفقرات يقول: "هذه هي الكلمات المخفية التي تكلم بها يســوع "الحي"، وكتبها توما. وأي أحد يجد "التفسير الصحيح" لهذه الأقوال لن يموت أبداً".

- من هم الغنوصيون؟

- هم فرقة عرفت في الكنيسة المبكرة. وكلمة غنوصي"Genostic" تعني "عارف" بســبب أن التعبير اليوناني عن كلمــة "معرفة" هو "Gnosis" أي إنهم المســيحيون العارفون (بالله).

- حتى وإن كان إنجيلاً غنوصياً[٢]، فلماذا حاربته الكنيسة؟

- لأن طريــق الخلاص الذي تم الإخبار عنــه في الإنجيل كان متعارضاً مع طريق الخلاص الذي أصبح فيما بعد تقليدياً في الكنيسة.

=بالذكر أن الأناجيل، والعهد الجديد بشكل عام، لم تأخذ شكلها الحالي إلا في أعوام متقدمة. فإن أول من قسمه إلى إصحاحات، ورتبه هو الكاردينال "هوجو" في سنة ١٠٤٠ ميلادية. وأول من قسمه إلى آيات(أعداد) هو "روبرت استفانوس" في سنة ١٥٤٥م.

(١) من كلمة الغنوصية "Geosticism" أي حب المعرفة.

(٢) هو ليس كذلك بالمناسبة.

- كيف ذلك؟

- هم يقولون إن الخلاص مفتوح للجميع؛ لأي شخص يؤمن بصلب المسيح وقيامته. ولكن في ذلك الإنجيل يعتبر أن الخلاص هو لـ"خاصة" من العارفين بالله، وهو ما يشكل شرخاً للجماعة المسيحية آنذاك[١].

- ألم يكن هناك قبول مسيحي عالمي بقيامة يسوع من الموت، وأنه ليس فقط تفسير تعاليم يسوع هو الذي سيقود إلى الحياة الأبدية في ملكوت الرب؟

- كلا؛ فإنجيل توما يبين أنه في القرون الأولى للمسيحية لم يكن هذا الأمر مقطوعاً به[٢].

---

(١) أعتقد أن هذا تحليل يجانب الحقيقة، ويحمل الأمور على غير طبيعتها. فالسبب الرئيسي في محاربة ذلك الإنجيل، كما هو واضح، هو أنه لا يذكر موت عيسى عليه السلام وقيامته، الذي هو جوهر الخلاص في التقليد المسيحي الحالي. ويؤكد أن عيسى عليه السلام لا يزال حياً، وأن من يفهم ذلك وينكر ما أضيف عنه سيخلص. ولو كان سبب رفضه هو خلاص الخاصة، فكيف نفسر عدم الاعتراض على إنجيل مرقس الذي جاء فيه: "فقال لهم (يسوع) قد أعطي لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله. وأما الذين هم من الخارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء. لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا. لئلا يرجعوا فتغفر لهم خطاياهم"!!!! أو طبقاً للترجمة العربية المشتركة: "حتى إنهم مهما نظروا لا يبصرون ومهما سمعوا لا يفهمون، لئلا يتوبوا فتغفر لهم خطاياهم" (مر ٤: ١١، ١٢) (مع أن النص نفسه يرد في إنجيل متى (مت ١٣: ١٣) ولكن يفهم منه أن المقصود من الأمثال هو مساعدتهم لأنهم لا يفهمون!!!!) كما ورد نص آخر يوافق النص السابق على لسان يوحنا المعمدان في (إنجيل لوقا ٣: ٧) (إنجيل متى ٣: ٧): "فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي" أي إن يسوع وابن خالته لم يكونا يريدان خلاص الجميع، ولا أن يفهموا كي لا تغفر خطاياهم حسب إنجيلي متى ولوقا أيضاً!، ومع ذلك لم ترفض هذه الأناجيل!!!

(٢) طوائف الكربوكراتيين المارسيونيين والإبيونيين و"السيرنثيين" ترى أن "سمعان القيرواني" قتل بدلاً من المسيح الذي وقف يضحك من غباوة اليهود. ومن الكتب المقدسة قديماً، مثل كتاب "حديث سيث الأكبر" (The second discourse of great seth) و"إنجيل يهودا" المكتشف حديثاً يريان أن الحواري يهوذا هو الذي صلب بدلاً من المسيح فداء له، وأنه لم يكن خائناً. وإنجيل برنابا مثلاً يرى أن يهودا صلب مكان المسيح عقاباً على خيانته، ورؤيا بطرس كما سنرى بعد قليل قالت أن المصلوب رجل لبس شكل المسيح دون أن تحدد هويته، وأن المسيح جلس على جذع شجرة يضحك من غباوة اليهود.

- يمكنني أن أتفهم كيف أن إنجيلاً يحوي وعد الخلاص بالإيمان بتعاليم يسوع نفسها قد يكون شائعاً جداً آنذاك، فكيف قطع أمر الخلاص إذن مقابل الإيمان بالصلب والقيامة؟!!!

- لأن كتباً تحكي أموراً روحية غيبية وغير معقولة عن حياة يسوع؛ كالمعجزات وكقيامته من الموت، يمكن أن تكون جذابة جداً.

- هذا في عالمنا المادي العقلاني، ولكن عالم المسيحيين الأوائل كان مختلفاً تماماً عن القرن الحادي والعشرين، فكيف انتصرت عقيدة الصلب والفداء والقيام من الأموات عندهم؟

- كان هناك سبب واحد على وجه الخصوص دفع قادة الكنيسة التقليدية ليؤمنوا بأن انتصار يسوع على الموت هو السبيل الوحيد للخلاص.

- وما هو؟

- في القرنين الثالث والرابع عانى المسيحيون الاضطهاد في جميع أنحاء العالم الروماني، فضلاً عن مصر. كان رفضهم لعبادة آلهة أخرى، وإصرارهم على اتباع معتقداتهم الخاصة قد خلق توترات وقلقاً حولهم. الآلاف قتلوا لأجل إيمانهم. ولهؤلاء المسيحيين العائشين في خوف، كان هناك مظهر واحد لحياة يسوع يتذكرون روايته خاصة، وقد كان معاناته على الصليب. والأمر الأكثر أهمية هو الوجه الآخر لتلك المعاناة، والتي ولدت التقليد بقيامته من الأموات. معاناته وقيامته كانت نموذجاً لهم وأن ذلك هو الطريق إلى الخلاص.

- فهمت ما تقصده. فإنجيل لا يعطي أي أهمية لموت ولا قيامة يسوع مثل إنجيل توما، لن يقدم ضمانات (الخلاص) لأولئك الذين يواجهون الهلاك.

- تماماً، لذا اعتبر الكثيرون من الآباء أن إنجيل توما كان مخرباً ومدمراً. فيسوع كان معلماً لكلمات الحكمة. هذا جيد جداً، ولكنه ليس كافياً لأن تخاطر بحياتك من

أجل ذلك، وإن استسلمت فستواجه المسيحية مستقبلاً غامضاً. لذلك كان الخلاف الداخلي شديداً، وخيوط الحرب نسجت، ليست بالسيوف والرماح، بل بالكلمات. فالرهان كان مرتفعاً، وكل جانب ظن أنه وحده على الحق، وأن الأفكار التي تبنوها وحدها هي الطريق إلى الخلاص. هذه الأسفار تحمل مفتاح مستقبل الروح، فهي تستطيع عمل فرق بين الخلود في الجنة أو الخلود في النار.

- وبماذا اختلفت أيضاً الأناجيل المستبعدة عن الأناجيل المعتمدة؟

- دور المرأة في الكنيسة مثلاً؟

- وهل كان لها دور مؤثر؟

- طبعاً. ففي أناجيل أخرى كانت مريم المجدلية من تلاميذ المسيح ومشاركة أساسية في التبشير. وخصها يسوع بشرح تعاليمه مما أغضب بطرس. وأكثر من ذلك أيضاً، فقد قرأت بنفسي نصاً فيه يقول: "المخلص أحبها أكثر من كل التلاميذ".

توقف هنيهة، ثم استدرك قائلاً:

- خلال فترة الدفن الطويلة في الصحراء، بعض الأسفار هاجمها النمل وقدَّ أجزاء منها. أحدها كان جزءاً مهماً من إنجيل فليب. هذا الجزء المأكول من النمل وضع الباحثين في حيرة من أمرهم.

- وما وجه الأهمية في ذلك الجزء بالذات؟

- إن ما قبله هو: "لقد قبلها (يسوع) في '...'." والكلمة الناقصة أكلها النمل. وكان على الباحثين، كدكتور القبطيات الذي تحدثت معه، أن يستخدموا خلفيتهم في النحو القبطي لاستنتاج أنسب كلمة في هذه الحالة؛ وهي أنه قبلها في فمها، مما يشي بعلاقة جنسية بينه وبينها[1]، ولما كانت الكنيسة ترفض بقوة أي دور لمريم المجدلية وأي

(١) كما هو واضح فإن هذا أيضاً هو استنتاج فاسد يقصد منه الإثارة والتشويق أكثر من البحث عن الحقيقة.

علاقة روحانية خاصة مع يسوع، فإنجيل كإنجيل فليب سيكون مزعجاً ويجب إقصاؤه.

- أهو الإنجيل الوحيد الذي ذكر أهميتها؟

- كلا؛ هناك إنجيل آخر يؤيده في ذلك. ففي عام ١٨٩٧ بدأ اثنان من علماء الآثار البريطانيين بالتنقيب في أماكن معينة في صعيد مصر، واكتشفت أكثر من خمسين ألف قطعة من المخطوطات عمرها ما قبل ١٥٠٠ سنة. وفي وسط هذا العدد الكبير لم يعيروا اهتماماً كافياً لها كلها في البداية، ولكن بعد اختبارات دقيقة لتلك النصوص اتضحت أهمية أحدها. إنه "إنجيل مريم المجدلية"؛ هذا الإنجيل لم يعلم بوجوده أحد، حتى العلماء والباحثون. جزء من ذلك الإنجيل موجود الآن بالمكتبة العلمانية بأكسفورد، وقد ذهبت إلى هناك واطلعت عليه.

- ماذا يحوي؟

- إنه يصرح بأن التلميذ الذي عهد إليه بقيادة الكنيسة، ويعتبر أول بابا، لم يكن بطرس، وإنما مريم المجدلية. وأن بطرس كان يحسدها ويستكثر أن يؤثرها يسوع عليه أو على أي من التلاميذ بشرح تعاليمه.

- إذن قدسية الكنيسة، وطريقة الخلاص، ووضع المرأة أو قيادتها، هي القضايا الأساسية في الخلاف بين تلك الأناجيل والأناجيل المعتمدة.

- أجل. ولكن الخلاف الجوهري الذي تشترك به الكثير من تلك المخطوطات من جهة والأناجيل المعتمدة من جهة أخرى هي في طبيعة يسوع نفسه، فألوهية يسوع لم تكن من أصل العقيدة، بل أفكار ثورية جديدة لم تظهر للوجود إلا بعد ثلاثة قرون من الجدل الساخن.

- هذا منطقي، فكيف ليسوع أن يكون كلاً من إله وإنسان في الوقت نفسه؟

- تماماً، وهناك إنجيل آخر مفقود يظهر بوضوح الصراع العنيف في هذه المسألة.

إنه عمل يقترح بصدمة بأن يسوع لم يكن إنساناً قط، بل إله[١]، وبأنه كان عدواً لأقرب تلاميذه. وقد تم اكتشافه مصادفة في العام ١٨٨٦، حين قامت بعثة إرسالية أثرية فرنسية بالتنقيب عن قبر راهب في مكان معين في الصعيد (بمدينة أخمين)، هناك اكتشفوا مخطوطة رقية مدفونة مع الراهب، وبعد ترجمتها أدركوا ما اكتشفوه وأهميته. لقد كان جزءاً من إنجيل بطرس المفقود لقرون.

بعد سماعه بموضوع تأليه بطرس ليسوع، راجع أبراهام معلوماته السابقة[٢] مفكراً:

---

(١) لا أعرف إلى ماذا استند القس جونز في زعمه أن إنجيل بطرس يقترح أن عيسى عليه السلام إله وليس بشراً قط، مع أن الإنجيل ناقص؟!!! وسوف أذكر مقطعاً لما اكتشف من ذلك الإنجيل حتى يحكم القارئ بنفسه أكان يفهم منه فعلاً أن عيسى إله، فقط لمجرد أنه لم يصلب حقيقة ولكن شبه للناس. في هذا المقطع يقول يسوع لبطرس في الرؤيا: "ولكنهم لن يستطيعوا إيذائي وأنت يا بطرس ستقف وسطهم. لا تكن خائفاً لأن عقولهم سوف تغلق بسبب أن غير المرئي(الرب) قد اعترضهم. وعندما قال هذه الأشياء رأيته ويبدو كأنهم يمسكون به، وقلت: ماذا أرى يا سيدي؟! إنه أنت نفسك الذي يأخذونه! وأنت الذي تقبض بيدي؟! أو من هذا الشخص السعيد الضاحك فوق الشجرة؟ وهناك شخص آخر يضربونه على يديه ورجليه. قال لي المخلص: "الذي تراه ضاحكاً فوق الشجرة هو يسوع الحي(الذي لم يصلب)، ولكن الذي يدقون في يده ورجليه المسامير هو جزؤه الجسدي. البديل الذي وضع في العار، الشخص الذي أصبح في شبهه. ولكن انظر إليه وإلي. وعندما نظرت قلت: يا سيدي لا ينظر إليك أحد فلنهرب من هذا المكان" (رؤيا بطرس ٢٤ - ٤، ٨١، نجع حمادي ٣٣٤) (Pagels. TGGp. ٧٢). وما اكتشف من الإنجيل لا يتكلم على ألوهية ولا ينفي البشرية، بل يتحدث عن "المسيح الحي" الذي لم يصلب بل شبه للحاضرين أنه صلب بينما كان يضحك وهم يدقون المسامير بشبيهه الذي وضع به العار. ولا يفهم من هذا أن بطرس قد قصد أن المسيح ليس بشراً ولا أنه إله، والله أعلم.

(٢) على عكس المتعارف عليه في الأناجيل المعتمدة حالياً، فإن أغلب الأناجيل الأخرى ذكرت بطرس بمظهر المغالي في طبيعة يسوع، وبالجبن، وبالحسد لمريم المجدلية! حتى الأناجيل المعتمدة نجد فيها إشارات إلى ذلك لو أمعنا النظر فيها. فمع أنه جاء في متى (١٦: ١٧) أن المسيح كافأ بطرس وأعطاه تفويضاً مطلقاً قائلاً له: "طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانَ بْنَ يُونَا. فَمَا أَعْلَنَ لَكَ هَذَا لَحْمٌ وَدَمٌ، بَلْ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَنَا أيضاً أَقُولُ لَكَ: أَنْتَ صَخْرٌ. وَعَلَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا! وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ: فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ، يَكُونُ قَدْ رُبِطَ فِي السَّمَاءِ؛ وَمَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ، يَكُونُ قَدْ حُلَّ فِي السَّمَاءِ". إلا أن يسوع يقول في الإصحاح نفسه: "من تظنوني؟ فيجيب=

فماذا لو كان بطرس قد غالى فعلاً في المسيح؟ وماذا لو كان المسيح قد وبخه لمغالاته وضعف إيمانه وجبنه؟ وماذا لو أنه أراه ما سيحدث مستقبلاً حتى يكف عن تأليهه، ولكن أمر الرب كان، ولم يفهم بطرس حقيقة رؤيته، عندما لم ير لاحقاً المسيح وهو يجلس ضاحكاً على الشجرة وقت وقوع المكتوب فعلاً. وماذا لو أن المسيح عندما قال إنه الصخرة التي ستبنى عليها الكنيسة، قد قصد بذلك الكنيسة التي ستنحرف عن الحقيقة، وتؤله المسيح؟ هل يعقل كل هذا فعلاً؟!!!

- أين سرحت؟

- أفكر فيما تقوله؟ فالعهد الجديد يصور بطرس على أنه كان رئيس التلاميذ، واليد اليمنى ليسوع، والصخرة التي ستبنى عليها الكنيسة ولن يقوى أحد عليها، وحافظ مفاتيح السماء. هل هناك شاهد عيان أفضل منه على ما كان يحدث في أثناء حياة يسوع؟!!! لماذا هناك رسالتان فقط منسوبتان إليه في كل العهد الجديد[1]؟ ولماذا وبخه بولس الذي يفترض أن يكون أدنى منه منزلة؟ وإذا كان لبطرس إنجيل كما تقول، فلماذا لم يعلم أحد بذلك الإنجيل؟! فمن الطبيعي أنه كان سيضم إلى العهد الجديد دون نقاش، ولكنه لم يضم!!! أليس كل ذلك محيراً، بل مفاجئ؟!

=بطرس: أنت ابن الله. فيقول يسوع: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي" متى(١٦: ٢٣)، ثم يقول له: "يا قليل الإيمان لماذا شككت؟" متى ١٤: ٣١، و"ابتعد عني يا شيطان، لأن أفكارك هذه أفكار البشر، لا أفكار الله" (مرقس ٨: ٣٣). وفي مواضع أخرى ينبئه المسيح بأنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك عند القبض عليه. (متى ٢٦: ٣١- ٣٥، مرقس ١٤: ٢٧- ٣١، لوقا ٢٢: ٣١- ٣٤، يوحنا ١٣: ٣٦- ٣٨).

(١) أثبتت دائرة المعارف البريطانية أن تلكما الرسالتين المنسوبتين إلى بطرس هما ليستا له، وأنهما مزورتان عليه؛ حيث تتعلق بتاريخ ما بعد موته، ولم تقبلها كنيسة رومه إلا في سنة (٢٦٤م)، في حين اعترفت بهما كنيسة الإسكندرية (البابا أثناسيوس) في القرن الثالث (يذكر أن الرسالتين توافقان أفكار بولس). وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرسالة المنسوبة إلى يعقوب، حيث يؤكد المؤرخون عدم صحة نسبتها إليه أيضاً، إذ إن يعقوب كان ينتقد بولس كثيراً لعدم عمله بشريعة التوراة، ويلزمه بأداء الكفارة لمخالفته إياها، في حين أن هذه الرسالة المزعومة تخالف ما هو ثابت عنه في أكثر من موقع.

- العلماء والباحثون كانوا يعلمون دائماً بوجود إنجيل لبطرس بسبب الإشارات الموجودة في المخطوطات المسيحية الأولى، لكن رد الفعل تجاه ذلك الإنجيل كان مفاجئاً هو الآخر.

- كيف؟

- المؤرخ الكنسي أوسابيوس القيصري كتب عن الإنجيل سنة ٣٨٠م، ولكن بدل أن يمجده وضعه في خانة الهرطقة والتزوير.

- لماذا؟

- لأنه كان خطيراً جداً[١]، تخيل إنجيلاً مكتوباً بواسطة أعرف الناس بيسوع، ولكن محتوياته تظهر أمراً كان من الممكن أن يهز الكنيسة الأولى بقوة، إذ إن في الأناجيل المعتمدة يسوع كان إلهاً وإنساناً. ولكن في إنجيل بطرس كان يسوع إلهاً فقط (!) ظهر بشكل بشر، ومن ثم فإن تألمه وموته كانا خدعة، أي لم يمت ولم يصلب (وما قتلوه وما صلبوه)، ولهذا رفضته الكنيسة. فإنجيل بطرس يظهر بوضوح شديد أن هذا الأمر كان تحت جدال ونقاش المسيحيين الأوائل الذين ارتبكوا حول فكرة التوازن بين ناسوت ولاهوت يسوع، وحدثت مناقشات ساخنة عن كونه إنساناً أم إلهاً أم كان شيئاً بينهما؟؟؟ أي إن الذين اختلفوا حول الموضوع كانوا في شك منه مريب[٢]، ويتبعون الظن.

---

(١) مع أن أسابيوس القيصري هو أهم مؤرخي المسيحية القدماء الذين بقيت كتبهم إلى زمننا المعاصر، وأكثرهم دقة وأغزرهم علماً، (مر معنا ذكره في المحطة الثانية من الجزء الثاني) إلا أنه يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوي إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته!!! وجدير بالذكر أنه قد بالغ في مدح الإمبراطور قسطنطين وحياته التي انتهت كمسيحي صالح (موحد)، وحاول أن يكتب تاريخ مجمع نيقية دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس (كان مقرباً من كل من الإسكندروس وأريوس في الوقت نفسه)، كما كانت له ميول أريوسية واضحة تماماً في مجمعي أنطاكية، وصور، وهو ما عرضه لانتقادات كبيرة من قبل المؤلهين. ولكن مع ذلك اعترفت الكنيسة الرسمية بكتاباته (بعد بعض التنقيح بالتأكيد)، واعتمدت عليها كل كتب التاريخ الكنسي المتأخرة، لعدم وجود مؤرخين مؤلهين في ذلك الوقت. وجدير بالذكر أيضاً أنه قد حاول في كتابيه أن يحدد السنة التي وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين، وأن حسابه لا يزال معتمداً إلى الآن.

(٢) بشكل عام نجد أن أهل البدع يكون الشك هو أول أمرهم، ثم يدخلون من باب التأويل والترجيح، ثم يصبح ذلك اقتناعاً يترسخ أكثر مع مرور الزمن وكثرة الجدل، وآخر أمرهم يصير ذلك عقيدة لا ريب فيها، يدافعون وينافحون عنها بكل ما أوتوا من قوة.

- وأنت ماذا تظن بكون يسوع لم يتألم على الصليب؟

- مع أنني لا أوافقهم، إلا أنني أستطيع تفهم الذين حملوا إنجيل بطرس جيداً. فلو كان يسوع إلهاً، فبالتأكيد لم يكن ليتألم، وفي واقع الأمر، "الله لا يمكن أن يموت"[١]، وهذه المدرسة الفكرية أصبحت تسمى "ستيزم أو الدوستية" (Cetism or Docetism). وهو اسم مشتق من الكلمة اليونانية "كيسس أو دوكيسس" (kesis or dokesis) التي تعني "الشبه" أو "الظهور"، وأولئك الذين كانوا جزءاً من هذه المجموعة كانوا يسمون "الشبيهيين" أو "الظهوريين"، وحديثاً سموا بـ"المتوهمين"[٢] وهؤلاء يؤمنون أن إنسانية يسوع لم تكن حقيقية.

- هل كان الجدال حول كون يسوع إلهاً فقط أو مزيجاً من إله وبشر كما حسم لاحقاً. ألم تكن هناك خيارات أخرى اختلفوا عليها؟

- بالطبع، كان هناك من يظن بأنه مجرد بشر لا غير، ولكنه شخص مرتبط بالله[٣].

---

(١) هذا ما جاء حرفياً على لسان القس جونز في الفيلم الوثائقي.

(٢) ترجمة التسمية التي اشتهروا بها وترجمة مرادفاتها تؤكد ما ذهبت إليه من فساد الاستنتاج المشبوه بأنهم كانوا مؤلهين والله أعلم. ويذكر معجم أكسفورد للكنيسة، ص ٤٠٩: أن الفرقة الدوستية(Docetists) أو المتخيلة أنكر أصحابها صلب المسيح، وقالوا: إن الله سلمه من الصلب، والذي صُلب مكانه ذلك التلميذ الخائن يهوذا الإسخريوطي، أو حامل الصليب سمعان القيرواني. وهذا أيضاً ينفي عنهم تهمة تأليه المسيح.

(٣) أي يؤمنون أنه نبي بشري. وقد جاء في الحديث: "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب" (رواه مسلم). وفي القرآن قوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾ [**آل عمران**: ١١٣]، أي إن هناك من كانوا على بقية من الحق عند بعثته #. وهم ليسوا فقط من أتباع المسيح، فكثير من اليهود خارج فلسطين لم تبلغهم دعوة المسيح عليه السلام، أو لم يتبينوا حقيقة رسالته، أو وصلتهم على شكلها المحرف، فظلوا على بقية الحق الذي في التوراة حتى أشرق نور الإسلام.

امتحان القبول

كانت الأفكار تتزاحم في رأس أبراهام وسط ذلك الكم الهائل من الشبهات والشكوك التي أحاطات بفجر المسيحية. ولكن بصيص نور الوحدانية الباقي بعث في نفسه بعض الأمل ثانية، فسأل القس سينوج مستفسراً:

- ماذا تظن بأولئك المؤمنين بوحدانية الرب وبكون يسوع مجرد بشر؛ أكانوا موجودين منذ البداية، أم أن ذلك الاعتقاد كان فعلاً بدعة متأخرة جاءت مع أريوس في بداية القرن الرابع كما يقولون؟

- أخشى أنهم كانوا موجودين منذ البداية، فقد وجدت في إسرائيل آثار أناجيل ونصوص أخرى تقترح بصدمة بأن يسوع كان مجرد إنسان اختاره الله، وكانت هناك جماعات مسيحية مبكرة تبنت هذا الاعتقاد.

- هل لك أن تضرب مثلاً على إحداها.

- الأبيونايتس[١]؛ وهم جماعة مسيحية من أصل يهودي عاشوا في القرن "الأول" الميلادي[٢]، وقد آمنوا أن يسوع هو المشيخ اليهودي الذي أرسله الله ليحقق البشارة

---

(١) الأبيونيون. وللمزيد من المعلومات عنهم راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف. والأبيونيون هم نفسهم الإسينيون (إيسنز Essenes)، ولابد أن تكون التسمية الأصلية هي "العيسويين"، خاصةً أن المفرد اليوناني هو إيسوي أي عيسوي (لاحظ الشبه بصيغة المضاف إليه أو المنادى لاسم عيسى في اليونانية "إيسوي Ιησου").

(٢) تمتد أصولهم إلى القرن الثاني قبل الميلاد حسب التقويم الميلادي المعمول به حالياً. ويؤكد كثير من الباحثين أن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) كان واحداً منهم. كما جاء في الأناجيل إشارة قد يفهم منها أن أباه (زكريا عليه السلام) كان منهم أيضاً: "كَانَ فِي زَمَنِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسمهُ زَكَرِيَّا، مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا، وَزَوْجَتُهُ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ" (لوقا١ : ٥، ٦).

اليهودية[١]، وكانوا يحرصون على الشعائر اليهودية.

- هل كانوا المجموعة اليهودية الوحيدة التي اعتنقت المسيحية في ذلك الوقت؟

- كلا بالطبع؛ فبعد كل شيء يسوع كان يهودياً، وكذلك كان تلاميذه وأتباعه.

- ماذا يقول إنجيلهم؟

- للأسف، فبخلاف الغنوصيين والتشبيهيين لم يكتشف أي من كتابات الإبيونايتس الدينيـــة أو حتى إنجيلهم إلى الآن. وكل ما نعرفه عنهم هو ما كتبه أعداؤهم[٢]، ونجد لمحات عن أناجيلهم فيما كتب عنهم في عصور المسيحية الأولى. إحدى تلك اللمحات نجدها فيما كتب جماعة من المســيحيين الأوائل ســميت بـ"الأبوفينيوس"، وواحد من أقوى تلك النصوص سمي بـ"البناريان" وفيه هجوم شديد على أكثر من ثمانين جماعة مهرطقة وعلى أسفارهم.

- هل اطلعت عليه؟

---

(١) هذا ليس دقيقاً، فوثائقهم تتحدث صراحة عن مسيحيَّيْن (لم يسموهما صراحة) سوف يرسلهما الله إلى العالم؛ أحدهما سيكون من نسل إسرائيل (يعقوب) عليه السلام وستكون مهمته محصورة في التوجيه الديني (priestly messiah)، ويسميه أتباعه بمعلم البر والتقوى (Teacher of Righteousness)، ومع أنهم لا يذكرونه بالاسم مطلقاً، إلا أن أوصافه تنطبق على عيسى عليه السلام. (لمزيد من التفاصيل عن المسيحيين راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف). ولكن أحد الكهنة وهو الكاهن الشرير (Wicked Priest) يخونه من أجل المال ويحاول تسليمه لأعدائه، لكن الله يعاقبه هو بأن يسلمه إليهم ويجعلهم يقتلونه. وتتحدث أيضاً المخطوطات عن رجل الكذب (Man of lies) الذي لوث اسم المعلم واحتقر التعاليم وأضل الكثيرين. وواضح أن الكاهن الخائن هو يهوذا وأما الكذاب فهو بولس الذي كانوا يعادونه. وأما المسيح الآخر الذي تتحدث عنه المخطوطات فهو الذي سوف تشرق شمسه على كل العالم لتبدد الظلمات، وسوف تكون كلماته كوحي السماء وسوف يحكم سيفه على جميع العالم، وسوف يرسل لجميع أبناء عصره ويمحو الجيل الذي بعث فيه الشر من العالم، وسوف يختلق الناس الأكاذيب عنه. وقد وردت له ولأصحابه صفات كثيرة في هذه المخطوطات تنطبق على النبي محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ويمكنك أن تقرأ هذه المخطوطات بنفسك، فهي موجودة في العديد من المكتبات العامة ومترجمة للعربية والإنجليزية، وموجود فصول منها على الإنترنت.

(٢) هذا أيضاً ليس صحيحاً، لما ذكرناه في الحاشية السابقة، إلا إذا كان يتحدث عن طائفة أخرى مختلفة تماماً.

- بل أفضل من ذلك، لقد قابلت البروفيسور الذي درسه بتمعن[١]، وقد وصف البناريان كـ"دليل إلى طوائف الإيمان المسيحية التي يمكن أن تعتنقها".

- وكيف صنفهم البناريان؟

- لقد صنفهم كطائفة ضمن الطوائف المسيحية التي تعتبر مهرطقة، وأنهم يفضلون إنجيلهم، الذي يصفه أحد الكتاب بأنه النسخة القديمة لإنجيل متى باللغة العبرية.

- إذا كان إنجيلها معترفاً به من قبل الكنيسة الحالية، فلم عدوها مهرطقة إذن؟

- صحيح أن إنجيلهم هو إنجيل متى الذي تعترف به الكنيسة الرسمية، ولكن إذا درسنا المعطيات المتوافرة بشأن النسخة التي كانت عندهم من ذلك الإنجيل، فإننا نجد فروقاً بين النصين تصدمنا[٢].

- مثل ماذا؟

- في إنجيل متى ولد يسوع ولادة عذرية من مريم فقط[٣]، ولكن الإبيونايتس

---

(١) البروفيسور "لاري هورتادو".

(٢) في الصفحة ١٧٩ من كتاب The new testament modern english revised student edition by J. B Philips العهد الجديد نسخة منقحة خاصة بالطلاب بواسطة عالم اللاهوت البريطاني فيلبس، يقول عن إنجيل متى: "في التقاليد الأولى ينسبون هذا الإنجيل لمتى ولكن معظم العلماء في هذا العصر يرفضون ذلك، ويؤكدون أنه كان ينقل كتابه من مصدر غير معروف، يحتمل أن يكون تقاليد سماعية، أو أنه كان ينقل من إنجيل مرقس"!!! ولكن من المفترض أن متى تلميذ المسيح وشاهد عيان، فكيف ينقل من شخص غير معروف وليس شاهد عيان وجاء بعده؟ ربما كان التفسير الوحيد لذلك أن الأيادي عبثت لاحقاً بالنسخة الأصلية من إنجيل متى، وغيرت محتواه معتمدة على ما جاء بإنجيل مرقس، وأن البعض كما قال القديس جيروم في مقدمته: "لقد وقعت أخطاء عند محاولة التوفيق بينها، لذلك ترى خلطاً شديداً في الترجمات اللاتينية. فأحد الكتبة قد قال أكثر وفي الآخر قد أضافوا إذا تصوروا أنه أقل". ومن ثم فإن الاختلاف بين نص إنجيل متى الحالي الذي أقر في القرن الرابع وبين إنجيل متى الذي كان مع الأبيونيين في القرن الأول، يعود إلى أن إنجيل مرقس الذي عدل إنجيل متى الحالي بناء عليه لم يكن موجوداً أصلاً أيام الإبيونايتس، وعليه فإن إنجيل متى الذي كان معهم كان أكثر أصالة وأقل تحريفاً من إنجيل متى الحالي، والله أعلم.

(٣) هذا ليس صحيحاً.

يعارضون ذلك[١]، لذا فإنهم في إنجيلهم لم يذكروا الولادة العذرية للمسيح، الذي يكون، من ثم، في ظنهم ثمرة زواجها من يوسف النجار، مما ينفي عنه صفة الألوهية[٢]، وهناك بعض الباحثين الذين يظنون أن الإبيونايتس يعتبرون يسوع بشراً، ولكن بعد التعميد حل به الرب وقاده كالمركبة، وبعد انتهاء مهمته صلب الإنسان وصعد الرب[٣].

---

(١) وهذا ليس صحيحاً أيضاً كما سنرى بعد قليل.

(٢) لأن نسخة إنجيل متى التي كانت مع الأبيونيين قد فقدت، ولأن المعلومات التي نعرفها عنها وعن تلك الجماعة التي اعتمدتها هي معلومات قليلة وجزء منها بلسان أعدائهم الذين ذكروهم ثمان مرات في ثلاثة كتب فحسب؛ فإن ذلك لا يكفي لافتراض أنهم كانوا ينكرون ولادة المسيح الإعجازية، فقط لأن المعلومات المتوافرة عنهم لم تذكر ذلك!!! وعليه فإن استنتاج ذلك البروفيسور أن إنكارهم لألوهية المسيح يقود إلى أنهم كانوا يظنونه ابن يوسف النجار، لعدم ذكرهم لولادة المسيح الإعجازية في المعلومات القليلة المتوافرة عنهم، هو استنتاج فاسد حتماً، ويدخل في باب التخمين. ونذكر هنا بما قاله أوريجانوس من أنه "يوجد فريقان من الأبيونيين: أولهما ينكر ولادة الرب يسوع المعجزية، وثانيهما يؤمن بها". أما جيروم في خطابه لأغسطينوس فيقول إن الأبيونيين ينكرون الميلاد المعجزي للمسيح. وأما الذين يؤيدونه فهم طائفة هرطوقية أخرى من اليهود المتنصرين سماها بـ"الناصريين". والعلامة "أبيفانيوس" نفسه، والذي يعطي أكبر قدر من المعلومات عن الأبيونيين، قد صنفهم ضمن طوائف الناصريين. راجع الحاشية اللاحقة.

(٣) كما هو واضح فهذا أيضاً مجرد ظن وتخمين، وإسقاط إيمان طائفة على طائفة أخرى. فكل ما وصل إلينا عن ذلك (من كتابات أعدائهم) أن الأبيونيين كانوا يرون أن القوة التي حلت على المسيح هي الحكمة السماوية، أي "الكلمة" (اللوجوس)، وبفعل هذه القوة الإلهية صنع المعجزات وتكلم بحكمة تفوق حكمة البشر، ولكن هذه القوة الإلهية فارقته على الصليب، ولذلك صرخ: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" (مت ٢٧: ٤٦)!!! ولا ننس أن هذا منقول بواسطة أعدائهم، وبذلك يظل الشك قائماً في دقة تفاصيله (وبالذات بعد اكتشاف كتاباتهم في نجع حمادي). وأهم كتابات الأبيونيين التي وصلتنا عن أبيفانيوس (وهو الكاتب الذي يعطينا أكبر قدر من المعلومات عن الأبيونيين كما أوضحنا) هي "الكتابات الكليمنتية" 'المواعظ، والإقرارات' و"صعود إشعياء" و"أناشيد سليمان". وإن صحت نسبة الكتابات الكليمنتية للأبيونيين كما يقرر أبيفانيوس، فهي تعطينا مصدراً مهماً لمعرفة آرائهم. وقد وصلتنا كاملة في ثلاثة أشكال أو أربعة، وهي: المواعظ والإقرارات مع صورتين مختصرتين لهما، ويبدو أنها جميعها تنقيح لمؤلف سابق اختفى، وأساسها جميعاً رواية دينية طعمت فيها مواعظ لبطرس ومحاوراته مع شمعون الساحر. وجاء فيها أن "كليمنت" كان شاباً رومانياً يتيماً ذا مكانة، وكان يبحث عن ديانة، فتقابل مع برنابا الذي بشره بالمسيح وأنه ظهر في اليهودية. وإذ أراد كليمنت أن يعرف أكثر عن يسوع، فقد سافر إلى قيصرية حيث تقابل مع بطرس، ومن هناك رافق بطرس إلى

- كيف تقول إن إنجيل متى أو أياً من الأناجيل المعتمدة الأخرى تذكر ولادة المسيح الإعجازية، مع أنه يوجد فيها ما يوحي ببنوة المسيح ليوسف النجار؟ فسلسلتا نسب يسوع هناك هما عن طريق يوسف النجار وليس مريم.

- لقد فسروا ذلك بأن إحدى السلسلتين كانت في الواقع عن طريق مريم، ولكن هذا أمر شرحه يطول[1] وهو خارج عن موضوعنا الآن.

مختلف الأماكن التي ذهب إليها متعقباً شمعون الساحر. وفي أثناء رحلاته يتقابل مع أبيه وأخيه وأمه، ومن= =هنا جاءت "الإقرارات". وتظهر الأبيونية في أحاديث بطرس، فالأفكار اللاهوتية فيها هي أساساً يهودية وأسينية، ويبدو ذلك في المعاداة الشديدة للرسول بولس، ويسوع يسمى باستمرار بـ"النبي" في المواعظ، و"المعلم" في الإقرارات. والرسول بطرس -الذي يصورونه مسيحياً مثالياً- يمارس الاغتسال (الوضوء) كثيراً مثلما يفعل الأسينيون (والمسلمون)، ويعلن بطرس في أحاديثه أن "النبي الحقيقي": يطفئ نيران المذابح "كتابات الرؤى": وأول هذه الكتابات -التي اكتشفت حديثاً- "صعود إشعياء"، ويشير الكاتب إلى استشهاد بطرس في رومه، ولكنه لا يذكر بولس. ويبدو أن ما جاء به من وصف شيوخ ورعاة "يكره بعضهم بعضاً ويخربون القطيع" هو نظرة إلى الكنيسة عندما سادت فيها تعاليم بولس. كما يؤكد عذراوية مريم وأن الطفل ولد بدون ألم بطريقة معجزية. ونفس الفكرة عن ميلاد المسيح نجدها في أناشيد سليمان.

(١) لقد أرجعَت الأناجيل المعتمدة نسب المسيح إلى يوسف النجار فعلاً. أما ولادته الإعجازية من أم دون أب، فهي إحدى الحقائق النادرة التي يعود الفضل في بقائها، ومن ثم فرضها على الإيمان المسيحي لاحقاً، إلى ما يسمى بالتقليد الشريف. مع أن التقليد اعتبر أن عدم وجود أب بشري يجعل الله هو ذلك الأب والعياذ بالله. ويجدر التنبيه هنا أن تلكما السلسلتين مختلفتان في كثير من المواضع، وقد بررت الكنيسة ذلك الاختلاف الكبير بالأسماء والأجيال وعدد الآباء، بأن سلسلة لوقا تختص بمريم وأن هالي هو أبوها وليس أبا يوسف. (مع أن الكنيسة تؤكد أن اسم والد مريم هو يواقيم!!!) ولكن ذلك منافٍ للنص الظاهر ولا يفسر التشابه بين السلسلتين في بعض الأسماء واختلافها في آبائهم. وهذا التناقض بين التقليد والأناجيل المعتمدة في تلك النقطة، وتبريرات الكنيسة غير المقنعة في الجمع بين العقيدتين قد أثارت الكثير من الشكوك بين المثقفين المسيحيين الذين افترضوا أن متى ولوقا لم يطلعا على ما كتبه الآخر حيث لم يستشهدا به أو يعترضا عليه رغم ذكرهما نفس الحادثة باختلاف كبيراً (مثلاً عند متى ٢٦ جيلاً حتى داوود، وعند لوقا ٤١ جيلاً) ومن ثم فإن أحدهما أو كليهما لم يكتب بإلهام من الروح القدس (أو أن السلسلتين سجلتا نقلاً عن مصادر شفوية اختلفت بها ذاكرة الحفظ، أو أنهما أضيفتا لاحقاً). وقد دفع ذلك الكثير منهم إلى الإلحاد، مثل "الأب جان مسلييه" راعي أبرشية أتربيني في شمبانيا، الذي توفي تاركاً نقداً إلحادياً لاذعاً للأناجيل والعقيدة نشر بعد وفاته، وجاء فيه: "لماذا تنتهي سلسلتا النسب لإنجيلي متى ولوقا بيوسف النجار إذا كان سيعفى سريعاً من إنجاب يسوع؟!!!". وكذلك تساءل فولتير ساخراً: "أي سهو فاضح أن يتحدث الكتاب المقدس عن مولد المسيح من العذراء ثم يتعقب نسبه عن طريق يوسف خطيبها؟!!".

- إذن هناك أناجيل عديدة مثل أناجيل الموحدين الذين يؤمنون بالطبيعة البشـــرية ليســـوع، وأناجيل التشـــبيهيين المؤمنين بالطبيعة الإلهية ليســـوع، وأناجيل أصحاب الطبيعتين الذين يؤمنون بلاهوت وناسوت يسوع. وكل تلك الأناجيل ظلت متداولة حتى القرن الرابع!!!

- أجل. فموضوع طبيعة يســـوع الذي كانوا يتجادلون به، لم يكن متفقاً عليه بتاتاً، ولم تحسمه الكنيسة الرسمية بســـهولة. فهذه المناقشات الساخنة استمرت لأكثر من ٣٠٠ سنة، ولكنها استقرت أخيراً، وقررت أن يسوع كان إلهاً من إله ولكنه أيضاً إنسان حقيقي! هذا التصريح أدان مباشرة إنجيل بطرس ومعه كل كتابات التشبيهيين، وأدان إنجيل متى العبري القديم ومعه كل كتابات التوحيديين، ورماها جميعها بالهرطقة.

- كما فهمت منك، فقد تصارعت المســـيحية حول طبيعة يســـوع منذ نشأتها حتى الفترة الأولى من قيام الكنيســـة الرسمية، بين ثلاثة اتجاهات رئيسية؛ هي الموحدون، والمؤلهون ليسوع تماماً، والمؤلهون ليسوع ممن يدعون له طبيعة بشرية أيضاً، ولم يتفقوا على تحديد أناجيل وكتابات دينية بعينها وسط ذلك التنوع.

- في الحقيقة كان هناك اتجاه رابع، وهذا الاتجاه بالذات هو الذي اقترح اعتماد أسفار بعينها منذ البداية لتشكيل قانون كنسي للكتاب المقدس، واعتبارها هي وحدها الوحـــي. لقد كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ الكنيســـة التي يجمع فيها أحد ما (بشـــكل فردي أو غير ملزم) قانوناً كنســـياً معيناً ويدين بقية الأسفار، وكان ذلك قبل اعتماد أسفار العهد الجديد بزمن طويل. وربما كان ذلك بالذات هو بداية الحركة التي أدت لاحقاً إلى اعتماد قائمة معينة من الأناجيل والأســـفار، وإدانة (ومن ثم التخلص من) كل تلك الأناجيل والأسفار الدينية الأخرى.

- كيف نشأ ذلك الاتجاه؟

- في سنة ١٣٩م سافر رجل يدعى "مارسيون"[١] من شاطئ تركيا إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وكان قد كون ثروة كبيرة من أعمال متعلقة ببناء السفن، لذا فعند وصوله تبرع بسخاء بمئتي ألف قطعة نقدية للكنيسة، ثم عمل على التدوين والكتابة، منفقاً كثيراً من وقته في نشر مفهومه عن الإيمان المسيحي. وبعد خمس سنوات أنتج اثنين من الأعمال الأدبية الأكثر تميزاً وثورة في الكنيسة على الإطلاق، وكانا في قمة الخطورة لأنهما كانا سيغيران مسار تاريخ الكنيسة.

- من أي ناحية؟

- من نواح عديدة؛ فجميع أسفار العهد القديم كانت ضمن الأسفار التي أدانها، ولو قدر له النجاح لما كان هناك عهد قديم إطلاقاً عند المسيحيين اليوم، وكل ما يتعلق بيهودية المسيح كان سيمحى من التاريخ. أفكار مارسيون كانت جريئة، ومنطقية في الوقت نفسه، ولكنها كانت خطيرة إلى درجة أن "تيتاليان" وهو أحد آباء الكنيسة الأولى، قد خصص خمسة مجلدات كاملة لمهاجمتها.

- ما سبب هذا الرعب؟

- لقد أجرى مارسيون مقارنة دقيقة بين العهد القديم والكتابات المقدسة الأخرى حول يسوع، وما اكتشفه أدى به إلى استنتاج يصدم بقوة.

- ما هو؟

- لقد لاحظ أن الإنجيل الذي كتبه يسوع هو الأخبار السارة عن الخلاص، فهو يشمل الحب والغفران، وأنه بذلك يناقض كل الأخبار السيئة الموجودة بالأسفار اليهودية، من موت ومذابح ودمار وأوامر متزمتة. وهذا معناه من وجهة نظره أن إله

---

(١) قد يكون هذا الرجل بالذات هو المسؤول عما ألصق ببولس في حال براءته، والله أعلم. لتفصيل ذلك، راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف. الجدير بالذكر أن معنى كلمة مار هي سيد، وكلمة سيون هي صهيون، ولكنني للأسف الشديد لم أستطع أن أؤكد هذا الظن، بأن أصل التسمية آرامي، ويعني سيد صهيون.

اليهود (يهوه) دموي وعنيف ومتسلط، فكيف يكون هذا الإله هو أيضاً الرقيق الودود والرحيم ليسوع المسيح؟! إجابته كانت متطرفة جداً.

- شوقتني ما هي؟

- لقد قرر أن التفسير الوحيد هو وجود إلهين اثنين، إله العهد القديم كان الخالق في التكوين الذي دعا اليهود إلى أن يكونوا شعبه وأعطاهم قانونه (الشريعة). هذا الإله أصر أيضاً على أن شعبه لابد أن يعاقب لأنه فشل في حفظ ذلك القانون، ومنذ ذلك الحين كل من أخطأ بشكل ما، كل البشر، كان يجب أن يعاقبوا. ثم استنتج مارسيون بأن يسوع هو إله آخر، جاء إلى العالم كي يخلص الناس من ذلك الإله الشرير، إله اليهود، ولقبه بـ"الإله الغريب" لأن أحداً لم يعرف شيئاً عنه قبل ذلك، وادعى أن قدومه كان غير متوقع، وفعل أكثر مما كان أي أحد يتمناه؛ لقد دفع بنفسه ثمن أخطاء الناس لينقذنا من ذلك الإله الدموي في العهد القديم[١].

- كيف كان رد المسيحيين؟

- أما المسيحيون الرومانيون ذوو الأصول الوثنية، فلم تشكل فكرة الإلهين صدمة لهم على الإطلاق. أما المسيحيون الآخرون أي التوحيديون[٢] فكانت الفكرة افتراء فاضحاً. وحتى يبرهن على هذا المفهوم وقف مارسيون نفسه لكتاباته مقدماً العملين الأدبيين اللذين ذكرتهما قبل قليل؛ أولهما عرف باسم "الأنتيتيوثيز"، وقد ذهبت لأقابل قساً مؤرخاً للكنيسة الأولى درسه بتمعن[٣].

---

(١) هذا استنتاج ليس له ما يؤيده مطلقاً. فمارسيون كان ينكر صلب المسيح ويقول إن سمعان القيرواني هو من صلب عنه، وأنهى دور التوراة بقدوم الإنجيل، وعلم أن هناك ثلاثة آلهة، الإله الأعلى الصالح، والإله العادل الخالق للعالم وللبشر، والإله الفاسد(الشيطان)، وأن الإله الخالق لم يستطع شيئاً أمام إله الشر فاضطر الإله الصالح إلى التدخل والنزول إلى الأرض ليعلن نفسه للبشر بواسطة الإنجيل.

(٢) الذين كانوا قادة الكنيسة وقتها، حيث لم تتدخل الإمبراطورية الرومانية بعقائدها بشكل مباشر إلا بعد قرنين من زمن مارسيون.

(٣) وهو د. "بيرناد جرين".

- ماذا أخبرك عن ذلك الكتاب؟

- فعلياً، هو تعليق على الكتاب المقدس. والذيّ فعله هو أنه اختار من بين النصوص تلك المتعلقة بيسوع وقارنها خطوة بخطوة بالعهد القديم.

- أعطني مثلاً.

- أوضح مثل ممكن هو الأبرص؛ فيسوع لمسه وشفاه، أما في العهد القديم (في سفر اللاويين) فالأبرص كان نجساً ولابد ألّا يلمسه أحد.

- وما العمل الأدبي الآخر لمارسيون؟

- لقد كان القانون الكنسي للكتاب المقدس: قائمة الأناجيل والأسفار التي اعتمدها دون غيرها، مديناً الباقي تماماً.

- ما الذي اعتمده وما الذي أدانه بالضبط؟

- اعتمد إنجيل لوقا فحسب، وعشر رسائل من رسائل بولس[1]، وأدان كل الأسفار المسيحية الأخرى، بالإضافة إلى العهد القديم برمته[2].

---

(١) إنجيل لوقا عند المارسيونيين يختلف بمواضع كثيرة عن إنجيل لوقا الحالي، ولا يحتوي الإصحاحين الأولين منه، وفيه أن المسيح لم يصلب حقيقة، بل صلب سمعان القيرواني بدلا منه. وكذلك رسائل بولس العشر عندهم لم تكن متفقة تماما مع الرسائل الموجودة الآن. بل إن بعض العلماء يقولون إنه لم يكن من ضمنها الرسالتان الأولى والثانية إلى تيموثي والرسالة إلى تيطس. وبذلك اعترفوا بسبع رسائل فقط من أصل أربع عشرة رسالة في العهد الجديد المعتمد حاليا (بالإضافة إلى الرسالتين اللتين كتبتا للمارسيونيين خاصة، وهما الرسالتان إلى الإسكندرية وإلى لاذوكيا اللتان جاء ذكرهما في رواية بشارات هائمة للمؤلف).

(٢) أي إن النصرانية قد نسخت اليهودية. ونلاحظ أنه كان شائعا بين المسيحيين الأوائل وجود إنجيل واحد فقط تعتبره الإنجيل الحق وبه كل ما يحتاجونه. وهذا هو المنطق. وليس أربعة أناجيل متناقضة كما قرر لاحقا كمحاولة للتوفيق بين عقائد مختلفة. وفي محاولة لتعليل وجود أربعة أناجيل مختلفة لدى الكنيسة يقول "إيريناوس" أسقف ليون في بلاد الغال (فرنسا في العصر الحديث) في كتابه المكون من خمس مجلدات والمسمى "ضد الهرطقات" مارسيون لم يكن وحده فحسب الذي افترض بالباطل أن هذا الإنجيل أو ذاك فقط من بين الأناجيل هو المستحق لأن يقبل باعتباره كتاب مقدس، بل كان معه أيضا "هراطقة" آخرون. فالمسيحيون المتهوّدون الذين تمسكوا بالصلاحية المتواصلة للشريعة استخدموا متى وحده، =

- لماذا اعتمد تلك الأسفار بالذات؟

- لقد شعر أنها الأكثر خلواً من التأثير اليهودي (التوراتي)؛ ففي إنجيل لوقا وبوضوح شديد كان يسوع يقدم رسالة للغفران والحب ويحاول أن يصل إلى المضطهدين.

- ولكن لماذا ركز على رسائل بولس اليهودي إذن؟

- لأن بولس حرر المسيحيين من اتباع القانون اليهودي (الشريعة)، وألغى الالتزام بالعبادات والتطهير والختان وقوانين الطعام. وكان مارسيون يؤمن بأن هذا هو مفتاح المسيحية الحقيقية[١].

- ولكن كيف يمكن أن يتصور أحد مسيحية بعيدة عن العهد القديم[٢]؟!

- لم تكن هذه هي المشكلة، فمارسيون كان يضع إصبعه على موضع حساس في المسيحية، لأن العهدين متناقضان فعلاً، ولأنه توجد فعلاً مصادر كثيرة تبين أن المسيح كان معارضاً لجوانب كثيرة في الشريعة اليهودية. كما أن المسيحية الأولى حاولت أن تخلي نفسها من سيطرة قانون اليهود حتى تصبح ديانة عالمية مستقلة، ولكن المشكلة الأساسية كانت في فكرة الإله الشرير والإله الطيب.

=وبعض المجموعات الذين زعموا أن يسوع ليس هو المسيح في الحقيقة قبلوا إنجيل مرقس فحسب، ومارسيون وأتباعه قبلوا فقط (شكلاً من) لوقا، ومجموعة من الغنوصيين سموا بالـ"فلانتينيين" قبلوا إنجيل يوحنا فحسب. هؤلاء جميعاً كانوا مخطئين مع ذلك، لأنه ليس من الممكن أن تكون الأناجيل أكثر عدداً أو أقل مما هي عليه؛ حيث إن المناطق التي نعيش فيها في العالم هي أربع مناطق، والرياح الرئيسية أربع، وفي حين تنتشر الكنيسة في أنحاء العالم، وعامود الكنيسة وأرضها هو الإنجيل . . . ، فمن المناسب أن يكون لها عمدان أربعة" !!!! (ضد الهراطقة ٣. ١١. ٧).

(١) لو دققنا بشيء من التأني في أفكار مارسيون للاحظنا تطابقاً بينها وبين تعاليم بولس (كما وصلتنا)، فكلاهما يسقطان الناموس القديم بناموس آخر، بعد أن يدخل على النصوص تغييرات كثيرة تخرجها عن أوضاعها ومدلولاتها الأولى.

(٢) هذا هو المنطق في واقع الأمر؛ فالكتاب الجديد ينسخ الكتاب القديم الذي أصابه التحريف، ولو لم تحرف التوراة واليهودية لما كان هناك حاجة لتنزيل الإنجيل والمسيحية. وكما قال بولس نفسه في الرسالة إلى العبرانيين (٨: ٧): "لو كان العهد السابق (العهد القديم) بلا عيب، لما ظهرت الحاجة إلى عهد آخر (العهد الجديد) يحل محله".

- وكيف كان الرد؟

- ردٌّ أمواله، وحرمان كنسي يسجل للمرة الأولى في تاريخ المسيحية.

- إذا كانت الفكرة قد وئدت في بدايتها، إذن فلمْ يكن لها أي تأثير، أليس كذلك؟

- هذا صحيح بالنسبة إلى فكرة الإله الطيب والإله الشرير، ولكن مع هذا فتأثير مارسيون لم ينتهِ.

- كيف ذلك؟

- لقد كان مارسيون الزلزال الذي بدأ عملية أخذت قروناً لتكتمل؛ ألا وهي: "تشكيل العهد الجديد". وما إن قامت الكنيسة الرسمية بنهاية القرن الثالث[1]، حتى كان قانون مارسيون قد ركز أذهان قادتها بوضوح على فكرة تكوين وتشكيل "قانون" من الأسفار (العهد الجديد) التي يرضون هم عنها بدورهم، ونفي الوحي والقداسة عن بقية الأسفار وإدانتها بالهرطقة، ومنعها.

- على أي أساس اعتمد قرارهم في تحديد أي النصوص بالتحديد مناسب لهم، وأيها لم يكن كذلك؟

أخرج القس سينوج كتيباً عن الفاتيكان من جيبه، وفتحه على صورة لمبنى فخم، وأراها أبراهام قائلاً:

- انظر. هذه هي كنيسة القديس بطرس أحد أعظم رموز المسيحية الأرثوذكسية[2].

ثم فتح على صور كثيرة تظهر العظمة والأبهة والحراسة التي يحظى بها بابا الفاتيكان، وأردف قائلاً:

---

(١) الأصح هو أن الكنيسة الرسمية بدأت في منتصف القرن الرابع (راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف)، والأكثر دقة أنها قامت في أواخر القرن الرابع.

(٢) نسبة إلى الإيمان القويم المعنى الحرفي للكلمة، والمقصود هنا هو مسيحية التقليدية بشكل عام، أي الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية والتي يعتبرها سينوج هنا.

- هذا هو بندكت السادس عشر بابا رومه الذي هو ممثل المنتصرين في تلك المعارك العتيقة بين الفرق المسيحية المتنافسة[١]، واليوم لا تستطيع إلا أن تقف منبهراً أمام غنائم الانتصار. ولكن كيف بالضبط نال المنتصرون كل هذه السيطرة؟! إن شيئاً من الفضل يعود بالتأكيد إلى قانون مارسيون الذي ركز أنظار قادة الكنيسة الرومية على فكرة اختيار وانتقاء الكتاباتِ المعتبرةِ "مقدسةً". ولكن بالطبع كان هناك عوامل واعتبارات أخرى كي يتشكل القرار، مثل: أي النصوص كانت، وأيها بالتحديد لم تكن مناسبة لهذا في نظرهم.

ثم فتح على صورة أخرى قائلاً:

- هذا هو المكان الذي يعتقد أن الرومان قد صلبوا فيه القديس بطرس رأساً على عقب[٢]، وبعد موت بطرس وموت باقي التلاميذ الذين كانوا شهود عيان على حياة يسوع وتعاليمه، كان هناك رأي متنامٍ بأنه من المهم جداً التوافق على نموذج واحد لوقائع حياة يسوع وأحداثها، وإلا أتى أي شخص وادعى أنه يملك قوة إلهية جديدة وأزلية! كان لا بد أن يكون هناك حد فاصل أمام أي أحد[٣]، إذن لماذا كان هذا الخط

(١) باعتباره يجلس على قمة هرم أكبر كنيسة في العالم، ورعاياه هم أغلبية المسيحيين.

(٢) يقول التقليد إن بطرس بعدما اعتقل في روما، استهجن أن يصلب كسيده، وطلب أن يصلب بالمقلوب. ولا يوجد ما يؤيد هذا التقليد من مصادر أخرى، خاصة مع توافر إشارات تدل على أن بطرس قد توفي في سجن في أورشليم!

(٣) أنا نفسي لم أصدق أذني ولا عيني، فأعدت هذا المقطع مراراً لأتأكد من أن الأمور لم تختلط علي. ومع تأكدي أن القس جونز، ومن ورائه معدو هذا الفيلم الوثائقي الخطير، لم يقصدوا بالطبع النبي الأمي محمداً عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بهذا القول، إلا أن من يحاول البحث عن الحقيقة بجد، ويتخذ السبل إلى ذلك، لا بد أن يجد طرف الخيط أخيراً. ولكن للأسف فإن نوايا البعض وخلفياتهم الدينية والثقافية التي تبرمجوا عليها تمنعهم أحياناً من فهم كل ما توصلوا إليه على النحو الصحيح. ومعدو هذا الفيلم الوثائقي قد وضعوا أصابعهم مراراً على كثير من الحقائق المغيبة أو المعتم عليها، وأهمها بنظري هي هذه الحقيقة بالذات، التي نفهم منها بوضوح أن أكثر ما كان له دور في اختيار أسفار العهد الجديد المعتمدة آنذاك، هو تثبيت شمول دين الكنيسة الرسمي وأزليته، أي جعلها عالمية عامة، ودائمة إلى الأبد، وبذلك تقطع الطريق على أي أحد يمكن أن يدعي لاحقاً أنه النبي المنتظر الذي بشر به عيسى عليه السلام!!!!

الفاصل متمثلاً في مجموعة الكتابـــات التي اختاروها في العهد الجديد الذي عندنا اليـــوم؟ لماذا كانت أناجيل متى مرقس لوقا ويوحنا؟ لماذا لم تكن أناجيل بطرس ومريم وتوماس مثلاً[1]؟

- لماذا؟!!!

- إن استشهاد القديس بطرس لم يكن حادثة عرضية منعزلة.

ثم فتح على صورة لميدان بطرس الذي يعتليه تماثيل لكبار رجال الكنيســـة، وأردف قائلاً:

- هذه التماثيل تذكر دائماً بنوعية المشـــاكل التي كانت المسيحية الأولى تواجهها. الرومان قطعوا آلاف الرجال بطرائق وحشـــية وغير إنسانية. في جو كهذا أي إنجيل أو رســـالة لم تتكلم مباشـــرة على معاناة الناس، ببساطة لم تكن لتقبل أو تبقى. جبهة مقاضاة المســـيحيين دائماً ما كانت ترفض تلك الكتابات، من حيث أن المسيح فيها لم يجرح ثم لم ينتصر ليخلصهم. فأعمال التشـــبيهيين مثل إنجيل بطرس، والتي تبين أن يسوع بذاته لم يتألم على الصليب لم تكن مناسبة إطلاقاً، وفي معركة "البقاء للأصلح" سقط هذا الإنجيل.

- معركة البقاء للأصلح!!!

---

(١) يقول الكاتب ليف تولستوي في مقدمة إنجيله الخاص الذي وضع فيه ما يعتقد صحته: "لا ندري السر في اختيار الكنيسة هذا العدد من الكتب وتفضيلها إياه على غيره، واعتباره مقدساً منزلاً دون سواه، مع كون جميع الأشخاص الذين كتبوها في نظرها رجالاً قديسين... ويا ليت الكنيسة عند اختيارها لتلك الكتب أوضحت للناس سبب هذا التفضيل... إن الكنيسة أخطأت خطأ لا يغتفر في اختيارها بعض الكتب ورفضها الأخرى". وقال "جون لوريمر" في تاريخ الكنيسة عن هذه الأناجيل (التي اجتازت امتحان القبول): "لم يصلنا إلى الآن معرفة وافية عن الكيفية التي اعتبرت بها الكتب المعتمدة كتباً قانونية. فإذا كانت قد فرضت بالقوة فمن الذي فرضها ولمصلحة من؟ وإذا كان ليس هناك معرفة عن كيفية اختيارها لتكون كتباً قانونية فكيف تكون مقدسة؟!".

قال أبراهام وهـــو يفكر في التعبير الدارويني الذي اســـتخدمه القس، فيبدو أن الكتاب المقدس قد خضع فعلاً لعملية "تطور"، فأجابه القس مؤكداً:

- بالتأكيد. والفيلم الوثائقي يروي قصة حرب من الأعمال التي انتشرت على طول القارات، والتي أدت إلى كذب وتزييف وإدانة، بل إلى حرب بين الكتابات (الأسفار) من أجل القبول والتضمين في قانون الإيمان.

- ولكن، أليس الشـــيء الأكثر تأثيراً على قضيـــة اختيار تلك الكتابات، كان ينبغي أن يتعلق بالكاتبين أنفسهم؟! أعني كي يتم الحكم على سفر وتضمينه بالعهد الجديد، فلابد أن يكون عملاً صحيح النسبة إلى رسول من رسل المسيح. أليس كذلك؟

- هذا هو المفروض.

- إذن كيف استطاع قادة الكنيســـة اتخاذ قرار بشأن أي الكتابات صحيح النسبة إلى الرسل؟!

- في الحقيقة لقد ســـألت البروفيسور[1] السؤال نفسه، وقال لي: إنه من الواضح تماماً أن تلك الكتابات التي حكمت الكنيسة أن كاتبيها هم الرسل، لم تكن كذلك فعلاً، وإنما وضعت أسماؤهم عليها فقط.

-وهذا بالضبط ما أعنيه. فأنا أعلم أن لوقا ومرقس لم يكونا من تلامذة يســـوع أصـــلاً[2]، كما أن لوقا افتتح إنجيله بقوله: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا، كما ســـلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة، رأيـــت أنـــا أيضاً -إذ قد تتبعت كل شـــيء من الأول بتدقيق- أن أكتـــب على التوالي إليك أيهـــا العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمـــت به"، فالذين كانوا في

---

(١) نفس البروفيسور السابق (لاري هورتادو) متخصص في المسيحيات القديمة.

(٢) ص ٦٤ من كتاب The new testament modern english revised student edition by J. B Philips

البـــدء هم التلاميذ، وهو يعلن أنه لم يكن معهـــم[١]. أما مرقس فهو -كما قال "دنيس نينهام"- مفســـر إنجيله: "لم يوجد أحد بهذا الاسم[٢] عرف أنه كان على صلة وثيقة، وعلاقة خاصة بيسوع، أو كانت له شهرة خاصة في الكنيسة الأولى". إذن فقط متـى[٣]

(١) يفهم من هذه المقدمة أمور أخرى منها: ١- أن كتابه هذا هو خطاب شخصي. ٢- أنه لم يزعم أنه كان شاهد عيان ولكنه أوضح أنه مجرد شاهد سماع. ٣- بيّن أن كثيرين قد سبقوه في هذا المجال. ٤- لم يزعم لنفسه أن قصته تلك تمت بمباركة "الروح القدس" ولكنه أبان بوضوح شديد بأن مجهوده ذاك هو جهد بشري خالص بذل فيه غاية وسعه في التتبع والتدقيق!!! إن الرجل لم يزعم لنفسه عصمة ولا تأييداً قدسياً، فما بال الكنيسة قد أمست ملكية أكثر من الملك فادعت له ما لم يدعه لنفسه؟!!! فإذا علمنا كل هذا لا نستغرب إذن أن يقول دكتور W. Graham Scroggie وهو أحد أبرز المنصرين في العالم من معهد Moody Bible Institute في كتابه "هل الكتاب المقدس كلام الله؟": "نعم إن الكتاب المقدس من وضع البشر، بالرغم من إنكار البعض (من المسيحيين) لِهذا القول من قبيل الحماسة وليس عن علم، فقد خطت أقلام البشر هذه الأسفار بعباراتهم، بعد أن خطرت على عقولهم، فصدرت بأسلوب البشر وتحمل صفاتهم".

(٢) كان هذا الاسم يُطلق على مواليد شهر آذار/ مارس، وهو مشتق من اللاتينية Mart cos، وتعني المنذور لـ"مارس" إله الحرب الروماني، ابن "جوبيتير" كبير الآلهة وصاحب الهيكل العظيم على "الكابيتول" في روما. الغريب هو أن الرواية الإنجيلية تدعي أن اسم مرقس كان يوحنا!!!، فكيف يغير أحد أتباع المسيح اسمه (الذي هو على اسم نبي وحواري مشهورين) إلى اسم وثني يمجد إلهاً آخر غير الله ويعني المنذور له؟!!! وهل كان من قبيل المصادفة أن ذلك الإله بالذات كان بحسب الأساطير الرومانية هو أبو "رومولوس" مؤسس روما؟!!! تجدر الإشارة هنا إلى أن مرقس "يرجح" أن يكون أحد تلاميذ بولس وليس المسيح، ولكن حتى هذا الأمر غير مؤكد تماماً.

(٣) في إنجيل متى(٩ : ٩) كاتب الإنجيل يتحدث عن متى كشخص آخر بصيغة المفرد الغائب وليس عن نفسه: "رأى إنسان اسمه متى". كما مر معنا أن إنجيل متى عند بعض الطوائف كالأبونيين يختلف كثيراً عن إنجيل متى المتوافر حالياً. وكاتب إنجيل متى المتوافر حالياً لا ينسبه إلى متى الحواري أصلاً. وقد جاء في مقدمة الرهبانية اليسوعية لإنجيل متى: "أما المؤلف، فالإنجيل لا يذكر عنه شيئاً، وأقدم تقليد كنسي ينسبه إلى الرسول متى. ولكن البحث في الإنجيل لا يثبت ذلك الرأي أو يبطله على وجه حاسم، فلما كنا لا نعرف اسم المؤلف معرفة دقيقة يحسن بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه". وجاء في The new testament modern english revised student edition by J. B Philips "التقاليد الأولى تنسب هذا الإنجيل إلى متى، ولكن تقريباً كل علماء العصر الحديث ترفض نسبة هذا الإنجيل إلى متى!!! والكاتب الذي نطلق عليه اسم متى "من باب التسهيل" كان ينقل من الوثيقة كيو". راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

ويوحنا[١] كانا من تلامذة المسيح، ولكن أياً من الإنجيلين المنسوبين لهما لم يشر صراحة إلى أنه كتب بواسطتهما فعلاً؟

- هذا صحيح. ويتفق كثيراً مع ما قاله البروفيسور، فهو يؤكد أنهما ليسا من كتب الإنجيلين فعلاً. والواقع أن الأناجيل بشكل عام لم تكتب بواسطة أولئك الذين تم وضع أسمائهم عليها، وإنما التقليد هو من نسبها إليهم.

- ولكن كيف حصل ذلك ؟

- سألته عن ذلك أيضاً، وكانت إجابته: "لا أعلم. ولا أحد آخر يعلم[٢] فقد حدث ذلك بوقت مبكر جداً"[٣]. ثم أردف قائلاً: " ولكن ذلك يُظهر بوضوح أن عامل الحسم

---

(١) جاء في الإنجيل المنسوب ليوحنا (٢١ : ٢٤): "هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذا وكتب هذا ونعلم أن شهادته حق" دون أن نعرف من هو التلميذ ومن يعلم أن شهادته حق؟!!! أي إن الكاتب بأحسن الأحوال يستشهد بنص ضائع وليس هو يوحنا الحواري نفسه. وقد كتب هذا الإنجيل في أواخر القرن الثاني الميلادي في حين أن يوحنا الحواري كما يقول بعض المؤرخين مات مشنوقاً سنة ٤٤م على يد "غريباس الأول". وكما يذكر مؤلف الإنجيل، فإنه مكتوب خصيصاً لإثبات ألوهية المسيح (يوحنا ٢٠ : ٣١: وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه) وقد جاء في الصفحة ١٧٩ من كتاب The new testament modern english revised student edition by J . B Philips أن إنجيل يوحنا "يحتمل أن يكون قد كتب لدعم الأناجيل الثلاثة أو متعمداً لتصحيحها، نحن لا نعرف"، وأغلب العلماء اللاهوتيين في العصر الحديث يرفضون أن يوحنا التلميذ هو كاتب الإنجيل، ويعتبرون أنه قد كتب لاحقاً لثلاثة أهداف رئيسة هي: إثبات أن المسيح إنسان كامل رداً على المؤلهين الذين ينكرون طبيعته البشرية مثل المارسيونيين، وأنه مع ذلك أعظم من يوحنا، رداً على تلاميذ يوحنا المعمدان الذين يدعون أن يوحنا أعظم من يسوع، وأنه ابن الله وفيه طبيعة إلهية رداً على الموحدين. ولكن يجدر التنبيه هنا إلى أن ذلك لا ينفي الحق الذي في إنجيل يوحنا، والذي قد يفسر بأن كاتبه ربما قد استعان بنسخة مجهولة من الإنجيل الحقيقي، أو أن إشارات التأليه قد أضيفت على كتابه لاحقاً، أو كلا التفسيرين معاً، أو غير ذلك، والله أعلم.

(٢) ربما كان أحد الأسباب الرئيسة في اختيار الأسفار المعتمدة (الأناجيل والرسائل والرؤيا) هو محاولة استرضاء الطوائف التي يتبع كل منها واحداً أو أكثر من تلك الأسفار، والتوفيق بينهم، والله أعلم.

(٣) قد نجد توضيحاً لذلك عند أوسابيوس القيصري الذي لم يكن يؤمن بأن رسالة بطرس الثانية سفر إلهي، ولا أن بطرس هو كاتبها فعلاً، ولكنه قال حرفياً في كتابه "تاريخ الكنيسة، ك٣، ف٣، فقرة ١": =

لم يكن صحة نسبة تلك النصوص، بل مدى موافقتها للتقاليد"[١].

- عجيب أن يقرأ الإنسان في الأناجيل معتقداً بقدسيتها دون أن يدري على الأقل الأسماء الحقيقية لمؤلفيها! ولكن ماذا عن إنجيل بطرس وإنجيل توماس وإنجيل مريم وإنجيل فليب؛ هل نسبت إليهم بغير حق أيضاً؟

- لا أظن؛ فكلها أشـــارت بوضوح أنها كتبت بواسطة تلك الشخصيات، والتحقيق يؤيد ذلك فعلاً. وهذه الشـــخصيات كانت رســـولية وبابوية من الجيل الأول، ومع ذلك لـــم يتم تضمينها في القانون، مع أن كل هـــذه المميزات لا تتوافر في أي من الأناجيل المعتمدة رسمياً في القانون.

= "على أننا علمنا بأن رسالته الثانية الموجودة بين أيدينا الآن ليســت ضمن الأسفار القانونــية. ولكنهامــع ذلك اتضحت نافعة للكثيرين، فقد استعملت مع باقي الأسفار". ويقول الأستاذ علي الريس في معرض تعليقه على هذا السفر: ((ويكفي أن نعلم خطورة تحريف رسالة مثل رسالة بطرس الثانية على العقيدة حيث أنها تعلم ببدعة الحلول وبدعة تأليه الإنسان. اقرؤوا إن شئتم ما جاء في الرسالة (٢بط ٤): "اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة)). من كتابه "تحريف مخطوطات الكتاب المقدس".

(١) "وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم (تقاليد) هي وصايا الناس" متى ١٥ : ٩. ويقول البابا شنودة في كتاب" كيف تم فداء البشر"، ص ٦: "هذا هو التعليم الآبائي السليم (وليس تعليم المسيح) في موت الرب!!! فداء عنا ونيابة عن الجميع". كما أن الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا أصدرت وثيقة في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٥ مفادها أن الكتاب المقدس يجب ألا يؤخذ بصدق كل كلامه (the catholic church no more swears by truth of the bible www.timesonline.co.uk). وهذا قريب مما ذكره بابا رومه "بندكت" في كتابه "يسوع النصارى" حيث طالب أتباعه ألا يروا الكتاب المقدس منزلاً من الله، بل فقط "مستوحى من الله". وهذا الكلام قد ذكر كاتبة من مجلة "نيوزويك" الأمريكية في عدد (٥٦٢٠٠٧) بإعلان توماس جيفرسون الذي مر معنا سابقاً بأنه "يمكن تمييز كلمات يسوع الحقيقية مثل جواهر في كومة قمامة". وجدير بالذكر أن مجلة تايم نشرت في عددها الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦ مقالاً عن ندوة دولية حضرها ١٢٠ عالماً مسيحياً درسوا صحة الأقوال المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل الأربعة، فوجدوا أنه لا يصح منها سوى ١٤٨ قولاً من بين ٧٥٨ قولاً منسوباً إليه. وذكر كتاب " الأناجيل الخمسة " الذي أصدرته ندوة يسوع عام ١٩٩٣م: "أن ١٨٪ فقط من الأقوال التي تنسبها الأناجيل إلى يسوع (ربما) يكون قد نطق بها فعلاً".

- كيف يفسرون ذلك ؟

- إنهم يدّعون بأنها كتبت بعد الأناجيل المعتمدة، التي كان لديها السبق والفرصة لتنتشر وليدعى بها ويتم قبول هذا الادعاء. أما بقية الأناجيل، فلو قدروا على ذلك، لكانت فرصتهم أفضل!!!

- وهل لهذا التفسير نصيب من الصحة؟

- هذا التفسير قد ظهر مؤخراً، وليس له ما يدعمه، خاصة أن كتابات آباء الكنيسة الذين ردوا على تلك الأناجيل لا تتفق مع ذلك، ومن ثم فليس لموضوع السبق أو الفرصة أي اعتبار هنا.

- ولكن إذا تركنا الدراسات العلمية والمنطق جانباً، ونظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر إيمانية بحتة، فيجب ألا نتساءل عن السبب الذي دعا الآباء إلى اعتماد أسفار معينة؛ فالروح القدس الذي حل عليهم هو الذي أرشدهم أي الأسفار كان وحياً، وأيها كان منحولاً.

- وإن نظرنا إلى الموضوع من هذه الجهة، فإن الروح القدس إذن هو من كان متردداً لوقت طويل قبل أن يحسم رأيه نهائياً!!!

- كيف ذلك؟!

- لأن هناك عدداً من الأسفار كان الجدال حولها شهيراً[1]، وأبلغ مثال على

---

(١) أي "الكتب الحائرة". وهي أسفار اعتبرها بعض الآباء كـ"وحي أو إلهام من الروح القدس"، واعتبرها آخرون فقط مفيدة للمطالعة. بعضها اعتبرت وحياً لمدة طويلة واستشهد بها الآباء طويلاً كجزء من الكتاب المقدس، ثم تقرر إخراجها منه بعد ذلك مثل: رسالة برنابا، والراعي لهرمس، ورؤيا بطرس ورسالة أكليمنخس الأولى. وبعضها الآخر تم تثبيته أخيراً في الكتاب المقدس بعد أخذ ورد مثل: الرسالة الثانية لبطرس، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، والرسالتان الثانية والثالثة ليوحنا. وقد حظيت كل من الرسالة إلى العبرانيين ورؤيا يوحنا على أكبر قدر من الجدال، ولم تدخلا في الكتاب المقدس بشكل نهائي إلا بعد منازعات شديدة كما سنرى بعد قليل.

ذلك هو قصة اعتماد سفرين للرؤيا وإدانتهما. أولهما هو سفر "الراعي"[١] الذي كان شائعاً جداً في القرون الأولى للكنيسة[٢]، ويظهر في الكتابات المسيحية المقبولة حتى أواخر القرن الخامس، ولكن تم إسقاطه فجأة، وحكم عليه بأنه لم يكتب بواسطة رسول يسوع ولكن بقرين الجن، وبذلك لم يعد وحياً. وأما الثاني فهو سفر رؤيا يوحنا الذي كان مرفوضاً حتى أواخر القرن الرابع[٣]، حيث أجمع المراقبون سابقاً أنه لابد من حذفه بسبب الصعوبات التي فيه، وبسبب تعقيد الرموز التي تضمنها، ولكن تم اعتماده في اللحظة الأخيرة حين قرروا أنه وحي، وأن كاتبه هو التلميذ يوحنا، مع أن المؤلف نفسه لم يدع مثل هذا الادعاء قط[٤]، وجعلوا منه

---

(١) سفر الراعي لهرمس هو أحد أشهر النصوص المسيحية القديمة. كُتِبَ عام ١٤٠م تقريباً في روما باللغة اليونانية، وهو يتألف من ثلاثة أقسام: رؤى، وصايا، وأمثال. وأما دور الكنيسة كمؤسسة فلا يَظهر بشكل جليّ. وهو يُقدِّم نفسهُ على أنهُ "وحي"، ومن ثم ككتاب ملهم، وقد اعتُبِر كذلك حتى القرن الثالث، حيثُ ضُمَّ فيما بعد إلى الكتب المنحولة. وهو يصف المسيح بأنهُ "ملاك"، ولا يوجد فيه أي ذكر للثالوث، ويعطي بعض التوصيات المفيدة في التمييز بين "النبي الصادق" (المنتظر) والأنبياء الكذبة.

(٢) جاء في مجلة "ناشيونال جيوجرافيك" ذائعة الصيت في عددها الصادر في أيار/ مايو ٢٠٠٦ أنه: "كانت هناك كتابات حائرة، أي تارة تعتبر مقدسة وتارة أخرى ينزعون عنها القداسة !!! مثل سفر "إستر" و"رسالة برنابا" و"الراعي هرمس". وقد حذف من العهد الجديد العديد من هذه الكتابات التي اعتبرت مقدسة لفترة طويلة، بل إن بعضها كان يتداول عند المسيحيين أكثر من الأناجيل الأربعة الحالية".

(٣) سنة ٣٨٢م في مجمع القسطنطينية.

(٤) جاء في مقدمة سفر الرؤيا في نسخة العهد الجديد من الكتاب المقدس، دار المشرق، ط١٣ ما نصه: "لا يأتينا سفر رؤيا يوحنا بشيء من الإيضاح عن كاتبه. لقد أطلق على نفسه اسم يوحنا واسم نبي، ولم يذكر قط أنه أحد الاثني عشر. هناك تقليد على شيء من الثبوت، وقد عُثر على بعض آثاره منذ القرن الثاني، وورد فيه أن كاتب الرؤيا هو الرسول يوحنا، وقد نسب إليه أيضاً الإنجيل الرابع. بيد أنه ليس في التقليد القديم إجماع على هذا الموضوع. وقد بقي المصدر الرسولي لسفر الرؤيا عرضة للشك مدة طويلة في بعض الجماعات المسيحية. إن آراء المفسرين في عصرنا متشعبة كثيراً؛ ففيهم من يؤكد أن الاختلاف في الإنشاء والبيئة والتفكير اللاهوتي يجعل نسبة سفر الرؤيا والإنجيل الرابع إلى كاتب واحد أمراً عسيراً. وهناك مفسرون يرون أن ظروف إنشاء سفر الرؤيا أشد تشعباً من ذلك بكثير؛ فهو ليس مؤلفاً متجانساً، بل "محاولة غير محكمة لجمع أجزاء مختلفة"، أنشئت ثم نقحت في العقود الأخيرة من القرن الأول" !!!

بذلك... آخر أسفار العهد الجديد[١].

- إذن فأنت تعتقد أن رجال الكنيسة هم من حدد أسفار العهد الجديد، وليس الروح القدس؟

- أليس من المدهش أن كتابة كتبت في روما مثل إنجيل مرقس تصبح أكثر شعبية وانتشاراً من إنجيل توما؟! إن وجود إنجيل مرقس في المكان المناسب وفي الوقت المناسب قطعاً ساعد على تضمينه بالعهد الجديد. فمن المؤكد أن آباء الكنيسة الرسمية كان عندهم من السلطة والمال ما يحدثون به الفرق، ربما كان إنجيل توما شائعاً جداً في مصر، ولكن خارج معركة روما، كان بعيد الاحتمال عن الانتصار، ومن ثم أن يضمن داخل الكتاب المقدس.

- ألم تكن مصر هي مركز الثقل الديني، وكان البطاركة المصريون هم رؤساء المجامع، وأثناسيوس هو من أعلن قائمة العهد الجديد؟!

- أجل، ولكن روما كانت مركز الثقل السياسي، والإمبراطور قسطنطين أراد أن يستخدم الدين في توحيد الإمبراطورية[٢]، بعد أن تحول إلى الإيمان المسيحي في

---

(١) ربما من الأسباب التي أدت إلى قبوله أخيراً أن آخر فقرة فيه تقول: "وأنا أنذر كل من يسمع الأقوال النبوية في هذا الكتاب ألا يزيد عليها حرفاً، وإلا زاده الله من الضربات الموصوفة في هذا الكتاب. ومن حذف حرفاً من الأقوال النبوية في هذا الكتاب حذف الله نصيبه من شجرة الحياة ومن المدينة المقدسة، وهما اللتان جاء وصفهما في هذا الكتاب" (رؤيا يوحنا ١٨ : ٢٢، ١٩)، حيث إنها توحي بالنهاية وتضع حداً للزيادة والحذف اللذين شاعا في زمن الكاتب الذي يكتب الأقوال النبوية في هذا الكتاب. ولكن ألا تنطبق هذه الآية على آباء الكنيسة الذين زادوا وحذفوا كل تلك الأسفار من الكتاب مراراً وتكراراً؟!!! هل يعني هذا أن الضربات الموصوفة في هذا الكتاب ستزيد عليهم؟ ويحذف نصيبهم من شجرة الحياة؟، على الأقل أولئك الآباء المبجلون إلى الآن في تاريخ الكنيسة والذين اعتمدوا أسفاراً تم حذفها فيما بعد، أو حذفوا أسفاراً تم اعتمادها لاحقاً؟!!!

(٢) لقد كانت دوافع قسطنطين في البداية (مجمع نيقية) سياسية فعلاً، ولكن ليس كما يصفونها عادة.

٣١٢م[١]، والجزء الأكبر من المسيحيين كانوا من الرومان. وفي هذا السياق كانت رسالة أثناسيوس التي يحفز فيها أتباعه إلى عدم قراءة أسفار معينة[٢]، فبدأت جهود متفق عليها على طول الإمبراطورية لتعزيز قدسية أسفار بعينها، ومهاجمة ومنع تداول الأسفار الأخرى التي اعتبرت مهرطقة. وتم لهم ما أرادوا، فكي تنمو بذرة المسيحية، احتاجت الاتحاد وقيادة قوية ومرجعية أصولية (قائمة معتمدة من الأسفار المقدسة). ولو بقيت الأسفار المستبعدة لواجهت المسيحية نفسها، ولتم تدميرها من الأساس. ولولا ما تم من إبادة[٣] لتلك الأسفار، لعل الديانة المسيحية نفسها اختفت إلى الأبد، ولكسفت شمسها. ولما كان المنتصرون هم الذين يكتبون التاريخ، فقد اختفى الكثير من تلك الأناجيل المستبعدة، وتلاشى أثر المهزومين من الذاكرة. ولولا الرمال الوقائية لأرض مصر الجميلة، لكان انتصارهم كاملاً.

---

(١) في الحقيقة فإن التاريخ الصحيح هو ٣١٤م، ولكنه ليس تاريخ اعتناق الإمبراطور للمسيحية، بل تاريخ "مرسوم التسامح الديني الميلاني". أما قسطنطين فقد ظل وثنياً لمدة خمسة عشر عاماً بعد ذلك التاريخ حتى اعتنقها سنة ٢٢٩م ولكن ليس على مذهب التثليث بل على مذهب التوحيد. ففي عام ٣٢٨ رد المنفيين الموحدين وأعاد لهم مناصبهم بعد أن أدرك أنهم الأكثرية، والأهم أنهم أقرب إلى دين المسيح. ولذلك اعتنق دينهم، مع أنه لم يعتنق دين مؤلهي المسيح عندما كان يناصرهم.

(٢) أثناسيوس بالأصل كان يمثل الفكر الديني الغربي في مصر. ومن أجل ذلك بالذات، ومع أنه كان شماساً صغيراً في السابعة والعشرين من العمر، إلا أنه قدم على شيوخ الأساقفة والقساوسة للدفاع عنها في مجمع نيقية، إذ إن أولئك الشيوخ لم يكونوا مستوعبين تماماً لحقيقة الفلسفة الغربية الجديدة التي ينادون بها.

(٣) في ٤٤٧م مثلاً، أمر الإمبراطور "بوبليو العظيم" بحرق كل الأناجيل "المهرطقة".

اللغز الكبير

سرح أبراهام في كل ما سمعه للتو، وهو يقارن بينه وبين ما يعرفه عن كيفية تحديد الأسفار المعتمدة في التناخ(العهد القديم)، فلم يجد كبير فرق يذكر. فالأسفار الخمسة قد أقرت في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وتحديداً في عام ٣٩٨ ق.م حين اعترفت الإمبراطورية الفارسية بناموس اليهود[١]! ويظهر بوضوح أنه لم تكن هناك مجموعة مقننة من الكتب اليهودية المقدسة قبل القرن الثاني للميلاد[٢]، وتلك الكتب التي أدخلها المذهب السائد(الفريسيون) في القانون كانت منقطعة السند، اختاروها من بين ما جمعه وأعاد صياغته "عزرا الكاتب" سنة ٥٣٤ ق.م تقريباً، أي بعد موسى بعدة قرون[٣]، كما أن اعتماد الفريسيين لأسفار معينة دون غيرها[٤] لم يكن بموافقة كل الطوائف اليهودية آنذاك[٥]؛ فهم قد أقروا الأسفار الخمسة نفسها[٦]، بالإضافة إلى ما يسمى بأسفار الأنبياء[٧] التي ألحقوها بالتوراة مع أنها ليست معادلة لسلطة

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية.

(٢) عصر المكابيين.

(٣) تجدر الملاحظة هنا أن ما جمعه عزرا لم يكن كل الأسفار المقدسة كما يقول الكهنة. فبعضها تعذَّر العثور عليه في أيامه بسبب تشتت اليهود بين الممالك، أما البعض الآخر فقد ثبت أنه كُتِب بعد زمنه أصلاً.

(٤) الأسفار اليهودية التي لم تدخل في القائمة كانت خمسة وثلاثين سفراً كما عددها "تشارلز" في مقدمة كتابه: "أبوكريفا".

(٥) من الأمثلة على ذلك: كان الفريسيون يعتبرون "سفر دانيال" مثلاً قانونياً(وحياً)، في حين لم يعتبره الصدوقيون كذلك، أما السامريون فلم يعترفوا بقانونية أي من الأسفار غير الأسفار الخمسة ويوشع. كما أن نصوص السفر نفسه كانت تختلف اختلافات جذرية بين نسخ كل طائفة.

(٦) وهي التكوين، الخروج، اللاويين، العدد والتثنية. وصارت هي التوراة.

(٧) مثل يشوع، القضاة، صموئيل، الملوك.. إلخ.

الأسفار الخمسة[١]، وكان ينظر إليها على أنها شروح وامتداد للتوراة. وفي عام ٩٠م عقد الفريسيون مجمعاً في "جامينيا"، وقرروا اعتبار بعض الأسفار الأخرى أسفاراً قانونية[٢] معتبرين أن "ملاخي" هو آخر الأنبياء، وبوفاته تنقطع النبوة حتى مجيء المشيخ، ثم أعدموا بقية الأسفار[٣]، واعتبروا تلك القائمة نهائية[٤]، ولكن عندما صارت المسيحية تحاجج اليهود في الأسفار القديمة اجتمع الأحبار عام ١٠٠٨م في مدينة صغيرة اسمها "يمنية" قرب يافا لحسم الخلاف بينهم حول أي النصوص تعتبر مقدسة فعلاً، فراجعوا كل الكتابات التي عندهم، لتقرير أي منها يمكن أن يدخل فيما بات يعرف بـ"القانون" وأيها يجب أن تستبعد (أو تعدل نصوصه)، وهو ما عرف بـ"القانون الماسوري"[٥]. ولا يقف التشابه عند ذلك، فكما هو حال الطوائف المسيحية التي تعترف ببعض الأسفار على أنها وحي من الله، ولا تعترف بها طوائف أخرى، فكذلك كان الفريسيون يرفضون أسفاراً باعتبارها غير قانونية[٦] مع أن تلك الأسفار كانت قانونية

---

(١) وذلك لأن تعاقب الكتبة الملهمين لم يكن عندهم في تمام التحقيق حسب تعبير المؤرخ اليهودي يوسيفوس.

(٢) مثل المزامير، الأمثال، نشيد الإنشاد، راعوث، دانيال، أيوب، عزرا، نحميا، الأيام... إلخ.

(٣) يقول القس إلياس مقار: "وقد استلمت الكنيسة المسيحية من اليهود أسفار العهد القديم التي قررها اليهود في مجمع جامينيا عام ٩٠م".

(٤) بلغ عدد الأسفار التي قننوها ستة وثلاثين سفراً.

(٥) الغريب أن النص الذي صار يعتمده المسيحيون حالياً مبني على ذلك القانون بالذات، بحجة أن اليهود هم "حفظة الأسفار الإلهية والمؤتمنون عليها"، وعنهم أخذ الجميع، وعليه؛ فإن كلامهم في مثل هذه القضية هو المعوّل عليه. ولأنهم قد اعتمدوا أخيراً النص الماسوري للعهد القديم، فحكمهم هو الفصل!!! والأغرب أن النص الذي تركه المسيحيون بعد أن كانوا يعتمدونه سابقاً، هو الترجمة السبعينية التي هي أقدم بأكثر من سبع مئة سنة، وأقل تحريفاً، ومكتوبة بلغة تعتمدها الكنيسة أصلاً(اليونانية)!!! والأكثر غرابة أن النص الماسوري قد فاق ما قبله في التحريف، وبالذات فيما يتعلق بنصوص كثيرة تتحدث عن مجيء المخلص (نبي آخر الزمان الذي يؤمن المسيحيون أنه يسوع)!!!

(٦) مثل أسفار طوبيا، ويهوديت، وعزرا الأول والثاني، وتتمّة أستير، ورسالة أرميا، ويشوع بن سيراخ، وباروخ وحكمة سليمان، وصلاة عزريا، وتسبحة الثلاثة فتيان، وقصة سوسنة والشيخين، وبل والتنين، وصلاة منسى، وكتابا المكابيين الأول والثاني. وهي نفس الأسفار التي يعترف بها المسيحيون الكاثوليك والأرثوذكس، وينكرها البروتستانت مع أن النسخ الأثرية المسيحية القديمة مثل النسخ السينائية والفاتيكانية والإسكندرية وكذلك النسخة المترجمة للقبطية التي تعتبر أقدم الترجمات بعد السبعينية، تضمنت جميعها الأسفار المحذوفة.

في ترجمة يهود مصر السبعينية والترجمات العبرية القديمة الأخرى مثل ترجمات "سيماك" و"أكويلا" و"تاودوسيون" والترجمة اللاتينية والترجمة الحبشية. وكما هو حال المسيحيين في الأسفار المقدسة الأخرى المكتشفة مؤخراً والتي كانت تعتمدها بعض الطوائف المسيحية البائدة، كذلك كان لجماعة قمران مثلاً أسفار يهودية كثيرة لم ترد في القائمة القانونية واكتشفت مؤخراً[1].

أحس أبراهام أنه سرح أكثر من اللازم، فاستدار ليشكر القس سينوج على سعة صدره، ويودعه كي يختلي بنفسه قليلاً، ويتابع مقارنته، ولكن في هذه اللحظة بالذات سمع صوتاً من خلفه يقول:

- صباح الخير أيها السادة.

التفت أبراهام إلى مصدر الصوت، فإذا برجلين يقتربان منهما، فخمن هوية الرجل الأكبر سناً فوراً، وبالفعل قام القس سينوج مرحباً وهو يخاطبه قائلاً:

- صباح الخير يا عزيزي ليئور. يبدو أنك من المؤمنين بالمثل القائل: "من الأفضل أن تأتي متأخراً على ألا تأتي أبداً". عزيزي أبراهام ها قد وصل الدعم الذي حدثتك عنه. أقدم لك ليئور أرتسو صاحب فيلم ابن الله.

- تشرفت بلقائك سيدي. لقد سمعت عن فيلمك الوثائقي، ولكن للأسف لم تتح الفرصة لي لمشاهدته بعد.

قال أبراهام مرحباً بانضمام الضيف الجديد إلى الحوار، فحياه الرجل بدوره، ثم قدم رفيقه إليهما قائلاً:

- كان من الممكن ألا أستطيع القدوم أصلاً لولا هذا الشاب الشهم. أعرفكما، هذا هو السيد "جيمس إستس" وقد أنقذني اليوم من ورطة كبيرة. فرد القس سينوج مستفسراً:

---

(١) مثل وصية لاوي، كتاب المنارات السماوية، كتاب الساهرين، كتاب الأمثال، كتاب الحكماء، رسالة أخنوخ، كتاب الجبابرة، عهود الأسباط الاثني عشر واليوبيلات وغيرها، كما اكتشف في قمران كتابات مسيحية مثل كتاب "التلاميذ" و"مخطوطة دمشق" و"مزامير الشكر" و"مخطوطة الحرب".

- تشرفنا سيد إستس. ولكن ما الذي حصل؟

- لقد حاول بعض أشقياء الشوارع الخلفية سرقتي بالإكراه، وبالطبع لم يكلف أي من المارة نفسه عناء التدخل، حتى جاء هذا الرجل الشهم، بل أصر على توصيلي إلى الفندق عندما عرف أنني غريب هنا.

- لم أفعل شيئاً، ولكن الله أراد أن أكون في المكان والزمان المناسبين.

قال السيد إستس باستحياء. فربت القس سينوج على كتفه قائلاً:

- شكراً لك يا صديقي.

- الشكر لله.

- لماذا لا تزالان واقفين؟ تفضلا بالجلوس.

- شكراً. ولكن يجب أن أذهب الآن؛ فبيتي في ضاحية "ووكنغ"[1]، وإن ذهبت الآن، فلعلي أصل وقت طعام الغداء.

- أنا معي سيارة وسأكون سعيداً بإيصالك بطريقي.

- أشكرك من كل قلبي، ولكنني لن أسمح لنفسي بأن أستغل لطفك وكرمك، فالطريق إلى ووكنغ طويل جداً.

- لن تفعل. فأنا هنا في ضيافة صديق قديم في مزرعته بالريف بعد ووكنغ بعدة كيلومترات. وسأكون سعيداً بوجود صحبة معي في الجزء الأكبر من ذلك الطريق الطويل. هيا يا صديقي، فقط فنجان من الشاي، وأعدك أن تكون هناك قبل أن يجلس أي من أفراد عائلتك إلى المائدة.

قال القس سينوج مشجعاً، وانضم إليه في ذلك كل من ليئور وأبراهام. فقبل السيد

---

(١) إحدى ضواحي لندن البعيدة. وقد اخترت ذكر هذه الضاحية بالذات، تذكيراً بصاحب "حنظلة"، الفنان الفلسطيني الكبير "ناجي العلي" الذي يرقد جثمانه هناك في مقبرة "بروك وود"، في القبر رقم ٢٣٠١٩٠م. نسأل الله تعالى أن يرحمه ويغفر له.

إســـتس دعوتهم شـــاكراً، وجلس الجميع يتبادلون أطراف الحديث. وبعد هنيهة أعاد القس سينوج افتتاح الحوار موجهاً كلامه إلى ليئور:

- بالمناســـبة، لم يكن الأمر كما كنا نخشـــى؛ فالســـيد أبراهام يريد فقط معرفة الحقيقة.

- كما كنت تخشى أنت؛ أما أنا فبعيد عن السلك الكهنوتي ولا يخيفني شيء ما دام الحديث في إطار العلم والتاريخ والمنطق.

- هه. لـــو تحدثت مع الأب ديمتري لخرج الحوار فعلاً عـــن كل ما ذكرت، ولكان هناك داع للخوف فعلاً.

- ليس الأب ديمتري كما تذكرون يا سادة، فهو شخص متفتح الذهن وغير متحجر الرأي إطلاقاً.

قال أبراهام مدافعاً، فهز القس سينوج رأسه قائلاً:

- مع أن ما ســـمعته عنه لا يتماشى مع ذلك بتاتاً، لكن، وإذ قد بعث بك بدلاً عنه، فلربما كان كذلك فعلاً. على كل الأحوال فقد سررت كثيراً بالتحدث إليك.

- هل أنت ذاهب؟

- أجل للأسف، فقد تأخرت ومشواري بعيد.

- لقد طلبتني للدعم، وليس لأحل مكانك أيها المخادع.

قال ليئور باستهجان، فرد القس سينوج باسماً:

- ولكنـــك تأخرت كثيـــراً يا منقذي. كما أنني واثق من أنك ستســـر بالحديث مع الســـيد أبراهام، فهو غير متحيز لفكرة معينة، ويقبل الحوار العقلاني والمنطقي بسعة صدر كبيرة، ولا هم له إلا البحث عن الحقيقة. سيد إستس ألن تأتي معي؟

- لا شـــكراً؛ فأنا حقاً لا أود إزعاجك، كمـــا أن موضوع البحث عن الحقيقة يبدو شائقاً بالنسبة إلي ولا أود تفويته.

- كما تريد. إلى اللقاء يا أصدقائي، وأتمنى لكم حواراً مثمراً.

بعد توديع القس سينوج التفت أبراهام لمحدثه الجديد سائلاً:

- لماذا التركيز على مصطلح "ابن الله"؟ ولماذا تدعوه بـ"اللغز الكبير"؟!!!

اعتدل ليئور بجلسته قائلاً:

- لأن الفهم الجديد لذلك المصطلح هو أساس تأليه الكنيسة الرسمية ليسوع، ولأنه فعلاً لغز كبير، يحاول الفيلم أن يجلي غموضه.

- كيف ذلك[١]؟

- يقرر التاريخ أنه في عام ٣٢٤ بعد الميلاد جمع الإمبراطور قسطنطين العظيم جميع الأساقفة من أجل إنهاء نزاع لاهوتي مرير، وقد دارت مناقشات حامية، واتهامات متبادلة بالهرطقة في ذلك الاجتماع، إلى أن رجح الإمبراطور رأي من يقول بأن يسوع هو "ابن الله الوحيد"، وأعلن قانون الإيمان الملزم[٢]، وجعله الدين الرسمي[٣].

- وهل سلم المعارضون بسهولة؟

- كلا بالطبع، ولكن تم قمعهم وتصفيتهم بشدة متناهية، مع أن النصر قد حالفهم في بعض المراحل، ولكن تلك قصة أخرى.

- حسناً، ما دامت الغلبة في نهاية الأمر لأصحاب فكرة أن يسوع هو ابن الله، وما دام المعارضون لذلك قد صفوا نهائياً، فما الذي أعاد الموضع إلى الجدل مرة أخرى؟!

- في عام ١٩٤٧م اكتشف راعي ماعز[٤] في الأراضي المقدسة "مخطوطات البحر

---

(١) بقية الفقرات هي عرض للجزء الأول من ذلك الفيلم مع حذف ما تكرر في الفيلم السابق. وبالطبع مع إعادة صياغته ليكون على شكل حوار بين اثنين.

(٢) أوردت مجلة ناشونال جرافيك في عددها الصادر في أيار/ مايو ٢٠٠٦ أن الإمبراطور قسطنطين استخدم سلطانه في فرض التثليث (الأدق هو إشراك المسيح بالألوهية مع الله) مع أنه لم يكن الرأي السائد في ذلك المؤتمر. وحظر أسفار الموحدين واجتماعاتهم.

(٣) في الحقيقة لم تصبح المسيحية هي الدين الرسمي للإمبراطورية، إلا في أواخر القرن الرابع، كما أوضحنا سابقاً.

(٤) الراعي الفلسطيني "محمد الذيب"، وكان قد دخل أحد الكهوف في المنحدرات العالية التي تطل على "خربة قمران" (في وادي قمران شمال غرب البحر الميت، إلى الجنوب من مدينة أريحا) للبحث عن شاته الهاربة.

الميت"[١] وقد أعطتنا نظرة تاريخية حقيقية لحياة يسوع.

- أين هي الآن؟

- في المتحف الإسرائيلي بأورشليم، ولا يزال أكثر من نصفها غير منشور للآن. والمؤرخ "روبرت أيزنمان" يرى أن المخطوطات تظهر سيرة يسوع الناصري الحقيقية، وهي تظهر أنه كان معلماً يهودياً متمرداً، ولم يدَّعِ الألوهية بأي شكل من الأشكال.

- هل يوافقه الكثيرون على ذلك؟

- طبعاً، فالبروفيسور "كيث هوبكينز" مثلاً يقول إن يسوع ولد وعاش ومات يهودياً، وإن إقامة كنيسة مسيحية تؤلهه، كانت سوف تذهله فعلاً.

- ولكن يسوع نفسه استخدم مصطلح ابن الله.

- في كل العهد الجديد لم يرد ذلك إلا في مكانين اثنين فقط، وكلاهما بإنجيل يوحنا[٢]، وحتى لو سلمنا بهذا، فيجب ألّا ننسى أنه في زمن يسوع كان من الممكن

---

(١) استخدمت هنا تسمية (مخطوطات) الشائعة عندنا، ولكنها معروفة عالمياً باسم (لفائف) Dead Sea Scrolls أي "لفائف البحر الميت".

(٢) تحديداً في الإصحاحين ٥، ١١ من إنجيل يوحنا. وقد كتب هذا الإنجيل أساساً لإثبات ألوهية المسيح. كما يقول الدكتور Robert Alley الأستاذ بجامعة Richmond: "إن الفقرات التي يتكلم فيها المسيح على ابن الله هي إضافات متأخرة تمثل ما كانت الكنيسة تعتقده، وادعاء مثل هذا لا يتناسب مع حياة المسيح التي نتخيلها". ومما يجدر ذكره أن هذا الرجل فقد منصبه كرئيس قسم الأديان بالجامعة لقوله: "لا يمكنني أن أتخيل ولو لدقيقة واحدة أن المسيح امتلك الشجاعة الكافية لكي يدعي الألوهية لنفسه". ويقول "Hastings" في قاموسه للكتاب المقدس: "إن استعمال المسيح لهذا المصطلح هو أمر مشكوك فيه". ويقول "شارل جنيبر": "والنتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين، هي: أن المسيح لم يدع قط أنه هو المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه إنه ابن الله... فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية". وفي هذا السياق أنقل نقداً صارماً مثلته آراء بالداوف Baldauf وكاماير Kammeier اللذين كانا على قناعة، بأن: "تأملاً عميقاً للأناجيل وأعمال الرسل يمنح انطباعاً بأنها كُتبت من أناس لم يعرفوا فلسطين جيداً، ولا اليهودية وطقوسها المعقدة، ولم يلموا باليونانية إلا كلغة أجنبية، مع جهل مطلق بالآرامية"!!!

أن يسمى الكثيرون بابن الله[١]، إنه لقب لليهود شديدي الإيمان[٢]، كما أن الوثنيين أيضاً كانوا يستخدمون ذلك المصطلح. فلقب ابن الله كان في ذلك الزمن مرادفاً للقب "دكتور[٣] في اللاهوت" في زمننا. ابن الله هو أي إنسان حصل على العلوم الإلهية. لقد كان لقباً مجازياً، تصويراً لرمز كان معهوداً في كل الإمبراطورية الرومانية. إنه مصطلح يعبر عن قرب الإنسان لله، ومن ثم فيسوع لم يكن ابن الله الوحيد على الإطلاق. والغريب أن يسوع نفسه لم يدعِ أنه ابن الله، فطبقاً لإنجيل مرقس كان يرى نفسه بأنه "ابن الإنسان"[٤]، ومع ذلك فإن قانون الإيمان المسيحي قائم على الادعاء بأنه كان ابن الله، بل ابنه الوحيد، المولود من قبل كل الدهور!

- قلت إن الوثنيين أيضاً كانوا يستخدمون لقب ابن الله؟!!!

---

(١) بشكل عام استخدمت كلمة "ابن" في الكتاب المقدس للدلالة على: ١- البنوة بالولادة كأبناء نوح، ٢- أو بمعنى القربى والانتساب لأب (جد) واحد كبني إسرائيل وبني إسماعيل، ٣- أو مجازياً كيسوع "ابن المحبة" وبرنابا "ابن البر". ٤- كما استخدمت أيضاً كناية عن الاتباع مثل رسالة بولس الأولى لكورنثوس ١٧ : ٤: "لذلك أرسلت لكم تيموثاوس الذي هو ابني الحبيب"؛ بمعنى التلميذ المخلص المنتمي إليه، ٥- واستخدمت أيضاً بمعنى الأتباع مثل: رسالة يوحنا الأولى ٣: ١٠: "بهذا يتبين أولاد الله وأولاد إبليس"، وإنجيل يوحنا ٨: ٤٤: "أنتم أبناء إبليس"، وإنجيل متى ٥: ٤٥: "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات". وقد أبى الله تعالى إلا أن يبقي بعض الأدلة التي لم تعالج في أثناء التنقيح، وأبقي المعنى المقصود لكلمة "ابن الله" ماثلاً في كتابهم المقدس إلى يومنا هذا، حيث جاء في إنجيل يوحنا ١: ١٢- ١٣: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله أي المؤمنون باسمه، (الشرح من أصل المتن) الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا مشيئة رجل بل من الله"!!!! فسبحان الله جل جلاله.

(٢) قديماً أطلق هذا اللقب (أو أضيف لاحقاً) على أنبياء آخرين مثلاً في (خروج ٤: ٢٢) (مزمور ٢: ٧)، (أخبار الأيام الأول ٢٢: ٩, ١٠)، (متى ٥: ٩)، (لوقا ٣: ٣٨) وغيرها.

(٣) هذا ما ذكره الفيلم الوثائقي حرفياً.

(٤) يبدو أن تشديد عيسى عليه السلام على أنه ابن الإنسان كان استنكاراً لمصطلح ابن الله، وقطعاً لدابر الفتنة في تأليهه.

- بالطبـــع، فقد كانوا يطلقونه على القادة الأقوياء كالفراعنة مثلاً، الذين أعلن كل منهـــم أنه ابن الله[١]، وكذلك بعض الأباطرة كـ"الإســـكندر الأكبر" و"يليوس قيصر"[٢]، كما ســـاد اعتقاد في الديانـــات المصرية القديمة ثلاثة آلاف ســـنة قبل الميلاد، بأن الإنسان يتحول بعد موته إلى الإله أوزوريس ليصبح جزءاً من الألوهية. وهذا ما أصبح لاحقاً حجر الأساس لكل الديانات الغامضة عند الرومان وغيرهم في عالم الصوفية. ورغم تغير أســـماء الآلهة مثل إزيس وميثرا وأدونيس، إلا أن المبدأ ظل واحداً[٣]، كما أن فكـــرة الصلب والعودة من الموت مســـروقة من الأســـاطير الوثنية. فهذا ما حصل مع الإله المصري "أوزوريس" والإله الإغريقي"ديونيســـيوس"، والإله الفارســـي "ميثرا"

(١) يقول المطران كيرلس سليم بسترس في كتابه "الله الخالق": "فبينما كان الوثنيون يعلنون إمبراطور روما "ربّاً" و"إلهاً"، كان المسيحيون، مقابل ذلك، يعلنون أن يسوع وحده هو الرب، ولا إنسان فينا يستحق هذا اللقب الإلهي. وهذا ما أراد آباء مجمع نيقية تأكيده عندما أعلنوا في قانون الإيمان: "وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح". وفي فصلٍ "يسوع هو "ابن الله" يقول: "نقرأ في المزمور الثاني: "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك، سلْني فأُعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي المسكونة مِلكاً لك" (٧، ٨). كانت هذه العبارة تستخدم في حفلة تتويج ملوك إسرائيل، وقد أخذها اليهود عن البابليين والمصريين. فعند هؤلاء الشعوب كان الملك، يوم تنصيبه، يُعلن "ابن الله". ولكن في حين كان المصريون يعتبرون ملوكهم أبناء الله بالجسد بطريقة أسطورية، كان البابليون يعتبرون تلك البنوّة بمعنى التبنّي القانوني. وهذا المفهوم البابلي هو الذي تبنّاه البلاط الملكي الإسرائيلي، وهو الذي نجده في مختلف أسفار العهد القديم. فالملك هو ابن الله ليس لأن الله ولده بالجسد، بل لأن الله اختاره وتبنّاه، فإنّ إرادة الله إرادة خلاّقة وكلمته كلمة مبدعة، يريد فيتمّ، يقول فيكون؛ يقول الله للملك: "أنت ابني، أنا اليوم ولدتك"، فيصبح الملك منذ تلك اللحظة ابن الله".

(٢) فضل بعض الأباطرة مثل طيباريوس وقلوديوس وسبسيانس أن يشجعوا عبادة الإمبراطور بعد موته فحسب، في حين أن بعض الأباطرة الآخرين مثل كاليغولا ونيرون ودوميطيانس أصروا أن يعبدهم الناس في أثناء حياتهم.

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣١] وفي كتاب "المسيح الوثني" لكاتبه توم هاربر أن هذه العقيدة (عقيدة ابن الله المقتول فداء للبشر وقبره وبعثه) موجودة في ست عشرة عقيدة وثنية!!".

(إله الشـــمس) الذي ولد مثل يسوع في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر[١]؛ أي إن المسيحيين اقتبسوا هذه العقيدة أيضاً من عقائد الوثنيين[٢].

---

(١) على عكس الاعتقادات السائدة بأن تاريخ ميلاد المسيح هو ٢٥ من كانون الأول/ ديسمبر، فجرت مجموعة من علماء الفلك مفاجأة مذهلة للغاية، حين خلصوا بعد مجموعة من الحسابات الفلكية الدقيقة إلى أن عيد الميلاد يجب أن يكون في شهر تموز/ يوليو!!! وذلك من خلال الرسوم البيانية لمظهر " نجمة عيد الميلاد" التي قال عنها الإنجيل أنها اقتادت الحكماء الثلاثة إلى السيد المسيح! وقالت صحيفة التلغراف البريطانية أن العلماء وجدوا أن النجم اللامع الذي ظهر فوق بيت لحم منذ ٢٠٠٠ عام، يشير إلى تاريخ ميلاد السيد المسيح كان يوم ١٧/ ٧ وليس يوم ٢٥/ ١٢. يذكر أن القرآن الكريم لا يُحدثنا عن السنة التي ولد فيها المسيح عليه السلام، لكنه أعطانا إشارة واضحة إلى الفصل الذي ولد فيه عليه السلام. إذ يقول تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٦]. ومن الآيات الكريمات يتبين لنا أن السيدة مريم عليها سلام الله، قامت بهز جذع النخلة تلبية لنداء ابنها المسيح وأن النخلة سقط منها رطب جنيّ.. والجميع يعلم أن موعد جني البلح والرطب في الصيف لا الشتاء.. أي إنه عليه السلام لم يولد لا في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ولا ٧ كانون الثاني/ يناير، ولنتأمل في هذه المفاجأة العلمية التي أوردها موقع "إيلاف" نقلاً عن صحيفة "التلغراف" البريطانية في ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٨م: \' Jesus was born in June\' ، astronomers claim

(٢) الروم في ذلك الوقت كانوا يحتفلون بنفس اليوم كولادة لإله الشمس "سول إنفكتوس"، والذي كان يسمى بعيد "الساتورناليا". لقد كان يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر عيداً لأغلب الشعوب الوثنية القديمة التي عبدت الشمس، فقد احتفلوا بذلك اليوم لأنه من بعد يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر يزداد طول النهار يوماً بعد يوم خلال السنة. ومن الشعوب التي احتفلت بالخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر قبل المسيحية: في الشرق الأقصى احتفل الصينيون بـ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر كعيد ميلاد ربهم "جانغ تي". وابتهج قدماء الفرس في اليوم نفسه ولكن احتفالاً بميلاد الإله البشري "ميثرا". ولادة الإله الهندوسي "كريشنا" هي الولادة الأبرز من بين آلهة الهند؛ فقد كانت في منتصف ليلة الخامس والعشرين من شهر سرافانا الموافق ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر. جلب البوذيون هذا اليوم من الهندوس تقديساً لـ"بوذا". "كريس" الإله الكلداني أيضاً وُلد في ذاك اليوم. في آسيا الصغرى بفريجيا (تركيا حالياً) وقبله بخمسة قرون عاش المخلص ابن الله "أتيس" الذي ولدته نانا في يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر. الأنجلوساكسون وهم جدود الشعب الإنجليزي كانوا يحتفلون قبل مجيء المسيحية بـ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر على أنه ميلاد إلههم "جاو وابول". في هذا اليوم أيضاً الإله "ثور" (الشخص الثاني من الثالوث الإلهي الاسكندنافي). السنة عند الليتوانيين كانت تبدأ عند انقلاب الشمس في الشتاء أي ٢٥ كانون=

- لقد سمعت هذا مراراً. لكن هل هناك أدلة تثبته فعلاً؟

- الأدلة أكثر من أن تعد، وآخرها اكتشاف "طلسمان" إغريقي قديم بحجم الإبهام ظهر فيه الإله "باكخوس" (إله الخمر) مصلوباً بنفس الطريقة التي يُدَّعى أن يسوع صلب بها ويشبهه كثيراً. وذلك الإله يسمى أيضاً بـ(ديونيسوس)، ومعناه الحرفي هو ابن الله، أي إنه في الأصل كان إله خمر ضئيلاً، ثم تحول إلى المخلص يسوع المختلف على طبيعته[1].

- لقد اختلف في تحديد طبيعته بعد ظهور الاكتشافات الجديدة، وبالذات الأناجيل التي ظلت مفقودة لردح من السنين، أما الأناجيل المعتمدة فمتفقة بشأنه، وتصفه بشكل كامل.

- هذا ليس دقيقاً؛ فقد بدأ الاختلاف حول طبيعته بعد موته مباشرة، وهو مستمر إلى الآن بمعزل عن الاكتشافات الحديثة. ففي الأناجيل المعتمدة نفسها تناقض واضح في ذلك الوصف.

- كيف ذلك؟

- لنأخذ وصف لحظة قيام الرب من الأموات كمثال. ففي إنجيل مرقس ظهر

=الأول/ ديسمبر وهو عيد "كاليدوس". هذا الوقت نفسه كان يوماً بهيجاً على الروس القدماء فهو يوم مقدس يُدعى عيد "كوليادا"، وقبلها بثلاثة أيام يكون عيد كوروتشن وهو اليوم الذي يقوم الكاهن بعمل طقوس خاصة ليوم كوليادا. بسورية والقدس وبيت لحم (قبل ولادة المسيح) كان هناك عيد ميلاد المخلص "أتيس" في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر. في يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر كانت النساء باليونان القديم تغمرهن الفرحة وهن يغنين بصوت عال: "يولد لنا ابن هذا اليوم"! وكان ذلك يقصد به "ديونيسس" الابن المولود للإله الأكبر. جُلب هذا اليوم كعيد للإله "باخوس" وذلك من بعض عُبّاده الروم ومنه إلى إله الشمس "سول إنفيكتوس".

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%...B3%D9%86%D8%A9

(١) أقدم نص شعري يوناني باق إلى زماننا هذا بخصوص صلب الإله فداء لذنوب البشر هو قصة صلب "كراسيوس" التي كتبها "هوسيوس" في أثينا قبل المسيح بخمس مئة عام، وفيها وصف دقيق لمعاناة كراسيوس وهو معلق على الصليب ويداه ممدودتان بنفس الطريقة.

رجل برداء أبيض لثلاث نساء. في إنجيل لوقا ثلاث نساء وثلاثة رجال قابلوا ملاكين. وعنـــد متى كان هناك امرأتان وملاك واحد. وعند يوحنا فقط مريم المجدلية وحدها شاهدت ملكين. إذن حتى في العهد الجديد لا يوجد اتفاق حول قيامة يسوع، لابد ألا نعتقد أن يسوع كان بطريقة ما حياً، ولكن جسده قام من الموت مادياً.

- ولكن هذا المعتقد مثبت في قانون الإيمان. والأناجيل المعتمدة، وإن لم تتفق حول كيفية حدوثه، إلا أنها جميعاً تتفق عليه.

- أجل، ولكن هذا لم يكن جزءاً من معتقد الجماعة الأولى التي عاصرت يســـوع. وتلـــك الأناجيل التي تتفق على ذلك الاعتقاد هي مجرد أســـفار دينية تعطي انطباعاً بأنها كتب قصصية (كتب سيرة)، أما جوهر الحقيقة التاريخية المتعلقة بيسوع وطبيعته فشيء آخر تماماً، والتحري عن ذلك يعتبر أساسياً للعثور على الحقيقة.

- هل تشكك أنت أيضاً بالأناجيل المعتمدة؟

- إن الأناجيـــل المعتمدة حالياً بأقصى الاحتمالات تســـاهلاً، لم تكتب في وقتها، لقد كتبها رجال مثقفون في مدن شـــرق البحر المتوســـط، في اليونان، ولم تكتب من الصيادين أتباع يسوع الذين ذكرهم الإنجيل[1]، لقد نشأت بعد المسيح بعشرات عديدة من الســـنين. والســـؤال المطروح الآن هو: هل وصفت تلك الأناجيل (المتأخرة) يسوع بنفس مصداقية رفاقه المعاصرين له منذ بداية طريقه؟؟؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- لست أنا، بل العلماء هم من يؤكدون أن أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى المعتمدة (متى ومرقس ولوقا) كتبوا أناجيلهم بعد يسوع بجيلين تقريباً، والإنجيل الرابع (إنجيل

---

(١) قالت "فرنسيس يونج" في كتاب "خرافة تجسد الرب" "the myth of god incarnate" إصدار "جامعة برمنجهام": "إن المسيحيين الجدد الناطقين باليونانية هم الذين حولوا يسوع المسيح اليهودي الفلسطيني إلى كائن إلهي متجسد".

يوحنـــا) كتب بعد ثلاثة أجيال؛ أي عندما ذبلت ذكريات حياته ومعاناته، بعد أن قضى أكثر شـــهود العيان الذين من المحتمل أن يكونوا قد عرفوا يسوع شخصياً، إبان الثورة اليهودية والتدمير الكامل لإســـرائيل على يد الروم. أتباع يســـوع الأوائل كانوا يهوداً، يهوداً مسيحيين، معرفة وتفكير المسيحيين الأوائل القريبين من يسوع، ظلت دفينةً عبر قرون من الزمان، ولكن الوثائق الجديدة التي عثر عليها تمنح نظرة على إيمانهم. المؤرخ الكنسي البرفيسور "جيليس كسبيل" حل شيفرتها، والنتيجة كانت مذهلة.

- ما هي؟

- اليهود المســـيحيون[1] لم يذكروا معنى الخلاص بتضحية يسوع على الصليب، ولا توجد أي كلمة عن ذلك أو عن الصليب أو القيام من بين الأموات، كلمات يسوع ذكرت فقط لتعبر عن الحكمة الإلهية. إذن يســـوع لم يكن إلهاً، وإنما إنســـان ذو علم غزير وحكمة كبيرة. كانوا يرون في يســـوع منارة للطريق، يسوع هو رجل يرشد للطريق إلى الله (رســـول)، وأتباعه كانوا يتمسكون بديانة مختلفة على الإطلاق عن صورة الديانة المسيحية كما أصبحت لاحقاً. وبعد أن تلاشت الذكريات عن يسوع ومات أتباعه الذين عرفوه شخصياً، رفعه الآخرون إلى التأليه وجعلوه ابن الله الوحيد[2]، وازدادت الأفكار والطقوس التي كانت سوف تضع يسوع وأتباعه في موضع الدهشة إن سمعوا بها.

- مثل ماذا؟

---

(١) يقصد الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بعيسى عليه السلام.

(٢) يقول د. جنيبر: "ورأى بولس بوضوح أيضاً أن الأتباع الجدد من الوثنيين لم يكونوا ليتقبلوا كل القبول فضيحة الصليب، وأنه يجب تفسير ميتة يسوع المشينة تفسيراً مرضياً يجعل منها واقعة ذات مغزى روحاني عميق عندهم. وأعمل بولس فكره في هذه المشكلة، ووضع لها حلاً كان له صدى بالغ المدى. لقد تجاهل فكرة يسوع الناصري ولم يتجه إلا إلى يسوع المصلوب فتصوره شخصية إلهية تسبق العالم نفسه في الوجود، رجلاً سماوياً احتفظ به الله إلى جانبه أمداً طويلاً حتى نزل إلى الأرض لينشئ فيها حقاً بشرياً جديداً يكون هو دمه".

- لقد أصبح الاحتفال بالمسيح حالياً من أهم طقوس الاحتفالات، وأعياد الميلاد هي أهم الاحتفالات السنوية المسيحية على الإطلاق. ولكننا لا نستطيع القول بأنه كان عيداً دينياً عند أتباع المسيح الأوائل، أو أنهم قد احتفلوا به أصلاً.

- ألم يحتفل المسيحيون الأوائل بأعياد الميلاد؟

- كلا بالطبع، فقط في مطلع القرن الرابع وجدت أول إشارة إلى الاحتفال بمولد المسيح. احتفالات ميلاد المسيح في ٢٤ و٢٥ كانون الأول/ديسمبر، تتطابق مع عيد إله الشمس، بالضبط عند تحول الشمس في الشتاء[١]، فالشمس في هذا التاريخ تولد من جديد كما كانوا يقولون. والرومان الوثنيون كانوا يحتفلون بذلك العيد منذ البداية، ولكن بعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية، بقي العيد على حاله، ولكن بدل عيد ميلاد الشمس أصبح يدعى عيد ميلاد المسيح[٢]. والولادة الإلهية لم تذكر في أول

---

(١) لمعرفة المزيد من التفصيل في شرح هذا الموضوع، وأيضاً لإلقاء نظرة على الأديان الوثنية القديمة وآلهتها التي ارتبطت بالشمس وبتاريخ ميلادها ٢٤، ٢٥/ ١٢، واعتدالها الربيعي (مثل أعياد الفصح والإستر والنيروز). وحول هذا الموضوع راجع الحاشية التالية.

(٢) وذلك كعادة آباء الكنيسة في صبغ الأعياد الوثنية القديمة بصبغة مسيحية جديدة، مع أن تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام غير مثبت علمياً إلى الآن ومختلف عليه بين الأرثوذكس والكاثوليك وغيرهم. والأمر نفسه ينطبق كذلك على ٢٣ نيسان/ أبريل الذي هو تقويم فلكي زراعي يطابق عيد الربيع في التقويمات القديمة، لكنه تحوَّل إلى عيد الفصح لدى بعض الطوائف المسيحية. وتحول إلى عيد سان جورج في أوربا، أو عيد مار جاورجيوس في روسيا، أو مار جريس في بلاد الشام. وهو ذلك الفارس الذي تُصوره الأيقونات شاباً بهي الطلعة يغرز رمحه في جسد التنين ذي الرؤوس السبعة، وتقف إلى جانب حصانه الجامح فتاة خائفة ورائعة الجمال. وفي روما لم تشأ الكنيسة في عهد البابا "بنيفاس الرابع" وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية آخذة في التهدم والانحلال، بل شرعت في ترميمها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها، فدشن "البانثيون" لمريم العذراء ولجميع القديسين، واستحال هيكل "يانوس" كنيسة للقديس ديونيشيوس، وهيكل "زحل" (ساترن) كنيسة المخلّص. وبالمحصلة ربما لم يتنصر الرومان بقدر ما ترومنت النصرانية (كما قال القرطبي). ويقول "ابن القيم" في "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان": "إن النصارى بعد المسيح، تأثروا بالفلسفة، وركبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية. فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن والروح القدس" ا.هـ(٢/ ٢٧٠).

الأناجيل المعتمدة وهو إنجيـــل مرقس، كما أنها لم تذكر في الإنجيل الأخير (يوحنا). وطبقاً لإنجيل مرقس نزلت الروح القدس على يسوع مثل نزولها على الأنبياء، ثم نفخ فيه من هذه الروح، وفي هذه اللحظة تكلم معه صوت من السماء، أي إنه إنسان عادي نزل عليه الوحي الإلهي في عمر الرجال. وحتى لو سلمنا بولادته الإعجازية وكون أمه هي حمل بلا دنس ودائمة العذرية، ودعوناها بلقب "أم الله" فكيف نســتطيع التسليم بوجود "إخوة الله"؟؟!!

- إنهم لا يقصدون ذلك حقاً.

- إن هذا ما يفهم من الأناجيل!!! فإنجيل متى يقول: "ولم "يعرفها" حتى ولدت ابنها البكر ودعا اســمه يســوع" ١ : ٢٥، والمعنى الكتابي لمصطلح "عرف امرأة" أنه عاشرها معاشـــرة الأزواج مثل: "وعرف آدم امرأتـــه فحبلت وولدت قايين" (التكوين ٤ :١)، كما أن وصـــف الابـــن بـ"البكر" يعني أنه لم يكن الوحيد، خاصـــة مع تكرر كلمة البكر في (لوقا ٢ :٧): "فولدت ابنها البكر وقمطته في المذود"، وجاء ذكر إخوته يعقوب ويوســـي وســـمعان ويهوذا أكثر من مرة على أنهم "إخوة الرب". وقد بنيت الكاتدرائية الأرمينية في أورشليم على رفات أحدهم؛ يعقوب أخي الرب، كما يقولون، الذي كان أول أسقف للقـــدس. وقبل أعوام قليلة تم العثور على تابـــوت صغير من الحجر الرملي، وبنقوش تقول يعقوب ابن يوسف وأخو يسوع. ويعقوب هذا قد تزعم المسيحية منذ موت أخيه، وحتى عام ٦١ بعد الميلاد، وكان شخصية بارزة في أورشليم ذلك الزمان، وعن طريقه وجدت معرفة فاصلة جديدة عن يسوع.

- ما هي؟

- المؤرخ يوسيفوس ذكره مرة واحدة باقتضاب، ولكن بإقرار واضح بأنه كاهن كبير في نهاية القرن الأول غير ضابط للنفس تم قتله من قبل فرقة الصدوقيين اليهودية[١]،

---

(١) جاء في كتاب العاديّات ليوسيفوس أن الكاهن الأكبر "حنان" كان هو المسؤول عن مقتل يعقوب "أخي الرب".

وبعدها قام الكهنة والفريسيون من أصدقاء يعقوب بطرد الكاهن الكبير من منصبه.

- أي إن طائفة الفريسيين كانت تقف إلى جانب يسوع وخلفائه؟!!!!

- أجـــل. ولم تكن تعاديهم على الإطلاق كما تدعـــي الأناجيل المعتمدة. فلمدة ٢٥ عاماً تقريباً كانت حركة يسوع معترفاً بها كحركة يهودية إصلاحية تربطها صلات قوية بشـــديدي الإيمان اليهودي في الهيكل. ومع تدمير الهيكل سنة ٧٠ ميلادية، تم اختفاء حركة يســـوع اليهودية الإصلاحية. إلى ذلك الحين كان معظم المســـيحيين من اليهود، يهود وجدوا مشـــيخهم ومخلصهم في شخص يسوع[1]، وعلقوا أملهم عليه، بأنه سوف يحرر شعب إســـرائيل من مضطهديه بالمساعدة الإلهية، ولكن يسوع كان مخلصاً يعلم أن الخلاص ممكن لأي شخص.

- كيف كانوا يصفونه؟

- ربما لقبه بعض اليهود بابن الله، ولكنهم كانوا يلقبون كثيراً من الصالحين بأنهم أبناء الله وأحباؤه. وإنجيل توما يصف يسوع بـ"منير الطريق".

- هذا يذكر ببوذا!!!

- إذا أردت أن تطابق يســـوع ببوذا فأنت على صواب تماماً. إنه إنسان غزير العلم والمعرفة ينير الطريق، ولكنه إنسان فقط، إنسان تحول في نظر أتباعه لاحقاً إلى إله، عندما حوله الإمبراطور وقلة من الأساقفة إلى ابن الله الوحيد، وإلى إله معبود.

- ولكن الأناجيل الأربعة كانت قبل الإمبراطور قسطنطين، وهي تؤكد ذلك!

- بتاتـــاً؛ فقد كان إنجيل يوحنا هو الإنجيل الوحيد الذي صور يســـوع على أنه ذو طبيعة إلهية، كإله تجسد في إنسان، وابن الله الوحيد. وهذا كان تغيراً جذرياً وجديراً بالملاحظـــة، خاصة أن هذا الإنجيل بالذات أصبح، لســـبب ما، النظارة التي يقرأ كل

---

(١) لمعرفة طبيعة العلاقة بين اليهود والطائفة التي اتبعت عيسى عليه السلام منهم، راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

المســـيحيين من خلالها بقية الأناجيل الثلاثـــة الأخرى، مع أنها كتبت قبله بجيل كامل علـــى الأقل. وليس مصادفة أنه كان آخر ما كتب من الأناجيل، فهذا الإنجيل العجيب لو كتب في المرحلة الأولى للمسيحية لما وجد أي قبول مطلقاً، ولكنه كتب في عام ١٦٠ بعد الميلاد[١].

- أي إن يسوع لم يؤله قبل ذلك التاريخ إلا استناداً إلى التقليد فحسب[٢]؟

- تمامـــاً، ولكن بعد كتابة إنجيـــل يوحنا، صار هناك "نص مقـــدس" يؤيد مقولة التأليه[٣]، وهذا لم يحدث في أي من الأناجيل الثلاثة الأخرى الســـابقة التي اعتمدتها الكنيسة الرسمية. فمتى ومرقس ولوقا أوضحوا بأن يسوع مخلص أرسل من الله، وأنه يرشد إلى طريق الاستقامة. كما أن مذكرات بولس كانت جديرة بالاهتمام أيضاً، وكتب بولس أن المسيح تلقى الوحي.

- تريد أن تقول إن أي متدين يهودي مخلص، كان يمكن أن يتبع يســـوع حتى تلك النقطة.

---

(١) جاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه: " أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين هما القديسان "يوحنا ومتى"، وقد ادعى هذا الكاتب المزوّر في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً، مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً".

(٢) جاء في كتاب "الإنجيل بحسب يوحنا" للقمص "تادرس يعقوب ملطي" (كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتنج) أن فيكتورينوس من بيتَّاو (أواخر القرن الثالث وبدء القرن الرابع) قال: "كتب يوحنا الرسول إنجيله بعد سفر الرؤيا، وذلك بعد أن نشر كل من الهراطقة فالنتينوس وكيرنثوس وإبيون وآخرون من مدرسة الشيطان تعاليمهم في كل أنحاء المسكونة، مما اضطر الأساقفة الذين في البلاد المجاورة أن يجتمعوا إلى القديس يوحنا واضطروه أن يكتب إنجيل شهادته"!!!

(٣) ظلت الأناجيل حتى سنة ١٦٠م ليس فيها نص على ألوهية المسيح، وبعض الأساقفة اعتنقوا عقيدة تأليه المسيح قبل وجود النص الذي يدل عليها، ولما أرادوا أن يحتجوا على خصومهم لم يجدوا مناصاً من أن يلتمسوا دليلاً ناطقاً بذلك فطلبوا كتابة هذا الإنجيل. ومع ذلك فهو لم يجرؤ على أن يصل إلى الحد الذي يبدو فيه أن ألوهية السيد المسيح أمر مؤكد ومفروغ منه تماماً.

- بالطبع، ولكن بظهور إنجيل يدعي ألوهية يسوع، تغير مفهوم الديانة المسيحية بطريقة مأساوية. وفي القرون الثلاثة الأولى تصاعد الجدل بسخونة حول مسألة كون يسوع إلهاً أم إنساناً، وصارت مسألة طبيعة يسوع أهم من رسالته نفسها!!! والحقيقة تصبح أكثر قرباً عبر الكشف المثير للوثائق التاريخية، مثل تلك النصوص التي ظهرت سنة ١٩٤٥ في نجع حمادي في مصر.

- كيف ذلك؟

- الكنيسة تتبع أناجيل مجهولة المصدر، وحتى وقت قصير كانت الأناجيل الأكثر صحة مفقودة. وحتى بعدما عثر عليها في نجع حمادي، ظلت لفترة طويلة في أيدي تجار السوق السوداء الذين لم يعرفوا قيمتها الحقيقية. والآن فقط تظهر سرها التاريخي للعلماء، ومخطوطات نجع حمادي أكثر أهمية من مخطوطات البحر الميت[1].

- لماذا؟

- لأنها تسلط أضواء جديدة على تاريخ الدين المسيحي، وقصة يسوع والإله. فهذه اللفائف الـ٥٢ المكتوبة باليد، التي اكتشفت قبل ٦٠ عاماً في نجع حمادي، تثبت الوقائع الحقيقية لبداية المسيحية، وعلى الأرجح أن يكون مصدرها أحد الأديرة القريبة. تلك المخطوطات قد تم دفنها حتى تتجنب الإحراق الذي شاع في منتصف القرن الرابع ضد الكتابات الدينية التي لا توافق الكنيسة الرسمية. أهم إنجيل فيها على الإطلاق

---

(١) منذ أن استولت السلطات الصهيونية على مدينة القدس توقفت أعمال نشر مخطوطات البحر الميت تماماً، غير أن الأصوات ارتفعت في العالم كله، وكان أقواها أصوات الباحثين اليهود أنفسهم (الليبراليين)، مما أجبر سلطات الاحتلال على إرسال صور فوتوغرافية، زعمت أنها تمثل كل المخطوطات، إلى جامعة أكسفورد وكذلك لإحدى الجامعات الأمريكية. ثم أبدت غضباً واحتجاجاً عندما قامت الجامعتان بترجمة الصور التي بحوزتها ونشرها دون تصريح رسمي من الكيان. ويجمع أغلب الباحثين على أن ما تخفيه سلطات الاحتلال (من قبلها الفاتيكان كما سيمر معنا) أكبر بكثير مما أعلنت عنه، وربما كان فيها أسفار أهم من تلك التي اكتشفت في نجع حمادي.

كتبه أحد إخوة يسوع، كان اسمه "تدماس يوداس توماس"، وقد كتب على مراحل. القصة الدينية الرسمية التي كتبت فيما بعد، صورت توما على أنه الحواري الزنديق المتشكك الذي لا يريد أن يؤمن بأن يسوع بعد موته سوف يقوم جسده مرة أخرى، لكنه طبقاً لإنجيله كان أقرب لأخيه من الآخرين. كل وثيقة كتبها توما ترجع تاريخياً إلى أبعد من أي من الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة الرسمية. إنه يصور الوقت الذي كان فيه يسوع حي ويعظ في البرية.

- ألا ترى معي أن من المستغرب جداً أن المسيحيين الحاليين قد أهملوا الأناجيل التي اكتشفت مؤخراً؟!

- هذا يوحي لنا بمدى سلطة الكنيسة الرومانية، التي أعلنت أن هذه الأسفار كفرية وخطيرة. وبالنسبة إليها كانت كذلك فعلاً، لأنها في الحقيقة تقلب الكنيسة التقليدية رأساً على عقب. هذه المخطوطات تخبرنا بتعدد طرائق إيمان الناس من أجل الوصول إلى الخلاص بأنفسهم دون حاجة إلى الكنيسة كوسيط بينهم وبين الله. وهذه المعرفة تعتبر مغرية جداً، بالذات للأسلوب الفكري الحديث. إنها تقدم ديناً بحيث يستطيع أي مسيحي أن يتقرب إلى الله بنفسه دون وساطة أو قربان، علاوة على أنه دين قديم الأزل.

- يبدو أنه كان هناك مذاهب عديدة في فجر المسيحية؟

- بالتأكيد؛ فالدين المسيحي اليوم يتفرع إلى عدة مذاهب متباينة، والأرجح أن التعدد المذهبي في منتصف القرن الأول كان أكثر بكثير، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد كتبت شريعة ثابتة للعهد الجديد بعد، ولم يكن حتى قد وضع "قانون إيمان" لتوحيد المسيحيين في العالم. ولكن ليس هذا هو الأمر الغريب؛ فالاكتشاف الذي يبهرنا فعلاً هو أن المعتقدات المسيحية في ذلك الزمان، لا تتفق بأدنى حد مع المعتقدات المسيحية كلها التي نراها اليوم!!!

- حقاً؟!

- بالطبـــع؛ فالأغلبية العظمى منها تعترف بقانون الإيمان، وتقر قانوناً ثابتاً للعهد الجديد. ولكننا نعرف أن هناك الكثير من الأناجيل التي كتبها حواريو يســـوع وأتباعه وبشـــروا بها، بالإضافة إلى أســـفار أخرى، مثل رسائل وأناشيد قد أقصيت عن كتاب العهـــد الجديد، مع أن بعضها أكثر أصالة من الأســـفار المعتمدة. المســـيحيون اليوم يثقون فقط في كلام يســـوع الصادر عن الكنيســـة، وقانون الإيمان بالنسبة إليهم غير مشـــكوك فيه، وأن يسوع إله مات على الصليب ليخلص البشرية من الخطيئة! ثم قام من الموت!!! ولكن المخطوطات المكتشـــفة تبين بما لا يدع مجالاً للشك، بأن المسيحيين الأوائل كانوا يؤمنون بديانة مختلفة تماماً، فقد كانوا يرون في يســـوع المنارة التي تنير الطريـــق إلى الله، ولا كلمة عن عبادة الصليـــب أو القيام من الموت، ذكر فقط كلمات يسوع التي تعبر عن الحكمة الإلهية (رسالته).

- كيف انقرضت كل تلك المذاهب؟!

- فـــي الحقيقة هم كانـــوا موجودين دائماً، ولكنهم كانوا مُضطَهدِين بوحشـــية قصوى. وآخر مرة ظهر شهود على بداية الديانة المسيحية كان في العصور الوسطى في جنوب فرنســـا. فلفترة وجيزة قام معتقد مناهض للمســـيحية الرسمية، وبفهم مختلف تماماً للمســـيح، وقد سموا أنفســـهم بـ"الكاتاريين" Czthari. وكاتار تعني المســـيحيين الأنقياء الأصليين[1]، لكن الكنيســـة اتهمتهم بالهرطقة وأنهم أسوأ من الشـــيطان. عبر الأجيال لاحقت الكنيسة بالحملات الصليبية كل مسيحي يخالفها بالتفكير، وحاولت بمحاكم التفتيش ملاحقة أصحاب المذاهب المنكرة لألوهية يسوع

(١) سموا أيضاً بـ"الألبيجنسيون" نسبة إلى بلدة Albi في مقاطعة تولوز التي كانت معقلاً لهم.

وإفناءهم[1]، وبعد كثير من القرون يتذكر مسيحيو الحاضر نشأة هذه الحركة.

- لقد سمعت عن الكاتار كثيراً؛ البعض يعتبرهم مقدمة لحركة الإصلاح والاعتراض على التقليد، وآخرون يرونهم مهرطقين يعترضون على سلطة الكنيسة الكاثوليكية وضرائبها.

- هذا ما يحاولون ترويجه، ولكن الحقيقة أن معتقد الكاتار كان مستقلاً بذاته تماماً، وقائماً على حقيقة أول بداية الدين المسيحي. وقد بدأ بحثهم في بداية نشأة المسيحية ذاتها، قبل كتابة الأناجيل المعتمدة ونشر كلمات بولس الرسول.

- يبدو أنك مقتنع فعلاً أن موضوع الصلب أو الفداء أو القيام لم يكن من صلب العقيدة في فجر المسيحية.

- بالتأكيد؛ فمثلاً، كان الصليب الذي تبناه بعض المسيحيين أولاً هو "عنخ"، مفتاح الحياة عند المصريين القدماء، إلا أنه لم يكن دلالة على الطريقة التي مات بها يسوع، وإنما كان يرمز إلى المسيح الحي بروحه التي لا تموت. ومن المؤكد أن الصليب المصري هو الذي ظل سائداً بين الجماعات المسيحية الأولى، ليس في مصر وحدها، وإنما في كل بلدان الإمبراطورية الرومانية، ولم تستخدم الكنائس المسيحية الصليب

---

(١) بحلول القرن الثاني عشر كان سكان المدن الأثرياء ونبلاء تولوز وبروفانس إما أعضاء في الكنيسة الكاتارية وإما من المتعاطفين مع قادتها، وهو ما أدى إلى إعلان بابا روما قرار حرمان على "ريموند السادس" أمير تولوز، وإباحة أراضيه وأملاك الكاتاريين. وبالفعل دمر البابا أنوسنت الثالث في تموز/ يوليو ١٢٠٩ مدينة بيزيرس بفرنسا بمن فيها وذبح كل سكانها، وقد بلغ عدد الضحايا آنذاك من ٢٠ألفاً إلى ٧٠ ألفاً (منهم كاثوليك رفضوا تسليم من اتهموا بالزندقة من الجيران والأصدقاء). ثم لحقهم الآلاف في كاركاسون ومدن أخرى، فتحمس لذلك أمراء شمال فرنسا وانخرطوا في تلك الحملة الصليبية (١٢٠٩ وحتى ١٢٢٩م)، وخلال ٢٠ عاماً أبيد جميع الكاتار (ما يعادل نصف سكان أورليان بجنوب فرنسا). وبعد انتهاء الحرب عام ١٢٢٩ تم إنشاء محاكم تفتيش للبحث عن الفارين من الكاتار أو من تبقى منهم على قيد الحياة والقضاء عليهم. وقد تم إعدام آخرهم حرقاً عام ١٣٢٤. وقد قدر العدد الإجمالي للضحايا بمليون قتيل من الكاتار فقط.

الروماني بمعنـــاه الجديد إلا منذ النصف الثاني من القـــرن الرابع، عندها أصبحت كنيسة روما مســـيطرة على الحركة المسيحية[١]، ومع هذا فإن ذلك الصليب لم يصبح مقبولاً لدى عامة المســـيحيين، بمن فيهم المؤمنون بقصـــة صلبه[٢]، إلا بعد أن أعلنت الكنيســـة الرومانية عن العثور في مدينة أورشـــليم على ما قيل إنه الصليب الخشبي الذي مات عليه يسوع! ثم تطور الأمر بعد ذلك، خلال القرن الخامس، عندما وضعت الكنيسة الرومانية صوراً لجسد المسيح على الصليب الخشبي[٣].

---

(١) عندما انتصر الإمبراطور قسطنطين على منافسه ماكسينتيوس على جسر ميلفيان الذي يعبر نهر التيبر، وفتح روما، أمر بإقامة قوس نصر وثني فيها هو عبارة عن حربة عالية على شكل صليب (بالشكل المتعارف عليه حالياً، والذي كان مجهولاً في الشرق) تحت يد تمثال يمثل شخصه في أبرز مكان في روما، على أن تُنقش عليه العبارة التالية باللغة اللاتينية: "بفضل هذه العلامة المباركة، التي هي محك القوة الحقيقي، أُنقذت وحرّرت مدينتكم من نير البطش، وحرّرت كذلك مجلس الأعيان الروماني والشعب الروماني، وأعادتهم إلى مجدهم السابق ورفعتهم السالفة"، وتحوّلت روما إلى محفل عظيم، إذ أقام الكثيرون الولائم والأفراح. وقد زعمت الأدبيات المسيحية لاحقاً أن "يسوع الرب" قدّ خاطبه كما خاطب بولس وقال له إنه بهذه العلامة سينتصر، مع أن قسطنطين نفسه لم يشر إلى ذلك بتاتاً، ومع أنه آنذاك لم يكن قد اعتنق المسيحية بعد، ولم يكن حتى قد عقد مؤتمر نيقية، بل لم يكن قد وقع أصلاً على مرسوم التسامح الذي رفع الاضطهاد عن المسيحيين ومكنهم من ممارسة عقيدتهم في العلن!!!!!

(٢) هناك قرائن عديدة تشير إلى عدم صلب المصلوب، بالشكل المتعارف عليه حالياً. وبعض الفرق المسيحية الحالية ترفض الاعتراف بالصليب المستحدث (قطعتان متعامدتان من الخشب)، وتصر على أن النص الإنجيلي يقول إنه عُلق على خشبة (قطعة مفردة من الخشب)! وهو ما يتماشى مع واقع الحال في فلسطين والشرق آنذاك. وحسب ترجمتهم فإن الآيات تقول: "إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة" (اع ٥: ٣٠)، "... الذي أيضاً قتلوه معلقين إياه على خشبة" (اع ١٠: ٣٩)، "ولما تمموا كل ما كتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر" (اع ١٣: ٢٩)، "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل من عُلق على خشبة" (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ٣: ١٣)، "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة" (رسالة بطرس الأولى٢: ٢٤). وللمزيد من المعلومات حول حججهم وأدلتهم راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) هنا ينتهي الاستشهاد بالفيلم الوثائقي. وبقية ما سيرد على لسان ليئور أرتسو ليس له علاقة بروئيل أوسترا من قريب أو بعيد.

تفنيد نبوءات

كان الشاب الإنجليزي يستمع باهتمام وصمت دون أن يشترك بالحديث، فسأله أبراهـــام من باب المجاملة، ولكي يعرف ردة فعل مســيحي عــادي على كل هذه المعلومات:

- وأنت سيد إستس، ما رأيك بما سمعت؟

- أتفق مع كثير مما قاله السيد أرتسو.

- هل سمعت عن ذلك من قبل؟

- أجل. فقبل يومين فقط أنهيت قراءة كتاب "تطور الأناجيل" (The Evolution of the Gospel) الــذي صدر مؤخراً للسياســي البريطاني إنــوش باول (Enoch Powell)[1].

فعلق ليئور قائلاً:

- كتاب رائع فعلاً.

- كما قرأت قبل ذلك إنجيل برنابا أيضاً. وأســتغرب كثيراً عدم استشهادك به مع أنه لا يقل مصداقية عن الأناجيل الأخرى المكتشفة حديثاً. وفيه أجوبة عن العديد من المسائل التي تبحثون فيها؛ فقد بدأ كتابه قائلاً:

---

(١) من أهم ما جاء في ذلك الكتاب هو إعادة ترجمة الكاتب لإنجيل متى من اللغة اليونانية، حيث لاحظ تكرار بعض النصوص مما يوحي بإعادة صياغتها بفترة لاحقة. وأهم الوقائع المكررة ما ورد بنهاية الإنجيل بشأن المحاكمة والصلب. فبعد انتهاء المحاكمة أمام الكاهن الأكبر، تعود فتتكرر بذات الكلمات، مع فارق واحد هو أن المحاكمة تنتهي بحكم الإعدام والصلب!!! وأثبت أن هناك تعديلات قد أدخلت لاحقاً على الأناجيل.

"برنابا رســـول يسوع الناصري المسمى المسيح يتمنى لجميع سكان الأرض سلاماً وعـــزاء. ٢- أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب[١] قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى. ٣- مبشـــرين بتعليم شديد الكفر. ٤- داعين المسيح ابن الله. ٥- ورافضـــين الختان الذي أمر اللـــه به دائماً. ٦- مجوزين كل لحم نجس. ٧- الذين ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع بالغ الأســـى. ٨- وهو الســـبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكـــم الشـــيطان فتهلكوا في دينونة الله. ٩- وعليه فاحذروا كل أحد يبشـــركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً".

- هذا الإنجيل منحول وقد كتب بعد ظهور الإسلام، فأقدم نسخة منه يظهر تحليل آثار الماء في ورقها الإيطالي أنها تعود إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد.

- لا تنس أن تلك النســـخة من إنجيل برنابا منقولة عن نســـخة أقدم تم العثور عليها في مكتبة الفاتيكان نفسها، وفقدان تلك النسخة إلى الآن لا يعني أنها لم تكن موجـــودة أصلاً، خاصة أنه قد ذكر هذا الإنجيل في مجامع وقرارات بابوية لتحريم الأســـفار غير المعترف بها في القرنين الرابع والخامس[٢]، أي قبل ظهور الإســـلام بأكثر من قرنين.

- كما قلت أنت بنفسك، فإن أصل إنجيل برنابا مفقود.

- وكذلك كثير من الأناجيل التي استشـــهدتم بها، بل كذلك أصل الأناجيل الأربعة

---

(١) وهي تسمية لا تصح لله تعالى وربما كانت خطأ بالترجمة. ولمعرفة هدف القائمين على ترجمة ذلك الإنجيل، والنوايا المشبوهة التي لم يتكلفوا بإخفائها، راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) للمزيد من المعلومات والتفاصيل حول هذا الموضوع راجع رواية بشارات هائمة.

المعتمدة بالذات[١].

- أنا لا أعرف ما الذي كان بذلك الإنجيل في قرون المسيحية الأولى وقت حرمانه. فأقدم نسخة تم العثور عليها لهذا الإنجيل هي نسخة مكتوبة باللغة الإيطالية، عثر عليها سنة ١٧٠٩، وفي هذه النسخة المتوافرة ذكر اسم النبي العربي صراحة، مما يعني بالنسبة إلي أن أيادي إسلامية قد عبثت به.

- هذا تطور جيد، ففي البدء كنت تدعي أنه كتب بعد ظهور الإسلام، والآن صرت تكتفي بافتراض أن أيادي إسلامية قد عبثت به لاحقاً. ولكن لو سلمنا جدلاً بأن أيادي إسلامية قد عبثت به في العصر الحديث، فما الذي دفع الراهب اللاتيني فرا مرينو إلى الإسلام بعد أن عثر على النسخة الأصلية لإنجيل برنابا في مكتبة الفاتيكان؟!!!

- لا أدري، ربما الرغبة في الإثارة والشهرة.

- ولكنه احتفظ بتلك النسخة لنفسه ولم يذع خبرها عالمياً.

- لا أعرف، فأنا مهتم فقط بأناجيل القرون الأولى للمسيحية التي اكتشفت مؤخراً.

- إذن لماذا لم تستشهد بـ"إنجيل يهودا".

- يهودا؟!!! تلميذ يسوع الخائن؟

---

(١) يقول موريس نورن في "دائرة المعارف البريطانية": "إن أقدم نسخة من الأناجيل الرسمية الحالية كتبت في القرن الخامس بعد المسيح، أما الزمان الممتد بين الحواريين والقرن الخامس فلم يخلف لنا نسخة من هذه الأناجيل الأربعة الرسمية، وفضلاً عن استحداثها وقرب عهد وجودها منا، فقد حرفت هي نفسها تحريفاً ذا بال، خصوصاً منها إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا". وهذا يعني أن هذه الأناجيل منقطعة السند. ويقول اللاهوتي التراثي "هورن" في الباب الثاني من القسم الثاني من المجلد الرابع من تفسيره المطبوع سنة ١٨١١: "الحالات التي وصلت إلينا في موضوع زمن تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة، مبتورة وغير معينة ولا توصلنا إلى أمر معين. والمشايخ القدماء الأولون صدقوا الروايات الواهية، وكتبوها، وقَبِلَ الذين جاؤوا من بعدهم كتاباتهم تعظيماً لهم. وهذه الروايات الصادقة والكاذبة وصلت من كاتب إلى كاتب آخر وتعذر تفنيدها بعد انقضاء المدة".

قال أبراهام باستغراب. فأجابه إستس بتحفظ:

- أجل يهودا. ولكن الله يعلم إن كان قد خان المسيح أم لا؛ فطبقاً لإنجيل متى (١٩: ٢٨) فالمسيح قد وعد تلاميذه الاثني عشر باثني عشر كرسياً، ليدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر، أفيعقل أنه لم يفطن أن يهودا سيخونه؟! وكيف يعده بكرسي من كراسي المجد إذا كان الأمر كذلك؟!!! ويهودا يقول في إنجيله أنه هو من كان تلميذ المسيح الحبيب. وأن المسيح عندما عرض على تلامذته أن يلقى شبهه على أحدهم وله الجنة، كان هو المتطوع الوحيد، ولكن المسيح أشفق عليه، وأعاد عرضه على التلاميذ ثلاث مرات لم يتطوع بها أحد غيره، فقبله المسيح وألقي عليه الشبه. وفي إنجيل يوحنا ما يجعلنا نفكر بذلك فعلاً، خاصة إذا كان يهودا فعلاً هو التلميذ الحبيب إلى المسيح، وليس يوحنا كما قرر آباء الكنيسة. فقد ورد في إنجيل يوحنا (يو ١٩: ٢٦-٢٧) ما يلي: "ورأى يسوع (المصلوب) أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب إليه (الذي طبقاً لهذه الرواية قد يكون المسيح نفسه بعد أن تبادل الشبه مع تلميذه الحبيب) فقال لأمه: يا امرأة هو ذا ابنك".

- أنا مصدوم لما أسمع.

- أنا نفسي صدمت أيضاً. وقد علمت بذلك أول مرة عن طريق صحيفة "الواشنجتون تايمز"[1]، وقد تم الانتهاء من ترميم المخطوطة وترجمتها من اللغة القبطية إلى اللغة الإنجليزية في نهاية عام ٢٠٠٥، ثم أفرج عن الترجمة في ٦ نيسان/أبريل من عام

---

(١) في عددها الصادر في ٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦ تحت عنوان: Judas stars as 'anti-hero' in gospel وذكرت أن الجمعية الجغرافية الدولية قد أزاحت النقاب عن أحد المخطوطات الأثرية التي عثر عليها في المنيا في مصر، والتي يعود تاريخها إلى بداية القرن الثالث الميلادي. (أثبت أنها كتبت عام ١٨٠ ميلادية، وهي بذلك تعتبر أقدم الأناجيل، ولكن يبدو أن انتشارها لم يكن واسعاً، فقد عثر للآن على نسخة واحدة منها فقط).

٢٠٠٦، وأصبحت تباع في الأسواق. وقد ذكرت الصحيفة أن المسيح يخاطب يهودا في نهاية الإنجيل المنسوب إليه قائلاً: أنه (أيْ يهودا) "سوف يختلف عن باقي الحواريين وأنه سوف يكون الرجل الذي يضحى به كشبيه لي[١].

نظر أبراهام إلى ليئور مستفسراً، فأومأ برأسه وهو يقول:

- هذا المخطوط يدعي فعلاً أن المصلوب لم يكن يسوع.

فقال إستس مستهجناً:

- يدّعي؟! لماذا تهملون هذه النقطة بالذات في برامجكم. فأغلب المخطوطات المكتشفة على اختلافها كانت تتفق على أن الرجل الذي صلب لم يكن المسيح، وتؤكد أن هوية المصلوب لم تكن متفقاً عليها مطلقاً بين المسيحيين الأوائل. منهم من قال إنه يهودا، تطوع بإلقاء شبه معلمه عليه لينقذه كما ورد في إنجيل يهودا وفي حديث سيث الأكبر، ومنهم من قال إن شبه المسيح قد ألقي عليه عقوبة على خيانته، كما ورد في إنجيل برنابا. كما أن بعضهم قال إنه "سمعان القيرواني" كما ورد في كتب "الكربوكراتيين" و"المارسيونيين" و"الإبيونيين"، وبعضهم قال إنه كان "البديل الذي وضع بالعار" دون تحديد اسمه، كما ورد في الرؤيا في إنجيل بطرس[٢]، وآخرون قالوا بأن المسيح هو الذي صلب، ولكنها كانت "خدعة" حسب فهم التشبيهيين لإنجيل بطرس. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

---

(١) استخدمت الترجمة الإنجليزية عبارة: clothes me أي يلبسني.

(٢) ربما لذلك أقسم بطرس أنه لا يعرف من هو ذلك المصلوب كما ورد في الكتاب المقدس، أي إن ذلك لم يكن إنكاراً لعيسى عليه السلام بل قصد فعلاً ما قاله. ومن ثم ربما تمت إضافة نبوءة المسيح بأن بطرس سينكره ثلاث مرات لتبرير التصرف غير المفهوم لرئيس الحواريين بطرس، والله أعلم.

عقدت المفاجأة لسان أبراهام وليئور؛ فلم يكن يخطر ببال أي منهما أن ذلك الشاب الأشقر، الذي يبدو وكأنه راهب قد خرج لتوه من الدير، كان...مسلماً.

- سيد إستس، مع احترامي الشديد لدينك ولجميع الأديان، إلا أن هذا ليس صحيحاً؛ فلم يختلف المسيحيون ولا حتى اليهود أنفسهم في مسألة صلب المسيح، بل أستطيع أن أقول لك باطمئنان أن هذا هو الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه كلاهما. ثم إنني لا أرى مبرراً لاستشهادك بالقرآن الذي لا أؤمن به أصلاً.

قال ليئور منهياً فترة الصمت، فرد إستس على الفور:

- وماذا عن الأناجيل العتيقة المكتشفة مؤخراً؟!!!

إزاء هذا التطور غير المنتظر، وجد ليئور نفسه مضطراً إلى الدفاع عن المسيحية الحالية التي كان يتهمها قبل قليل، ليقطع الطريق على أي مكسب للإسلام[1]، فقال مجيباً:

- تلك الأسفار لم تكن مكتشفة في الوقت الذي جرى فيه كتابة القرآن، وأهل الكتاب الذين قصدهم القرآن آنذاك كانوا كما هم الآن: أهل الكتاب المقدس بأسفاره الحالية ذاتها. وهذا الكتاب المقدس ليس به شيء من الاختلاف ولا الشك ولا اتباع الظن بشأن صلب المسيح وقيامه من الموت.

- ولكنك أنت وبقية الباحثين في موضوع الأسفار المستبعدة، تقولون دائماً إن تلك الأسفار وإن أبيدت، ولم يسمح بتداولها علناً، إلا أنها كانت أصل المسيحية، وظلت كذلك لدى كثير من المسيحيين حتى عهد قريب!!! على كل الأحوال، وما دمت قد بدأت

(١) هذا ما يلاحظ من العلمانيين الغربيين عندما يتعلق الأمر بالإسلام. والمفكر الإسلامي د. "محمد الأحمري" يسمي هذه الظاهرة بـ"الموروث الديني المعادي للإسلام" الذي استلمه العلمانيون، وأضافوا إليه أبعاداً جديدة. وهو يضرب مثلاً طريفاً على ذلك من أيام دراسته في الولايات المتحدة، ففي إحدى المحاضرات عن أضرار الخمور وتأثيرها السلبي، طلب من الطلاب أن يدلوا بدلوهم، ولكن عندما لاحظت المحاضرة أن مجموعة من الطلبة المسلمين ينتقدون الخمر من دافع إسلامي، تغير المنهج فجأة، وصارت الأستاذة تتحدث عن فوائد الخمر وخطأ النظرة الإسلامية السلبية عنها!!!

الاحتجاج بالأسفار المعتمدة، فما رأيك في الاحتكام إليها نفسها، للكشف عن الحقيقة بين صلب المسيح وبين تخليص الله له ورفعه إليه وصلب غيره؟

- تريد أن تحتكم إلى الكتاب الذي تدعون أنتم المسلمين أنه محرف؟!

- أجل. فقد قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وبذلك يكون الإيمان بالرسل السابقين وبرسالاتهم فرضاً علينا نحن المسلمين، حتى إنه لا يكون مسلماً من لا يؤمن برسالة أي منهم. ومهما بلغت كمية الحذف والإضافات البشرية في كتاب الله تعالى، فإن الحقيقة لا تزال ماثلة فيه، وتميز أهله(أهل الكتاب) عن الباقين[1].

- أي إنك تريد أن تقول إن قصة صلب المسيح هي من تلك الإضافات البشرية، فقط لمجرد أن كتابكم قد نفاها؟!!!

- ليس فقط لأن القرآن الكريم قد نفاها؛ بل لأن الكتاب المقدس نفسه يختلف في رواياته المتعددة حول هذا الموضوع بالذات، مع أنه قد أصبح حالياً جوهر المسيحية ذاتها. وسوف أظهر لك من الكتاب نفسه مقدار الشك الذي عانى منه مدونوه، وكيف أنهم اتبعوا الظن فعلاً في تفسير ما نقلوه، سواء بِسوء نية أم بحسن نية.

- أنا لا أريد أن أقوم بدور المحامي عن الشيطان، ولكنني درست اللاهوت جيداً في شبابي، ومن واجبي أن أنبهك أن هذا الموضوع محسوم تماماً في أسفار العهد الجديد المعتمدة، بل إن الأكاديمية العلمية تلزمني أن ألفت انتباهك أيضاً إلى وجود الكثير من الإشارات والرموز التي تدل على ذلك في أسفار العهد القديم نفسه، وبالذات في المزامير التي وردت على لسان داوود.

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف؛ لمعرفة المعنى المقصود من كلمة محرف التي يطلقها المسلمون على الكتب السماوية السابقة، وأن ذلك لا يعني مطلقاً أن تلك الكتب خالية من كلام الله عز وجل.

- وأنا أيضاً درســت اللاهوت عشر سنوات في أحد أشهر الأديرة هنا، وإذ كلانا متمكن في هذه الأمور، فســوف نحاول معاً استنطاق الكتاب المقدس، الكتاب المقدس فقط، ونحاول اســتبعاد كل الآثار البشــرية لنكتشــف الحقيقة الإلهية المدفونة فيه. انتظرني لحظة من فضلك.

ثم قام جيمس إســتس إلى مكتبة الفندق التي تبعد عنهم بضع خطوات، واشترى نسخة من الكتاب المقدس، وعندما عاد إليهما، فتحها على بداية سفر المزامير (الزبور) قائلاً:

- لنبدأ باســتنطاق المزامير التي تتحدث عنها: فقد جاء في المزمور الثاني: "لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشــعوب في الباطل، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤســاء معاً على الرب وعلى مسيحه قائلين: لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما، الساكن في السموات يضحك، الرب يستهزئ بهم، حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه"(١ - ٥).

- هذا الاستشــهاد ليس بمصلحتك بتاتاً؛ فقد درسنا ذلك المزمور أكثر من غيره، لكونه أشــهر المزامير الخاصة بمعاناة المسيح، وفيه نبوءة صريحة تحققت في أحداث العهد الجديد: الفترة الأولى تآمر هيرودس لقتل يســوع المسيح وهو طفل، وفي الفترة الثانية تآمر رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب لصلبه.

- هذا المزمور إذن، وبإجماع المســيحيين، يشــير إلى المؤامرة على المســيح عليه السلام لقتله، وهكذا فلا خلاف بين المسلمين والمسيحيين. ولكن، ما قوله فيما اختلفا فيــه؟ أينجحون في مؤامرتهم، ويتمكنون من صلبه، أم يخلصه الله ويرفعه إليه؟!! وإذا نجحت مؤامرتهم وصلبوه فعلاً، فلم يضحك الســاكن في الســموات، ألا يوافق ذلك ما ورد في مخطوطات طوائف "الكربوكراتيين " و"المارســيونيين" و"الإبيونيين" من أن المســيح وقف "يضحك" من غباء اليهود وهم يمسكون بسمعان القيرواني[١] بدلاً منه؟

(١) حسب الأناجيل الحالية فهو الذي حمل الصليب عن المسيح المنهك في طريقه إلى مكان الصلب.

ألا يوافـــق أيضـــاً ما ورد في رؤيا بطرس في إنجيله، بأن المســـيح كان "يضحك" فوق الشجرة، وهم يصلبون "البديل الذي وضع في العار، الشخص الذي أصبح في شبهه"؟ ثم لم يســـتهزئ الرب بهم، ويرجفهم بغيظه؟!! هل يعني ذلك أنه مكنهم من مؤامرتهم وأسلمهم مسيحه ليصلبوه؟!! أي النتيجتين يمكن أن نستخلصها من الآيات الأخيرة؛ أن الله سيمكن أعداء المسيح منه، أم أنه سيخلصه؟ بالقطع لن يمكنهم منه[1].

- ولكن هذا المزمور مع ذلك لا يحوي نبوءة صريحة عن تخليص المسيح من الصلب كما تزعم.

- أنا أقول فقط أن هذا هو ما قد يمكن استنتاجه من المزمور، وأنه من المستحيل القـــول بأن هذا المزمور يثبت نجاح المتآمرين على المســـيح. أليس كذلك؟ والآن تأمل معي المزمور الرابع: "عند دعائي استجب لي يا إله بري، في الضيق رحبت لي، تراءف علي، واســـمع صلاتي، يا بني البشـــر حتى متى يكون مجدي عاراً، حتى متى تحبون الباطل وتبغون الكذب سلاه، فاعلموا أن الرب قد ميز تقيه، الرب يسمع عندما أدعوه" (١ - ٣)، فما ذلك المجد الذي حوله بنو البشر إلى عار؟!!!

- هـــذا كناية عن محاولة أعدائه الحط من كرامته وإنكار مجده الشـــخصي كابن للـــه وملكهم، وهو نداء أيضاً لجميع الناس أن يعتبروا مجد الابن المبارك ويقبلوه فادياً ومخلصاً لهم.

- لا تؤول من عندك وتخرج النص عن ســـياقه كمـــا يفعل بعض علماء اللاهوت؛ فالمزمور يتحدث عن صلاته وتضرعه إلى الله تعالى: "عند دعائي اســـتجب لي يا إله

(١) جاء في حديث سيث (أحياناً تكتب شيث) الأكبر على لسان المسيح: "كان شخصاً آخر هو الذي شرب المرارة والخل لم أكن أنا. . . كان آخر الذي حمل الصليب على كتفه كان آخر الذي وضعوا تاج الشوك على رأسه وكنت أنا مبتهجاً في العلا أضحك لجهلهم". (Second Treatise of Great Seth) (رسالة شيث الكبير الثانية ١٩-٥٦، ٦، نجع حمادي ٣٣٢) (Pagels. TGGp. 72). كما جاء على لسان المسيح كذلك في "أعمال يوحنا" الذي عثر عليه أيضاً في نجع حمادي: "لم يحدث لي أي شيء مما يقولون عني".

بري"، ونعلم بما دعا المسيح قبل محاولة القبض عليه لصلبه، وهو أن "يعبر عنه هذا الكأس"[١]، أليس الصلب هو ذلك الكأس الذي تضرع المسيح إلى الله تعالى أن يسمع صلاته، ويستجيب دعاءه في عبوره عنه؟ لاحظ أن المسيح أكد مراراً حتمية شرب الكأس، وأنه لا يطلب من الآب التخلي عن الكأس، فهذا أمر محتوم ولا مفر منه، ولكنه يطلب أن "تعبر" عنه الكأس، "تجتازه" كما يقول آباء الكنيسة "دون أن يكون لها عليه سلطان"[٢]، فماذا الرب فاعل في هذه الصلاة وذلك التضرع؟ هو يقول: "فاعلموا"، أي إنه يخبر بخبر، ما هو؟ "أن الرب ميز تقيه"، ثم يزيد ما أراد إيضاحه فيستطرد قائلاً: "الرب يسمع عندما أدعوه". فكيف يكون ذلك؛ بصلبه أم بتخليصه؟ وإذا كان الله قد خلصه ورفعه إليه، فهل يكون مجد أرفع من هذا؟! ومع ذلك يصرون أنه قد صلب، ويرفضون القبول بتخليص الله له!!! ألا يجعلون بذلك من مجده عاراً بالقول بصلبه؟! أليس الصلب هنا دون تخليص المسيح هو الباطل والكذب الذي يحبونه؟!! هل يحتمل هذا الكلام معنى آخر؟!!!

- ربما يصدق ما تقول على هذين المزمورين ولكن باقي المزامير التي تتنبأ عن المسيح لا تدعم ذلك.

- هل تظن هذا فعلاً؟ إذن تعال لنتابعها بالترتيب. فقد ورد في المزمور السادس: "يا رب لا توبخني بغضبك ولا تؤدبني بغيظك، ارحمني يا رب لأني ضعيف، اشفني يا رب لأن عظامي قد رجفت، ونفسي قد ارتاعت جداً، وأنت يا رب فحتى متى. عد يا رب، نج نفسي، خلصني من أجل رحمتك، لأنه ليس في الموت ذكرك"(١ - ٥). "ابعدوا

---

(١) "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (متى ٢٦ : ٣٩). وتكرر الدعاء بكلمات وظروف وأماكن مختلفة في (لوقا ٢٢ : ٤٢ (في جبل الزيتون) مرقس ١٤ : ٣٦ (في جتسيماني)).

(٢) قال القديس ديونيسيوس الإسكندري: العبارة "لتعبر هذه الكأس" لا تعني أنها لا تقترب منه، ما كان يمكن للكأس أن تعبر به وتجتازه ما لم تقترب منه، أولاً . . . فإنها إن لم تقبل إليه لا تعبر عنه".

عنـــي يا جميع فاعلي الإثم، لأن الرب قد ســـمع صوت بكائي، ســـمع الرب تضرعي، الرب يقبل صلاتي، جميع أعدائي يخـــزون ويرتاعون جداً، يعودون ويخزون بغتة" (٨ – ١٠). إذن يبـــدأ هذا المزمور أيضـــاً بالدعاء إلى الله على لســـان الداعي أن يرحمه وينجي نفســـه ويخلصه، فإنه يؤكد أن هذا الدعاء حقيق باستجابته، وبأن الداعي إنما يدعو بتخليصه من الموت بقوله: "لأنه ليس في الموت ذكرك". وكالمزمور الســـابق أيضاً يستطرد هذا المزمور فيؤكد أن الله قد سمع صوت بكائه، سمع تضرعه، ويقبل صلاته. فنفهم من ذلك أنه قصد التنبؤ بهذه الاســـتجابة. وإذا عرفنا أن المســـيح نفسه عليه السلام قد اســـتعار آية من هذا المزمور حين ورد على لسانه في إنجيل متى: "اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (٧: ٢٣)، فإننا نستطيع إزاء ذلك أن نعتبر هذا المزمور نبوءة عن المســـيح عليه الســـلام، وعلى هذا نفهم ما بدأ به المزمور من دعاء إلى الله أن ينجيه. ونفهـــم أيضاً ما يعنيه قوله لله أنه ليس في الموت ذكره، فهو يدعو الله أن يخلصه من الصلـــب، ويؤكد دعاءه بأنه ليس في صلبه ذكر اللـــه. وينتهي المزمور بعد ذلك مؤكداً استجابة الله لدعائه، ومن ثم تخليصه من الصلب. أما أعداؤه فيخزون ويرتاعون جداً، يعودون ويخزون بغتة. فلماذا بغتة؟ ولماذا يخزون؟ إلا أن يخلص الله مســـيحه بغتة من بين أيديهم.

– كيف ذلك؟

– نجد هذا في المزمور التاسع حيث يمضي ليؤكد ثانية كل ذلك بقوله: "ارحمني يا رب، انظر مذلتي من (في ترجمة أخرى على أيدي) مبغضي يا رافعي من أبواب الموت، لكي أحدث بكل تسابيحك في أبواب ابنة صهيون مبتهجاً بخلاصك. تورطت الأمم في الحفرة التي عملوها، في الشبكة التي أخفوها علقت أرجلهم، معروف هو الرب، قضاء أمضى، الشـــرير يعلق بعمل يديه، ضرب الأوتار، ســـلاه الأشرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناســـين الله، لأنه لا ينسى المسكين إلى الأبد، رجاء البائسين لا يخيب إلى

الدهر، قم يا رب، لا يعتز الإنســـان، لتحاكـــم الأمم قدامك، يا رب اجعل عليهم رهباً، ليعلم الأمم أنهم بشر" (١٣ - ٢٠). ما رأيك بهذه النبوءة.

- أي نبوءة؟

- في هذا المزمور نبوءة صريحة كاملة عن تخليص الله للمسيح ورفعه إليه وصلب الشرير الذي يعلق بعمل يديه بدلاً منه. ثم يمضي وكأنه يرى كيفية استجابة الله لدعاء مســـيحه فيصف ذلك بقوله: "يا رافعي من أبـــواب الموت"، وفي ذلك أكبر تصريح عن كيفية تخليص المسيح من بين من جاؤوا للقبض عليه؛ بأنه رفعه من أبواب الموت، ذلك أن الموت هو ما كان ســـينتهي إليه لو قبض عليه بالفعل. والمزمور بعد أن يرمز لدعاء المســـيح ورفعه، يمضي فيتنبأ عما ســـيحدث بعد ذلك فيقول: إن "الأمم تورطت في الحفرة التي عملوها، وفي الشبكة التي أخفوها انتشب الرب أرجلهم". ويطابق هذا ما ورد في المزمور الســـابع من قوله: "الشرير يتمخض بالإثم... وفي الحفرة التي صنعها يسقط" (١٥-١٦)، ومن ثم، فمثل الآية الأخيرة نفهم منها أن الشرير هو الذي سيقبض عليه ويحاكم ويصلب بدلاً من المســـيح. ثم يستطرد المزمور ليقطع بصحة هذا المعنى فيقول: "معروف هو الرب، قضاء أمضى، الشرير يعلق بعمل يديه"، ولأي امرئ أن يتبين من فوره أن هذا المصلوب ربما كان يهوذا الإســـخريوطي أو غيره، ولكنه بالتأكيد ليس المسيح عليه السلام؛ فالمسيح لم يكن في يوم من الأيام شريراً، وإنما الشرير هو الذي خانه. لذلك لا يمكن أن يكون القضاء العادل الحق إلا أن يشـــرب ذلك الشـــرير نفس الكأس التي كان سيذيقها لسيده.

- وماذا عندك أيضاً؟

- الكثير. ففي المزمور الســـادس عشـــر نقرأ: "الرب يرشدني فأباركه، وقلبي في الليالي دليلـــي، الرب أمامي في كل حين، وعن يميني فـــلا أتزعزع، لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي، جســـدي أيضاً يسكن مطمئناً، لأنك لن تترك نفسي في الهاوية، لئلا

يرى نقيك الفساد، عرفني سبيل الحياة، واملأني فرحاً بحضورك، ففي يمينك نعم إلى الأبد" (٧-١١).

- ولكن هذا هو تنبؤ داوود النبي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات!!!

- تأمل في قوله: "لئلا يرى نقيك الفساد"؛ يعني ألا يرى موتاً. فالفساد هو فساد "الموت" كما يوضح ذلك بولس الرسول في (١ كو ١٥: ٤٢و٤٤): "هكذا قيامة الأموات يزرع في فساد ويقام في عدم فساد، يزرع جسماً حيوانياً، ويقام جسماً روحانياً". وفي (١ كو ١٥: ٥٢ - ٥٣): "في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير، فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغير لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت". وبذلك يكون الموت هو الفساد، الجسم الحيواني للإنسان بموته وفنائه. بذلك يشير تنبؤ داوود إلى أن المسيح لم يمت، ففيم إذن القول بموته على الصليب مع ذلك، ثم دفنه، فقيامته من بين الأموات كما يقولون؟! إن الموت موت، وإن الصلب قتل وموت بالعار، وهذا لا يطابق ما يقوله المزمور من أنه "لن يرى فساداً"!!! أوَلا يقطع بذلك ما يقوله المزمور: "جسدي أيضاً يسكن مطمئناً، لأنك لن تترك نفسي في الهاوية"؛ أليس في هذا يقين بتخليص الله له بالجسد أيضاً؟!! أليس هذا تشبيهاً دقيقاً لرفع الله للمسيح وتخليصه ممن أتوا للقبض عليه، إذ يقول إنه لن يترك جسده في الهاوية؟ أليست الهاوية، القتل، هي ما كان سيحيق به لو تركه عندئذ؟ كما أن عبارة: "تكثر أوجاعهم الذين أسرعوا وراء آخر، وأنا لا أسكب سكائبهم من دم". فإذا كان المسيح هو القائل لهذا الكلام كما يتنبأ المزمور وكما يعتقد المسيحيون، فمن هذا الآخر؟! ومن هؤلاء الذين تكثر أوجاعهم إذا أسرعوا خلفه؟! ألا تكثر أوجاع المسيحيين وقد جروا وراء من ظنوه المسيح مصلوباً؟!!! أليس هو هنا -كما يقول المزمور- آخر؟ شخص آخر غير المسيح عليه السلام! هل يحتمل قول المزمور غير هذا المعنى؟!!! ثم

ألا يعني هذا أن المسيح لا يسكب دمه مثلما يفعلون بالنبيذ الذي يدعون أنه دمه؟ ثم ما معنى أن يقول المزمور بعد ذلك: "الرب نصيب قسمتي وكأسي، أنت قابض قرعتي، حبال وقعت لي في النعماء، ما أحلى ما قسمت لي، ما أجمل ميراثي"(٥، ٦)، أيقول المتحدث ذلك في المزمور إن كان سيصلب، أي قسمة حلوة وأي ميراث جميل هو الصلب؟! وكيف يكون الرب نصيبه وقسمته ومع ذلك يصلبه؟

- لقد درست في الكلية الإكليريكية شيئاً عن الإسلام أيضاً، فكيف تستبعد الموت عن يسوع وقرآنكم يقول: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [١]؟

- إن استعمال الفعل "متوفيك" في هذه الآية، أو "توفيتني" في آية أخرى على لسان المسيح عليه السلام ليس بمعنى الموت بالضرورة، وكل من هو على معرفة بأبسط قواعد اللغة العربية يستطيع أن يؤكد ذلك. فصحيح أن كلمة يتوفى يقصد بها الموت عادة، وقد جرى القرآن على استعمالها في هذا المعنى كذلك، إلا أنه مما قد يغيب عن غير الدارس للقرآن، أو عن الدارس غير المدقق فيه، أن القرآن نفسه قد استعمل الفعل يتوفى بمعنى آخر؛ فنحن نقرأ في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فهنا استعمل الفعل يتوفى بمعنى النوم. وعلى هذا فإن الفعل يتوفى في الآية التي تشير إلى المسيح، وإن كان يمكن أن يقصد به الوفاة بمعنى الموت، يمكن أن يكون قد قصد به معنى النوم[٢].

- هذه الإجابة لا تقنعني، فأنا لا أفهم اللغة العربية أصلاً.

- إنك أنت من استشهدت بالقرآن العربي! وعلى كل حال فسأجيبك إن شاء الله عن طريق العلم هذه المرة. عن طريق شرح إعجاز علمي ورد في آية أخرى من سورة

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

(٢) جاء في تفسير ابن كثير: قال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت. وكذلك قال ابن جرير: توفيه هو رفعه. وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هنا- النوم، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

الأنعـــام أيضاً، حيث تقول: ﴿ يَجْعَـلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّـمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥][1]، فالتصعيد في الســماء معنـــاه حتماً نقص الضغط الجوي، ومن ثم نقص غاز الأكســجين الذي نستنشقه بحيث لا تكفي مقاديره لمستلزمات الحياة من حيث الكمية والضغط. ولهذا يشـــعر الفرد بضيق الصدر في مراحل الصعود الأولي، ويصاب المرء بالإغمـــاء في مدة لا تزيد على ١٥ - ٣٠ ثانية. وعلى علو ١٩ كيلو متراً مثلاً ينبثق دم الإنسان من مسام الجسم كأنما هو يغلي، ثم يتعرض للموت المحقق بعد ذلك[2]، فبالله عليك أين عذاب الصلب من هذا العذاب؟! وهل يخلص الله مسيحه من الصلب ليوقعه في عذاب وآلام أشـــد وأقسى؟!!! مطلقاً، ولذا لزم أن يتوفاه الله قبل رفعه، ولكن بأي معنى هو متوفيـــه، أبمعنى الموت؟ أم بمعنى النوم؟ أم بمعنى اســـترداده[3] ورفعه إليه بطريقة أخرى لا ندركها؟!!! كل تلك المعاني تحتملها الآية، وإن كنت شـــخصياً أستبعد الاحتمال الأول كثيراً، خاصة أنه قد أخبرنا برجعة المســـيح عليه السلام ثم بموته بعد ذلك كباقي البشر. وأغلب الظن أنه تعالى لن يذيقه سكرات الموت مرتين، والله أعلم[4].

---

(١) إن قوله تعالى: ﴿ يَصَّعَّدُ ﴾، بشدتين مفتوحتين على الصاد والعين فيه تأكيد استمرار الصعود إلى أعالي السماء، وليس ككلمة يصعد بسكون الصاد وفتح العين.

(٢) لو كان القرآن من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام كما يدعون، فمن أين له أن يصف ما لا يمكن أن يصل إليه جسمه أو حتى تفكيره؟ صحيح أن هذه الحقيقة قد أصبحت بدهية في زماننا نظراً لتطور العلم ووسائل النقل، لذا نجد الطائرات مجهزة جيداً بالأجهزة التي تحافظ على معدلات الضغط والحرارة والأكسجين فيها حتى لا يصاب الراكب بكل هذا، ولكنها لم تكن تخطر على بالٍ في زمنه. فلو أن رجلاً صعد آنذاك إلى أعلى قمة جبل في شبه الجزيرة العربية وهي جبال اليمن (علوها يصل إلى نحو ٣٠٠٠ متر) لشعر بنشاط من استنشاق الهواء الجبلي النقي وليس بضيق في الصدر.

(٣) في العربية استوفى الدين من فلان أي استعاد نقوده وقبضها. ولا يعني ذلك أن الدين مات، لأن المدين رد له النقود ولم ينكرها عليه. وعليه؛ فإن حقه لم يمت بل استرد. وعندما يموت إنسان تقبض الملائكة الروح وتردها إلى بارئها، وانطلاقاً من هذا المعنى يسمى الموت وفاة أيضاً، ولكن الوفاة بحد ذاتها لا تعني الموت بالضرورة كما رأينا قبل قليل.

(٤) مرد ظننا هو فقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الذي قال ذلك عن محمد عليه الصلاة والسلام حين رآه ميتاً، والناس في فتنة غير مستوعبين للأمر.

- فلنترك جانباً إعجاز القرآن العلمي وإخباره بالغيب، وظنونك، ولنعد إلى المزامير ثانية.

- كما تشـــاء. فقد جاء في المزمور الثامن عشر: "أرسل من العلا فأخذني، نشلني من ميـــاه كثيرة، أنقذني من عدوي القوي، ومن مبغضـــيّ لأنهم أقوى مني، أصابوني في يوم بليتي وكان الرب ســـندي، أخرجني إلى الرحب، خلصني لأنه سر بي، يكافئني الرب حسب بري، حسب طهارة يدي يرد لي، لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لم أبعدها عن نفســـي، وأكون كاملاً معه وأتحفظ من إثمـــي، فيرد الرب لي كبري وكطهارة يدي أمام عينيـــه، مع الرحيم تكون رحيماً، مـــع الرجل الكامل تكون كاملاً، مـــع الطاهر تكون طاهراً ومع المحتالين تظهر حيلتك" (١٦-٢٧)، "لا إلـــه غير الرب ولا خالق ســـوى إلهنـــا" (٣٢)، "تنقذني من مخاصمات الشـــعب تجعلني رأساً للأمم، شـــعب لم أعرفه يتعبد لي، من ســـماع الأذن يسمعون لـــي، بنو الغرباء يتذللون لي، بنو الغربـــاء يبلون ويزحفون من حصونهم، حي هو الرب ومبـــارك صخرتي ومرتفع إله خلاصي" (٤٤-٤٧)[١]. أليس هذا كله يرمز إلى المؤامرة على المسيح ودعائه إلى الله أن يخلصه، وأن يرفع عنه هذه الكأس، فما الله فاعل بهذا الدعاء؟ "أرســـل من العلا فأخذني"، وإذ أرسل من العلا، إذن فإلى العلا أيضاً أخذه، أليس هذا هو رفعـــه إلى الله؟! يقول أيضاً: "أخرجني إلى الرحب"، فمن أين أخرجه، أليس من الأرض، أوَليس الرحب هو الســـماء بالنســـبة إلى الكرة الأرضية ؟! انتشله، أليس رفعه من بين من أتوا للقبض عليه قريباً جداً في معناه مما تعنيه كلمة "نشلني"، أي خلصه لأنه ســـر به، لأن الرب الذي "لا إله غيره ولا خالق ســـواه" (سواء المسيح أو

(١) في كتابه بعنوان "حياة داوود" للدكتور "ف. ب ملير" ترجمة القس "مرقس داوود" ونشر مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة نقرأ تحت عنوان(خطبة حياته): "ونعلم من ذلك أن المسيح وليس داوود، هو الذي يتحدث داوود في المزمور على لسانه، متنبئاً بذلك عنه".

غيره) يكافئه حسب بره، وحسب طهارة يده يرد له، فكيف كل ذلك؟ أيمكن أن يكون بصلبه؟ أم كما يقول المزمور برفعه؟ لا جدال برفعه. "ومع المحتالين تظهر حيلتك" أليس في القبض على الشرير الذي حل شبه عيسى عليه السلام عليه ما تتحقق به الحيلة على من احتالوا لصلب المسيح؟! ولا ينتهي المزمور قبل أن يقطع لنا بأن من قصد به هو المسيح عليه السلام وليس داوود، إذ نراه يقول: "شعب لم أعرفه يتعبد لي"، ونعرف جميعاً أن المسيح وليس داوود هو من تعبد الناس له، إذ اعتقد المسيحيون اللاحقون في الإمبراطورية الرومانية أن المسيح عليه السلام هو الله، وعلى هذا الأساس كانوا يتعبدون له وتبعهم في ذلك أغلب المسيحيين اليوم. وهكذا ننتهي من هذا المزمور أيضاً إلى أن ينطوي، بحق، على نبوءة صريحة بتخليص الله للمسيح عليه السلام، وأن هذا التخليص سيكون برفعه إلى العلا، بانتشاله من بين أعدائه ورفعه، ألا يتفق ذلك مع المزمور العشرين (٧): "الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه"؟

- هذه النبوءات توضح أن مسيح الله لابد أن يتألم ويرفض ويموت، ثم يقوم من الأموات في نصرة مجيدة.

- إن المزمور يبدأ بقوله: "ليستجب لك الرب يوم الضيق"، فنفهم أن المتحدث في المزمور يخاطب آخر. وهو يدعو الله هنا أن يستجيب له في "يوم الضيق". ويوم الضيق بحق في حياة المسيح عليه السلام هو ذلك اليوم الذي كان عالماً فيه أن اليهود وأحد أتباعه يحتالون للقبض عليه، ويغرون به عند الرومان ليصلب. وقد رأينا في الأناجيل المعتمدة كم كانت عميقة هي صلاته في ذلك اليوم وهو يجثو على وجهه. ونعرف أنه طلب أن يعبر عنه كأس الصلب، وأن يخلصه من ذلك. وها هو ذا داوود النبي يدعو الله أن يستجيب دعاء المسيح هذا، فكيف يتصور داوود أن تكون هذه الاستجابة؟ إنه يقول: "ليرفعك"، أي إنه يطلب من الله أن يستجيب دعاء المسيح بأن

يرفعه "ليرفعك اســـم إله يعقوب، ليرسل لك عوناً من قدسه ومن صهيون ليعضدك، ليذكر كل تقدماتك ويستســـمن محرقاتك، سلاه ليعطك حسب قلبك ويتمم كل رأيك، نترنم بخلاصك وباســـم إلهنا نرفع رايتنا ليكمل الرب كل سؤالك" (٢-٥)، آيات كلها تحمل مضموناً واحداً، أن تكون استجابة الله للمسيح برفعه فيكون بذلك قد وفاه ما هو مستحق له.

بين المسيح والمصلوب

كان أبراهام ينصت إليهما باهتمام شـــديد دون أن ينبس ببنت شـــفة. فالمثير في الأمـــر أن النقاش يتناول أموراً جديدة عليه تماماً، مع أنه قد درس المزامير من وجهة نظر الشـــريعة اليهودية، ومن وجهة نظر التفسير اللاهوتي المسيحي لها. والأكثر إثارة بالنســـبة إليه كان تحول ليئور المفاجئ من المدافع عن الأسفار المستبعدة وآرائها، إلى المدافع عن الأسفار الرسمية وتفسيراتها المعتمدة على التقليد، وهو من كان قبل وقت قليـــل ينتقد كلاً من الأســـفار المعتمدة والتقليد معاً! كان هـــذا يؤكد لأبراهام ما قد لاحظه مراراً قبل ذلك، من أن المســـيحيين، وإن كانوا أنفسهم غير مقتنعين بأسفارهم ولا بتقاليدهم، وينتقدونها باســـتمرار، سرعان ما يتناســـون ذلك ويتحولون إلى أشد المدافعين عنها عند الحديث مع المسلمين بالذات!!!

فـــي ذلك الوقت كان ليئـــور يقلب الكتاب المقدس محاولاً أن يتذكر كل ما درســـه ســـابقاً، كي يجد رداً مفحماً لخصمه، فعندما تطوع لدعم القس سينوج في مواجهته لمبعوث راهب متشـــدد، كان مستعداً لكل شيء، إلا أن يتطور الأمر إلى مواجهة جانبية مع راهب مرتد عن المسيحية إلى الإسلام. وفي النهاية وجد ما كان يبحث عنه، فقال بلهجة تملؤها نشوة الانتصار:

- انظر إلى المزمور الثاني والعشـــرين؛ فهو قد ابتـــدأ بالعبارة الأخيرة التي قالها المســـيح على الصليب قبل موته: "إلهي إلهي لماذا تركتني". ويجمع علماء اللاهوت على أن هذا المزمور إنما تنبأ بواقعة الصلب، وتبين الأهمية البالغة لهذا المزمور عندما نجد أن الأناجيل نفسها قد أوضحت أن ما كان في الصلب إنما سبق أن تنبأ به هذا المزمور كما ورد في إنجيل متى (٢٧: ٤٦) وإنجيل مرقس (١٥: ٣٤).

هز إستس رأسه بأسى، وسأله معاتباً:

- ما دمت تستشهد بهذا المزمور، فلمَ تهمل تتمته؟!!!

تناول إستس الكتاب المقدس ثانية وهو يقول:

- إن المتكلم يستطرد قائلاً: "بعيداً عن خلاصي عن كلام زفيري. إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هدو لي. وأنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل، عليك اتكل آباؤنا، اتكلوا فنجيتهم، إليك صرخوا فنجوا، عليك اتكلوا فلم يخزوا، أما أنا فدودة لا إنسان، عار عند البشر ومحتقر الشعب، كل الذين يرونني يستهزئون بي، يفغرون الشفاه وينغضون الرأس" (٢-٨) "ثقبوا يدي ورجلي أحصي كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرسون في، يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون" (١٧-١٩)[١].

- بل هذا يؤكد كلامي أكثر؛ فداوود لم يمت مصلوباً، فهو إذن في هذا المزمور لا يتحدث عن نفسه، وإذ تتفق الوقائع المشار إليها في هذا المزمور مع الوقائع التي حدثت مع يسوع في الأناجيل، فلا محل إزاء كل ذلك إلا للتسليم بأن هذا المزمور إنما كان يتنبأ فعلاً بواقعة الصلب كما حدثت في الأناجيل.

- لا خلاف بيننا عن واقعة الصلب، وإنما الخلاف هو عن شخصية المصلوب بالذات، أهو المسيح عليه السلام كما يعتقد المسيحيون أم هو غيره كما يعتقد المسلمون؟!!!

- دعك مما يعتقد المسلمون وخاطبني في الكتاب المقدس فحسب. ما الذي يوحي بهذا المزمور أن المصلوب ليس يسوع المسيح؟

- بل ما الذي يوحي أنه المسيح؟!!! إن المصلوب يتحدث عن نفسه فيصفها: "أما أنا فدودة لا إنسان... عار عند البشر"، وهنا لا يملك أبسط الناس إلا أن يتأكد بسهولة أن

---

(١) من باب الإحاطة بكل الآراء، فإن هناك رأياً يقول إنه ليس في النص العبراني كلمة "ثقبوا" التي تنطق "كأرو"، بل يوجد كلمة "كأري" التي تعني كأسد!!! وقد اعترفت نسخة الرهبانية اليسوعية بوجود تحريف، وذكرت أن الكلمة في الأصل العبري تعني "كالأسد"، وهي كما قالت: "كلمة غامضة".

هذا المتحدث ليس المسيح عليه السلام. فما كان المسيح بالذي يمكن أن يشبه يوماً بدودة، وحاشى للمسيح أن يكون عاراً عند البشر، بل هو فخر لهم جميعاً فالمسلمون والمسيحيون يجلونه عليه السلام، وهم أكثر أهل الأرض. فإذا كان هذا المزمور قد تضمن نبوءة عن الصلب، فهو قد تضمنها بحق، بل لقد أنبئنا أيضاً بحق بأنه لم يكن المسيح عليه السلام بتاتاً. كما أن المزمور الذي قبله (المزمور الحادي والعشرون) ينتهي بوصف فرحة المسيح بخلاصه، ثم يصف هذا الذي خلص بأوصاف لا تنطبق على غير المسيح عليه السلام، إذ يقول عنه: "سألك الحياة فأعطيته عمراً يطول مدى الأيام (٥)"، والمسيح في الإسلام لا يزال حياً يرزق في السماء، وسينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليقود المسلمين ويكمل حياته على الأرض إلى أن يموت مثل باقي البشر، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً** ﴾ [**آل عمران**: ٤٦]، و ﴿ **وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ [**المائدة**: ١١٠]، وكلاهما معجزة لذلك الرسول الكريم عليه السلام. ففي المرة الأولى كلم الناس وعمره لا يتعدى الأيام، وفي المرة الثانية سيكلمهم وعمره يزيد على ألفي عام.

- لا يعترف المسيحيون بكلام المسيح في المهد، ولم يذكر ذلك في أي من كتبهم، ومن ثم فهذه القصة لا أساس لها من الصحة.

- لكن هذه الحادثة ذكرت بوضوح في إنجيل برنابا، بل ونسب المسيحيون ذلك إلى كتابات المؤرخ اليهودي "يوسيفوس".

- أنت تعرف رأيي في إنجيل برنابا، كما أجمع المؤرخون أن الفقرة التي ذكرت المسيح في كتابات يوسيفوس قد دست لاحقاً، ومن ثم فإن هذه القصة هي من بنات أفكار محمد وقرآنه.

- لقد ذكرت هذه الحادثة كذلك في أحد الأناجيل المفقودة التي كنت تدافع عنها قبل قليل، وتحديداً في إنجيل يعقوب المعروف بـ"إنجيل الطفولة". وهذا الإنجيل كان مخفياً في زمن محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يكتشف إلا في عصرنا هذا.

فظهر الحرج واضحاً على وجه ليئور، ثم ما لبث أن تمالك نفسه وقال ساخراً:

- تزعم أن المسيح سيترك قومه المسيحيين، ويعود إلى الأرض ليقود المسلمين!!! هه. ما هذا الهراء؟!!!

- إن الدين عند الله الإسلام، والإسلام هو إسلام الوجه لله، وطاعته، وعبادته وحده، والبراءة من الشرك، والإيمان بالنبوات، والمبدأ، والمعاد. وهذا هو ما نادى به كل الرسل على اختلاف شرائعهم[١]، وهذا هو دين عيسى عليه السلام ودين أتباعه الأولين. كما أن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء: ١٥٩] وإذ إنه لم يمت بعد، وهو حي في السماء بعد أن أعطاه الله "عمراً يطول مدى الأيام"؛ فإن من المسيحيين الحاليين من سيؤمن به قبل موته ويسلمون لله وحده، ومن ثم يصبحون مسلمين فعلاً (موحدين لله تعالى). وجاء في لوقا أنه ظهر في الليلة التي ولد فيها المسيح عليه السلام جمهور من الجنود السماوية للرعاة الذين كانوا في البرية يترنمون بهذا النشيد: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة"(لوقا ٢:١٤)، وقد ترجمها القس الكلداني "دافيد بنجامين الكلداني"[٢]: "الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام(ترجمة "إيريني")! وللناس أحمد (ترجمة "أيادوكيا")"[٣].

---

(١) لا تتغير هذه الأصول ولا تتبدل، ولا تنسخ، ولا تقبل الاجتهاد، ولا التخصيص مهما اختلفت الشرائع وأوامرها ونواهيها ومعاملاتها وحدودها على مر العصور. ونستطيع اختصار كل تلك الأصول بكلمة شاملة هي "التوحيد" أو "الإسلام" لله وحده.

(٢) كان قسيساً للكلدان الكاثوليك، وكان يجيد الكثير من اللغات. أرسل إلى روما حيث تلقى تدريباً منتظماً في الدراسات الفلسفية واللاهوتية في كلية "بروبوغاندافيد" وبعد إسلامه تسمى بـ"عبد الأحد داوود".

(٣) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع وغيره راجع كتابه القيم بعنوان: "الإنجيل والصليب" وفيه يقول عبد الأحد داوود: "إن أملي الوحيد هو الكشف عن حقيقة الموضوع والغرض الذي يجب أن ترمي إليه هذه الكتب (أسفار العهد الجديد المعتمدة)؛ أي إني أشعر بأن لابد في هذه الكتب من حقيقة، وأدرك أن الحقيقة المذكورة سعادة وخير لكل البشر. وإني قد شرعت في مطالعة الكتب المقدسة باللسان الأصلي التي كتبت بالدقة والإمعان لإظهار هذه الحقيقة بكل وضوح".

- دعك من هذا الكلام ولنعد ثانية إلى موضوعنا الرئيسي.

- أنت من خرجت عن الموضوع، وأنا كنت أجيب عن تساؤلك فقط. على أية حال أين توقفنا؟

- هنا.

قال أبراهام بحماس، وهو يضع إصبعه على المزمور الثاني والعشرين، فتابع إستس كلامه قائلاً:

- ويستطرد المزمور فيتحدث عما يجري لأول هؤلاء المتآمرين وأحقهم بالعقاب؛ الشرير الخائن. فيصف المزمور ما حدث له وكأنه يتحدث بلسانه، فيصف تماماً كل ما كان مع هذا الذي صلب، ويعرف المصلوب الناس بشخصيته في المزمور فيقول عن نفسه أنه دود لا إنسان، عار عند البشر. وقد ورد في المزمور الخامس والثلاثين:"لتأته التهلكة وهو لا يعلم ولتنشب به الشبكة التي أخفاها وفي التهلكة نفسها ليقع (٨)".

- ألم يرد في (مز ٦٩: ٥ - ٢١): "أنت عرفت عاري وخزيي وخجلي، قدامك جميع مضايقي العار قد كسر قلبي فمرضت. انتظرت رقة فلم تكن ومعزين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً وفي عطشي يسقونني خلاً"؟ إن هذه النبوءة تشير إلى عطش يسوع المسيح وهو مصلوب على الصليب وإعطائه خلاً ممزوجاً بمرارة (علقماً) ليشرب، كما تشهد الأناجيل بذلك.

- أتفق معك أن المزمور يشير إلى المصلوب وهو على الصليب. ولكن مرة أخرى: من هو هذا المصلوب الذي يتنبأ عنه المزمور؟ أول ما نلاحظه في هذا المزمور أن صيغة الدعاء فيه تختلف اختلافاً واضحاً عن صيغة الدعاء في المزامير السابقة التي رأينا أنها تشير إلى المسيح عليه السلام ودعائه اللهَ أن يخلصه من الصلب. فمن ناحية نلاحظ أن الدعاء في المزامير السابقة كان يسأله ببره وطاعته، ويقترن بالقطع في الاستجابة، فلماذا تختلف صيغة الدعاء في هذا المزمور عنها في المزامير السابقة؟ ألا

يدل ذلك على اختلاف شـــخص الداعي في هذا المزمور عن شخص ذاك الداعي في المزامير الســـابقة؟! ألا يدل على أن الداعي هنا يعلم أن دعاءه غير حقيق باستجابته إلا طمعاً في كثرة مراحم الله فحســـب! ثم لماذا كان هذا الموقف من الداعي، لابد أن إثماً عظيماً ارتكبه حتى جعل دعاءه على هذا النحو، وهذا هو ما يؤكده لنا الداعي في هذا المزمور حين نراه يتحدث عن نفســـه فيه فيقول لله أنه، أي الله تعالى، قد عرف "حماقته وذنوبه عنه لم نخف"(٦)، ثم يعود مؤكداً المعنى نفســـه بقوله لله أنه، أي الله، عرف عاره وخزيه وخجله. وشـــخص هذا حاله لا ينتظر بطبيعة الحال أن يســـتجيب اللـــه دعاءه إلا طمعاً في كثرة مراحم الله التي تســـع الناس جميعاً. ونقرأ في المزمور أيضاً على لســـان الداعي: "صرت أجنبياً عند إخوتي وغريباً عند بني أمي"، ولو كان المصلوب هو المسيح عليه السلام، فكيف صار على الصليب غريباً عند بني أمه وأجنبياً عند إخوته؟! ألا ينبئنا هذا القول بأن الذي ســـيصلب وسيحســـبه الناس المسيح عليه الســـلام، لن يكون هو، بل آخر؟!!! وإذ يحســـب الناس هذا الآخر المسيح نفسه، فإنه، أي المصلـــوب، يصير بذلك أجنبياً عند إخوته وغريباً عند بني أمه، أي إنهم لم يعرفوه بشخصيته الحقيقية، بل ظنوه المسيح. وبهذا يستقيم معنى الآية المذكورة ونفهمه. أما القول بأن الذي صلب هو نفســـه المســـيح، فذلك قول لا تستقيم به معاني الآية على الإطلاق، والأهم أنه لا يستقيم مع طبيعة المسيح الذي تروي الأناجيل المعتمدة أنه بقي أربعين يوماً صائماً في البرية دون طعام أو شـــراب، ولم يشتكِ!!! ثم إن المزمور يقول أيضاً على لسان المصلوب: "حينئذ رددت الذي لم أخطفه".

- كيف يكون المصلوب قد رد المسيح حسب زعمك؟

- ربمـــا في ســـكوته في أثناء المحاكمة وإصراره الواضح فـــي الأناجيل على عدم الكشف عن حقيقة شخصيته، وكأنه بذلك -في ظنه- يحفظ المسيح منهم، فيصلبونه ظناً منهم أنهم يصلبون المسيح، والمسيح بعيد عن أيديهم كما يعتقد. وكأنه بذلك يكفر

عن خطيئته ويحمي المسيح، ومن ثم فكأنما هو يرد هذا الذي رفعه الله ولم ينجح باختطافه، عن طريق التستر على حقيقة شخصيته.

طأطأ ليئور رأسه مفكراً، دون أن ينبس ببنت شفة، فبادره إستس متسائلاً:

- ألا تقولون إن الشيطان اقتبس من المزامير عندما جرب يسوع المسيح قائلاً: و"إن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى الأسفل، (كانا حسب الأناجيل على جبل مرتفع) لأن الكتاب يقول: يوصي ملائكته بك فعلى أيادِيهم يحملونك" (متى ٤: ٦)، و(لوقا ٤: ١٠ -١١).

- أجل؛ فهذا مكتوب في المزمور الحادي والتسعين على ما أذكر[١].

- تماماً، والمسيح لا يعترض على صحة اقتباس الشيطان من الكتاب، ولكنه يعترض على استخدامه للنص، ويرد بنص كتابي آخر قائلاً: "يقول الكتاب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك"[٢]. ألا يعني هذا أن الله تعالى قد أيد المسيح عليه السلام بالملائكة لتحميه من أي مكروه؟ وأن معرفة الشيطان بحماية الملائكة له هي التي جعلته يحاول إغواءه بالقفز اعتماداً على هذه الحماية كما يقول الكتاب؟ فكيف يؤمن المسيحيون بذلك، ثم يصدقون أن الملائكة المكلفة بحمايته قد سمحت لليهود والرومان بضربه وتعذيبه وإهانته ثم صلبه وطعنه؟!! هل يستقيم هذا؟!!! كلا بالطبع، فما دام الله قد تعهد بحماية مسيحه على هذا النحو، فلا بد أن الملائكة حملته من بين اليهود والرومان وأصعدته إلى السماء.

---

(١) هذا ما جاء في كتاب "تفسير المزامير" للقديس أغسطينوس الجزء الأول صفحة ١٥٥ منشورات بيت التكريس بحلوان. وفي ص ١٧٣ من الكتاب نفسه نقرأ: "على الأيدي يحملونك (الملائكة) لئلا تصدم بحجر رجلك" (مز ٩١: ١١- ١٢) "عندما أصعد المسيح إلى السماء كان محمولاً على أيدي الملائكة، وليس هذا معناه أنه لو لم تحمله الملائكة لكان قد سقط، بل المعنى أنها حملت ملكها إذ كانت واقفة في خدمته وتحت أمره. فلا تقل أن الملائكة التي حملته أفضل ممن حمل. . . " المزمور إذن عند علماء اللاهوت يتنبأ عن المسيح، بل ويبين كيفية رفعه إلى السماء!

(٢) متى ٤: ٧، وهنا يستشهد بالتوراة "لا تجربوا الرب إلهكم كما جربتموه في مسة" تثنية ٦: ١٦.

- هذه الآية بالتأكيد لا تتحدث عن واقعة صلب يسوع؛ ففداؤه لنا على الصليب ليس مكروهاً يستوجب إنقاذه.

- بل هذه الآية تتحدث عن محاولة الصلب تحديداً، وأن الله تعالى سينقذه منها.

- هات دليلك على هذا.

- دليلي هو هذا المزمور نفسه. تدبر معي هذه الآية هنا: "ألف يسقطون عن جانبه وإليه لا يقرب"، فمن هم هؤلاء الألف الذين يسقطون؟ أليسوا هم من يحاولون القبض على المسيح؟ فنقرأ عنهم في إنجيل يوحنا أنهم في هذه اللحظة رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، وهذا العدد بالذات "الألف"، قريب منه جداً ما نقرؤه في تفسير علماء اللاهوت[1]: "كانت القوة التي نيط بها القبض على المسيح مكونة من: ١-كتيبة من الجنود الرومانيين، والكتيبة كان في العادة عددها ٦٠٠ جندي مسلح بقيادة ضابط روماني. ٢-الخدام: وهم الموظفون اليهود الملحقون بمحكمة السنهدرين (وهي المحكمة اليهودية العليا)، وموظفو إدارة بوليس الهيكل يحملون سيوفاً وعصياً، وكان عددهم كبيراً وقريباً من عدد الكتيبة". ألا يكون العدد بذلك قريباً من الألف، أو قد يكون ألفاً تماماً؟ إذن سقط الألف ولم يقرب إليه، كما ورد في الكتاب المقدس. فكيف يمكن أن يقبضوا عليه بعد ذلك ويسوقوه إلى المحاكمة ثم إلى الصلب؟. وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يقربوا منه، فكيف تفسر ذلك إلا أن يكون الله قد رفعه من بينهم؛ "بخوافيه أخفاه وتحت أجنحته حماه" (مزمور ٩١: ٤). والمزمور نفسه يستطرد بقطع أن المقصود منه هو رفع المسيح في هذه اللحظة إذ يقول: "لأنه تعلق بي أنجيه. أرفعه لأنه عرف اسمي" (مزمور ٩١: ١٤).

- إذا كان المصلوب ليس هو المسيح بل خائنه كما تزعم، فكيف لم يأتِ المسيح على ذكر خيانته وجزائها؟

---

(١) الاقتباس التالي من كتاب "الحق" للقمص باسيليوس إسحاق.

- ومن قال لك ذلك؟! فقد ورد في المزمور التاسع بعد المئة: "يا إله تسبيحي لا تسكت. لأنه قد انفتح على فم الشرير وفم الغش. تكلموا معي بلسان كذب. بكلام بغض أحاطوا بي وقاتلوني بلا سبب. بدل محبتي يخاصمونني. أما أنا فصلاة[1]. وضعوا علي شراً بدل خير وبغضاً بدل حبي. فأقم أنت عليه شريراً وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكم فليخرج مذنباً وصلاته فلتكن خطية. لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر.... هذه أجرة مبغضي من عند الرب وأجرة المتكلمين شراً على نفسي" (١ - ٢٠)، وهذه الآية بالذات قد أشير إليها في الإصحاح الأول من سفر أعمال الرسل[2] باعتبار أن يهوذا الإسخريوطي هو المقصود بها، حيث جاء في هذا الإصحاح: "وفي تلك الأيام قام بطرس في وسط التلاميذ. وكان عدة أسماء معاً نحو مئة وعشرين. فقال: أيها الرجال الإخوة كان ينبغي أن يتم هذا المكتوب الذي سبق الروح القدس فقاله بفم داوود عن يهوذا الذي صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع، إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب في هذه الخدمة... لأنه مكتوب في سفر المزامير لتصر داره خراباً، ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفته آخر. فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج. منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذي ارتفع فيه عنا يصير واحد منهم شاهداً معنا بقيامته.... فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الأحد عشر رسولاً" (١٥ - ٢٦).

- هذا عقاب يهوذا على خيانة المسيح، وليس دليلاً على أنه صلب مكانه.

- إذن، فما معنى: "إذا حوكم فليخرج مذنباً"؟!!! ونحن نعرف أن هذا الذي حوكم في الأناجيل وأدين، أي خرج مذنباً، هو الذي صلب؛ أليس كذلك؟!!! ألم يؤكد بطرس الرسول أن هذا النبوءة هي عن يهوذا بالذات؟

---

(١) في ترجمة أخرى "من أجلهم أصلي" والتعليق في الهامش: "هكذا بالسريانية".

(٢) وهو السفر التالي للأناجيل مباشرة في كتاب العهد الجديد من الكتاب المقدس.

- أجل.

- إذن فالمحاكمة وخروجه منها مذنباً وصلبه كان عنه أيضاً.

- هل يعني ذلك أنك تظن أن "الشرير" الذي صلب مكان المسيح هو يهودا الإسخريوطي؟

- هكذا أرجح، ولكنني لا أقطع بذلك مطلقاً. أما الأكيد فهو أن ذلك الشرير كائناً من كان، قد أصبح بفعلته "عاراً على البشر" (المزمور٢٢)، حتى إنه أضحى يضرب به المثل على الخيانة والغدر، و"رجساً لهم" (مز ٨٨: ٨)، وتمضي المزامير في وصف شخصية هذا الذي سيصلب، فتراه الشرير دائماً، ومحال أن يكون هذا هو المسيح.

- دعنا من المزامير الآن؛ فهناك مثال في العهد القديم، يرى فيه المسيحيون رمزاً كاملاً لصلب المسيح، وهو ما ورد في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين عن امتحان الله لإيمان إبراهيم؛ بأن طلب منه أن يذبح ابنه وحيده الذي يحبه، فامتثل إبراهيم لإرادة ربه، حتى إذا ما همَّ بذبحه ناداه ملاك الرب ألّا يمد يده إلى الغلام، وقدم له كبشاً يذبحه عوضاً عن ابنه، وباركه الله لأنه لم يمسك عنه ابنه وحيده.

- هذا الرمز الذي يشيرون إليه إنما هو الحقيقة عينها، وفيه التفسير الواضح والرمز الكامل لكل ما يتعلق بواقعة الصلب. واستنادهم إلى هذا المثال وإعدادهم للقوائم التي تبين التطابق بين الحادثتين حتى في أدق التفاصيل والتسميات، يحتم عليهم الإقرار بنتيجتها، فهذه الواقعة إنما ترمز بكل دقة إلى تخليص الله للمسيح عليه السلام وصلب غيره بدلاً منه، ولكن مع ذلك فالمسيحيون يتجاهلون هذه الحقيقة تجاهلاً تاماً دون أن يبرروا هذا التجاهل بأي سبب مقبول[1]!!!

(١) لقد اكتفيت ببعض الأمثلة، ولم أر داعياً للإطالة أكثر من هذا في موضوع تحليل نبوءات العهد القديم التي يؤكد علماء اللاهوت أنها تخص المسيح وواقعة الصلب، والتي يثبت تفنيدها أن من صلب هو شخص آخر، في حين رفع الله تعالى رسوله عليه السلام. ولكن من يود الاطلاع عليها بالتفصيل فأنصحه بمراجعة كتاب "دعوة الحق بين المسيحية والإسلام" للقاضي "منصور حسين عبد العزيز".

استجواب الرواة

تململ ليئور بجلسته، وقال مغيراً اتجاه الحديث:

- علـــى كل الأحوال فإن ما ورد في العهد القديم لا يعدو أن يكون نبوءات ورموزاً، ولكن الحقيقة المجردة فيما يتعلق بصلب المسيح نجدها فقط في العهد الجديد.

- هذا هو المفروض. فلنعد إذن إلى شهادات كتبة العهد الجديد لنرى أكانت خالية من التناقض والشـــك واتباع الظن في شأن هذا الموضوع الحساس؟ ولنبدأ مع مقابلة المســـيح للجمع الذي جاء للقبض عليه في ضيعة "جتســـيماني"[1]. فنجد في الأناجيل الثلاثة الأولى أن هذا الجمع يتكون من خدم رؤســـاء الكهنة وشـــيوخ الشعب، ولكنهم ولسبب غريب لم يعرفوا المســـيح حتى قبله يهودا حسب الإشارة المتفق عليها. فكيف يحتاجون إلى إشـــارة كهذه وهم من كانوا يرونه يومياً؟ خاصة أن المســـيح نفسه قال لهم في تلـــك الأناجيل الثلاثة: "كل يوم كنت معكم في الهيكل أعلم ولم تمســـكوني"، أفكانـــوا يعرفونه أم لا؟ وتزداد حيرتنا عندمـــا نقرأ في الإنجيل الرابع؛ إنجيل يوحنا، أن الجمع يتكون بمعظمه من الجنود. وهؤلاء نلتمس لهم العذر في عدم معرفة المسيح وحاجتهم إلى يهودا كي يقبِّله كإشـــارة إلى أن هذا بالذات هو المســـيح، ولكننا لا نجد أثراً لقصة الإشارة أو القبلة!!! بل خرج المسيح "وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصري، قال لهم يسوع: أنا هو، وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم، فلما قال لهم إني أنا هو، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض، فسألهم

---

(١) الغريب أنه حسب إنجيل لوقا (٢٢: ٢٩ - ٤٧) فإن المسيح ألقي القبض عليه من جبل الزيتون!!! والتناقض واضح وواقع في اسم المكان الذي اعتقل منه المسيح. وللتأكد من اختلاف جغرافية ضيعة جتسيماني عن جغرافية جبل الزيتون، عكس ما يدعي البعض، انظر (متى ٢٦: ٣٠ ومرقس ١٤: ٢٦ و٣٢ ويوحنا ١٨: ١).

أيضاً: من تطلبون؟ فقالوا: يسوع الناصري، أجاب يسوع: قد قلت لكم إني أنا هو".

- هل تعرف أن معنى إني أنا هو، هو "أنا هو الذي هو".

- أي كما قال الله لموسى عندما كلمه؟ هل تريد القول بأن يسوع أعلن آنذاك بالذات أنه هو الله؟!!

- هذا ما يقوله علماء اللاهوت.

- إذا كان هذا صحيحاً، فبم تفسر أن الله لم يظهر ويتجسد آنذاك لموسى مع أنه كان مؤمناً، بل ونبياً، في حين أنه ظهر هذه المرة للجنود الرومان مع كونهم خطأة وكفاراً!! بل سمح لهم باقتياده وإهانته، ومن ثم ضربه والبصق عليه وتعليقه على الصليب وطعنه في خاصرته؟!!!!

- حسناً فلنعد إلى موضوعنا.

- كما تريد. إذن فماذا كان دور يهودا بالضبط بناء على الروايات التي استعرضناها؟ أهو تعرُّفُ المسيح، أم فقط إرشاد الجمع إلى مكانه؟

- ربما الاثنان معاً.

- هذا غير وارد؛ فإما أنهم قبضوا عليه بعد أن قبَّله يهودا حسب الإشارة المتفق عليها، ليعرفوا أنه المسيح، وإما أن يكون المسيح قد خرج إليهم وعرفهم بنفسه فوقعوا على الأرض ولم يستطيعوا الاقتراب منه. وأنا أرى أن الرواية الثانية هي الأقرب للمنطق، لأن هذا التصرف هو الأقرب إلى طبيعة رسول كريم، ولأننا وجدنا ما يؤكده في العهد القديم. المهم، بعد أن "وقعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض" في المرة الأولى، عادوا فقاموا وقبضوا على الواقف أمامهم دون أي صعوبة!!! ولنا أن نفترض أن الذي قبضوا عليه كان الشرير وليس المسيح الذي تعهد الله أن الملائكة ستحمله، ولن تدع حجراً يؤذي قدمه، كما جاء في العهدين القديم والجديد. أليس كذلك؟

- تابع.

- لقد اقتادوه إلى كيافا رئيس الكهنة مباشـــرة، حســـب الأناجيل الثلاثة، أو "إلى حنان أولاً لأنه كان حمو كيافا" حســـب إنجيل يوحنا. وهـــا هو ذا أمامه حيث اجتمع الكتبة والشيوخ، وأذكرك بقول الله تعالى في القرآن: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَـا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النســاء: ١٥٧ – ١٥٨]. ونجد هذا الشـــك بالفعل يســـاور من كانوا يحاكمون من ظنوه المســـيح، فيسألونه -حسب إنجيل متى-: أهو المسيح حقاً؟ أم ملك اليهود حقاً؟ وغير ذلك من الأســـئلة الغريبة التي لم تكن لتدل إلا على شـــكهم في شـــخصية هذا الماثل أمامهم. لقد ظل ســـاكتاً لا يتكلم، إما لكونه لا يزال مدهوشـــاً من رفع المسيح وإلقاء شـــبهه عليه، وإما لأنه كان نادماً على خيانته بعد الذي رآه، أو حتى لأنه كان مضحياً بنفســـه لإنقاذ سيده المسيح عليه السلام. أما لو كان الماثل للمحاكمة هو المسيح فعلاً، فلمـــا ضيع فرصةً كهذه ليبشـــر بدعوته! ولما كان لديه عـــذر بالصمت!!! وقد تعجب رئيس الكهنة لذلك الصمت، وهو يعرف المســـيح ويعرف قوة حجته، فسأله أن يجيب عما يشهدون به عليه، ولكنه مع هذا ظل ساكتاً! وهنا يعود رئيس الكهنة فيسأله سؤالاً غريباً لا أفهم مكانه من الإعراب، إذ إن المســـيح حتى تلك اللحظة، وبحسب الأناجيل الأربعة نفســـها، لم يعلن بعد أنه ابن الله، ومع ذلك يستحلفه رئيس الكهنة بالله الحي أن يقول هل هو المسيح ابن الله؟!!! ولم يجب الشرير لا بالنفي ولا بالإيجاب، وإنما قال لـــه: "أنت قلت"، أي أنت الـــذي تقول هذا وليس أنا. ولا يكتفي بذلك وإنما كأنما أراد أن يعرف أتباع المســـيح أنه ليس المسيح فقال: "وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون "ابن الإنســـان" جالساً عن يمين القوة وآتياً على ســـحاب السماء" (٢٦: ٦٤)، وابن الإنسان في إنجيل متى هو المســـيح عليه السلام. وإن المرء ليعجب كيف يذكر هذا في الإنجيل على لسان هذا الذي حوكم، ومع ذلك يجري الاعتقاد بأنه هو المسيح عليه السلام!!!

- لماذا؟

- لأن جلوس ابن الإنسان عن يمين القوة (الله)، ومجيئه على سحاب السماء، هو ما يكون بعد صعود المسيح عليه السلام بلا خلاف، ولكن هذا الذي يتكلم يقول بالتحديد أنه "من الآن"، أي منذ هذه اللحظة التي هو واقف فيها أمامهم ويتحدث فيها إليهم. وهذا القول منه لا يمكن أن يكون قد قصد به نفسه فهو الآن ماثل بين أيديهم، أي إن الكلام نفسه ومعناه يقطعان بأنه يتحدث عن آخر جالس في اللحظة نفسها (من الآن)، في تقديره، عن يمين القوة، في حين أن الواقف أمامهم بقي معهم حتى قدم للوالي وصلب في اليوم التالي، وظل بضع ساعات على الصليب حتى مات فدفن. أليس كذلك؟

- ولكنه يجيب في إنجيل مرقس: "أنا هو. وسترون ابن الإنسان جالساً على يمين الله القدير، وآتياً مع سحاب السماء(٦٢)".

- هذا يدل على الاختلاف والشك الذي أتحدث عنهما. ولتأكيد ذلك نجد أن الاستفسار في إنجيل لوقا لم يكن حول كونه هو ابن الله أم لا، بل فقط حول كونه المسيح أم لا. ويكون جوابه: "إن قلت لكم لا تصدقون"، إذن هو ليس المسيح، ولو أخبرهم بأن شبهه ألقي عليه لما صدقوه حتماً. ويستطرد قائلاً: "وإن سألتكم لا تجيبون، لكن ابن الإنسان سيجلس بعد اليوم عن يمين الإله القدير" (٦٨-٧٠)، مع أننا لا نجد أثراً لهذه الحادثة في إنجيل يوحنا، وكل ما نجده أن أحد الحرس لطمه عند حنان قائلاً: "أهكذا تجيب رئيس الكهنة"[١]، مع أن حنان ليس رئيس الكهنة أصلاً!!! والآية التالية نفسها قالت بوضوح: "فأرسله حنان موثقاً إلى كيافا رئيس الكهنة (٢٤)"،

(١) وقد اعترض المصلوب الذي يقولون إنه عيسى عليه السلام على لاطمه مقاوماً شره. والغريب أنهم ينسبون إلى عيسى عليه السلام أنه قال سابقاً: "وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً" (إنجيل متى ٥ : ٣٩)، أفكان الملطوم هو المسيح نفسه، ومن ثم تنكر لتنظيره عند أول اختبار عملي؟! حاشا لله أن يفعل رسوله عكس ما يقول.

وحتى أمام الوالي، أجمعت الأناجيل الثلاثة على صمت يسوع إلا إنجيل يوحنا!!! فماذا ترى في هذه التناقضات؟

- لا يجب أن نتغافل هنا عن أن هذه الروايات كانت سماعية محضة، وأن أياً من أتباع المسيح لم يحضرها. فبطرس الذي كان الشاهد الوحيد للمحاكمة من التلاميذ، لم يرَ شيئاً، ولم يسمع شيئاً، وكان خارج الدار حسب إنجيل متى٢٦:٦٩، بل جلس مع الخدم والعبيد حسب إنجيل يوحنا ١٨:١٨، وكان الوقت ليلاً والجو بارداً، وهو لم يظل للنهاية بل هرب بعد أن شكوا بمعرفته للمسيح. لذا فمن الطبيعي أن نجد بعض الاختلاف.

- لقد سمعت هذا الرد سابقاً، ولا أدري كيف يقول علماء اللاهوت ذلك، ثم يعودون فيدعون أن كل كلمة كتبت بوحي وإلهام من الروح القدس؟!!! على كل الأحوال، ماذا عن "نيقوديموس" أحد أخلص أتباع المسيح، والذي كان في الوقت نفسه عضواً في المجمع اليهودي (السنهدرين)!!! فإذا كان يعرف حقاً أن ذلك الرجل هو المسيح، فكيف وافق على إعدام معلمه؟!!!

- كان نيقوديموس يتبعه سراً، ولن يخاطر بانكشاف حقيقته باعتراضه على قرار الإعدام، خاصة أن صوته وحده لن يقدم أو يؤخر.

- يبدو أنك لا تعرف الكثير عن القوانين اليهودية؛ فقرار الإعدام لا يتخذ بالمجمع إلا بإجماع الـ٧١ عضواً.

هز أبراهام رأسه موافقاً، فطأطأ ليئور رأسه خجلاً، بينما تابع إستس قائلاً:

- ولمعلوماتك الخاصة، فدائرة المعارف اليهودية تؤكد أنه لم يحدث قط في تاريخ اليهود أن اجتمع السنهدرين في بيت رئيس الكهنة. بالإضافة إلى تحريم المحاكمات الليلية على التهم التي عقوبتها الإعدام وفق القانون اليهودي. وكل الأناجيل تقول إن المحاكمة كانت ليلية في بيت الكاهن، باستثناء إنجيل لوقا الذي يقول إن المحاكمة

كانت نهاراً في المجمع (٢٢:٦٦)!!! ولمعلوماتك أيضاً، فقد قام "فينيغان"[١] بالبحث عن يوم الجمعة ١٥ نيسان/أبريل[٢] في الفترة ما بين ٢٧ إلى ٣٤ ب.م[٣]، ولم يجد أن يوم الجمعة صادف هذا التاريخ بأي من تلك السنوات طبقاً للحسابات الفلكية، وكذلك فعل الباحث "إس.سميث" بتفصيل أكبر، وانتهى إلى النتيجة نفسها، مما ينسف الدقة في نقل أحداث تلك المحاكمة من أساسها.

- الكتاب المقدس ليس كتاب تأريخ كي تنتقد دقة أرقامه.

- الموضوع ليس بدقة التواريخ، بل بأن المعلومات التي وصلت إلينا عن المحاكمة والصلب متضاربة وغاية في التناقض. فكتبة إنجيلَي متى ومرقس يذكران أن اللصين اللذين صلبا كانا يعيران المصلوب ويهينانه، وكاتب إنجيل لوقا يذكر أن واحداً فقط فعل ذلك، والآخر وبخه وطلب أن يذكره، فوعده بالفردوس معه. وكاتب إنجيل يوحنا لم يذكر ذلك بتاتاً مع أنه من المفترض أنه كان أقرب الجميع من المصلوب بناء على التقليد الذي يؤكد أنه هو من قال له المصلوب: "هي ذي أمك"! وهناك خمس روايات من أربعة أناجيل لكلمات المصلوب الأخيرة، وكل واحدة مختلفة عن الأخرى؛ فحسب إنجيل لوقا (٢٣ : ٤٦): "ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح". وبحسب إنجيل متى (٢٧ : ٤٦): "ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لمَ شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني"، وبحسب إنجيل متى أيضاً، ولكن في رواية أخرى (متى٢٧ : ٥٠): "فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح" (أي روح؟!! وهل لدى الرب روح؟!!! هل يقصدون

---

(١) في التفسير الحديث لإنجيل متى، صفحة ٤٠٦.

(٢) تاريخ المحاكمة(ليلا)، وأيضاً تاريخ الصلب المفترض (نهاراً) وفق الرواية المعتمدة بناء على الأناجيل الثلاثة. ولكن إنجيل يوحنا انفرد بأن الصلب كان يوم الخميس وليس يوم "الجمعة الحزينة" كما هو متعارف عليه حالياً.

(٣) السنوات المحتملة لواقعة الصلب وفقاً لمختلف التواريخ المسيحية المعتمدة.

أنه أسلم الروح القدس؟!!!). وبحسب إنجيل مرقس (١٥: ٣٤): "وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لم شبقتني. الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني؟". وبحسب إنجيل يوحنا(١٩ :٢٨ -٣٠): "ورأى يسوع أن كل شيء قد تم، فقال: "أنا عطشان"، ليتم الكتاب[1]، وكان هناك وعاء مملوء بالخل، فغمسوا فيه إسفنجة ووضعوها على الزوفي ورفعوها إلى فمه. فلما ذاق يسوع الخل قال: "قد أكمل". ونكس رأسه وأسلم الروح"!!! كما أن الأناجيل اختلفت بنص العبارة التي كتبت على الصليب وبلغاتها. وأخيراً، يذكر متى أن كثيراً من القديسين بعثوا إلى الحياة بعد موت المسيح وغادروا قبورهم لدى قيامته ودخلوا المدينة وظهروا لكثيرين (٥٢: ٢٧)!! وهذا الحدث الجلل لم يذكره أحد من المؤرخين، بل لم تذكره باقي الأناجيل أو حتى الرسائل، فكيف أغفلوا حدثاً بهذا الإعجاز الخارق؟!!!

- على قلة دقة تلك الروايات، فإن بعضها يؤكد أن المسيح لم يصمت في أثناء المحاكمة، وبعض هذا الكلام، على قلته، لا يدع مجالاً للشك بكونه هو المسيح فعلاً.

- إذا كان المصدر الذي اعتمد عليه كتبة الأناجيل في هذا الموضوع هو روايات سماعية عن طريق أعدائهم الذين حضروا المحاكمة، فليس ببعيد إذن أن بعضهم لم يشأ أن يثير الشك حول حقيقة شخصية المصلوب بالإشارة إلى ما كان من سكوته، فأضاف من عنده هذا الكلام، خاصة أننا نجد أن الغالب في الأناجيل على هذا المقبوض عليه في أثناء محاكمته، أنه كان يلزم السكوت حتى كان يثير بذلك عجباً كبيراً تكرر في الأناجيل كافة. أما إن كان المصدر هو الروح القدس الذي حل عليهم، كما يدعي البعض، فكيف إذن أوحى الروح القدس إلى كتبة الإنجيل بمعلومات متناقضة؟!!!

- الكنيسة تقول إنه قد أوحى لهم بالمعلومات نفسها، ولكنه ترك كلاً منهم يكتب

---

(١) يلاحظ أن مدوني الأناجيل يكررون أن المسيح كان "يتعمد" فعل أشياء كثيرة لا يحتاجها، ولا معنى لها إلا لكي "يتم" ما جاء في الكتاب! مع أنه من المنطق أن يحدث ذلك دون توجيه مباشر!! الغريب أنه من المفترض أن يكون المسيح، باعتباره هو الله، هو من أنزل الكتاب الذي يجتهد بقوة كي تنطبق نبوءاته على شخصه!!!

عن ذلك بأسلوبه الخاص ويذكر ما يراه مهماً ويستبعد الباقي.

- ولكـــن إذا كان هناك وحي فعلاً، فليس لهم الحرية في الانتقاء. ثم إن الاختلاف ليس فقط بأســـلوب ما كتبوه ونوعيته وكميتـــه، بل يتعدى ذلك إلى تناقض واضح بين ما أورده كل منهم؛ فكيف يكون أصل كل ذلك التناقض رواية واحدة؟ وممن، من الروح القدس؟! الذي تعتبرونه الأقنوم الثالث لله، أي هو الله نفسه عندكم.

- بعض العلماء يقولون بأصل واحد مفقود اقتبست منه كل الأناجيل.

- هـــذا كلام معقول جداً، وأظن أن هذا الأصل المفقود هو الإنجيل الذي آتاه الله لرسوله عيسى عليه السلام. وإذا كان الأمر كذلك فلا وحي ولا إلهام كان في اقتباس كتبة الأناجيل المعتمدة عن الإنجيل الأصل. وتكون النتيجة أن هذه الأناجيل ليســـت إلا "كتب سيرة حياة المســـيح وبعض تعاليمه ومواعظه"[١]، حيث استشهد كل واحد منهم، من الإنجيل الحق، بما من شأنه تأكيد الرواية التي وصلت إليه، وما يناسب طبيعة من يكتـــب إليهم. ومما يؤكد هذا الافتراض أن أياً من الكتاب الذين ســـميت كتبهم لاحقاً بـ"الأناجيل حســـب رواية فـــلان"، وفيما بعد بـ"إنجيل فلان"، لم يـــدعِ أن ما كتبه هو الإنجيل. ولكن الكنيسة وصفتها بذلك لاحقاً بناء على التقليد فحسب[٢].

---

(١) قضى رسول الله ﷺ قرابة ٢٣ سنة يدعو الناس إلى الإسلام بثلاث طرائق أو ثلاثة خطابات: القرآن الكريم، الأحاديث القدسية، والسنة النبوية. هذا بالإضافة إلى أنه قد تم تناقل سيرته، وكان المسلمون يعلمونها أبناءهم عند تعليمهم القرآن والأحاديث. ومع ذلك لم تختلط كل تلك النصوص بعضها ببعض. فمن يقرأ أياً منها يمكنه الجزم بأنه حديث أو قرآن أو حديث قدسي، وهذا في حد ذاته معجز. كيف لبشر أن يكلم الناس أكثر من عشرين عاماً بثلاث طرائق دون أن يختلط بعضها ببعض، إلا أن يكون وحياً من عند الله؟ وكيف يمكن للمسلمين أن يدونوا ذلك كله ويتدارسوه عبر القرون دون أي خلط، إلا أن تكون شريعة نبيهم عليه الصلاة والسلام هي الشريعة الخاتمة فعلاً، وأن الله تعهد بحفظ كلمته فيها، لأنه لن ينزل غيرها إلى يوم الدين؟

(٢) لا تزال كثير من الشعوب الآرامية المسيحية كالأشوريين والكلدان والسريان وسالاباريو الهند يعلمون أن الإنجيل مختص بالمسيح عليه السلام وحده، ولا يلقبون الكتب الأربعة بعنوان (إنجيل)، بل بعنوان (كاروزوتا) أي الكرازة أو الموعظة. مثل(كاروزوتا ومتى) و(كاروزوتا ومرقس)... إلخ أي وعظ أو موعظة متى... إلخ. والنسخة السريانية المعتبرة جداً عند علماء اللاهوت والمسماة "بشيطتا" (Peschitta) لا تشذ عن هذه القاعدة.

- لا يوجد إنجيل ليسوع؛ لأن يسوع نفسه وكل ما صدر عنه هو الإنجيل.

- وكذلك نقول نحن عن السنة؛ فهي كل ما صدر عن محمد عليه السلام من تعاليم وأعمال، ولكننا لا ندعي بأن مدوني السنة ملهمين من الروح القدس!!! وإذ القرآن لا يزال معنا، فلم يدّعِ أحد أن كتب السيرة هي القرآن أو كلام الله بشكل عام، مع أن بها الكثير من كلامه.

- عدنا إلى المواضيع الجانبية.

- هذه ليست مواضيع جانبية؛ فلو كانت هذه الكتب الأربعة هي فعلاً أناجيل، فكيف لكاتب مسيحي يبحث عن واقعة ذكرها أحدهم ولا يتذكر الإنجيل ويقتبس منه ويستشهد به.

- ماذا تعني؟

- أعني أعمال الرسل ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ويهوذا، فلم يوجد بأحدها أي اقتباس أو حتى ذكر للأناجيل الأربعة. فإذا ثبت عدم وجود هذه الأناجيل الأربعة، أو على الأقل عدم اعتبارها أو اعتمادها زمن الرسل الخمسة مؤلفي الرسائل، فبأي جرأة تعتبرها الكنيسة الإنجيل الحقيقي؟!! وأي علاقة للوحي والإلهام بهذه الأناجيل التي لم تكن موجودة لا في زمن الحواريين، ولا في زمن الرسل؟!

- لكن الرسول بولس أشار إلى بحث أو بحثين من الأناجيل.

- لا يجوز قطعاً أن تدعي أنه اقتبس من الأناجيل أو كتب بالاستناد إليها. فبولس مثلاً كتب عن تقديس المسيح الخبز والشراب اللذين شبههما بلحمه ودمه في آخر ليلة من حياته وتوزيعه إياهما على التلاميذ الاثني عشر، كما ورد في الأناجيل الثلاثة الأولى، ولكننا لا نجد في رسائله العبارة الواجب ذكرها؛ كقوله: "على الوجه الذي كتب في الإنجيل الفلاني أو إنجيل (فلان)"، فلو وجد كتّاب إنجيل في زمن كتابة بولس وبطرس رسائلهما، لكان من البدهي أن يبحثا عنه، أو يقتبسا منه، ولكن يظهر أنه لم يكن لكتاب الرسائل الإنجيلية علم بوجود الأناجيل الأربعة، ويظهر أيضاً أنه لم يكن

بعضهم على علم بكتابات البعض الآخر، فإن في هذه الرسائل بعض العقائد والبيانات الغريبة التي يتفرد بها كاتب تلك الرسالة عن غيره.

- مثل ماذا؟

- مثل قول كاتب رسالة بطرس أن المسيح قضى عقب موته ثلاثة أيام بين الأرواح المحبوسة في السجن(في جهنم)!!! "إِنَّ الْمَسِيحَ أيضاً تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ، مُمَاتاً فِي الْجَسَدِ وَلَكِنْ مُحْياً فِي الرُّوحِ، الَّذِي فِيهِ أيضاً ذَهَبَ فَكَرَزَ لِلأَرْوَاحِ الَّتِي فِي السِّجْنِ" (رسالة بطرس الأولى ٣: ١٨-١٩)، كما جاء على لسان بولس في رسالته إلى أفسس: "الكتاب يقول عندما صعد إلى العلاء[١] أخذ أسرى كثيرين وأعطى البشر عطايا". تقول الآية أنه "ظل في الجحيم حتى بُعث"[٢]! "وما المقصود بقوله (صعد) سوى أنه نزل أولاً إلى أعماق الأرض"(٤: ٨- ١٠)[٣]. ولكن هاتين المسألتين الجليلتين لم تذكرهما بقية الرسائل الست والعشرين الأخرى التي تألف منها كتاب العهد الجديد[٤]!!! فكيف يمكن أن يكون الخمسة الحواريون غير واقف أحد منهم على ما كتبه الآخرون، مع القول بأنهم كتبوا رسائلهم

(١) مزمور ٦٨: ١٩، وأعمال الرسل (٢: ٣١)، وهذا معناه عندما توفاه الله تعالى ورفعه إليه، والله أعلم.

(٢) في طبعة ١٨٣١، وفي طبعة ١٩٦٦ تم تغيير عبارة "الجحيم" وكتابة "الهاوية".

(٣) هل نبه الروح القدس بولس أن العالم السفلي ليس إلا من خيال البابليين (سموه أرالو)، والمصريين القدماء (سموه طوات)، واليونانيين (سموه تارتاروس) وغيرهم من الشعوب الوثنية؟ فكريشنا نزل إلى الجحيم في العالم السفلي ليخلص الأموات، وكذلك زرادشت وبعل وأدونيس وهرقل. (يذكر أن علماء الجيولوجيا قد اكتشفوا كل طبقات الأرض حالياً). واللاهوتيون قالوا إن نزوله ليخلص الذين ماتوا قبل صلبه! ولكن لماذا يتعذب الرب؟ ألا يكفيه أن يخلصهم دون أن ينزل إلى الجحيم؟!!! كما أنه ليس لديهم حياة أو خيار، أيعني نزوله إليهم أنهم قد خلصوا كلهم وأفرغ الجحيم بعد صلبه؟!!! أم أن منهم من رفض تضحيته، وآثر البقاء في الجحيم على تصديق هذه القصة الغريبة؟!!!

(٤) ومع ذلك فقد أصبحت عقيدة راسخة عند كثير من الآباء؛ فقال القديس "كريستوم" في سنة ٣٤٧ م: "لا ينكر نزول المسيح إلى الجحيم إلا كافر"، وقال القديس "كليمندوس الإسكندري" في أوائل الجيل الثالث الميلادي: "قد بشَّرَ يسوع في الإنجيل أهل الجحيم، كما بشَّرَ به وعلَّمه لأهل الأرض"، ووافق عليه القديس أوريجن.

بتلقي الوحي، ملهمين من الروح القدس نفســه؟ كيف لا يكون لبطرس الذي كشــف الغطاء عن دخول المســيح الجحيم ثلاثة أيام علم برسالة يعقوب الذي يدعي أن دعاء الكاهن للمريض المحتضر مع دلكه بالزيت يشــفيه، وكذلك يغفر ذنوبه بهذه المداواة؟ كيف يغفل ذكر تلك المعلومة المهمة لكل مسيحي إن صحت؟!!! كيف يمكن لبطرس، وهو رئيس الحواريين، أن يغفل عن كتابات من هم تحت رئاســته؟ ولا شبهة في أن المعقول والموافق للعدل أن يملي الروح القدس على كل منهم جميع الحقائق التي يرى أن إلهامها ضروري. هل من عالم يستطيع أن يبين أية حكمة وعدالة استندت إليها هذه الإلهامات المتناقضة من الروح القدس؟

- ماذا تعني؟

- أعني كتمان حقيقة عظيمة عن المسيحيين الساكنين في بعض الأقطار، وإظهارها والإفضاء بها إلى سكنة ديار أخرى، ثم كشفها وإلقاؤها إلى إمبراطور و٣١٨ كاهناً بعد ثلاثة قــرون؟ إن ظهور ما ينوف على ثلاث مئة الفرقة في القرون الميلادية الثلاثة أو الأربعة الأولى كل منها لا يقبل غير الكتاب الذي في يده، وتشــعب العقائد والمذاهب المختلفــة والمتضادة ولعن بعضها بعضاً، كله كان بســبب مثل هذه الكتابات المتناقضة؛ ذلك بأن الكنيسة التي كانت تملك كتاب مرقس لم تكن مطلعة على صفة ولادة المسيح ولا علــى قيامه من القبر[1]، وكذلك الجماعة اليونانية التي كانت تملك كتاب يوحنا لا يمكنها أن تحيط خبراً بصفة ولادة المســيح ولا التعميد وقربان القديس من الأســرار الســبعة!!! ولا يمكن أن تكون جميع هذه الكتابات إلهامــاً من الروح القدس الذي لا

(١) ما ورد في الإصحاح الأخير من إنجيل مرقس؛ أي رقم ١٦ من الآية ٩ إلى الآية ٢٠، التي تتحدث عن قيامة المسيح، هي إضافة لم تكن موجودة في المخطوطات القديمة لذلك لإنجيل حسب اعتراف علماء اللاهوت أنفسهم. وفي ذلك يقول "جون فنتون" في تفسيره للإنجيل، صفحة ٤٤٩: "إن إنجيل مرقس لم يحتوِ على أي رواية تتكلم على ظهور الرب المقام من الأموات". وتلك الإضافة غير موجودة في المخطوطات القديمة ولا حتى في المخطوطة الفاتيكانية Codex vaticanus نفسها.

يدعو -بالتأكيد- إلى الضلالة والاختلاف، ولا يكون سبباً لهما بتاتاً. وربما كان سبب جمع هذه المتناقضات هو تشكيل الكنيسة الرسمية من بضع طوائف مختلفة، ومحاولة التوفيق بينها عن طريق قبول كتب كل طائفة منهم، وجمعها في كتاب واحد، ثم فرضها بسلطة الإمبراطورية الرومانية على الجميع.

- فلنعد إلى موضوعنا أفضل.

- كما تريد. إذن تمضي الرواية في إنجيل متى فتقول إنه لما كان الصباح تشاوروا حتى يقتلوه، فأوثقوه ومضوا به إلى بيلاطس النبطي الوالي الذي سأله أهو ملك اليهود، فلم يجب إلا بأنه، أي بيلاطس، هو الذي يقول ذلك، تماماً كما سئل في اليوم السابق عن كونه هو المسيح. ووقف رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه، وهو هنا أيضاً لا يجيب بشيء! حتى إن بيلاطس تعجب وسأله عن كونه لا يسمع ما يشهدون به عليه، إلا أنه مع هذا لم يجب ولا عن كلمة واحدة، حتى "تعجب الوالي جداً من هذا السكوت الغريب"، كما يقول الكتاب المقدس. ولنا أن نتساءل: لو كان هو المسيح حقاً ففيم سكوته وهو الذي عندما حضر الجمع للقبض عليه لم يتردد في الإفصاح لهم عن شخصيته؟ لماذا هناك يفصح وهو هنا يسكت ولا يجيب؟ مع أن الأجدر به أن يتكلم هنا لا هناك إن كان هو المسيح!!! فهذه هي أفضل فرصة لنشر دعوته على الملأ. ولكنه لم يكن المسيح، بل الشرير هو من حوكم وخرج مذنباً.

- لقد كانت أم المسيح بقربه عندما صلب، ألم تعرف هي أيضاً أن المصلوب ليس ابنها؟

- ربما كانت تشك بذلك هي الأخرى. وربما نبهها المصلوب النادم إلى تلك الحقيقة كما جاء في إنجيل يوحنا (١٩: ٢٥): "وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال:(يا امرأة، هو ذا ابنك)".

- لقد قلت ذلك سابقاً، ولكن الجميع يتفق على أن المقصود بهذه العبارة هو يوحنا، وأن قصد المسيح هو أن يضمن لأمه من يعيلها من بعده!

- تأمل معي. فمن المفروض أن مريم كانت تعيش أصلاً في كنف يوسف النجار، وأبنائه ممـــن يطلق عليهم لقب "إخوة الرب"، ومن ثـــم فهي لم تكن بحاجة إلى من يرعاها كأمه. وبفرض عدم وجود يوسف النجار، فإن أياً من إخوة المسيح كان أحق من يوحنا بشرف (أو واجب إن تحرينا الدقة) رعايتها، وبالذات يعقوب أخو الرب، الذي أصبح رئيس المسيحيين بعد المســـيح، ورأس أول مجمع كنســـي. أي إن المصلوب لم يكن يقصد توكيل أحد برعاية مريم، بل يهدف إلى إرشادها أنه ليس ابنها، وأن ابنها الحقيقي هو من تبادل معه الشبه.

- هذا جائز فعلاً. ولكن لا أحد يستطيع الجزم به.

- أعرف، فنصوص الأناجيل في شأن حادثة الصلب متضاربة بشدة، بحيث يصعب الجزم بأي شيء على الإطلاق. حتى شخصية هؤلاء النسوة وعددهن وقربهن من مكان الصليب، أمر مختلف عليه في الأناجيل المعتمدة نفسها. فقد جاء في إنجيل متى بعد أن وصف محاكمة من ظن أنه المســـيح وصلبه: "وكان هناك كثير من النســـاء ينظرن عن بعد، وهن اللواتي تبعن يســـوع من الجليـــل ليخدمنه، فيهن مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب ويوســـف، وأم ابني زبدي" (٢٧: ٥٥، ٥٦)، وفي إنجيل مرقس: "وكانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد وهن كن قد تبعن يسوع من الجليل يخدمنه، وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة. اللواتي أيضاً تبعنه وخدمنه حين كان في الجليل. وأخر كثيرات اللواتي صعدن معه إلى أورشـــليم" (١٥: ٤٠ و٤١)، كما جاء في إنجيل لوقا في الموضع نفســـه: "وكان جميع معارفه ونســـاء كن قد تبعنه من الجليل واقفين من بعيد ينظرون ذلك" (٢٣: ٤٩).

- حســـناً، إذا كان المصلوب هو شخصاً غير المسيح، فكيف تفسر قيامه من القبر في اليوم الثالث؟!!!

- لـــن أحاول أن أقول جديداً، بل نقرأ ما قاله متى في إنجيله من أنه: "وفيما هما ذاهبتـــان إذا قوم من الحراس جاؤوا إلى المدينة وأخبروا رؤســـاء الكهنة بكل ما كان. فاجتمعوا مع الشـــيوخ وتشاوروا وأعطوا العسكر فضة كثيرة قائلين، قولوا أن تلاميذه أتوا ليلاً وســـرقوه ونحن نيام. وإذا ســـمع ذلك عند الوالي فنحن نستعطفه ونجعلكم مطمئنين، فأخذوا الفضة وفعلوا كما علموهم. فشاع هذا القول عند اليهود إلى اليوم" (٢٨: ١١ - ١٥). ومن هذه الآيات نعرف أنه قد أشـــيع بعد عدم العثور على جســـد المصلوب في قبره أن تلاميذه أتوا ليلاً وســـرقوه، وقد شاع هذا القول عند اليهود إلى يوم كتابة إنجيل متى. ولســـنا نعرف كيف تحقق كاتب هذا الإنجيل من أن ما أشـــاعه العسكر كان بناء على اتفاقهم على ذلك مع رؤساء الكهنة والشيوخ؟!!! لذا فليس ببعيد أن يكون هذا ما حصل فعلاً. وأن بعض الناس، أياً كان قصدهم، قد ســـرقوا الجسد بالفعل، سواء أكانوا من أتباع المسيح، وظنوا أنهم بذلك يؤدون واجباً أو ينالون بركة أو نحو ذلك، أم كانوا من أعدائه وقد أرادوا بحركة استباقية أن يتخلصوا من هذا الجسد الذي علق عليه أتباع المســـيح آمالاً كثيرة، أو يمثلوا به، خاصة أننا نجدهم يقولون في إنجيل متى لبيلاطس بعد دفن المصلوب بيوم: "يا ســـيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهـــو حي أني بعد ثلاثة أيام أقـــوم. فأمر بضبط القبر إلى اليـــوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشـــعب أنه قام من الأموات. فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى" (٢٧: ٦٣ و٦٤)، بل إننا نعرف من إنجيل يوحنا أن مريم المجدلية كان أول ما تبادر إلى ذهنها عندما لم تجد الجســـد في اليوم الثالث في القبر أن الأعداء سرقوه، حتى إنها أبلغت سمعان بطرس وتلميذاً آخر (هو الذي كان يحبه المسيح) بذلك فركضا إلى القبر، وذلك بالطبع ليعرفا إن كان الجســـد قد سرق حقاً (٢٠: ٣ - ١٠)، بل إننا نستنتج من هذا الإنجيل كذلك أنه وحتى هذه اللحظة، حسب الأناجيل المعتمدة، لم يكن تلاميذ المسيح يعرفون أنه ينبغي أن يقوم من الأموات!!!

- كيف ذلك، والمسيح نفسه قد تنبأ بهذا عندما طلب منه اليهود آية فقال: لن يعطى هذا الجيل آية إلا آية يونان[١] (متى ١٢: ٣٨-٤٠)[٢]، ويونان ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام.

- ولكن النص نفسه في مرقس (١١:٨) قال: "لن يعطى هذا الجيل آية"، دون إضافة: "إلا آية يونان"، فلماذا أغفلها لو كانت حقاً، خاصة أنها من المفترض أن تشير إلى حقيقة أساسية في الإيمان المسيحي، أعني قيامته من الموت!!! ثم إن يونان كان حياً ويصلي لله في بطن الحوت (يونان ١: ٢-٢)، أما يسوع فمات، كما يدعون، وقام من الموت! ثم ما حدث ليونان كان عقاباً على خطأ، وما حدث ليسوع، كما يقولون، هو محبة برضائه لفداء البشر! والأهم أن يونان كان في بطن الحوت ٣ أيام بلياليها، ويسوع يوماً وليلتين، فما وجه التشابه إذن[٣]؟!!!

- ومع ذلك، فقد اتفقت الأناجيل الأربعة على قيامه في اليوم الثالث.

- أنت نفسك قلت: إنه لا يمكن التوفيق بين الروايات المختلفة عن مظهر وعدد الملائكة على القبر؟! أنا لن أكرر ما تفضلت به، ولكن تأمل معي في الكلمات التي ابتدأ الملائكة بها حديثهم. ففي إنجيل متى يقول الملاك: "لا تخافا. لأني أعرف أنكما تطلبان يسوع ليس هو هاهنا" (٢٨: ٥ - ٦)، ويقول في إنجيل مرقس: "لا تندهشن.

---

(١) نبي الله يونس عليه السلام.

(٢) الغريب أن كلمة "جيل" يفهم منها أنه أراد عموم من كان في عصره، فالجيل هو الطبقة المعاصرة من الناس. لكن متى ناقض ما قد كتبه فذكر أن المسيح قام بعمل الآيات والمعجزات بعد أن صرح أن هذا الجيل لن يعطى آية! فذكر أن المسيح كثر الطعام وشفى الأبرص ومشى على البحر!!!

(٣) جاء في إنجيل متى (١٢: ٤٠): "فكما بقي يونان ثلاثة أيام بلياليها في بطن الحوت، كذلك يبقى ابن الإنسان ثلاثة أيام بلياليها في جوف الأرض"!!! والأناجيل الحالية تزعم أن المسيح قد صلب قبل غروب شمس يوم الجمعة (جمعة الآلام) من أسبوع الفصح، ومكث في القبر ليلة السبت ويوم السبت، وذهبت مريم المجدلية صباح الأحد فلم تجد أحداً، أي ليلتان ويوم واحد، لا ثلاثة أيام وثلاث ليال كما تدعي النبوءة.

أنتن تطلبن يسوع الناصري. قد قام. ليس هو هاهنا" (١٦ : ٦)، وكذلك في إنجيل لوقا ولكن بتوضيح أكبر، حيث يقول الملاكان: "لماذا تطلبن الحي بين الأموات. ليس هو هاهنا" (٢٤ : ٥ - ٦).

- تقصد أن الملائكة كانت موجودة لتنبيه التلاميذ أن الذي في القبر ليس يسوع.

- هذا هو المنطق، كما أن الروايات تتناقض أيضاً في تصرف الذين شاهدوا الحجر مدحرجاً وكلموا الملائكة. ففي حين يذكر إنجيل مرقس أن من ذهبن لم يقلن لأحد شيئاً؛ معللاً ذلك بأنهن كن خائفات، يؤكد إنجيل لوقا أنهن أخبرن الأحد عشر، بل جميع الباقين، بهذا كله. أما إنجيل يوحنا فقد بعد عن ذلك كله إذ يقول إن مريم المجدلية بمجرد أن رأت الحجر مرفوعاً عن القبر ركضت إلى بطرس وتلميذ آخر جاء معها ثانية إلى القبر، ثم وقفت خارج القبر تبكي، ولما انحنت إلى القبر رأت الملاكين، وعلى أي حال فإنه إلى هنا لم يشاهد أحد بعد أو يتحدث إلى من قيل أنه المسيح الذي قام من الأموات.

- صحيح. ولكن ماذا يمكنك أن تقول عن ظهوره لبعض الأشخاص بعد قيامته من الموت؟!!!

نهايات مختلفة لحدث واحد

نظر ليئور إلى أبراهام مبتسماً بطريقة توحي أنه قد وضع غريمه في "خانة اليَكّ". فظهور المسيح لبعض أتباعه بعد كل هذا، يدل على أنه هو من صلب ثم قام من الموت. إلا أن إستس أجابه بهدوء:

- أقـــول: "نفس الاختلاف والشـــك واتباع الظن"؛ ففي إنجيـــل متى نرى أن أول ظهور المســـيح كان لمريم المجدلية ومريم الأخرى بعـــد وصولهما إلى القبر ومقابلتهما لمـــلاك الرب بينما كانتا منطلقتين لتخبرا تلاميذ المســـيح بما رأتاه. كما أنهما عرفتاه على الفور إذ ســـجدتا له، كما أنه لم يكن بحاجة ليعرفّهما من هو (٢٨: ٩ و١٠)، أما إنجيل مرقـــس فيرى أن أول ظهوره كان لمريم المجدليـــة وحدها (١٦: ٩)، أما إنجيل لوقا فأمسك عن الإشارة إلى ظهور المسيح لأي من السيدات، في حين يستطرد إنجيل يوحنا فيقول: "ولما قالت هذا التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً ولم تعلم أنه يسوع. قال لها يســـوع: يا امرأة لماذا تبكين؟ من تطلبين؟ فظنت تلك أنه البستاني فقالت له: يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته وأنا آخذه، قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك وقالت له بالعبرية: ربوني (الذي تفســـيره يا معلم) فقال لها يســـوع: لا تلمســـيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبـــي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (٢٠: ١٤ - ١٨)، وللمـــرء أن يعجب إذ يقرأ أن مريم المجدلية وهي من أعرف العارفين بالمسيح، تلقاه، وقد علمت بعدم وجوده في القبر، ثم لا تعرفه!!! أفيكون هذا هو المسيح حقاً؟! ثم أصحيح أن هذا كان لقاءها به عند القبر، وقد حســـبته أنه البســـتاني وكانت بمفردها، أم الصحيح ذلك الذي ذكره عنها إنجيل متـــى من أنها لقيته وكانت معها مريم الأخرى في أثناء انطلاقهما لتخبرا تلاميذه بما

قاله لهما الملاك؟!!! أوَصحيح أنها لم تلمسه لأنه لم يصعد بعد إلى أبيه كما طلب منها، أم الصحيح أنها ومريم الأخرى قد أمسكتا بقدميه؟!!! إن المستحيل أن يكون كل من هذا وذاك صحيحاً، وليس ببعيد عن التصديق إزاء كل هذه التناقضات، أن يكون كل ذلك شائعات انطلقت من البلبلة التي نتجت عن صلب من ظنوا أنه المسيح، وعن سرقة جسد المصلوب، فانطلق كل بتفسير للأمر، وأخذ كل واحد يؤلف في الأمر رواية تتفق مع التفسير الذي يراه. ولاحقاً أصبح القول بقيام المسيح من بين الأموات وظهوره للبعض من أكثر الروايات التي لاقت قبولاً وترحيباً لدى الكثيرين، خاصة عند الأمم أو الوثنيين.

- لماذا عندهم بالذات؟

- حسب علماء اللاهوت، كان المسيحيون من بني إسرائيل: "يظنون أن المسيح هو لهم فقط، ولم يرسل إلا لليهود، وليس لأحد من غير بني إسرائيل نصيب في المسيح. حتى إن رسله الذين عاش معهم المسيح أكثر من ثلاث سنوات، وسمعوا كل تعاليمه وإرشاداته ليلاً ونهاراً، لم يفهموا إلى ما بعد صعوده، بل إلى ما بعد حلول الروح القدس بسنين، لم يفهم الرسل أن المسيح كان لكل العالم على السواء"[1]! ومن ثم أدخلهم التفسير الجديد ضمن الأمم التي يشملها الخلاص. كما أن قبول الأمم بعقائد التأليه والتثليث والصلب والفداء لكل البشر أسباب كثيرة أخرى تناولتموها بالبحث سابقاً ولا أرى داعياً لتكرارها الآن.

- أجل، أجل.

- وإذ يسكت إنجيل متى عن أي ظهور للمسيح بعد ذلك، عدا القول بظهوره أخيراً للأحد عشر تلميذاً (٢٨: ١٦ - ٢٠) نجد إنجيل مرقس يشير إلى ظهور آخر سبق ذلك

---

(١) هكذا جاء في كتاب "رب المجد"، وهو لجماعة من اللاهوتيين المسيحيين برئاسة عبد الفادي القاهراني ونشره مركز المطبوعات المسيحية ببيروت.

لاثنين منهم وهما يمشـــيان منطلقين إلى البرية ولم يعرفاه إلا لاحقاً! (١٦: ١٢ و١٣). أما إنجيل لوقا فقد فصل ما قيل عن مقابلته للاثنين اللذين أشار إليهما إنجيل مرقس بإســـهاب ويظهر كيف عرفاه فقط عندما كسر الخبز!!! (٢٤: ١٣ – ٣٥). ما معنى ما ذكره هذا الإنجيل عمن قال إنه قابل هذين المنطلقين باعتباره المسيح، ولكنه ظهر لهما بهيئة أخرى؟ فأي هيئة أخرى هذه التي قصدها، إلا أن يكون بشكل رجل آخر ليس له شكل المسيح. ولمجرد أنه أخذ منهما خبزاً وكسره وناولهما، ظناً أنه المسيح!!! ثم يختفي الرجل ويقولون بعد هذا أنه المســـيح! فأي عقل يصدق هذا؟ ألا ينبئ كل ذلك بالخلط في شـــخصية المسيح وشبهه؟!! ثم لِمَ يستبعد البشيران متى ويوحنا هذه الرواية؟ ألا يوحي ذلك بأنهما أيضاً لم يطمئنا إليها؟!!! ويســـتطرد إنجيل لوقا مشيراً إلى ما قيل عن الظهور الأخير للمســـيح (٢٤: ٣٦ – ٥٣). وأما إنجيل يوحنا فقد أشار إلى ظهور آخر للمسيح على بحر طبرية حيث وقف المسيح على الشاطئ، والغريب أن كل التلاميذ لم يعرفوا أنه المسيح أيضاً!!! (٢١: ٢٥). إذن نجد أن أول إنجيل كتب بعد المسيح عليه السلام؛ وهو إنجيل متى، يذكر أن المسيح ظهر لتلاميذه مرة واحدة ولم يقل غير أربع جمل، ولم يذكر لنا أين ذهب بعد ذلك، ولم يشر إلى أي مقابلات أخرى له مع تلاميذه أو أي أقوال أخـــرى قالها لهم غير هذه. أما الإنجيل الذي كتب بعد إنجيل متى؛ وهو إنجيل مرقس حســـب إجماع علماء اللاهوت والمؤرخين، فيشير إلى ظهور المسيح مرة واحـــدة أيضاً لتلاميذه، ولكنه يقول كلاماً غير هذا الذي ورد على لســـانه في إنجيل متى، ويشير إلى أن المسيح ارتفع إلى السماء بعد ذلك. ثم يأتي إنجيل لوقا الذي كتب بعد الإنجيلين السابقين، فيزيد في رواية اللقاء الأخير الذي ظهر فيه المسيح لتلاميذه، ونـــراه يقول فيه كلاماً غيـــر الذي ورد في الإنجيلين الســـابقين، ويتحدث عن وقائع جديدة، فيقول إن التلاميذ ظنوه روحاً فيطلب منهم أن يجســـوه وأراهم يديه ورجليه، ويشير إلى أنه بعد ذلك انفرد عنهم إلى السماء. أما إنجيل يوحنا، الذي كتب بعد هذه

الأناجيل الثلاثة بسنين عديدة، فيذكر لنا أن المسيح ظهر لتلاميذه ثلاث مرات وليس مرة واحدة، ويزيد في تفصيلات هذه اللقاءات عما ورد عن لقاء المسيح مع تلاميذه في الأناجيل الأخرى، بل إنه يورد على لسان المسيح ما يفيد أنه هو الذي صلب، ويزيد على رواية لوقا أنه لم يرهما يديه ورجليه كي يعلموا أنه ليس روحاً، بل ويريهم أثر الصلب والطعن، ويقول بعد ذلك أنه طوبى للذين آمنوا ولم يروا، ولا نعرف أين ذهب المسيح في المرة الأخيرة. ولعلك لاحظت أنه كلما مر الزمن، برزت وقائع جديدة لم يشر إليها من قبل، ولعلنا لا نجد تعليلاً مقبولاً لذلك سوى أن الشائعات لا يمكن إلا أن تكون كذلك، فالشائعات تبدأ صغيرة ثم تمضي تكبر فتكبر، يضيف إليها هذا ويزيد عليها ذاك، وذلك على عكس الحقائق، فالحقيقة إذا عرفت فور وقوعها، فإن تفاصيلها تعرف فوراً، ثم تغيب عن الذهن شيئاً فشيئاً. وعلى هذا، فما ذلك التناقض في الأناجيل، وذلك التوسع في الإشارة إلى ظهور المسيح بعد ما قيل عن صلبه كلما مر زمن، إلا دليل على أن شيئاً من ذلك لم يكن في أصله صحيحاً! لأنه لو كان كذلك، للزم أن يضيق بتباعد الزمن لا أن يتسع.

- ربما كنت محقاً في استحالة التوفيق بين كل تلك التناقضات[1]، وأن أصل كثير منها هو مجرد شائعات سرت في تلك الأزمان، ولكن مع كل هذا فإن كتب العهد الجديد اتفقت في الخطوط العريضة؛ وهي صلب المسيح شخصياً، وتسليم يهودا له مقابل ثلاثين قطعة فضية.

- يبدو أن الجميع لا يخضعون للمنطق وللبحث العلمي، بقدر ما يخضعون للتقاليد والأفكار التي نشؤوا عليها. فكاتب إنجيل متى يقول: "حينئذ تم ما قيل بأرميا النبي وأخذوا ٣٠ من الفضة ثمن المثمن الذي ثمنوه من بني إسرائيل" ٢٧ :٩. ولكن يبدو أن

---

(١) ذكر متى أن الصعود كان من جبل الجليل، ولوقا أنه من بيت عنيا، ومرقس أورشليم، ويذكر يوحنا شاطئ البحر في طبرية.

الذاكرة قد خانت كاتب إنجيل متى (أو من أضاف عليه)؛ لأن تلك الآية تقع في زكريا (١١: ١٢) وليست أرميا، وهي ليست كما فهمها.

- ربما يتعلق الموضوع باختلاف تقسيم الكتاب المقدس بين اليهود والمسيحيين، أو تشابه الأسماء بلفظها اللاتيني أو خطأ من النساخ.

- لقد سمعت هذه التبريرات البهلوانية مراراً، لكنّ هذان السفران منفصلان أصلاً عند كلا الفريقين، كما أنه ليس من المعقول أن يتشابه الاسمان عند كل النساخ[1]؟ وأنا لن أعيد ما قلته بشأن تناقض روايات الصلب التي ينفي بعضها بعضاً، وسأتحدث فقط عن اختلاف روايات الكتاب المقدس في قصة تصرف يهودا بثمن الخيانة المفترضة، وقصة موته. فمنها ما قال إنه اشترى بذلك الثمن أرضاً ومات بحادثة فيها فشق بطنه (حسب أعمال الرسل ١: ١٨-١٩)! ومنها ما قال إنه ندم فأعاد الثمن وشنق نفسه (حسب إنجيل متى٢٧: ٣-٤)، ومنها ما سكت عن ذلك تماماً (بقية الأناجيل) وهذا يشكك في الرواية أصلاً، إذ إن عقاب "خيانة الرب" هذا ليس أمراً يسكت عنه!

- ولكن إذا كان كل ما خرجت به صحيحاً، فما ذنب الناس الذين ظلوا يعتقدون أن المسيح مات حتى جاء محمد بعد ستة قرون ليقول: "وما قتلوه يقيناً"؟!!! وأين كان الله طوال هذه السنين حتى انتظر ٦٠٠ سنة لينبه المسيحيين إلى خطأ الاعتقاد بموت المسيح، ويكفرهم بذلك؟

- وهل انتظر الله آلاف السنين لينبه المؤمنين من بني إسرائيل وأتباع كل الأنبياء من قبلهم أن الله مكون من ثلاثة أقانيم، وأن الروح القدس هو أحد تلك الأقانيم؟! وما ذنب الأنبياء والمؤمنين كل هذه الآلاف بل كل هذه العشرات من ألوف السنين الذين لم يعرفوا أن الروح القدس هو الله؟!!!

---

(١) لقد فند د. بهاء النحال ذلك، وأورد حججاً كثيرة في فساد ذلك الاستشهاد وغيره في كتابه: "تأملات في الأناجيل والعقيدة"، ويستطيع أن يرجع إليه كل من يرغب بمعرفة التفاصيل.

ظهر الإحراج على وجه ليئور، ولم ينبس ببنت شفة. فتابع إستس قائلاً:

- إن فـــي كلامك العديد من المغالطات يا صديقي؛ فـــأولاً: لم تكن هذه الحقيقة خافية على المسيحيين قبل بعثة محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولكنهم كانوا في شك منها مريب؛ بعضهم ينفيها وبعضهم يؤكدها. ففي كتابه "الهرطقات مع دحضها"، ذكر القديس "ألفونســـو ماريا دي ليكوري" أن من بـــدع القرن الأول قول "فلوري": إن المســـيح قوة غير هيولية، وكان يتشح ما شـــاء من الهيئات، ولذا لما أراد اليهود صلبه؛ أخذ صورة "ســـمعان القروي"، وأعطاه صورته، فصلب سمعان، بينما كان يسوع يسخر باليهود، ثم عاد غير منظور، وصعد إلى الســـماء. وبالنســـبة إلى القرن الثاني يقول المفسر "جون فنتون" شارح إنجيل متى: " إن إحدى الطوائف الغنوصية التي عاشت في القرن الثاني قالت بأن سمعان القيرواني قد صلب بدلاً من يسوع". وثمة فرق مسيحية قالت بأن المســـيح نجا من الصلب، ورفع إلى الســـماء منهم الروســـيتية والمارسيونية والفلنطنيائية وهذه الفرق الثلاث تعتقد بألوهية المســـيح، ويرون القول بصلب المسيح وإهانته لا يلائم البنوة والألوهية. حتى المؤله "باســـيليوس الباسليدي" يقول: "إن نفس حادثة القيامة المدعى بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المســـيح". كما يقول المفســـر "جورج سايل": "إن السيرنثيين والكربوكراتيين، وهما من أقدم فرق المســـيحيين، قالوا: إن المسيح نفسه لم يصلب ولم يقتل، وإنما صلب واحد من تلاميذه يشبهه شبهاً تاماً. ونقل أقوالهم بنجاة المسيح، وأن المصلوب هو سمعان القيرواني وســـماه بعضهم: "سيمون أو شمعون السيرناي"، ولعل كل هذه الأســـماء لواحد. كما أن كثيراً من الأسفار المستبعدة التي كتبت قبل الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وقبل القرآن بمدة طويلة قد نصت على ذلك أيضاً. ومن ثم فإن القول بصلب المسيح وموته وقيامته وفدائه هو الذي لم يكن شائعاً بين مسيحيي القرون الأولى وليس العكس. وكما قال الكاتب الألماني "أرنســـت دي بوش" في كتابه "

الإســـلام: أي النصرانية الحقة ": فإن "جميع ما يختص بمســـائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شـــابهه من الذين لم يروا المســـيح، لا في أصول النصرانية الأصلية"، وهناك من قال إن المصلوب هو الذي كان يحبه المسيح، وأنه فدى معلمه طائعاً، واختلقت الروايات حـــول هويته، أكان يوحنا أو إليعازر أو يهوذا. ومنهم من أصر أنه يهوذا بالذات، ولكنه لم يكن متطوعاً بل معاقباً على خيانته.

- كل هذا كان "أولاً"؟!!!

قال ليئور متهكماً، فأجاب إستس:

- أنا آســـف على الإطالة ولكن ســـؤالك كان هاماً، وإجابته لا يمكن أن تكون أكثر اختصاراً.

- لا عليك كنت أمزح فقط. تابع من فضلك؟

- شـــكراً. ثانياً: إن الإسلام لم يعب على تلك الطائفة من المسيحيين أنهم اعتقدوا بأن الذي صلب هو المســـيح، بل إن في القرآن نفسه ما يبرر اعتقادهم بذلك. فالقول ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُ ﴾، معناه أن الذي صلب إنما صلب أصلاً على أنه المسيح عليه السلام، ومن ثم فلا ذنب على من اعتقد أن المســـيح عليه الســـلام هو الذي صلب، ولا يمكن أن يعـــد هذا الاعتقاد كفراً، والقول بأن الإســـلام يجعل من الاعتقاد بصلب المســـيح كفراً، هو قول مدســـوس على الإسلام، وليس من الإسلام في شيء. بل إن عدم صلب المسيح ليس من قبيل العقيدة التي يؤمن بها المسلم، وإنما هو فقط من مضمون إيمانه بالقرآن ككلام الله الموحى به إلى محمد عليه السلام. ولو سئل أي مسلم عما يؤمن به لما خرجت إجابته عن أنه يؤمن بالله الذي لا إله إلا هو، وبأن محمداً عبده ورســـوله، وبالقرآن كتاباً منزلاً من الله، وبملائكته وكتبه ورسله أجمعين، ومن أهمهم المسيح عليه الســـلام. ولا يخطر ببال مسلم عندئذ أن يقول بأنه يؤمن بأن المسيح لم يصلب، وإنما

رفعه إليه مخلصاً إياه من الصلب. صحيح أن المسلم يؤمن بأن هذه هي الحقيقة، ولكن هذه الحقيقة ليست أساس الإيمان عنده، بل الواقع أن المسلمين لا يكادون يعيرون هذه المسألة أدنى اهتمام، اكتفاء منهم بالتسليم بما جاء في القرآن عن تخليص الله للمسيح ورَفْعِه إليه. إذن فالاعتقاد بصلب المسيح عند المسيحيين لا يعد في نظر الإسلام كفراً، فإن الكفر في حكم الإسلام هو ما رتبه المسيحيون واستخلصوه من الاعتقاد بصلب المسيح وقيامته، ألا وهو تأليهه؛ ذلك أنه حتى إن كان قد صلب فعلاً وفقاً لهذا الاعتقاد، فإن ذلك ما كان ليجيز لأحد أن يعتبره إلهاً، وقد أراد الله أن يتم دينه، فبعث بمحمد وأوحى إليه القرآن، وحسم كثيراً من الأمور التي اختلف فيها أهل الكتاب، ومن ضمنها هذا الموضوع. ولم يكن في ذلك ما يهدم كل قيمة أسفار الكتاب، وإنما كان ذلك فحسب: تنقيتها من تدخل العنصر البشري في صياغتها بالشكل الذي وصلتنا عليه. وقد رأيت أن الحقيقة التي أوردها القرآن لها ما يدلل عليها في الكتاب المقدس نفسه عند تحليله وتفنيده، وهذا وحده كاف عندي لأؤمن بأن القرآن هو وحي الله وكلامه نزله على رسوله الأمين.

- هذا رأيك أنت، ولا تستطيع إلزامي به.

- أنا لم أتصورني يوماً أُملي رأيي أو أفرضه على غيري، وإنما أسأل من ينكرون أن القرآن كتاب الله، أن يتأملوا بأنفسهم في كل ما سبق، ثم ليحكموا بأنفسهم وفق ما يمليه عليهم ضميرهم وإيمانهم فحسب.

- هذا على أساس أن القرآن من عند الله، ولكنني لا أؤمن بذلك، بل متأكد أن محمداً هو مؤلفه دون أي نوع من الوحي.

- إذا كان مؤلفه هو محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الأمر ليكون حينئذ حقيقاً بكثير من التأمل. فما الذي كان سيفعله حيال ما يعتقده المسيحيون؟ إنه يحتم الإيمان بالمسيح وبرسالته، ولكنه يأتي بالنسبة إلى الواقعة التي هي جوهر دين أغلبية

المســـيحيين في عصره والعصور اللاحقة، والتي يؤيدهم فيها التاريخ نفسه آنذاك، ألا وهي الاعتقاد بصلب المسيح، فينفيها نفياً قاطعاً وصريحاً. وفي مقابل ذلك نجده يؤيد أكثر الأمور خفاء والتباســاً وسراً، والتي يســتحيل على المسيحيين إقامة دليل مقبول عليها، ألا وهي الاعتقاد بميلاد المســيح من عذراء. فأناجيل مرقس ويوحنا ورسالات بولس خلت تماماً من أي ذكر لميلاد المسيح العذراوي، والغريب أن يوحنا الذي يقولون إنه كاتب الإنجيل الرابع، وأنه قد استضاف أم المسيح بعد موته، كما جاء في الإنجيل، لــم يذكر ذلك أيضاً. فكيف لم تخبره بذلك طــوال إقامتها عنده التي تجاوزت أربعة عشــر عاماً وفق حساب اللاهوتيين[1]؟!! ولا يؤيدها فحسب، بل يضع تكذيبها والكفر فــي مرتبة واحدة!!! فإذا كان محمد عليه الصلاة والســلام هو مؤلف القرآن، أفكان يفعل ذلك حقاً.

- ولم لا، فقد كان محمد مغرضاً في تعرضه للمســيحية؟ ثم إنه أورد في القرآن خبراً لا يصدقه أي عاقل وهو كلام يسوع في المهد مبرئاً أمه.

كز إستس على أسنانه مانعاً نفسه من الإنجرار إلى مهاترات جانبية، وفضل الدفاع عن نبيه بالمنطق والكلمة الحسنة، وقال موضحاً:

- جاء في التوراة: "وَإِذَا تَدَنَّسَتِ ابْنَةُ كَاهِنٍ بِالزِّنَى فَقَدْ دَنَّسَتْ أَبَاهَا. بِالنَّارِ تُحْرَقُ" (لاويين ٢١ : ٩)، فلو لم يتكلم عيســى عليه السلام في المهد ويُبرِّئ أمه، لحكم اليهود على أمه بالحرق تبعاً لشريعتهم. وإذ إن اليهود لم يحرقوها ولم يمسوها بأذى، فلابد أن تكون قد أتت بالدليل.

أطرق ليئور مفكراً، ثم قال بتسليم:

- هذا منطقي فعلاً.

---

(١) تؤمن الكنيسة أن سنين حياتها على الأرض كانت ستين سنة. جازت منها اثنتي عشرة سنة في الهيكل وثلاثين سنة في بيت القديس يوسف البار!!! وأربع عشرة سنة عند القديس يوحنا الإنجيلي.

- وقد احتج عيسى عليه السلام بذلك كما نفهم من الأناجيل المعتمدة مثل: "فنادى يسوع وهو يعلّم في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ومن نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق، الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني... فآمن به كثيرون" (يوحنا ٧: ٢٥-٣٠).

- ولكن لماذا لم تذكر قصة ولادته الإعجازية وكلامه في المهد صراحة في الكتاب المقدس؟!!!

- لأن أسفار الكتاب المقدس المعتمدة لم تأتِ بكل مراحل تكوين المسيح، ولا تنسَ أنه قد جاء في إنجيل يوحنا (الإصحاح ٢٠ العدد ٣٠) ما نصه: "وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب". فتلك الأسفار لم تتكلم على طفولته مثلاً، في حين جاء في إنجيل الطفولة وغيره من الأسفار التي استبعدتها الكنيسة ذكر كلام المسيح في المهد بوضوح تام.

- إن صح ذلك فهو يفسر أشياء كثيرة فعلاً.

- وهذا الأمر الذي يضع القرآن إنكاره في مرتبة واحدة إلى جوار الكفر، هناك من المسيحيين أنفسهم من يحاول أن ينفيه تماماً، كما ورد مثلاً في كتاب "حياة يسوع"[1]، فما مصلحة محمد عليه الصلاة والسلام في أن يؤكد الميلاد العذراوي الإعجازي للمسيح حتى لَيَضَعُ في مرتبة واحدة عدم الإيمان به مع الكفر، وهو لو نفاه لوجد من المسيحيين من يؤيده ويسانده؟ في حين ينفي صلب المسيح، وهو عالِمٌ أن هذا وحده كاف لأن يشكك أغلب المسيحيين في دعوته، وخاصة إذا علمنا أن مسألة عدم صلب المسيح هذه هي مسألة ثانوية عند المسلمين، ولا تثير في أذهانهم أي شيء بصدد إيمانهم بمحمد ورسالته، وأنهم يؤمنون أن كثيراً من الرسل قد قتلوا وعذبوا قبل

(١) تأليف الدكتور " بترسن سميث " ، ونقله إلى العربية حبيب سعيد، الطبعة الثانية، وهي صادرة عن دار الشرق والغرب.

القتل، دون أن يجرح ذلك في نبوتهم. أفليس الصحيح أنه لو كان محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن وكان مغرضاً في تعرضه للمسيحية كما تعتقد، لَكان الأولى به أن يؤيد صلب المسيح وينفي الميلاد العذراوي له، وليس العكس؟ ولكن القرآن ارتاد الصعب وتجنب السهل، وما كان هذا منه إلا مجرد تقرير للحقيقة وحدها ممن يعلمها وحده، وهو الله، والذي شاء سبحانه وتعالى أن يعلنها للناس كافة حاسماً الخلاف فيها؛ إذ مهما بدا فيها من عدم توافقها ومصلحة الرسالة، فإن الحقيقة وحدها هي التي يجب أن تعلن، يقيناً بأنها هي بالذات ما لابد أن ينتهي إليها كل مستهدف لها، وهذا ما يحصل فعلاً مع ظهور الاكتشافات المتعددة حالياً.

- إذا كانت هذه هي الحقيقة التي يجب أن ينتهي إليها كل مستهدف لها كما تزعم، فكيف تمكنت عقيدة صلب المسيح من أغلبية المسيحيين إذن؟

- بعد حادثة الصلب أصبح الجميع في حيرة من حقيقة الأمر، فالناس يقولون إنه صلب وقد رأوا ذلك رأي العين، والحواريون يذكّرونهم بما قاله المسيح عندما كان بينهم حتى لا يفتنوا بحادثة الصلب المزعوم، إذ إن من صلب وأهين هو الشبيه وليس الرسول، والرسول لا ريب سيعود لاستكمال مهمته. وهذه الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح وصدقت برفعه تعرضت للاضطهاد من قبل الطائفة التي كفرت، ومن قبل اليهود من بقية بني إسرائيل الذين تفاخروا بأنهم قتلوا رسولهم وصلبوه بكل ما تحمله كلمة صلب من معنى مهين في اليهودية، إلى أن أيد الله النصارى على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، ولم يعد ممكناً استئصال شأفتهم. لكن السنين كانت تمر والمسيح لم يعد بعد، مع أن الأناجيل الأولى، ومن بينها أول ثلاثة أناجيل في العهد الجديد، نقلت عن مصادر كانت تتوقع عودته بتاريخ غير معلوم ولكنه مبكر، حتى إن بعض تلاميذ المسيح وأتباعه لم يروا حاجة إلى تدوين تعاليمه وتوثيقها ما داموا متأكدين من أنهم في نهاية الزمان، وأن المسيح سيعود خلال سنوات قليلة ليبدأ العالم بالانتهاء.

- هذا كلام غير دقيق.

- بل دقيق جداً؛ فقد قارب مجموع النصوص التي تحدثت عن قرب عودة المسيح والقيامة إلى عشرة النصوص في الأسفار المعتمدة حالياً؛ أهمها: "فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله، الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته" (متى ١٦: ٢٧ - ٢٨)، "الحق أقول لكم لن تنهوا عملكم في مدن إسرائيل كلها حتى يجيء ابن الإنسان" (متى ١٠: ٢٣)، وهي عملية لا تستغرق أكثر من عدة أشهر، أو بضع سنين على أكثر تقدير. ولذلك فهم البعض أنه عندما طلب إلى تلاميذه -حسب العهد الجديد- ألا يذهبوا إلى الدعوة في مدن السامريين، فذلك لأن عودته -ومن ثم يوم القيامة- دون ذلك. واقرأ: "الحق أقول لكم هنا من لا يذوقون الموت حتى يشاهدوا مجيء ابن الإنسان بملكوته" (لوقا ٢١: ٣١)، "إننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب، لا نسبق الراقدين، لأن الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء، والأموات في المسيح سيقومون أولاً، ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء، وهكذا نكون كل حين مع الرب" (١تسالونيكي ٤: ١٥-١٧)[١]، "ونقول ما قاله الرب، وهو أننا نحن الأحياء الباقون إلى مجيء الرب" (رسالة يوحنا الأولى ٢: ١٨)، "سمعتم أن مسيحاً دجالاً سيجيء. وهنا الآن كثير من المسحاء الدجالين، ومن هذا نعرف أن الساعة الأخيرة قد جاءت"، وفي سفر الرؤيا يقول: "ها أنا آتي سريعاً" (الرؤيا ٣: ١١)، ويقول يعقوب: "أيها الإخوة.. فتأنوا أنتم، وثبتوا قلوبكم، لأن مجيء الرب قد اقترب" (يعقوب ٥: ٨)، ويقول بطرس: "وإنما نهاية كل شيء قد اقتربت " (١بطرس ٤: ٧).

---

(١) يقول معجم اللاهوت الكتابي: "يبدو أن المؤمنين، في فجر الكنيسة، وقد لبسوا نور الفصح والعنصرة، قد ظنوا أن المسيح سيأتي من فوره.. لا يقول بولس أبدا بأن المجيء الثاني المجيد سيأتي بعد حقبة طويلة من الزمن، بل بالعكس يداعبه الأمل بأن يكون إذ ذاك حيا يرزق".

- لو سلمنا بهذا جدلاً، فما الذي يترتب عليه؟

- أن الحيرة قد تملكت بعضهم بمرور الزمن، وبالذات ممن دخل الدين بعد رفع المسيح، فعادوا إلى التفكير في قصة الصلب والقيامة من الموت، وما يتناقله الآخرون عنها، ولم يجدوا تفسيراً لذلك التناقض بين أقوال اليهود والرومان وبعض المسيحيين مثل رهط بولس من جهة، وبين قول إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان. وكان بولس قد حمل الدعوة إلى الوثنيين وتبنى التفسير الأقرب إلى مزاجهم جاعلاً من المسيح إلهاً صلب ليفدي البشر، ثم قام من الموت. ولم يكن لرهطه من أثر كبير حتى دعمته السياسة بعد ثلاثة قرون لتُفرِّق بين المسيحيين الذين أثاروا القلاقل بالإمبراطورية. وبعد هذه الأجيال ورحيل صحابة يسوع والتابعين الأولين، وظهور تفسيرات وروايات مربكة في تعددها، أحدثُها لكاتب إنجيل يوحنا الذي عاد لتفحص كلمات المسيح مرة ثانية محاولاً أن يعطيها تفسيراً خاصاً من عنده، وقد اتضح له بأن الفترة التي سوف تمر حتى النهاية هي فترة طويلة، وأطول بكثير مما ظنه التلاميذ الأوائل، وأن المسيح حاضر مع أتباعه بحسب وعده لهم. وهذا الحضور حقيقي بالروح القدس الذي ينتهي بإعلان مجيئه النهائي بالمحبة والدينونة. وكان في نظر كاتب إنجيل يوحنا أن آلام المسيح هي ساعة مجده، وأن موته هو سفرته إلى أبيه السماوي وقيامته بعد فترة وجيزة هي عودته (يوحنا ١٦: ١٦)، وقد سلم الكثير من المسيحيين بهذا التفسير الجديد لدينهم بلغتهم العصرية (اليونانية) بعد أن طال عليهم الأمد، خاصة بعد تبني الإمبراطورية الرومانية لمثل هذه الأفكار الموافقة لتعاليم بولس الذي اعتبر رسولاً شخصياً للمسيح، ونسب إليه قول: "إن يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء" (١تس ٥: ٢). وهكذا فالتفسير الجديد ينجيهم من الاضطهاد الروماني الذي عانوا منه طويلاً، ويوضح لهم محبة المسيح وعدم تركه لهم، حتى إن تأخرت عودته. والأهم من

ذلك كله أنه يمنحهم أملاً جديداً في الخلاص الشخصي. فإيمانهم بخلاص مسيحهم وفـــداء الله لأنـــه آمن به وصدقه، تحول تدريجياً إلى الإيمان بخلاصهم أنفســـهم إن آمنوا بأن المســـيح هو الله، وصدقوا أنه فداهم بصلبه، وتخلصوا من الكثير من قيود العهد القديم (الناموس) التي كانوا يظنون أنها مفروضة عليهم. وقد اســـتمر البعض على وحدانيتهم، وانتشروا بشكل كبير خارج الإمبراطورية الرومانية، بل سيطروا على الإمبراطورية نفسها في بعض الأحيان. ثم جاء الإسلام فدخل فيه طائفة منهم احتكت بالإسلام فوجدته مصدقاً لما بين أيديهم، ووجدوا أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذي جاء المسيح ليبشر به. أما الباقي فقد تمت تصفيتهم تدريجياً حتى لم يبق منهم حالياً إلا شراذم قليلة لم يبق لهم من التوحيد إلا الاسم.

- هناك سؤال يحيرني.

- ما هو؟

- إذا كنت أنت تعتبر المســـيح مجرد رسول، فكيف تســـتنكر أن يتركه الله ليقتل، وتبـــذل كل هذا الوقت والجهد لنفي ذلك، مع أنك تؤمن بالوقت نفســـه أن كثيراً من الأنبياء قد قتلوا أيضاً كما قلت قبل قليل. فما الذي يميز المسيح الإنسان، برأيك، عن باقي الرسل الذين قتلوا حتى تستبعد موته وصلبه؟!!!

- أولاً: لأن استشهاد الرسل السابقين كان مدعاة للفخر، ولم يكن مهيناً كما كان هو للمصلوب الذي لطم على وجهه وبصق عليه وضرب من الخلف، وسئل باستهزاء وتندر عن كونه يعرف من ضربه. ثانياً وهو الأهم: لأن الله يحفظ رســـله لينفذوا المهمة التي أوكلها إليهم، ثم إليه مرجعهم؛ ســـواء بالموت العادي أم بالشهادة، ومهمة المسيح عليه الســـلام على الأرض لم تنته بعد، والمسيحيون يعترفون بذلك أيضاً، وينتظرون عودته كما ننتظرها نحن. بالمناسبة أنا بدوري يحيرني سؤال أيضاً.

- لي أنا؟

- بل لكل من ينكر تخليص الله للمسيح عليه السلام من الصلب والقبض على الشرير ومحاكمته وصلبه بدلاً منه.

- ما هو؟

- كيف تقرؤون، بل تترنمون وتنشدون وأنتم تنظرون إلى الصليب أمامكم وعليه تمثال للمصلوب وتقولون: "الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه"، و"مجمع القبائل يحيط بك فعد فوقها إلى العُلا"، و"أرسل من العلا فأخذني"، و"لم تحبسني في يد العدو بل أقمت في الرحب رجلي"، و"يرسل من السماء ويخلصني"، و"يسقط عن جانبك ألف وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب"...إلخ !!!! وتؤمنون في الوقت نفسه وبمنتهى البساطة أنه ضرب وبصق عليه وأهين، ومات على الصليب بين لصين؟ ثم تقولون بعد ذلك كله أنه هو الله؟!!!!!! وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾ [النساء : ١٧١].

بين الإبادة والتحريف

سادت فترة من الصمت، أعقبتها محاولة فاشلة من قبل ليئور للتهرب من الإجابة، بل من النقاش برمته، ما لبثت أن انتهت بمغادرته متذرعاً بتأخر الوقت، فتابع أبراهام الحوار مع إستس قائلاً:

- تبدو واثقاً من أن الكتاب المقدس قد حرف فعلاً[1].

- لأن العلم قد أثبت ذلك من الأوجه كافة. وكما يؤكد الباحث "توني باشبي" في كتابه "تحريف الكتاب المقدس" فإنه: "لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقة ما كانت عليه نصوص ذلك الكتاب الأصلية لكثرة ما ألمّ بها من تغيير وتحريف".

- على ماذا اعتمد في ذلك؟

- على معطيات كثيرة؛ فدراسته لنسخة الكتاب المقدس المعروفة باسم "كودكس سيناي" التي هي أقدم نسخة معروفة للكتاب المقدس، أثبتت له أن هناك ١٤٨٠٠ اختلاف بينها وبين النسخة الحالية للكتاب المقدس.

- أي نسخة يعني؟

- نسخة الملك جيمس أشهر ترجمة للكتاب المقدس باللغة الإنجليزية. وهو يقول إن العديد من الناس يتصورون أن النص الذي استخدم في تلك الترجمة الإنجليزية هو النص الأصلي للكتاب المقدس، ولكن الحقيقة أنه ليس أكثر من نسخ يونانية منقولة

---

(١) بقية الفصل (الموقف) مبنية على الاقتباس بتصرف من أربع مقالات للأستاذة الدكتورة "زينب عبد العزيز"، حفظها الله، أستاذة الحضارة الفرنسية. وعناوينها كالتالي: "اعترافات القديس جيروم؛ أخطر وثيقة في تاريخ المسيحية"، "إبادة النصوص وبدعة تأليه يسوع"، "إبادة المخطوطات والنصوص"، و"هستيريا تنصير العالم! خطاب مفتوح إلى البابا بندكت السادس عشر".

ومنقحة عن نسخ متراكمة سابقة مكتوبة بالعبرية والآرامية، وقد تم حرق كل هذه النسخ. فالنسخة الحالية للملك جيمس منقولة عن نُسخ من خمس نُسخ لغوية عن النص "الأصلي" الذي لا نعرف عنه أي شيء!! ويضيف قائلاً: إنه وفقاً للقس "ألبيوس تيودوريه"، عام ٢٢٥م تقريباً، كانت هناك أكثر من مئتي نسخة مختلفة من الأناجيل تستخدم في نفس الوقت بين تلك الفرق. وفي بداية القرن الثالث تدخلت السياسة بصورة ملحوظة في مسار المسيحية التي كانت تشق طريقها بين فِرقها المتناحرة.

- أعرف هذا. وأعرف أيضاً أن أحد الأباطرة قد تدخل شخصياً بعقد المجمع المسكوني الأول، طالباً من الأساقفة أن يُحضروا معهم نسخهم من الأناجيل التي يتعاملون بها، لحسم الخلافات السائدة حول تأليه يسوع أو عدم تأليهه!

- هذا صحيح؛ فقد كانت هذه هي المحاولة الرسمية الأولى لاعتماد نسخ معتمدة للأناجيل، ومع أن تلك المحاولة فشلت، وألغيت من قبل قسطنطين نفسه، إلا أنها بعثت ثانية فيما يسمى بالمجمع المسكوني الثاني في أواخر القرن الرابع.

- أعرف هذا أيضاً.

- وهل تعرف أن التحريف والإبادة للأسفار المقدسة استمرت حتى بعد ذلك المجمع، بهدف فرض ما نسجته الكنيسة الرومانية على مر العصور؟

- تعني الأسفار الحائرة التي أضيفت وحذفت مراراً؟

- ليس هذا فحسب، بل أعني أيضاً الأسفار المعتمدة نفسها. فهل قرأت مقدمة الترجمة الكاثوليكية المعتمدة للكتاب المقدس، والمعروفة باسم "الفولجاتا"[١].

- أجل. وأهم النقاط التي وردت بها أن البابا "داماسوس الأول" الذي ترأس البابوية لمدة ثمانية عشر عاماً قد طلب من القديس جيروم أن يحوّل الكتب القديمة إلى كتب جديدة، وأن يحكم على قيمة تلك الأناجيل المتناثرة في العالم ليستبعد منها

---

(١) vulgate وتعني المبسط (أي الذي هو في متناول الجماهير)؛ وهي النسخة الشعبية اللاتينية.

مـــا حاد عن النص اليوناني[١]، وأن جيروم كان يخشـــى من اتهامه بأنه مزوّر ومدنس للمقدســـات، لأنه تجرأ وأضاف وغيّر وصحح في الكتـــب القديمة! وأن معرفته يقيناً بأن ما قام به يعد "فضيحة" في نظر الأتباع! ولكنه مطمئن، لا لأن البابا شخصياً هو الذي طلب منه القيام بهذا التغيير فحســـب، ولكن لمعرفته يقيناً بأن "الضلال لا يمكن أن يكون حقاً"، حســـب تعبيره؛ أي إن الكتب الســـائدة تعد ضلالاً في نظره، وهو ما تقره أيضاً أقذع الألسنة شراسة في الهجوم عليه؛ وأن الترجمة اللاتينية السائدة بها أخطاء واختلاف بين نصوصها، وأن من قام بالترجمة جهلاء، وبدلوا النصوص "بسوء نيـــة"، وقاموا بتعديلها! وأن نص إنجيل متّى المكتـــوب بالعبرية يختلف يقيناً عن الذي باللاتينية نظراً لتعدد المصادر التي تمت الاســـتعانة بها لتكوينه؛ وأن نصوص الأناجيل الموجودة لدى شـــعوب مختلفة توضح مدى الأخطاء والإضافات التي بها، وأن الترجمة اللاتينية التي قام بها (جيروم) لا تبتعد كثيراً عن فحوى النسخ اللاتينية السابقة، وأنه لم يقـــم إلا بتصويب الأجزاء التي "بدت له بعيدة عن المعنى الحقيقي"، وترك الأجزاء الأخرى في صياغتها البدائية! وأن "الأخطاء قد تراكمت في هذه الأناجيل"، كما وقعت أخطاء عند محاولة التوفيق بينها، لذلك يوجد بها "خلط شديد" نظراً لما أضافه الكتبة "من عندهم"، ثم قام بعمل كشف بالأجزاء المتوافقة والمتشابهة فيما بين الأناجيل وبين تعديلها!

- هـــذا رائع. إذن فأنت مطلع على أهـــم وثيقة في التاريخ تثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الأناجيل الحالية قد عانت التعديل والتبديل والتحريف وسوء الترجمة بحيث لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال نصوصاً منزّلة أو حتى ملهمة، فهي يقيناً شديدة الاختلاف، ولا تمثل الإنجيل الحقيقي لعيســـى عليه السلام، بل تعد وثيقة اعتراف من

---

(١) المعروف أن النص اليوناني ليس النص الأصلي للأناجيل المتداولة، ولا حتى نص إنجيل يسوع الذي كانت لغته الآرامية.

القديس "جيروم" (توفي عام ٤٢٠) بكل ذلك، وبقيامه بدمجٍ وتعديلٍ لأكثر من خمسين نسخة مختلفة من الأناجيل، ليخرج العهد الجديد في شكله الحالي تقريباً.

- أجل. وأنا أرى أن من وصف تلك المقدمة بالاعترافات لم يكن مبالغاً بتاتاً.

- وفي هذه الفترة أيضاً، أي في أواخر القرن الرابع، تم اللجوء إلى بعض المؤلفين الآخرين، والاستعانة بهم من أجل العقيدة الوليدة التي كانت تتكون عبر المجامع وفقاً للأهواء والأغراض. بل كثيراً ما دارت المعارك بين هؤلاء "المتطوعين" لإعادة صياغة التاريخ وكتب اللاهوت، من قبيل تلك المنافسة التي جرت بين كل من القديس جيروم نفسه، و"روفين الأكويلي"(توفي عام ٤١٠م)، مع أنهما كانا يشتهران بالصداقة التي كانت تجمع بينهما.

- كيف ذلك؟

- وقد قام الاثنان بعملية "تنقية" لأعمال أوريجانوس[١] الذي أدانته الكنيسة[٢]، وكانت عبارة عن ألفي عمل وفقاً لخطاب القديس جيروم رقم ٣٣ إلى تلميذته "باولا"، أو ستة

---

(١) ١٨٥ - ٢٥٤ م. وهو ناظر المدرسة اللاهوتية في الإسكندرية، ومؤسس المدرسة اللاهوتية في القيصرية. وأغزر علماء المسيحية إنتاجاً بلا منازع. فقد خَصى ذاته، مُفَسراً بشكل حرفي ما ورد في مت ١٩: ١٢، وتفرغ للدين وعلومه، فطرق كل المجالات الفكرية من شرح للكتاب المقدس وتفسير العقائد ودحض البدع. وتقول عنه الموسوعة الكاثوليكية حرفياً: ". . . في مجال علم المسيح (الكريستولوجيا) فقد ابتكر أوريجانوس مصطلحات ما نزال نستعملها في أيامنا هذه؛ مثل "طبيعة" و"جوهر" و"مساوٍ في الجوهر" و"إله / إنسان". وقد كان لهذه العبارات في النقاشات اللاهوتية دور مهمّ خلال القرنين الرابع والخامس الميلادي"، ومع أن الكنيسة قد أدانته ورمته بالهرطقة وشككت بصحة تعليمه، إلا أنها تعتبره من آباء الكنيسة، وتدين بالعديد من علومها إلى كتبه التي نجت من الإبادة. فهي تعترف بأنه: (كان أول من ابتكر علم التأويل والاستعارة "محمّلاً النصوص الكتابية أبعاداً ورموزاً جديدة لا مثيل لها"، وفي الحقل العقائدي تفرَّد أوريجانوس في مؤلفاته، وكان أول لاهوتي أقحم الفكر المسيحي في قالب منهجي منظّم، فترك لنا "الحوار مع هراقليذس"، و"حول القيامة"، و"كتاب البسط") الموسوعة الكاثوليكية، تحت عنوان أوريجانوس.

(٢) جاء في كتاب البابا شنودة الثالث: (سنوات مع أسئلة الناس- أسئلة لاهوتية وعقائدية) (وهو كتاب يُدرّس على طلاب الكلية الإكليريكية) في صفحة ١٣١ ما يلي: "تم حرم أوريجانوس بواسطة البابا ديمتريوس الكرام، البطريرك الثاني عشر، في أوائل القرن الثالث. وتأكد حرمه أيضاً في عهد البابا ثاوفيلس البابا الثالث والعشرين، في أواخر القرن الرابع. وتحمس لذلك قديسون كثيرون في القرنين الرابع والخامس منهم القديس أبيفانوس أسقف قبرص، ثم القديس جيروم الذي كان من محبيه في البدء. ولم ترفع الحرومات عن أوريجانوس. والكنائس الأرثوذكسية البيزنطية تحرم كل تعاليمه في مجمعيها الخامس والسادس".

آلاف مجلد وفقاً للأسقف أبيفانوس[١]، ولكن تقلص عدد هذه الأعمال إلى ثمان مئة عند ترجمتها إلى اللاتينية! وهي ترجمة عبثية في الكثير من أجزائها. فيقول روفين في مقدمته لترجمة كتاب "مبحث المبادئ" لأوريجانوس أنه اتبع خطوات جيروم نفسها في ترجمته لكتاب "العظات"؛ أي إنه: "عندما كان يجد في النص اليوناني أي مقطع فاضح، كان يمرر عليه المبرد ثم يترجمه بعد تنقيته، بحيث أن القارئ اللاتيني لا يجد ما ينافي العقيدة أو ما يحيد عنها"! ويقول "باردنهيوير": "إن روفين يتعامل مع النص بحرية فائقة؛ سواء من حيث الشكل أو المضمون"[٢]، أما "جوستاف باردي" فيقول: "يمكننا أن نضع روفين، دون أن نظلمه، بين أشهر المزيفين الذين كان هو يدينهم. أما جيروم، فقد كان يقوم بالتصويب الأدبي؛ بالحذف اللبق والتحريف بإسهاب". ويواصل جوستاف باردي قائلاً: "إن نماذج التزوير والتحريف تنتشر في القرن الرابع، ويبدو أن المزيفين والمحرفين قد اكتسبوا مهارة وجرأة مع تزايد أعمالهم الأدبية. بل لقد وصل التحريف والتزييف إلى درجة أنه أصبح النسق العام يستخدمه الكاثوليك وخصومهم على السواء لتبادل الاتهامات".

- ربما تبالغ قليلاً.

- لا، بتاتاً؛ فقد جاء هذا في مجلة التاريخ الكنسي مجلد ٣٢ سنة ١٩٣٦.

سرح أبراهام في نبوءة "عاموس" (أحد أنبياء بني إسرائيل): "هوذا أيام تأتي، يقول السيد الرب: أرسل جوعاً في الأرض، لا جوعاً للخبز، ولا عطشاً للماء، بل لاستماع كلمات الرب، فيجولون من بحر إلى بحر، ومن الشمال إلى المشرق، يتطوّحون ليطلبوا كلمة الرب، فلا يجدونها" (عاموس ٨: ١١- ١٢) ثم تساءل قائلاً:

- وما مصلحتهم من كل هذه الإبادة أو التحريف؟

- إن النصرانية كانت رسالة مؤقتة تبشر بالرسالة الخاتمة، ولكن مع تقادم العهد وعدم رجوع

---

(١) وهو أسقف سلمين حسب الموسوعة الكاثوليكية التي أوردت ذلك القول.

(٢) جاء هذا في كتابه "آباء الكنيسة، حياتهم وأعمالهم" ١٩٠٥م.

المسيح، صهرت المسيحية الأديان المحيطة في بوتقتها ونسجت من نفسها ديانة دائمة مستمرة.

- هذه وجهة نظر إسلامية متطرفة، ولا تستند إلى أي أساس علمي.

- بل هي وجهة نظر محايدة وعلمية تماماً، حتى بين بعض المسيحيين أنفسهم، فقد قال البروفيسور "فريدرخ أوفربيك" أستاذ التاريخ الكنسي في جامعة بال: إن "رسالة يسوع كانت التبشير بالملكوت فقط[١]، وحينما لم يتحقق هذا الملكوت واختفت فكرة انتظاره بين المسيحيين، فقدت المسيحية كيانها ولم تعد ذات موضوع[٢]، وإن مصداقية الأناجيل لم تعد باقية إلا في الأوساط الكنسية الأصولية"، وهو يؤكد أن "الفراغ الأساسي للعقيدة المسيحية، وغياب أي موضوع متجانس اضطرها، لكي تتمكن من الاستمرار، إلى الاستحواذ على العقائد والفلسفات السائدة آنذاك وتنصيرها وفقاً لكل عصر، من القرون الأولى حتى القرن التاسع عشر، حينما بدأ النقد العلمي والتاريخي".

- ربما أتفق معه بالنسبة إلى الاختلاف بين رسالة يسوع في أثناء تبشيره؛ أي قبل واقعة الصلب[٣]، وبين تعاليمه الجديدة بعد قصة قيامته

---

(١) ما أكثر المرات التي كان يؤكد فيها اقتراب موعد ذلك الملكوت؛ ومنها ما نطالعه في إنجيل متّى: "وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين أنه اقترب ملكوت السموات" (١٠ : ٧)؛ أو: "فإني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان" (١٠ : ٢٣)، بل إن إنجيل متّى به أكثر من ثلاثين آية تشير إلى تبشير يسوع بملكوت الله، عدا ما في الإصحاح الثالث عشر وحده، من الآية ١ إلى الآية ٥٢، فكلها تتحدث عن ملكوت الله واقترابه الوشيك.

(٢) لقد تناسوا أو أساؤوا تفسير قول المسيح: "لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره" (متّى ٢١ : ٤٣).

(٣) نغض النظر عن أن هذه الفترة مختلف عليها في المسيحية، وتمتد من سنة واحدة إلى ثلاث سنين عند الأغلبية. كما نغض النظر أيضاً عن أن بعض آباء الكنيسة المعتبرين مثل إيريناوس الذي يلقب بـ"أبو التقليد الكنسي" (كتاب "يوم الخمسين في التقليد الآبائي"، الأب متى المسكين، ص ٨) يقول في كتابه الثاني ضد الهرطقات الفصل الثاني والعشرين الفقرة الرابعة Irenaeus Against Heresies . Book II . XXII . VI: إن "المسيح عاش حتى بلغ من العمر أكثر من خمسين سنة"، ويستند في ذلك إلى ما جاء في إنجيل يوحنا ٥٦ : ٨- ٥٧، بل يدعي في الفقرة الخامسة من الكتاب نفسه أن هذه المعلومات قد سلمها الرسول "يوحنا بن زبدي" إلى تلاميذه الذين رافقوه في آسيا وبقوا معه حتى حكم "ترجان".

من الموت[١]؛ فالفترة الأولى كانت تختص بإعادة اليهود بالذات إلى الناموس الحق، وتحضيرهم لقبول ملكوت الله، ولم تكن موجهة إلى كل الأمم، ولا يفهم منها أنها دعوة مستمرة إلى الأبد[٢]، أما الفترة الثانية فقد كانت على عكس ذلك، وأوضح مثال فيها هو الآيتان الأخيرتان من الإصحاح الأخير لإنجيل متّى اللتان يعتمد عليهما المسيحيون في التبشير بالثالوث بين الأمم[٣]، فقد ثبت بالدليل القاطع أنهما إضافتان لاحقتان، خاصة أنهما جعلا مكان إعطاء ذلك الأمر الجديد "في الجليل في الجبل" (٢٨: ١٦). في حين يرد نص مشابه في آخر إنجيل مرقس[٤] يبين أن هذا الأمر قد أُعطي للحواريين الأحد عشر في المنزل، ولا يتطرق إلى الثالوث مطلقاً[٥]! وبغض الطرف عن مثل هذا التناقض بين متّى ومرقس في موضوع بمثل هذه الأهمية، من حيث المكان

---

(١) نغض الطرف هنا أيضاً عن الاختلاف أو تناقض مدة بقاء يسوع على الأرض بعد قيامته في الأناجيل المعتمدة، التي تمتد من يوم واحد إلى أربعين يوماً.

(٢) إن رسالته كما يقولها شخصياً: "لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متّى ١٥: ٢٤)! أي ليس إلى الناس كافة، وهو ما أكده قبل ذلك في الإنجيل نفسه: "هؤلاء الاثني عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متّى ١٠: ٥ و٦). وهو أيضاً ما نطالع معناه في أعمال الرسل إذ تقول: "إليكم أولاً إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يبارككم برَد كل واحد منكم عن شروره" (أع ٣: ٢٦). وذلك يعني أنه لم يُبعث، وفقاً للنصوص الإنجيلية، إلا من أجل هداية اليهود الغارقين في الشرور.

(٣) "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به، وها أنا معكم طوال الأيام إلى انقضاء الدهر"، وحين نقل المؤرخ الكنسي الشهير أوسابيوس القيصري هذه الفقرة لم يذكر فيها الآب ولا الروح القدس. بل نقلها هكذا: "وتلمذوا جميع الأمم باسمي". ص١٠٠، ك٣: ٥.

(٤) النص الذي بعده الذي يتحدث عن صعود المسيح إلى السماء ثابت إقحامه على الإنجيل الأصلي بالإجماع ولا يرد في المخطوطات القديمة.

(٥) "أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون، ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل (أي بـ"البشارة" بالملكوت دون أي ذكر للثالوث) للخليقة كلها" (١٦: ١٤ و١٥).

وطبيعة البشـــارة[١]، فلا أملك إلا أن أندهش من تغير لب بشـــارة المسيح ونطاقها بعد "قيامته"، بشكل مناقض تماماً لتعاليمه في أثناء بشارته الأصلية في حياته الأرضية.

- ملاحظة موفقة فعلاً.

علق إستس موافقاً، ثم أردف متابعاً:

- وبمناســـبة ذكر زيف نص التثليث الأول، فقد ثبت أيضاً زيف نص التثليث الثاني في رسالة يوحنا الأولى، ولذلك حذفه المنقحون عند الأغلبية. وهو:"فإن الذين يشهدون (في السماء) هم ثلاثة (الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة) الروح والماء والدم، والثلاثة هم في الواحد" (١يوحنا ٥: ٧ - ٨). وإذا رجعنـــا إلـــى التنبيه الذي يضعه من يرفضون الحذف إلى الآن، لوجدناه يقول في الكلمات التي توضع بين هلالين أو قوسين ما يلي: "والهلالان( ) يدلان على أن الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في أقدم النسخ وأصحها، والأرجح أنه شرح أدخل إلى المتن في بعض النســـخ"[٢]؛ أي إن صيغـــة التثليث هذه فقرة مزيفة من عمل كاتب مجهول[٣]؛ فهذه الإضافة لم ترد إلا في ثماني مخطوطات، ســـبع منها تعود إلى القرن

---

(١) لا يتسع المجال هنا لإضافة كل ما تضمه أعمال النقد الحديثة من عدم توافق، لكنا على الأقل نشير إلى أن أغلبية النقاد، ومنهم كنسيون، يقرّون بأن نهاية كل من إنجيل متّى ومرقس عبارة عن إضافات متأخرة، قام بها القديس جيروم في آخر القرن الرابع، لأن النصين نفسيهما في "المخطوطة السينائية" و"المخطوطة الفاتيكانية"، اللتين ترجعان إلى القرن الرابع، لا يتضمنان تلك الإضافات ولا ما ينبئ عنها أصلاً!

(٢) من أمثلة ما حذف لثبوت إضافته على النص الأصلي، أو وضع بين هلالين لخلو أي ذكر له في المخطوطات القديمة هو ما جاء في إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس(٥) العدد الرابع(٤): "لأن ملاك الرب كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء. فكان الذي يسبق إلى النزول بعد تحريك الماء يشفى من أي مرض أصابه"!!!

(٣) بعض الطبعات العربية القديمة مثل ترجمة العالم الجديد وترجمة الكاثوليك العربية المسماة بالرهبانية اليسوعية، قد حذفتهما تماماً، واعتبرتا نص التثليث في رسالة يوحنا الأولى نصاً دخيلاً ملحقاً بالكتاب المقدس. في حين احتفظت بها ووضعتها بين هلالين لتدل على عدم وجودها في المخطوطات القديمة. ترجماتٌ أخرى، مثل ترجمة الشرق الأوسط ١٩٣٣م، وترجمة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط. أما سائر الترجمات العربية فلا تزال تحتفظ بنص التثليث حتى بدون أهلة!!!

السادس عشر، وأرقامها هي: ٦١ و٨٨ و٤٢٩ و٦٢٩ و٦٣٦ و٣١٨ و٢٣١٨ [١]، والمخطوطة الثامنة (رقم ٢٢١) تعود إلى القرن العاشر!!! أي إن أقدم تلك المخطوطات التي تحتوي على ذلك النص كتبت بعد ألف سنة من ميلاد المسيح عليه السلام. والمفاجأة أن نص التثليث فيها ليس من المتن!!! بل مكتوب على الهامش بخط مختلف، ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ إضافته[٢]، أي إن النصين اليتيمين اللذين تستند إليهما المسيحية في التثليث هما، بالأدلة القاطعة، مجرد تلاعب بالمخطوطات، وحشوها بالعقائد الرائجة

---

(١) كتب إسحاق نيوتن رسالة بلغت خمسين صفحة أثبت فيها تحريف هذه العبارة، قال فيها أنها ظهرت أول مرة في الطبعة الثالثة من إنجيل إيرازموس للعهد الجديد سنة ١٥٢٢ ميلادية، ولم تكن في الطبعة الأولى عام ١٥١٦، ولا في الطبعة الثانية عام ١٥١٩. ويضيف نيوتن أيضاً نقطة قوية: وهي أن هذا النص لم يستخدم في أي مجادلات لاهوتية حول الثالوث من وقت جيروم حتى وقت طويل بعده، ولم يستشهد به مطلقاً. المصدر: http://cyberistan.org/islamic/newton1.html. فكيف أهمل المدافعون عن التثليث نصاً إنجيلياً بهذه الأهمية طيلة كل هذه القرون الطويلة؟!!!!

(٢) من يود الاستزادة ومزيداً من التفاصيل، فبإمكانه استعراض بعض الأمثلة الأخرى على التحريف مثل:

١- المخطوطة البيزية تكشف تحريف جملة "أنا اليوم ولدتك"

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showth...?t=2127&page=4

٢- المخطوطات تثبت التحريف شهادة يوحنا له إنه "مختار الله" إلى: "ابن الله". الحالة السادسة عشرة

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showth...?t=2127&page=4

٣- المخطوطات تكشف كيف بدلوا لفظ "ابن الإنسان" إلى "ابن الله"

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showth...=5491#post5491

٤- "كرسي المسيح" بدلاً من "عرش الله الجبار"

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showth...?t=2127&page=3

٥-العدد كله مضاف (Rom-١٦-٢٤)(نعمة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم. آمين)

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showth...?t=2127&page=2

٦- المخطوطات تثبت أن سر التقوى ووجودها في الجسد هو العظيم وإضافة الله الحالة السادسة

http://www.sheekh-3arb.net/vb/showthread.php?t=2127.

كشرح تحول مع مرور الزمن إلى جزء من أصل المتن[١].

- هل يوجد علماء آخرون يتفقون مع مقالة البروفيسور فريدرخ أوفربيك في ذلك الخلط الشديد في الأصول؟!

- بالطبع، ويعد الباحث والأديب البريطاني "جيرالد ماسّـــي" (١٨٢٨-١٩٠٧) من أهم من استطاعوا توضيح خلفية ذلك الخلط، وشرح كيف أن القائمين على المسيحية الأولى جمعوا عقائد دينية من أهم البلدان التي كانوا بها، لتسهيل عملية دمج شعوبها تحت لواء ما ينســـجون. وهو يتناول ذلك بالتفصيل في كتابه "يسوع التاريخي والمسيح الأســـطوري"، حيث يشير إلى أن المسيحية الحالية مبنية على الديانات والعقائد التي كانت قائمة في مصر وفلســـطين وبين النهريـــن، والتي انتقل الكثير منها إلى اليونان، ومنها إلى إيطاليا. أي إن تأليه المســـيح وصلبه وقيامته ودينونته للناس هي "أسطورة إلهيـــة لإله تم تجميعه من عدة آلهة وثنية، هي الآلهة الأساســـية التي كانت ســـائدة آنذاك في تلك المناطق قبل يســـوع بآلاف السنين. وأن التاريخ في الأناجيل من البداية حتى النهاية هو قصة "الإله الشـــمس"، وقصة المســـيح الغنوصـــي الذي لا يمكن أن

---

(١) يقول الداعية الإسلامي "جوزيف إدوارد إستس" (القس الأمريكي السابق) عن صراعه مع عقيدة التثليث ونقاشه مع زملائه المبشرين حول ذلك: "وقلت لهم: كيف يمكنني أن أكون داعية للمسيحية وأعلّم الناس أن الرب شخص واحد وثلاثة أشخاص في الوقت نفسه، وأنا غير مقتنع بذلك فكيف أقنع غيري به؟ بعضهم قال لي: لا تبيّن هذا الأمر ولا توضحه، قل للناس: هذا أمر غامض ويجب الإيمان به، وبعضهم قال لي: يمكنك أن توضحه بأنه مثل التفاحة تحتوي على قشرة من الخارج ولب من الداخل وكذلك النوى في داخلها، فقلت لهم: لا يمكن أن يضرب هذا مثلاً للرب، التفاحة فيها أكثر من حبة نوى فستتعدد الآلهة بذلك، ويمكن أن يكون فيها دود فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة وأنا لا أريد رباً نتناً. وبعضهم قال: مثل البيضة فيها قشر وصفار وبياض، فقلت: لا يصح أن يكون هذا مثلاً للرب؛ فالبيضة قد يكون فيها أكثر من صفار فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة، وأنا لا أريد أن أعبد رباً نتناً. وبعضهم قال: مثل رجل وامرأة وابن لهما، فقلت له: قد تحمل المرأة وتتعدد الآلهة، وقد يحصل طلاق فتتفرق الآلهة، وقد يموت أحدها، وأنا لا أريد رباً هكذا. وأنا منذ أن كنت مسيحياً وقسيساً ومبشراً بالمسيحية لم أستطع أن أقتنع بمسألة التثليث، ولم أجد من يمكنه إقناع الإنسان العاقل بها".

يكون بشـــراً". ومما يســـتند إليه جيرالد ماسّـــي أيضاً، على أن المسيحية الحالية تم نســـجها عبر العصور، أن ســـراديب الأموات في روما، والتي كان المسيحيون يختبئون فيها لممارســـة طقوســـهم هرباً من الاضطهاد، ظلت لمدة ســـبعة قرون لا تمثل يسوع مصلوباً!!! وقد ظلت الرمزية والاســـتعارات المرسومة والأشـــكال والأنماط التي أتى بها الغنوصيون، ظلت بوضعها كما كانت عليه بالنســـبة إلى الرومان واليونان والفرس والمصريين القدماء". ثم يضيف قائلاً: "إن فرية وجود المســـيح (المخلص) منذ البداية هي فرية تاريخية"، ويتابع قائلاً: "إن الكنيسة المسيحية قد كافحت بتعصب رهيب من أجـــل تثبيت نظرياتها الزائفة، وقادت صراعات بلا هوادة ضد الطبيعة وضد التطور، وضد أســـمى المبادئ الطبيعية لمدة ثمانية عشـــر قرناً". ويحضرني هنا قول "جوزيف هويلس" في كتابه "التزوير في المســـيحية": "إن كنيســـة المسيح مؤسسة كذباً بأكاذيب فوق أكاذيب لتتمكن من مواصلة اســـتتبابها وتدعيم سلطاتها المختلسة، والتي جمعت بموجبها ثروات طائلة، وذلك بفضل سلســـلة من التحريف والتزوير التي لا سابقة لها في تاريخ الإنسانية".

- تمهل يا صديقي، فلا تنسَ أن قصة صلب يسوع وتأليهه من قبل أتباعه، باعتباره المخلص والفادي لهم قد جاءت في بعض المصادر الوثنية أو غير المســـيحية كاليهودية مثلاً، وبالذات في التلمود.

- إن الرقابة الكنســـية لم تُبدِ وتحرف النصوص والمخطوطات المســـيحية الأخرى فحســـب[1]، بل أبادت وحرفت الكثير من الكتب اليهودية والوثنية التي تروي تفاصيل مختلفة عن تلك التي تبنتها الكنيسة الرسمية.

---

(١) جاء في قاموس (الآباء والقديسون) عن أوسابيوس القيصري ما نصه: "عرف هذا الأب بلقب "أبو التاريخ الكنسي"، فقد سجل لنا كتاباً عن "التاريخ الكنسي"، قدم لنا فيه قائمة بأهم الكتّاب المسيحيين وكتاباتهم. وبالإضافة إلى ما حوى من مقتطفات من كتب فقدت تماماً، قدم لنا أسماء كتب لا نعرف عنها شيئاً حتى الآن"!!! J. Quasten: Patrology. Vol 3. p 346.

أحس أبراهام بالإهانة لذلك القول، فأجاب مدافعاً:

- هذا ليس صحيحاً؛ فالجميع يعلم أن الكنيسة لم تتمكن، على محاولاتها اليائسة، من إبادة النصوص العبرية الحاخامية وحرقها بالكامل، ومن البدهي أنها لم تتمكن من تحريفها أيضاً.

- ولكن "جي ديفيتس" تنبه في كتابه على ملحوظة مهمة؛ وهي أن "الرقابة الكنسية قامت باستبعاد أجزاء بعينها من التلمود مثلاً، وهي "الأجزاء المتعلقة بالمسيح، وذلك سواء بأيدي الرقباء الكاثوليك، أو بأيدي اليهود أنفسهم، عن طريق الضغط عليهم بواسطة رجال محاكم التفتيش". وتكفي الإشارة إلى أنه في عام ١٤١٥ قامت كنيسة رومه بحرق كل ما تضمنه كتابان من القرن الثاني من الكتب العبرية، يقال إنها كانت تضم الاسم الحقيقي ليسوع المسيح[١]، وقام البابا "بندكت الثالث عشر" بإعدام بحث لاتيني بعنوان "مار يسوع"، ثم أمر بإعدام كل نسخ إصحاح إلكساي[٢]، وكان يتضمن تفاصيل عن حياة يسوع. وبعد ذلك قام البابا "إسكندر السادس" بإعدام كل نسخ التلمود بواسطة رئيس محكمة التفتيش الإسبانية "توما توركمادا" (١٤٢٠-١٤٩٨) المسؤول عن إعدام ٦٠٠٠ مخطوطة في مدينة سلمنكا وحدها. كما قام "سلمون رومانو" عام ١٥٥٤ بحرق آلاف المخطوطات العبرية. وفي عام ١٥٥٩ تمت مصادرة

---

(١) في كتاب "عقائد وممارسات الكنيسة الأولى"، صفحة ٢٠-٢١، تأليف البروفيسور "ستيوارت ج هال" ١٩٩٢، الذي كان أستاذاً لتاريخ الكنيسة بكلية كينجز، لندن إنجلترا، جاء ما نصه: "إن التعميد التثليثي الكاثوليكي لم يكن الشكل الأصلي لتعميد المسيحيين، والأصل كان "معمودية اسم المسيح".

(٢) Elxai، وقد جاء به في القرن الثالث إلى روما أحد مبشري الأبيونيين (العيسويين)، واسمه أليسادس (نحو سنة ٢٢٢م) فاعتمده البابا "كاليستُس الأول" ٢١٧- ٢٢٢ (قديساً وشهيداً)، في حين هاجمه البابا "هيبوليتوس" ٢١٧- ٢٣٥ في كتابه "دحض جميع الهرطقات" كتاب ٩ - فصل ١٣- ١٧. وهيبوليتوس هذا صار يعتبر قديساً مهماً في الكنيسة مع أنه أول بابا مزيف في تاريخ الكنيسة وتم نفيه!!! وقد استمرت بابويته المزيفة بالتزامن مع ثلاثة باباوات شرعيين هم كاليستس الأول نفسه، وأوربانُس الأول(قديس) ٢٢٢-٢٣٠ بنطيانُس (قديس) ٢٣٠-٢٣٥.

كل المخطوطـــات العبرية في مدينة براغ، وتضمنت عمليـــة إعدام هذه الكتب العبرية مئات النسخ من العهد القديم، مما تسبب في ضياع العديد من الأصول والوثائق التي تخالف أو تفضح أفعال المؤسسة الكنسية آنذاك! ويقول "توني باشبي": "إن أقدم نسخة أنقذت للعهد القديم، (قبل اكتشـــاف مخطوطات قمران)، هي النسخة المعروفة باسم "البودليان"(Bodleian) ترجع إلى عام ١١٠٠م. وإن محاكم التفتيش، في محاولة لمحو أية معلومات عبرية عن يسوع من الوجود، أحرقت ١٢٠٠٠ نسخة من التلمود"!

- صحيح أنه قد حذف من التلمود فعلاً كل ما يشـــير إلى يســـوع بسبب تلك الرقابة، واستعيض عنه بنقاط متتابعة، ولكن لا تنس أن تلك المحذوفات كانت تتداول سراً بين اليهود.

- أجل ولكن لا تنس أنت أيضاً أن التلاعب بها، أو على الأقل تأثرها بالمناخ السائد، أصبح أكثر سهولة.

راجـــع أبراهام ما يعرفه عن بعض الاختلافات في الملاحق الســـرية، وهز رأســـه موافقاً وهو يقول:

- هذا ممكن فعلاً. ولكن ماذا عن المصادر التاريخية الوثنية؟ فهي لم تسب المسيح.

- ليـــس كافياً ألا يســـبوه، بل يجـــب ألا يروا قصته الحقيقيـــة التي تختلف عما اعتمدته الكنيســـة. ومنذ القرن الرابع حتى القرن السادس توالت الأعمال التي تدين الوثنيين والكلاســـيكيين القدامى ضمن هذا الإطار، ففي عام ٤٤٧ أصدر البابا "ليون الأول" أوامره بحرق كل الأعمال التي لا تتماشى مع "الحقيقة الصادقة"! أي تلك التي لا تتماشـــى مع ما تعلنه الكنيســـة الرومانية من أقوال وأفعال، وبذلك استقر مناخ من معاداة المؤرخين والأدباء والفلاســـفة الوثنيين ونصوصهم. وفي عام ٤٤٨م قام كل من الإمبراطور "تيودوز الثاني" في شرق الإمبراطورية الرومانية، و"فالنتينيان الثالث" في غربها، بإصدار مرسوم يطالب بحرق كل ما كتبه الفيلسوف "بورفير" (٢٣٤ - ٣٠٥م)، أو أي كاتب آخر ضد عبادة المســـيحيين المقدســـة، لعدم رغبتهمـــا في أن تؤدي مثل

هذه الأعمال إلى: "غضب الرب أو أن تضير مسامع المؤمنين إذا ما وصلت إليهم"[١]! وكان قد سبقهما أباطرة آخرون باستبعاد بعض الكتب التي لم ترقهم، أو تلك التي كان يمكنها كشف ما يقومون به من تحريف وتبديل للنصوص. وبذلك اختفت أعمال كثيرة لكل من "جوست الطبري"، وكان عدواً للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس، وأعمال أكثر مؤرخي العصر الروماني من أمثال "سينيكا" و"سرفيليوس" و"روفوس" و"روستيكوس" و"أوديفيوس باسوس" والعديد غيرهم.

- ما حجم هذا الاستبعاد؟

- يقول الفيلسوف والمؤرخ "نيكولو ماكيافيللي"(١٤٦٩-١٥٢٧) في كتابه "خطبة حول تيت ليف"، نقلاً عن "جان دي سلزبوري" كمعلومة مؤكدة: "إن البابا جريجوي الأكبر (٥٩٠-٦٠٤) قد أمر بحرق المكتبة الإمبراطورية في روما"، ويعجب ماكيافيللي من "ذلك الدأب العنيد الذي قام به القديس جريجوي الكبير وغيره من القادة المسيحيين، ومن تلك المثابرة والإصرار على هدم كل الآثار الوثنية[٢]! كما أدى نقص ورق البردي في تلك الفترة إلى قيام الرهبان والقساوسة بكحت الكتب القديمة، وإعادة الكتابة على برديات أو جلودها! بل كثيرون منهم كانوا يستخدمونها لتغطية الأواني أو لسد فتحات النوافذ، لأن أعمال الوثنيين في نظرهم تلهي الإنسان عن التعبد!

- هل يعقل هذا؟

- بالتأكيد. فما من مؤرخ تمكن من دحض ما أورده الكاتب الإيطالي "جيوفاني بوكاتشيو" (١٣١٣-١٣٧٥) في وصفه لمكتبة دير مونتي كاسّينو التي كانت شبابيكها وأبوابها تقرع في مهب الريح. وكيف كان رهبان الدير يقومون بقص أجزاء من المخطوطات وبيعها للنسوة للتبرك بها، ويكحتون أجزاء من النص ليكتبوا بعض التعاويذ.

---

(1) Codex Théodosianus, XVI, 6, 66 ; Codex Justinianus I, 1, 3

(٢) يقصد هنا بالآثار الوثنية كتابات الوثنيين وتأريخهم، وليس معابدهم وأعيادهم، فتلك حافظت عليها الكنيسة بحرص متناه، بعد أن حولتها إلى كنائس ومناسبات دينية مسيحية.

- لا تنس أن هناك مؤلفات علمية ضخمة يرجع الفضل في الحفاظ عليها إلى الرهبان بالذات. وهذا لا يخفى على أحد.

- حتى تكون عبارتك أدق كان يجب أن تقول: يرجع الفضل إلى الرهبان بالذات بسرقتها وإخفاء أسماء مؤلفيها والتلاعب بمحتواها. وإذ إنك قادم من ألمانيا، فلا ريب أنك كنت تتابع المحطة الأشهر هناك RTL، وربما شاهدت برنامجها الوثائقي: عالم العجائب welt der wunder.

- كلا للأسف، فأنا لست من متابعي برامج التلفاز. ولكن ما علاقة هذا بموضوعنا؟

- لقد شاهدت في الشهر الفائت إحدى حلقات ذلك البرنامج، وكانت بعنوان "علوم الإسلام الدفينة"، حيث أجروا تحقيقات ومقابلات مع بعض الأساتذة والعلماء المتخصصين، الذين أكدوا أن الرهبان قد ترجموا أمهات كتب العلماء المسلمين دون أن يذكروا شيئاً عن أسماء مؤلفيها. وأن خمسة وعشرين منها ترجمت إلى اللاتينية في سالارمو وحدها، وفي القرن العشرين فقط، اكتشف العلماء أنها كانت مؤلفات إسلامية. ويقول البروفيسور "فوات سيزين" إن علماء الغرب العظام مثل جاليليو ودافينشي عملوا بأبحاث المؤلفين المسلمين بدون معرفة الهوية الحقيقية لمن ينقلون عنهم. ويقول المؤرخ "توماس شفارس" إن الكنيسة استولت على كتب ومخطوطات ونماذج علمية من الملكية الخاصة لفريدريك[1] وعلمائه المسلمين الذين طردوهم من البلاط بعد موته، وأن ذلك كان "أكبر سرقة علمية في التاريخ"، حيث سرقت الكنيسة ملكية الإبداع الذهني لعباقرة العلماء المسلمين، وأخفت مؤلفاتهم في سراديب عميقة. وبعد نحو قرن من الزمان، قام الرهبان بترجمة بعض تلك المخطوطات، دون ذكر أسماء مؤلفيها.

---

(١) القيصر الروماني الألماني من أسرة أشتيفا "فريدريك الثاني" (مقره صقلية). وكما يقول المؤرخ توماس شفارس فإن فريدريك قد تكلم العربية أفضل من الألمانية، وبموته عام١٢٥٠ مات أكبر داعم للعلم والأبحاث في أوربا، وكان ذلك فرصة للكنيسة لإيقاف التقارب المسيحي مع المسلمين بهدف التأثر بعلمهم، وكانت نهاية تبادل العلم، التي حل محلها الكراهية.

- هل يعقل هذا؟!

- بالتأكيد. ويقول الناقد الفرنسي "هنري فوسيون" في كتابه المعنون "عام ألف" (١٩٥٢): "يجب علينا أن نتخلى عن تلك الفكرة الخرافية القائلة بأن الرهبان كانوا يسهرون طوال الليل لنقل أعمال المؤلفين القدامى و"إنقاذها" للأجيال القادمة... وفي القرن العاشر والحادي عشر لم يكن هناك من أعداء للأدباء القدامى وفلاسفتهم إلا أولئك الرهبان، خاصة من خضع منهم لعملية إصلاح دير كلوني... وأن السبب الرئيسي في اختفاء أعمال التراث اليوناني واللاتيني في بداية العصور الوسطى لم يكن بسبب غارات البرابرة كما يشاع، بل بسبب الرقابة الكنسية الممنهجة".

- تعني أن الرهبان قد قاموا بعملية "غربلة" للمؤلفات، ومحو كل الآثار التي تدل على أي فكر معارض، سواء من جهة المسلمين أم حتى الوثنيين؟!

- تماماً، وهذا بالضبط هو ما بات يتفق عليه كثير من المؤرخين والعلماء الذين تناولوا هذه الجزئية. وهم يصفون ذلك بـ"إبادة كل ما يمكنه أن يمس كيفية تكوين ونسج نشأة المسيحية". وأوضح مثال على ذلك هو الفجوات التاريخية المهمة في الحوليات الرسمية رقم ٥ و٦ التي تتناول نهاية عام ٢٩ ميلادية وعام ٣٠ و٣١، وغياب أي نص متعلق بهذه الفترة تماماً.

- تقصد الأعوام المعاصرة لأحداث صلب يسوع وقيامته.

- أجل. ويمكن ملاحظة ذلك أيضاً من غياب النصوص المتعلقة بهذه الفترة في أعمال "تاسيتوس"، أو من الحالة المزرية التي توجد عليها أعمال "فلليوس باتركولوس"، من كثرة ما به من تلاعب بالنص. فبخلاف ضياع الأجزاء المتعلقة بمحاكمة يسوع وصلبه المزعوم، فإن ما لم يمكن بتره قد تم تحريفه. ويؤكد جي ديفيتش أن كل هذا التشويه الملاحظ في النصوص يؤكد فرضية البتر المتعمد للنصوص المتعلقة ببداية تكوين المسيحية قائلاً: "إننا حيال عملية رقابة انتقائية تمت عن طريقين:

١- قيام القساوسة باستبعاد أجزاء للإيحاء بأن الفقرات الضائعة كانت تشهد

بوجود يسوع، في حين أنها كانت لا تتحدث عن هذا الموضوع - سواء لأن يسوع لم يكن موجوداً، أو لأن المعاصرين له لم يضفوا على وجوده أية أهمية.

٢- أو بقيام القساوسة بإعادة صياغة هذه الأعمال لأن هؤلاء المؤرخين قد أشاروا بصورة أو بأخرى إلى يسوع، لكنهم كانوا يتناولونه بصورة مخالفة لتلك التي تفرضها الأناجيل!!! إن اختفاء مجمل أعمال هؤلاء المؤرخين، و"تشذيب" أعمال الآخرين كـ"تاسيتوس"[١] و"فلليوس باتركولوس" كان الغرض منه التعتيم على صياغة وقائع بعينها، تختلف عن تلك التي يقدمها أتباع يسوع. وبعبارة أخرى إن الأناجيل تقدم لنا وجهة النظر المسيحية، في حين أن المؤرخين قد تناولوا أحداث تلك الفترة من خارجها (بعيداً عن تأثير التقليد)، فالملاحظ أنه لا سيلسيوس ولا بورفير ولا الإمبراطور "يوليانوس"[٢] ينكرون مصلوب بيلاطس البنطي[٣]، إن ما ينكرونه هو تأليهه وقيامته، وما ينتقدونه هو ذلك الصخب المفتعل من حوله، ويعتبرون يسوع الحالي هو شخصية تم تجميعها".

- هل وصلت سلطة الكنيسة إلى تحريف كتب التاريخ أيضاً؟

- يوضح ذلك جي ديفيتس بأن الكنيسة حاولت في البداية إجراء عملية "تلفيق" و"توفيق" لما يمكن توفيقه، وذلك بتعديلٍ أو بإدخال لإضافات لمصلحتهم. كما كانوا يقومون بعمليات تحريف للنص في كل نسخ *أعمال القدامى* وفقاً لخطة معدّة مسبقاً، ومفروضة من القيادات العليا. وابتداء من القرن الرابع بدؤوا بتعديل بعض الفقرات

---

(١) كورنيتيوس تاسيتوس(٥٥-١٢٥م): كاتب روماني عرف بالدقة العلمية والنزاهة الفكرية، وعاصر ستة أباطرة. ومن أشهر مؤلفاته "الحوليات والتواريخ".

(٢) يعني كتابه "ضد الجليليين" الذي عرف نفس المصير الذي تعرضت له أعمال بورفير، ويوضح جي ديفيتش ذلك قائلاً: "إن هذا الكتاب كان يتداول سراً لمدة ستة قرون تقريباً، إذا ما استندنا إلى أسماء الذين قاموا بالرد عليه من الكتّاب التابعين للكنيسة. وحتى هذه الانتقادات قد اختفت، باستثناء رد "كيريل السكندري"، إلا أن كتابات هذا المدافع السكندري، والتي تحدث فيها عن حياة يسوع قد اختفت أيضاً، بل إن المراسلات الخاصة بالإمبراطور يوليانوس قد تم استبعاد العديد من الأجزاء منها عن طريق رجال محاكم التفتيش".

(٣) يقصد تقرير بيلاطس عن حادثة الصلب الذي ذكره ترتليانوس. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

ثم يصبح هذا الجزء المعدّل هو الأصل الذي يتم نسخه، وهكذا. ولمدة ألف عام تحكم رقباء المؤسسة الكنسية في تغيير معالم التاريخ وتزييفه، وذلك باستبعاد كل الأعمال التي تكشف عن الصراعات الداخلية، وعن الاعتراضات التي واكبت مسيرتها. فقد تم مثلاً التلاعب في ترجمة أعمال المؤرخ فلافيوس (يوسيفوس) إلى اللاتينية بصورة غير أمينة، وتم إدخال فقرة عن يسوع فيها من بضعة أسطر، ثبت زيفها لأسباب كثيرة، أبسطها هو أن يوسيفوس كان يتحدث عن المصائب التي لحقت بمواطنيه أيام بيلاطس، وأنه إذا ما حذفت تلك الفقرة فإن سياق الكلام يتواصل بموضوعية واضحة![1] وتم اختصار كتاب " التاريخ الروماني " للكاتب "ديون كاسيوس" واستبعاد

(١) يجمع أغلبية العلماء على أن تلك الفقرة إضافة تحريفية لاحقة. فهي من ناحية، لم تكن موجودة في أقدم نسخة من "آثار اليهود" تلك التي كان يمتلكها أوريجين في مطلع القرن الثالث، والذي يؤكد في كتابه المعنون(ضد سلسيوس) أن يوسيفوس لم يتحدث قط عن يسوع يُدعى المسيح. كما يؤكد كل من ألفاريك وكوشو، في كتابه لهما حول "مشكلة يسوع وأصول المسيحية"، استحالة أن ينطق يوسيفوس بمثل هذا القول؛ "لأنه لو كان قد قاله حقاً لكان مسيحياً. إلا أنه كان شديد التعلق بيهوديته الفريسية، وهو ما نُطالعه في مؤلفاته اللاحقة". وأندريه فوتييه Andre Vautier، يوضح في كتابه عن "لُغز يسوع" أن فيلافيوس جوزيف قد كتب عدّة ترجمات "لحرب اليهود" وأن النص الآرامي له يرجع إلى عام ٧٥م، والنص اليوناني إلى ٧٩م. وأن هذه الترجمة اليونانية لا تتضمن أية إشارة إلى يسوع. إلا أن الأبحاث قد دلت على أن الجزء الأول والأجزاء من ثلاثة إلى سبعة رائعة الصياغة والمضمون الدقيق، أما الجزء الثاني الذي يقص الأحداث التي تتوافق والفترة التي عاش فيها يسوع، فقد كانت رديئة الصياغة وغير متناسقة المضمون. وذلك دليل قاطع على أن هذا الجزء قد تم التلاعب فيه بأيدي النّساخ المسيحيين، وهنا يوضح: "يجب علينا ألا ننسى أن القساوسة وحدهم هم الذين كانوا يُجيدون القراءة والكتابة، وأن الأجزاء المتعلقة بيسوع وبيوحنا المعمدان قد قاموا بإلغائها من النسخ التي عملوها للنص اليوناني" ويُشير فوتييه في الفصل الثالث من كتابه إلى أن مقدمة كتاب "حرب اليهود ضد الرومان": "النص اليوناني يتضمن ملخصاً لما سوف يتناوله الكتاب، وفي هذه المقدمة، فإن الكتاب في وضعه الراهن، ينتقل فجأة من حكم الإمبراطور أغسطس إلى السنة الثانية عشرة من حكم الإمبراطور نيرون"!!! أي إنها فجوة تشتمل على نحو ستين عاماً"، ومن اللافت للنظر أن هذه الفجوة هي الفترة التي تحتوي على نشاطات كل من يوحنا المعمدان، ويسوع الناصري، وبولس الطرسوسي". ومن الواضح أنه لا يمكن لواحد في مثل دقة فلافيوس جوزيف أن يقفز متغاضياً عن مثل هذه الحقبة بكل ما فيها من أحداث مصيرية. وهنا لا يمكن لأي دارس أمين إلا أن يُشير بأصابع الاتهام إلى الأيادي=

الكثير من النص الأصلي كما ثبت مؤخراً.

- كيف استطاعوا القيام بكل ذلك؟

- في تلك العصور المظلمة كان الرهبان وحدهم هم من يحتكرون ترجمة الكتب ونسخها، ومن خلال ذلك كانوا يقومون بتنقية النصوص من أية شوائب مخالفة للدين حسب وجهة نظرهم، وكانوا يعدون ذلك بمثابة القيام بعمل ورع! واستقر مناخ من الاضطهاد لكل ما لا يتماشى مع الديانة الرسمية. وهكذا انحصرت الحياة الفكرية والفلسفية في أرفف وأقبية الأديرة التي تولت "إصلاحها"، وبدأت "عملية تنصير التاريخ والوثائق". وأبرز مثال على هذه العملية هو دير كوربي[1]. وساد الحال نفسه في كل الأديرة الرومانية الأخرى، وعانت كثير من الكتب المصير نفسه؛ أي الإصلاح والتوفيق، حيث أمكن، أو الإبادة التامة حيث لا مجال للتعديل. وعلى مر القرون لا

=العابثة في الكنيسة التي من الواضح أنها قامت، منذ لحظاتها الأولى، على عبثيات الغش والتحريف والتزوير. لذلك يقول لويجي كاتشيولي: "إن الكنيسة قد حرفت الفقرات الواردة في مؤلفات فلافيوس جوزيف، واختلقت حريق روما الذي نسبته إلى نيرون حتى يمكن اعتبار الضحايا أو الشهداء الأسينيين أنهم شهداء مسيحيون والعديد من الأكاذيب التي لا يكفي مجلد لاستيعابها، إنها أكاذيب ما إن يكتشفها القارئ حتى تؤدي إلى نتيجة عكسية لما أراده المزيفون. وتكفي الإشارة هنا إلى كم التحريف الذي قام به أوسابيوس، أسقف القيصرية (٣١٤-٣٤٠)، والذي أطلق عليه المؤرخون لقب "المزوِّر" لنرى ما الذي قام به المسيحيون لمواجهة نقص الوثائق ولمحاولة إثبات الوجود التاريخي للشبح الذي أطلقوا عليه اسم يسوع" (مهزأة المسيح، صفحة ١١١).

(١) وصف "ليوبولد دي ليل" الحالة المزرية التي وجد عليها مكتبة دير كوربي مثلاً في القرن السادس عشر قائلاً: "لقد وصل هؤلاء الرهبان إلى درجة من الجهل باعترافهم، أن أغلبهم ينسخ دون أن يفقه الكلمات التي يقرؤها، الأمر الذي أدى إلى إهمال وأخطاء. بل وصل بهم الحال إلى بيع أو إهداء هذه المخطوطات بلا تمييز لأهميتها". وفي خطاب لأحد أصدقائه كتب "بودجيو" عن دير سان جال قائلاً: "اعلم أن الكتب هنا ليست مصانة بالعناية الواجبة لأهميتها. إنها تقبع في زنزانة رثة مظلمة في أسفل قاع البرج. إنه مكان لا يجرؤ المرء أن يسجن فيه أحد المجرمين. وتكفي زيارة أحد هذه "المراحيض" التي يُلقي فيها هؤلاء البرابرة مساجينهم لتلتقي بأعمال أحد مثقفينا الذين اعتقدنا من زمن بعيد أنهم اندثروا".

يمكننا إلا الجزم بأن هؤلاء الرهبان والقساوسة قد أبادوا إلى الأبد ما لا يمكن تصوره من تراث فكري للإنسانية. فعلى مدى ألف عام من الظلمات الناجمة عن عقلية لا تعرف شيئاً عن التسامح، تمكنت المؤسسة الكنسية من هدم وتدمير آثار ونتاج فكر الحضارة القديمة. وإذا ما قمنا بحصر ما قامت المؤسسة الكنسية بحرقه وتدميره منذ أن أصبح التأليه والتثليث ديانة رسمية للإمبراطورية عام ٣٩١ عبر قرارات الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر والأساقفة التابعين له، لوجدنا أن أول وأهم الأعمال التي تمت إبادتها هي تلك التي كانت تتضمن الصراعات المهمة ضد المسيحية، وما يتم بها من تحريف وتغيير للنصوص، ومنها أعمال سيليوس وبورفير وحاكم بيت عانية والإمبراطور يوليانوس.

- لا أستطع تصديق أن الرقابة الكنسية كانت جذرية لهذه الدرجة؟

- هذا هو الواقع للأسف. ويوضح هذا الباحث والأستاذ الجامعي الفرنسي "لويس روجييه" في كتابه "صراع الحضارة القديمة والمسيحية الأولى"(١٩٢٥) قائلاً: "يمكننا قياس كيف كانت الرقابة الكنسية جذرية، لا بحرقها كتاب بورفير المعنون "ضد المسيحيين"، الذي اختفى، وإنما حتى بإبادة الردود التي قام بها كل من "ميتوديوس الأولمبي" وأوسابيوس القيصري و"أبوللينير" من لاوديسيا و"فيلوستورج". ولم يبق سوى أربع مخطوطات من النقد الذي كتبه "مكاريوس ماجْنس"، الذي يضم بضعة استشهادات من بورفير. والمخطوطة التي اطلع عليها "فرانسوا دي لا تور"، في القرن السادس عشر اختفت فيما بين ١٥٥٢ و١٦٣٧. ومخطوطتان أخريان كان قد أشار إليهما "يانوس لاسكاريس" فيما بين ١٤٩١ و١٤٩٢، إحداهما في كوريليانو، والأخرى في دير مونت ساردو، لم يتمكن أحد من العثور عليها. وفي عام ١٨٨٧ سُمح للعالم الفرنسي "بلونديل" بنسخ مخطوطة مكاريوس، وكانت ملك أحد أمناء "المكتبة العامة في أثينا" ويدعى "أبوستوليدس"، ووجد أنها مبتورة الأجزاء، ثُم ما لبثت أن اختفت من

مكتبة أثينا "لأسباب لاهوتية" وفقاً للباحث هارناك".

- ولكن هناك بعض الكتابات من تلك الفترة، تتعارض تماماً مع الكنيسة، ومع ذلك لا تزال باقية إلى اليوم.

- هذا مـــن تلطف الله تعالى بنا حتى لا تضيع الحقيقة تماماً، فمنذ القرن الرابع عشـــر بدأت بوادر روح فكرية تشـــق طريقها رغم الظلمات والتعتيم. وكان الشـــاعر "بتـــرارك" (١٣٠٤-١٣٧٤) من أوائل من راح ينقب في المكتبات باحثاً عن المخطوطات في المراكز الثقافية لأوربا الغربية، وعند كل الأديرة ليجمع المعلومات، لدرجة أن أطلق عليه البعض لقب "أول صيادي المخطوطات". وكان أول ما عثر عليه مخطوطة للكاتب "تشيتشـــروني" في بلدة لييج الفرنســـية. وبدأت تظهر مخطوطات لأسماء تم دفنها منـــذ زمن بعيد، ومنها "تاريخ القياصرة"؛ وهي مجموعة من الأعمال التي تحكي قصة حياة الأباطرة الرومان منذ الإمبراطور "هدريان"(١١٧-١٣٨) حتى "ديوكليســـيان" في أواخر القـــرن الثالث الميلادي. وقد أدى ما أمكن العثور عليه من مخطوطات في تلك الفترة، إضافة إلى تطور آلة الطباعة منذ عام ١٤٤٥، إلى انبعاث ما يطلق عليه "عصر النهضة"، لتـــدب الحياة الفكرية والفنية والثقافية، وتبدأ مســـيرتها لإزاحة الظلمات التي فرضها الطغيان الكنســـي، اعتماداً على ما خلفته الحضارة الإسلامية من تقدم وإنجازات فكرية وعلمية وحضارية.

- وكيف كان رد المؤسسة الكنسية على ذلك؟

- لم تتحمل فكرة أن ينتشر العلم والبحث العلمي وإمكانية انكشاف أمرها وكل ما مارســـته من تعتيم على مر العصور، ففي عام ١٥٤٢ قام البابا "بولس الثالث" بإنشاء "المكتب المقدس"؛ أي "محاكم التفتيش الكنسية"[١] التي يقع على عاتقها محاربة الهرطقة

(١) على عكس ما يظن الكثيرون، فإن تلك المنظمة الخطيرة لم تحل، وإنما تغير اسمها وتحولت إلى العمل السري بقوة وبطش أكبر. وللمزيد من المعلومات حول التنظيم البابوي السري، الذي بات يعرف بـ"الكيان".

وكل الآراء المشـــكوك فيها من وجهة نظر الكنيسة. وامتد نفوذ محاكم التفتيش إلى كل ما امتدت إليه المســـيحية من بلدان. وفي عام ١٥٤٣ بدأت طباعة كتالوج "الإندكس"؛ أي قائمة الكتب التي يمنع الكرســـي الرسولي أتباعه من قراءتها. وبعد عامين، أي في ١٥٤٥، انعقـــد مجمع مدينة ترانت، الذي انتهى عام ١٥٦٣، ويعد الرد الكاثوليكي على ثورة الإصلاح البروتستانتية. ومن ضمن قراراته القمعية: "عدم السماح للأتباع بقراءة الكتاب المقدس إلا بمساعدة قس" ليؤكد على ترسيخ مفهوم المؤسسة الكنسية للدين.

فكر أبراهام هنيهة، ثم قال سارحاً:

- هل تعرف أنه على اختلاف الظروف، فإن ما تقوله عن المؤسســـة الكنسية يكاد ينطبق تماماً على المؤسسة الحاخامية.

- بالطبع، فالكنيســـة لا تعتبر نفسها صاحبة العهد الجديد فحسب، بل تؤكد أنها اســـتلمت العهد القديم أيضـــاً من اليهود الذين كانـــت كل مهمتهم هي الحفاظ عليه لحين ظهورها. وباعترافها بالأسفار اليهودية بكل ما فيها من الحذف والإضافة وإبادة النصوص والمخطوطات، فقد بدأت المؤسســـة الكنسية الرسمية مشوارها من النقطة نفسها التي انتهت إليها المؤسســـة الحاخامية. وأكبر مثال على ذلك هو قبولها لإبادة اسم الله.

هل يوجد اسم للخالق في الكتاب ؟!

نظر أبراهام باستغراب إلى إستس، محاولاً استيعاب معنى ما قاله عن فقدان اسم الرب، ثم سأله مستهجناً:

- ماذا تعني بذلك؟

- أعني ما قلت. فهل تستطيع أن تخبرني ما اسم الإله في الكتاب المقدس؟

- "إله"!(١)

أجاب أبراهام مستغرباً من طرح مثل هذا السؤال الذي يفترض أن تكون إجابته بدهية، فأدار إستس الموضوع إلى جانب آخر، كي يساعد محاوره على إدراك المغزى من وراء ذلك:

- حسناً، من هو "مارس"؟

- إله الحرب عند الرومان.

- هل لاحظت أنك استخدمت الكلمة نفسها؟!!! الكلمة نفسها التي أطلقتها اسماً للرب!

- كلا؛ فقد اصطلح على كتابة كلمة إله "god" بحرف كبير في أولها: "God" مهما كان موقعها في الجملة، للدلالة على الرب الخالق تحديداً.

- أعرف ذلك، ولكن هذا لا يجعل من هذه الكلمة اسماً للرب، بل تظل اسم جنس يستخدم في التعبير عن جنس الآلهة بشكل عام، كإله الهوى أو إله الحرب أو إله الحصاد... إلى آخر ذلك من تلك الأسماء. ثم أنت نفسك قلت "كتابة"، ولكنني سألتك شفوياً، وكذلك شفوياً أجبتني، وعندما أجبت فأنت بالتأكيد لم تتبع إجابتك بقول: "لقد عنيت حرفاً كبيراً في أول كلمة إله"، أليس كذلك؟ إذن فكيف تميز في اللفظ بين إله الكتاب وأي إله آخر؟!!! بل، على فرض أنك أجبتني كتابة، فإن اللغة الإنجليزية

(١) الكلمة التي قالها هي "God". فالحديث بينهما يدور باللغة الإنجليزية.

تســـمح لك باســـتخدام حرف كبير في أول كلمة إله، نظراً لوقوع هذه الكلمة في أول الجملة المكتوبة، مما يلغي أي تمييز بين الكلمة المقصود بها الرب، والكلمة المقصود بها مارس مثلاً. فكيف تفسر هذا الخلط بين الرب و"بقية الآلهة" المزعومة؟!!!

- هـــذا أمر لا مفر منه، وهـــو ينطبق على مختلف اللغـــات الأخرى، وليس على الإنجليزية فحسب.

- كلا؛ فهذا لا ينطبق على اللغات التي يســـتخدمها المسلمون؛ فاسم الرب عندهم هـــو "الله" وليس مجرد إله. ثم إنـــه لا يوجد أدنى مجال لأي نوع من الخلط، فأنت لا تستطيع قول: الله الهوى أو الله الحرب أو الله الحصاد، والعياذ بالله تعالى.

- هذا الموضوع لا يعنيني كثيراً؛ فـ"الله" هو إله خاص بالمسلمين[1].

- لا تغالط يا صديقي؛ فليس هناك إله للمســـيحيين وإله آخر للمسلمين، بل هنـــاك الله الذي لا إله إلا هو؛ رب العالمين جميعاً. والمســـيحيون الناطقون باللغة العربية يســـتخدمون لفظ الجلالة "الله" بكثـــرة[2]، حيث إنه مختص بالله الخالق

---

(١) عندما يستخدم الكتابيون من غير العرب لفظ الجلالة الله، فإنهم يعنون به فعلاً إله المسلمين فحسب.

(٢) أصبح لبعض المسيحيين رأي مخالف حالياً. ورغم شذوذ هذا الرأي، إلا أنني سآتي على ذكر منه تحرياً للأكاديمية العلمية، ولكي تكتمل الصورة أيضاً. يقول القمص زكريا بطرس: "وتسائل أولادنا من هو الله هذا؟ ومن أين أتى به المسلمون؟.. وإذا كان القارئ لا يعرف اللغة الأنجليزية ويريد أن يعرف من هو الله الذى يعبده العرب المسلمون؟ فليرجع إلى الكتب التى تتكلم عن العرب في الوثنية أو العرب ما قبل الإسلام وهى كتب مكتوبة باللغة العربية ويقرأ فيها عن الله وعن أصل الكعبة وعبادة الحجر الأسود وآساف ونائله ونحذر القراء أنه عند قراءة كتب العرب المسلمين يجب أن تكون القرائة بعين فاحصة ومميزه فقد أنزلق البعض حتى الهامة في خديعة البروباجاندا الأسلامية وكذبها والتى غيبت العقول حتى عقول المسلمين أنفسهم أما قارئ الغة الأنجليزية ومنهم أولادنا فقد قرأوا الكتاب التالى وتعجبوا كيف يصلون بإسم God = إله ويصلى آبائهم باسم الله = ALLAH وقد ناقش أولادنا موضوع أن الله إله القمر ويصلى به آباؤهم والذى ذكر في الكتاب وذلك مرتين في إجتماعات الخدام في أحدى كنائسنا ولم ترد كلمة الله في مخطوطة من المخطوطات أو في أى لغة من اللغات القديمة". عن مقالة "الله ليس هو اله المسيحية او اليهودية" - بقلم عزت اندراوس. على موقع موسوعة تاريخ أقباط مصر http://www.coptichistory.org، وقد نقلته حرفياً دون تصرف، ولا حتى من باب تصحيح الأخطاء اللغوية.

فحســـب، وهذا يخرجهم من مأزق التجديف على الـــذات الإلهية، والخلط بينها وبـــين الآلهة الأخرى كحال الناطقين ببقية اللغات، ولو تناولت أي نســـخة عربية من الكتاب المقدس لوجدت أن كلمة "الله" قد حلت فيها محل أغلب الكلمات التي اســـتخدمت في نسخ اللغات الأخرى مثل كلمة "الرب" أو"رب الجنود" أو "الإله" أو "الآلهـــة"، أو غيرها من بقية الكلمات التي يمكن أن تجمع وتؤنث، تطلق على غير الله سبحانه وتعالى.

- قـــد يكون هذا من قبيـــل الترجمة التوفيقية؛ فبالتأكيد لا يوجد أي ســـفر من مختلف أســـفار الكتاب قد كتب باللغة العربية. والنســـخ العربية من الكتاب المقدس هي مجرد ترجمة متأخرة عن النسخ الأصلية التي كتبت بالعبرية والآرامية واليونانية واللاتينيـــة، وهذه اللغات لا تحوي كلمة "الله" مطلقاً، ومن ثم فإن المســـيحيين العرب الذين بدلوا أســـماء الرب الأخرى إلى "الله"، قد تجاوزوا الحدود التي ينبغي مراعاتها عند الترجمة الحرفية الدقيقة، تأثراً بالاسم الشائع عند المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم.

- أنت تعرف تماماً أن تلك التي سميتها بـ"النسخ الأصلية" ليست إلا نقولاً متناقضة عـــن أصول مفقودة. وتعرف أيضاً أن كثيراً مـــن نصوصها قد فقد أو حذف أو عدل أو أضيف عليه، ولكن الذي لا تعرفه هو أن اســـم الله قد فقد ضمن ما فقد من تلك النسخ.

- ماذا تعني؟

- أعني أن الموجود حالياً في الكتاب المقدس هو صفات وأسماء جنس لم تكن حكراً على الرب وحده، بينما لا وجود لاسم عَلَم خاص بالرب ذاته.

- إذا كنت تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، فكذلك الحال أيضاً مع كلمة الله؛ فهي تترجم إلى الإنجليزية بكلمة "God".

- أنت بهذا تناقض نفسك؛ فقد قلت قبل قليل إن المسيحيين العرب قد أخطؤوا بترجمة "God" إلى "الله" إله المسلمين، بل تغالط نفسك أيضاً عندما تقول إن اسم علم في لغة ما يترجم إلى لغة أخرى. فالله هو اسم الرب الخالق، وهو اسم علم، وليس اسم جنس كي يترجم معناه بكلمات مختلفة في اللغات المختلفة، كما يترجم "جود" إلى "إله" في العربية، وإلى "بوخ" في الروسية، وإلى "ثيوس" في الإغريقية. فالله هو Allah بكل اللغات، تختلف فقط في كتابة الأحرف التي تعطي الصوت نفسه حسب اللهجة. وإذا طالعت ترجمة معاني القرآن في أي لغة من اللغات، فمن المفترض أن تجد لفظ الجلالة "الله" على حاله دون ترجمة لأنه اسم علم.

ثم أخرج كتاب ترجمة معاني القرآن إلى الإنجليزية من حقيبته وفتح صفحة لا على التعين، قائلاً:

- انظر هنا مثلاً: Lo! I, even I, am Allah. There is no God save Me. serve Me and establish worship for My remembrance ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، ولله المثل الأعلى وليس كمثله شيء؛ ولكنني مضطر إلى ضرب مثل لك كي تفهم ما أعني: لي صديق عربي اسمه "مصباح"، ويعني في اللغة الإنجليزية (Lamp)، فهل سأقدمه لك كـ: "Mespah" أم كـ: "Lamp"؟!!!

- بل باسمه (Mespah) طبعاً، دون أن تترجم معناه.

- بالطبع، وسأناديه مصباح وليس "لامب"، كما سأنادي زوجته "صباح"(Sapah) وليس "مورنينج" (Morning) الذي هو معنى اسمها بالإنجليزية.

- حتى لو كان "الله" هو اسم علم للرب عندكم، فهذا لا يعني أنه اسم علم للرب في كل اللغات.

- بـــل يعني ذلك تماماً؛ فكما أن الله هو اســـم رب العالمـــين في القرآن الذي نزل بالعربية، فهو أيضاً كان اسمه في التوراة التي نزلت بالعبرية، وكان كذلك في الإنجيل الذي نزل بالآرامية الســـريانية، وهو اسمه دائماً في مختلف الكتب السماوية بمختلف اللغات التي نزلت بها. الفرق هو أن اسم الله قد فقد من تلك الكتب منذ فترة بعيدة، لكنه بقي في القرآن العربي فقط.

- هل تصدق هذا الكلام فعلاً؟!!!

- وهل تصدق أنت أن الكتاب المقدس يخلو من أي اسم يختص بالرب الخالق دون غيره؟!!!

- وماذا عن اسم الرب الأعظم؟

- تعني يهوه؟

- أجل.

- لقـــد أثبتت الحفريات أن يهوه هو مجرد إله وثنـــي، كان يعبد قديماً مع زوجته "إيشاح"[1].

- ما هذا الهراء والتجديف؟!!!

قـــال أبراهام بغضب بالغ، عازماً على إنهاء النقاش عند ذلك الحد. ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه، محاولاً التحرر من أوهامه السابقة بشأن اسم يهوه، والتي تكشف له زيف بعضها[2]، ثم سأله بهدوء:

- أعني ما مصدر هذه المعلومة؟

---

(١) يقول د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته الشهيرة في المجلد الخامس: "يبدو أن يهوه كان رب الصحراء. عُرف أول ما عُرف في شبه جزيرة سيناء في الجزء المتاخم لشمال الجزيرة العربية، وفي أماكن متاخمة لهذه المنطقة".

(٢) راجع ما جاء عن يهوه في رواية الهروب إلى العاصفة، وأيضاً: رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- هـــذا مـــا صرح به المؤرخ الإســـرائيلي "هرتســـوغ" جازماً حيث قـــال: "إن في موقعي"قنطرة أجرود"، في الجنوب الغربي لمرتفعات النقب و"خربة الكوم" عند ســـفح جبـــال يهودا، تم العثور على كتابات عبرانية تذكر"يهوه وايشـــراحة" (يهوه شـــومرون وايشـــراح)، مما يعني إصرار كُتَّاب التوراة على عدم الفصل ما بين الإله يهوه وزوجته إيشـــاح، بحيث كانت الصلوات تردد الاســـمين معاً، وهذا كاف بحد ذاته لتأكيد عدم إمكان اعتماد وحدانية الآلهة في الدين الرســـمي لمملكة إســـرائيل المزعومة"[1]، ومع التحفظ على استنتاجات هرتسوغ الفاسدة، وتلميحاته الإلحادية، إلا أن ما اعتمد عليه من الاكتشافات الأثرية هو حقيقي تماماً، وله ما يؤكده في الكتاب المقدس الحالي، إذ إن اسم يهوه طارئ مستحدث فيها.

- كيف ذلك؟

- تأمل معي. فإن أول مرة ظهر فيها اسم "يهوه" في الكتاب كان في (خروج ٣: ١٥) عندما تحدث لموسى عليه السلام. ولم يرد ذكره في كل سفر التكوين الذي تحدث عن الفترة من آدم إلى يوســـف مروراً بنوح وإبراهيم عليهم جميعاً الصلاة والســـلام، فهل تعمَّدَ الرب ذلك ليضل الناس كل تلك الآلاف من الســـنين، ويعبد كل إنسان الإله الذي يرغب في عبادته تحت أي اسم؟ أم تمَّ حذفه عن عمد؟

- أنت لا تعرف علامَ تتكلم، فقد ذكر اسم الرب الأعظم في أول سفر من التوراة.

- لقد جاء في تلك الآية: "فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْـــمَ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ "يَهْوَهْ يِرْأَهْ". حَتَّى إِنَّهُ يُقَـــالُ الْيَوْمَ: "فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى" (التكوين ٢٢: ١٤). وكما يظهر جلياً فإن هذا اســـم لمكان ما، وليس للرب.

---

(١) نشر هذا في عدة صحف ومجلات، وصيغة الخبر أعلاه منقولة من جريدة الاتحاد الإماراتية الصادرة بتاريخ (الأربعاء ٤/ ٣/ ٢٠٠٠) على شبكة الإنترنت تحت عنوان "المؤرخ الإسرائيلي هرتسوغ يفضح الأكاذيب التوراتية، والآثار التي اكتشفها اليهود تنفي قيام دولة إسرائيل التاريخية".

- وماذا عن الشرح الذي يدل على عكس ذلك؟

- لاحظ أنك أنت نفسك سميته شرحاً. وهذا الشرح أو التفسير هو بالتأكيد إسقاط من محرري العهد القديم لمصُطلَحات مرحلة لاحقة على مرحلة سابقة.

- من أين جاءتك كل هذه الثقة لتجزم بذلك؟

- من التوراة الحالية نفسها. حيث تقول على لسان الرب: "وَأَنَا ظَهَرْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي الإِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا بِاسْمِي "يَهْوَهْ" فَلَمْ أُعْرَفْ عِنْدَهُمْ." (خروج ٦: ٣).

صمت أبراهام ولم يدرِ بمَ يجيب. فتابع إستس قائلاً:

- إذا كان يهوه هو اسم الله فعلاً، فهل تستطيع أن تخبرني لماذا أخفى الله هذه الحقيقة عن أخص أنبيائه (بمن فيهم آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف) كما جاء في النص السابق؟!!! هل تستطيع أن تخبرني لماذا صمت الرب عن تكرار اسمه في الكتاب بعد ذلك حتى جاء زمن داوود عليه السلام فذكره في المزامير(المزمور ٨٣: ١٨)؟!!! أنا أعلم أن كلمة "يهوه" ذكرت ملحقة في سفر (الخروج ١٧: ١٥) ضمن اسم المذبح الذي بناه موسى وهو "يهوه منسّى"، وفي (القضاة ٦: ٢٤) عندما جاء ذكر اسم مذبح آخر بناه "جدعون" وأسماه "يهوه شلوم"، وفي (حزقيال ٤٨: ٣٥) حيث ذكر أن مدينة قد أطلقوا عليها "يهوه شمّه"، ولكن إذا تم استثناء هذه المواضع، لأنها أسماء أماكن، فيكون اسم الرب "يهوه" قد ذكر في الكتاب المقدس كله ١١ مرة فقط. ولم يُذكر مرة واحدة بهذا الاسم في العهد الجديد!!فلماذا خلت كل أسفار الكتاب المقدس من اسم يهوه، وذكر في ستة أسفار فحسب[١]؟

- ذلك لأنه اسم الرب الأعظم المخفي.

---

(١) سفر الخروج والمزامير وإشعياء وأرمياء وهوشع وعاموس.

- ولماذا يخفي الله اســـمه الأعظم؟ وإذا قرر إخفاءه فعلاً، فلماذا كشفه ١١ مرة؟! وإذا قرر إظهاره، فلماذا كشـــفه لبعض الأنبياء ولم يكشـــفه للبعض الآخر؟!! وأولئك الذين لم يكشـــف اسمه لهم، ألم يكونوا على اطلاع بأسفار الأنبياء من قبلهم فيعرفوا اسم الله الأعظم ويدعوه به؟!!!

- إن ذلك الاسم قد تكرر نحو٧٠٠٠ مرة في الأسفار العبرية الأصلية. لكنَّ أغلبية الكتب المقدسة لا تبيِّن هذا الاسم بل تضع مكانه أدوناي[1] أو الرب.

- إذا كان الله نفسه قد كشف اسمه بهذا السخاء وعن طيب خاطر، فهو لم يخفه قط، إذن بأي حق يخفيه أحبار اليهود من تلقاء أنفسهم ويحرمون النطق به؟!!!

- لأن الرب يُعاقب بشدة من يحلف باسمه كاذباً: "لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلاً لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبَرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً" (خروج ٢٠: ٧)، وتكررت في (تثنية ٥: ١١).

- ولكن إذا اختفى اســـم الرب فبماذا سيحلف الصادق؟ وكيف سيصلي المؤمنون؟! وباسم من ســـيقدمون نذورهم؟!! والأهم من ذلك كله هو ما معنى أوامر الله لأنبيائه أن يعلنوا اســـمه لشـــعبه ويدعوه به؟!!! فقد جاء في التوراة: "وَتَقُولُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: احْمَدُوا الرَّبَّ. ادْعُوا بِاسْـــمِهِ. عَرِّفُوا بَيْنَ الشُّعُوبِ بِأَفْعَالِهِ. ذَكِّرُوا بِأَنَّ اسْمَهُ قَدْ تَعَالَى" (إشعياء ١٢: ٤). ثم هل تعلم أن معنى اسم "يهوه" سر مجهول حتى اليوم؟ وأنه أضيف بعد موسى عليه السلام بزمن طويل؟

- كيف ذلك؟

- عندما ظهر الاســـم كان اليهود يكتبونه بالأحرف: (ي هـ وهـ) (J. H. V. H) دون أحرف العلة أو التشـــكيل لخلـــو العبرية منها آنـــذاك. وحينما ابتكرت علامات ضبط الحروف العبرية في القرن الســـابع للميـــلاد، ركبوا الكلمة "يهوه" بأحرف العلة (التشكيل) (JeHovaH)، وينطق Jahweh. فكيف عرفوا أن ذلك بالضبط هو لفظ

---

(١) أدوناي كلمة فينيقية سريانية بمعنى السيد أو الرب، ومنها جاء اسم الإله "أدونيس" الفينيقي-اليوناني.

الاســـم وهم المحرم عليهم نطقه كل هذه المئات بل الآلاف من السنين؟!!! ثم هل تعرف ما الاسم الذي طلب الله تعالى من موسى عليه السلام أن يخبر به بني إسرائيل؟

- ما هو؟

- عندما سأل موســـى الرب عن اسمه قائلاً: "هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهُ آبَائِكُمْ أَرْسَـــلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْـــمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟» فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ»[1](خروج ٣: ١٣-١٤). ولكن الله أسر له باسمه قبل ذلك في (خروج ٦: ٢-٣)، فهل نسي موسى اسم يهوه حتى يسأله عن اسمه ثانية؟!!! ولماذا غير الله اسمه وجعله أهيه الذي أهيه أو هو من هو؟ ما الذي دعاه إلى تغيير اسمه؟!!!

- هكـــذا يختلف الله عن ســـائر الآلهـــة... وهكذا يرفض الله أن يُعرَف باســـمه الشخصي[2].

- إن صح هذا فهو اعتراف بعدم معرفة بني إســـرائيل لاســـم الله. ثم كيف تفسر تصريحه بالاســـم مجدداً وطلبه من موســـى أن يخبر به بني إسرائيل في الآية التالية تماماً؟!!!: "وَقَالَ: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْـــرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَـــلَنِي إِلَيْكُمْ. وَقَالَ اللهُ أيضاً لِمُوسَى: هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلَهُ آبَائِكُمْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هَذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهَذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ"(خروج ٣: ١٥).

صمت أبراهام مجدداً، فقد كان إســـتس محقاً لدرجة تبعث على الحيرة. ولما طال صمته دون رد، تابع إستس قائلاً:

- هل تعرف ما تقوله "دائرة المعارف الكتابية عن يهوه"؟ يهوه: وهذا هو اســـم العلم الشخصي لإله إســـرائيل كما كان "كموش" إله موآب، و"داجون" إله الفلسطينيين. ولا نعرف المعنى الأصلي ولا مصدر اشتقاق الكلمة، وتظهر النظريات الحديثة المتنوعة أنه

---

(١) في ترجمة الآباء اليسوعيين: "أنا هو مَن هو"، وفي الترجمة العربية المشتركة: "أنا هو الذي هو".

(٢) جاء هذا التعليق حرفياً في حاشية الترجمة العربية المشتركة.

من ناحية تاريخ اللفظ وأصله فإنه من الممكن وجود جملة اشتقاقات، ولكن لأن المعاني المرتبطة بأي منها هي دخيلة على الكلمة ومفروضة عليها، فهي لا تضيف إلى معرفتنا شيئاً. والعبرانيون أنفسهم ربطوا الكلمة مع كلمة "هياه"(حياة)، أو "يكون"، ففي الخروج (٣: ١٤) يعلن الرب بأنه "أهيه"، وهو صيغة مختصرة لـ"إهيه أشـير إهيه"، المترجمة: "أهية الذي أهيه" أي "أنا هو الذي أنا هو"، ويظن أن هذا يعني "الوجود الذاتي" للتعبير عـن الله كالمطلق، ومع هذا فإن مثل هذه الفكرة يمكـن أن تكون تجريداً ميتافيزيقياً مستحيلاً ليس فقط بالنسبة إلى العصر الذي ظهر فيه الاسم ولكنه أيضاً غريب عن العقـل العبراني في أي وقت. والترجمة الدقيقة للفعل الناقص "إهيه" هي "أكون الذي أكون"، وهو مصطلح سـام معناه "سأكون كل ما هو لازم حسبما يقتضي الحال"، وهي فكرة شـائعة في العهد القديم (انظر مز ٢٣). وهكذا فإنهـم يعبدون إلهاً ليس هذا اسمه، والكلمة المستخدمة للدلالة على هذا الإله لا يُعرف معناها، والنظريات الحديثة التـي يفترضونها غير مرضية أو مقبولة علمياً! وإلى اليوم تخرج نظريات حديثة على حد قول دائرة المعارف الكتابية، تحاول تعرف اسـم الله!! فإلى من يتوجهون بالعبادة ريثما يتوصلون إلى الاسـم المفقود؟!!! وماذا تفعل الروح القدس التي يدعون أنها تحل على كل قسـيس أو أسقف أو بابا أو غيرهم، وأنها هي الهادية المرشدة في مفهومهم؟ كيف لم تخبرهم طوال هذا الزمن باسم الإله الذي يعبدونه؟!!!

- ولكننا نعرف صفاته جيداً، فهو الرب العلي العادل المتسلط القوي.

- ألا يوجد من مخلوقاته من يمكن أن يوصف بذلك، فذلك هو الرئيس "المتسلط"، وآخـر هو المصارع "القوي"، ذاك هو القاضي "العادل". بل إن "علي" هو اسـم يطلقه العرب على أبنائهم، و"العلي" هو اسـم عائلة عندهم، وربما تكون قد سـمعت بفنان الكاريكاتير المشـهور ناجي العلي، فهل يكفي أن نعـرف صفات الله فقط؟!!! ثم ماذا

سيكون حالك عندما تعرف صفة من الصفات ولا تعرف صاحبها؟ ألا يقود هذا إلى الضلال؟ تخيل أن الناس تتكلم على محام "بارع"، وكل ما يعرفونه عنه أن هناك محامياً بارعاً، ولا يعرفون اسمه. أليس من السهل أن يخطئ إنسان ويذهب ويوكل محامياً آخر بقضيته إذا لم يعرف اسمه، خاصة إذا اشتركا في نفس الصفة (البراعة)؟ أليس من السهل أن ينتحل أي محام آخر صيته وسمعته بغير حق؟ وكيف يتمايز المحامون إن كان هناك أكثر من شخص منهم موصوف بالبراعة؟ ألا تضيع الحقيقة وسط هذه الترهات؟

وفجأة لمعت عينا أبراهام وقال متحدياً:

- هل نسيت وجود أسماء أخرى للرب في الكتاب مثل "إيلوي ألوه" (אלוהי)، و"إلوهيم"(אלהים).

- تأمل معي ما تقوله "دائرة المعارف الكتابية" عن ذلك: "أسماء الله: كانت كل أسماء الله أصلاً تدل على صفاته، ولكن اشتقاقات الكثير منها -ومن ثم معانيها الأصلية- قد فقدت، فكان لابد من البحث عن معان جديدة لها(!) ١- الأسماء العامة: من أقدم أسماء الله المعروفة للجنس البشري وأكثرها انتشاراً اسم "إيل" مع مشتقاته "إيليم" "إلوهيم"، "إلوي"، وهو مصطلح عام مثل "ثيوس" و"ديوس" في اليونانية. ويطلق على كل من يشغل مرتبة الألوهية، بل قد يدل على مركز من التوقير والسلطة بين الناس، وقد كان موسى إلهاً "إلوهيم" لفرعون (خر ٧: ١)، ولهارون (خر ٤: ١٦- قارن قض ٥: ٨، ١ صم ٢: ٢٥، خر ٢١: ٥ و٦، ٢٢: ٧ وما بعده، مز ٥٨: ١١، ٨٢: ١)". وتواصل دائرة المعارف الكتابية قائلة: إنه -هذا الاسم- "مصطلح عام يعبر عن العظمة والنفوذ، واستخدم كاسم علم لإله إسرائيل في الفترة المتأخرة من فترات التوحيد عندما اعتبر اسم العلم القديم "ياه" أو "يهوه" أقدس من أن يتردد على الشفاه. والغموض الكامل يلف معنى الأصل "إيل"، وحقيقة العلاقة بينه وبين "إلوهيم" و"إلوي". "إن دائرة المعارف

الكتابيـــة صريحة في هذا الأمر، إنها تقول إن اســـمه قد فقد!! وإن إيل هو مصطلح عام، والغموض يلـــف علاقته ببقية المصطلحات الأخرى التي يفترض أنها اشـــتقاق منه!!! فهل تصدق أن الكتاب الذي تقدسه لا يوجد به حالياً أقدس شيء في الوجود؛ وهو اســـم الله؟!!! مع أنه قد تكررت فيه نفســـه كلمة "شيطان" ٧٠ مرة، و"إبليس" ٣١ مرة، و"بعلزبول" ٧ مرات!!! وأنهـــا كلها في العهد الجديد منه فقط!!! هذا غير باقي الأسماء التي اشتهر بها الشيطان كـ"لوسفير" و"زهرة الصبح" و"ملاك النور"، وغيرها من الأسماء. فهل الشيطان أهم من الرب لهذه الدرجة؟!!! أستغفر الله العظيم.

- ربما كان ذلك لأن الكتاب أراد أن يشدد على تنفيرنا من الشيطان وتحذيرنا من ألاعيبه، وينهانا بحزم عن اتباعه دون الرب.

- إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فما اســـم الرب الذي يجـــب أن نتبعه بدلاً عن اتباع الشيطان؟!!! وما الحكمة من تعدد أسماء إبليس إلى هذه الدرجة، مع أنه من المتعارف عليه أن كثرة الأســـماء تدل على التشريف. والشيطان في العهد الجديد يسمى أيضاً بـ"أبدون" أو "أبوليون" (رؤ ٩: ١١)؛ ومعناهما "المهلك". كما يطلق عليه "المشـــتكي على الإخـــوة" (رؤ ١٢: ١٠)، و"الخصم" (١ بط ٥: ١٨)، و"بعلزبول" (مت ١٢: ٢٤)، و"بليعال" (٢ كـــو ٦: ١٥)، و"المضل لـــكل العالم" (رؤ ١٢: ٩)، و"التنين العظيم" (رؤ ١٢: ٩)، و"إله هـــذا الدهر" (٢ كـــو ٤: ٤)، و"الكذاب" (يو ٨: ٤٤)، و"رئيس ســـلطان الهواء" (أف ٢: ٢)، و"القتَّال"(يـــو ٨: ٤٤)، و"رئيس هذا العالم" (يو ١٢: ٣١، ١٤: ٣، ١٦: ١١)، و"الحية القديمة" (رؤ ١٢: ٩)، و"المجرب" (مت ٤: ٣، ١ تس ٣: ٥). أي له ٢١ اسماً في الكتاب. وبعض هذه الأسماء جميل، وبعضها الآخر يدل على التعظيم والملائكية، وبعضها على الألوهية، فكيف يقصد من ذلك تنفيرنا منه؟!!! وهل كان كل هذا التشـــريف لتحذيرنا منـــه، ولينهانا الرب عن اتباعه؟!!! ما هذا المنطق؟ أليس من المبكي أن يحتفظ الكتاب بكل هذه الأسماء للشيطان، ولا يحفظ اسم إلهه؟

- إلوهيم بالذات تعني الرب، لأن الميم صيغة تعظيم، والتعظيم للرب الخالق وحده.

- الميم في العبرية ليست مختصة للتعظيم فحسب، بل للتفخيم للأسماء المفرد، وللجمع أيضاً. اسمع ما تقول دائرة المعارف الكتابية عن إلوهيم: "وأكثر الأشكال المستخدمة عند كتاب العهد القديم هو الاسم الجمع "إلوهيم"، ولكنهم يستخدمونه بصورة منتظمة مع الأفعال والصفات المفردة للدلالة على "مفرد"، وقد قدمت تفسيرات عديدة لاستخدام صيغة الجمع للدلالة على مفرد، مثل أنها تعبر عن الكمال والتعدد في الطبيعة الإلهية، أو أنها جمع جلالة أو عظمة كما يخاطب الملوك، أو أنها إشارة مبكرة للثالوث، ونجد تعبيرات أخرى من هذا النوع (تك ١: ٢٦، ٣: ٢٢، ١ مل ٢٢: ١٩ و٢٠، إش ٦: ٨)، وقد تكون هذه النظريات أبرع من أن تخطر على بال العقلية العبرية في ذلك الزمن المبكر، وهناك من يظن أنها آثار لغوية باقية من مرحلة سابقة من مراحل الفكر هي مرحلة تعدد الآلهة، وفي العهد القديم تشير فقط إلى الفكرة العامة عن الألوهية". هل سمعت هذا؟! ثم، ما معنى أن ذلك أبرع من أن يخطر على بال العقلية العبرية في ذلك الزمن؟ أليس في هذا اعتراف واضح بأن العقلية البشرية هي المسؤولة عن صياغة الكتاب المقدس وليس الله؟!!!

- هذه ملاحظة جديرة بالتأمل حقاً. وربما كانت العقلية اليهودية هي المسؤولة فعلاً عن كثير من التعديلات الطارئة على الكتاب.

- واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء عيسى عليه السلام ونطق باسم الله تعالى، وخاطبَ الله قائلاً: "أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ....٢٦ وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ" (يوحنا ١٧: ٦، ٢٦)، وفي الترجمة المشتركة: (أظهرتُ لهم اسمك، وسأظهره لهم) والإظهار لا يتم إلا من بعد الإخفاء. والتعريف بالشيء يكون من بعد جهله.

- وهذه أيضاً ملاحظة جديرة بالتأمل. ولكن وإن سلمنا بفقدان اسم الرب، فإن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ذلك الاسم المفقود كان ALLAH وليس اسماً آخر؟ فبأي حق تجزم بذلك؟!!!

- لأن الله تعالى يأبى أن تضيع الحقيقة تماماً، وقد أبقى آثاراً لها في الكتاب، يستطيع أن يجدها كل من يبحث عن الحقيقة بتجرد. وها هو ذا القسيس "سكوفيلد" بروفيسور علم اللاهوت، ومعه ثمانية استشاريين، جميعهم من أساتذة علم اللاهوت، قد قاموا بتهجئة اللفظ العبري"الوي إلوه" (אלהי) المنطوق بالآرامية(إلاهELLAH)[١] إلى أن النطق الصحيح هو"ALAH"[٢]، كما قام غيره[٣] بتهجئة اللفظ الآرامي (إيلوي illay) بنطقه (إلهي il-lah'ee)[٤]، وما ينطبق على إلوه أو إلوي (אלהי) ينطبق على إلوهيم (אלהים) إذ إن الفرق بينهما هو ميم التعظيم كما أشرت بنفسك قبل قليل[٥].

---

(١) العبرية الحديثة تميل دائماً إلى الضم بخلاف العربية والآرامية. فكلمة (إله) مفتوحة في العربية والآرامية، لكنها تضم وتُنطق (إلوه) في العبرية الحديثة. وسيمر معنى مثال آخر في الفصل (الموقف) التالي عن عيسى وعيسو.

(٢) مرجع سكوفيلد للكتاب المقدس. ويقول العلامة "أحمد ديدات" بعد ذكر ذلك: "انظر ص٣٣ لمقدمة الكتاب وكلمة ALAH واضحة ومحفوظة، ولقد قمت بذكر ذلك في العديد من محاضراتي العامة. وصدقوني بأن الطبعة التي تلتها من مرجع سكوفيلد للكتاب المقدس حين أعيد طبعها كانت مطابقة تماماً للطبعة السابقة، لكنهم بشطارة وخفة يد استطاعوا أن يتخلصوا من كلمة "ALAH" فلم يبق لها أثر. وما أصعب متابعة احتيالهم وخفة أيديهم." عن كتاب "هل الكتاب المقدس كلام الله" أحمد ديدات، ترجمة محمد مختار ونورة أحمد النومان، صفحة ٢٠٥. كما أنصح بالاطلاع على كتاب آخر للداعية أحمد ديدات وهو "الله في اليهودية والمسيحية والإسلام. ما هو اسمه؟".

(٣) "العميد مهندس جمال الدين شرقاوي"، في كتابه "معالم أساسية ضاعت من المسيحية".

(٤) ستجدون اللفظ il-lah'ee كتب تحت رقم ٥٩٤٣ في موقع http://www.blueletterbible.org/tmp-d...74262-461.html وقاموا بترجمتها إلى الإنجليزية طبعة الملك جيمس إلى (The Most High God) أي الرب الأعلى. وفي هذا الموقع أعلاه تجد عدة مواضع وترجمات مختلفة لكلمة "الله".

(٥) أو قد يكون أصله "اللهم" والله أعلم.

- هل تعرف العبرية؟

- كلا بالطبع.

- فكيف توصلت إلى كل ذلك؟

- عن طريق الإنترنـــت. ففي موقع http://eld٣wah.com مثلاً وتحت عنوان "الكتاب المقدس بالإنجليزية والعبرية" (A Hebrew - English Bible) تجد العهد القديم باللغة العبرية ومعه مقابله باللغة الإنجليزية مع تسجيلات صوتية باللغة العبرية. وبالاســـتعانة ببرنامج مدقق المخطوطات (Interlinear Scripture Analyzer) سوف تحصل على كل ما تريده، وإن لم تكن ملماً باللغة العبرية.

- هذا مثير للدهشة فعلاً.

- قد تزداد دهشـــتك عندما تعرف بقية الأوهام الأخرى التي قد تتكشف للمتأمل الواعي لذلـــك الكم الهائل من المعلومات المتوافرة على الشـــبكة العنكبوتية والطرائق المتعددة لتدقيقها، وربط الخيوط المتناثرة فيها وتحليلها.

- مثل ماذا؟

- مثل الاسم الحقيقي للمسيح عليه السلام.

تسميات مستحدثة

ظن أبراهام أنه قد فهم ما يهدف إليه إستس من وراء حديثه عن الاسم الحقيقي للمسيح، فقال قاطعاً الطريق عليه:

- لا تنس أن قرآنكم نفسه قد سمى يسوع بالمسيح، ولم ينسب هذا اللقب إلى محمد قط، لذا فإن الموضوع، بالنسبة إليك كمسلم، ينبغي أن يكون محسوماً تماماً، أليس كذلك؟

- يبدو أنك قد أسأت فهمي، فأنا لا أنكر أن عيسى عليه السلام هو المسيح، بل أنكر تسميته بـ"جيزوس Jesus" التي تحولت إلى التسمية الخاطئة "يسوع" في اللغات السامية.

- وما الاسم الحقيقي باعتقادك؟

- "عيسى" بالطبع.

- إلى وقت قليل مضى كنت تتحدث بمنطقية وأكاديمية علمية لا اعتراض عليهما، ولكن يبدو أن غرورك بما توصلت إليه قد فتح شهيتك لاكتشاف المزيد دون الالتزام بالقواعد السابقة. فأنا قد عشت في أورشليم لفترة من الزمن، وهناك سمعت المسيحيين العرب أنفسهم وهم يلفظون اسمه "يسوع" أيضاً. وكون قرآنك قد سماه "عيسى" بدافع الخلط أو الجهل أو لأي سبب آخر، فإن ذلك لا يلزمني بتاتاً بأن أتبع طريقته الخاصة في التعريب، وأن أعتبر الاسم القرآني الحديث نسبياً، أصح من الاسم الإنجيلي الأقرب إلى زمن المسيح.

- سترى معي بناء على العلم والمنطق أنه لا يوجد أي خطأ أو خلط باسم "عيسى". كما ستـرى أيضاً أن عيسى ليس "تعريباً" ليسوع، بل يسوع هو في واقع الأمر "سرينة" (من اللغة السريانية) للفظ اليوناني الذي كان بالأصل تأبيناً (من اللغة اليونانية) للفظ الآرامي السرياني الأصل.

- على مهلك، فلم أعد قادراً على اللحاق بك.

- حسـناً، أنت تتفق معي ولا ريب أن الاسـم اليوناني "Ιησους"[1]، أو اللاتيني "Jesus"، قد جاءا من الاسـم الأصلي باللغة العبرية، واللغة الآرامية السريانية، ولكن كيف كان ذلك الاسـم بتلك اللغات التي استخدمها المسيح عليه السلام ومعاصروه؟!!! للأسـف فإن نسخ الأصل العبري أو الآرامي للإنجيل قد فقدت تماماً، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نرى بوضوح أن اللفظ اليوناني المأخوذ عنه كان "عيسو إيسو eso" والذي أصبح "esos إيسوس يسـوس يزوس" بعد إضافة اللاحقة لـ "Sس" كما جرت العادة بالنسـبة إلى الأسماء المفردة المذكرة. وهذا الاسـم في اليونانية له ثلاث صيغ طبقاً لقواعد اللغة اليونانية، وموقع الاسـم في الجملة من الإعراب، حيث تُضاف إلى آخره حروف يونانية زائدة على الاسـم تبين حالته الإعرابية. فصيغة الفاعل هي إيسـوس Ιησους، وصيغة المفعول هي إيسـون Ιησουν، وصيغـة المنادى أو المضاف إليه هي إيسـوي Ιησου. وإلى هنا فلا تحريف في الموضوع، فالأسماء والألفاظ عندما تنتقل مـن لغاتها إلى لغات أخرى فليس بالضرورة أن تبقـى الكلمة كما هي تماماً، بل يعاد صرفها بما يلائم اللسـان الذي ترجمت إليه، خاصة أن الاسـم هنا يعود إلى أصله ويُنطق (عيسو أو عيسى) بعد حذف لاحقات الإعراب والتذكير والتصريف. إن تلاميذ المسيح انتشروا في بلاد الروم بعد انتهاء بعثة المسيح، وبنوا على الإيمان باسمه أساس

(١) يجدر التنبيه إلى أن حرف السيجما (s) له ثلاثة أشكال مختلفة في اللغة اليونانية: فهو يُكتب (Σ) إذا كان في أول الكلمة، ويُكتب (σ) إذا كان في وسط الكلمة، ويُكتب (ς) إذا كان في آخر الكلمة.

الديانة النصرانية كلها. وراحوا يستخدمون اسمه الشريف هذا في عمل الكرامات (المعجزات)، وفي تعميد الداخلين إلى الديانة النصرانية. ويذكر لنا يوحنا قانون الإيمان وعبارته الشهيرة (الإيمان باسم المسيح)، والتي ذكرها خمس مرات في إنجيله، وفي رسالته الأولى نذكر منها (رسالته الأولى ٣: ٢٣) "ووصيته هي أن تؤمنوا باسم ابنه يسوع (Ιησου في النص اليوناني) المسيح". والاسم المذكور هنا طبقاً لقواعد اللغة اليونانية هو (Ιησου) أي إيسوي (صيغة المضاف) الذي يحوي أقل قدر من الزيادات. بل كان يتم التعميد (أعمال ٢: ٣٨، ٨: ١٦) وشفاء المرضى (أعمال ٤: ٧-١٠) وشكر الله (أفسس ٥: ٢٠) باسم يسوع (Ιησου). فهذا هو(عيسى) الاسم الذي عرفه سمعان ويوحنا وباقي التلاميذ، وهو الاسم الذي تعبد بذكره التلاميذ وتركه الأتباع.

- ومن أين إذن جاء حرف الـ "جاه أو يوت J"؟!!

- هنا تبدأ المشاكل. فلما صار يلفظ أول الاسم بحرف الياء (حرف(η))، فإنه سرعان ما تحول إلى "jesus جيزوس" بعد إضافة حرف الجاه في أول اسمه كعادتهم في الأسماء التي يبدأ لفظها بالياء مثل: "يعقوب... جاكوب Jaccop"، "يوحنا يوحن جون John"، "يوسف جوزيف Jossef"، وغيرها من الأسماء على نظام "j walking"[1].

- حسناً، خلاصة القول أنك تذهب إلى أن أصل اسم المسيح في العبرية والآرامية السريانية هو "عيسو" وليس "يوشع"؟

- تماماً، فالاسم التوراتي الذي يتطابق جذره تماماً مع جذر الاسم المستخدم ليس يوشع كما يدعون، بل "عيسو" أو "عيسى"[2]، اسم الابن البكر لإبراهيم وتوءم يعقوب

---

(١) أي وضع حرف الجاه على الماشي.

(٢) وهذا مثال آخر على ميل العبرية الحديثة إلى الضم بخلاف العربية والآرامية. وإذا عرفنا أن اللغة العبرية كانت ميتة، وأن اليهود الألمان هم من أعادوا صياغة الكثير من قواعدها وفق اللهجات الدارجة وفهمهم لأصول اللغة، فلنا أن نرجح أن نطق الكلمة ربما كان بالفتح مثل بقية اللغات السامية. ولذلك فمن الممكن أن عيسو في العبرية الحديثة كان عيسى في اللغة العبرية القديمة، والله أعلم.

عليهما السلام، الذي ولد مختلفاً عن الآخرين بقدرة إلهية: "فَخَرَجَ الأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ، فَدَعَوْا اسْمَهُ عِيسُوَ" (تكوين ٢٥: ٢٥). وكما قال العلامة البروفيسور "برنهارد شتاده" في قاموسه العبراني القيم المطبوع في ألمانيا عام (١٨٩٣): إن عيسو עָשָׂו يدل على معاني الصنع والإيجاد، وغالباً ما يستخدم للدلالة على المعجزات الإلهية". ومن هنا نفهم أن المسيح عليه السلام إنما سمي عيسى (أو عيسو باللفظ العبري الحديث) لحكمة بالغة وهي أن ذلك الاسم يدل في لسانه الأم على الصنع، إشارة إلى كونه مخلوقاً حادثاً، وكدليل على أن حدوثه تم بآية خارقة للنظام الكوني؛ وهي ولادته من أم دون أب.

- إن المسيحيين يعتقدون اعتقاداً كبيراً في اسم "يسوع"، حيث ينسبون إلى اسمه قوة وفاعلية مؤثرة في الأشياء وعمل المعجزات، فهل يعقل أن ذلك الاسم محرف نتيجة مقابلة الاسم السامي بالاسم الهندوجرماني، ومن ثم مقابلة المقابلة الهندوجرمانية (وكأنها هي الأصل) بالسامية مرة أخرى؟!!! هذا مستحيل.

- ولكن هذا ما حصل فعلاً نتيجة اعتماد اللغتين اليونانية واللاتينية في تحديد اسم المسيح، مع أنه لم يتكلم بهما أصلاً في حياته كلها. كما أن تينك اللغتين تخلوان من حرف العين الحلقي الذي استخدمته اللغات السامية في نهاية الاسم المعاد "تسييمه"(من اللغة السامية)، حيث استعيض عن حرف العين، إذا كان ما بعدها مكسوراً، بحرف (I) في اللاتينية، وبحرف (η) في اليونانية، أو حرف الـ (H) الذي هو حرف (e) في اللغة الإنجليزية[1].

- ولكن "عيسو"(التوراتي) قد ورد اسمه في اليونانية "إيساو" (Ησαυ)، وكما تلاحظ فإن إيساو يختلف عن إيسوس، كما أنه لم يترجم عيسو ولا مرة واحدة بيسوع.

---

(١) مباحثات هامة في المسيحية - اسم يسوع الحقيقي "عيسى أم المسيح"، الذي كان معروفاً به بين قومه، العميد جمال الدين شرقاوي. بالرجوع إلى كتاب يوناني العهد الجديد ص١٣، ص ١٥ عن قواعد اللغة اليونانية المستخدمة في العهد الجديد شرح الراهب ببنودة بيشوى ومُراجعة الأستاذ الدكتور موريس تاوضروس.

- ولكن يوشـــع (هوشاو Hoshua) وإيســـوس يختلفان أكثر من ذلك بكثير، ومع ذلك يصرون على أن هيشـــاو هو نفسه يســـوس والأصل العبري له!!!!! ولاحظ أنهم لم يترجموا كلمة "يشـــوع" في الكتاب المقدس كله ولا مرة واحدة بكلمة "جيزوس" على ثقتهم أن الاسمين متطابقان؟!!!

- أجل هذا صحيح، فكيف لم أفكر بذلك من قبل؟!

- شـــيء آخر؛ فإذا كان أصل اسم المـسيح هو يوشع وليس عيسو، وإذا كان حرف الـ (H) في يوشـــع Hσαυ هو نفس حرف الـ (E) فـــي الحروف الإنجليزية، فلماذا صوتوا الياء الأولى في عيسو (عيناً) في حين صوتوا الياء في عيسى ياءً (يسوع)؟!!!

- فعلاً. ولكن ما معنى كلمة عيسى في اللغة العربية؟

- لو بحثنا في جذور المادة اللغوية لكلمة (عيسى) وهي(ع وس) أو(ع ي س) لوجدنا أن العيس هي كرائم الإبل وأحســـن أنواعها، يميل لونهـــا إلى اللون الأبيض الضارب للصفرة، ولك أن تقول إنه اللون الأشقر بلغة العصر[1]، وهذا كان لون عيسى بن مريم عليهما السلام.

- ولكن عيسو تعني الأحمر، وليس الأصفر أو الأشقر.

- هناك اختلاف محير بين اللغة العربية واللغة العبرية الحديثة[2] في هذا الموضوع بالذات. فالبقرة الحمراء التي لا شائبة فيها، وينتظرها اليهود، هي في القرآن صفراء لاشـــية فيها. وعيسو الذي يلقبونه بالأحمر "أدوم"، ويعتبرون أن الروم نسله، هو نفسه الذي يلقبه العرب بالأصفر، ويطلقون على الروم لقب "بني الأصفر".

---

(١) جاء في المعجم الوسيط(ج ٢ ص ٦٣٩) ما يلي: تعيست الإبل: صار لونها أبيض تخالطه شقرة. والأعيس من الإبل: الذي يخالط بياضه شقرة، والكريم منها. والجمع عِيس. ومفرده (عِيسَى) بالفتح، و(عِيسِى) بالكسر. والجمع منه (عِيسٌ) و(عيسون) والمثنى منه (عيسين)، والمؤنث (عيساء)، ومعناها أن فيها إشعاراً باللون الأبيض الذي تخالطه شقرة.

(٢) يذكر أن العبرية الحديثة New-Hebrew قد اختلطت بشيءٍ من اليونانية واللاتينية.

- غريب فعلاً. إذن عيسى عندكم معناها الأشقر.

- أجل. إن اسم عيسى عليه السلام مشتق من الصفرة، ليس فقط بمعنى البياض والشقار الذي تحدثنا عنه، ولكن بمعنى اصفرار النبات، أو بمعنى الإنذار بقرب نهاية الزرع إذا خلا من الرطوبة واصفر لونه ويبس[1]، وعيسى عليه السلام ميبس شجرة النبوة الإسرائيلية[2]، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وجاء ينذرهم بانتقال الملكوت إلى أمة أخرى تعمل أثماره (متى ٢١: ٤١)، وأن ذلك قريب (متى ٢٤: ٣٣، لوقا ٢١: ٣١. مرقس ١٣: ٢٩)، وقد كان لب رسالة عيسى عليه السلام هو البشارة بملكوت الله أو ملكوت السموات، وهو دين الله وشريعته على يد نبي آخر ليس من بني إسرائيل، ولكنه مثل موسى.

صمت أبراهام متأملاً في ذلك، فهو إن صح يفسر له أشياء كثيرة لم يكن يفهمها. ثم قال شارداً:

- هل قرأت عن طائفة كانت تسمى بـ"إيسنز Essenes" (الإسينيون أو الأبيونيون)؟

- بالطبع، فهي إحدى أقدم الطوائف اليهودية التي اعتنقت دين عيسى عليه السلام. وهم أصحاب مخطوطات قمران على شاطئ البحر الميت. ولكن ما علاقة ذلك بموضوعنا؟

- لو أعدنا الألف الهندوجرمانية إلى العين السامية لأصبحت "عيسنز". ومن المعروف في العلوم اللسانية أن بناء الكلمة في اللغات السامية - كالعبرانية والآرامية والعربية- يقوم على الحروف الصحيحة الساكنة (الصامتة) فهي وحدها التي تؤدي

---

(١) قال الليث: إذا استعملت الفعل من عيس قلت عيس يعيس أو عاس يعيس. وأعيس الزرع إعياساً: إذا لم يكن فيه رطب.

(٢) متى ٢١: ١٨-٢٢، ٢٤: ٣٢-٣٥. مرقس ١١: ١٢-١٤، ١١: ٢٠، ٢١. ١٣: ٢٨-٣١. لوقا ٢١: ٢٩-٣٣. ولمراجعة وجهة النظر اللاهوتية الجديدة في هذا الموضوع راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

المعنـــى العام، أما الحروف المعتلة أو الصوتيـــة والحركات القصيرة والطويلة فتقتصر وظيفتها على تأدية المعاني الاشتقاقية والصرفية مثل: كتب، يكتب، كتاب، كاتب.

- أنت محق تماماً، بل إن Essenes إيســـنز أو عيســـنز هي صيغة الجمع، ولفظ صيغة المفرد منها هو "إيساوي" أي "عيسوي"[١]، ومن ثم فإن الاسم الحقيقي في اللغة الأصلية بصيغة الجمع لابد أن يكون "العيســـويين". وهذا يفسر مصدر هذه التسمية التي حيرت العلماء دون جدوى.

- ولكـــن العائق الذي يقف هنا هـــو أن الباحثين قد أرجعوا عمر المخطوطات إلى الفترة مـــا بين ٣٠٠ قبل الميلاد حتى ٧٠ ميلاديـــة[٢]، أي إن ابتداء وجودهم كجماعة منظمة كان قبل مجيء المســـيح. فهل يمكن تفسير ذلك بنظرية السنوات الشبحية في التقويم الميلادي[٣]؟

---

(١) يقول الأستاذ "أحمد عثمان" في كتابه "مخطوطات البحر الميت": "ورد اسم الجماعة مكتوباً باللغة اليونانية في كتابات يوسيفوس و"فيلو جوداياس" و"بيليني الكبير" وهو "إيسينوي" أو "إيسايو"، واسم الشخص الذي ينتمي إليها هو "إيساوي"، الذي احتار الباحثون في معرفة أصله. فالمشكلة الرئيسية التي واجهتهم في هذه الحالة أنه بالرغم من أن اسم الجماعة مصدره كلمة محلية (عبرية أو آرامية)، إلا أنه لم يتم العثور عليه مكتوباً إلا باللغة اليونانية... والاسم الذي أطلقته الجماعة على نفسها هو "بريث حاداشة" ومعناها العهد الجديد".

(٢) معلومات تقديرية اعتماداً على دراسة اللغة والخطوط والمادة المكتوبة عليها والمادة التي دُوِّنت بها وشكل الأحرف والصياغة والرق والكتان والنحاس والأوعية الفخارية والعملات. كما استخدمت طريقة الكربون ١٤ المشع لفحص الكتان الذي لُفت به الوثائق والجرار الفخارية. يذكر أن طريقة الكربون ١٤ (اكتشفها الأمريكي ليبي، وبدأت تطبيقاتها منتصف القرن الماضي)، وتقوم على تقدير عمر البقايا العضوية، لكن المعضلة أن هذه الطريقة تعطي انحرافاً زمنياً قدره +/- ١٨٥ سنة، فنظرية الكربون١٤ تقوم على حساب زمن تحوّل مادة الكربون١٤ المشع، واندثارها بسبب فقدانها الطاقة الإشعاعية، حيث يفقد الكربون ١٤ نصف عمره خلال ٥٥٥٠ سنة، وهو يُنتج في الطبقات العليا من الجو بسبب تعرض غاز أوكسيد الكربون الجوي لنيوترونات مشبعة بالطاقة، وهذا يخلق توازناً مابين معدل تكوّنه ومعدل اندثاره.

(٣) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- هذا جائز جداً، رغم تحفظي على الآراء التي بنيت على تلك النظرية، كما يمكن تفسير ذلك أيضاً بأن جماعة قمران ربما كانوا موجودين قبل عيسى عليه السلام كجماعة يهودية منظمة تبتعد عن تحريفات أحبار اليهود قدر الإمكان، ثم آمنوا به عند قدومه، بعدما وجدوه مصدقاً لما معهم، وصاروا يعرفون بالعيسويين أو الحواريين أو النصارى[1]، وربما كان الحواريون أو العيسويون أو النصارى جزءاً من الصدوقيين وليس من الفريسيين، وأن الصدوقيين معناها الصديقين الذين صدقوا عيسى عليه السلام. وربما كانت معلومات بولس كاتب الرسائل مشوهة عنهم، أو أنه كذب عمداً، وأنهم لم يكونوا كما قال! خاصة أن المسيح كان يهاجم الفريسيين بالذات! وأن العيسويين ثبت أن لهم أصولاً صديقية، ولا تنس أن الصدوقيين هم من استمسك بالتوراة، والفريسيين هم من استمسك بالتقليد، والمسيح هاجم التقليد ولم يهاجم التوراة!

- رويدك يا صديقي فأنا لم أعد أستوعب من كثرة هذه الفرضيات.

- ألست متفقاً معي بأن مخطوطات البحر الميت هي أسفار يهودية تحمل صبغة نصرانية لا تحتمل التأويل، وأن بعض العلماء يؤكدون أن يوحنا المعمدان (نبي الله يحيى عليه السلام) كان منهم؟

- أعترف أن مخطوطات البحر الميت تثير كثيراً من الإشكاليات حول التداخل بين اليهودية والمسيحية في بداية نشأة المسيحية، إلا أن هذا الأمر غير محسوم تماماً.

- لماذا غير محسوم؟!!! فهذا يدل أن الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بعيسى كانت طائفة يهودية معتبرة لها امتدادها بين الفرق اليهودية كافة. وآنذاك لم تكن المسيحية ديناً مستقلاً يؤمن بالتثليث وإلغاء الشريعة كما هو حالهم الآن، بل كانت

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ [الصف: ١٤].

المسيحية طائفة إسرائيلية[١] إصلاحية عائدة للحق وكسبت أتباعاً كثيرين. وإلا، فكيف تفسر الصلة القائمة بين العيسـويين وغيرهم من فرق طريدة سكنت مناطق مجاورة من برية نهر الأردن؟ ولماذا عُثر في قلعة ماسادا على كتابات خاصة بطائفة قمران ما دامت طائفة غير مؤثرة مـن الزهاد المنعزلين كما يقولون؟ ولماذا عُثر بين مخطوطات هذه الفرقة، التي تُنسَب إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي، على مخطوطة (أو أجزاء منها) تنتمي إلى منسـوخات القرن العاشر الميلادي في معبد بن عزرا؟ وما العلاقة بين تلك المخطوطات وبين الأسرار الخفية التي وردت عنها شذرات في التلمود (حجيجاد ١٢/٢ وغيرها) بشـأن البحث في اسم الرب الأعظم (هشيم همفوراش)؟ وهل يُخفي العداء الغنوصي للإله اليهودي "يهوه" نقداً لتحريف اليهود؟ ألا يفسر هذا اختفاء اسم يهوه من أسفار العهد الجديد؟!!!

- إذا كانت المسيحية نشأت في إطار دعوة يهودية إصلاحية عامة للعودة إلى الحق والشريعة التي انتهكها اليهود في فلسطين، فما الحكمة من إرسال المسيح إذن؟!

- في الفترة اليونانية الرومانية اجتاح اليهوديةَ تيارٌ كاسـح من التأثيرات الثقافية والدينيـة العديدة التي حملتها الثقافة الهيلينية، وبـدأت فرق يهودية تذوب في هذا الخضم من الأفكار الهيلينية التي اكتسـحت الشرق الأدنى القديم، وتم إنكار الغيبيات والبعث، وأخضع كل شيء للعقل والمنطق. وعندها بعث الله تعالى عيسى عليه السلام بـولادة إعجازيـة ومعجزات لا تخضع للعقل أو للمنطق، ثم رفعـه إليه مؤكداً حقيقة البعث. وقد أنذرهم عيسى بن مريم عليه السلام بأن الله تعالى سيعطي الشريعة لأمة أخرى تعمل بها، وبشـرهم بالرسول الخاتم الذي يستطيعون الانضمام إلى أمته، فهو مرسل للبشرية جمعاء وليس إلى قوم بعينهم.

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

- لماذا برأيك لم ينجلِ الغموض الذي يكتنف مخطوطات البحر الميت إلى الآن؟

- لأنها، وعلى عكس برديات نجع حمادي مثلاً، لم تنشر بالكامل بعد. وهنا تتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة: ما الذي اكتشفوه في تلك المخطوطات مما قد يشكل الإعلان عنه خطراً كبيراً؟ ولماذا كل هذا التأجيل الذي دام عشرات السنين؟ ولماذا يتجاهل كثير من الباحثين الأدلة الدامغة على علاقة العيسويين بالمسيحية المبكرة، ويصرون على إرجاع المخطوطات إلى ما قبل ظهور المسيح والمسيحية الناشئة، وعلى تصوير جماعة قمران على أنها جماعة منعزلة غير مؤثرة بعيدة كل البُعد عن الواقع الديني والاجتماعي والسياسي في ذلك العصر؟

- هل لديك إجابة عن هذه التساؤلات؟

- فلنحاول الإجابة عنها معاً. فنحن نستطيع القول باطمئنان أن ثمة تشابهاً واضحاً، قد يصل إلى درجة التطابق أحياناً بين نصوص من العهد الجديد ونصوص مخطوطات البحر الميت التي سمح لنا بالاطلاع عليها. ومن ذلك ما ورد في سفر أعمال الرسل من أن أعضاء الكنيسة الأولى كانوا يشاركون في كل شيء. وثمة نص صريح يتصل بهذه الحياة التعاونية المشاعية في المخطوطة المعروفة باسم "ميثاق الجماعة"، وكذلك مجموعة نصوص أخرى منظمة لشؤون الجماعة. ووفقاً لنص أعمال الرسل أيضاً، فإن ثمة قيادة جماعية للكنيسة الأولى تتكون من اثني عشر حوارياً، وثمة ثلاثة لهم أهمية خاصة (جيمس وبطرس ويوحنا)، وهو التقسيم نفسه الذي نجده في فتاوى جماعة قمران (دون ذكر أسماء). كذلك ثمة تشابه شديد في الطقوس؛ على سبيل المثال، فطقس التعميد -وهو أحد أهم الطقوس المسيحية- له نظيره في نصوص قواعد الجماعة، حيث يرد: "إن الماء الطاهر ليُطهِّر الشخص الذي يرتضي لنفسه الخضوع للحق والإيمان بشريعة الرب حقاً، تطهيراً من آثامه ولا يتطهر لو اغتسل بالأنهار والبحار وهو لا يزال على شريعة مخالفة". كذلك نجد أن هناك

توجُّهاً واحداً ذا طابع مشيحاني فيما يخص كلاً من الكنيسة الأولى ونصوص قمران. وبالطبع، فإن المشـــيَّح المنتظر في الكنيسة هو "يسوع المخلِّص"، في حين لا يوجد ذكر اســـم محدد في نصوص قمران، وإنما ثمة لقب هو "مُعلم الفضيلة". والشيء المهم هنا أن نصوص قمران لا تتكلـــم إطلاقاً على أية طبيعة إلهية لمعلم الفضيلة المذكور، وهنا مربـــط الفرس، فلو كان ثمة ربط بين جماعة قمران وبين المســـيحيين الأوائل لأمكن أن نقول إن مُعلم الفضيلة "موريه هاتســـيدق" هو السيد المسيح نفسه. وهكذا، تنتفي الصفة الإلهية التي ينسبها أغلب المسيحيين حالياً إلى السيد المسيح، وبذلك نستطيع أن نفهم ســـبب الإصرار على إبعاد هـــذه الجماعة عن التداخل مع الواقع المحيط بها تماماً.

- ولكن المخطوطات تحت ســـيطرة الإســـرائيليين، فلماذا يتفق الإسرائيليون مع الكنيسة على طمس هذه الحقائق التاريخية وإخفائها طوال هذه الفترة؟

- ليس من مصلحة اليهود القول بأن المســـيحية نشأت في إطار دعوة عامة للعودة إلى الحق والشريعة التي انتهكها أجدادهم، وأن المسيحيين الأوائل كانوا يحملون أفكاراً "يهودية" ترفض الرؤية التقليدية لليهودية وانغماســـها في الشهوات وما إلى ذلك. كما أن افتراض وجود جماعات يهودية متعددة وليس مجرد شـــعب يهودي واحد ذي تاريخ واحد وعقيدة وتطلعات واحدة ينســـف أساس أسطورة الشعب اليهودي الواحد ومعها أهم الروافد الإيديولوجية الصهيونية. وفي النهاية لا يجب أن تتجاهل الفرضية القائلة أن إســـرائيل قد ابتزت الفاتيكان للحصول على اعترافات ومكاســـب جمة لقاء عدم الكشف عن كل المخطوطات[1].

---

(١) ظهر في لندن عام ١٩٩١ كتاب مهم بعنوان: "خديعة لفائف البحر الميت"، ويرى أغلب النقاد أنه ربما يكون من أفضل الدراسات المحايدة والمتأنية لمخطوطات قمران، وأكثرها علمية وموضوعية. وهو تأليف كل من "مايكل بيجنت" و"ريتشارد لي"، وقد اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل في عملية ترجمة ونشر اللفائف.

فكر أبراهام هنيهة، ثم قال ساهماً:

- يبدو أن المحدثات في المسيحية أكبر بكثير مما كنت أظن. عدم وجود اسم للرب ووجود أسماء متعددة للشيطان بعضها تأليهي، وتغير اسم المسيح نفسه، وتبديل معالم المسيحية الأولى، وتزييف الصلة بينها وبين دين موسى. إن صح كل هذا، فما الذي بقى من المسيحية غير اسمها؟

تنهد إستس بحسرة قائلاً:

- للأسف فحتى اسم المسيحية والمسيحيين مستحدث أيضاً، وإلا لماذا تظن أنه لم يرد ذكر للمسيحية أو المسيحيين في سجلات الدول وتصانيف المؤرخين والكتاب في القرنين الميلاديين الأولين بل في الأناجيل الأربعة نفسها؟!!!!

- ماذا تعني؟!!!

- أعني أن المسيح نفسه لم يطلق هذا الاسم على أتباعه، ولم يرد في كل أسفار العهد الجديد إلا ثلاث مرات فقط في أعمال الرسل ورسالة بطرس الأولى.

- أوضح أرجوك.

- أول مرة كانت في أنطاكية حيث كان بولس يبشر: "وَلَمَّا وَجَدَهُ جَاءَ بِهِ إِلَى أَنْطَاكِيَةَ، فَكَانَا يَجْتَمِعَانِ مَعَ الْكَنِيسَةِ هُنَاكَ سَنَةً كَامِلَةً، وَيُعَلِّمَانِ جَمْعاً كَبِيراً. وَفِي أَنْطَاكِيَةَ أُطْلِقَ عَلَى تَلامِيذِ الرَّبِّ أَوَّلَ مَرَّةٍ اسْمُ الْمَسِيحِيِّينَ" (أعمال الرسل ١١: ٢٦)، والثانية: "بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً" (أعمال الرسل ٢٦: ٢٨)، وقد قال المؤرخ "تاسيتس" (المولود نحو ٥٤ م) إن تابعي المسيح كانوا أناساً سفلة عاميين، ولما قال أغريباس لبولس ذلك ففي الأرجح أنه أراد أن يقول: "حسن برهانك كان يجعلني أرضى بأن أعاب بهذا الاسم"[1]، والثالثة في (١بطرس ٤: ١٦): "ولكنه إذا تألم لأنه مسيحي، فلا يخجل

(١) قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، دار مكتبة العائلة، القاهرة.

وليمجد الله بهذا الاسم"، و"يرجح أن ذلك اللقب كان في الأول شتيمة"[١]، ولم يستخدم أتباع المسيح هذه التسمية لوصف أنفسهم حتى القرن الثاني، عندما وردت على لسان إغناطيوس الأنطاكي الذي كان "أول من أطلق على المؤمنين وصف المسيحيين"[٢]، وهذا يعني أن أصل هذه التسمية كان من ابتداع بولس نفسه، ويطلق على أتباعه فقط. فهو يعترف بأنه كان يبشر في الأماكن التي لم يصل إليها التلاميذ، ويبرر ذلك بقوله: "كنت متحرصاً أن أبشـــر هكذا. ليس حيث سمي المسيح. لئلا أبي على أساس لآخر" (رومه ١٥: ٢٠)، أو ربما كان ذلك الاسم من ابتداع الوثنيين، الذين اعتادوا أن يسموا الطائفة باسم من تقدسه.

- وكيف كان يدعى بقية أتباع المسيح قبل ذلك؟!

- كانوا يسمون بالناصريين أو "شيعة النصارى"[٣] (أعمال الرسل٢٤: ٥)[٤].

- هذا نسبة إلى الناصرة مدينة المسيح.

- لم تكن الناصرة يوماً مدينة المســيح. ونســتطيع بكل سهولة تفنيد الحجة التي اعتمدتها الأناجيل المعتمدة لتفســير ذلك. فقد ادعى كاتب إنجيل متى: "وأتى وسكن مدينـــة يقال لها ناصرة ليتم ما قيل بالأنبياء أنه ســيدعى ناصريـــاً" (٢: ٢٣)، ولكنَّ سكنَ شـــخص ما لفترة قصيرة في مدينة ما لا يجعله ينسب إليها، وإلا لدعي المسيح أورشـــليمياً وسينائياً، وغيرهما من الأســـماء للأماكن التي سكن بها فترة من الزمن. والأهم من ذلك أنه لا يوجد في كل الكتاب المقدس نبوءة من نبي، كبيراً كان أو صغيراً،

---

(١) هذا ما ورد في قاموس الكتاب المقدس، صفحة ٨٨٩، طبعة ٢٠٠١، حرفياً.

(٢) دائرة المعارف الكتابية.

(٣) ذكر أحد معلمي الكنيسة واسمه Hieronymus (توفي ٤٢٠ ميلادية) وجود إنجيل يسمى إنجيل النصارى: Nazaraeerevangelium.

(٤) الترجمة الكاثوليكية - دار المشرق. وكذلك وردت حسب ترجمة كتاب الحياة: "مذهب النصارى".

ذكرت ذلك، بل ليس هناك ذكر للناصرة في أسفار الأنبياء أو أي من الكتب اليهودية قبل يسوع!!! والأهم من ذلك كله: لا يمكن للمسيح أن يولد في بلدة لم تكن موجودة في عهده بعدُ كما أثبتت المسوحات الآركيولوجية[1]!!!

- ما هي تسمية المسيحيين عندكم في القرآن؟

- النصارى. أما تسمية المسيحيين، فلم ترد عندنا لا في القرآن الكريم، ولا حتى في السنة النبوية أو كتابات التابعين ومن جاء بعدهم من المؤرخين.

- ولكنك تستخدم تسمية المسيحيين! وكذلك يفعل صديق عربي لي اسمه أحمد، مع أنه يعد من المسلمين الملتزمين بدينهم. فكيف تفسر ذلك؟

- من باب اللباقة، وبالذات بالنسبة إلى صديقك العربي. إذ إن المسيحيين بشكل عام، وخاصة المسيحيين العرب، حساسون جداً بشأن هذه التسمية[2]، ويغضبون عندما يخاطبون بها؛ فهم يعتبرون أنها قد فرضت عليهم من قبل الإسلام، متهمين القرآن الكريم بأنه هو من صكها. مع أن من يقرأ مؤلفات كتابهم القدماء من العرب،

---

(١) أول من تنبه على ذلك وأثبته علمياً هو الباحث "ر. ت. فرانس". ويقول شارل جينيوبير (Ch. Guignebert): "رغم تكرار فكرة أن يسوع من الناصرة، في عشرات الآيات، فما من نص قديم، سواء أكان وثنياً أو يهودياً يذكر مدينة الناصرة (راجع كتابه "يسوع" صفحة٧٩). وهناك دراسة مثيرة صدرت عام ١٩٩١م عن باحثين هما(Leigh Beigent) خلصَت إلى أن ذكر أو ورود اسم مدينة الناصرة في الإنجيل ينمّ على سوء فهم كبير (شرح متأخر).

(٢) المسيحيون العرب يعتبرون هذه التسمية شتيمة وتنابذاً بالألقاب. ومثال بسيط على ذلك هو ما جاء في: "http://www.freecopts.net/forum/showthread.php?t=15527" الأقباط الأحرار The Free Copts› الساحات العامّة › ساحة الحوار الإسلامي. موضوع "نعم، النصرانية لم تنتشر بالسيف". على لسان العضو "hopeless-refugee مواطن غير عادي" حيث قال في معرض رده على أحد المسلمين: "اقتباس: (النصرانية). معندناش نصرانية، عندنا مسيحية. تحب نقول عليكم محمضية نسبة إلى محمض رزول اللات ذل اللات عليه وصافح؟ ولا نخلينا محترمين أحسن؟ أنا أفضل ألا نتنابذ بالألقاب إيه رأيك؟". وهذا العضو قد تلقى تحية وإكباراً وإعجاباً من كثير من المشاركين المسيحيين في ذلك الحوار، وانصب عليه دعوات البركة والتأييد ضد المحاورين المسلمين.

يجد أنهم أطلقوا على أنفسهم لفظ "نصراني" ومشتقاته، وترجمت باللاتينية إلى Nazaraeer. وأنا شخصياً أحب أن أدعو الناس بأحب الأسماء لديهم، كما أن دينهم الحالي (المسيحية) يختلف فعلاً عن النصرانية التي جاء بها عيسى عليه السلام.

- إذا كان كل ما سمعته منك اليوم صحيحاً، فهناك اختلاف جوهري بين الدينين فعلاً.

- ربما كنت محقاً في ذلك. فالقديس جيروم نفسه (٣٤٠-٤٢٠م)، يقول في تفسيره لإشعياء ٨: ١٤: "الناصريون هم الذين قبلوا المسيح دون أن يتوقفوا عن ممارسة الشريعة"، وهذا لا ينطبق على المسيحيين الذين حررهم بولس من الشريعة. كما قال الأب الكنسي إبيفانوس (القرن الرابع) في معرض انتقاده لطائفة من أتباع المسيح لا يزالون متمسكين بتعاليم المسيح ويرفضون تعديلات بولس عليها: "ولكن هؤلاء الشيعة لم يسموا أنفسهم مسيحيين بل ناصريون. ومع ذلك فهم بكل بساطة يهود تماماً، لا يستخدمون العهد الجديد فقط ولا العهد القديم أيضاً(!!!) ليس لهم أفكار مختلفة عنهم، بل يقرون وينفذون كل شيء تماماً كما تأمر به الشريعة، وبنفس الطريقة اليهودية، ماعدا إيمانهم في المسيح. فهم يؤمنون بقيامة الأموات وبقدسية الخلق في كل شيء، ويشهدون أن الله واحد(!!!) وأن المسيح ابن الله. وهم متمرسون متمكنون من العبرية، ويقرؤون فيما بينهم أسفار الشريعة والأنبياء والكتابات بالعبرية، فهم بالتأكيد يهود تماماً، إذن فهم مختلفون عن اليهود ومختلفون عن المسيحيين في التالي: يخالفون اليهود بكونهم مؤمنين بالمسيح، ولكن ولأنهم مقيدون بالناموس، الختان، والسبت، وباقي الشريعة فهم ليسوا على وفاق مع المسيحيين. هم لا شيء غير أنهم يهود. لديهم البشارة الخاصة بمتى كاملة بالعبرية. وبكل وضوح فهم مازالوا يحافظون عليه بحروفه العبرية، كما كتب في الأصل"[1].

---

(1) The Panarion of Epiphanius of Salamis. Ch.29.

- فعلاً ماذا بقي من المسيحية؟

- هل تعلم أن كلمة "المسيحيين" (Christian) نفسها[١]، مجهولة الأصل وتحوم حولها الكثير من الشكوك.

- ماذا تعني؟

- يقولون إن كلمة "خريستوس" هي ترجمة يونانية لكلمة مشيخ الآرامية العبرية!!! ثم انتقلت الكلمة إلى اللاتينية "كريستوس - Chrestus" والإيطاليَّة "كريستو - Christo" والإنجليزيَّة والفرنسية "كرايست وكريست - Christ". وقد كتب المؤرخ الوثني "تاسيتوس" كتاباً تحدث فيه عن المسيح المصلوب عام ١١٧م، وذكر أتباعه باسم "الكريستيانوس" ولكن المؤرخين مثل "أندريسن" وصاحبي كتابي "ملخص تاريخ الدين" و"شهود تاريخ يسوع"، شككوا بأمور عديدة في ذلك الكتاب، لم يلفت منها نظري أكثر من اكتشافهم أن تلك الكلمة مغايِرة لما في النسخ القديمة التي تحدثت عن chrestianos بمعنى "الطيبين"، وأن المسيحيين حوروها إلى: Christianos!!!

- لم أفهم.

- لقد كانت الكلمة الأولى "الطيبين" تطلق على عباد إله المصريين "أوزيريس"، والذين هاجر بعضهم من مصر وعاشوا في روما. وقد مقتهم أهلها، ونعتوهم باليهود، لأنهم لم يميزوا بينهم وبين اليهود المهاجرين من الإسكندرية. فلما حصل حريق روما ألصقوه بهم بسبب الكراهية، واضطهدوهم في عهد نيرون. ويرى أندريسن أن تفسير ذلك هو ظن بعض النصارى أن تاسيتوس يريد مسيحهم الذي صلبوه، فحرف العبارة وهو يظن أنه يصححها. لكنني أنا أظن أن هذا كان أصل المصطلح بالفعل. فكيف يمكن أن تترجم كلمة المشيخ أو المسيا إلى خريستو أو كريستو؟!!!!

- فعلاً. ولكن ألا ينطبق هذا على الطيبين المصريين؟

---

(١) الحديث بينهما يدور بالإنجليزية، وكلمة المسيحيين فيها وبمعظم اللغات من الجذر خريست أو كريست.

- كلا؛ فقـــد طرح الباحث الفيلولوجي البروفســـور المصـــري "كرم خلة" في كتابه "يسوع، وأصل المســـيحية"، فرضية مفادها أن لفظ خريستوس "المجهول المصدر" هو تحريف لنطق اســـم "حورس الصغير"، ابن إيزيس وأوزيريس في الميثولوجيا المصرية التثليثية المعروفة، وقد نقله اليونان إلى لغتهم القديمة!!!

ســـرح أبراهام مفكراً في ذلك الكم من الحقائق التي تفتحت عيناه عليها اليوم، ثم بادر إستس مستفهماً:

- هل مثل هذه الأمور هي التي أدت إلى اعتناقك للإسلام؟

- أجل.

- حدثني إذن عن تجربتك الشخصية في ذلك، بعيداً عن الكتب وأقوال كل أولئك العلماء والباحثين الذين تستشهد بهم.

- بكل سرور.

من الدير إلى المسجد

بدأ إستس[1] الحديث عن قصة إسلامه قائلاً:

- في البداية أود أن أوضح أنني لم أتربَّ كمسيحي عادي فحسب، بل تلقيت دراستي لمدة عشر سنوات في دير شهير للرهبان، حيث كرست حياتي لعبادة الله ودراسة ديني.

- إلى أي دين كنت تنتمي؟

- كنت أنتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك، أكبر طائفة مسيحية في العالم. ولأنني التحقت بذلك الدير بالذات، فمن البدهي أن تكون دراستي للمسيحية دراسة متعمقة.

- وما الذي يميز ذلك الدير عن غيره؟

- لقد كان الدير الذي التحقت به يدرس تاريخ الأديان على مستوى جامعي. وكانوا يقولون لنا إن مدرستنا هي آخر مدرسة بقيت تدرس هذه المادة في البلاد.

- ما الذي استخلصته من دراستك تلك؟

- كنا في المدرسة نتعلم اللاتينية واليونانية وما يتعلق بتلك الحضارات القديمة، فكنا ندرس تاريخ الإمبراطورية الرومانية وتاريخ دينها. وكان من الأمور التي صدمت بها منذ وقت مبكر هو ذلك التشابه اللافت للنظر بين عقيدة الرومانيين الوثنية وبين عقيدتنا المسيحية، فخلصت إلى أن المسيحية هي حقيقة كالدين الوثني الروماني. ولكنني لم أعدَّ ذلك نقصاً في عقيدتي، إنما قفز إلى ذهني أن الرومان كانوا يعبدون "أبولو" و"فينوس" و"زيوس" وآلهة أخرى، لحاجات مختلفة، تماماً كما كنا نفعل بالكنيسة؛

---

(١) بقية هذا الفصل(الموقف) وما سيصدر على لسان جيمس إستس فيه هو قصة واقعية، ونقل حرفي لما قاله الإنجليزي المسلم "عبد الرحيم" في إحدى التسجيلات المرئية على شبكة ومنتديات الإسلام للجميع www.islam٢all.com. ومرة أخرى تصرفت بالنص، فقط لأجعله على شكل حوار بين اثنين.

فقد كنا نعبد مريم بالإضافة إلى الأب والابن والروح القدس، وإذا فقدنا شيئاً دعونا "أنطونيوس"، وعند السفر كنا ندعو "كرستوفر"، وإذا قمنا بشيء آخر تضرعنا لشخص آخر، كما أننا كنا نقتني الأصنام. وبالتدريج بدأت أدرك أن المسيحية هي كالوثنية تماماً.

- فهمت وجهة نظرك. لكن هل كان ذلك هو كل ما أزعجك في المسيحية؟

- كانت هذه هي البداية، ثم بدأت بعض الأمور تحيرني؛ كعقيدة التثليث مثلاً. لم أكن أفهم كيف يكون الله واحداً، ولكنه ثلاثة في الوقت نفسه. وكنت أسعى جاهداً لفهم حقيقة تلك التناقضات.

- وهل فهمتها؟

- بتاتاً. تعلمت أننا يجب أن نؤمن بآلهة ثلاثة، والتي لم تكن كذلك بل كانت إلهاً واحداً! كما أنها ليست مختلفة فهي الشيء ذاته. ومع ذلك لا يمكنك أن تقول باسم الابن والروح القدس والأب، بل باسم الأب والابن والروح القدس[1]، ولكنك تعلم أن الأب ليس هو الابن، والابن ليس هو الأب، والروح القدس ليس هو الأب ولا الابن. ومع أن هذه الآلهة الثلاثة مختلفة، فيجب أن تؤمن أنها إله واحد متساوي الأقانيم!!!

- هل ضايقك شيء آخر أيضاً.

- بل أشياء. فالصلاة التي كانوا يعلموننا إياها كانت أيضاً من الأمور التي أزعجتني كثيراً.

- كيف ذلك؟

---

(١) الغريب أن أحد النصوص المهمة التي يستدلون بها على التثليث ليس بهذا الترتيب، ولا بهذه الصيغة!!! "ولتكن نعمة ربنا يسوع ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم جميعاً" (٢كورنثوس ١٣ : ١٤)، وهذه هرطقة بالمفهوم المسيحي الحالي. راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف. كما أن النصين الصريحين اليتيمين لصيغة التثليث ثبت أنهما إضافات لاحقة، وغير موجودين في المخطوطات القديمة للكتاب، بل تم حذفهما من كثير من الطبعات المنقحة.

- كانوا يعلموننا أن نقول: "المجد لكِ يا مريم يا أم الإله"[1]، وقد أرقني ذلك كثيراً؛ فأنى يكون لله أم؟ وقد كنت أقضي الساعات تلو الساعات متسائلاً كيف يكون للإله أم؟! كيف لكائن أن يلد الإله؟ فهذا يعني وجود الكائن قبل وجود الإله، ولكننا نعلم أن الله هو الأول الموجود منذ الأزل!

---

(١) إن الدارس للكتاب المقدس لابد أن يلاحظ أن العهد الجديد لا يتضمن أي ذكر تأليهٍ أو تقديس لمريم عليها السلام. فلا ترد العذراء إلا مرة واحدة في كل الرسائل، وبالذات في رسالة بولس (غلاطية ٤ : ٤). حتى الأناجيل الأربعة لا تحوي معلومات وفيرة عن طفولة العذراء أو عن حياتها الخاصة؛ فكتبتها لم يروا لها دوراً مستقلاً عن دور المسيح عليه السلام، بل نجد في الأناجيل الأربعة ما يتعارض مع ذلك الدور المفترض مثل: "عندما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة صعد مع والديه إلى أورشليم وفي طريق العودة أضاعته أمه (لو ٢ : ٤٤) وطلبته مدة ثلاثة أيام إلى أن وجدته في الهيكل (لو ٢ : ٤٦) ودهشت، مع جميع الذين كانوا يسمعونه لحكمته (لو ٢ : ٢٧) لكنها أنبته" (لو ٢ : ٤٨). "كانت مريم مع المسيح في عرس قانا الجليل(يو ١ : ٢) وعندما لاحظت نضوب الخمر أعلمت يسوع بالأمر وطلبت منه التدخل. قال لها: "مالي ولك يا امرأة" (يو ٢ : ٣-٥). "قصدت مريم يسوع وهو يعظ في أحد البيوت وحوله الجموع، أرادت أن تراه فبعثت له بأشخاص يدعونه فقال يسوع: من هم أمي وإخوتي كل من يسمع كلام الله هو أبي وأمي وإخوتي". (مر ٣: ٣١-٣٢) (مت ١٢ : ٤٦-٤٩)، (لو ٨: ١٩- ٢١). ويرد ذكر العذراء مريم في إحدى المرات ويسوع يعظ الجموع: إذ رفعت امرأة صوتها وقالت: "طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما". أما يسوع فقال: "بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه." (لو ١١ : ٢٧-٢٨). أما ما قاد إلى تقديسها بل وتأليهها فهي المجامع وقرارات الباباوات؛ فقد أقر المجمع المسكوني الأول في نيقية أن مريم كانت عذراء عندما حبلت بالمسيح. (مع أن هذا لم يُذكر صراحة في الأسفار التي اعتمدتها) وأقر المجمع المسكوني الثالث الذي انعقد في أفسس ٤٣١ بأن مريم هي والدة الله (تعالى الله عما يصفون). وأقر المجمع المسكوني الخامس سنة ٥٥٣ الذي عقد في القسطنطينية عبارة "الدائمة البتولية". هذه الأمور الثلاثة: عذراوية مريم عليها السلام، وأنها والدة الإله، وأنها دائمة البتولية، هي أمور تشترك بها الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية على السواء، بل يشترك معهم الإسلام في الأمر الأول والأخير منها مع عدم وضوحهما في الكتاب المقدس. ولكن هناك أمران آخران أضيفا لاحقاً من قبل الكنيسة الكاثوليكية وحدها. الحبل بلا دنس الذي أعلن عنه البابا بيوس التاسع عام ١٨٥٤ أي عندما ولدت مريم عليها السلام لم تعرف الخطية الأصلية. والحديث هنا إذن ليس عن المسيح... وإنما عن ولادة مريم العذراء ذاتها. أما الأمر الثاني فهو القول بانتقال العذراء بالجسد والنفس إلى مجد السماء، الذي كان البابا بيوس الثاني عشر قد أعلن عنه عقيدة إيمانية عام ١٩٥٠. ما تقوله هذه العقيدة هو أن العذراء لا تحتاج إلى أن تنتظر قيامة الأموات في اليوم الأخير، بل قد انتقلت بالجسد إلى السماء وهي حية هناك ولذلك تستطيع أن تشفع للمؤمنين.

- وماذا أيضاً؟

- لم أكن أرتاح للنفاق الموجود في الكنيسة.

- ماذا تعني؟

- نفاق أولئك الرهبان الذين يزعمون بأنهم مقدسون إلى أبعد الحدود، مع أنني خبرتهم عن قرب ووجدت بأنهم لم يكونوا بأفضل من عامتنا. ومع ذلك يجب أن نذهب إليهم لنسألهم أن يغفروا خطايانا. أعني أنه يجب عليك أن تجلس أمام القسيس وتخبره بكل ما ارتكبته من الخطايا[1].

- هل كنت تبوح لهم بكل خطاياك.

- لقد كان إحراج كبير لنا أن نبوح بكل خطايانا. فقط كنا نعترف بما هان أمره. لقد كذبت وسرقت الحلوى، ولكننا كنا نرتكب الكثير من الطامات في المدرسة الكاثوليكية. تعرف ما أعني.

- أجل بالطبع. تابع أرجوك.

- كنت أتساءل لماذا علي أن أذهب إلى ذلك الرجل لأبوح له بخطاياي، وفي إحدى المرات سألتهم: "ألا أستطيع أن أطلب المغفرة من الله مباشرة؟"

- وبم أجابوا؟

- قالوا: كلا؛ لأنك ليس بمقدورك معرفة أيغفر الله لك، لذا يجب عليك أن تتوجه إلينا وعندها تكون على يقين من أن الله سيغفر لك.

- لماذا هم بالذات؟

---

(١) أقرت الكنيسة الاعتراف للكهنة عام ١٢١٥. وفي عام ١٥٥٧ لعن مجمع "ترنت" كل الذين قرؤوا جزءاً من الكتاب المقدس جعلهم يرفضون الاعتراف للكهنة. البند السادس: "إن كل من يرفض قبول سر الاعتراف باعتباره وصية إلهية وضرورية للخلاص، أو من يصرح أن ممارسة الاعتراف السري للكاهن وحده، كما حفظته وتحفظه الكنيسة الكاثوليكية هو غريب عن مؤسسة المسيح وأوامره وبأنه ابتداع بشري، لتحل عليه اللعنة".

- لأنهم بزعمهم أطهار ومقدسون.

- وكيف أصبحوا كذلك؟

- بمشاركتهم بما يسمى بالعشاء الرباني، وهذا بحد ذاته أسطورة أخرى[١]، يقف راهب هناك يرنم ببعض المقاطع من الكتاب المقدس، يلوح بمبخرته ويتمتم ويهمهم، وبعد ذلك وبصورة ما يتحول النبيذ والخبز المعدان لذلك إلى لحم المسيح ودمه، الذي سيقومون بأكله. والشيء بالشيء يذكر؛ هل تذكر عندما كنا ندرس تاريخ العصور القديمة والقبائل البدائية.

- تعني أكلة لحوم البشر؟

- تماماً، ألم تكن تستهجن تلك القصص الغريبة؟

- بالطبع.

- فكيف يمكن بعد ذلك أكل لحم رجل وشرب دمه؟ وهنا الطامة الكبرى. فأنت بالحقيقة لا تأكل لحم رجل وتشرب دمه، لأن المسيح كان هو الرب في زعمهم، فأنت

---

(١) يعلق المؤرخ "أرنولد توينبي" على مسألة أكل لحم المسيح وشرب دمه بأن سكان منطقة البحر المتوسط كانوا قديماً يفعلون ذلك تقرباً إلى أحد آلهة الإنبات التي تنبت عناصر الخبز والنبيذ في هذه المناطق. وقد انتقلت هذه الطقوس إلى المسيحية عن طريقهم، وليس لها أصل في الدين المسيحي. (المائدة كانت معجزة وأنزلت بالسمك وليس الخبز والنبيذ) وجاء في كتاب "يسوع المسيح" للقس "بولس إلياس": "لقد لقح الفكر المسيحي بالأفكار الوثنية، وقد حافظت الكنيسة المسيحية على تقاليد الشعوب الوثنية وعلى تنوع الطقوس عند مختلف الطوائف"، ثم يستطرد قائلاً: "إنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا "غريغورس الأول" إلى القديس "أوغسطينوس" أسقف كانتربري قائلاً: "دع البريطانيين وعاداتهم واترك لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعادات مكتفياً بوضع إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين"!!! ولا ننس أن الكنيسة الرسمية قد اعتمدت هذا الأسلوب منذ أيامها الأولى. فبعد مجمع نيقية عاد أسقف الإسكندرية، الذي نصره الإمبراطور على أريوس وأيده بسلطته، إلى بلاده وجمع الأقباط في هيكل زحل بالإسكندرية، عند الصنم النحاس الذي كانوا يعبدونه ويجعلون له عيداً في ثاني عشر هتور ويذبحون له الذبائح الكثيرة. وحثهم على تركه، وأن يعمل هذا العيد لميكائيل رئيس الملائكة الذي يشفع فيهم عند الرب. فلا يتغير عمل العيد الذي جرت عادته على أهل البلد ولا تبطل ذبائحهم فيه!!! فرضي الناس بهذا ووافقوه على كسر الصنم. فكسره وأحرقه وعمل بيته كنيسة على اسم ميكائيل!!!

إذن تأكل الرب[1]!!! ولكن هل يمكن هضم الرب؟ إن الرب مقدس لدرجة لا يمكن معها تصور هضمه.

- ماذا تعني؟!

- أعني، لو هضمت الرب، فستخرجه بطبيعة الحال... أنت تعرف ما يحدث بالحمام. ولكنك بالتأكيد لا تستطيع أن تقول أنا تبولت الرب أو تغوطته، فقول كهذا لا يقبل به أحد، ولا حتى المسيحيون أنفسهم.

- أنت محق. فهذا غير مقبول على الإطلاق.

- ليس هذا فحسب، فمن خلال قراءتي للأناجيل وجدت أن ما تبشر به لا يكاد يتفق مع الدين الذي كنت أسير عليه؛ فما يفترض أنه كلام يسوع يختلف تماماً عمّا تدعو إليه المسيحية.

- مثل ماذا؟

- لا يوجد في أي من تلك الأناجيل عبارة واحدة واضحة الدلالة عن الثالوث أو كون يسوع هو الله أو ما إلى ذلك. كما أن المسيح كان يصوم ويصلي لله ويسجد له ويعبده، فهل كان يعبد نفسه؟!!! وبعد دراسة الأناجيل بتأنٍّ، وصلت إلى مرحلة تخليت فيها عن المسيحية، بل كنت أرفض مجرد القول بأنني مسيحي بعد أن كنت أعتز بذلك

---

(١) في "قصة الحضارة" لـ"ول ديورانت" يقول الملك "فريدريك الأكبر" متهكماً: "ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة خبز أو أمام تابوت العهد أو أمام تمثال من التماثيل؟! لا يهم الاختيار"، ويقول "فولتير" في "خاتمة في الفردوس": "تأمل في مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس؛ فالكاثوليك (والأرثوذكس) يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز، واللوثريون يلتهمون الرب والخبز معاً، والكالفنيون يأكلون الخبز لا الرب. وإذا روى لنا أحد الكفار شيئاً من هذا الإسفاف والجنون لقلنا إنه يخدعنا ويلعب بعقولنا"، ويقول "لودفج فون هولبرج" إمام الأدب الدنماركي: "الفطائر الصغيرة أو القرابين المقدسة تحمل مروراً بالشوارع ويقول آباء الكنيسة إنها آلهة والناس الذين خبزوها يحلفون بأن هذه القرابين خلقت الدنيا".

سابقاً، وصرت أبحث عن الحقيقة خارجها[1].

- وهل وجدتها.

- أجل، ولله الحمد. فقد شاء سبحانه وتعالى أن يذهب والدي إلى العمل في مصر، حيث صرت أزوره بالعطل المدرسية لمدة عشر سنوات، وهناك عثرت على الحقيقة.

- الآن فهمت الموضوع.

- فهمت ماذا؟

- لابد أن المصريين اللحوحين هم من شوشوا أفكارك طوال تلك السنوات بمناقشاتهم الدينية.

- أنت مخطئ تماماً، وأنا بذلك لا أبرئهم بل ألومهم بشدة.

- كيف ذلك؟

- أعني أنه طوال تلك السنوات العشر التي كنت أتردد فيها على مصر، لم يحدثني عن الإسلام إلا شخصان اثنان فقط.

- وما وجه اللوم في ذلك؟!

- لأنهم لم يؤدوا حق الله عليهم، فتقصير مسلمي اليوم في نشر ذلك الخير الذي منَّ الله به عليهم، يجعلهم مسؤولين عن ذلك أمام الله تعالى يوم القيامة.

- هل تؤمن بهذا حقاً؟!

- ولماذا إذن تظن أنني قد وافقت على الجلوس معكم مع أنه قد تأخر الوقت، ولماذا رفضت توصيلاً مجانياً إلى منزلي البعيد؟

---

(١) جاء على لسان الأب كارل رانير في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي انتهى عام ١٩٦٥ قوله: "لقد أصبح من الصعب تصديق الأناجيل من كثرة ما تم بها من تحريف، وقد ألح العديد من رجال الكهنوت في المجمع على ضرورة القيام بمراجعة الأناجيل حتى لا يصاب المسيحيون بالإحباط، وحتى لا يتعرض المثقفون للفضيحة، وحتى لا تتعرض العقيدة المسيحية نفسها للسخرية".

- حسناً، عودة إلى حديثك الذي قاطعته؛ ماذا قال لك ذاناك الاثنان عن الإسلام؟

- أولهما توجهت أنا إليه بالسؤال عما كانت تنقله الأخبار من انتزاع "الخميني" للسلطة في إيران، وكان ذلك في نادي التنس حيث كنا نلعب معاً. فشرح لي كيف أن الشيعة لا يمثلون الإسلام الصحيح، وأنهم يعتبرون أن الخلافة حق لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه، وما إلى ذلك من المسائل التي لا مجال لها هنا. وقد كان حديثه تثقيفياً فحسب، ولكنه كان أول شيء عرفته عن الإسلام. أما الآخر فلابد أن أعترف له بأنه هو حقاً، ولله الحمد، من أرشدني إلى الحق؛ فقد أيقظني على حقيقة أن عبادتي وما كنت أؤمن به كان باطلاً.

- كم استغرق منه ذلك؟

- لم تتجاوز مدة حديثه معي خمسة وأربعين دقيقة.

- ماذا قال فيها؟!

- لقد سألني ببساطة عما أؤمن به. فقلت بأن يسوع هو الله، وأنه ابن الله وأن الروح القدس هو الله، وأن الله واحد، وأنه ثلاثة في آن واحد. وسألني ثانية: ماذا تعني بذلك؛ أربك واحد أم ثلاثة أم غير ذلك؟ كان علي أن أشرح له هذا، فقد بدا في حيرة واندهاش. وكذلك كنت أنا في واقع الأمر، ولكن هيهات أن أقر بذلك؛ فأنا إنجليزي، ومن الطبقة الراقية، وهو مجرد مصري، والذي لدي هو حتماً أفضل من الذي لديه، هذه هي العقلية التي نشأنا عليها. على أية حال فقد كان لطيفاً معي وبدأ يشرح لي عقيدته. وفي نهاية الحديث قال لي: دعني أسألك سؤالاً؛ أنت إذن تؤمن بأن المسيح هو الله؟ فقلت: نعم. فقال: وتؤمن بأن المسيح مات على الصليب من أجل خطاياكم؟ فقلت: نعم هذا صحيح. فقال: أنت إذن تؤمن بأن الله قد مات. لو أن "مايك تايسون" جاء ولكمني في وجهي لما كان لذلك وقع علي كوقع تلك الكلمات،

بالفعل جوابه كان لكمة في وجهي؛ فقد صدمت. أهذا ما كنت أؤمن به طوال كل تلك السنوات؟!!! أن هذا الرجل هو الله وأنه صلب وبعد ذلك قتل!!! ولكنني بالطبع لم أعترف بذلك، ورددت تلك السخافة التي نجترها كل حين: "وهكذا أحب الرب العالم حتى بذل ابنه الوحيد"، فقال لي: ظننتك تقول إن المسيح هو الله. فقلت: بلى المسيح هو الله وابن الله. فقال: كيف يمكن أن يكون هو الله وابنه في آن واحد؟! وأنه يرسل نفسه ولكنه يظل في السماء؟ فقلت: لا أدري فالله يفعل ما يشاء. وكان هذا هو جوابي المعتاد. ولكن، والحمد لله، فقد أيقظني ذلك الرجل على سخافة معتقداتي القديمة. وأعترف بأن تلك الواقعة كانت نقطة انعطاف كبيرة في حياتي، والتي منها انطلقت سعياً وراء الحقيقة.

- هل أثر بك ذلك إلى هذه الدرجة؟

- أجل. ولكن ليس هذا فقط. فصلاة طباخنا في مصر كان لها بالغ الأثر علي؛ فذلك الرجل البسيط ذو اللباس البسيط عندما يدخل وقت الصلاة كان يفرش بساطه، ويصلي في المطبخ؟

- وماذا في ذلك؟

- هذا الطباخ كان يقف إلى خالقه ويتضرع إليه بخشوع، أما أنا فأذهب إلى الكنيسة لآكل لحم الرب وأشرب دمه، وما إلى ذلك من الحماقات. منذ الصغر كان هناك سؤال يدور بذهني؛ من هم الذين يعبدون الله حق عبادته، وكما ينبغي له أن يعبد؟ ولقد ظهر لي من خلال دراستي أن ذلك الطباخ البسيط الذي يصلي في مطبخنا هو أقرب كثيراً إلى حقيقة ما يدعو إليه المسيح من أولئك الرهبان الذين يزعمون أنهم وهبوا أنفسهم لله.

- ألم تشعر بأي ندم على تحولك عن دين آبائك الذي ولدت عليه؟

- ربمـــا كان الأدق أن تقـــول "عودة" بدلاً من "تحول"، فكثير من المســـلمين الجدد متفقون على ذلك[١]، لأن الإســـلام هو ببســـاطة العودة إلى الطبيعة الحقيقية للدين، العـــودة إلـــى التوحيد[٢]، ثم كيف أشـــعر بالندم على تركي لدين محشـــو بالكثير من التناقضـــات؟! فمثلاً أن تؤمن بأن رجلاً هو الله كأنك تقول الخالق أصبح مخلوقاً، ثم وفي الوقت نفســـه مازال هو الخالق. ليس هذا فحسب، فإن هذا الخالق اختتن. نعم اختتن. هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

- أخبرني أنت.

- يعني أن جزءاً من الله (من جلدة ذكره) قد اقتطع ورمي في مكان ما.

- هم لا يعنون ذلك.

- ولكن هذا لزام قولهم إن بقوا على ادعائهم بأن المسيح هو الله. وفوق ذلك كله فإن ذلـــك الرجل، الإله ابن الإله، تعرض للضرب والإهانة والبصق عليه، ثم لم يســـتطع حتى حمل الصليب فكان يتعثر ويقع. بل كان على أحد مخلوقاته أن يمد له يد العون في حمله. لا تنس أن هذا الرجل في زعمهم هو خالق السموات والأرض. ثـــم بعد ذلك صلب فجعل يبكي ويذرف الدموع. وعندما وضعت امرأة يدها عليه قال :"من ذا الذي سلبني قوتي". لقد كنت أستغرب هذه الأمور؟ أهذا هو الرب؟!!!

- ولكنهـــم يقولون إن الرب فعل ذلك ليخلص البشـــر من الخطيئة الأولى؛ فبولس يقول: "كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن

---

(١) بعض المسلمين الجدد، وبالذات من الذين قابلتهم، يرفضون أيضاً كلمة التحول، ولكنهم يفضلون وصف اعتناقهم للإسلام بـ" الإكمال " أو " التتميم " باعتبار أن الإسلام يكمل المسيحية ويتممها.

(٢) يقول المؤرخ الكبير " جيبون " في كتابه " صعود الإمبراطورية الرومانية وسقوطها " : " إن عقيدة محمد خالية من شبهة الغموض، والقرآن دليل رائع على وحدانية الله ".

الله ليكفر بموته عن خطيئته" عبرانيين ٧:٢٦ [١].

- هـل تصدق حقاً أن كل البشـر عليهم وزر خطيئـة ارتكبها رجل وامرأة قبل أن يولدوا بعدة آلاف، بل عدة ملايين من السـنين؟ هل تصدق أن الله قد لعن كل الناس لأن أباهم الأول قد أكل قطعة فاكهة من حديقته!!! هذا ليس عدلاً[٢]؛ فأنت لا تعاقب الناس جميعاً لمجرد خطأ ارتكبه فـلان من الناس!!! حتى في هذا المجتمع العلماني؛ إذا أخطأ شـخص ما فلا يعقل أن تعتقل أولاده، ومن باب أولى ألا تعتقل كل من في

---

(١) هذه العقيدة دفعت الكثير من المسيحيين إلى انتقادها وانتقاد الدين بشكل عام. فيقول جوته: "إنني لا أشعر إطلاقاً بأنني أحمل تلك الخطيئة، ولست بحاجة إلى إله ليموت كفارة عني" (أزمة الضمير الأوربي). كما يقول فولتير: "إن الله يقدم نفسه قرباناً لنفسه لإرضاء نفسه!" ويقول أيضاً: "ومع هذه التضحية لخلاص البشر إلا أنهم بقوا على ما هم عليه، ولا تزال النوازع الشريرة التي يعزوها اللاهوتيون للخطيئة الأصلية موجودة. فاللواط الآن أكثر من أيام لوط، والزنى صار منظماً بقوانين في البلاد المتقدمة والحروب صارت أعنف وأكثر دموية، فأين دم الرب الذي سفك ليخلصنا من الخطيئة الأصلية المسؤولة عن كل شرورنا؟ وما كانت نتيجة الإيمان بذلك والدول المسيحية على مر العصور هي في طليعة تلك الحروب؟". ويقول "هوج ديجروت": "كنت أرى في العالم المسيحي إفراطاً في الحروب لو اقترفته الشعوب البربرية لكان مثار خجلها". (أزمة الضمير الأوربي)، "بول هازار".

(٢) وردت الكثير من النصوص في الكتاب المقدس حول عدم حمل الأبناء وزر الآباء وأن ذلك ليس عدلاً، مثل: "لا تموت الآباء لأجل البنين، ولا البنون يموتون لأجل الآباء، بل كل واحد يموت لأجل خطيته" (أيام ٢- ٢٥: ٤). و: "الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله" (رومية ٢: ٦). و: "وكلم الرب موسى وهارون قائلاً: افترزا من بين هذه الجماعة فإني أفنيهم في لحظة. فخرا على وجهيهما وقالا: اللهم إله أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة" (العدد ٢٦: ٢٣)، واستجاب له فعذب بني قورح فقط. وأيضاً: "وأنتم تقولون: لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب؟ أما الابن فقد فعل حقاً وعدلاً حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيا. النفس التي تخطئ هي تموت. الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن. بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون... فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا. لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه في بره" (حزقيال ١٨: ١٩- ٢٢). وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، و﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨].

الدولة، فهذا ليس عدلاً. أكلنا مذنبون بسبب خطيئة وقع فيها اثنان[١]؟!! ومما يزيد الأمر سخافة علاوة على ذلك أن الرب كان عليه أن يضحي بشخص لا ذنب له، بل يصليه أقسى أنواع العذاب، فقط كي يغفر لنا ذنباً لم نرتكبه. نعم يعاقب شخصاً بريئاً ليمسح الخطيئة وهذا في النهاية من أجل إرضاء نفسه[٢].

- أي إن الرب صالح نفسه بجعل البشر يقتلونه كي يستطيع أن يسامحهم على خطأ جدهم!!!

- بالضبط. أي إله هذا الذي يعاقب نفسه من أجل خطيئة لم يرتكبها البشر. هذا ليس عدلاً فمن أين جاؤوا بذلك؟!!!

- يقولون إن الله قد أحب العالم فبذل ابنه الوحيد في سبيله.

- أيحبه لدرجة أن يقتل بريئاً بلا خطيئة؟ من أجل ماذا؟ ليريح ضميره؟ كي يغفر خطيئة ألصقت بالناس ظلماً؟

- أنت محق في ذلك، فلو كان الله يريد أن يغفر للبشر لقال: غفرت لكم، أو اطلبوا المغفرة وسأغفر لكم.

- ولكنه، حسب زعمهم، أبى إلا أن يعذب ابنه الوحيد ثم يقتله ويجعله ملعوناً[٣]،

---

(١) الغريب أن بولس يقول مرة إن الخطيئة الأصلية انتقلت للكل (رومه ٥ : ١٢) ومرة ثانية (في الإصحاح نفسه) يقول إنها انتقلت للكثيرين (رومه ٥ : ١٩)، والفرق شاسع بين الكل والكثيرين.

(٢) الأمر الأسخف بنظر بعض تاركي المسيحية هو: لماذا مات المسيح وليس الشيطان، بل تحمل اللعنة أيضاً (كما سيمر معنا في الحاشية التالية)، مع أن الشيطان هو المتسبب الرئيسي للخطية الأصلية وكل خطية في العالم؟ وأن الكتاب المقدس يقول أن "الشرير فدية الصديق" (أمثال ٢١ : ١٨) ومن يجيبهم: لأن المسيح ابن الله، يجيبونه بأن الكتاب المقدس يزعم أن الشيطان أيضاً كان من أبناء الله (تعالى الله عما يصفون)، كما في سفر أيوب ١ : ٦ : "وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم" وأن علاقة الشيطان بالرب استمرت وكلفه بضرب أيوب بقرح رديء وغيره من الأمور!!! لاحظ أن الشيطان لم يعاقب كآدم وجميع بنيه.

(٣) يقول بولس: "والمسيح حررنا من لعنة الشريعة بأن صار لعنة من أجلنا فالكتاب يقول: "ملعون كل من مات معلقاً على خشبة" (تثنية ٢١ : ٢٣)، وهذا ما فعله المسيح لتصير فيه بركة إبراهيم إلى غير اليهود فننال بالإيمان الروح الموعود به" (غلاطية ٣ : ١٣-١٤).

ليس هذا فحسب، فذلك الشخص حسب عقيدتهم ليس ابنه فقط بل هو نفسه!!! هل تفهم معنى ذلك؟

- أجل، أي إن الرب من أجل أن يرضي نفسه كان عليه أن ينزل الأرض ليُضرب ويهان ويبصق عليه، ثم يعذب ويقتل ويلعن[1].

- تماماً، وكل ذلك كي يرتاح ضميره. لا يمكن لشخص عاقل أن يؤمن بدين كهذا، إلا إذا نشأ عليه منذ الصغر كما كان الحال معي ومع الأغلبية العظمى من الناس حولنا.

- وما الذي جعلك تفكر في الإسلام دون غيره كبديل.

- لم يكن الإسلام هو أول ما فكرت به ودرسته من الأديان خلال بحثي عن الحقيقة، ولكنه كان الدين الوحيد الذي أقنعني بأنه الحق.

- ما الذي قادك إلى هذه النتيجة؟

- القرآن الكريم. فبعد اطلاعي على كتب كثيرة وديانات مختلفة وثقافات متعددة، وجدتني أقول في نفسي بعد أن قرأته أنه لو كان يوجد الآن حقاً كتاب من الله ودون أي تغيير لكان هو القرآن لا محالة. وفي نفس تلك الليلة رحت أسترجع شكل طباخنا القديم في صلاته وكيف كان يركع ويسجد، فلم أكن أعرف كيف أصلي آنذاك، ولكنني

---

(١) إذا كان الرب هو المسيح، تعالى الله عما يصفون، فمن الذي كان يخاطبه المسيح في الأناجيل بلفظ إلهي؟ أم أنه كان يخاطب نفسه؟ انظر قول المسيح عليه السلام: "وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع الذي أرسلته" (يوحنا ١٧ : ٣). وقوله: "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا ١٨ : ٢٠)، وقوله عن نفسه: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً" (يوحنا ٥ : ٣٠)، لذا عجز أن يعد ابني زبدي بالملكوت (متى ٢٠ : ٢٣)، ولما سماه أحدهم صالحاً قال: "لم تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد، وهو الله" (لوقا ١٨ : ١٨-٢٠). وأخبر في (مرقس١٣ : ٣٢) أنه لا يعلم وقت يوم القيامة، ولكن الله هو الذي يعلمها، أفيكون المسيح هو الله ويجهل ما يعلمه الله؟ أم أن العلم والإرادة والصلاح صفات للجسد وليست صفات للروح؟ ومن الذي كان يصلي له المسيح إن كان هو الرب؟! ألم يذكر العهد الجديد أن المسيح كان يعبد الله؟ أكان المسيح يعبد نفسه؟

بذلت ما بوسعي وصليت. وأستطيع القول بأني في تلك الأيام اعتنقت الإسلام. والحمد لله أنه أخرجني من الظلمات إلى النور، وكأنني كنت ميتاً فأحياني، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله[١].

- ما الذي تراه في الإسلام، وتفتقر إليه الكاثوليكية وبقية الأديان؟!!

- الإسلام يجعل الله محور كل شيء. إنه ليس حول ما فعله يسوع لي، إنه ليس تقديم صلوات من أجلي، إنه الله، كل شيء يدور حول الله. الشيء الآخر هو أن الإسلام يشمل كل جانب من جوانب الحياة؛ إنه ليس الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد فحسب؛ بل يخبرك كيف تحيي الناس، وكيف تأكل طعامك، وكيف تدخل إلى غرفة، كيف تفعل كل شيء في الحياة. كما أن المسلمين لا يدّعون أنهم قديسون، والإسلام يشجع المسلمين على التفكير في الله في كل وقت. الإسلام، في جوهره ينسب كل شيء إلى الله. بالنسبة إلى المسلمين، الإسلام هو كل شيء[٢].

- ماذا أعطاك الإسلام!

- لقد أعطاني الله بالإسلام ذلك الشيء الذي كنت أفتقده في حياتي وكنت أتمناه على الدوام، لقد عرفت من أنا وإلى أين وكيف ولماذا، وما إلى ذلك من التساؤلات، لقد أرجعني الإسلام إلى إنسانيتي وفطرتي وروحي ونفسي، لقد أدركت بالإسلام سرّ

---

(١) هنا ينتهي تدوين نص التسجيل المرئي من شبكة الإسلام للجميع. وبقية ما سيرد على لسان إستس ليس له علاقة بذلك التسجيل. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من الأوربيين الذين دخلوا في الإسلام، ومن بينهم زوجتي، قالوا لي إن الإسلام يفتح المدارك ويعمل التفكير ويجعلهم يتساءلون ويحللون ولا يقبلون التسليم بغير المنطق. في حين كانوا قبل ذلك يصدقون أموراً يضحكون من أنفسهم الآن لأنهم قبلوا أن يخدعوا بها يوماً من الأيام. وهم يقولون إن المسلمين منذ الولادة لا يشعرون بنعمة ذلك الكشف.

(٢) هذه الفقرة هي ترجمة لإجابة "إدريس توفيق" (كاهن كاثوليكي بريطاني اعتنق الإسلام مؤخراً) عن السؤال نفسه، وجهته له الصحفية "ماري فيتزجيرالد" في لقاء مطول معه في مجلة أيريش تايمز.

http://www.ireland.com/newspaper/world/2006/0811/1154691576730.html

كما يمكن زيارة موقعه

http://www.idristawfiq.com.

الحياة وسرّ الوجود وسرّ الممات وما بعد الممات، وبعد أن كنت عبثياً شهوانياً استرجعت هويتي الإنسانية بفضل الإسلام. لقد أعطاني الإسلام منهج حياة وأستطيع أن أقول: أنا مسلم إذن أنا موجود، فقبل الإسلام كنت عدماً، لم أكن شيئاً مذكوراً.. والحمد لله ربّ العالمين الذي هداني إلى خطّ الإسلام[1].

نظر إستس إلى ساعته، ثم قال مستغرباً:

- يا إلهي، أتعرف كم الساعة الآن؟

نظر أبراهام إلى ساعته بغير اكتراث ثم أجاب قائلاً:

- وماذا في ذلك؟

- لقد أخذنا الوقت فعلاً. ولابد أن والديَّ قلقان علي الآن.

- يا لي من قليل الذوق؛ فقد نسيت أمر الطعام تماماً. هيا بنا إلى المطعم لنتناول الغداء، وتستطيع هناك الاتصال لإعلامهما أنك ستتأخر قليلاً.

- أي غداء يا صديقي؟ لقد أصبح اسمه عشاء الآن، وسنتناوله عندي، فطعام والدتي لا يعلوه طعامُ أي مطعم.

- أنا واثق من ذلك. ولكنني للأسف لن أستطيع مرافقتك، مع أن حديثك جديد علي فعلاً، وأرغب بمعرفة المزيد.

صمت قليلاً، ثم سأله برجاء:

- هل يمكنني الطمع ببقائك لمدة أطول؟

- اعذرني يا صديقي، فمع أن الحديث معك شائق فعلاً، إلا أنني مضطر أن أرحل الآن؛ فلدي عمل مهم لا بد من إنهائه كي أسلمه غداً صباحاً.

---

(١) هذه الفقرة هي الترجمة الحرفية لإجابة السويدي سيبستيان بلاسكو (المتخصص في الاقتصاد الدولي والمتخرّج في الجامعات السويدية والأمريكية) عن السؤال نفسه في حوار أجراه معه الكاتب والمفكر يحيى أبو زكريا نقلاً عن موقع الجزائر تايمز

http://www.algeriatimes.net/news/algernews.cfm?ID=1778.

- ستسلمه هنا في لندن، أم هناك حيث تقيم؟

- بل هنا، فالشيخ "خطاب" الذي كلفني بذلك العمل يسكن بالقرب من هنا.

- أهو أحد شيوخ الصحراء العرب؟

- كلا.

أجاب إستس ضاحكاً، ثم أردف متابعاً:

- إنه إنجليزي قح ومن أســـرة نبيلة لها تاريخ عريق، فقد كان اسمه قبل أن يعتنق الإسلام هو "وليم نورثمبرلند".

- لماذا تلقبه بالشيخ إذن؟

- لأنه مع كونه أســـتاذاً جامعياً وحاصلاً على أعلى الشهادات في التاريخ واللغات السامية، إلا أنه هاجر بعد إسلامه إلى الحجاز ومصر والشام طلباً للعلم. وبعد عودته وقف جزءاً كبيراً من وقته للدعوة الإسلامية وتدريس الشريعة، وجعله الله تعالى سبباً في هداية الكثير من أبناء وطنه.

- حسناً، مادمت مضطراً أن تكون هنا غداً صباحاً، فهل تستطيع أن تمر علي فور انتهائك من مقابلته؟

- بكل ســـرور. بالمناســـبة، إن الموضوع الذي يعمل عليه الشيخ حالياً، وأساعده به متعلق بحديثنا اليوم.

- اعذرنـــي على تطفلي، ولكن، إذا كان الأمر كذلك فهل من الممكن أن تصطحبني معك غداً لمقابلته معاً؟ أنا سأتفهم الموضوع بالطبع، لو كان في ذلك أي إحراج لك.

شـــعر إستس عندها أن هناك حكمة إلهية قادته إلى اللقاء من غير ميعاد مع هذا الشاب المتلهف للعثور على الحقيقة، وأن الله سبحانه وتعالى ربما قد استجاب لدعوته بأن يهدي رجلاً إلى الإســـلام على يده. فأجاب باسماً وهو يتمنى من كل قلبه أن يمن الله عليه بذلك الأجر الذي هو خير من الدنيا وما فيها:

- كلا بالطبع، بل أنا متأكد من أن ذلك سيكون من دواعي سروره.
- هذا رائع. أين سأجدكما إذن؟
- أنا سأمر عليك في الثامنة والنصف، ثم نذهب معاً إلى منزله.
- اتفقنا. وستجدني منتظراً على أحر من الجمر.

سرقات لاهوتية

ظل أبراهام جالســاً وهو يحاول أن يهضم كل تلــك المعلومات التي تحصل عليها اليوم. وبدأ يفكر في حقيقة المسيحية وما داخلها من أوهام.

- ولكــن إذا كان هذا هو حال المســيحية، الذي هو حال اليهودية كما تكشــف له سابقاً، فأين هي الحقيقة النقية التي لم يداخلها وهم أو حذف أو إضافة، أو أية شائبة أخرى؟ أيعقل أن تكون هي الإسلام؟!!! مستحيل.

قال أبراهام في نفسه. ثم قام من مكانه يريد العودة إلى غرفته، ولكنه توقف عند باب المصعد مفكراً:

- في الغد ســوف أقابل ذلك الشيخ المسلم، ولابد أن إستس يتصل به الآن ليخبره بأنه سيأتيه بشــخص حائر يبحث عن إجابات لأسئلة كثيرة تدور في خلده، ولابد أن ذلك الشــيخ يفرك كفيه فرحاً وهو يقول: "هذا رائع. ســنقوم باســتغلال ذلك جيداً لإقناعه بالإســلام". لكن لا، لن أذهب إلى مقابلته وأنــا على هذه الحالة من الحيرة والشك، لن أكون صيداً سهلاً لأولئك الإرهابيين أو غيرهم.

- أيها السيد، ستصعد أم لا.

قال خــادم المصعد الذي طال انتظاره من وقوف أبراهام حائراً على باب المصعد. فأجاب أبراهام ساهماً:

- كلا؛ فقد تذكرت أمراً علي القيام به أولاً، اعذرني على استدعائك.

ثم استدار نحو بوابة الفندق مغادراً، وهو يقول في نفسه:

- لا بد أن أرتب أفكاري أولاً. لقد تبدلت اليهودية جذرياً عنها في زمن موسى وبقية أنبياء إسرائيل، وكفر الأغلبية العظمى من اليهود بإله إسرائيل، وتشوه إيمان البقية التي لم تكفر به تماماً، حتى لم يبق من معرفتهم به إلا الاسم. حتى الاسم، يبدو أنهم قد أضاعوه فعلاً، واستبدلوا به يهوه، الذي يبدو أنه مجرد وهم. ثم أرسل الربُ إليهم يسوع، أو عيسى، ليرجعهم إلى الحق؛ فكفرت منهم طائفة ظلت على أوهامها التي ازدادت أكثر وتراكمت على مر الزمن، وآمنت به طائفة أخرى، فنشرت ذلك الإيمان بين الأمم. إن المسيحية هي أملي الأخير في أن الرب لم يتركنا، بل أرسل إلينا الهدى الذي يرشدنا إليه. فإن سلمت بأن المسيحية هي كذبة، أو على الأقل قد تم التلاعب بأصولها وتحريف وإبادة الكثير من نصوصها، بما فيها اسم الرب، بالإضافة إلى تشويه صورته ووصمه بالتعدد، فإن هذا يعني أنه لم يبقَ على الأرض من يؤمن بالرب إلا بعض المسلمين!!! فهل الرب إله إسرائيل هو الله إله المسلمين؟!!! أنا لن أفقد الأمل من المسيحية حتى أتأكد أولاً من صحة ما سمعته اليوم، فقد يكون يسوع فعلاً هو روح الرب الذي تجسد على شكل إنسان ليرينا الطريق بعد كل الأوهام التي شوهت دينه، قد يكون فعلاً صورة بشرية عن الله. قد يكون الرب قد بعث إلينا ابنه الإلهي فعلاً بعد أن فشلت جميع الرسل البشرية في تحقيق الخلاص. إذا كان هذا هو مقصد الرب فعلاً، فكل ما سمعته اليوم زائف لا نصيب له من الصحة. أما إذا كان ما عرفته اليوم صحيحاً، فلا بد أن تلك الادعاءات هي مقصد الشيطان، واستعارة من تلك الأساطير والأوهام التي احتال وأغوى بها البشرية مراراً وتكراراً، في سعيه المحموم لإضلال البشر. أرشدْني يا رب وأرني الحقيقة حقيقة، والباطل باطلاً.

توقف أبراهام عند كبينة هاتف عمومي، وأخرج من جيبه قائمة أرقام الهواتف التي أخذها من الأب ديمتري، واتصل بـ"دراشتير تريلا" أحد معدي فيلم "روح الزمن"[1].

- عمت مســاء ســيدي. هذا أنا ثانية؛ أبراهام دوخافيتسكي. هل يزعجك تقديم موعدنا إلى الليلة بدلاً من الغد؟

جلس أبراهام في المقهى الذي حدده السيد تريلا للقاء، وهو يفكر في تحديد الأسئلة التي سيطرحها عليه عند قدومه، فعندما وافق على مقابلته اليوم، اشترط ألا يزيد اللقاء على نصف ساعة فقط. وبينما هو على هذه الحال اقترب منه رجل وقور قائلاً:

- سيد دوخافيتسكي، أليس كذلك؟!

قام أبراها مرحباً، وصافحه قائلاً:

- أجل. سررت بلقائك سيدي. تفضل بالجلوس.

- شكراً.

- أكرر أسفي على تقديم الموعد.

- لا عليك. ولكن هل لي أن أسأل عن السبب؟

- لا شــيء. فقط بعض المســتجدات العائلية التي قد تضطرني إلى تقليص مدة زيارتي لإنجلترا.

---

(١) الفيلم حقيقي واسمه "روح العصر"، والمشارك اسمه "ريتشارد ألبرت" (قمت بقلب اسمه كالعادة)، وقد استشهدنا بالفيلم نفسه في رواية بشارات هائمة للمؤلف. وهو فيلم وثائقي طويل جداً يتحدث عن فساد المؤسسات الدينية والحكومية والإعلامية، وسيطرة تجار الحرب والصيارفة على العالم، وترتيبهم لحوادث وهمية من أجل إشعال نار الحروب المتعددة، وتحديداً الحرب الأخيرة على الإرهاب. حيث يسهب الفيلم في الحديث عن كشف ملابسات الحادي عشر من سبتمبر، وإزالة الغموض عن أسبابها وعن المستفيدين الحقيقيين منها. والفيلم يظهر أن الأساليب المتبعة في كل ذلك الفساد واحدة، على اختلاف الدول والأزمنة، ويقوم بها الأشخاص أنفسهم من وراء الكواليس تحضيراً لحكومة عالمية واحدة. وفيما يلي ستجدون ترجمة حرفية للقسم الذي يتحدث عن المسيحية. وكالعادة مع تصرف بسيط في العرض على شكل حوار بين اثنين.

- أتمنى ألا يكون هناك شيء خطير.

- ليس كثيراً، ولكنني أشـــكرك وأقدر اهتمامك، وأقـــدر أكثرَ تخصيصَ جزء من وقتك لي على كثرة مشاغلك.

- حسناً، فلنترك المجاملات الدبلوماسية جانباً. كيف أستطيع أن أخدمك؟

- في الواقع لا أعرف من أين أبدأ؛ فهناك الكثير من الأســـئلة التي تحيرني. من أين جاء مفهوم ابن الله؟ ومن أين جاء الصليب؟ وما علاقة المسيحية بالشمس؟ وأسئلة كثيرة أخرى.

- حسناً، بالنســـبة إلى الشـــمس؛ فالتاريخ يعج بحفريات وكتابات تعكس احترام الشعوب وإعجابها بالشمس منذ عشرات آلاف السنين قبل الميلاد.

- لماذا؟

- من الســـهل معرفة السبب، فالشمس تشـــرق كل صباح محضرة الرؤية والدفء والأمان، ومنقذة الإنسان من براثن الليل البارد، المليء بالحيوانات المتوحشة، المتعسرةِ فيـــه الرؤية، والكهربـــاء التي ننعم بها حالياً لم تكن متوافـــرة آنذاك. كما أن مختلف الثقافات القديمة قد اكتشفت أنه لولا الشمس لما نمت المزروعات، ولا بقيت حياة على الأرض. هذه الحقائق جعلت من الشـــمس أكثر كائن معبود على الإطلاق. كذلك كانت الثقافات القديمة واعية أيضاً بوجود النجوم، وقد ســـمح لهم تتبع حركة النجوم بتوقع ظروف تحدث خلال فترات طويلة من الزمن، مثل كســـوف الشـــمس والقمر البدري الكامل، ثم قاموا بفهرسة مجموعات النجوم السماوية إلى ما يعرف حالياً بالأبراج.

أخرج السيد تريلا جهاز الكومبيوتر النقال من حقيبته، وفتح ملفاً يحوي مجموعة من صور الرســـومات الأثرية، وعرض من بينها شـــكلاً يمثل دائرة كبيرة مقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة صليب، رسم في مركزه دائرة أصغر على شكل الشمس. كان كل

جزء من الأجزاء الأربعة مقسماً بدوره إلى ثلاثة أقسام أصغر، وقد رسم على كل منها رمز أحد الأبراج السماوية التي تشكل في مجموعها الاثني عشر برجاً فلكياً، وقال وهو يشير إليها:

- هذا هو صليب دائرة البروج، وأحد أقدم الصور التصويرية في التاريخ الإنساني. إنه يعبر عن الشمس، عندما تعبر مجازياً عبر الاثني عشر برجاً خلال السنة. كما أنه يعبر عن الأشهر الاثني عشر في السنة، وعن الفصول الأربعة، وتوضعات الشمس العلوية والسفلية، بالإضافة إلى الاعتدالات الخريفية والربيعية. ويتعلق مصطلح "دائرة البروج" بتجسيم البروج الشمسية كبشر أو حيوانات أو مظاهر. بكلمات أوضح، لم تقم الحضارات القديمة فقط باتباع الشمس والنجوم، وإنما قامت أيضاً بأنسنة (من كلمة إنسان) حركاتها وعلاقتها بعضها ببعض في أساطير مختلفة. وبرج الدلو (Aquarius) مثلاً، الذي يصور برجل يصب الماء من دلو يحمله كان يمثل منزل المطر خلال فصل الربيع. فقد اعتبرت البروج الاثني عشر الفلكية مكاناً لسفر الشمس التي تم تجسيدها أيضاً بصفاتها المعطية والمنقذة للحياة على أنها الرب، وصارت تعرف بـ "نور العالم"، و"منقذ البشرية"، و"ابن الله".

ثم عرض رسماً آخر يصور شخصاً بجسم إنسان، ورأس طير، متوجاً بالشمس، وبجانبه رمزه المشهور الذي هو على شكل عين كبيرة، وقال:

- هذا هو "حورس" (Horus) إله الشمس المجسمة كإنسان عند المصريين القدماء. وحياته هي سلسلة من الأساطير المستعارة من حركة الشمس في السماء، من الكتابات الهيروغليفية في مصر القديمة، نحن نعرف كثيراً عن هذا المخلص الشمسي الذي يجسد النور، وعدوه "سيت" (Set) الذي هو تجسيد للظلام أو الليل. كانوا يفسرون تعاقب الليل والنهار بأن حورس يربح المعركة ضد سيت كل صباح، أما في الليل، فكان سيت يقهر حورس ويرسله إلى العالم السفلي. من المهم الملاحظة أن هذا الصراع بين

"الظلام والنور" أو "الخير والشـــر" هو من أشيع المثنويات الأسطورية التي قد عرفت قط، وما زالت تمارس على نطاق واسع حتى يومنا هذا.

- ما علاقة ذلك بموضوعنا.

- لقد ولد حورس يوم ٢٥ كانون الأول/ديسمبر من العذراء "أيسيس-ميري" (Isis-Meri) وترافقت ولادته بظهور نجمة في الشـــرق، ثـــم قام ثلاثة ملوك باللحاق به لاتباع هذا المولود "المخلص"، في سن الثانية عشرة، كان طفلاً سخياً معلماً، وفي سن الثلاثين قـــام "أنوب"(Anup) بتعميده، وهكذا بدأ كهنوته، حيث تبعه اثنا عشـــر تلميذاً، وصنع المعجزات؛ مثل شـــفاء المرضى والمشي على الماء، وقد عُرف حورس بالعديد من الأسماء الإيحائية مثل: "الحقيقة"، "النور"، "ابن الله المكلف"، "حمل الله"، "الراعي الطيب"... إلخ. وبعد أن خانه " تيفون" (Typhon)، صلب حورس، ودفن لثلاثة أيام، ثم قام من الموتى.

- إذن حورس (نحو٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد) هو أصل هذه المعتقدات؟

- بغـــض النظر عن كونه الأصل أو أن إلهاً قبله قـــد اختص بتلك الخصال، فمن المؤكـــد أنها تكررت في العديد من الثقافات في العالم على مر الأجيال. حيث وجدت العديد مـــن الآلهة الأخرى التي تحمل نفس الإطار الأســـطوري العام؛ ففي فيريجيا ولد "آتيس" (Attis) (١٢٠٠ســـنة قبل الميلاد تقريباً) من العذراء "نانا" في ٢٥ كانون الأول/ديســـمبر أيضاً، ثم صلب ودفن، وبعد ثلاثـــة أيام قام من الموتى. في الهند ولد "كريشنا"(Krishna) (نحو٩٠٠ سنة قبل الميلاد) من العذراء "ديفاكي" (Devaki) مع نجمة في الشـــرق تعلن ولادته، وقام بالمعجزات مع أصحابه، وبعد موته قام من الموت. في اليونان ولد "دينوســـيس" (Dionysus) (نحو٥٠٠ سنة قبل الميلاد) من عذراء في ٢٥ كانون الأول/ديســـمبر، وكان معلماً رحالاً، فعل معجزات؛ مثل تحويله الماء إلى نبيذ مثلاً، وقد تمت الإشـــارة إليه بأســـماء مثل: "ملك الملوك"، "ابن الله الوحيد"، "الآلفا" و"الأوميغا"... إلخ، وبعد موته قام من الأموات.

كان تربلا يدعم كل أقواله بصور لتماثيل أو رسومات أثرية على الحفريات، وعندما عرض صورة لقطعة أثرية من الحجر نقش عليها رسم دينوسيس وهو مصلوب، لاحظ أبراهـــام أنه كان معلقاً على الصليب بالطريقة نفســـها التي نقشـــت على الأيقونات والتماثيل في الكنائس، وبشـــكل دقيق يثير الدهشـــة، وكان الاختلاف فقط في غياب ملامح المصلوب، وفي شـــكل الجزء العلوي من الصليب الذي يميل إلى الاستدارة بدل الزوايا الحادة، ويعلوه هلال بدلاً من اللوحة المكتوبة التي تتوســـطه في صليب يسوع. وفيما كان تربلا يقلب بين الصور لاحظ أبراهام رسماً لشاب حول رأسه هالة، وينبعث منه أشـــواك غليظة مدببة في كل الاتجاهات، رافعاً كفه الأيمن، ويقبض كفه الأيسر على جسم مكور مثل صور بعض الباباوات، فسأله مستفسراً:

- ومن هذا؟

- أوه يا صديقي. إن عدد أولئك المخلصين الشمسيين أكبر من أن يحصى في مثل هذه العجالة، ولكن لا بأس في الحديث عنه هو أيضاً، فلديه أمر مثير للانتباه بشكل كبير؛ إنه "ميثرا" (Mithra) (نحو١٢٠٠ ســـنة قبل الميلاد) من فارس، وهو أيضاً ولد من عذراء في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر، وهو الآخر كان لديه اثنا عشر تلميذاً، وصنع المعجزات، بعد موته بثلاثة أيام، قام من الموتى، كما تمت الإشارة إليه أيضاً بـ"الحقيقة"، "النور"...إلخ.

- وما الأمر المثير للانتباه في شأنه؟

- أن يوم عبادة ميثرا بالذات كان يوم الأحد الذي هو يوم الشمس[1].

---

(١) حسم المسيحيون رسمياً في بداية القرن الرابع الميلادي مسألة تبديل يوم عطلة السبت إلى يوم الأحد (يوم الشمس لدى الروم الوثنيين سابقاً) والذي لا يزال يحتفظ بمعناه الحرفي إلى الآن في بعض اللغات الأوربية العريقة مثل Sunday بالإنجليزية وSonntag بالألمانية. ومع أن بعض الأرثوذكس يؤكدون أن تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام هو ٧/ ١، إلا أن أغلب المسيحيين يحتفلون به في ٢٥/ ١٢، وهو عيد آلهة الشمس عند الرومان الوثنيين. ويقول الأسقف "بارنز" أن هذا التاريخ (٢٥كانون الأول/ ديسمبر) قد صادف يوم احتفال كبير بعيد وثني قومي في روما، ولم تستطع الكنيسة أن تلغي هذا العيد، بل باركته كعيد قومي لشمس البر، فصار ذلك تقليدياً منذ ذاك الوقت. (دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف شامبرو). كما يجدر التنبيه أن كنائس المسيحيين تتجه نحو الشرق، كما أن تقويمهم شمسي.

- هذا مثير للاهتمام، وكذلك بقية الأمور الأخرى التي ذكرتها والتي يشـــتركون بها جميعاً. ففي هذا يشترك معهم يسوع المسيح أيضاً؛ فهو قد ولد من مريم العذراء في ٢٥ كانون الأول/ديسمبر في مدينة بيت لحم. وقد تم إعلان ولادته بنجمة في الشرق، وقام ثلاثة من الملوك المجوس بتتبعها. وبعمر الثانية عشـــرة كان طفلاً معلماً، بعمر الثلاثين قام يوحنا المعمدان بتعميده، وهكذا بدأ كهنوته. وقد ارتحل المسيح مع اثني عشر تلميذاً، وصنع المعجزات كـ"شفاء المرضى" و"المشي على الماء"، وكان أيضاً يعرف بـ"ملك الملوك"، "ابن الله"، "نور العالـــم"، الـ"ألفا" والـ"أوميغا"، "حمل الرب"...إلخ. وبعد أن تمت خيانته وبيعه من قبل يهوذا بثلاثين قطعة من الفضة، تم صلبه ووُضِع في قبر، وبعد ثلاثة أيام قام من الموت وصعد نحو السماء!!! فلماذا كان كل أولئك "المخلصين" يتشاركون بكل هذه الصفات العامة بالذات، على تباعد الأزمنة والأمكنة التي كانوا فيها؟

- كبداية، يجب أن تعلم أن كل حادثة الولادة هي تنجيمية. فالنجمة الشـــرقية هي "ســـيريوس" (Sirius) التي هي أشـــع نجمة في الليل. وفي ٢٤ كانون الأول/ديسمبر، تصطف مع النجوم المشعة الثلاث في حزام "الجوزاء" (Orion). هذه النجوم الثلاث كانت تسمى منذ القدم بـ"الملوك الثلاثة". إن اصطفاف سيريوس والملوك الثلاثة يشير إلى ولادة الشـــمس في ٢٥ كانون الأول/ديســـمبر، وهو ما يفسر سبب" اتباع" الملوك الثلاثة للنجمة الشرقية وقت ولادة المخلص.

عرض تربلا صورة لإحدى اللوحات الكنســـية التـــي تمثل الملوك المجوس الثلاثة أمام مريم العذراء وهي تحمل الطفل يسوع، وقد ظهر في السماء نجم الشرق. ثم عرض صوراً فلكية تظهر ســـيريوس الحقيقي، الذي كان كبير الشـــبه بالنجم المشع أعلى اللوحة. كما عرض صوراً فلكية أخرى التقطت لاصطفافه مع النجوم الثلاثة مشيرين إلى الشمس في أدنى نقطة لها في الســـماء، بالنسبة إلى الأرض، قبل أن تعاود الارتفاع ثانية. وبعد ذلك عاد لعرض اللوحة مرة أخرى وتابع كلامه وهو يشير إلى رسم مريم العذراء فيها قائلاً:

- العـــذراء هي Virgo في دائرة البروج، ويرمز لهـــا في اللاتينية بالحرف "m" وهو الســـبب وراء كون أمهات المخلصين تبدأ أســـماؤهن بحرف "م"[١]، ويشار إلى برج العذراء أيضاً بـ"بيت الخبز"، لذا يُمثل بعذراء تحمل حزمة من القمح. بيت الخبز هذا، المرموز له بالقمح، يمثل شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر، وهو وقت الحصاد. وفي الحقيقة تترجم كلمـــة "بيت لحم" إلى "بيت الخبز". لذلك "بيت لحم" هو مرجع للبرج الفلكي العذراء في واقع الأمر، أي إنه مكان في السماء وليس على الأرض.

- ألهذا يقول المسيحيون أن الخبز هو لحم المسيح؟

- ملاحظة موفقـــة. على كل الأحوال فهناك ظاهرة أخـــرى جديرة بالاهتمام تحدث في ٢٥ كانون الأول/ديســـمبر؛ وهي"الانحراف الشـــتوي الأقصى" للشمس عن الاستواء انطلاقاً من "الانحراف الصيفي" نحو "الانحراف الشتوي" تغدو الأيام أقصـــر وأبرد. ومن منظور نصف الكرة الأرضية الشـــمالي تبدو الشـــمس وكأنها تصبح أصغر حجماً، وأقل إشـــعاعاً وتتجه جنوباً. وربطوا هذا بقِصَر الأيام وانتهاء المحاصيـــل. ومع اقتراب "الانحراف الأعظمي الشـــتوي" كان ذلك هو عملية الموت بالنســـبة إلى الشعوب القديمة، لقد كان "موت الشـــمس". فعندما يحل ٢٢ كانون الأول/ديســـمبر، يصبح فناء الشمس محققاً، فالشـــمس قد تحركت نحو الجنوب بشكل مستمر على مدى ٦ أشهر، لتصل إلى المكان الأكثر سفلية في السماء بالنسبة إلى الأرض. وهنا أمر مثير للاهتمام، فالشمس تبدو وكأنها قد توقفت عن الحركة لثلاثـــة أيام. خلال هذه الأيـــام الثلاثة الفاصلـــة (٢٢، ٢٣، ٢٤ من كانون الأول/ ديســـمبر) تقع الشمس قرب "التشـــكيلة الفلكية الصليبية (Crux) "Southern cross". وبعد ذلك، في ٢٥ كانون الأول/ديســـمبر، تتحرك الشـــمس درجة واحدة

(١) هذه مصادفة بحتة، ولا يبدأ بحرف الميم إلا الاسم (الثاني) لأم حورس "ميري"، واسم أم "أدونيس" "ميرا"، واسم أم "بوذا" "مايا".

شمالاً، مبشرة بطول الأيام والدفء والربيع[1].

- لهذا السبب يقال ماتت الشمس على الصليب؟!

- أجل فالشمس تموت على صليب التشكيلة الفلكية لثلاثة أيام فقط، لتقوم أو تولد من جديد. ولهذا السبب يتشارك المسيح وآلهة الشمس الأخرى بمفهوم الولادة بتاريخ ١٢/٢٥، والصلب، والموت لثلاثة أيام، والقيامة. إنها الفترة الانتقالية للشمس قبل أن تغير اتجاهها نحو نصف الكرة الأرضية الشمالي، محضرة الربيع وأيضاً

---

(١) على الرغم من عدم وجود نص واحد في العهد الجديد يحدد ميلاد المسيح، ولكن ما يُفهم من الأناجيل أنه بالتأكيد لم يولد في آخر كانون الأول/ ديسمبر نظراً لاستحالة بيات الرعاة في العراء "يحرسون حراسات الليل على رعيّتهم" (لوقا ٢ : ٨) في مثل ذلك الوقت من السنة الذي يكون فيه الجو بفلسطين قارص البرودة، وربما تتساقط الثلوج!!! كما أن عيد الميلاد المحدد بيوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر لم يكن من الأعياد المسيحية الأولى ولا يرد اسمه في قوائم الأعياد التي نشرها كل من إيريناوس أو ترتوليان (راجع موسوعة أونيفرساليس الفرنسية Universalis والموسوعة الكاثوليكية الأمريكية). ونطالع في الموسوعة الفرنسية تحديداً: "إن عيد الميلاد لا يمثل عيد مولد يسوع بمعنى الكلمة لأن تاريخ مولده مجهول" (ط١٩٦٨، ج١٩)! وتؤكد مارتين برّو (M. Perrot)، الباحثة بمعهد البحوث القومي في باريس في كتاب حول "أصول عيد الميلاد" (٢٠٠٠): "أن الكنيسة قد أقامت عيد الميلاد على احتفال وثني وفي مكانه، واستعانت بكثير من التفاصيل الوثنية؛ كالشجرة، والكعكة على شكل حطبة، ونبات الدبق، والهدايا... إلخ"... أي إن المؤسسة الكنسية استحوذت على عيد وثني وقامت بتنصيره لترسيخ عقائدها بين الشعوب التي تقوم بتنصيرها! وقد تم تحديد تاريخ ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر لعيد ميلاد يسوع في منتصف القرن الرابع. وقبل ربطه بذلك اليوم فكروا في تثبيته في عدة تواريخ؛ منها ٦ كانون الثاني/ يناير الذي كان يرمز لعيد تعميده، في حين كان يوم أول كانون الثاني/ يناير يرمز لعيد ختانه الذي ألغته الكنيسة لتضع مكانه عيد "القديسة مريم أم الله"! لكنهم استقروا على يوم ٢٥ لأنه كان يمثل الاحتفال بعيد الشمس التي لا تقهر (Sol Invests)، وعيد الميلاد الخاص بالإله "ميثرا" الشديد الانتشار آنذاك بين الشعب والجيش الروماني، خاصة بعد أن قام الإمبراطور أورليان (٢٧٠-٢٧٥) بإعلانه "الإله الحامي الأساسي للإمبراطورية"، وجعل من ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، صبيحة مدار الشتاء، عيداً رسمياً. وتعد هذه المعلومة من الحقائق الأبجدية المسلّم بها في الغرب، فعندما سألوا البابا السابق يوحنا بولس الثاني، يوم ٢٢كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣، عن رأيه في هذا الخلط والاستحواذ التاريخي، أقره قائلاً: "أيام الوثنيين القدامى كانوا يحتفلون بعيد الشمس التي لا تقهر، والطبيعي للمسيحيين أن يستبدلوا هذا العيد لإقامة عيد الشمس الوحيدة الحقيقية وهي: يسوع المسيح"!!!

الغفران. ولكن مع ذلك، لا يحتفلون بقيامة الشمس حتى الاعتدال الربيعي، (Spring equinox)، أو "عيد الفصح" (الإيستر) (Easter)؛ وذلك لأن الشمس في الاعتدال الربيعي تخضع قوى الشر (الظلامية)، وبعدها تطول فترة النهار عن فترة الليل، وتبدأ مظاهر الربيع بالظهور، وتتفتح الأزهار.

كان أبراهام قد قرأ أو سمع عن أغلب تلك الأمور، ولكن لم يسبق له من قبل أن شاهد الصور الفلكية وصور الحفريات التي تؤكدها. استأذن السيد تربلا في استعراض الصور مرة أخرى، وأخذ يتنقل بينها متأملاً. وأخيراً عاد إلى عرض صورة الرسم الأول لدائرة البروج، وقال مشككاً:

- قد يكون الموضوع من قبيل المصادفة، وقد يكون هذا الرسم ليس أكثر من مجرد تعبير فني أو أداة لمتابعة تحرك الشمس.

- بل هو أكثر من ذلك بكثير.

قال تربلا وهو يفتح ملفاً آخر، عرض منه صورة لنقش من القرن الثاني للميلاد، يمثل نفس الرسم تقريباً ويسوع في وسطه بدل الشمس!!! ثم عرض صورة للوحة العشاء الأخير لدافينشي، وأردف متابعاً:

- وهنا أيضاً تجد الحواريين مقسمين أربعة أقسام، في كل قسم ثلاثة منهم، ووسطهم يسوع "شمس البر". تماماً كما في الرسم. ثم دقق برسم دائرة البروج ثانية، وقل لي: ما الذي تراه لو تجاهلت الأبراج؟

نظر أبراهام بتمعن، ثم قال:

- صليباً في وسطه دائرة.

- وماذا ترى في هذه الصور.

قال هذا وهو يفتح ملفاً آخر امتلأ بعشرات الصور لكنائس عديدة تزينها صلبان في وسطها دائرة، وصوراً للوحات كنسية تصور صلباناً وسطها دوائر. وبعد استعراض تلك الصور بسرعة، توقف عند صورة لوحة كنسية للمسيح قائلاً:

- هذا الرسم الذي استعاره المسيحيون ليس رمزاً مسيحياً في الأصل، بل هو "رمز تنجيمي في الفن السحري القديم"، إنه تمثيل وثني لصليب دائرة الأبراج. وهذا هو السبب وراء ظهور الصّليب والدائرة خلف رأس المسيح؛ الذي صار هو الشمس، شمس الله، نور العالم، المخلص الذي قام من الموت، وهو سيأتي مرة أخرى إلى العالم ككل صباح. مجد الرب الذي يدافع ضد أعمال الظلام، وهو يولد من جديد كل صباح، ويمكن أن يرى يأتي بين الغيوم في الأعلى في الجنة مع "تاج الأشواك"... أو "أشعة الشّمس".

- تريد القول إن المسيحيين أضافوا كل تلك الخرافات إلى سيرة مسيحهم!!! ولكن لماذا؟

- "جاستين مارتير" (Justin Martyr ١٠٠ - ١٦٥م) أحد أول المؤرخين والمدافعين المسيحيين، كتب: "عندما نقول إن يسوع، معلمنا، قد خلق بدون اتحاد جنسي، وأنه قد صلب وقام من الموت وصعد إلى الجنة، فنحن لا نقترح شيئاً مختلفاً عما تؤمنون به بالنسبة إلى ابن (الإله) "المشتري" (Jupiter جوبيتير)". وفي كتابة أخرى قال جاستين: "لقد ولد من عذراء، اقبل هذا كشيء مشترك مع ما تؤمنون به بالنسبة إلى (الإله) "بيرسيوس"(Perseus)".

- هذا بالنسبة إلى مجاملة الوثنيين وتقريب المسيحية منهم، ولكن ماذا عن عامة المسيحيين المؤمنين؛ كيف فسر لهم ذلك التشابه؟!!!

ابتسم تربلا وهو يعيد جهاز الكومبيوتر إلى حقيبته استعداداً للرحيل، ثم قام قائلاً:

- لقد كان الحل لدى جاستين سهلاً جداً؛ فمن فعل ذلك هو الشيطان، حيث كان للشيطان بصيرة ليأتي قبل مجيء يسوع، وجعل هذه الميزات في العالم الوثني كي يغوي المؤمنين!!!

بقي على موعد أبراهام مع إســـتس نحو ساعتين عندما خرج من مقهى الإنترنت، فقرر العودة إلى الفندق ســـيراً على الأقدام. كان يأمل أن يساعده هواء الفجر المنعش في القضاء على البقية الباقية من رغبته بالنوم، رغم سبعة أكواب من القهوة، كما أراد أن يمنح نفسه فرصة للتأمل في كل المعلومات التي استخرجها من الشبكة العنكبوتية؛ فقد تأكد من صحة المعلومات التي أوردها أصحاب الأفلام الوثائقية الثلاثة في شأن الأسفار المســـتبعدة، وكيفية اعتماد القانون، وبنوة الله، والصليب والقيامة من الموت، والمخلصين الشمسيين. كما تأكد من صحة تحليلات إستس لنبوءات العهد القديم عن إنقاذ المســـيح، وتناقض روايات الصلب، ونظرة المســـيحيين الأوائل إلى ذلك الموضوع، وإبادة المخطوطات والنصوص، واسم الله، واسم عيسى.

لم تستطع كل تلك الحقائق أن تخرجه من دوامة الشك والحيرة نهائياً؛ فمع تأكده من صحتها، إلا أنه لم يســـتطع الاقتناع بالاستنتاجات التي بنيت عليها. فدوافع القس ســـينوج ورؤيل وتربلا مشـــكوك بأمرها كثيراً، فهم يركزون على حقائق معينة تخدم أهدافهـــم الخفية، ويتجاهلـــون متعمدين حقائق أخرى لا تقل عنهـــا أهمية، إن كان هدفهم فعلاً هو البحث عن الحقيقة! لمصلحة من يشـــككون برســـالة المسيح، ونسبة الكتاب المقدس إلى الله، بل وبحقيقة وجود الله نفسه في واقع الأمر؟!!! ولمصلحة من يسعون إلى نقض الدين من أساسه، ويحاولون الإيحاء بوحدة الأديان وتعدد الأرباب؟! من المستفيدون من ذلك إن لم يكن الشيطان والمسيح الدجال وحكماء صهيون وأعوانهم من شياطين الإنس؟! لماذا يتجاهلون أن كل تلك الحقائق المتكشفة لا تنقض دين المسيح الحق المرســـل من إله واحد حق، بل تنقض المحدثات الباطلة والأساطير الوثنية التي أدخلت فيه على مر الزمن. ومع أن هذا ليس حال إستس بالتأكيد، إلا أن دوافعه أيضاً لـــم تكن بريئة تماماً، فجلُّ همه كان إثبات تفوق دينـــه الجديد وكتابه الذي لم يبدل. وفاته أن القرآن، وإن لم يبدل، ليس من الله أصلاً، والحق الذي فيه يرجع ولا ريب إلى

أن محمداً قد استطاع، بطريقة أو بأخرى، أن يحصل على بعض الأسفار المفقودة من الكتاب المقدس الأصل، ويبني علـــى حقائقها ديناً كاذباً، صار يحوي من الحق نصيباً أكبر من الأديان الحقيقية ذاتها بعد أن أثقلها التحريف!

ألغاز وحلول

وتشمل:

لغز ضغاطر

جمع الخيوط

بلبلة في الإمبراطورية

رسالة أم مراسلات؟

كيف رضخ سيد القطب الأوحد في العالم لسيد مدينة صغيرة في الصحراء؟!!!

غُلِبَتِ الرُومُ

شبهة الاقتباس

من صور الهيمنة

إشارة القديم والجديد إلى الأخير

رغم أنف التزوير

مشكاة واحدة

شبهات حول الإسلام

شهادة الملك أوفا وإنكار روبن هود

انشق القمر

ألغاز وحلول

لغز ضغاطر

- صباح الخير. كنت أعرف أنك ستبكر في الحضور.

قال أبراهام وهو يقوم لتحية جيمس إستس، الذي رد التحية قائلاً:

- صباح الخير يا عزيزي. وأنا أيضاً كنت متأكداً أنك ستكون في ردهة الفندق قبل موعدنا بكثير. أأنت هنا منذ مدة طويلة؟

- كلا، فقد وصلت، أقصد نزلت، للتو.

- إذن فالقلوب عند بعضها كما يقول العرب. حسناً، هل أنت جاهز.

- أجـــل. ولكن اجلس أرجوك، فأنـــا أود أن أتحدث إليك قليلاً قبل أن نذهب إلى شيخك.

- لقد توقعت ذلك، ولهذا بكرت بالمجيء.

- ماذا تشرب؟

- لا داعي لأي شيء شكراً.

- أنا مصمم.

- إذا كان الأمر كذلك فكوباً من الشاي.

طلب أبراهام كوباً من الشـــاي، وفنجاناً من القهوة "الإسبريســـو" المزدوجة، لتعينه على البقاء مستيقظاً. ثم التفت إلى إستس قائلاً:

- أنا لا أريد أن أتطفل عليكما، فكل ما أريده هو بعض المعلومات ليس إلا.

- لا داعي للقلق من هذه الناحية، فكما أوضحت لك سابقاً، فإن الشيخ سيسعده كثيراً أن يزودك بكل المعلومات التي تحتاجها، ويجيب عن جميع استفساراتك حول الإسلام.

- فـــي الحقيقة هذا بالضبط هو ما يقلقني... لا أعرف كيف أشـــرح الأمر لك... ولكـــن هدفي هو مجرد جمع المعلومات عـــن الأديان من أجل الكتاب الذي أؤلفه، وليس لدي اهتمام خاص في الإســـلام بالذات، كما قد يتبادر إلى ذهنك.... لذا فأنا أخشـــى أن تحمل أنت وشـــيخك هذا الأمر أكثر مما يحتمل. أنا بالطبع أحترم اعتقادكم في أن دينكم بالذات هو الدين الحق، ولكنني لا أريد لاعتقادكم هذا أن يســـيطر على نقاشنا، بحيث يصبح موضوعه هو محاولة دعوتي إلى اعتناق الإسلام، لأن هذا لن يحصل أبداً.

- لا داعـــي لكل هذه المقدمـــات يا صديقي. فصحيح أنني آمـــل من كل قلبي أن تهتدي إلى الإسلام، لأنني أؤمن بأن كل الحقيقة فيه، ولكن هذا الإيمان بالذات، هو ما يجعلني واقعياً لأكثر مما تتصور، فالقرآن نفســـه يقول: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]، وأنا وإن أحببت هدايتك، فلن أكون أكثر من مجرد وســـيلة إن أراد الله تعالى بك خيراً، أما إذا أراد سبحانه غير ذلك، فلا أنا ولا الشيخ خطاب ولا ألف داعية بقادرين على تغيير قدر الله ســـبحانه وتعالى مهما حاولنا. لذا فأنا مقتنع تماماً بأن علي واجب شـــرح ديني لمن أراد، وتهيئة الســـبل لإعطاء الجميع فكرة صادقة عنه مهما كلفني هذا من عناء، أما ما يكون من أمرهم بعد ذلك فهو معلق

بمشيئة الله وحده وليس بمشيئتي أو مشيئة أي أحد آخر من عباده.

- يسرني أنك تنظر إلى الموضوع من هذه الناحية.

- وزيادة لك في الاطمئنان، فسوف تذهب معي إلى الشيخ على أنك أحد معارفي الذين يهتمون في البحث الذي يقوم به حالياً، وسيكون ذلك هو فاتحة حديثك معه.

- آه، صحيح لقد أخبرتني بأنك تعاونه في بحث يعكف عليه حالياً، ولكنك لم تخبرني عن موضوعه!

- موضوعه هو رد العالم المسيحي على ظهور دعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

- لكن هذا الموضوع قد تناوله الكثيرون سابقاً، وأوسعوه بحثاً من كل جوانبه!

- أنا لا أتفق معك في ذلك، فهذا الموضوع بالذات لم يأخذ حقه الكامل بعد من البحث بالجدية التي يستحقها، والشيخ خطاب يحاول أن يجلي الغموض عن جانب صغير منه فقط.

- أي جانب هذا الذي يبحث فيه؟

- إنه يبحث في خلفيات ردود أفعال كلٍّ من السلطتين السياسية والدينية في العالم المسيحي زمن بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، مع تحليلها. وهو يركز بالتحديد على قمة هرمي السلطتين، أي على الإمبراطور والبابا الرومانيين آنذاك.

- وما الجديد الذي يجب أن يبحث بشأنهما؟

- محاولة تفسير تهاون الأول في مواجهة القوة الإسلامية الصاعدة، مع تهديدها لمصالح إمبراطوريته، وتمددها المضطرد على حساب حدود دولته، ومع مقدرته الفائقة آنذاك على ردعها، بل إبادتها تماماً وفقاً لكل المقاييس المادية. كما يبحث في سبب عزل الثاني من قبل قساوسته الغاضبين، ومن ثم قتله، وأخيراً إدانته بمجمع مسكوني عام بعد وفاته بزمن طويل، وتلفيق التهم له.

- وما الذي وصل إليه الشيخ من كل ذلك؟

- إن البحث لم ينتهِ بعد.

- أعرف. ولكن ما الذي يفترضه، ويحاول إثباته؟

- إيمان كل من الإمبراطور والبابا الرومانيين برسالة النبي الأمي عليه الصلاة والسلام. ولكن الأول آثر دنياه وضن بملكه متهرباً، والثاني آثر آخرته وجاد بنفسه مواجهاً.

استقبل الشيخ خطاب نورثمبرلند ضيفيه بوجه طلق، ودعاهما إلى الدخول، حتى من قبل أن يبدأ تلميذه في التعريف بالرجل الغريب الذي اصطحبه معه، وقادهما إلى غرفة الجلوس، حيث أفسح لهما مكانين للجلوس، مختصاً ضيفه الجديد بمزيد من الترحيب من غير تكلف. وعندما عرف أنه يؤلف كتاباً عن التعريف بالأديان ومقارنتها، أبدى إعجابه الشديد بالفكرة، وأخذ يزوده ببعض المقترحات المفيدة، ويعرض عليه حصيلة خبرته في ذلك المجال، دون أن يتطرق مباشرة إلى معتقده، وهو ما كسر حاجز الرهبة والجمود الذي كان يميز مختلف مقابلات أبراهام في السنوات الثلاث الماضية، وأضفى على اللقاء جواً من التفاهم والألفة، ثم ما لبث أن قرع باب الغرفة، فاستأذن الشيخ ضيفيه لهنيهة، عاد بعدها وهو يحمل صينية الطعام، فقال له أبراهام متحرجاً:

- لم يكن هناك داع لأن تكلفوا أنفسكم يا سيدي، فقد أفطرنا قبل قليل.

- لا يوجد أي تكلف يا بني، فإطعام الطعام وقرى الضيف واجب[1]، كما أن هذا

---

(١) جاء في صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام، أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف". [٢٨، ٥٨٨٢]. كما جاء في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: "زملوني زملوني". فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر (نزول الوحي): "لقد خشيت على نفسي". فقالت خديجة: "كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". [٣٢١٢، ٤٦٧٠، ٤٦٧٢ - ٤٦٧٤، ٦٥٨١].

شيء بسيط للغاية كما ترى.

- أشكرك على كرمك، ولكن...

- الشكر لله يا بني. تفضلا.

قال الشيخ مقاطعاً وهو يقدم الخبز لضيفيه بإصرار، فبدا لأبراهام أن مزيداً من التمنع لن يكون مجدياً، لذا تناول الرغيف طائعاً، وشـــرع يأكل وهو يختلس النظرات إلى ذلك الشـــيخ الذي ولد لديه شعوراً مبهماً بالراحة والاطمئنان. كان الشيخ خطاب بهي الطلعة، طويل القامة، عريض المنكبين، لم يســـتطع جلبابه الأبيض الفضفاض أن يخفي معالم جسده الرياضي. وكانت لحيته المرسلة إلى أسفل عنقه تخلع عليه مظهر التفكيـــر والتقوى، وتضفي مزيداً من الوقار على صلعته البرونزية المشـــربة بالحمرة، والتي بدت كالتاج الكهنوتي وسط شعره الأشقر المخضب بالشيب. لم يكن ذلك الشيخ يشبه أحداً من رجال الدين الذين قابلهم أبراهام حتى الآن، بل كان يشبه "القضاة" أو "المحدثين"[1] كما تصورهم عندما كان يقرأ عنهم في الكتب المقدسة. وعلى الرغم من بهاء وجهه الذي يشع بالورع والطيبة، إلا أنه كان في الوقت ذاته مهيباً يوحي بالجدية والصرامة. وكانت عيناه المتقدتان بنور مبهر، تبعثان على الرهبة والأمان في آن واحد، وقد وقع كل ذلك في نفس أبراهام موقعاً حسناً.

بعد الانتهاء من الطعام، قال إستس موجهاً حديثه إلى الشيخ:

- لقـــد حدثت أبراهام عن البحث الذي تعمل عليه حاليـــاً، فأبدى اهتماماً كبيراً بمعرفة تفاصيله.

---

(١) المحدثون هم الملهمون الذين نالوا سلطة من الله تعالى في الشؤون الاجتماعية والدينية لبني إسرائيل في غياب الأنبياء. وجاء عنهم في كتاب "إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري" للقسطلاني أنهم: "رجال من بني إسرائيل كانت تحدثهم الملائكة من غير أن يكونوا أنبياء. والمعنى هو أنهم يكلمون في أنفسهم، ولا يرون متكلماً"، أي يرجع الأمر إلى إلهام من الله تعالى دون رسالة أو نبوة. "وما قال أحدهم عن شيء: "إني لأظنه كذا" إلا كان كما يظن". وهناك سفر كامل في التوراة يتحدث عنهم هو سفر القضاة.

- سامحك الله يا بني، فلا يزال الوقت مبكراً على الإعلان عنه... إلا إن كنت قد عثرت على كل المعلومات التي طلبتها منك.

- حصلت على بعض المعلومات المهمة التي تؤيد ما ذهبتم إليه، ولكنها لا تصل إلى حد اليقين بعد. وقد رأيت أن عرض ما توافر لدينا من الإثباتات على أبراهام ومناقشتها معه، وسماع نقده لها، قد يساعد في فتح آفاق جديدة لهذا الموضوع.

- إذا كان الأمر كذلك فلا بأس.

فانكمش أبراهام على نفسه، وقال بحياء:

- أنتما تبالغان في تقديري أيها السادة، فجل ما أستطيعه هو مجرد الاستماع والتفكر فيما تقولان.

- إن التواضع زينة الخلق يا بني، وأنا أقدر هذه الخصلة فيك. ولكن ما أعرفه عن جيمس يجعلني أظن أنه لا يرمي الكلام جزافاً. على كل الأحوال، فأنا أيضاً أرى أنه من المفيد معرفة ردود الأفعال حول هذا الموضوع وسماع الانتقادات التي يمكن أن توجه إليه، علَّ ذلك يساعدنا في الوقوف على الثغرات التي فيه، ومحاولة سدها.

- هذا لطف كبير منكم يا سيدي.

- ما رأيك في الموضوع؟

- لقد حدثني السيد إستس فقط عن افتراضكم إسلام أحد الباباوات، وعن بعض الخطوط العريضة الأخرى لبحثكم، ولكنه فضل ترك الخوض في التفاصيل إلى أن نقابلكم.

- وهل أخبرته عن اسم البابا الذي نظن أنه قد أسلم؟

قال الشيخ موجهاً كلامه لإستس، الذي أجاب قائلاً:

- ليس بعد.

- حسناً، هل سمعت عن البابا هونوريوس يا بني؟

- تقصد البابا هونوريوس الأول الذي أدانه "المجمع المسكوني السادس" ("مجمع القسطنطينية الثالث" سنة ٦٨١م)؟!!!

التفت الشيخ الفاروق بدهشة نحو إستس، الذي كان مذهولاً بدوره، وأشار إليه بما يوحي أنه ليس مصدر هذه المعلومة، فتابع الشيخ حديثه مبتسماً وهو يقول:

- يبدو أن جيمس محق بشأنك تماماً يا بني. أجل هو بعينه! ولكن ما الذي عرفك به مع كل الغموض والتعتيم الذي يكتنف ذكره؟!

- تلك قصة طويلة.

- كلنا آذان مصغية.

- لقد سمعت عنه في أثناء جمعي للمعلومات عن إحدى الطوائف الكاثوليكية الشرقية.

- تقصد الموارنة.

- بالضبط.

- هذا يبشر بأن الحديث معك سيكون إن شاء الله مفيداً لنا فعلاً.

- بتُّ واثقاً الآن أنه سيكون مفيداً أكثر بالنسبة إلي. ولكن ما الذي دفعكم إلى التنقيب بشأنه، وعدم التسليم بما روي عنه؟

- علينا أن نعترف أن قراءة التاريخ على النحو المنشود لم تكتمل بعد، وقد لا تكتمل أبداً. كما أن اكتشاف الإنسان للعوامل الفعالة في بناء حركته لم ينضج بعد، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوعي البشري لا يكتمل أبداً، أدركنا طبيعة العلاقة بين معطيات التاريخ وبين ما يطرحه وعي مدونيه من مقولات وفرضيات، مما يجعلهم يسعون دائماً إلى اكتشاف مزدوج للتاريخ وبغيتهم الفكرية في آن واحد.

- أي إنكم تظنون أن التاريخ بحاجة إلى مراجعة.

- في بعض النقاط، أجل بالتأكيد. فالأخبار التاريخية تنقل صوراً مقتبسة لما حدث، كتبتها يد إنسان، وينقلها أيضاً إنسان له عواطفه ومعاييره ومسلماته ومصالحه، وهذا كله يجعل من غير الحكمة إسلاس القيادة الكاملة للمؤرخ دون أي تحفظ أو نظر أو مراجعة.

- ولكن إذا كان التاريخ لم يكتب بالشـــكل الدقيق كما تقولون، فهل ستتمكنون الآن من معرفة ما حصل قبل مئات السنين؟!!!

- هذا ليس مســتحيلاً؛ فأغلب ما يقع مــن الخلط والتحريف والإخفاء، يكون في التفاصيل الدقيقة وفي الجزئيات والحيثيات التي يسوقها المؤرخ، وليس في الخطوط العريضة للوقائع. ومن هنا يبزغ الأمل في مقارنة تلك الحقائق بالمصادر الأخرى، ونرى إن كان هناك ما يوافقها.

- هل جاء في مصادركم الإسلامية أن أحد الباباوات قد أسلم؟ ؟!!!

- كلا؛ ولكن جاء في صحاح أحاديث رســول الله ﷺ أنه قد أرسل كتباً إلى الملوك والعظماء من حوله يدعوهم إلى الإسلام، وجاء في كتابه إلى "هرقل" إمبراطور الروم: "بِسْــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ (وفي رواية أخرى صاحب الروم)، سَــلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْــلِمْ تَسْــلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ " و ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَــوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْــرِكَ بِهِ شَــيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْــهَدُوا بِأَنَّا مُسْــلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤][1]. والأرجح، والله أعلم، أن "الأريســيين" الذين ذكرهم رسولنا الأكرم عليه الصلاة والســلام هم نفس النصارى الموحدين الذين ينســبون إلى الأسقف أريوس[2]، وسوف

---

(١) صحيحا البخاري ومسلم وسنن أبي داوود ومسند الإمام أحمد، وكثير من كتب الحديث والسيرة النبوية الشريفة.

(٢) فسر شارحو الحديث لفظ (الأريسيين) بالفلاحين تارة، والعشارين تارة أخرى، وبالأمراء والنصارى المنكرين للتثليث، وغير ذلك من المعاني المتضاربة. وأول من أكد أعجمية اللفظ واشتقاقه من اسم (أريوس) هو الفقيه اللغوي الإمام "ابن فارس بن زكريا القزويني الرازي" (٩٤٠- ١٠٠٤) الذي أنكر البحث عن أصل عربي للتسمية. وكان فيما قال: "اللفظ وضبطه الصحيح هكذا (الأرْيُسِيِّين) معناه Ariusists أي أتباع أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح والذي من أجله عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م".
ومن الشارحين الذين انتبهوا لهذا أيضاً الإمام الكبير الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث قال في موسوعة=

نتطـــرق إلى ذكر الكثيرين منهم في أثناء عرضنـــا للإثباتات التي توافرت لدينا حتى الآن حول بحثنا.

- لقد ســـمعت بهذه الطائفة المسيحية، وما حصلت عليه من معلومات يثبت فعلاً أنهم كانوا يرفضون تأليه المســـيح ويؤمنون به كعبد لله ورســـول منه، ولكن مذاهبهم تعددت على مدى السنين، وتشوه التوحيد عند قسم كبير منهم.

- هـــذا رائع. فمعرفتك تلك قد اختزلت لنا مقدمة طويلة. خلاصة القول هو أننا توصلنا إلى افتراض أن ذكرهم في الرســـالة بهذه الطريقـــة يعني أنهم ربما كانوا لا يزالون أغلبية في الإمبراطورية حتى ذلك الوقت.

- إن صحت الرســـالة، فهذا يعني فعلاً أن وجودهم كان لا يزال واضحاً حتى ذلك الزمن، ولكن كيف استنتجتم من ذلك أنهم كانوا آنذاك لا يزالون يشكلون أغلبية؟!

- لقد جاء في كتاب الرســـول ﷺ إلى الأســـقف "كيروس" (المقوقس) حاكم مصر الرومانـــي: "فإن توليت فإن عليك إثم القبط"، والقبط كانوا أغلبية تحكمها الســـلطة الرومانيـــة التي كانت علـــى مذهب الطبيعتين[1]، في حين كان الشـــعب القبطي على مذهـــب الطبيعة الواحدة[2]. وكذلك جـــاء في كتابه صلوات الله وســـلامه عليه إلى كســـرى: "وإن توليت فإن عليك إثم المجوس"، الذين كانـــوا -كما هو معروف- أغلبية رعايـــا الإمبراطورية الساســـانية، في حين كانت الطبقة الحاكمـــة فيها على مذهب

= "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" كتاب (تفسير القرآن) باب (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ...): إن "الأريسيين كانوا قليلاً، وما كانوا يظهرون رأيهم فإنهم كانوا ينكرون التثليث". كما يقول المفكر الكبير البروفيسور "محمد عابد الجابري": "رسالة النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل تنطوي على دليل قاطع على أنه عليه السلام كان يدرك، عندما بعث رسالته تلك، أن كثيراً من المنضوين تحت إمبراطورية هرقل هم من ''الموحدين'' أتباع مذهب أريوس، ولذلك حمّله مسؤولية الإثم الذي يترتب عليه إذا هو لم يسلم، لأن عدم إسلامه سيحول دون إسلام رعيته".

(١) أي الملكيون أو الخلقيدونيون.

(٢) أي الأرثوذكس اللاخلقيدونيون.

"الزرادشـــتية"[١]، والمجوس قوم عاملهم الرسول ﷺ كالكتابيين[٢]، فيبدو أن لهم شبهة كتاب، ولكن تقادم عليه الزمن أكثر من كتب اليهود والنصارى، وتراكمت فيه التحريفات على مر العصور، مع أنه لا يزال فيه بعض الحق[٣].

---

(١) في القرن السابع قبل الميلاد ادعى زرادشت أنه نبي أرسله ربه مزدا للناس. وكتاب زرادشت اسمه (زند اوستا) ويقسم العالم إلى قسمين؛ مينة أو كيتي يعني الروح والجسم. اللاهوت والناسوت. وقد انتهى الأمر بالزرادشتيين إلى الاعتقاد بوجود إلهين، إله للخير وكانوا يسمونه أهورا مزدا، وإله للشر وكانوا يسمونه أهريمان. وكانت السلالة الساسانية قد توصلت إلى الحكم بواسطة الموابدة (جمع موبد وهو رجل دين زرادشتي وقيّم على بيت نار)، لذلك كانوا يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة، وأشد الأجنحة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك. وكان الساسانيون يستغلون بقية المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقوية مواقعهم في السلطان، ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار، جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموابدة كَسَدَنة. وقد اجتهد الموابدة -بكل ما في وسعهم- في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من أبناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الإحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع. ولقد تسببت الصلاحياتُ الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموابدة في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي بشكل عام والنفور منه. إذ فقد المذهب الزرادشتي في أواخر العهد الساساني حقيقته المجوسية بصورة كاملة، ووصل الأمر إلى عبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهم كانوا يحرِّمون الدقّ على حديدة محماة اكتسبت لون النار ولهيبها بمجاورتها لها. وبعبارة واحدة؛ لقد كانت أكثر المعتقدات الزرادشتية المجوسية تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين -في هذا العهد- مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغة، الّتي أضاف إليها الموابدة سلسلة من التشريفات الطويلة العريضة تثبيتاً لمواقعهم، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ. عن كتابَيْ "تاريخ اجتماعي ايران" و"تاريخ تمدن ساساني" (باللغة الفارسية).

(٢) يفهم هذا من كتاب النبي ﷺ الذي أرسله إلى "المنذر بن ساوى" عظيم البحرين، إذ ورد فيه: "ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية"، كما جاء في صحيح البخاري ٢٩٨٧ "... ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر"، وفي الموطأ: "عن جعفر بن محمد عن أبيه، أن عمر قال: لا أدري ما أصنع بالمجوس؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: سنوا بهم سنة أهل الكتاب".

(٣) في الكتب الفارسية القديمة المعروفة باسم "الدساتير" جاء في الدستور رقم ١٤: "عندما تهبط معنويات الفرس إلى الحضيض، سيولد إنسان في صحراء العرب، ويكون له أصحاب عديدون سيقلبون عرش فارس ويمحون ديانتها وستنهار الرؤوس الكبيرة في فارس، وتحطم معابد النار، وتطهر الكعبة من الأصنام، والعقلاء سيتبعونه، ثم يتبعهم آخرون". وصورة النص الأصلي باللغة الفارسية موجودة في كتاب (انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح)، ص٢٤٣، أحمد زكي.

- هل تريدون القول إن المجوسية أيضاً هي دين سماوي؟!!!

- ليس لدينا معلومات أكيدة، ولكني أظن شخصياً أنه ربما كان أصله كذلك فعلاً. فالله سبحانه وتعالى لم يترك قوماً إلا وأرسل لهم أنبياء ورسلاً[١]، والفكرة الشهيرة أن المنطقة العربية هي المكان الوحيد للأنبياء، فكرة خاطئة تسبب فيها كتبة العهد القديم بادعائهم أن كل الأنبياء هم من بني إسرائيل[٢]. ما يدرينا أن بوذا وكونفوشيوس ولاوتسو لم يكونوا أنبياء لقومهم، لكن وصلتنا الأخبار عنهم محرفة مكذوبة، كما حدث مع غيرهم؟ وما يدرينا أن المجوسية أو البوذية ليستا إلّا رسالتين سماويتين تشوهتا بمرور الزمن[٣]؟ فبعد رحيل النبي يبدأ التبديل والتحريف، وأحياناً ينسب له الشرك

---

(١) قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

(٢) وفي كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني، ينقل الرجل لنا الكثير من عقائد أهل الهند والمجوس. فنجد أن معظمهم كان يؤمن بالأنبياء، ويذكر فرقة تسمى الثنوية، كانت تؤمن بنبي الله إبراهيم.

(٣) قبائل النيام نيام والماو ماو مثلاً تؤمن بإله واحد يسكن في السماء لا يمكن رؤيته، ولا يلد ولا يولد، وليس له شريك قط، يأمر وأمره حق يحكم بين الناس بالحق، يسمونه (Mucay)، وفي كتاب للسيد "ليوبولد بوسبيل" بعنوان: "قبائل الكاباكو في غينيا الغربية"، يتحدث الرجل عن دين هؤلاء القوم، وأنهم يعبدون إلهاً يسمونه (Ugatame) وهو الخالق العليم، القادر، المحيط بكل شيء علماً، ولا يُرى ولا يدرك بالحواس. ثم ينقل لنا السيد بوسبيل حواراً بين رجل من هؤلاء القوم وأحد المبشرين المسيحيين، يستنكر فيه هذا الرجل البسيط كيف للإنسان الأبيض أن يكون متقدماً، ويخترع الطائرات، وفي الوقت نفسه يؤمن بإله يتجسد لكي يصلبه البشر؟!!!

فتتغير شـــريعته وهو من ذلك براء[١]، ولو لم يخبرنا القرآن بالقصة الحقيقية لعيسى ومريم عليهما السلام مثلاً، لكان من الصعب علينا أن نفرق بين(زيوس) و(Jesus) كما يدعي البعض حالياً.

- هـــل هناك ما يؤيد الســـماوية المفترضة لدين المجوس خـــارج نطاق المعتقدات الإسلامية؟

- بالطبع، فالكتاب المقدس ذكر أن المجوس بالذات قد عرفوا بموعد ميلاد المسيح عليه السلام، ودخلوا البيت فوجدوا الطفل مع أمه مريم، فركعوا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومرّاً. ثم إذ أوحى إليهم الله في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس انصرفوا في طريق أخرى إلى كورتهم" (متى ٢: ١١، ١٢)[٢]، وفي معرض بحثهما في ذلك تبين للأبوين "بنوا" و"بوامار"، وهما من كبار شـــارحي الكتاب المقدس الكاثوليك، أن النبي "بلعام"[٣] كان من المجوس، وأن كلا المجوس والأســـينيين كانوا من مدرســـة واحدة هي مدرســـة أخنوخ. وأن هذه العلاقة المميزة بين الجماعتين جماعة الأســـينيين في الكرمل وجماعة المجوس في المشرق جعلت كل واحدة تتبادل المعلومات والمستجدات مع الأخرى ومنها الأحداث الكبرى المتوقعة على الأرض بفضل الحسابات

---

(١) الانحراف يبدأ عادة عندما يشرك البشر آلهة أخرى مع الله، (سواء كانت آلهة محسوسة أو هوى النفس أو اتباع أوامر رجال الدين دون الله) مع أن الأنبياء حذروهم من ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩ - ٨٣].

(٢) جاء في إنجيل برنابا أن من قال لهم ذلك هو الطفل عيسى عليه السلام وهو بالمهد.

(٣) الألف الثاني قبل الميلاد وجاءت قصته في سفر العدد ٢٤-٢٢.

والتنبؤات الفلكية ومنها مولد مسيح مخلص روحي للبشر أجمعين. ومع تحفظي على بعض استنتاجاتهم، إلا أن دراستهم تؤيد شبهة الكتاب عند المجوس.

- هذا منطقي فعلاً، فـ"ماني" كان يدعي أنه "الباركليت"، واتفق كثير من المسيحيين والمجوس على اتباع خلطه بين المسيحية والمجوسية، دون أن يروا في ذلك تناقضاً مع أصول الديانتين.

- ملاحظة موفقة. على أية حال فإن ذكر النبي للأريوسيين بهذا الشكل ينطوي على دليل قاطع أن كثيراً من المنضوين تحت إمبراطورية هرقل كانوا من الموحدين الذين ينسبون عادة إلى أريوس، وأن إسلامه سينجيه من ذنبه باضطهادهم دينياً.

- وهذا أيضاً منطقي جداً. وماذا بعد؟

- وقد جاء في الصحاح: أن هرقل "كَتَبَ بذلك إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ[1] وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، ثمَ سَارَ إِلَى حِمْصَ[2] فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ. وَأَنَّهُ نَبِيٌّ"[3]، ولا يعقل أن يكون صاحب الإمبراطور في رومه، والذي هو نظيره في العلم، إلا أن يكون البابا نفسه.

- ألم يرد اسمه في كتب الحديث التي تسمونها بالصحاح؟

- كلا للأسف. ولكن ورد اسم له في كتب شرح هذه الصحاح[4]، وفي سيرة "محمد

---

(١) جاء في كتاب "تخجيل من حرف التوراة والإنجيل" عن ضغاطر: "وهو الذي أبهمه البخاري في حديث أبي سفيان في قصة قيصر حيث قال: كتب هرقل إلى صاحب له برومية كان نظيره في العلم". (التجريد ١/ ٢٧٢. وفتح الباري ١/ ٣٣، ٤٢. دلائل ص ١٠١-١٠٣، لأبي نعيم. الإصابة ٣/ ٢٧٧. نسيم الرياض ٣/ ٢٦٦).

(٢) عاصمة الشام الرومانية آنذاك، وقد فتحها لاحقاً الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري كتاب التوحيد، حديث رقم ٦.

(٤) أشهرها هو فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

بن إسحاق"[١] الذي كان أول من كتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام[٢] من علماء المسلمين، واستشهد بذلك الحديث علماء آخرون مشهود لهم بتمييز الأحاديث[٣]، الحديث يروي أن هرقل قال لمن قدم عليه بكتاب رسول الله ﷺ (دحية بن خليفة الكلبي): "والله إني لأعلم أن صاحبك نبيٌّ مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى "ضغاطر" الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم، فهو أعظم في الروم مني، وأجوز قولاً مني عندهم، فانظر ما يقول". وفي رواية أخرى: "ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرؤونه؛ يذكر له أمره، ويصف له شأنه، ويخبره بما جاء منه؛ فكتب إليه (صاحب رومية(: إنه لَلنبي الذي كنا ننتظره؛ لا شك فيه؛ فاتبعه وصدقه".

- ولماذا تظنون أن ذلك الأسقف هو أسقف رومه البابا هونوريوس الأول، فاسم ضغاطر بعيد جداً عن اسمه، بل أؤكد لكم بأنه بعيد أيضاً عن كل الأسماء اللاتينية واليونانية التي كانت منتشرة في روما آنذاك!!!

- لقد حقق أحد الأستاذة العرب[٤] ذلك الاسم بأنه تعريب للقب أوتوكراتور (أتقراطر) Autocrator، وهي كلمة إغريقية تعني "الحبر الأعظم"، خلَفُ السيد المسيح على الأرض، وذلك في مقابل Pantocrator، الذي يعنون به المسيح.

- ضغاطر وأتقراطر!!! ألا ترون أن هذا "التحقيق" خيالي بعض الشيء، ويحمّل الأمور أكثر مما تحتمل؟

---

(١) توفي سنة ١٥١ للهجرة. وهو تلميذ محمد بن شهاب الزهري الذي بدأ تدوين الحديث أولاً بإيعاز من الخليفة الصالح "عمر بن عبد العزيز".

(٢) كان هذا الكتاب هو المصدر الأول الأصلي للسيرة النبوية. وهو الذي اعتمد عليه صاحب سيرة ابن هشام.

(٣) مثل أبو نعيم في كتابه الشهير "دلائل النبوة"، ويحيى بن سعيد الأموي في "المغازي"، وأبو علي ابن السكن في كتاب "الحروف في الصحابة" وهو من مصادر كتاب "الاستيعاب"، وكذلك الإمام البزار في مسنده، والطبراني في المعجم الكبير.

(٤) الأستاذ "محمد حميد الله" رحمه الله.

- ربما، ولكنه مع ذلك فيه وجهة نظر؛ فعندما يكون هناك أكثر من لقب لشخص مشهور، نجد شعوباً تعرفه باسم، وشعوباً تعرفه باسم آخر من تلك الأسماء، وقد نجد أن لفظ الاسم يتأثر بالقواعد اللغوية لكل شعب. وأقرب مثال على ذلك هو أسقف الإسكندرية وصاحب مصر في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو يعرف في التاريخ الغربي باسم "كيروس"، لكن جاء لفظ اسمه في السيرة والحديث "المقوقس"!!! وقد كان قبل ذلك أسقفاً من مدينه فاز (فاسيس) بآسيا الصغرى أي القوقاز. فذهب البعض إلى أن المقوقس هو اللفظ العربي الدال على أنه من القوقاز التي تلفظ Caucasus. كما وجدت أن اسمه في بعض الروايات الإسلامية الأخرى هو "جريج بن مينا"، ثم وجدت في مصادر مسيحية قبطية أن اسمه كان "جرجس بن ميناكوبوس"، وربما كان المقوقس هو اللفظ العربي لـ ميناكوبوس، والله أعلم. ولكن مع ذلك أتفق معك في عدم واقعية الربط بين ضغاطر وأتقراطر؛ فأنا نفسي لم أقتنع تماماً بتحقيق ذلك الأستاذ العربي رحمه الله. ولكنني في الوقت نفسه لا أبخسه حقه في الجهد الذي بذله، جزاه الله خيراً على فتحه لذلك الباب. وقد قصدت من وراء عرض تحقيقه، أن أطلعك على ما توصل إليه الدارسون قبلي، علَّ الله تعالى يظهر لاحقاً أن كشفهم كان أقرب إلى الحق مما توصلت إليه.

- وهل تعتقدون أنكم اكتشفتم أصل اسم ضغاطر؟

- أجل وبتوفيق من المولى عز وجل. فأحياناً لا يوجد هناك داع لتعقيد الأمور وفلسفتها أكثر من اللازم، خاصة إذا كانت الحقيقة واضحة كعين الشمس، ولا تتطلب ببساطة غير قليل من التأمل والتفكير، وبالطبع بعض الدراسة في المصطلحات الواردة في أدبيات ذلك العصر، وشيئاً من التقصي لأصولها واستخداماتها بهدف التأكد من صحة الاستنتاج.

- لا يبدو لي كل هذا سهلاً.

- بـــل هو كذلك. تأمل معي، فمن المؤكد تماماً أن "طـــر"، التي فخمت إلى "طور" أو رققت إلى "تور" في اللهجة العربية المعاصرة حســـب إيقاع جذر الكلمة، هي تعريب للاحقة اللاتينية "tor"، وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك؛ مثل إمبراطور أو دكتاتور. فيبقى اللغز عندنا في النصف الآخر من الكلمة فقط، وهو "ضغا". وهذا المقطع مكون مـــن الحروف: ض غ ا. أما حرف "الضـــاد" فليس له وجود في اللاتينية ولا اليونانية، ويقابله فيهما حرف "d"، وكذلك الأمر بالنســـبة إلى "الغـــين" فإنه يقابلها حرف "c" (الـــذي لفظه k)، وما دام هذان الحرفان غير صوتيين، فلا بد أن يكون بينهما حرف صوتي في اللغات اللاتينية. وفي اللفظة المعربة كان ذلك الحرف هو "ألف"، الذي هو فـــي اللاتينية ""a أو "o" بين الحروف والتي تلفظ كـ(ا a). فلو جمعنا ذلك معاً أي: d + o + c + tor لحُلَّ اللغز بكل بساطة.

- تقصدون "دكاتر"؟! آه. دكتور Doctor؟!!!

- تماماً.

- ولكن هونوريوس لم يكن طبيباً، وبالتأكيد لم تكن درجة الأستاذية العلمية معروفة في عصره، فأي دكتور كان يمكن أن يكون؟!!!

- في عصرنا هذا نستخدم كلمة دكتور بهذين المفهومين اللذين تفضَّلتَ بهما، ولكن ألم تســـأل نفســـك من أين جاءت هذه الكلمة اللاتينية الأصل، وماذا كان استخدامها سابقاً قبل قيام الجامعات والأكاديميات العلمية الحديثة؟

- هل كانت تعني بابا رومه؟!

- ليـــس بالضبط. ولكن هناك من يقول إنها تعنـــي العالم "دك" بالتوراة "تور"، أي الحكيم[1] "חכם" (حاخام). وهـــذه الكلمة عند اليهود، كانـــت، ولا تزال، تعني "رجل الدين"؛ أي الممتلئ بالحكمة الإلهية.

---

(١) يجدر التنبيه هنا أن كلمة "حكيم" هي أحد المرادفات العربية لكلمة "دكتور" الأعجمية.

- حقاً. كيف لم أفكر بذلك من قبل؟!!!

- وقد نقلها المسيحيون الروم إلى لغاتهم، وكان استخدامها شائعاً عندهم. على الأقل زمن هونوريوس كما يتضح من مراسلاته التي ذكرت بها هذه الكلمة مراراً مثل: "، and والتي has been venerated and followed by all orthodox doctors بجلت واتبعت من كل الدكاترة(الحكماء) الأرثوذكس And therefore، I beseech you، deign to stretch forth the right hand of your clemency to the apostolic doctrine، which Peter the Apostle has handed down

ولهذا أنا ألتمس منك، أن تتكرم وتمد اليد اليمنى من عطفكم للدكترة (الحكمة أو العقيدة) الرسولية، التي بطرس الرسول سلمكم إياها". وظل استخدامها شائعاً بعد هونوريوس بزمن طويل. فالقديس الشهير "توما الأكويني"[1] كان يعرف بالدكتور (العالم أو الحكيم) الأنغليكاني (Doctor Angelicus)، والدكتور المحيط (Doctor Universalis). وقد جاء في معجم Oxford الإنجليزي (OED) أن كلمة "دكتور" استخدمت لأول مرة في الإنجليزية المكتوبة عام ١٣٠٣م لرجال الكنيسة بمعنى علماء الكتاب المقدس، ولم تستخدم للدلالة على الأطباء أو من يقومون بعلاج العلل والأمراض قبل سنة ١٣٧٧م[2].

---

(١) ١٢٢٥ - ١٢٧٤ قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، وفيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية. أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين. والأكويني نسبته إلى محل إقامته في أكوين. كان أحد الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وهو أبو المدرسة التوماوية في الفلسفة واللاهوت.

(٢) النص الإنجليزي كالآتي:

"The earliest use of "doctor" in written English was in 1303, but the term applied to "doctors of the Church, " meaning "learned men in the scriptures. It was not until 1377 that it was used in the sense of "medical doctor, " or one who treats illnesses or diseases.".

- أنا أوافقكم تماماً على كل ما ذهبتم إليه بشأن كلمة ضغاطر أو دكتور أو حكيم، خاصة أن كلمـــة "Doctrine" لا تزال تعني للآن في الإنجليزية "عقيدة"[١]، وكل هذا يثبت فعلاً أن صاحبكم كان رجل دين موقراً وممتلئاً بالحكمة. ولكن هذه الصفة كانت تنطبق على كثيرين ولا تدل بأي حال من الأحوال أن المقصود بها هو بابا رومه بالذات.

- قـــد تكون محقاً لو أن هرقل وصفه بلقبـــه الديني فقط "حكيم" وعالم بالتوراة، ولكن عندما يضيف إلى هذا اللقب رتبته الكنسية "الأسقف"، ومكانه "بروميه"، وسيادته هناك "صاحب روميه"، وعندما نعلم أن رومه كان بها ولا يزال أسقفية واحدة فقط لا غير، عليها أســـقف واحد، هو صاحب رومه بلا منازع؛ فهذا يعني أن هرقل بالتأكيد كان يعني بابا رومه حصراً.

---

(١) من أشهر الأمثلة : Doctrine of son of God التي تعني عقيدة ابن الله.

جمع الخيوط

سرح أبراهام مفكراً، ثم ما لبث أن قال مشككاً:

- ربما كان ذلك منطقياً فعلاً، ولكن مع ذلك فهو لا يعني أنه قصد البابا هونوريوس الأول تحديداً، ربما كان يعني أحداً غيره من باباوات رومه؟

- هذا محال؛ لأن التاريخ يخبرنا أن هونوريوس الأول كان هو البابا في ذلك الزمن، بل يخبرنا أيضاً أن الكرسي الرسولي في رومه ظل شاغراً بعد رحيله، ولنحو تسعة عشر شهراً، وأن الباباوات الثلاثة الذين أتوا بعده[١] لم يكونوا في موقع يسمح لهم باتخاذ قرارات مهمة نظراً لموقف الإمبراطور المعادي لهم بعد رحيل البابا هونوريوس بطريقة لا يزال يكتنفها الغموض في كتب التاريخ. وعندما حاول البابا الرابع[٢] أن يستعيد زمام الأمور كان مصيره هو العزل والسجن ثم النفي إلى أن مات. وكذلك كاد يكون مصير خليفته[٣] لولا أن مات قبل أن يعزله الإمبراطور وينكل به. وقد انشقت في عهده كنيسة رافينا[٤]، ولذلك عمد الباباوات الثلاثة الذين أتوا بعده[٥] إلى انتهاج مواقف أكثر ليونة مع الإمبراطور في القسطنطينية، فكفوا عن تكريس أنفسهم دون اعتماد الإمبراطور، كما جرت العادة بعد أن رفض الإمبراطور هرقل اعتماد بابا بعد رحيل البابا المغدور هونوريوس. بل لقد أيّد أولهم، بعد اغتيال الإمبراطور قنسطانس الثاني سنة ٦٨٨، ابنه "قسطنطين الرابع" في الاعتلاء على العرش ضد المغتصب

---

(١) ٦٤٠م سيفيرينوس، ٦٤٠- ٦٤٢ يوحنا الرابع، ٦٤٢- ٦٤٩ ثيودوروس الأول.

(٢) ٦٤٩-٦٥٥ مرتينوس الأول.

٦٥٤(٣)-٦٥٧ أوجينيوس الأول.

(٤) مقر ممثل الإمبراطور في الشق الغربي من الإمبراطورية.

(٥) ٦٥٧-٦٧٢ فيتاليانوس، ٦٧٢ -٦٧٦ أديوداتوس الثاني(ديوسديديت)، ٦٧٦ -٦٧٨ دونوس.

"ميزيسيوس". مما دفع الإمبراطور الجديد الذي لم يعد له من مصلحة في الإبقاء على النزاعات العقائدية، بعد أن اجتاح الفتح الإسلامي المقاطعات التي كانت تؤيد مذهبه، إلى النزوع إلى المصالحة مع الشـــق الغربي، التي اكتملت في عهد ثالثهم، وانتهى بها الانشـــقاق الداخلي على البابوية (كنيسة رافينا) والذي كان الشرق يشجعه. ثم انتهت الأزمة نهائياً في عهد خليفتهم[1] بعقد مجمع القسطنطينية الثالث وإدانة هونوريوس، لتعود الأمور إلى مجراها السابق قبله.

- أي إن الأزمة استمرت طوال عهد تسعة من الباباوات بعد رحيل البابا هونوريوس الأول!!!

- تماماً.

- وماذا حصل عندما ذهب رسول نبيكم إلى ذلك الدكتور أو الضغاطر في رومه؟

- بعد أن اســـتفهم منه عن النبي الأمي عليه الصلاة والســـلام قال له: "صاحبك، والله نبيٌّ مرســـل، نعرفه في صفته ونجده في كتابنا باسمه" ثم ألقى ثياباً كانت عليه ســـوداً، ولبس ثياباً بيضاً، ثم أخذ عصاه، ثم خرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشـــر الروم، إنه قد جاءنا كتاب أحمد، يدعونا فيه إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن أحمد رسول الله. فوثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد، فضربوه فقتلوه.

- هل حصل كل ذلك بهذه السرعة؟!

- لا أظن ذلك؛ فقد كان الرواة معنيين أساساً بتدوين أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته، وكل ما من شأنه أن يساعد المسلمين على القياس واستنباط الأحكام من ســـنته العطرة والاقتداء بها، ولم يكونوا معنيـــين أصلاً بتأريخ حقبة كاملة بدولها وشخصياتها المؤثرة، إلا بالمقدار الذي يتداخل مع سيرة رسولهم الكريم ونشاطاته عليه أفضل الصلاة وأتم التســـليم. لذا فهم لم يتوقفـــوا عند التفاصيل التي ربما اعتبرها

---

(١) ٦٧٨ - ٦٨١ أغاثون.

بعضهم إطالة لا داعي لها، فمروا على النقاط الرئيسية فيها دون الدخول في أمور لم تكن تعنيهم كثيراً. في حين أتى بعضهم الآخر بإيجاز على طرف من هذا، فقط من باب تأكيد استدلال بعض أولي العلم من أهل الكتاب على نبوته عليه الصلاة والسلام، وما حل بهم بسبب ذلك.

- أي مثل تلك الرواية الأخيرة؟

- تماماً، ولكن حتى هذه الرواية، على إسهابها النسبي، قفز راويها عن ذكر كثير من الأحداث التي مرت مع ذلك الأسقف[1].

- كيف عرفتم ذلك؟

- من تكرار حرف العطف "ثم" الذي يدل في اللغة العربية على التراخي، أي بُعد زمني ومكاني[2]، وعند جمع باقي الروايات التي أتت على ذكر ذلك الأسقف، استنتجت بعض تلك التفاصيل التي ربما قد قفز عنها.

- مثل ماذا؟

- مثل الاستجواب المفصل من قبل ذلك الأسقف لرسول النبي عليه الصلاة والسلام، وعودته إلى الكتب المقدسة للوقوف على مدى تطابق الصفات التي عرفها عنه مع تلك التي تتحدث عن النبي المنتظر، والكتاب الذي وصله من هرقل يخبره فيه

---

(١) بشكل عام وصلتنا القصة من ثلاثة طرق مختلفة: عن أبي سفيان، ودحية بن خليفة، وابن الناطور.

(٢) جاء في "معاني النحو" للأستاذ الدكتور "فاضل السامرائي" الجزء الثالث: "ثم" حرف عطف يفيد الترتيب والتراخي، والتراخي لا يقصد به التراخي في الزمن فقط بل عموم البعد والتباين. وهي أشد تراخياً من "فـ"، مثل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢١ - ٢٢]، فجاء بالفاء عقب الموت لأن الإقبار يكون عقب الموت، وجاء بـ"ثم" للتراخي لأن النشور يأتي متأخراً. و"ثم" مثل الفاء (التي تفيد الترتيب والتعقيب)، إلا أنها أشد تأخراً. وجاء في منتدى العقاب ‹ ديوان الشخصية الإسلامية ‹ القسم الأدبي ‹ قسم اللغة العربية وأبحاثها: ثم: حرف عطف وتراخ: تقتضي الترتيب مع المهلة ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٧]. وجاء أيضاً أن ثَمَّ: اسم يشار به إلى المكان البعيد، ويكون في العبارة ظرفاً للمكان، نحو: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

بظنه أن ذلك النبي الأمي هو نفسه الذي أخبر عنه الكتاب، ثم رد الأسقف على كتاب الإمبراطور بموافقته لما توصل إليه. ويبدو أن الأسقف قد بعث برسالة إلى نبينا نفسه عليه الصلاة والسلام يستفسر منه عن بعض الأمور ليتأكد أكثر من نبوته، ويطمئن قبل إعلان إسلامه. فقد جاء في مصادرنا الأقل درجة في الموثوقية[1] أن النبي عليه السلام كتب رسالة إلى ضغاطر الأسقف قال فيها: "إلى ضغاطر الأسقف. سلام على من آمن. أما على إثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمة ألقاها إلى مريم الزكية. وإني أؤمن بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. والسلام على من اتبع الهدى".

- إذا صح أمر هذه الرسالة فإن الأمر قد يحتمل أيضاً أن يكون ذلك الأسقف قد سمع بنبيكم قبل مكاتبته لهرقل أصلاً، فراسله مستفسراً عن طبيعة إيمانه في المسيح وأنبياء العهد القديم وكتبهم.

- تحليل طيب، وأنا لا أستبعد هذا فعلاً. كما أنني لا أستبعد أن يكون الراوي ربما قد خلط بين دحية الكلبي و"عدي بن حاتم الطائي"، ودمج ما حدث مع هذين الرسولين المختلفين بنفس القصة.

- وهل أرسل نبيكم رسولاً آخر إلى الروم؟

- كلا؛ فمع أن عدي بن حاتم أسلم فيما بعد وصار من صحابة رسول الله ﷺ، إلا أنه آنذاك كان لاجئاً عند ملك الغساسنة[2]، ولا يزال على نصرانيته. وقد جاء في "الصحابة" لابن السكن أن الحارث بن أبي شمر الغساني قد: "أرسل بكتاب النبي ﷺ

---

(١) مثل سيرة ابن إسحاق والطبقات الكبرى الجزء الأول.

(٢) هرب عدي بن حاتم الطائي بعد سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بلاد طيئ، حيث هدم المسلمون صنم تلك الناحية "الفلس" وكان ضمن السبي أخت عدي بن حاتم. وقد عاملها رسول الله معاملة كريمة لشرف أبيها حاتم الطائي المشهور بكرمه وحسن خصاله، وبقيت معززة مكرمة، ثم كساها عليه الصلاة والسلام وأعطاها ما تتبلغ به في سفرها إلى أخيها في الشام.

إلـــى هرقل مع عدي بن حاتم، وكان عدي إذ ذاك نصرانياً، فوصل به هو ودحية معاً"، وربما كان هذا هو ســـبب الخلط. وأنا أرجح أن يكون عدي بن حاتم هو نفســـه الذي استعان به هرقل للترجمة[١]، ومن ثم اختاره هو بالذات ليذهب بكتاب منه إلى ضغاطر في رومه كي يحدث ضغاطر بكل ما ســـمعه، وأيضاً بكل ما يعرفه عن الرســـول عليه الصلاة والسلام لكونه من موطن الرسول عليه الصلاة والسلام[٢]، بالإضافة إلى كونه نصرانياً أيضاً. وجاء في الحديث أن ضغاطر انشـــرح صدره للإسلام بعد هذا، فلبس البياض وخرج إلى قومه يصيح فيهم بظهور النبي الجديد، فقام عليه القساوسة وعامة الشعب، فعاد إلى عدي وأعطاه رسالة إلى هرقل قال فيها:"هذا الذي كنا ننتظر، وبشر عيسى، أما أنا فمصدقه ومتبعه"، وأعطاه أخرى لنبي الله ﷺ يقرأ فيها عليه السلام، ويخبره أنه شـــهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رســـول الله، وأنه قد آمن به وصدق، وأن قومـــه قد أنكروا عليه ذلك. وجاء في هذه الرواية أن قوم ضغاطر اشـــتدوا عليه في الإيذاء حتى قتلوه. ووصل عدي برســـالة ضغاطر إلى هرقل وهو بحمص، فجمع الأســـاقفة والمطارنة في دار فخمة مغلقة وقال لهم: "يا معشـــر الروم... هل لكم في الفلاح والرشد الدائمين وثبات الملك دائماً؟ فبايعوا محمداً وآمنوا به، فإني علمت من عدة أمور أن الأمة المحمدية هي الأمة الدائمة"، فقام جدال حاد بين الموجودين، وذكر بعضهم هرقل بسوء، واشتد اللغط وكثر الصياح، فقاموا وتوجهوا نحو الأبواب يريدون الخـــروج فوجدوها مؤصـــدة، فأمر هرقل بإعادتهم إليه لمـــا رأى إنكارهم وإجماعهم عليـــه فقال لهم: "إني أردت بتلك المقالة أن أختبر تمســـككم بدينكم، فقد رأيت منكم

---

(١) الترجمان في حديث أبو سفيان والله أعلم.

(٢) ذكر ابن إسحاق في روايته أن رسول الحارث ملك غسان (المرجح أنه كان عدي بن حاتم) قال لهرقل عندما أخبره عن أمر رسول الله ﷺ: "خرج من بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي، فقد اتبعه ناس، وخالفه ناس، فكانت بينهم ملاحم في مواطن، فتركهم وهم على ذلك".

مـــا أحب"، فاقتنعوا بكلامه، وخرجوا راضين"[١]. وهذه الرواية توضح ما قبلها وتظهر بعض الأحداث التي قفز عنها رواة الأحاديث الأخرى.

- هل جاء ذكر ذلك الأسقف بروايات أخرى؟

- بالتأكيـــد؛ فقد ذكرت قصته أحاديث كثيرة، حتى إن بعض علماء المســـلمين قد صنفه ضمن صحابة رسول الله ﷺ الذين لم يروه[٢].

- وما الذي جاء في تلك الأحاديث التي ذكرتها؟

- جاء بأحدها على لســـان دحية الكلبي: "بعثني رسول الله ﷺ إلى قيصر" فذكر الحديث إلى أن قال: "فأرســـلني إلى الأســـقف وهو صاحب أمرهـــم، فأخبره وأقرأه الكتـــاب، فقال: هذا النبي الذي كنـــا ننتظر، قال: فما تأمرني؟ قال: أما أنا فمصدقه ومتبعه. قال قيصر: أما إن فعلت يذهب ملكي"[٣]. وفي أحدها كان لفظ اسم الأسقف فيه "تغاطر"[٤]، وهو من الحديثين السابقين وفيه قصة أبي سفيان، وفيه أن تغاطر قال لهرقل: "إنه والله للنبي الذي نعرف، فقال له: ويحك إن اتبعته قتلتني الروم، قال: لكني أتبعه" وذكر قصة قتله مطولة.

- هذه المحاورة تفترض حدوث مقابلة بين هرقل وأســـقف رومه، مع أننا نفهم من الروايات أن الرســـل والكتب هي التي كانـــت بينهم فقط، فهل يوجد في الأحاديث ما يؤيد أن هرقل استدعى هونوريوس للتشاور في هذا الموضوع أو أنه سافر إليه مثلاً؟

- كلا؛ لا يوجد شـــيء من ذلك فـــي كتب الحديث. ولكن جاء فـــي المعجم الكبير للطبراني ما يلي على لسان أبي سفيان: "فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ آخِذاً إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ فِيـــهِ مَتْجَرُنَا، فَقَدِمْتُهَا حِينَ ظَهَرَ هِرَقْلُ عَلَى مَنْ كَانَ عَارَضَهُ مِنْ فَارِسَ فَأَخَّرَهُمْ

---

(١) صحيح البخاري "كتاب بدء الوحي".

(٢) كما جاء في "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، و"الإصابة في تمييز الصحابة".

(٣) رواه عبدان بن محمد المروزي من طريق سلمة بن كهيل عن عبد الله بن شداد عن دحية الكلبي.

(٤) رواه سعيد بن منصور من طريق حصين عن عبد الله بن شداد.

مِنْهَا، وَانْتَزَعَ لَهُ صَلِيبَهُ الأَعْظَمَ، وَقَدْ كَانُوا سَلَبُوهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَبَلَغَهُ أَنَّ صَلِيبَهُ اسْتنقذَ لَهُ، وَكَانَتْ حِمْصُ مَنْزِلَهُ، فَخَرَجَ مِنْهَا عَلَى قَدَمَيْهِ مُتَشَكِّراً لِلَّهِ حِينَ رَدَّ عَلَيْهِ مَا رَدَّ لِيُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، بُسِطَ لَهُ الطَّرِيقُ بِالْبُسُطِ، وَيُلْقَى عَلَيْهَا الرَّيَاحِينُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى إِيلِيَّا، وَقَضَى فِيهَا صَلاتَهُ وَمَعَهُ بَطَارِقَتُهُ وَأَسَاقِفُ الرُّومِ، قَالَ: وَقَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَعَ دِحْيَةَ بن خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ..." إلى آخر الرواية. وعليه؛ فمن المحتمل جداً أن يكون أسقف رومه من بين بطارقة الروم وأساقفتهم الذين رافقوا هرقل في حجه شكراً لله تعالى على النصر المؤزر على الفرس واستعادة الصليب الأعظم.

- هذا جائز فعلاً.

- ومما يؤكد ذلك وجود رواية أخرى جاءت في كتاب "معرفة الصحابة" لأبي نعيم (رقم ٢٣٠٢) جاء فيها على لسان دحية الكلبي يتحدث عن هرقل: "فقرئ الكتاب حتى فرغ منه، ثم أمرهم فخرجوا من عنده، ثم بعث إلي فدخلت عليه فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف: فدخل عليه، وكان صاحب أمرهم، يصدرون عن رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب قال الأسقف: هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظر، قال قيصر: فما تأمرني؟ قال الأسقف: فإني مصدقه ومتبعه، فقال قيصر: أعرف أنه كذلك ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذلك قتلني الروم وذهب ملكي"، وهذه الرواية تدل أن الأسقف كان بإيلياء أيضاً آنذاك. وربما بعث دحية إلى هرقل مرتين برسالتين مختلفتين في إحداهما كان هونوريوس بالشام وفي الأخرى كان برومه، وربما كان الذي أرسل إلى رومه لمقابلة هونوريوس هو عدي بن حاتم، أما الذي أرسل إليه وهو بإيلياء فكان دحية بن خليفة. ولدينا أحاديث تؤكد أن دحية أرسل إلى هرقل سنة٥ للهجرة[١]، وأخرى في أول سنة ٧ للهجرة[٢]، بعد انتصار الروم على الفرس، وأحاديث أخرى تروي بأنه أرسل

---

(١) مثل تاريخ خليفة بن خياط.

(٢) مثل كتاب المغازي للواقدي؛ حيث جاء فيه أن النبي ﷺ بعثه بكتابه إلى هرقل في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية، وكان وصوله إلى هرقل في المحرم سنة سبع.

بسنة ٩ للهجرة[١] في أثناء وجود الجيش الإسلامي بتبوك. وقد حاول المؤرخون المسلمون المتأخـــرون ترجيح تاريخ واحد من تلك التواريخ الثلاثة وســـاق كل منهم أدلته. ولكنني شخصياً أظن كل تلك التواريخ صحيحة وأنه كانت هناك مراسلات عدة بين الرسول ﷺ وبين هرقل وبين هونوريوس[٢].

- كل ما قلتموه منطقي جـــداً ويمكنني تقبله، ولكنكم تغافلتم عن أمور مهمة جداً تنسف استنتاجكم من أساسه وتشكك في كل تلك الروايات.

- ما هي؟

- إن مصادركم تتحدث عن "صاحب الإمبراطور هرقل برومه" و"نظيره في العلم"، "الأســـقف الأعظم عند الروم من الإمبراطور" و"الأجوز قولاً منه بهذه المســـائل". وكل هذه الأمور تنطبق فعلاً على بابا رومه في العصور الوســـطى عندما كان الباباوات هم من يمســـحون الملوك والأباطرة ويملكون ســـلطة حرمانهم، وعزلهم أحياناً. ولكن من المفترض أن ذلك قد حدث في بداية القرن الســـابع للميلاد؛ أي عندما كانت السلطة كلها لا تزال بيد الإمبراطور، حتى إن تعيين البابا نفســـه يتم فقط بعد موافقته، ثم لا

---

(١) جاء في "الخصائص الكبرى" لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي: وأخرج أبو يعلى، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ، فقال: ألا تخبرني عن رسالة هرقل؟ قال: بلى. قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دحية إلى هرقل، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتهم، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: إن هذا الرجل قد أرسل إلي يدعوني. . . إلى آخر الحديث.

(٢) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: "وفي رواية ابن إسحاق أن هرقل أرسل دحية إلى ضغاطر الرومي. . . فيحتمل أن يكون هو صاحب رومية الذي أبهم هنا (في صحيح البخاري)، لكن يعكر عليه ما قيل إن دحية لم يقدم على هرقل بهذا الكتاب المكتوب في سنة الحديبية وإنما قدم عليه بالكتاب المكتوب في غزوة تبوك فالراجح أن دحية قدم على هرقل أيضاً في الأولى، فعلى هذا يحتمل أن تكون وقعت لكل من الأسقف ومن ضغاطر قصة قتل كل منهما بسببها، أو وقعت لضغاطر قصتان إحداهما التي ذكرها ابن الناطور وليس فيها أنه أسلم ولا أنه قتل، والثانية التي ذكرها ابن إسحاق فإن فيها قصته مع دحية وأنه أسلم وقتل، والله أعلم.

تنســوا أن الإمبراطور المقصود هنا كان هرقــل العظيم في أوج قوته بعد أن هزم للتو إمبراطور الفرس الذي كان أكبر منافس لسلطته على العالم.

- لم أغفل عن ذلك يا بني؛ فقد جمعت كل المعلومات التاريخية والدينية من مختلف المصــادر المتوافرة عن بابا رومه في ذلــك الوقت، والأحداث التي مرت به، ثم قارنتها بما جاء عندنا من ذكر الأسقف، في محاولة للوصول إلى الحقيقة الكاملة بشأنه. وما جمعتــه عن الأحداث التاريخية في تلك الحقبة يؤيد فعلاً، بل يؤكد، منطقية ما ذكره رواتنا عن رد هرقل، ومكانة أسقف رومه آنذاك، وهونوريوس تحديداً.

- اعذرني يا ســيدي، ولكنني مطلع بشكل جيد على تاريخ البابوية، وأخشى أن ما أعرفه لا يؤيد ادعاءكم هذا.

- لا تســتعجل بالحكم يا بني، فســوف أدع التاريخ نفســه يبدد شكوكك من هذه الناحية.

- أنا أقبل حكم التاريخ بكل رحابة صدر، ولكنني أتمنى عليكم أن تستشهدوا فقط بتاريخ الدولة المعنية بتلك الأحداث، وليس بالتاريخ الإســلامي، وذلك للأسباب التي تفضلتم بها قبل قليل.

- لك هذا. فالتاريخ الروماني، الذي تقبل بحكمه فقط، يذكر انعقاد مجمع سرديكا في عام ٣٤٤م وتســليمه بحق اســتئناف قرارات المجامع الإقليمية إلى أسقف رومه، وهو ما أكد دعاوى البابوية بأنها الحكم الأعلى للمسيحية. وفي عام ٣٨٢م عقد البابا "داماســوس الأول" ٣٦٦ - ٣٨٤م مجمع رومه للرد على قرارات مجمع القسطنطينية لعام ٣٨١م وتأكيد صدارة رومه التي تستمد مكانتها من وعد المسيح لبطرس الرسول. وفــي مجمع خلقيدونية عــام ٤٥١م بزغ نجم البابا "ليــو الأول" ٤٤٠ - ٤٦١م الملقب بـ"ليو العظيم" فميز الكنيسة الملكية بعقيدتها في المسيح من حيث أن له طبيعتين، بعد

تصديه الحاسم لأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح[١]، وفي سنة ٤٥٥م أصدر الإمبراطور "فالنتيان" مرسوماً يقضي بخضوع كل أساقفة الإمبراطورية وموظفيها للبابا، وهو ما زاد في نفوذ الكنيسة وثرواتها.

- تريدون القول بأن التاريخ يؤكد أن نجم البابوية كان في صعود مستمر، وأنها كانت تحظى بدعم الأباطرة؟!

- أجل، ولكن ليس دائماً. ففي ٦ آب/أغسطس سنة ٥٢٥م قرر الإمبراطور "ثيودريك" تسليم جميع الكنائس التابعة للبابوية إلى الأريوسيين، رداً على حملة الإمبراطور "جستنيان" في الدولة البيزنطية ضد الموحدين. فأنزل الاضطهاد والتعذيب على الكاثوليك، وسجن في هذه المرحلة البابا "يوحنا الأول" نفسه عام ٥٢٥م. ولم تكد تنجلي تلك الأزمة عن البابوية، حتى اجتاحت الحرب القوطية (٥٣٦-٥٥٣) إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها، وتركت الفوضى والفاقة أينما حلت. فاضطربت الحالة الاقتصادية في المدن، وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية، ولم يبق في روما نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثي الإمبراطورية، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم. ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذي عينين، وللأباطرة أنفسهم، أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسي وتقويته. ولذا أصدر الإمبراطور جستنيان في عام ٥٥٤ مرسوماً يطلب فيه أن "يختار الأساقفة والرجال المعروفون في كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شؤون الحكومة المحلية". ولكن جثة جستنيان لم تكد تبرد في مثواها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (٥٦٨) شمالي إيطاليا مرة أخرى إلى المذهب الأريوسي الموحد، وهددت صرح الكنيسة كله، وزعامتها في إيطاليا بأشد الأخطار. وقد تصدى البابا آنذاك لتلك الأزمة بقوة وحزم، جعلت منه واحداً من أكثر رجالات الإمبراطورية تأثيراً في التاريخ.

---

(١) كان له دور بارز في حماية روما، والحفاظ عليها بعد سقوطها عام ٤١٠م في يد الأريوسيين.

- تقصد البابا جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤) الذي اعترف بفضله وقدسه من جاء بعده من الباباوات، ولقبه الخلف المعجب به "جريجوري العظيم".

- هو بذاته. فما الذي تعرفه عن سبب تلقيبه بذلك؟

- لقد بذل كل ما في وسعه لإقامة سلطة زمنية للبابوية، وخاض الحروب بنفسه أحياناً لترسيخها وزيادة رقعتها. ووصفه المؤرخون بأنه كان رومانياً من الطراز القديم، لا ينثني عن قصده، صارماً في أحكامه، حازماً، عملياً، محباً للنظام وإطاعة القانون. وفوق هذا كان سياسياً محنكاً عاش بين ألاعيب السياسة وأبهة القصور، وخبر العالم وما فيه من مكر وخداع خبرة أفاد منها كثيراً، فكان يناقش أعظم حكام زمانه، يغلبهم في معظم الأحيان ويغلبونه في بعضها. ومع اعترافه الكامل من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم، إلا أنه كان يتجاهل هذه السيادة تماماً من الوجهة العَملية.

- كيف عرفت عنه كل هذا؟

- في أثناء جمعي للمعلومات عن الأريوسية، عرفت دوره في إعادة المذهب الكاثوليكي إلى إفريقية، وتحويل إسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي، وكسب إنجلترا أيضاً لهذا المذهب، بالإضافة إلى إخضاعه أساقفة لمبارديا المتمردين لسلطانه. وكنت قد سمعت عنه أيضاً قبل ذلك بكثير، في أثناء جمعي للمعلومات عن الكاثوليكية التي تجل دوره الكبير في إصلاح الكنيسة وتطويرها، بالإضافة إلى توسيع نفوذها. لذا فقد قررت قراءة المزيد عنه.

- ثقافتك وحسن اطلاعك، يبرهنان لي ثانية على صدق حسن ظن جيمس بك، فيبدو أن وفرة المعلومات لا تنقصك مطلقاً، ولكن يجب ألا تهمل يا بني ربط تلك المعلومات بعضها مع بعض، وتحليلها في سبيل استخلاص المزيد منها. ففيما قلته الآن بداية الطريق في إجابة السؤال الذي طرحته أنت بنفسك قبل قليل.

- أنت محق في هذا يا سـيدي، فقد تنبهت لذلك فعلاً، حين كنت أسرد ما قرأته عـن البابا جريجوري. فهل لك أن تكمل بقية جوانب الصورة في شـرح حقيقة نفوذ البابوية وتأثيرها على الإمبراطورية في تلك الحقبة؟

- بكل سرور. فهذه الحقبة يطلق عليها المؤرخون اسم "العصور المظلمة"، ويرون أنها تمتد منذ تولي البابا جريجوري الأول سـنة ٥٩٠م حتى تولي شارلمان (٨٠٠ -٨٤٠م) الإمبراطوريـة. وقد أطلقوا عليها هذا الاسـم لأنها شـهدت العديد من الصراعات والانشقاقات التي أدت إلى الانهيار السياسي والانحطاط العلمي والثقافي للمسيحية، وإن تميزت بقوة التبشـير المسيحي بين الشـعوب، أو بمعنى أدق نشر عقيدة التثليث بالقوة على الأريوسيين الموحدين. وفي هذه الفترة بالذات ظهر الإسلام.

- إذا كانـت تلك الحقبة قد بدأت ببابا اتفق المؤرخون المسـيحيون بالإجماع على عظمته وقوة تأثيره، وتميزت بانتشـار المسـيحية بقوة بين النـاس، فربما كان ظهور الإسلام هو سبب اختيارهم لتسميتها بالعصور المظلمة.

- لا أسـتبعد هذا بتاتاً. فهذه الفترة تمثل، مع كل شيء، العصر الذهبي في تاريخ البشرية جمعاء؛ إذ إن المسلمين لم يكونوا شعباً قومياً يقوم باستعباد الشعوب الأخرى واسـتعمارها، بل كان كل من يدخل الإسـلام من تلك الشعوب يدخل ضمن المسلمين. وكانت الشـعوب الإسـلامية تعمل من أجل أهداف سـامية وعالية من أجل الارتقاء بالبشـرية والنهوض بالحضارة الإنسـانية والإثراء الثقافي. فقد قاموا بتقديم الكثير مـن العلوم وتطويرها، وقدمـوا الكثير الكثير من الاختراعـات التي نعيش الآن في ثمارهـا، لتمثل حقبة ذهبية حقيقية وعملية وعلمية في تاريخ البشـرية، وكانت تمثل إعداداً وتمهيداً للمرحلة التي تليها وهي الدخول في مرحلة وحقبة العصور الصناعية. وكذلك قدم المسـلمون الكثير من الأنظمة، ومنها الاقتصاد الإسلامي، الذي هو عبارة عن مجموعة المبادئ والأصول الاقتصادية التي تحكم النشاط الاقتصادي كما ورد في

نصوص القرآن والسنة النبوية، والتي يمكن تطبيقها بما يتلاءم مع ظروف أي زمان ومكان. ويعالج الاقتصاد الإسلامي مشاكل المجتمع الاقتصادية وفق المنظور الإسلامي للحياة، الذي يقوم على العدل والمساواة والأخلاق... .إلخ، وهي أمور لم تكن معروفة في تلك الحقبة من التاريخ. ومن هذا التعريف يتضح خطأ تسمية العصور المظلمة فعلاً.

- هذا صحيح، ولكن لنعد إلى موضوعنا يا سيدي.

- على كل الأحوال فقد أقام البابا جريجوري الأول سلطة البابوية الزمنية، وحررها من سلطان الإمبراطورية، واستطاع فرض سيادة كرسي أسقفية رومه "الرسولي" على بقية الأساقفة في النواحي القضائية، بمن فيهم أسقف القسطنطينية نفسه! وعند وفاته في مطلع القرن السابع كان قد ترك سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و"ميراث بطرس" أعظم وأقوى مما كانت عليه قبله، وحقق للبابوية قسطاً من السمو لم يسبق أن وصلت إليه من قبل. وفي هذا الإطار يمكن فهم قول هرقل لرسول رسول الله ﷺ بعد نحو عشرين سنة من ذلك: "اذهب إلى ضغاطر الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم، فهو أعظم في الروم مني، وأجوز قولاً مني عندهم، فانظر ما يقول"، ولا سيما أن المصادر الفاتيكانية نفسها تذكر أن البابا هونوريوس الأول كان تلميذ البابا جريجوري الأول واقتدى به بأن حول قصره في روما إلى دير[1]، وأنه هو الذي توصل عن طريق

(١) كان هونوريوس من عائلة أرستقراطية غنية في منطقة كامبانيا في جنوب إيطاليا. وقد أجرى الماء إلى روما من بحيرة ساباتين التي تبعد٣٥ميلاً عن المدينة، بعد أن أصلح قناة تاراجان وبنى عليها الطواحين، ورمم كثيراً من الكنائس الرومانية. مصادر البحث الأجنبية عن البابا هونوريوس الأول:

Pope Encyclopedia, Matthew Bunson, 1995, Crown Publishing -Group, NY, NY. -The Lives of the Popes in the early middle ages, Rev. Horace K. Mann, Vol. I, Part I, 2nd edition, London 1925 -Chronicles of the Popes, P. G. Maxwell-Stuart, 1997

التفاوض إلى سلام مع النصارى الموحدين من قبائل اللومبارديين الذين كانوا يحاربون روما في الغرب في أثناء انشـــغالها بمحاربة التوغل الفارسي في الشرق، وأنه تعاطى عملياً وبنشاط في شؤون الدولة. بل تعترف بأنه لقّب بـ"قائد الشعب" لحب الشعب له، ولبراعته في "الشؤون الإدارية"، حسب تعبير موسوعة الفاتيكان.

- الآن استوعبت الأمر تماماً، فيبدو أن التاريخ يؤيد فعلاً، وبقوة، دقة تلك المعلومات المختصرة التي ذكرها كتّاب السيرة والأحاديث المسلمون!!!

- تمامـــاً، فحتى تلك النقطة لـــم يكن لأي أحد أي مصلحة فـــي إخفاء الحقائق التاريخيـــة أو حتى التعتيم عليها، لذلـــك حفظ لنا التاريخ كل ما جرى بصدق وأمانة، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنســـبة إلى السنوات الأخيرة من جلوس البابا هونوريوس الأول على العرش البابوي؛ فقد تضاربت المعلومات حول ذلك بشدة متناهية، ولم يحفظ لنـــا التاريخ معلومات مؤكدة لا تقبل التأويل عن حقيقة التغير في أفكاره ومعتقداته أو حتى عن مصيره نفسه.

- إن كان قد أسلم حقاً كما تفترضون، فإن محاولات الإخفاء والتعتيم التي تتحدثون عنهـــا تصبح مبررة فعلاً، بل مفهومة تماماً. ولكـــن بعد انقضاء كل تلك العصور على ذلك، ألا ترون أنه من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، أن تقفوا على حقيقة ما جرى هناك فعلاً؟

- قد تكون محقاً في هذا يا بني، ولكنني مع ذلك لم أستســـلم، وأعمل حالياً على جمع كل المعلومات المتوافرة عنه وعن الأحداث التي مرت بولايته، راجياً من الله تعالى أن يوفقني في جلاء ذلك الغموض.

- وما الذي توصلتم إليه حتى الآن؟!

- لقـــد قامت فـــي ذلك الوقت بالذات بلبلـــة كبيرة في العقيدة المســـيحية، وثار جدل واســـع يهدف إلى نفي الازدواجية الذي نســـبت طويلاً إلى شخص المسيح عليه

السلام وطبيعته، حتى جعلت منه مركّباً من اتحاد جزأين. وقد سمي ذلك لاحقاً، أي بعد أن عادت الأمور إلى سابق عهدها، ببدعة "المون إنرجية" (مون إنرجيزم monenergism) أي الفعل أو القوة الواحدة. وينقل إلينا التاريخ أن ذلك الجدل قد اتخذ أشكالاً كثيرة ومتعددة، ولكنه للأسف لم يحفظها لنا كلها. وأهم ما سجله التاريخ من تلك الأشكال هو "المونوثيلية" (مونوثليزم Monothelisme) أي المشيئة أو الإرادة الواحدة، والتي زعم التاريخ أنها هي بالذات من تبناها وقاد لواءها بعض أكابر رجال الدين والعلم والسياسة الرومان آنذاك، مثل هرقل الإمبراطور وهونوريوس أسقف رومه، و"سرجيوس" أسقف القسطنطينية، و"كيروس" (المقوقس) أسقف الإسكندرية الملكي والحاكم الروماني لأقباط مصر الذي اجتمعت له كل من السلطتين الدينية والسياسية.

- وهل قمتم بدراسة ما حفظه التاريخ عن تلك الحركة؟

- أنا أعمل على ذلك حالياً.

- ما الذي وجدتموه حتى الآن؟

- لقد جاء مثلاً في كتاب "قصة الحضارة" للكاتب ول ديورانت في المجلد الخامس الفصل الثالث الذي بعنوان: "الشؤون السياسية للبابوية" ما نصه: "وكان الإمبراطور هرقل يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعدائه الفرس، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذي المذهب اليعقوبي القائل بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة، وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكثلكة الأساسية والقائل بأن للمسيح طبيعتين. ومن أجل هذا أصدر في عام ٦٣٨ منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد أن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة. ووافق البابا هونوريوس الأول على هذا الاقتراح، ولكن رجال الدين في الغرب نددوا بموقفه هذا"، ومع أن الذي وصلنا عن تلك الحركة الوحدوية أو التصحيحية هو مجرد معلومات ناقصة ومتضاربة، إلا أنه من المؤكد أنها

كانت محاولة للتشكيك في صحة الازدواجية (الإنسانية والألوهية) المنسوبة إلى عيسى عليه السلام، إما تدريجياً، كما نفهم من تحليل ما وصلنا منها، أو ربما إصلاح ذلك الخطأ نهائياً، ونفي تأليه المسيح عليه السلام بشكل قاطع ودون تدرج، كما نظن أنه ما قد حدث فعلاً، على الأقل في بداية الأمر، قبل أن يتراجع أغلبهم. ويبدو أن البابا هونوريوس بالذات ظل على موقفه إلى النهاية، وزاد على ذلك بأن اعتنق الإسلام الذي رآه تحققاً لبشارة المسيح الإنسان، عبد الله ورسوله، بمجيء الملكوت ونبي آخر الزمان عليه الصلاة والسلام.

- ألا ترون أن ذلك تحميل للأمر فوق طاقته فعلاً؟ فما الذي يمنع أن تكون تلك العقيدة الجديدة ببساطة هي مجرد محاولة للمِّ شمل المسيحيين، وليس للتشكيك في ألوهية المسيح؟

- لأن عقيدة الفعل الواحد أو المشيئة الواحدة لم تكن عقيدة جديدة فعلاً، وقبل ذلك الزمن لم تعتبر هرطقة، ولم تثِر كل هذا الاستهجان.

- ألم تبتدَع المونوثيلية على يد هرقل وسرجيوس وفي عصرهما؟!!

- كلا بالطبع، فهذه هي الصيغة التي قال بها كيرلس الاسكندري في الفصل الرابع من تفسيره لإنجيل يوحنا أن "المسيح أظهر مشيئة واحدة متجانسة نتيجة اتحاد طبيعتيه". كذلك جاءت في رسالة البطريرك "مينا" (توفي سنة ٥٥٢م) إلى البابا فيجيليوس، ووردت مرة أخرى في رسالة مينا إلى الإمبراطور جستنيان الأول. وقد كتبت هاتان الرسالتان بخصوص إدانة الفصول الثلاثة في المجمع المسكوني الخامس. وبعد أن أدان البابا فيجيليوس هذه الفصول الثلاثة صرّح قائلاً: "نحرم كل من لا يعترف أن كلمة الله المولود الوحيد، أي المسيح، هو جوهر واحد وشخص واحد و"unam operationem" فعل واحد"، لذلك فإن الأمر لا يستحق كل تلك الضجة والتكفير فيما لو كان يتعلق فقط بالمشيئة الواحدة أو الفعل الواحد، بل ربما كان وصف تلك الحركة التصحيحية بذلك هو لمجرد التقليل من شأنها، بالخلط المتعمد بينها وبين

ما اصطلح على اعتباره "بدعة مسيحية" لنفي أي أثر للإسلام الناشئ.

لم يستطع أبراهام أن يكبت دهشته، فصفر صفرة طويلة، وقال ذاهلاً:

- هـــذا منطقي فعلاً. وهل هناك في التاريخ ما يؤيد طرحكم بالنســـبة إلى البابا هونوريوس أيضاً؟

- أجل. فهو، كما وصلنا، كان الوحيد من مناصري تلك الحركة الغامضة الذي فقد منصبـــه، ثم اختفى بغموض، ويرجح أنه أعدم[1]. كما أنه الوحيد منهم الذي اســـتمر العـــداء له والحقد الدفين عليه نصف قرن تقريباً، حتى طوي موضوعه نهائياً بإدانته الصريحة في مجمع القسطنطينية الثالث الذي ذكرته أنت بنفسك في بداية الحديث، وإدانة ما بات يعرف بالمونوثيلية أيضاً.

- ما هي بالضبط حقيقة تلك العقيدة الغامضة؟

- كما أوضحت قبل قليل فلا أحد يســـتطيع الجزم بحقيقتها الأولى بشكل دقيق، وكل ما يقال عنها الآن لا يستوجب عداءها إلى تلك الدرجة من الضراوة التي تتحدث المصـــادر عنها. وللأســـف فقد أتلفت أدبيـــات تلك العقيدة بعدمـــا أدينت، ولم يعطَ التاريخ فرصة حقيقية لحفظها وتوثيقها بدقة. وللتدليل على ذلك أذكر ما قاله العالم "جوســـتاف باردي" حرفياً في مجلة التاريخ الكنسي مجلد ٣٢ سنة ١٩٣٦ في صفحة ٢٩٠: "ولا يوجد ما هو أغرب من قصة المجمع المسكوني السادس عام ٦٨٠، فقد كان بالفعل "مجمع تجار الأنتيكة والنصوص القديمة"، إذ لم يتحدثوا طوال انعقاده إلا عن

---

(١) يقول الدكتور أحمد طاهر (أمين عام اتحاد الاذاعة والتلفزيون المصري، وأستاذ بكلية الإعلام وعضو مجلس إدارة معهد الدراسات والبحوث الإفريقية -سابقاً.) في كتابه "الأناجيل دراسة مقارنة": "وتخبرنا دائرة المعارف البريطانية في المجلد الحادي عشر ص ٦٦٣ أن البابا هنورياس الأول، الذي تولى البابوية من ٦٢٥ إلى ٦٧٨م كان من الموحدين لله وأعدموه سنة ٦٨٢م، لمناداته بالتوحيد كما جاء في الموسوعة، ومن ذلك نستطيع أن نجزم أن الوحدانية ظلت طائفة لها وجود وليست بالقليلة حتى هذا التاريخ". طبعة دار المعارف، رقم إيداع ٨٤٦٨/ ١٩٩١، ص١٧٣.

النصوص التي تم تحريفها، وعن الخطابات الوهمية، والأعمال الافتراضية. فقد كانوا يقومون بمقابلة النصوص ومضاهاتها، ويبحثون في الأرشـــيف، ويضاهون التوقيعات عليها، ومنذ الجلســـة الثالثة في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٦٨٠، أقروا أن كل محاضر المجمـــع الخامس مثلاً قـــد تم تزييفها"!!! وكل ما وصلنا عـــن المونوثيلية في عصرنا الحالي لا يتعدى كتابات خصومها المؤمنين بألوهية المسيح، والرافضين تماماً لأي أمر من شأنه أن يشكك العامة بكونه الابن أو الأقنوم الثاني لله.

- حسناً، ما الذي جاء في هذه الكتابات التي تناولتها؟ وكيف تفسر نشوءها؟

- يقول المؤرخ الألماني "يوحنا موســـهايم"، ولكن بدون أســـاس تاريخي: "إن القائد بولس (أســـقف الأرمن في قبرص) والبطريرك اليعقوبي "أثناســـيوس الجمال" أوحيا معاً إلى هرقل بأن المونوفيزيقيين قد يقتـنعون بقبول مجمع خلقيدونية ويتصالحون مع اليونانيين (الروم)، بشرط أن يقبل اليونانيون أنه لم تكن في المسيح يسـوع، بعد اتحاد الطبيعتين، سوى مشيئة واحدة وفعل إرادي واحد". وهناك رواية أخرى يرويها الكاتب الكاثوليكي "نويل ألكسندر"، دون أساس تاريخي أيضاً، فيقول: "إن أثناسيوس بطريرك اليعاقبة، وهو رجل شرير داهية كسب ثـقة الإمبراطور، زار الإمبراطور عندما كان في جرابلس، في سورية العليا، ووعده الإمبراطور حينذاك بتنصيبه بطريركاً على أنطاكية إذا قبل مجمع خلقيدونية واعترف بطبيعتين. عندئذ سأل أثناسيوس الإمبراطور أمن الضروري القول بمشـــيئتين وفعلين أو بمشيئة واحدة وفعل واحد في شخص المسيح؟" ويتابع ألكســـندر قائلاً: إن "أثناســـيوس كان راضياً بهذه العقيدة الزائفة، لهذا جرى تعيينه بطريركاً لأنطاكية". ويســـتنتج ألكســـندر بأن هؤلاء الرجال الثلاثة، أثناسيوس وسرجيوس وتيدور أســـقف قورش (سماه أسقف "فاران" في شـــبه الجزيرة العربية "أريبيـــا") كانوا المبتدعين للعقيدة الجديـــدة. كما جاء في بعض كتب التاريخ أن هرقل "بعـــد أن أنقذ الدولة من الفـــرس رأى أن ينقذها من الخلاف الديني، فأصدر صورة

توفيق MONO THALMA تقضي بأن يمتنع الناس عن الكلام في طبيعة السيد المسيح وصفته، وأن يعترفوا جميعاً بأن له إرادة واحدة"[١]، وأن ينزعوا عبارة "المصلوب لأجلنا" من التريصاجيون[٢].

- ولكن هذه الأقوال لا تتطابق تماماً، كما أنها تختلف أيضاً مع المصدر الذي استشهدت به قبل قليل، بل لا تتفق بتاتاً مع كون تلك العقيدة كانت معروفة سابقاً، ومقرة في المجمع المسكوني الخامس.

- أعرف هذا، وسوف نعتاد على تضارب الأقوال في شأن هذا الموضوع، كما هو في شأن مواضيع كثيرة لم يجد التاريخ مصادر أخرى لها غير المصادر الكنسية. فالكنيسة اعتادت على إتلاف كل ما ليس من مصلحتها، وكل ما من شأنه أن يؤثر سلباً، حسب وجهة النظر الكنسية، على إيمان العامة. ودأبت على تسخيف العقائد التي يهاجمونها وتبسيطها، عن طريق تجاهل جوهر فكرها الأساسي، وتصويرها بأنها مجرد تحريف ساذج للإيمان الحق. وعندما لا يستطيع المؤرخ الحصول على كل المواد والمعلومات والمعطيات التي تمكنه من بناء صورة كاملة لواقعة من الوقائع، يجد نفسه مضطراً إلى تكميلها من خلال الروايات الكنسية التي لا يرضى عنها تمام الرضا، ولا يؤمن جانبها، لا من جهة تحري الصدق، ولا من جهة حسن الفهم. حتى عندما يلجأ المؤرخ إلى تكملة النقص من خلال معرفته بطبائع الأشياء ومجريات الأحداث، فإن معرفته في هذه المواضيع بالذات لا بد أن تعتمد بشكل أو بآخر على المصادر الكنسية أيضاً لغياب المصادر الأخرى.

---

(١) جاء هذا حرفياً على موقع http://www.masi7i.net/uploads/1030/4380/--.doc. كلية البابا شنودة الثالث الإكليريكية بشبرا الخيمة، محاضرات في تاريخ الكنيسة القبطية من القرن الرابع حتى بدايات الإسلام.

(٢) جاء هذا في منتديات صفتلي تحت عنوان: موجز يختصر تاريخ الكنيسة المسيحية منذ بدايتها وحتى اليوم بالاعتماد على: -تاريخ الكنيسة المسيحية: تعريب المطران ألكسندروس جحا (تأليف أ. سيميرنوف)، و- تاريخ كنيسة أنطاكية: تعريب المطران إستفانوس حداد (تأليف بابادوبوليس).

- أنتم محقون في ذلك يا سـيدي. وأنا شخصياً عاينت بنفسي أحد الأمثلة المهمة على ذلك، وهو ما نقلته تلك المصادر الكنسية عن ماهية وحدانية أريوس؛ فهي تزعم أنه كان هو أيضاً يؤله المسـيح بطريقته الخاصة، وتورد ذلك بشكل مضطرب وفيه تناقض محير، حتى إن الباحث يجد من كلامهم نفسـه ما ينفـي ادعاءاتهم بقليل من التأمل والتفكيـر، كما أنكم محقون أيضاً فيما قلتمـوه عن عدم تحريهم للصدق، فمن الثابت أنهم لم يتحروا ذلك في أثناء تدوين أسفارهم المقدسة وجمعها، بالقصد تارة وبالإهمال أخرى، ومـن باب أولى أن يفعلوا ذلك فيما دونها. وأما من ناحية حسـن الفهم، فقد أساؤوا أيما إساءة في فهم كتبهم التي بأيديهم، كما أخطؤوا في فهم مصطلح "ابن الله" على سبيل المثال، ومن باب أولى أن يسيئوا فهم ما دونها. كما أنني أوافقكم أيضاً فيما قلتموه عن أن الكنيسة قد اعتادت على تحوير أو حتى إتلاف كل ما ليس من مصلحتها، وكل ما من شـأنه أن يؤثر سلباً، حسب وجهة النظر الكنسية، على إيمان العامة، وخير دليلـين على ذلك حرقها في العصور المتأخرة للأناجيـل غير المعتمدة، ومحاولتها في عصرنا هذا إخفاء ما ظهر من تلك الأناجيل نتيجة الاكتشـافات الأثرية[1]؛ فهي لذلك،

---

(١) عندما أعلنت الهدنة مع الكيان الصهيوني عام ١٩٤٩ نظم الأردن عمليات تنقيب واسعة للبحث عن بقايا مخطوطات قمران بإشراف الخبير البريطاني "هاردنك" مدير الآثار الأردنية، والكاهن "رولاند دي فو" الذي كان مدير "الإيكول بيبليك دي فرانس" بالقدس الشرقية. إثرها عثر الأثريون على مئات القصاصات الصغيرة داخل الكهف مع قطع من الفخار والقماش والخشب. وبعد نشر المجموعة الأولى من المخطوطات عام ١٩٥٥ توقف النشر نهائياً، وران الصمت على المخطوطات الأخرى. الغريب في الأمر أن الحكومة الأردنية كانت قد شكلت عام ١٩٥٣ لجنة عالمية من ثمانية باحثين، ليس بينهم عربي واحد (ولا حتى مسيحي من الطوائف الشرقية الأردنية) لتولي عملية إعداد المخطوطات ونشرها برئاسة (دي فو) حيث دعوا إلى القدس للعمل!!! ومع أنهم كانوا يتبعون، اسمياً، للحكومة الأردنية، إلا أن أعضاء لجنة المخطوطات لم يسمحوا لأحد بالاطلاع على ما تحت أيديهم منها!!! وحتى بعد سقوط متحف القدس تحت سلطة الاحتلال الصهيوني بعد حرب ٦٧ استمرت لجنة المخطوطات (الكاثوليكية) بسيطرتها الكاملة على المخطوطات لأكثر من عشرين عاماً، وحققت الكثير من أهدافها، إلى أن استطاعت سلطة الآثار الصهيونية أن تأخذ مكانها عام ١٩٩١، والتي بالتأكيد مارست حظراً أكبر على ما بقي من تلك الوثائق، بل يقال=

للأسف الشـــديد، غير مؤتمنة على التأريخ، لا صدقـاً ولا فهمـاً، فينبغي التزام جانب الحذر في الجزم بشيء مما تعتبر المصدر الوحيد له.

- اعذرني يا بني، فمع أنني لم أعتد أن أســـأل أحداً عن دينه، إلا أن الفضول قد أخذ مني كل مأخذ بعد الذي قلته، فما هو دينك؟

- ماذا تظنون أنتم؟

- من الواضح من نقدك لتأليه المســـيح عليه السلام أنك لست من أتباع المسيحية التقليديـــة، كما أن من الواضح من طريقة نقدك لتدوين الكتاب أنك لســـت من أتباع اليهودية التقليدية! فيبقى أن تكون إما من أتباع إحدى الكنائس المسيحية غير التقليدية التي لا تؤله المسيح، أو أنك من أتباع اليهودية التنويرية. ولكن ما رأيته فيك من خلال حديثي معـــك ينفي هذين الاحتمالين أيضاً. وبالتأكيد ينفـــي أكثر أن تكون من أتباع إحدى الديانات الوضعية، أو تكون ملحداً بلا دين.

- فما الذي بقي إذن؟

- لا أدري. فحديثك ينفي كونك مســـلماً، ولولا يقيني باستحالة أن يكون أحد من غير المسلمين على ملة إبراهيم عليه السلام، لظننتك على الحنيفية، وهكذا فلا يبقى إلا احتمال واحد لا غير.

=إنها ابتزت الفاتيكان مهددة بنشر ما يهدم المسيحية ويطيح بها إلى الأبد. وكان قد ظهر في لندن كتاب بعنوان "خداع مخطوطات البحر الميت" للكاتبين "مايكل بيجنت" و"ريتشارد لي" اتهما فيه الفاتيكان صراحة بأنها قد تدخلت مباشرة في عملية ترجمة المخطوطات ونشرها، وإخفاء معلومات وردت بها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية. واعتمد المؤلفان في أدلتهما على التأخير الذي زاد على أربعين عاماً في نشر مخطوطات كهف قمران رقم(٤)، فمن بين خمس مئة نص عثر عليها في هذا الكهف لم ينشر منها إلا مئة فقط!. وقال المؤلفان بأن "الإيكول بايبلك" المسيطرة على أعمال اللجنة تخضع في عملها لبابا الفاتيكان مباشرة، وأن هذا الولاء يهدد بضياع أي نص قد يتعارض صراحة مع مصلحة الفاتيكان. ثم بدأت حملة إعلامية كبرى في الصحف تهاجم مجموعة الباحثين المسؤولة عن ترجمة المخطوطات ونشرها وتتهمهم بالاشتراك في مؤامرة يحيكها الفاتيكان لمنع نشر بعض ما ورد بنصوص قمران، وإخفاء بعض محتويات مخطوطات قمران لأن كشفها سيكون له تأثير سلبي على بعض المعتقدات والمسيحية، بل اليهودية أيضاً.

- ما هو؟

- هو أنك كتابي فعـــلاً، ولكنك لم تعد تؤمن بأن الحقيقة الكاملة لا تزال موجودة في دين آبائك بعد كل التبديل الذي اكتشـــفته، لذا تســـعى إلى البحث عنها، دون أن تفقـــد إيمانك بالله أو بكتبه، بل فقط بمن حملوا التوراة والإنجيل ثم لم يحملوها كما يجب، وصاروا كالحمار يحمل أسفاراً، لا يعرف قيمتها الحقيقية، فيأكل ما يثقل كاهله منها، ويعوض النقص بأن يرفع إلى ظهره أســـفاراً أخرى يجدها على قارعة الطريق. وإن كنت محقاً فيما ذهبت إليه يا ولدي، فإن ذلك الكتاب الذي تدعي تأليفه لتعريف الناس بالأديان، ليس إلا وسيلتك أنت نفسك في التنقيب فيها دون إثارة الشكوك.

بلبلة في الإمبراطورية

ظل أبراهام واجماً دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يشأ الشيخ أن يتسبب له بمزيد من الإحراج، خاصة أنه قد قرأ جواب سؤاله فعلاً في عينيه وعلى صفحة وجهه. فتابع حديثه عن المونوثيلية كأن شيئاً لم يكن:

- المهم أن الإمبراطور "قنسطانس" الثاني أصدر لاحقاً، في سنة ٦٤٨، منشوراً يبدي فيه ميله إلى ذلك المذهب، فرفضه البابا مرتينوس الأول بشدة. مما حدا بالإمبراطور لأن يطلب من حاكم رافنا (ممثله في الغرب) أن يبعث به إلى القسطنطينية. ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور، صدر قرار نفيه قسراً إلى شبه جزيرة القرم، وبقي فيها إلى أن مات في عام ٦٥٥م.

- أي إن هرقل لم يكن الوحيد من الأباطرة الذين تبنوا هذه الحركة.

- كلا بالطبع، وهذا هو السبب الحقيقي في الهوة التي نشأت بين أعلى قمة الهرم السياسي الممثل بالإمبراطور في القسطنطينية، وبين أعلى قمة الهرم الديني الممثل بالبابا في رومه. وقد كانت أخطر نتائج هذه الهوة المتسعة تدريجياً، أن أشركت البابوية ملوك الفرنجة فيما بعد بالتكليف والتأييد الإلهيين، اللذين كانا حكراً على إمبراطور بيزنطة، وكلفتهم بأن يعيدوا مجد روما، بعد أن خلعت عليهم لقب أباطرة الغرب. وهكذا دخل ملوك الفرنجة على الساحة بقوة، وقاموا عندها بحمل لواء الكاثوليكية بعزم منقطع النظير، وحاربوا بقوة شديدة كل من تسول له نفسه التشكيك ببنوة المسيح لله، أو بطبيعتيه اللاهوتية والناسوتية (أي البشرية، وهي من كلمة ناس) أو بالأقانيم الثلاثة. ويجمع كثير من المؤرخين أنه لولا أباطرة الفرنجة لانتهت الكاثوليكية تماماً.

- يبدو أن تبعات هذا الموضوع قد أثرت على العالم المسيحي بشكل هائل فعلاً.

- هذا صحيح.

- متى حدث ذلك بالضبط؟

- نعود إلى نفس الفقرة التي قرأناها قبل قليل، فقد جاء بعدها تماماً: "ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق (بفرض المونوثيلية) وما حل ببيزنطة من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسية وإفريقية وإسبانيا، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط، وعجز القسطنطينية أو رافنا (مقر ممثل الإمبراطور في الغرب) عن أن تحمي الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات اللمبارد، كل هذا اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها للإمبراطورية المتداعية، وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة. وخشي البابا "استيفن الثاني" (٧٥٢-٧٥٧) أن يستولي اللمبارد (الأريوسيون) على روما فيحط ذلك من شأن البابوية، ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد، فاستغاث بالإمبراطور "قسطنطين الخامس"، ولكن الإمبراطور لم يغثه، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة[1]، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسية غاية في الخطر؛ فقد لبى "بابين القصير" (والد شارلمان) نداءه، وأخضع اللمبارد، ونفح البابوية "بهبة بابين" في عام ٧٧٥م، التي اعتبرها الباباوات أنها "استرداد أعرج لحق

---

(١) يقول ول ديورانت: "كانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية. فلم يكن ملوك الأسرة "المروفنجية" يرتابون في قدرتهم على ابتياع ملكوت السموات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم. فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضي والأموال. وكانت الكنيسة في فرنسا كما كانت في غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات؛ ولما حرم "شلبريك" هذه الهبات ألغى "جنثرام" أمر التحريم بعد قليل. وكان من سخريات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالي الروماني، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحي يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم، ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم من الحروب".

مختلس". وهذا الحق الذي ادعوه هو ما أســـموه "هبة قسطنطين"[١]، وهبة بابين هذه أغنت البابوية فعلاً ومنحتها بشكل واقعي جميع إيطاليا الوسطى[٢]، ورسخت سلطتها الزمنية (دولة الفاتيكان لاحقاً). وبلغت هذه السياســـة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شـــارلمان ومسحه إمبراطوراً على الغرب (أي على الشق الغربي من الإمبراطورية الرومانية).

- وبذلك انتهت العصور المظلمة!!!

---

(١) هبة قسطنطين هي منحة مزعومة يفترض أن الإمبراطور المسيحي الأول قد قدمها للكرسي الرسولي في رومه ليصبح كدويلة مستقلة تضم أملاكاً هائلة، وصلاحيات واسعة على بقية الكراسي والكنائس. وتجعل للبابا (أسقف رومه) السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوربا الغربية!!! وعليه فإن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بتتويجه شارلمان إمبراطوراً على الغرب لم يكن إلا تقريراً مرتقياً من زمن بعيد لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية البيزنطية نفسه. وقد كان البابا ليون التاسع أول من استخدم هذه الوثيقة المزورة بصورة علنية واضحة في خطابه الموجه عام ١٠٥٤ إلى ميخائيل سيرولاريوس، بطريرك القسطنطينية ليوضح له أن بابا رومه يمتلك رسمياً السلطة الدينية والمدنية على كل الإمبراطورية، كما استخدمها البابا أوربان الثاني، الذي أشعل أول حرب صليبية، وذلك في عام ١٠٩١ لتدعيم مطالبه بسلطته المدنية على جزيرة كورسيكا. وظل استخدام هذه الوثيقة المزورة سارياً أو معمولاً بها حتى القرون الوسطى، واستعان بها معظم الكتّاب الكنسيين طوال القرن السادس عشر، رغم إدانتها والكشف عن زيفها وتزويرها بما لا يدع مجالاً للشك. ومع كثرة الانتقادات ونشر الأبحاث التي تدينها شكلاً وموضوعاً، تم التخلي عنها كوثيقة، إلا أن المؤسسة الكنسية لم تتنازل عن مختلف المكاسب التي جنتها زوراً بفضلها، بما في ذلك الحاشية الخاصة بها، وطاقم الضيافة الخارجي والداخلي، والحرس الداخلي والخارجي، وتنعم البابا بنفس الحقوق الفخرية والتبجيلية كالإمبراطور، من ارتدائه للتاج الإمبراطوري والرداء القرمزي، وكافة العلامات والشارات الخاصة بالتمييز الإمبراطوري؛ من الثياب الفاخرة والحرائر والحلي الذهبية المرصعة بالجواهر، التي هي أبعد ما تكون عن تعاليم السيد المسيح.

(٢)ولم تقر الكنيسة بتزوير تلك الوثيقة إلا في أواخر القرن التاسع عشر، بعد أن انتفت مصداقية هذه الوثيقة عملياً ببنادق الوطنيين الإيطاليين عام ١٨٧٠ الذين استعادوا أراضيهم التي استولى عليها الكرسي الرسولي، وتم توحيد إيطاليا وتحديد مقر الفاتيكان في مساحته الحالية. وقد جاء في الموسوعة الكاثوليكية: "ومما لا شك فيه أن هذه الوثيقة مزورة، وتم افتراؤها فيما بين عامي ٧٥٠ و٧٩٥ م، وقد تم إثبات تزييفها منذ القرن الخامس عشر، فالكاردينال نيقولا دي كوزا يتحدث عنها في أعماله على أنها "وثيقة أبوكريفا" أي مستبعدة، وليست في متناول الجمهور"!!!

قال أبراهام ملمحاً إلى سبب إضافي في تحديد المؤرخين لنهاية تلك الحقبة. فهز الشيخ رأسه موافقاً، وقد أدرك ما قصده أبراهام من ملاحظته، ثم قال مبتسماً:

- أنا لســت معتاداً على المدح يا بني، بل أمقته تماماً، ولكنني مع هذا أحيي فيك فطنتك.

- هذه شهادة أعتز بها يا سيدي. ولكن حدثني عن بقية تلك الكتابات عن المونوثيلية؟

- لا يوجد فيما بقي منها أكثر مما قلته سابقاً، خلاصة القول أن الكتاب المسيحيين على اختلاف مشاربهم يحاولون أن يوحوا بأنها كانت محاولة لتوحيد المسيحيين بهدف مواجهة التهديدين الفارســي والإسلامي، ولكن هذا يتعارض مع الواقع تماماً، بل هو تزوير وتلاعب فاضح في التاريخ!!!

- كيف ذلك؟

- لأنه عند نشــوء هذه الحركة كانت الإمبراطورية الرومانية قد تغلبت فعلاً على الخطر الفارسي، ولم يكن الخطر الإسلامي قد ظهر بعد، حيث لم يتعدَّ نفوذ المسلمين إلى خارج مدينة صغيرة كيثرب في صحراء العرب البعيدة التي لم يحســب لها برمتها أدنى حســاب. وحتى عندما ظهر تهديد المسلمين، فلم تكن الإمبراطورية بحاجة إلى تبديل عقائدها وتغيير مفهومها عن الله كي تســتعد لمواجهتهم بكامل قوتها؛ فآنذاك، وحســب المقاييس المادية، كان يمكن للإمبراطورية أن تقضي على القوة الإســلامية الصاعدة بمنتهى اليسر لو أرادت، ولكنها لم تفعل! بل أرخت لها الحبل على آخره.

- لقد حدثني السيد إســتس عن افتراضكم أيضاً بأن الإمبراطور هرقل قد آمن بكون نبيكم هو نفســه النبي المنتظر الذي يجده في الكتاب المقدس، وأنه لذلك تهاون في ردعه، وأنا متشوق جداً لمعرفة تفاصيل ما جعلكم تظنون ذلك. ولكن دعونا لا نقفز الآن ولا نستبق الأحداث، ولنبقَ بموضوع هونوريوس والمونوثيلية.

التفت الشيخ متبسماً إلى إستس، كأنه يهنئه على اختياره لمثل هذا الناقد الفذ، ثم قال لأبراهام والابتسامة لا تزال مرتسمة على وجهه:

- معك حق يا بني، فلننهِ كل موضوع على حدة قبل أن نقفز إلى غيره.

- أشـــكركم يا سيدي. والآن، هل لكم بإيضاح كيف فسر أولئك الكتاب المسيحيون افتراضهم ذاك عن سبب نشوء العقيدة المونوثيلية؟!

- بكل ســـرور[1]، فهم يدعون أن الإمبراطورية البيزنطيـــة كانت مهدّدة في بداية القرن الســـابع من كل صوب بخطر اجتياح الفرس ثم العرب(!) وأن هرقل الإمبراطور وســـرجيوس بطريرك القسطنطينية أدركا ضرورة توحيد المسيحيين في جميع أقاليم الإمبراطورية على الصعيدين السياســـي والديني لدرء هذين الخطرين(!!) وإذ كانت الكنيسة مقسومة لشـــطرين، (غربي رومي (الكاثوليك)، وشرقي بيزنطي (الأرثوذكس الخلقيدونيين)) بالإضافة إلى رفض جزء من كنائس الشرق قرارات مجمع خلقيدونية (الأقباط واليعاقبـــة) فقد اقترح البطريرك على الإمبراطـــور عبارة لاهوتية جديدة ظن أنها تســـتطيع إعادة الوحدة بين شـــطري الكنيسة(!!!) فمجمع أفسس حدد ضد النسطورية أن يسوع شخص واحد لا شخصان (إله ورجل)، ومجمع خلقيدونية حدد أنّ فيه طبيعتين (إلهية وبشرية)، فالكنائس التي رفضت قرار خلقيدونية رفضته لأنها رأت فيه عودة إلى النســـطورية. فارتأى سرجيوس أن يعيد الوحدة معها حول عبارة "الفعل الواحد للمسيح"، أو، بصيغة أخرى، "القوة الفاعلة الواحدة للمسيح". وقد استعمل اللفظة اليونانية التي تعني "فعل الشخص" أو "القوة الفاعلة فيه" أو "القوة التي بها يفعل جميع أفعاله". لذلك أطلق على نظريته اســـم بدعة "الفعل الواحد"(Monoénergisme)، ففي رأي سرجيوس أن المسيح، لكونه شخصاً واحداً، جميع أعماله الإلهية والإنسانية

(١) ما سيرويه الشيخ خطاب مقتبس من كتاب: "الله الخالق"، للمطران كيرلس سليم بسترس، الفصل السادس: يسوع المسيح الإله والإنسان في تعاليم المجامع المسكونية، القسم الثالث: يسوع المسيح شخص واحد في طبيعتين، ج- بدعة "المشيئة الواحدة في المسيح".

صادرة عن فعل واحد أو عن قوة فاعلة واحدة فيه. وهذا ما سيرفضه "الإيمان القويم" الذي سيحدّد (بعد نحو نصف قرن في مجمع القسطنطينية الثالث) أن القوة الفاعلة في الإنسان مرتبطة لا بالشخص، كما رأى سرجيوس، بل بالطبيعة. فلأنّ في المسيح طبيعتين، طبيعة إلهية وطبيعة إنسانية، لا بدّ أن تكون له قوّتان فاعلتان، قوة إلهية بها يعمل الأعمال الإلهية، وقوة ناسوتية بها يعمل الأعمال الإنسانية(!!!!).

- ولمَ قد يرفض الإيمان القويم مثل هذا التعليم.

- ما وصلنا عن أسقف القدس[1]، الذي كان أحد المنتقدين الأساسيين لهذا التعليم[2]، يلقي بعض الضوء على ذلك. فقد بعث من بطركيته في أورشليم كتاباً إلى البابا هونوريوس دافع فيه عن "الثالوث الأقدس"، ثم قال إنه لا يجب أن نرى أن هناك تناقضاً بين كون المسيح إلهاً وكونه هو نفسه إنساناً، وعليه فإننا لا يجب أن نرى كذلك أن هناك تناقضاً بين أعماله الإلهية وأعماله الإنسانية. ويختم بقوله إنّ المسيح بطبيعتين لكل منهما فعلها الخاص الذي به تعمل الأعمال المناسبة لها. فالفعل الإلهي يعمل الأعمال الإلهية، والفعل الإنساني يعمل الأعمال الإنسانية. إلاّ أن ذلك يتمّ بانسجام في العمل دون انقسام، وفي الوقت نفسه دون اختلاط، لأنّ المسيح واحد، وهو نفسه يقوم بالأعمال الإلهية والإنسانية.

- وهل أخذ برأيه؟

---

(١) المقصود هنا هو "صفرونيوس" الذي فتح المسلمون القدس في عهده، والذي اشترط أن يتسلمها منه خليفة المسلمين شخصياً. وقد وافق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك، مع أن قادته كانوا قادرين على دخولها بكل سهولة بعد هروب الحامية الرومانية منها. ووصل إليها بالطريقة نفسها التي وجدها صفرونيوس في الكتب المقدسة عن كيفية دخول "ملك العرب" إلى أورشليم.

(٢) هذا ما تذكره المصادر الكنسية، مع أن التاريخ الإسلامي يروي عكس هذا عنه، يذكر أن من خلف صفرونيوس على الكرسي الأورشليمي هو سرجيوس اليافاوي، وهو مونوثيلي باعتراف الجميع.

- كلا، بل تفاقمت الأزمة أكثر؛ فقد وصلت أخبار رحيل البابا هونوريوس الأول[١].

- ولكن إذا كان البابا هونوريوس قد تمتع حقاً بتلك المكانة لدى الإمبراطور والروم الذين أطلقوا عليه لقب قائد الشعب، فكيف تمكن قساوسة رومه من أن يغتالوه، أو حتى يعزلوه بهذه البساطة؟!

- كما أوضحنا سابقاً فإن الأمر لم يمر بهذه البساطة بالتأكيد، وعلى الأرجح كان القساوسة مدركين لخطورة ذلك مسبقاً. ولكن تبعات إسلام البابا ودعوته إياهم إلى اعتناق الدين الجديد كانت أكثر خطورة؛ فمن شأن ذلك أن يقوض الكنيسة من أساسها، وينسف كل ما آمنوا به طيلة حياتهم، ويخضعهم لسلطة بدو همجيين، كما يرون العرب، الذين كانوا دون الروم حضارة ومدنية وقوة[٢]، ومن الطبيعي ألا تسلّم طبقة الإكليروس

---

(١) حسب مصادر الفاتيكان، فإن جلوس البابا هونوريوس الأول على الكرسي الرسولي امتد من ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٢٥ إلى ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٨م.

(٢) تظهر نظرة الروم إلى العرب واضحة في هذا الحديث: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، عن خالد بن يسار، عن رجل من قدماء أهل الشام، قال: لما أراد هرقل الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية، لما بلغه من أمر رسول الله ﷺ، جمع الروم، فقال: يا معشر الروم؛ إني عارضٌ عليكم أموراً، فانظروا فيما قد أردتها! قالوا: ما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسلٌ؛ إنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا، فهلم فلنتبعه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب، ونحن أعظم الناس ملكاً، وأكثرهم رجالاً، وأفضلهم بلداً! قال: فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة، اكسروا عني شوكته وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه، قالوا: نحن نعطي العرب الذل والصغار، بخرج يأخذونه منا؛ ونحن أكثر الناس عدداً، وأعظمهم ملكاً، وأمنعهم بلداً؟ لا والله لا نفعل هذا أبداً. قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية، ويدعني وأرض الشام، قال: وكانت أرض سورية أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب من أرض سورية؛ وكان ما وراء الدرب عندهم الشام، فقالوا له: نحن نعطيه أرض سورية؛ وقد عرفت أنها سرة الشام؛ والله لا نفعل هذا أبداً. فلما أبوا عليه، قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم. ثم جلس على بغل له؛ فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام، ثم قال: السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية.

بذلك كله، ولا أن تتنازل عن كل مكتسباتها وسلطاتها واستقلاليتها، فقط لأن أسقفها قد ارتد عن دين الآباء والقديسين، واتبع هرطقة صحراوية هي بنظرهم أشد كفراً وإنكاراً لألوهية ربهم من هرطقة الأريوسية التي لم ينفكوا يحاربونها حتى ذلك الحين.

- إن وصل الأمر فعلاً إلى ذلك الحد، فليس مستبعداً بتاتاً أن يعزلوه أو حتى يقتلوه، ثم يعلنوا للشعب أن قائدهم قد مات، وأنهم انتخبوا بابا آخر مكانه. ولكن كيف مر الأمر على الإمبراطور؟

- بالتأكيد لم يمر ذلك عليه دون ردة فعل غاضبة، فقد تتابعت التطورات بسرعة، موسعة الهوة بين الشرق والغرب. والتاريخ يخبرنا أن هرقل بعد ذلك مباشرة قد علّق في كنيسة آجيا صوفيا في القسطنطينية، بياناً عقائدياً يسمى الشرح (الأكتاز أو الأكثيسيس Ecthesis) كتبه الأسقف سرجيوس بمؤازرة القساوسة المؤمنين بالمونوثيلية، يشرح فيه الإيمان القويم، ويحظر استعمال عبارتي "الفعل الواحد" و"الفعلين" في المسيح. وبعد انزياح البابا هونوريوس الأول ظل العرش البابوي شاغراً لأكثر من ثمانية عشر شهراً، وعندما انتخب قساوسة رومه البابا "سيفيرينوس" أوفدوا "أبوكريساريوسا" إلى القسطنطينية لإعلام البلاط والبطريركية بذلك، ولطلب تصديق الانتخاب والسماح للبابا الجديد بتسليم العكاز. فرفض هرقل مشترطاً الاعتراف بمضمون الأكثيسيس قبل التصديق. وتوفي ذلك البابا في السنة ٦٤٠م دون أن يعترف بالمونوثيلية ودون أن يجرؤ على إدانتها أيضاً. أما خلفه يوحنا الرابع (٦٤٠-٦٤٢) فإنه عقد مجمعاً محلياً، وحرمها، وبعث بقراره المتحدي إلى هرقل، ولكن المنية وافت الإمبراطور بعد ذلك بأقل من شهرين! (توفي في الأول من شباط/فبراير سنة ٦٤١). وبالمناسبة فقد توفي أسقف القسطنطينية سرجيوس بعد صياغته للبيان بأقل من شهرين أيضاً! (توفي في كانون الأول/ديسمبر سنة ٦٣٨) وبعد وفاة هرقل خلفه ابنه البكر "قسطنطين الثالث" الذي ما لبث أن توفي بعد أقل من نصف السنة (توفي في

٢٥ أيار/مايو) مع أنه كان في العشـــرينات من عمره. وبعده ظل العرش شاغراً لبقية تلك الســـنة، وتم إجلاس "قنسطانس الثاني" (٦٤٢ – ٦٦٨م) (الابن البكر لقسطنطين الثالث) على العرش، وكان عمره آنذاك إحدى عشـــرة ســـنة. ومع بقائه الطويل على العرش، إلا أن نهايته كانت الاغتيال أيضاً[١].

– أشتم رائحة المؤامرات هنا، فهل تلمحون إلى شيء معين.

ابتسم الشيخ خطاب، وقال متابعاً:

– بل أسرد الوقائع التاريخية فحسب. المهم هو أن "بولس" بطريرك القسطنطينية الجديد أعلن في ســـنة ٦٤٧ إيمانـــه بالمونوثيلية، وفي ســـنة ٦٤٨ أصدر الإمبراطور قنســـطانس الثاني قراراً عقائدياً يحظر فيه التكلم على هذا الموضوع نهائياً، مكتفياً بأقوال الكتاب المقدس وقرارات المجامع المســـكونية الســـابقة. وفي ســـنة ٦٤٩ عقد البابا "مرتينوس" (أعلنته الكنيســـة قديساً فيما بعد) المنتخب حديثاً مجمعاً في كنيسة اللاتران في رومه غير آبه لقرار الإمبراطور. فحضر المجمع ١٠٥ أساقفة معظمهم من إيطالية وصقلّية وسردينية، وبعضهم من إفريقية، وترأس البابا نفسه المجمع معلناً أنه كما أن في المسيح طبيعتين كذلك فيه مشيئتان، مشيئة إلهية ومشيئة إنسانية، وفعلان، فعل إلهي وفعل إنساني. فأمر الإمبراطور بتوقيفه، خاصة أنه نال رتبته البابوية بصورة غير شرعية، فاقتيد أول الأمر إلى جزيرة ناكسوكس ثم إلى القسطنطينية حيث ألقي في السجن مكبلاً بالحديد بعد محاكمة حكم عليه فيها بالإعدام، ولكنّ الحكم لم ينفّذ فيه. ثم بعد ذلك نفي إلى شيرســـون، حيث توفي بعد عام. وقبض أيضاً على الراهب اللاهوتي "مكســـيموس المعترف" الذي دافع دفاعاً مســـتميتاً عن عقيدة المشيئتين في

---

(١) نتيجة لسخط رجال الدين عليه، وكراهية سكان العاصمة له، بالإضافة إلى تعرض أملاك الإمبراطورية البيزنطية في إيطاليا للهجمات اللومباردية، ترك الإمبراطور قنسطانس الثاني العاصمة القسطنطينية، واتجه إلى صقلية عام ٤١هـ/ ٦٦١م، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام ٤٨هـ/ ٦٦٨م في حمام بسرقوسة.

المسيح، ونفاه إلى القفقاز هو واثنان من تلاميذه، بعد أن قطع لسانه ويده اليمنى، وتوفي هناك سنة ٦٦٢. وفي سنة ٦٧٨ بعث الإمبراطور الجديد "قسطنطين الرابع" (٦٦٨ - ٦٨٥م) الملقب ببوجوناتوس (ذو اللحية الحمراء) برسالة إلى بابا رومه (الذي كان قد أيد حقه في العرش ضد المغتصب ميزيسيوس) يطلب إليه إرسال مندوبين من قبله إلى القسطنطينية للتصالح والتداول في أمر الخلاف. فوصلت الرسالة إلى رومه بعد انتخاب البابا "أغاثوس" سنة ٦٧٩، فأراد البابا استشارة أساقفة الغرب في الموضوع، فعقد سنة ٦٨٠ مجمعاً في رومه اشترك فيه ١٢٥ أسقفاً أعلنوا فيه إيمانهم القاطع بالطبيعتين والمشيئتين والفعلين في المسيح الواحد. وانتهت المشاورات إلى عقد المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية نفسها سنة ٦٨١ (مجمع القسطنطينية الثالث)، والإعلان بشكل رسمي عن رفض عقيدة المشيئة الواحدة واعتماد عقيدة المشيئتين في "ربنا يسوع المسيح إلهنا الحقيقي نفسه"، حسب تعبير المجمع، تعالى الله عما يصفون. وحكم على البابا هونوريوس بأنه "كان يحابي الخارجين على الدين". و"وافقت الكنيسة الشرقية التي آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام ومصر على هذا الحكم، وخفقت راية السلام الدينية لحظة وجيزة في سماء الشرق والغرب جميعاً" حسب تعبير ول ديورانت.

- ماذا قالت محاضر اجتماع ذلك المجمع بالضبط عن هونوريوس ومنشئ عقيدة المشيئة الواحدة؟

- الغريب أن التاريخ لم يحفظ لنا محاضر المجمع بشكل دقيق وموثق[1]، وكل ما

---

(١) على غرار المجمع المسكوني الخامس لم يسنّ هذا المجمع تشريعات كنسيّة، بيد أنه التأم بعد عشر سنوات من انفضاضه، في القسطنطينية أيضاً، على عهد "جستنيان الثاني" (وهو ابن قسطنطين الرابع)، مجمع شارك فيه نحو الـ٣٢٨ أسقفاً سُمّي بالمجمع المسكوني الخامس-السادس (البنثيكتي)، أو بمجمع "تر ولو" نسبة إلى قبة كنيسة القصر الإمبراطوري التي كانوا مجتمعين تحتها. وضع مجمع تر ولو قوانين كنسية لتنظيم شؤون إدارة الكنيسة الداخلية والقضاء على بعض التجاوزات، فاعتُبرت قوانينه - وعددها ١٠٢ - كأنها صادرة عن كلا المجمعين الخامس والسادس المسكونيين!!!

استطعت الحصول عليه عنها هو من رسائل البابا "لاون" الثاني (٦٨٢-٦٨٣م) المتعددة التـــي ذكرت القرارات الصادرة عن ذلك المجمع، ووصفت جلســـاته وما قيل فيها، من وجهة نظره طبعاً. وفي ســـنة ٦٨٩م عقد لاون الثاني مجمع رومه وقام فيه، كما قال، بتثبيت مقرّرات مجمع القســـطنطينية الثالث ضدّ أصحاب المشـــيئة الواحدة والبابا هونوريوس الأول[1].

(١) النص اللاتيني وترجمته: "٥٦١- فلقد علمنا أن المجمع المسكوني المقدس (القسطنطيني الثالث) قد قال، مثل كامل المجمع المنعقد حول هذا الكرسي الرسولي [مجمع روما سنة ٦٨٩]. . . ، واعترف بانسجام معنا: بأنَّ ربّنا يسوع المسيح هو أحد الثالوث القدوس غير المنقسم، موجود من وفي طبيعتين، بلا اختلاط ولا انفصال ولا انقسام. وهو واحد بذاته، إلهٌ كامل وإنسان كامل، مع بقاء خصيصة كلّ من الطبيعتين المتّحدتين فيه مصونة. وأن الواحد بذاته قد فعل الأمور الإلهية بكونه إلهاً، وفعل بغير انفصال الأمور البشرية بكونه إنساناً، ما خلا الخطيئة وحدها. وقد قال المجمع حقاً، إن له أيضاً، لهذا السبب، مشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيين تظهر بهما خصوصاً أيضاً حقيقة طبيعتيه، حتى يُعرف بجلاء الاختلاف في مرجعهما إلى أيّ من الطبيعتين اللتين منهما وفيهما يوجد ربنا يسوع المسيح الواحد بذاته. وانسجم في كلّ شيء مع تحديد المجامع المسكونية الخمسة المقدسة. ولم يزد شيئاً على تحديدات الإيمان الصحيح ولم ينقص منها شيئاً، بل تقدّم باستقامة كبيرة على الطريق الملكي والإنجيلي. وفيهم وبهم حفظ نشوء العقائد المقدسة وتعليم آباء الكنيسة المقدسة المميزين

561Cognovimus enim, quod sancta et universalis et magna sexta Synodus(C'politana III) eadem, quae et universum concilium assidens huic Sanctae Sedi Apostolicae(Romanam a.680)... senserit, ... atque concorditer nobiscum confessa est: Unum esse de sancta et inseparabili Trinitate nostrum Dominum Jesum Christum, ex duabus et in duabus naturis inconfuse, inseparabiliter, indivise consistentem, ut vere Deum perfectum et hominem perfectum eumdem ipsum, salvaque proprietate uniuscuiusque in eo convenientium naturarum, eumdem ipsum divina operatum ut hominem, absque solo peccato: et duas idcirco naturales voluntates duasque naturales operationes eum habere veraciter praedicavit, per quae principaliter et naturarum eius veritas demonstratur, usque ad cognoscendam profecto differentiam, quarum sunt naturarum, ex quibus et in quibus unus idemque Dominus noster Iesus Christus consistit; per quae revera probavimus, hanc sanctam... sextam Synodum... apostolicam praedicationem inoffenso pede fuisse secutam, sanctorumque et universalium=

- وماذا جاء في تلك الرسائل؟

- لقد تطرقت إحداها إلى الجلسة الثامنة عشرة التي يبدو أنه كانت الجلسة الختامية، وأهم ما جاء فيها هو: "لقد تسلّم المجمع المسكوني الحالي الجزيل القداسة بأمانة، واستقبل بالترحاب ما كتبه أغاثون بابا رومه القديمة، الجزيل القداسة والغبطة، إلى إمبراطورنا قسطنطين الجزيل التقوى والأمانة، نابذاً بالاسم من علّموا قائلين بمشيئة واحدة وفعل واحد في تدبير المسيح إلهنا الحقيقي الذي صار جسداً".

=quinque conciliorum definitionibus in omnibus consentientem. nihil super statuta orthodoxae fidei augentem aut minuentem. sed regiam et evangelicam semitam rectissime gradientem. et in his atque per eos sacrorum dogmatum lima et probabilium catholicae Ecclesiae Patrum doctrina servata est... 562-

ولأنه [مجمع القسطنطينية] قد أعلن بالتمام. . . تحديد الإيمان الصحيح، الذي تسلّمه أيضاً بإجلال الكرسيّ الرسولي للرسول بطرس المغبوط، لذلك نحن أيضاً، وبحكم خدمتنا هذا الكرسيّ الرسوليّ، نؤيّد ما حدّده ونثبّته بسلطان بطرس المغبوط. . .

562 Et quia(Synodus C'polit.) definitionem rectae fidei... plenissime praedicavit. quam et Apostolica Sedes beati Petri Apostoli... veneranter suscepit. idcirco et Nos. et per Nostrum officium haec veneranda Sedes Apostolica concorditer ac unanimiter his quae definita sunt ab ea consentit et beati Petri auctoritate confirmat...

٥٦٣- وكذلك نُبسل مبتدعي الضلال الجديد، أي ثيودوروس أسقف فاران، وكيروس الإسكندريّ، وسرجيوس وبيرّوس، . . . مع هونوريوس أيضاً، الذي لم يُنقِّ هذه الكنيسة الرسولية بتعليم التقليد الكنسيّ، ولكنّه حاول بخيانة منتهكة أن يهدم الإيمان النقي [النصّ اليوناني: قد أتاح أن تتدنس الكنيسة النقية بخيانة منافقة].

563 Pariterque anathematizamus novi erroris inventores. id est Theodorum Pharanitanum episcopum. Cyrum Alexandrinum. Sergium. Pyrrhum... necnon et Honorium. qui hanc apostolicam Ecclesiam non apostolicae traditionis doctrina lustravit. sed profana proditione immaculatam fidem subvertere conatus est(graeca recensio: = maculari permisit)"

- المرجع: الكنيسة الكاثوليكية في وثائقها، دنتسنغر-هونرمان، الجزء الأول. من سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم، منشورات المكتبة البولسية، جونيه - لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠١م.

- ألم يذكروا تلك الأسماء؟

- لقد ذكرها لاون الثاني في رسالة سابقة تحدث فيها عن الجلسة الثالثة عشرة، فقال على لسان المجمع: "بعد تفحّص الرسائل العقائدية التي كتبها سرجيوس، الذي كان بطريركاً على هذه المدينة الإمبراطورية القائمة في حرز الله، إلى كيروس الذي كان أسقفاً على فاسيس، وإلى هونوريوس الذي كان بابا رومه القديمة، والرسالة التي كتبها هونوريوس هذا جواباً لسرجيوس هذا نفسه، وبعد أن وجدت مخالفةً تماماً للتعاليم الرسولية وما أوصت به المجامع المقدسة وكلّ الآباء القديسين الممتازين، وتابعةً بالحريّ عقائد الهراطقة الفاسدة، فنحن ننبذها تماماً، ونعدّها رجساً ومبعثاً للإضرار بالنفوس. أمّا أولئك، أي الذين ننبذ عقائدهم ونفاقهم، فقد حكمنا بأن تقصى أسماؤهم من الكنيسة المقدّسة، أي أسماء سرجيوس الذي بدأ بالكتابة عن هذه العقيدة المنافقة، وكيروس الإسكندري، وبيرّوس، وبولس وبطرس، والذين كانوا رؤساء على كرسيّ هذه المدينة القائمة في حرز الله ورأوا رأي هؤلاء، ثم أيضاً اسم ثيودوروس الذي كان أسقفاً على فاران (العربية أريبيا)، وجميع هؤلاء الأشخاص ذكرهم أغاثون، البابا الجزيل القداسة والمثلث الغبطة لرومه القديمة، في كتابه إلى الإمبراطور، ونبذهم لكونهم مخالفين لإيماننا القويم. ونرسم أن هؤلاء أيضاً يقعون تحت الإرسال، ولكن نرتئي أن يُقصى معهم أيضاً من كنيسة الله المقدسة هونوريوس الذي كان بابا رومه القديمة، ويُبسل لأننا وجدنا في الرسالة التي كتبها إلى سرجيوس أنه جاراه في رأيه في كل شيء وثبّت تعاليمه ونفاقه".

- شكراً. تابعوا أرجوكم ما نقلتموه من أهم ما جاء في الجلسة الثامنة عشرة.

- لقد قال لاون على لسان المجتمعين فيها: "فعلى آثار المجامع المسكونية الخمسة المقدسة إذن، والآباء القديسين المؤيّدين، يحدّد هذا (المجمع) ويعلن بالإجماع ربّنا يسوع

المســـيح، إلهنا الحقيقي، والواحد من الثالوث المقـــدّس الواحد في الجوهر والمحيي، كاملاً في اللاهوت، وكاملاً هو ذاته بالناسوت، إلهاً حقاً وإنساناً حقاً.... ونعلن كذلك أن فيه، بحسب تعليم الآباء القديسين، مشيئتين أو إرادتين طبيعيتين، وفعلين طبيعيين، بلا انقســـام ولا تحوّل، ولا تجزئة ولا اختلاط. والإرادتان الطبيعيتان ليستا، كما يقول الهراطقة المنافقون، متعارضتين، حاشـــا، ولكن إرادته البشـــرية تتبـــع إرادته الإلهية والقديرة، ولا تقاومها وتتصدّى لها، بل بالحريّ تخضع لها. كان من الواجب أن تُحرّك الإرادة الإلهية وتُخضع الإرادة البشرية، كما يقول أثناسيوس الجزيل الحكمة.... فكما أن جســـده الحيّ والجزيل القداســـة والطاهر، لم يُلغ بالتأله، بل بالحري قد صينت، بحســـب قول جريجوري اللاهوتيّ: "ففعل إرادة من يعدّ مخلصاً ليس مناوئاً لله إذ هو قد تألّه تماماً". نمجّد عملين طبيعيين، بلا انقسام ولا تحوّل، ولا تجزئة، ولا اختلاط، في ربّنا يسوع المسيح، إلهنا الحقيقي، أي عملاً إلهياً وعملاً بشرياً، بحسب لاون الملهم الإلهيّ، الذي يُثبت بوضوح قائلاً: "كلّ طبيعة تعمل بالاشتراك مع الأخرى ما هو خاصّ بها، فيفعل الكلمة ما هو خاصٌّ به، ويتمّم الجســـد ما هو من الجسد"... مع المحافظة على ما هو بغير اختلاط ولا انقســـام، نعلن كل شـــيء في صيغة مختصرة: نؤمن بأن أحد الثالوث هو أيضاً، بعد التجسّـــد، ربّنا يســـوع المسيح، إلهنا الحقيقي. إننا نحظر علـــى الجميع، بعد أن أبدينا هذه الأمور في صيغة كاملة الدقّة والإحكام، أن يعرضوا شهادة إيمان أخرى، أي أن يكتبوها، أو يؤلّفوها، أو يفكّروا فيها، أو يعلّموها للآخرين. أمّا الذين يتجاســـرون على تأليف شـــهادة إيمان أخرى أو نشرها أو تعليمها، أو نقل قانون آخر إلى الذيـــن يريدون الارتداد عن الوثنية، أو اليهودية أو أي هرطقة أخرى، إلى معرفة الحق، أو إدخال كلام جديد أو تعبير مبتدع لردّ الأمور التي حدّدناها الآن، فإذا كانوا أســـاقفة أو من الإكليروس فليُقصوا: الأساقفة من الأسقفية، والإكليريكيّين

من الإكليروس، وإذا كانوا رهباناً أو علمانيين، فليُبسلوا". ولاحظ هنا أن هونوريوس كان من الإكليروس، بل وأسقف روما والبابا، ولكن مع ذلك لا يكتفي بإقصائه، بل يبسل كالعلمانيين. ولاحظ أيضاً أنهم يدعون، إن كان لاون الثاني دقيقاً في نقله، أن سرجيوس هو "الذي بدأ بالكتابة عن هذه العقيدة المنافقة"، وأن هونوريوس لم يتعد دوره إلا "أنه جاراه في رأيه في كل شيء وثبّت تعاليمه ونفاقه"، ولكنهم خصوا الرسالة الجوابية التي كتبها هونوريوس لسرجيوس بالقسط الأكبر من التكفير باعتبار أنها هي بالذات قد "وجدت مخالفةً تماماً للتعاليم الرسولية وما أوصت به المجامع المقدسة وكلّ الآباء القديسين الممتازين، وتابعةً بالحريّ عقائد الهراطقة الفاسدة، فنحن ننبذها تماماً، ونعدّها رجساً ومبعثاً للإضرار بالنفوس".

- ربما كان معكم الحق في أن الخلاف (على الأقل في بداياته) لم يكن على هذا القدر من البساطة، وكان أكبر من مجرد موضوع مشيئة أو مشيئتين للمسيح، وأن موضوعه الأساسي ربما كان فعلاً تأليهه أو اعتباره بشراً فحسب، فكل تلك الضجة التي أثيرت وتلك المجامع المحلية والمسكونية التي عقدت، واستشهاد بعض القديسين، وعزل البعض الآخر ونفيهم، وإخفاء محاضر المجمع، والأغرب اعتماد رسائل البابا كرواية شرعية وحيدة لها، يبدو كل ذلك وكأنه لا مبرر له إطلاقاً، إن انحصر الخلاف فقط بتلك النقطة (التي كان من الأفضل أن تترك للنحويين والفلاسفة، الذين لا عمل لهم سوى مناقشة أمور وهمية)[1]، وربما كان معكم الحق في أن دور البابا هونوريوس كان أكبر من مجرد الموافقة على رأي سرجيوس، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فكيف ظل هونوريوس الأول على لائحة باباوات الكنيسة، وكيف تسمى باسمه ثلاثة باباوات بعده؟!

(١) هذا التعليق بين الهلالين ينسب إلى البابا هونوريوس في رسالته إلى سرجيوس، التي طلب منه فيها تجاهل الحديث عن مسألة "الفعل والفعلين، حيث أن تلاميذ الصياد بطرس لا يجدر بهم أن ينجرّوا إلى تلك الأوهام" حسب التعبير الذي ينسب إليه. وربما كان لحجته تلك بقية لم تصلنا، والله أعلم.

- لـــم يكن من الممكن إقصاؤه من اللائحة واتهامه بأنـــه بابا مزيف كما فعلوا مع غيره. فالتاريخ قد سجل بوضوح أنه قد انتخب بشكل شرعي لا شبهة فيه، ولم ينازعه أحد علـــى البابوية كالكثيرين غيره، وكان من أصل نبيل، وأقام العديد من المشـــاريع الخيرية وجعل من قصره الموروث ديراً، وكان سخياً على الكنيسة والشعب. وفوق ذلك كله كانت له اليد الطولى في بداية انتشـــار النصرانية في الجزر البريطانية وأيرلندا، أقام سلاماً مع اللمبارديين في وقت عصيب مر على الإمبراطورية، كما سجل أن الناس أحبوه ولقبوه بقائد الشعب. ربما كان إسلامه قد محا كل ذلك عند معاصريه من رجال الدين فلعنوه وقتلوه، ولكنهم على الأرجح لم يعلنوا ذلك، ولابد أنهم فضلوا التستر على تلك الواقعة المخزية من وجهة نظرهم.

- ولكن هناك بعض الباباوات ممن أدانه وانتقده.

- حصـــل ذلك عندما كان يثار موضوعه ممن لم يخـــفَ عليهم خبره، وأعني هنا أباطرة القسطنطينية وأســـاقفتها، وقبل أن يسوى الموضوع بينهم تماماً وتنتهي جميع آثـــاره، وقبل أن تختمر فكرة "عصمة البابا"، حيث لم يعد بالإمكان مجرد التلميح بأن أحد الباباوات قد أســـلم أو حتى شـــكك بألوهية المسيح. لأن شـــيئاً كهذا إذا انتشر فسينسف العقيدة الكاثوليكية من أساسها، لذا فقد ساد اتجاه جديد في الكنيسة إلى محاولة اختلاق أعذار واهية لتبرئة البابا هونوريوس، مثل أنه لم يكن على اطلاع كاف بهرطقة سرجيوس وأنها نقلت إليه بشكل مخادع.

- لنا أن نفترض أن ما خفي من أقواله ورســـائله كان أعظم ولكنها أبيدت تماماً، ولكن ماذا عما بقي منها وتفيد -بما لا يدع مجالاً للشك- أنه قد ناصر الفعل الواحد والمشيئة الواحدة، بل والطبيعة الواحدة أيضاً؟

- لقد حاولوا تأويلها بأن ما قصده فعلاً كان الطبيعة البشـــرية للمســـيح، وأنه لم يتطرق إلى الطبيعة الإلهية لأنها كانت من المسلمات(!!!)، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه

كان يعني الطبيعة الواحدة الطبيعة الإلهية فحسب!!! وأنه لم يهتم بالطبيعة البشرية، وعمد آخرون بخفة بهلوانية إلى تحميل نصوصها أكثر مما تحتمل، وأنه كان في الواقع يعبر عن الإيمان القويم نفسه، ولكن بطريقة فلسفية معقدة تبطن غير ما تظهر. ووسط كل هذه الروايات المتناقضة ضاعت الحقيقة تماماً.

- وماذا عن التاريخ؟

- من أخطر ما يتعرض له العمل التاريخي هو الانتقائية، فالروايات المتعددة والمتضاربة حول حادثة من الحوادث تملي على المؤرخ أن يختار منها ما يتناسب مع رؤيته العامة لتلك الحادثة، والتي غالباً من تنطلق من عقيدته الدينية التي نشأ عليها، وعصبيته لها، ولحضارته وقوميته. وبشكل عام حين تتوافر معلومات كثيرة حول واقعة ما فإن على المؤرخ أن يقوم بالترجيح، وإلا خنقه سيل الأخبار المجدبة التي لا يربط بينها أي رابط. وفي حالة هونوريوس رجحت مصادر الكنيسة بالطبع، ولكن مع تضارب تلك المصادر الكنسية نفسها، ظل هناك إشارات كثيرة تقود إلى الحقيقة المغيبة، وأي باحث في هذا الموضوع يدرك تماماً أن فيه شيئاً ما غير طبيعي. وأنا شخصياً أرى أن ما عطل اتفاقهم على رواية واحدة، ومنع إخفاءهم التام لكل آثار الجريمة، هو العناية الإلهية التي تأبى للحقيقة أن تختفي كلية وإلى الأبد. ويوماً ما سينجلي الغموض وتسطع الحقيقة الكاملة، وسيبزغ إلى النور كل ما أخفي في سراديب الفاتيكان.

رسالة أم مراسلات؟

أراد إســـتس أن يتحدث عن أحاديث مسند الإمام أحمد وغيره عن فتح روما، كما أراد أن يتحدث عن أســـفار الكتاب المخفية فيها، وعن أشياء كثيرة أخرى، إلا أنه ظل صامتاً وهو يراقب أبراهام باهتمام ليرى مدى تأثير كلام شيخه عليه؛ فقد كان واثقاً من قوة حجة معلمه، وقدرته على الإقناع، وهو ما جعله ينتظر على أحر من الجمر أن يقوم أبراهام متأثراً ويعلن إســـلامه بخشوع بعد كل الذي سمعه، خاصة بعد ما لمسه منه في أثناء حديثهما البارحة. ولكن انتظاره طال، ومع التأثر الكبير البادي على وجه أبراهـــام، إلا أن ذلك التأثر كان يبدو أنه بالمنطق العلمي أكثر منه بالحقيقة الإيمانية. وود إستس لو أنه يمسك بكتفي أبراهام ويهزه معنفاً وهو يقول: "ألم يئن لك أن تؤمن؟ ماذا تنتظر بعد كل ما تكشف لك؟ لا تضع وقتاً أكثر في التخبط والبعد عن الله. أسلم يؤتك الله أجرك مرتين"، وفي هذه اللحظة بالذات نظر إليه الشيخ خطاب مؤنباً، وكأن ما يختلج في صدره قد ظهر على وجهه، فشعر إستس بالحرج، ثم ما لبث أن استأذن بالانصـــراف ليقوم ببعض أعماله، وما إن غاب وراء الباب حتى رفع يديه بالدعاء إلى الله تعالى ألا يعمي أبراهام عن الحق، وأن يكشف الغشاوة عن عينيه.

كان أبراهام في تلك اللحظة يتساءل بينه وبين نفسه أكان كل ما سمعه عن الإسلام فـــي الآونة الأخيرة صحيحاً، وبدأ للمرة الأولى في حياته ينظر إلى احتمال إســـلامه بجدية. ولكنه ما لبث أن تذكر رأيه السابق عن الإسلام، واستعرض في مخيلته ضعف المسلمين وهوانهم وتخلفهم، وأنهم ليسوا جميعاً كذلك الخطَّابِ المحدث. وعندما عاد الشيخ وهو يحمل كوبي العصير، بادره أبراهام على الفور بالاستفسار عن الشق الثاني من بحثه، وكأنه يخاف أن يفضح ما يفكر به أو أن يأخذ الحديث منحى آخر:

- ماذا كانت ردة فعل هرقل على قتل بابا رومه؟

- لقـــد اعتبر بمصير صاحبه، وآثر حياته وملكه على قناعته وعلمه. فقد جاء في الصحاح أنه بعث إلى الرســـول ﷺ رسالة نصها: "إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيســـى، من قيصـر الروم: إنه جاءنـي كتابك مـــع رسولـــك، وإنـــي أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريـــم. وإني دعـــوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم"، وهذا الكتاب لا يزال محفوظاً ضمن المقتنيات الخاصة بالديوان الملكي الأردني الهاشمي.

- أوَقد دعا الرومَ إلى الإسلام عن اقتناع حقاً، أم خوفاً من المسلمين؟

- كان ذلك في الســـنة الســـابعة للهجرة بعد "صلح الحديبية"، وكانت روما آنذاك قوة عظمـــى، بل وقطباً أوحد للعالم بعد أن انتصرت لتوها على منافســـتها الوحيدة (الإمبراطورية الفارســـية)، وهكذا فإن هرقل لم يكن بحاجة إلى مداهنة مجموعة من "البدو" لا يمتد نفوذها أبعد من مدينة صغيرة في صحراء بعيدة، ولم تخض أي حرب حقيقية غير الغارات القبلية البســـيطة. وظل ميزان القوى -بالمقاييس المادية- يرجح كفة هرقل وإمبراطوريته على تلك الجماعة بمراحل بعيدة، واســـتمر الأمر كذلك في بقية سني حكمه. وهكذا فهو لم يكن يخاف المسلمين كقوة بشرية، وإنما كقوة مدعومة بتأييد إلهي.

- تريـــد القول إن إمبراطور القطب الأوحد للعالم قـــد رضخ، وهو في أوج قوته، لرجل لم يبسط نفوذه بعدُ خارج مدينة صغيرة في صحراء العرب، ومنع لتوه من مجرد الدخول إلى مدينته الأم معتمراً؟!!!

- هذا ما حصل فعلاً.

- ولكنَّ هذا ضربٌ من المستحيل.

- ليـــس إذا كان هرقل متأكد تماماً من أن ســـيد تلـــك المدينة الصغيرة هو خاتم النبيين الذي سيظهر الله أمره ولو كره الكافرون.

- فلماذا لم يتبعه إذن، ما دام واثقاً فعلاً من كونه مرسلاً من الله نفسه كما تدعون؟

- لقد حاول هرقل الجمع بين الدنيا والآخرة؛ أي الحفاظ على ملكه العتيد واتباع دين الله الحق، ولكن عندما رفض أكابر قومه ذلك، كان عليه الاختيار بين الدين والدنيا. فضن بالملك الذي تحصل له بعد كل تلك الحروب وجعله سيد العالم الأول بلا منازع، ولم يجرؤ على التفريط به لاتباع الرسول عليه الصلاة والسلام كما فعل البابا الذي استشهد في سبيل الأحد الذي لم يلد ولم يولد.

- إن لم يجرؤ على اتباع الرسول مع أنه مؤمن به، فكيف جرؤ على محاربته وهو واثق أنه مؤيد من الله؟!!!

- لم يجرؤ؛ فقد عسكر رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً من جنوده (جيش العسرة) طيلة عشرين ليلة في أرض تابعة للإمبراطورية الرومانية (تبوك التي سميت الغزوة باسمها) دون أن يحرك هرقل ساكناً، بل تركه يسقط هيبة الروم من نفوس العرب جميعاً، ويؤمّن حدوده الشمالية، مرسلاً السرايا إلى ملوك النواحي والحكام المخلصين لها[1]، ومتقبلاً الهدايا والجزية السنوية من الذين بدؤوا يراجعون مواقفهم ويقارنون بين جدوى الاستمرار في الولاء للإمبراطورية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة[2]، وعاقداً معاهدات الحماية مع العرب من أهل تلك المناطق[3]، ليحيلهم بموجبها من تبعية الإمبراطورية الرومانية التي قص أجنحتها هناك، إلى سلطان دولة الإسلام، مع أن أغلبهم كانوا لا يزالون من النصارى!!! وبعد أن أرهب أعداءه، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة محملاً بالهدايا، وعاد معه جيشه "كاملاً" وهو يسوق المغانم العظيمة دون أن يصاب أحد منهم بشوكة. والشهيد الوحيد في تلك الغزوة كان

---

(١) مثل سرية "خالد بن الوليد" رضي الله عنه إلى "دومة الجندل"، حيث أسر ملكها "أكيدر بن عبد الملك الكندي" فصالحه النبي ﷺ على الجزية.

(٢) مثل هدية ملك أيلة وهي بغلة بيضاء وبرد، فصالحه الرسول ﷺ على الجزية.

(٣) مثل أهل جرباء وأذرح، وأهل مقنا.

صحابياً جليلاً[١] طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو ربه ليمن عليه بالشهادة، ففعل، فتوفي الرجل على طريق العودة دون قتال، وحسب عند الله تعالى شهيداً.

- هل كان ذلك أول تحدٍّ إسلامي للإمبراطورية الرومانية؟

- قبل ذلك أوكل رسول الله ﷺ إلى ثلاثة من صحابته[٢] قيادة جيش وجهه إلى حرب مباشرة خاطفة ضد جيوش الإمبراطورية (غزوة مؤتة)، فأثخن فيهم[٣] مع تفوقهم عليه بستة وستين ضعفاً[٤]، ثم انسحب بأقل الخسائر[٥] دون أن يجرؤ أحد على مطاردتهم.

- يبدو أن هرقل لم يكن يود محاربة المسلمين فعلاً.

- بالتأكيد، ولو لم يتحداه جيش مؤتة بطريقة لم تترك له مجالاً لكفَّ قادة جيشه عنهم دون أن يعرض نفسه للخطر، ولما وافق على توجيه جيش لصدهم أصلاً.

- ما الذي يجعلكم تعتقدون ذلك؟!

- لأنه كان قبل ذلك قد نهى فعلاً أحد أعوانه من حكام النواحي عن حرب الرسول ﷺ، عندما أخبره بنيته في الإغارة عليه. ليس هذا فحسب، بل طلب مثوله فوراً بين يديه.

---

(١) عبد الله ذو البجادين رضي الله عنه.

(٢) روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: إن قُتل زيد فجعفر (ابن أبي طالب)، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة، وذلك لعلمه عليه الصلاة والسلام بأن الله سيمنُّ عليهم جميعاً بالشهادة في تلك الغزوة.

(٣) قتل من جيوش الإمبراطورية خلق كثير، وكما يقول ابن كثير في تفسيره، فهذا خالد بن الوليد وحده يقول: "لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية"، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟

(٤) كان عدد الجيش الرومي مئة ألف ومثلهم من جيوش الممالك والقبائل العربية النصرانية، في حين كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف فقط.

(٥) لم يستشهد منهم إلا اثنا عشر رجلاً.

- تريد أن تقول إنه كان صادقاً في رغبته بدعوة رعيته إلى الإسلام آنذاك؟

- الجواب كما ترى هو بالإيجاب. على الأقل في البداية، كما مرت علينا في صحيح البخاري محاولة جادة أكثر صراحة جاء فيها أنه: "أَذِنَ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ[1] لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيمَانِ[2] قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ"[3].

- ومَنْ ذاك الذي كفه عن حرب الرسول واستدعاه إليه عندما علم بشأنه؟

- ملك غسان "الحارث بن أبي شمر" وكان مقر ملكه في بصرى الشام بحوران. فقد ذكر "الواقدي" أن رسول الله ﷺ بعث إليه "شجاع بن وهب" بكتاب نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحرث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك"، فلما قرأه الحارث قال: "من ينتزع مني ملكي؟! أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، عليّ بالناس، فلم يزل جالساً يعرض حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل، ثم قال لشجاع: "أخبر صاحبك ما ترى"، وكان قد كتب إلى قيصر يخبره خبره فصادفه

---

(١) أي القصر الذي له ساحة وحوله بيوت، وكأنه دخل القصر ثم أغلقه وفتح أبواب البيوت التي حوله، وأذن للروم في دخولها ثم أغلقها، ثم اطلع عليهم فخاطبهم. وربما فعل ذلك خشية أن يثبوا عليه كما وثبوا على ضغاطر.

(٢) أي يئس من إيمانهم لما أظهروه، ومن إيمانه لأنه شح بملكه، وكان يحب أن يطيعوه فيستمر ملكه ويسلم ويسلموا بإسلامهم، فما أيس من الإيمان إلا بالشرط الذي أراده، وإلا فقد كان قادراً على أن يفر منهم ويترك ملكه رغبة فيما عند الله، والله أعلم.

(٣) تفاصيل القصة في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي. وراجع غاية المأمول، شرح التاج الجامع للأصول، ٤/ ٧٨.

بإيليا (القدس) وعنده دحية الكلبي قد بعثه إليه رسول الله ﷺ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن "لا تسـر إليه، وانهَ عنه، ووافني بإيليا". فرجع الكتاب وشجاع لا يزال بغوطة دمشق، فدعاه الحارث وأمر له بمئة مثقال ذهباً.

- وهل منع غيره أيضاً؟

- مـن المؤكد أن كثيريـن من أكابر الروم وغيرهم من أكابـر النصارى العرب قد تضايقـوا جداً من تقاعس إمبراطورهم عن إيقاف مد تلك الجماعة، ومن المرجح أنه تحايل عليهم فقلل من أهميتها وخطرها أو ربما منّاهم كي يكف كيدهم.

- ما الذي يجعلكم تظنون ذلك أيضاً؟

- لقد كان في مدينة رسـول الله المنورة رجل يقال له "أبو عامر الراهب"، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان له شـرف كبير في قومه من الخزرج قبل الإسـلام. فلما قدم رسـول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، رفـض أبو عامر التخلي عن نصرانيته، وخرج فـاراً إلى كفار مكة يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ما كان. وامتحنهـم الله عز وجل، وكان أبو عامر قد حفـر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسـول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم، فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسـلامه عليه. فلما فرغ الناس من "أحد" ورأى أمر الرسول ﷺ فـي ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يسـتنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه. فأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه في المدينة من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم بجيش يقاتل به رسـول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا لـه معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنـده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشـرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء (مسجد ضرار)، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسـول الله ﷺ إلى تبوك. وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتـي إليهم فيصلي في مسـجدهم ليتذرعوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته،

وذكروا أنهم بَنَوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: "إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله"، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار[١]، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مقدمه المدينة[٢]، وقد كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث للهجرة، وغزوة تبوك في رجب سنة تسع للهجرة.

- أي إن هرقل قد ظل يمني أبا عامر الراهب ست سنين دون أن يقطع عنه الأمل؟

- تماماً، وفي آخر تلك السنين (سنة ٩ هجرية) حدثت تلك الغزوة التي حدثتك عنها قبل قليل. وما يميز تلك الغزوة عن غيرها هو أن رسول الله ﷺ أعلن فيها صراحة أنه متوجه لقتال الروم، وذلك على غير عادته في جميع غزواته الأخرى[٣]، حيث اعتاد أن يوري فيها ولا يصرح عن هدفه ووجهته في القتال، حفاظاً على سرية التحرك ومباغتة العدو، بل تأخر في تجهيز الجيش الذي لقب بجيش العسرة لشدة الضنك وقلة التمويل الكافي للإنفاق على مثل ذلك الجيش الذي لم يعتد المسلمون على ضخامته[٤]، وكان هذا الوقت كافياً جداً لإنذار الروم. وأخيراً ترك رسول الله

---

(١) نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

(٢) تفسير ابن كثير في سبب النزول.

(٣) عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه هو سبع وعشرون، كما بعث سبعاً وأربعين سرية بقيادة صحابته.

(٤) بلغ عدد المقاتلين المسلمين في غزوة بدر الكبرى ثلاث مئة وثلاثة عشر مقاتلاً، وفي غزوة أحد بلغ سبع مئة مقاتل تقريباً، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتل، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلاف مقاتل، وفي غزوة حنين (حيث أعجبتهم كثرتهم واغتروا بها) فقد بلغ اثني عشر ألف مقاتل فقط. أما في هذه الغزوة فقد بلغ عددهم ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد، حتى قال عليه الصلاة والسلام: "من جهز جيش العسرة فله الجنة" (رواه البخاري - كتاب المناقب).

ﷺ فـــي المدينة قلة قليلة[١]، وخرج مع الأغلبية العظمى من أتباعه المخلصين القادرين على حمل الســـلاح وحماية الإسلام، وكانوا طوال الطريق منهكين جائعين وعطشى[٢]. ثم بقوا مع قائدهم في متناول قبضة هرقل طيلة عشرين يوماً. فكان يمكنه أن يستغل هذه الفرصة التي لن تتكرر ثانية: جنود جوعى عطشـــى يعلم تحركهم وفيهم صاحب الدعوة الذي بقتله يقضي على شـــوكة الإسلام قضاء مبرماً قبل أن يستفحل خطره، ولكنه لم يفعل، بل لم يحاول حتى.

- ربما لم يصل خبره إلى هرقل فعلاً.

- هذا مستحيل تماماً للأسباب التالية: أولاً: لوجود المنافقين في المدينة واتصالهم مع أبي عامر الراهب المقيم عند هرقل، ثانياً: عيون الروم الموجودة في كل مكان، ثالثاً: ســـرايا الرسول عليه الصلاة والســـلام التي وجهها من تبوك، ومعاهداته التي أقامها مع الحكام والأهالي التي لا يمكن قطعاً أن تتم بالســـر، رابعاً: طيلة مقام ذلك الجيش الأجنبي الكبير (أكثر من ثلاثين ألفاً، عســـكروا لعشرين يوماً). خامساً وهو الأهم: أن هرقل كان يراسل رسول الله ﷺ وهو مقيم في تبوك.

- حقاً؟! هل يمكن أن تحدثوني عن ذلك بالتفصيل؟

- بالطبع، فقد روى الإمام أحمد بســـنده عَنْ سَـــعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِـــدٍ قَالَ: لَقِيتُ "التَّنُوخِيَّ" رَسُـــولَ هِرَقْلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحِمْصَ وَكَانَ جَاراً لِي شَيْخاً كَبِيراً، فَقُلْتُ:

---

(١) استخلف رسول الله ﷺ على المدينة "محمد بن مسلمة" الأنصاري، وخلَّف "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه على أهله. وبقي معهم من لم يجد ما يحمل عليه والثلاثة الذين خلفوا، أما الباقي فمن النساء والأطفال، بالإضافة إلى المنافقين طبعاً. وقد لقبت هذه الغزوة بـ"الفاضحة" أيضاً لأنها فضحت كل المنافقين عندما تذرعوا بأعذار واهية عن عدم استطاعتهم الخروج فيها.

(٢) جاء في تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر كرشه فيشربه ويضعه على بطنه.

أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ رِسَالَةِ هِرَقْلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَرِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ؟ فحدثه التَّنُوخِيّ كيف أن هرقل طلب رجلاً حَافِظاً لِلْحَدِيثِ عَرَبِيَّ اللِّسَانِ فَجِيءَ بِه، فَدَفَعَ إِلَيه كِتَابــاً، فَقَالَ: "اذْهَبْ بِكِتَابِي إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَمَــا ضَيَّعْتُ مِنْ حَدِيثِهِ فَاحْفَظْ لِي مِنْهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ. انْظُرْ هَلْ يَذْكُرُ صَحِيفَتَهُ الَّتِي كَتَبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، وَانْظُرْ إِذَا قَرَأَ كِتَابِي فَهَلْ يَذْكُرُ اللَّيْلَ، وانْظُرْ فِي ظَهْرِهِ هَلْ بِهِ شَيْءٌ يَرِيبُكَ". ثم يقول: فانطلقت بِكِتَابِهِ حَتَّى جِئْتُ تَبُوكَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ بَيْنَ ظَهْرَانَــيْ أَصْحَابِهِ مُحْتَبِياً عَلَى الْمَاءِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ؟ قِيلَ: هَا هُوَ ذَا، فَأَقْبَلْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ كِتَابِي فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُــمَّ قَالَ:(مِـمَّنْ أَنْتَ؟)، فَقُلْتُ: أَنَا أَحَدُ تَنُوخَ، قَالَ: (هَلْ لَكَ فِي الْإِسْــلَامِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ؟)، قُلْتُ: (إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ وَعَلَى دِينِ قَوْمٍ لَا أَرْجِعُ عَنْهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ)، فَضَحِكَ وَقَالَ: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ، يَا أَخَا تَنُوخَ إِنِّي كَتَبْتُ بِكِتَابٍ إِلَى كِسْــرَى فَمَزَّقَهُ واللَّهُ مُمَزِّقُهُ وَمُمَزِّقٌ مُلْكَهُ، وَكَتَبْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ[1] بِصَحِيفَةٍ فَخَرَقَهَا وَاللَّهُ مُخْرِقُهُ وَمُخْرِقٌ مُلْكَهُ، وَكَتَبْتُ إِلَى صَاحِبِكَ بِصَحِيفَةٍ فَأَمْسَكَهَا، فَلَنْ يَزَالَ النَّاسُ يَجِدُونَ مِنْهُ بَأْساً مَا دَامَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ). قُلْتُ: (هَذِهِ إِحْدَى الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَوْصَانِي بِهَا صَاحِبِي)، وَأَخَذْتُ سَهْماً مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهَا فِي جِلْدِ سَيْفِي.

- هــل يعني ذلك فعلاً أنكم تظنون أن عدم نهاية الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت كبقية الدول التي واجهت نبيكم كان بسبب إمساك ملكها لكتابه؟!!!!!

- أنا شخصياً أعتقد ذلك.

- ألا ترون أن ذلك الكتاب لا بد أنه أتلف أو ضاع في نهاية الأمر؟ وأن ذلك يتبعه نهاية الإمبراطورية إن صح ما تظنــون!!! ولكن الإمبراطورية بقيت لقرون طويلة بعد هرقل.

---

(١) هذا غير النجاشي "الأصحم بن أبجر" الذي بعث إليه بجعفر بن أبي طالب والمهاجرين الأوائل في فجر الإسلام؛ فذاك قد أسلم كما هو ثابت في الصحاح، ثم مات، فصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الميت الغائب.

- أنـــا لم أكن أنوي التطرق إلى هذه النقطة، ولكن لأنك ســـألت فلا بأس من أن أذكر لك ما قاله "ابن حجر" في "فتح الباري لتفســـير صحيح البخاري"، فقد بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيماً له، وأن الروم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند ســـبطه. كما بلغه أن "عبد الملك بن ســـعد" أحد قواد المســـلمين، اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب، فلما رآه استعبر (بكى)، وسأل أن يمكنه من تقبيله، فامتنع. وقد حدثه غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشـــقي، أن سيف الدين فليح المنصوري قال: "أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية، فأرســـلني ملـــك الغرب إلى ملك الفرنج في شـــفاعة فقبلها، وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، فقال لي: لأتحفنك بتحفة سنية، فأخـــرج لي صندوقاً مصفحاً بذهب، فأخـــرج منه مقلمة ذهب، فأخرج منها كتاباً قد زالـــت أكثر حروفه. وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصـــر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا"، كما جاء في شـــرح البخاري، للشـــنقيطي: "ويذكر أن تلك الرسالة بقيت مقدسة عند ملـــوك النصارى ملكاً عن ملك، وكانوا يوصون بها بعضهم، وأن الملك لا يزال معهم ما حافظوا عليها، وقد رآها بعض المســـلمين بالأندلس فـــي زيارة لأحد ملوك النصارى هناك"[1].

- هل تصدقون هذا فعلاً؟!

- لـــم لا وقد عثـــر مؤخـــراً علـــى إحـــدى النســـخ التي قام الروم بنســـخها عن النســـخة الأصلية خوفاً من ضياعها، حســـب تقدير الخبراء الألمان الذين قاموا

---

(١) كوثر المعاني الدراري شرح البخاري، للشنقيطي، ١/ تفسير آل عمران.

بفحصها[1]؟ ولكنني لن أتوقف عند ذلك كثيراً، فلدي الكثير من الحقائق الأخرى التي تغني عنها، ولا تقبل الجدل.

- حسناً، وماذا كان من بقية أمر رسول هرقل إلى نبيكم؟

- لقد قال: ثُمَّ إِنَّهُ نَاوَلَ الصَّحِيفَةَ رَجُلاً عَنْ يَسَارِهِ، قُلْتُ: (مَنْ صَاحِبُ كِتَابِكُمُ الَّذِي يُقْرَأُ لَكُمْ؟) قَالُوا :(مُعَاوِيَةُ). فَإِذَا فِي كِتَابِ صَاحِبِي [أي كتاب هرقل]: (تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فَأَيْنَ النَّارُ؟)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟)، قَالَ: (فَأَخَذْتُ سَهْماً مِنْ جَعْبَتِي فَكَتَبْتُهُ فِي جِلْدِ سَيْفِي). فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِي، قَالَ: (إِنَّ لَكَ حقاً وَإِنَّكَ رَسُولٌ، فَلَوْ وُجِدَتْ عِنْدَنَا جَائِزَةٌ جَوَّزْنَاكَ بِهَا إِنَّا سَفْرٌ مُرْمِلُونَ)، قَالَ: فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْ طَائِفَةِ النَّاسِ قَالَ: (أَنَا أُجَوِّزُهُ)، فَفَتَحَ رَحْلَهُ فَإِذَا هُوَ يَأْتِي بِحُلَّةٍ صَفُورِيَّةٍ، فَوَضَعَهَا فِي حِجْرِي، قُلْتُ: مَنْ صَاحِبُ الْجَائِزَةِ؟ قِيلَ لِي: (عُثْمَانُ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَيُّكُمْ يُنْزِلُ هَذَا الرَّجُلَ؟)، فقَالَ فَتًى مِن الأَنْصَارِ: أَنَا، فقَامَ الأَنْصَارِيُّ وَقُمْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا خَرَجْتُ مِنْ طَائِفَةِ الْمَجْلِسِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: (تَعَالَ يَا أَخَا تَنُوخَ)، فَأَقْبَلْتُ أَهْوِي إِلَيْهِ حَتَّى كُنْتُ قَائِماً فِي مَجْلِسِي الَّذِي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَحَلَّ حَبْوَتَهُ عَنْ ظَهْرِهِ وَقَالَ: (هَاهُنَا، امْضِ

---

(١) ذكرت جريدة اللواء الأردنية أن تلك الرسالة تخص إحدى العائلات اليمنية وتوارثتها جيلاً بعد جيل منذ قرون، وتحتفظ بأسماء الورثة إلى حد ٦٠٠ سنة، ثم تنقطع بعدها المصادر. ويبلغ طولها ٣١سم وعرضها ٢٠ سم، ووجد الخبراء أنها مكتوبة على ورق البردي، والحبر الذي كتبت به الرسالة مطابق لعمر الورقة. وتشير إلى أنه تم فحص الرسالة في معهد جامعة Erlangen، وهي مختبرات متخصصة في فحص الكربون (١٤) الذي أثبت أن عمر الرسالة لا يقل عن ألف سنة ميلادية. وقام بالاطلاع عليها كل من الدكتور Kurio من مكتبة برلين الوطنية قسم المخطوطات العربية، والبروفيسور Diem من متحف برلين قسم المخطوطات العربية، والأستاذ المحاضر في جامعة كولون الدكتور dolf Grohmann من المكتبة المصرية، وقرروا جميعاً أنها نسخت ما بين القرنين الثاني والثالث الهجري، وأقروا أن الرومان قاموا بنسخ الرسالة للحفاظ على نسخة الرسول الأصلية خوفاً من ضياعها. ويقال إنه يوجد أيضاً نسخة ثانية محفوظة في البنك المركزي الأردني، وثالثة في المتحف الإسلامي في إسطنبول.

لِمَـا أُمِرْتَ لَهُ)، فَجُلْتُ فِي ظَهْرِهِ، فَإِذَا أَنَا بِخَاتَمٍ فِي مَوْضِعِ غُضُونِ الْكَتِفِ مِثْلِ الْحَجْمَةِ الضَّخْمَةِ[١].

- إن صح هذا فهو يعني أن هرقل كان شبه موقن أن محمداً هو نفسه النبي الذي يجده عنده في الكتاب؟

- بل موقن تماماً؛ ففي مسند أحمد أنه "كتب من تبوك إلى النبي ﷺ: إني مسلم. فقـال النبي ﷺ: كـذب"، وجاء نحوه في كتاب الأموال لأبي عبيد بسـند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله المزني، ولفظه: "فقال: كذب عدو الله، ليس بمسلم". وعلق ابن حجر في شرح الباري بقوله: "أنه آمن، أي أظهر التصديق، لكنه لم يستمر عليه ويعمل بمقتضـاه، بل ضنّ بملكه وآثر الفانية على الباقية". وهذا ما يؤكده أيضاً حديث أحد صحابة رسـول الله ﷺ[٢] عن قصة هرقل مع النجاشي ملك الحبشة، حين امتنع بعد إسـلامه عن دفع الخراج إليه. فقد روى أن "نياق" (أخا هرقل) قال له: "أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً ويديـن ديناً محدثاً؟" فأجابه هرقل: "رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع".

- اعذرني يا سـيدي، ولكنني مـا أزال لا أفهم كيف يمكن لإمبراطورِ أعظمِ قوة على الأرض أن يصدق ادعاءات نبي مغمور من البادية العربية، ويوقن أنه هو المقصود بنبـوءات التوراة والإنجيل، ويحجم عن مجابهته خوفاً من تحدي إرادة مزعومة على اللـه؟ بـل ويقر بإيمانه به لولا خوفـه من القتل أو ضياع ملكه، فقط بسـبب هذه الإشارات؟!!! التي، وإن صحت، لا تعتبر دليلاً دامغاً يثبت رسالته من الله، خاصة أن ذلك الإمبراطور لم يكن شـخصاً عادياً، فقد كان قبل ذلك أسقفاً ابن أسقف وعالماً باللاهوت؟!!!

---

(١) رواه الإمام أحمد بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي رَاشِد.

(٢) عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما حمل كتاب رسول الله ﷺ إلى ابني "الجلندي" ملِكَي عمان وما حولها التي استشهد بها "ابن القيم" رحمه الله في كتابه "هداية الحيارى من اليهود والنصارى".

- لقد كان هرقل كما قلت فعلاً. وعندما قرأ ترجمانه بداية كتاب رسول الله صلى الله عليه ثار الحاضرون قائلين: "رجل من العرب بدأ باسمه قبل اسمك"، وطلبوا تمزيق الكتاب[1]. وهنا تظهر حكمة هذا الرجل وعلمه، والأهم من ذلك أنه هنا تظهر ثقته بنفسه وبعظم إمبراطوريته وبقوة جيشه؛ فقد قال: "أيمزق كتاب قبل أن نعرف ما فيه. إن كان نبي كما يزعم فهو خير مني، وإن لم يكن فلسوف يرى"، لأن هرقل كان يعرف جيداً أنه قادر على محو ذكر ذلك الرجل وذكر قومه وأرضه إن كان كاذباً فعلاً وتجرأ على الإمبراطورية من غير حق. وهناك أدلة دامغة أكثر عدداً من تلك التي تسميها بالإشارات، أقنعته، بما لا يحتمل الشك، بأن محمداً عليه الصلاة والسلام مرسل فعلاً من عند الله.

- لو كانت أدلة دامغة فعلاً، لما كان هناك داع لدراستكم واستقرائكم لما بين السطور من أحداث التاريخ. وربما من الأفضل تسميتها بالظنون.

- لا تأتي قراءة التاريخ من أجل استخراج الحقيقة المغيبة منه وجلاء غموضه وإيجاد الأدلة عليها إلا بالظنون يا ولدي. وذلك لأن معرفتنا بالأسباب الحقيقية التي أدّت إلى ولادة الأحداث الكبرى تظل معرفة ناقصة وجزئية. وحتى حين نوفق إلى معرفة ذلك فإن المشكلة التي تواجهنا تكمن في تحديد وزن كل سبب وحجم تأثيره في وقوع تلك الحوادث، وهنا أيضاً نلجأ إلى الظن أولاً.

---

(١) وفي حديث دحية أن ابن أخي قيصر أنكر أيضاً كونه لم يقل ملك الروم. وقد قال المفسرون أن عدم مخاطبة الرسول ﷺ للملوك والأمراء في عصره بالملك أو الإمارة هو لأنهم معزولون بحكم الإسلام، لكنه أكرم كبراءهم فقط بلقب عظيم قومه أو صاحب قومه.

كيف رضخ سيد القطب الأوحد في العالم لسيد مدينة صغيرة في الصحراء؟!!!

وجد أبراهام حجة الشيخ خطاب منطقية تماماً، فقال موافقاً:

- حسناً، ما الأسباب، أو الأدلة الدامغة، التي وفقتم لمعرفتها؟

- السبب الأول هو اطلاعه في الكتاب المقدس على قرب ظهور النبي المنتظر[١]، وبعض صفاته التي قد نجت من الحذف وإعادة الصياغة والخلط، فآنذاك كان الأمر أكثر وضوحاً من الآن، إذ إن الإسلام لم يذع خبره بعد، ومن ثم لم تسنح الفرصة لهم بإعادة الترجمة والتأويل والتمويه بشكل منهجي كامل.

- ولكن الكتاب المقدس لم يتغير منذ زمن نبيكم.

- بالطبع تغير، ومن أبسط الأمثلة على ذلك التدليس على العوام من خلال التلاعب بالترجمات لنفي النبوة من جذرها. فاستبدلوا بكلمة العرب المساء، وبمحمد المشتهى، وببيركليتوس (المحمود) باراكليتوس (المعزي)! وبالإسلام السلام، وبعرفات قفار[٢]، وببكة البكاء[٣]، و...

فقال أبراهام مقاطعاً:

- لقد فهمت ما تقصدونه. وماذا بعد؟

- السبب الثاني هو علمه بالتنجيم. وبالمناسبة كان هرقل بسبب التنجيم مهيأً في ذلك اليوم بالذات لتصديق خبر ظهور ملك عظيم سيحد من ملك روما. وهذا ما نستخلصه من حادثة رواها أسقف إيليا "ابن الناظور" أو "ابن ناطورا".

---

(١) جاء في رواية الطبراني: "ولقد رأيت جبهته (جبهة هرقل) تتحادر عرقاً من كرب الصحيفة (رسالة رسول الله ﷺ)" وذلك لأنه وجد أن ما كان ينتظره قد حدث أخيراً.

(٢) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) المصدر السابق.

- وماذا روى أسقف أورشليم ذلك عن هرقل؟

- جـــاء في صحيح البخاري: "وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُـــقُفاً عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ[1] يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْماً خَبِيثَ النَّفْسِ فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْـــتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ. قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَـــأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَـــنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ فَلَا يُهِمَنَّكَ شَـــأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَـــلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَـــأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ".

- كيف رأى هرقل ظهور أمر ملك الختان في النجوم؟

- لقـــد زعم المنجمـــون آنذاك أن مولده كان بقران العلويـــين ببرج العقرب، وهما يقترنان في كل عشـــرين سنة مرة إلا أن تستوفي المثلثة بروجها في ستين سنة، فكان

---

(١) أي كان صاحب هرقل أي تابعه أو صديقه، وصاحب إيلياء أي سيدها أو أميرها. وقد شرح ذلك ابن حجر العسقلاني في شرح الباري فقال: "صاحب إيلياء، هو منصوب على الاختصاص أو الحال، أو مرفوع على الصفة، وهي رواية أبي ذر، والإضافة التي فيه تقوم مقام التعريف. وقول من زعم أنها في تقدير الانفصال في مقام المنع، وهرقل معطوف على إيلياء، وأطلق عليه الصحبة له إما بمعنى التبع، وإما بمعنى الصداقة، وفيه استعمال صاحب في معنيين مجازي وحقيقي؛ لأنه بالنسبة إلى إيلياء أمير وذاك مجاز، وبالنسبة إلى هرقل تابع وذلك حقيقة، قال الكرماني: وإرادة المعنيين الحقيقي والمجازي من لفظ واحد جائز عند الشافعي، وعند غيره محمول على إرادة معنى شامل لهما، وهذا يسمى عموم المجاز. وقوله "سقفاً" بضم السين والقاف، كذا في رواية غير أبي ذر، وهو منصوب على أنه خبر كان، و"يحدث" خبر بعد خبر. وفي رواية الكشميهني سقف بكسر القاف على ما لم يسم فاعله، وفي رواية المستملي والسرخسي مثله لكن بزيادة ألف في أوله، والأسقف والسقف لفظ أعجمي ومعناه رئيس دين النصارى، وقيل عربي، وهو الطويل في انحناء، وقيل ذلك للرئيس لأنه يتخاشع".

ابتداء العشـــرين الأولى المولد النبوي في القران المذكور، وعند تمام العشـــرين الثانية مجيء جبريل بالوحي، وعند تمام الثالثة فتح خيبر وعمرة القضية، وفي تلك الأيام كان ابتداء ظهور النبي ﷺ؛ إذ صالح أهل مكة بالحديبية وأنزل الله تعالى عليه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، وبعث الكتب إلى الملوك، وفي تلك الأيام رأى هرقل ما رأى. ومن جملة ما ذكروه أيضاً أن برج العقرب مائي، وهو دليل ملك القوم الذين يختتنون.

- لكن كيف تعتبرون أن هذه الكتب "صحاح" وفيها خبر يشعر بتقوية أمر المنجمين والاعتماد على ما تدل عليه أحكامهم؟!!!

- البخاري لم يقصد ذلك، بل قصد أن يبين أن الإشارات إلى النبي ﷺ قد جاءت من كل طريق وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم، محق أو مبطل، إنسي أو جني، وهذا من أبدع ما يشير إليه عالم أو يجنح إليه محتج.

- وهل أسلم ابن ناطورا أيضاً؟

- هذا مرجح جداً؛ فكل من الطبراني وابن إســحاق رويا عن ابْن شِهَابٍ أنه التقى ذلك الرجل في الشـــام زمن أحد الخلفاء الأمويين (عبد الملك بن مروان) فســـأله عن أمر هرقل وكتاب رســـول الله إليه فكان مما قاله: "لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَعَ دِحْيَةَ" إلى بقية الحديث الذي استشهدنا به سابقاً، وهذا يدل على إسلامه، كما أن حديثه يوافق ما جاء في الصحاح.

- حسناً، وماذا بعد؟

- الســـبب الثالث هو استشـــارته لأعلى هيئة دينية، ممثلة بأسقف رومه باعتباره البابا والحبر الأعظم للنصارى، وخليفة بطرس الرســـول ونائب المســـيح على الأرض، والتي أتت أيضاً موافقة لما كان قد وصل إليه كما أشـــرنا ســـابقاً. والسبب الرابع هو واقعيته وذكاؤه. فعندما بلغته الدعوة لم يرفضها دونما تدقيق، ويشق الرسالة كما فعل من ليس لديه علم ككســـرى الفرس، بل أجرى تحرياتـــه الخاصة متبعاً منهجاً علمياً

للتأكد من صدق رسـول الله ﷺ، فناقش وبحث وسأل عن صاحبها بتمعّل وروية، وهو ما جنبه مصير كسرى المشؤوم.

- وماذا كان مصير كسرى بعد أن رفض الدعوة؟

- عندما بلغ رسـول الله ﷺ أنه مزق رسـالته وقال: "يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟" قال: "مزق الله ملكه"، وعندما أمر كسـرى "باذان" حاكمه على اليمن بإحضاره، أخبر رسول الله ﷺ رسـوليه بأن الله قد سلط على كسرى ابنه "شرويه". فقالا: هل تدري ما تقول! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسـر من هذا، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك! قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسـلطاني سـيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إنك إن أسـلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتـك على قومك من الأبناء[1]، فخرجا من عنده حتـى قدما على باذان، فأخبراه الخبـر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول؛ ولننظرن ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً ما فيه كلامٌ، إنه لنبي مرسـلٌ، وإن لم يكن فسـنرى فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شرويه: "أما بعد فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان اسـتحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم. فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه". فلما انتهى كتاب شرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسـولٌ. فأسلم وأسلمت الأبناء. وهكذا فقد تحقق فوراً ما أنبأ به رسول الله من اسـتيلاء "قباذ" الملقب بشرويه على عرش كسرى أبيه وقتله سنة ٦٢٨م، وبدأ ملك كسرى بعد ذلك بالتمزق، وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش شرويه إلا سـتة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك، أربعة منهم من النسـاء، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الفرس على "يزدجرد" الذي صار آخر

---

(١) أهل اليمن من أصول فارسية، وهم أبناء السجناء الذين أرسلهم إمبراطور فارس مع سيف بن ذي يزن لتحرير اليمن من الأحباش.

ملوكهم، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية نهائياً، بعد أن دامت وازدهرت لأكثر من أربعة قرون. وقد تم ذلك في سنة ٦٣٧م، أي إن جميع نبوءات الرسول عليه الصلاة والسلام بشأن ملك كسرى قد تحققت خلال أقل من عشر سنوات، وعلى مرأى ومسمع من هرقل.

- ما نوعية التحريات التي قام بها هرقل؟

- لقد استجوب قوم الرسول ﷺ، والذين كانوا معادين له، عن أحواله وسيرته وخلقه وفعاله.

- فكيف وصل إليهم؟

- كان ذلك الوقت هو موعد رحلة الصيف لكبار تجار مكة[١]، فأمر بالبحث عن قافلتهم وإحضارهم للمثول بين يديه. وقد وجدوهم في غزة[٢]، فأتوا بهم إلى إيليا (القدس) حيث كان هرقل آنذاك، ثم أدخلوا عليه وهو جالس في مجلس ملكه، وعليه التاج، وحوله عظماء الروم. فأمر بأن يدنو إليه أشرفهم وأقربهم للرسول عليه الصلاة والسلام، (أبو سفيان وكان لا يزال مشركاً) ويقف الباقون خلف ظهره، ثم أخذ يطرح عليه الأسئلة بعد أن أمرهم عن طريق ترجمانه بأن يكذبوه إن كذبه[٣].

- وما الذي استدل به من تلك الأسئلة؟

---

(١) رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.

(٢) حسب رواية لأبي نعيم في الدلائل، وأخرى لابن إسحاق في المغازي عن الزهري، وفيها قال أبو سفيان: فقال هرقل لصاحب شرطته: قلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتي برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه. فوالله إني وأصحابي بغزة، إذ هجم علينا فساقنا جميعاً.

(٣) قال أبو سفيان: "فوالله لو قد كذبت ما ردوا علي، ولكني كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه"، ولنا أن نفترض أن أصعب ما في كذبه كان عقاباً شديداً من هرقل، فقد تعمد إحضارهم بواسطة الشرطة التي قادتهم بقسوة من مكان بعيد مع أنهم أشراف قومهم، ثم أبقوهم ينتظرون طويلاً إلى أن حضر الترجمان زيادة في إرهابهم. وقد جاء في رواية ابن إسحاق أن أبا سفيان قال: "فوالله ما رأيت من رجل قط كان أدهى من ذلك الأقلف" يعني هرقل.

- جـــاء في الصحاح[١] أنه قال لترجمانه بعد نهاية اســـتجواب مطول: "قل له أني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان في آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك آبائه. وســـألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرســـل. وســـألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقـــد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله[٢]. وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشـــته القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه فيكون الحرب بينكم وبينه ســـجالاً ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة. وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر[٣]، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: "لو قال هذا القول أحد من قبله قلت: رجـــل ائتم بقول قيل قبله"، ثم قال له: "فبم يأمركم"؟ فقال: "يأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصلـــة، والعفاف"[٤]. قال: "إن يكن ما تقول حقاً، إنه لنبي. وقد كنت أعلم أنه خارج،

---

(١) البخاري ومسلم. إرشاد الساري شرح البخاري، للقسطلاني، ٥/ ١١١. وشرح النووي على مسلم، ٦/ ٣٤٨.

(٢) لقد لقبت قريش محمداً عليه الصلاة والسلام بـ"الصادق الأمين"، ولكنها بعد ذلك كذبت برسالته من الله عز وجل، متغافلة عن هذه الحكمة الجليلة التي انتبه لها هرقل! فحقاً، ليس من المعقول فيمن ثبت طيلة سني عمره الأربعين على الصدق تماماً في كل أفعاله وأقواله وشهاداته على الناس، حتى اشتهر بينهم بكونه مثالاً للصدق والأمانة، أن يأتي بعد ذلك كله فيبدأ الكذب وشهادة الزور أول ما يبدأ على من هو فوق أولئك الناس جميعاً... على رب الناس ملك الناس إله الناس!!!

(٣) في رواية البخاري قال أبو سفيان: لا يغدر، ثم أضاف قائلاً: وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا"، ثم قال بعد ذلك: "وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ".

(٤) وفي رواية البخاري: "فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ (وفي رواية أخرى له والصدقة بدل والصدق وقد رجحها شيخ الإسلام) وَالْعَفَافِ".

ولكن لم أكـــن أظنه منكم. ولو أعلم أني أخلص إليه[١] لأحببت[٢] لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي"[٣].

- وماذا كان رد من حوله؟!!!

- جاء في الصحاح على لســـان أبي ســـفيان في آخر حديثه مع هرقل: "فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين من حوله من عظماء الروم، وكثر لغطهم، فلا أدري ما قالوا، وأمر بنا فأخرجنا. فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم، قلت لهم: لقد أمَرَ (عظم) أمر ابن أبي كبشة[٤] هذا ملك بني الأصفر (الروم) يخافه". وقد قال بعد ذلك: والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره.

إلا أن أبراهام لم يكن ممن يســـلمون بسهولة دون مناقشـــة أدق التفاصيل، فقال مشككاً:

- ألا ترون معي أن في الأمر بعض المبالغة؟ فلا يعقل أن يقول إمبراطور أنه يتمنى غسل قدم رجل ما.

- ربما يكون الأمر كما جاء في شـــرح الصحاح (شـــرح الباري للعسقلاني): "وفي اقتصاره على ذكر غســـل القدمين إشـــارة منه إلى أنه لا يطلـــب منه -إذا وصل إليه سالماً- لا ولاية ولا منصباً، وإنما يطلب ما تحصل له به البركة"، على كل الأحوال فهو

---

(١) جاء في فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: "وهذا يدل على أنه كان يتحقق أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلى النبي ﷺ، واستفاد ذلك بالتجربة كما في قصة ضغاطر"، وفي رواية للطبراني عن عبد الله بن شداد عن دحية فقال قيصر رداً على ما قال ضغاطر: "أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم"، ومن ثم يصبح المعنى المقصود هو: "لو أعلم أنني أخلص إليه دون أن أفقد ملكي"، والله أعلم.

(٢) لتجشمت، في رواية البخاري.

(٣) أي القدس حيث كان آنذاك، أو الشام بشكل عام.

(٤) كان العرب إذا أرادوا الانتقاص من رجل نسبوه إلى جد غامض. وقد قيل أن أبا كبشة كان جداً من أجداد أم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل هو جد عبد المطلب لأمه، وقيل هو أبو رسول الله ﷺ من الرضاعة واسمه الحارث بن عبد العزى، والله أعلم.

لم يقل ذلك فحسب، بل كتبه أيضاً، ورسالته محفوظة حالياً ضمن المقتنيات الخاصة بـ"الديوان الملكي الأردني الهاشمي". ولعلمك الخاص فقد كان كثير من الذين أوتوا علماً من الكتاب ينتظرون خروج النبي المنتظر ليفعلوا أكثر من مجرد غسل قدميه.

- مثل من؟

- مثل "ورقة بن نوفل". فقد خرج يبحث عن علم الكتاب وصار عالماً به، حتى انتهى إلى راهب بالموصل، فقال له: "من أين أقبلت؟" قال: "من بيت إبراهيم"، قال: "وما تلتمس؟" قال: "ألتمس الدين"، قال: "ارجع فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك"[1]، فلما ظهر جبريل أول مرة للنبي محمد ﷺ في سنة ٦٠٩م، عاد إلى بيته خائفاً، فجاءت زوجته خديجة إلى ورقة بن نوفل، وكان ابن عمها، وأخبرته الخبر فقال لها: "لئن صدقتني، إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلّمه بنو إسرائيل أبناءهم"، ولما تكرر الأمر مع النبي ﷺ، وأخذته خديجة إلى ورقة فسأله عن الخبر وأخبره عليه الصلاة والسلام، قال ورقة للنبي ﷺ: "هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك".

- كونه قريبه لا يمكنني من الثقة بزعمه، لأنه ليس محايداً. ومن الطبيعي أن يدعي تحقق كل الشروط بصهره إن رأى بعضها.

- حسناً، وماذا عن "سلمان الفارسي"؟

- من هو سلمان هذا؟

- هو رجل فارسي من أهل أصبهان ابن دهقان قرية يقال لها "جي"، وكان قد اجتهد في المجوسية ولكنه مر ذات مرة بكنيسة نصرانية، فسمع أصواتهم فيها وهم يصلون، فدخل عليهم وسألهم عن دينهم حتى اقتنع أنه خير من دينه. فغضب عليه

---

(١) رواه الطبراني.

أبوه وحبسه. وبسبب ذلك هرب إلى الشام وذهب إلى أسقف فيها ليتعلم منه ويخدمه، فكان رجل سوء؛ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه، فبغضه لذلك، ثم مات واجتمعت النصارى على رجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأى رجلاً يصلي أفضل منه، ولا أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه، فأحبه ولازمه ليتعلم منه. فلما حضرته الوفاة، سأله أن يوصيه برجل مثله ليتبعه، فقال: أي بني، والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه، ولقد هلك الناس وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، هو على ما كنت عليه. فلما مات لحق بصاحب الموصل، فوجده خير رجل على أمر صاحبه. فلما حضرته الوفاة، سأله إلى من يوصي به، فقال:يا بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به، فلما مات لحق بصاحب نصيبين فوجده على أمر صاحبه. فلما نزل به الموت، سأله أن يوصيه برجل مثله فقال:يا بني، والله ما أعلم بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية، من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فائته. فلما مات لحق بصاحب عمورية فوجده على هدى أصحابه وأمرهم. ثم نزل به أمر الله، فلما حضر سأله أن يوصيه برجل مثلهم، فقال:يا بني، والله ما أعلم أصبح على مثل ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه[1]، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين

---

(١) جاء في إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام: "ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله، فيتنجّس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً، حينئذٍ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله، الذي سيأتي من الجنوب بقوّة، وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً".
كما جاء في الحديث: "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب" جزء من حديث رواه مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه، رقم ٢٨٦٥.

حرتين، بينهما نخل، به علامـــات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، ثم مات. فهاجر سلمان مع نفر من كلب إلى أرض العرب، حتى إذا بلغوا وادي القرى، أوثقوه وباعوه إلى رجل يهودي. ثـــم قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينـــة، فابتاعه منه وحمله إلى المدينة، فلما رآها عرف أنها المهجر الذي وصفه له صاحبه، فأقام بها ينتظر بعثة رســـول الله ﷺ. فلما قدم المدينة ذهب إليه وتحقق من العلامات التي ذكرها له صاحبه، فوجدها تنطبـــق عليه، فآمن به ودخل الإســـلام وصار من خيرة صحابـــة النبي عليه الصلاة والسلام، وعده مع آل بيته.

فسأل أبراهام غامزاً:

- وهل هناك رجل دين لم تربطه مصلحة مع نبيكم، وقال مثل ذلك؟

فتبسم الشيخ الفاروق قائلاً:

- يبـــدو أنك كثير الريبة!!! أجل. هناك راهب اســـتدل على نبوة رســـولنا الأكرم صلوات الله وسلامه عليه قبل أن يظهر أمره ويعلو شأنه، بل كان آنذاك لا يزال غلاماً.

- حدثوني عنه.

- كان في بصرى الشـــام صومعـــة يتوارثها الرهبان عن كتاب يدرســـونه. وكانت الصومعة في طريق تجارة مكة إلى الشـــام. وعندما اصطحب "أبو طالب" عم رســـول اللـــه ﷺ وكافله ابن أخيه في إحدى المرات معه في تجارته، وجد عجباً من راهب تلك الصومعة آنذاك الذي كان يدعى "بحيرا". فعندما حطوا عن رحالهم، خرج إليهم ذلك الراهـــب، وكانوا من قبل يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، فجعل يتخللهم حتى إذا جاء فأخذ بيد رســـول الله ﷺ فقال: "هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين"، فقال له أشـــياخ من قريش: "ما علمك؟" فقال: "إنكم حين أشرفتم

من العقبة لم يبق شـــجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفيه مثل التفاحة".

- وكيف عرف ذلك؟

- لا أدري. ربما استند إلى تفسير لنبوءة إشعياء ٩: ٦: "وتكون الرياسة على كتفيه ويســـمى باســـم عجيب" أو ربما كانت النبوءة نفسها أوضح آنذاك ولم يطلها أي شيء من التحريف.

- هل كان اسم محمد عجيباً؟

- أجل. فلم يتســـمَّ به أحد إلا بعد أن شـــاع أن نبياً يبعث بالحجاز اســـمه محمد وقرب زمنه، فســـمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك الاسم الغريب طمعاً أن يكون أحدهـــم هو نبي آخر الزمان[1]، ومن حمد الله تعالى أنه حمى نبيه من أن يدّعي أحد

---

(١) قال ابن قتيبة في كتاب "الأعلام": حدثني يزيد بن عمرو، حدثنا العلاء بن الفضل، حدثني أبي، عن أبيه عبد الملك بن أبي سوية، عن أبي سوية، عن أبيه خليفة بن عبدة المنقري، قال: سألت محمد بن عدي: كيف سماك أبوك عدي محمداً؟ قال: أما إني قد سألت أبي عما سألتني عنه، فقال: خرجت رابع أربعة من بني تميم، أنا أحدهم، ومجاشع بن دارم، ويزيد بن عمرو بن ربيعة، وأسامة بن مالك بن جندب، نريد ابن جفنة الغساني. فلما قدمنا الشام نزلنا على غدير فيه شجرات، وقربه ديراني فأشرف علينا، وقال: إن هذه اللغة ما هي لأهل هذه البلد، قلنا: نعم، نحن قوم من مضر، قال: من أي المضريين؟ قلنا: من خندف، قال: أما إنه سيبعث فيكم وشيكاً نبي فسارعوا إليه، وخذوا بحظكم منه ترشدوا، فإنه= =خاتم النبيين، واسمه محمد. فلما انصرفنا من عند ابن جفنة الغساني، وصرنا إلى أهلنا، ولد لكل رجل منا غلام فسماه محمداً. وذكر ابن ظفر أن سفيان بن مجاشع نزل على حيّ من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهي تقول: العزيز من والاه، والذليل من خالاه، فقال لها سفيان: من تذكرين لله أبوك؟ فقالت: صاحب هدى وعلم وحرب وسلم، فقال سفيان: من هو لله أبوك؟ فقالت: نبي مؤيد، قد آن حين يوجد، ودنا أوان يولد، يبعث للأحمر والأسود اسمه محمد، فقال سفيان: أعربي أم عجمي؟ فقالت: أما والسماء ذات العنان، والشجر ذوات الأفنان، إنه لمن معدّ بن عدنان، حسبك فقد أكثرت يا سفيان، فأمسك عن سؤالها ومضى إلى أهله، وكانت امرأته حاملاً فولدت له ولداً فسماه محمداً، رجاء منه أن يكون هو النبي الموصوف.

منهم النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه شـــيء من سماتها[١]. وقد عجبت قريش من جده عبد المطلب عندما سماه اسماً ليس بقومه[٢].

- حسناً، ماذا بعد؟

ثم رجع بحيرا فصنع لهم طعاماً. فلما أتاهم به، وكان محمد عليه الصلاة والسلام في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد ســبقوه إلى فيء الشــجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: "انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه"، فظل قائماً عليهم، وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه. ثم قال: "أنشـــدكم الله أيكم وَلِيُّه؟"، قالوا: "أبو طالب" فلم يزل يناشـــده حتى رده. وإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، وقال: ما جاء بكم؟ قالوا: "بلغنا أن هذا النبي خارج في هذا الشـــهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا"، فقال: لعل خلفكم أحد هو خيـــر منكم؟ قالوا: إنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا، قال: "أفرأيتم أمراً أراد الله أن

---

(١) وقد عدّ بعضهم ممن سمي بمحمد ستة عشر، ونظمهم في قوله:

إن الذين سموا باسم محمد ... من قبل خير الخلق ضعف ثمانِ
ابن البراء مجاشع بن ربيعة ... ثم ابن مسلم يحمدي حرماني
ليثي السليمي وابن أسامة ... سعدي وابن سواءة همداني
وابن الجلاح مع الأسيدي يا فتى ... ثم الفقيمي هكذا الحمراني

وقال بعضهم: وفاته آخران لم يذكرهما، وهما: محمد بن الحارث، ومحمد بن عمر بن مغفل بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام. ووقع النزاع في أوّل من سمى بذلك الاسم منهم.

(٢) عن ابن عباس قال: "لما ولد رسول الله عقّ عنه - أي يوم سابع ولادته - جده بكبش، وسماه محمداً. فقيل له: يا أبا الحرث ما حملك على أن تسميه محمداً ولم تسمه باسم آبائه. وفي لفظ: وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وتحمده الناس في الأرض". السيرة الحلبية، باب تسميته محمداً وأحمد.

يقضيه فهل يستطيع أحد من الناس رده؟"، قالوا: "لا"، فبايعوه وأقاموا معه[1]. وزيادة لك سأخبرك عمن لم تربطه مصلحة مع رسول الله ﷺ، بل ربطته به عداوة.

- من تقصدون؟

- كيروس (المقوقس) أسقف الإسكندرية وحاكمها الرومي، فقد قال للمغيرة بن شعبة وبني مالك الذين كانوا أعداء للرسول ﷺ بعد أن استفسر عنه منهم: "هو نبي مرسل إلى الناس كافة، ولو أصاب القبط والروم تبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم، وهذا الذي تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر، ومنقطع البحور، ويوشك قومه يدافعونه بالرماح". قال المغيرة: "فرجعنا إلى منازلنا، فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها، وسألت أساقفها من قبطها (لاخلقيدونيين) وورومها (خلقيدونيين) عما يجدون من صفة محمد، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة "أبي غني" كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم، لم أر أحداً قط يصلي الصلوات الخمس أشد اجتهاداً منه، فقلت: أخبرني هل بقي أحد من الأنبياء ؟ قال: نعم، وهو آخر الأنبياء، ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد، وهو نبي قد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبي الأمي العربي، اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينيه حمرة، ليس بالأبيض ولا بالآدم، يعفي شعره، ويلبس ما غلظ من الثياب، ويجتزئ بما لقي من الطعام، سيفه على عاتقه، ولا يبالي من لاقى، يباشر القتال بنفسه، ومع أصحابه، يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم، يخرج من أرض القرظ ومن حرم يأتي إلى حرم، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل، يدين بدين إبراهيم عليه السلام. قال المغيرة بن شعبة: زدني في صفته، قال: يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخص بما لم يخص به

---

(١) رواه الترمذي وغيره من حديث عبد الرحمن بن غزوان، وهو ثقة. وقد روى محمد بن سعد هذه القصة مطولة لمن أراد الرجوع إلى تفاصيلها.

الأنبيـــاء قبلـــه، كان النبي يبعث إلى قومه، وبعث إلى النـــاس كافة، وجعلت له الأرض مســـجداً وطهوراً، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى، ومن كان قبله مشـــدداً عليهم لا يصلـــون إلا في الكنائس والبيع"[١]، وهناك قصص أخرى لكثير من علماء أهل الكتاب كانوا يتوكفون خروج النبي ﷺ، وعرفوا الكثير من صفاته، فبقايا دين المسيح الحقيقي كانـــت لا تزال متغلغلـــة بين بعض علماء النصارى في عهد رســـول الله ﷺ، ولم تكن النصرانية قد حرفت إلى هذا الحد بعد. فبعضهم قرأ عن رسول الله ﷺ في الكتاب، ثم شهد بنبوته عندما اختبره بتلك الصفات، وبعضهم عرفه عندما رآه للوهلة الأولى، وبعضهم سمع عنه ولم يره، فتحرى عنه وشهد بصدق نبوته أيضاً. منهم من آمن جهراً ومنهم من ســـلم ســـراً على مضض، ومنهم من كابر وشكك وقال ليس فيه، ومنهم من حـــارب متردداً وهو كاره. ولكـــن أياً منهم لم يعلن حينها أنه ليس النبي الموعود، ويورد دليلاً واحداً على ذلك، فلم يحدث هذا إلا بعد سنوات طويلة، بعد أن محيت أو بدلت أغلـــب الآيات التي تدل عليه أو أعيـــد صياغتها. ومن كذب بنبوته صراحة في حياته كانوا فقط من اليهود، إذ إنهم كانوا، على عكس النصارى، قلة منظمة، وأكثر قدرة من النصارى على إخفاء ما لا يعجبهم من النبوءات أو إعادة تفســـيرها، كما كان أحبارهم على اتفاق شبه كامل فيما بينهم. ومع كل هذا أسلم عدد لا بأس به من أولئك الأحبار اليهود[٢]، أفيه بعد هذا مطعن ؟

سرح أبراهام مفكراً في الحديث الذي دار في أمريكا بينه وبين خاله[٣] عن الغموض الذي أحاط بتاريخ الكنيسة وتقويمها، وكيف تحرى عن ذلك الموضوع لاحقاً، وقرأ عن حيـــرة كل المؤرخين الذين تناولوا فترة ظهور الإســـلام، وعجزهم عن تفســـير غياب الصراع الروماني المسيحي ضده، وسبب اندفاع جيوش الإسلام عبر الحدود الرومانية

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم.

(٢) لمزيد من المعلومات راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) المصدر السابق.

بســـهولة مريبة، وفتوحاتها الأسطورية، مع أن الإمبراطورية كانت أقوى قوة على وجه الأرض آنذاك. والأهم من ذلك حيرتهم في تفســـير غياب الكتابات المسيحية المضادة للإســـلام لفترة امتدت قروناً من الزمن، مع أن التهديد الإسلامي كان يتعاظم!!! حتى لقد لجأ بعضهم إلى المبالغة في فرضية الســـنوات الشـــبحية في التاريخ الميلادي في محاولة لإيجاد تفسير بهلواني لذلك الغموض. ولكن الأمر يبدو منطقياً جداً الآن بعد هذه المعطيات التي أوردها الشيخ خطاب.

غُلِبَتِ الرُّومُ

تنبه أبراهام أنه ربما قد سرح أكثر من اللائق، فقال محاولاً العودة إلى النقاش:

- قلتم لي أن نبيكم قد بَعَث إلى كيروس هذا رسالة مشابهة لرسالة هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام[1]؟

- أجل. وقد تم العثور على أصل تلك الرسالة الكريمة قرب أخميم في صعيد مصر. ونصها هو: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

- كيف كانت ردة فعله؟

- تقريباً ردُّ فعل إمبراطوره نفسه. وهذا نص جواب المقوقس: "إلى محمد بن عبد الله من المقوقس، سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام". فكانت إحدى الجاريتين هي "مارية القبطية" التي ولدت للنبي ابنَه إبراهيم.

- ظننت أنه هو الآخر قد تمنى غسل قدمي نبيكم. ولكن هل هناك شيء آخر غير التنجيم والقصص الخيالية ساهم في إقناع هرقل بنبوءة محمد؟

---

(١) حملها إليه الصحابي الجليل "حاطب بن أبي بلتَعة" على رأس وفد من ستة أشخاص.

فتبسم الشيخ تبسم المغضب، ونظر إليه نظرة احمر وجه أبراهام من الخجل على أثرها، وتمنى لو أن الأرض قد انشقت وبلعته قبل أن يتفوه بتلك الدعابة وذلك التعليق أمام رجل له مثل هيبة محدثه ووقاره. ثم قال الشيخ بهدوء:

- هل تدري يا بني أن الشيطان دائم الوسوسة للناس ليلهيهم عن الحق ويغرقهم في الجدل دون طائل؟ ما رأيك أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل المضي بالحوار.

- لم؟

- ولم لا؟ ما الذي سيضرك إن استعذت بخالقك القادر القهار على وسوسة الشيطان؟ ردد معي يا بني: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإن شاء الله تعالى، فإنه سيذهب عنك ما فيك.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تمتم أبراهام وهو ينظر إلى الشيخ خطاب برهبة وإعجاب في الوقت نفسه، فقد خيل إليه أن الشيطان نفسه إن رأى مثل هذا الرجل يسلك فجاً، فلا ريب سيهرب يائساً إلى فج آخر.

- تعود تكرار هذه العبارة دائماً يا بني، فإن قلتها متوجهاً إلى الله بصدق، فسيرشدك إلى ما فيه الخير، وينزع عنك وسوسة الشيطان وألاعيبه وإلهاءه.

- اعذرني يا سيدي. أقسم أنني لم أقصد التهكم، ولكن هذه الأسباب، وإن كانت أدلة دامغة لمن شهدها في حينها، ولمن سمعها أيضاً إن كان يؤمن بالإسلام، إلا أنها صعبة التصديق بالنسبة إلى الآخرين مثلي، خصوصاً في هذا العصر. وكل ما أطلبه هو دليل أكثر واقعية ويسهل التأكد منه عن طريق مصادر محايدة يطمئن لها. فهل لديكم شيء كهذا؟

- أجل بالتأكيد. فنبوة خاتم المرسلين كما تعلم أمر عظيم، وعلى عظم الأمور تكن قوة الأدلة وكثرتها وتعدد مصادرها.

- تبدون واثقين تماماً.

- بدون شـــك. وهنا أود التقديم للدليل أو الســـبب الخامس الذي سأخبرك عنه، بسؤال مهم: كيف كان الناس يثقون بصدق أنبيائهم؟

- أبلغ الأدلة على صدق نبي ما هو تحقق نبوءاته.

- تمامـــاً، وبالذات الإعجازية منها، أي التي لا يَتوقّع حدوثَها أحد في زمنه. أليس كذلك؟

- أجـــل، وقد حزرت ما تريـــدون قوله. ولكن لا يجب أن يغيب عن بالكم أن الناس قد ينسبون إلى أنبيائهم الكثير من النبوءات والمعجزات التي لم تحصل أصلاً. ولا أظن شـــخصاً كهرقل قد يأخذ ما ســـمعه منها على محمل الجد. وحتى تلك التي حصلت أمامهم فعلاً، فإن هرقل غير ملزم بتصديقها لكونه لم يرها بأم عينيه.

- رغم كثرة تشـــككك، إلا أن كلامك منطقي جداً. لهذا فأنا لن أسرد عليك جميع نبوءات الرسول عليه الصلاة والسلام ومعجزاته. ولكن ما قولك لو أخبرتك أن إحداها كانت بشأن إمبراطورية هرقل نفسها، وأنها تحققت بواسطته هو بالذات؟!!!

- ماذا تقصدون بالضبط؟

- لقد غُلبت الروم، فجاءت النبوءة القرآنية بنصرها بعد بضع سنين، أي من ثلاث سنين إلى تسع، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة "بضع". وهو ما حصل فعلاً، وقد جاءت دعوة الرســـول إليه للإســـلام بعد أن وصل إلى القدس (سيراً على الأقدام من حمص كما نذر) حاجاً ليشكر الله على نصره المؤزر.

- هل أستطيع إبداء رأيي دون مجاملة؟

- أنت لا تستطيع فحسب، بل إنك ملزم بذلك، وإلا فقد نقدك الفائدة المرجوة منه أصلاً.

- شكراً.... أنا أخشى أن رغبتكم الشديدة في إثبات ما تظنونه صواباً، قد يدفعكم إلى لَيِّ عنق الحقيقة دون أن تنتبهوا لذلك. فربما كانت نبوءة رسولكم نوعاً من التمني بدافع العصبية للمؤمنين بالله ضد الوثنيين، وهذا دليل على تعاطفه مع الروم، وربما كانت نوعاً من الاستقراء المنطقي للأحداث، وهذا بالتأكيد دليل على ذكائه وصحة تحليله السياسي للمعطيات. وربما أثر هذا على هرقل فعلاً، ولكنني أشك في أنه قد رأى فيه دليلاً على أن نبيكم مرسل من الله فعلاً.

- ولكن هذه النبوءة كانت إعجازية بكل المقاييس؛ ففي ذلك الوقت لم يكن توقع انتصار الروم على الفرس في بضع سنين مستبعداً فحسب، بل كان مستحيلاً تماماً، وبكل المقاييس.

- أخشى أنكم تناقضون أنفسكم ثانية، فمن المعروف أن الإمبراطورية الرومانية كانت حتى قبل ذلك النصر قوة عظمى، وأحد قطبي العالم فعلاً، ومن ثم فليس "مستحيلاً" أن تعود فتستجمع قوتها السابقة، وتهزم الفرس هزيمة ساحقة، بعد أن هزموها ببضع سنين، وتصبح القطب الأوحد. وبعبارة أخرى: لا يوجد تنبؤ إلهي أو إعجاز عظيم في توقع شيء كهذا.

- مع أنك صعب المراس، وشديد الارتياب، وتبالغ في إيجاد الثغرات وتصيدها في كل جديد يتعارض مع قناعاتك السابقة، إلا أنني لا أنكر أنك منطقي في طرحك، ويبدو فعلاً أنك تسعى إلى معرفة الحقيقة، والتأكد منها بدقة واستيفاء كاملين دون مجاملة، وهذا هو بالذات ما يدفعك إلى كثرة الجدل وعدم التسليم بسهولة؛ ليس حباً بالمجادلة أو إصراراً على التشكيك كالكثيرين، بل بحثاً عن الحقيقة ورغبة في الاقتناع،

وأنا أقدر هذا فيك كثيراً، وأراه يبشـــر بخير عظيـــم، ليس فقط فيما يعنينا الآن من نقدك لبحثنا، ولكن في مجمل حياتك ذاتها، بل في رحلتك بين الشـــك واليقين. فأنت لســـت ممن يســـلِّمون بالواقع المفروض دون مناقشة، بل تحتاج إلى إجابات مقنعة عن جميع ما يجول برأسك من تساؤلات، وبشكل مفصل وموثق ومنطقي، وعندها ستكون متأكـــداً أنك قد وجدت ضالتك، لأنك تعرف أن الحقيقة فقط هي من تملك كل ذلك. ويبدو أنك تدرك أن العثور عليها ليس ســـهلاً، ولكنك موقن تماماً أنه ليس مستحيلاً مطلقاً. وأنا بدوري موقن أيضاً بأنك ســـتجد ضالتك أخيـــراً، ما دمت بهذه العقلية، ولكنني في الوقت نفســـه، وللسبب نفســـه، أخاف أن هذا سيأخذ منك وقتاً طويلاً يا ولدي، فمثلك لا يسلك أقصر الطرق.

شـــخص أبراهام ســـاهماً فيما ســـمعه للتو. فإن أياً ممن تحدث معهم من رجال الدين لم يبدِ مثل هذا التفهم لمســـعاه وحيرتـــه، ولا هذه المنطقية في تصويرهما، ولا في التكهن بالمآل الذي لا ريب سينتهي إليه، والأهم أن أياً منهم لم يكن بهذه الثقة من نفسه وفي دينه!!! ومع أن أبراهام يدرك أن الإسلام هو أبعد دين يمكن أن يتصور أن يجد الحقيقة التي ينشـــدها فيه، إلا أنه بـــات راغباً أكثر في معرفة ذلك الدين الذي يعطـــي صاحبه كل هذا الإدراك وكل هـــذه الثقة، ويجعله يقبل كل هذا التحدي ويفند كل هذه الشبهات. تساءل أبراهام في نفسه عن مصدر قوة هذا الرجل، الذي لا يمنعه التشكيك الذي يصل إلى درجة السخرية أحياناً، من أن يفرض احترامه بسرعة إقامة الحجة، وقطـــع الطريق على المضي في الجدال بالباطـــل، فيجبر محدثه على إعادة التفكير بموقفه، وأخذ الحجج بمنتهى الجدية. وتســـاءل أيضاً عن مصدر علمه حتى لا يخافُ من تكاثر الأســـئلة، أو أن تنفد جعبته من إجابات وافية لها. وأخيراً تســـاءل عن مصدر إلهامه! فيبدو أنه محق في كثير من الأمور التي يفترضها، وبشـــكل لافت للنظر حقاً.

قرر أبراهام بينه وبين نفسه أنه إن استطاع الشيخ خطاب إقناعه بذلك فعلاً، ومن مصادر موثوقة يرتاح لها ويستطيع التأكد منها بنفسه، فسوف يبدأ بالتفكير بالإسلام جدياً، فتوجه إليه بكل جوارحه وخلجاته لينصت إليه باهتمام شديد واحترام بالغ وهو يقول متابعاً:

- كثير من الناس يقع أسيراً للأخبار والروايات التاريخية ويحاول فهمها على نحو حرفي وكأن الذي صاغها يملك فيها الكلمة النهائية كما يملك التعبير عنها على أعلى مستوى من الوضوح والقطعية، مع أن القرآن الكريم يوجهنا إلى أن نجعل من المعطيات التاريخية أدوات نفتح بها حقولاً جديدة للفهم، وبذلك نتجاوزها بدل أن نقع أسرى لها. وكما وعدتك، فسوف أعطيك الإثباتات لذلك الدليل من مصادر محايدة تطمئن إليها.

- وما تلك المصادر المطمئنة إلى هذه الدرجة؟!!!

- جميع الكتب التي أرخت للإمبراطورية الرومانية، وبلا أي استثناء. ولكني سأستشهد تحديداً بأشهرها وأكثرها تفصيلاً وثقة. وأعني هنا كتاب history of decline and fall of the Roman Empire، by Edward Gibbon "تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية وانحدارها" للمؤرخ "إدوارد جيبون"، الذي تناول موضوع هرقل والحرب الفارسية الرومانية في الجزء الخامس منه. ولك أن ترجع فيما بعد إلى هذا الكتاب نفسه، أو إلى أي كتاب آخر أرخ لتلك المرحلة وترتاح إليه أكثر.

- لا أعتقد أن هناك حاجة إلى ذلك فهو موثوق، ومن أدق الكتب وأوسعها شهرة فعلاً.

- بدأت تلك الحرب إثر انقلاب سياسي قضى على العائلة الملكية الرومانية بطريقة وحشية. فقد كان "موريس" ملكاً غافلاً عن شؤون البلاد والسياسة، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده، بقيادة "فوكاس" الذي أصبح ملك الروم الجديد[1]، فأرسل سفيراً له إلى

---

(١) فلاسيفوس فوكاس أوغسطس لقبه المؤرخون بالإمبراطور المغتصب؛ لأنه اغتصب عرش الإمبراطورية البيزنطية من الإمبراطور موريس أو موريق.

إمبراطور إيران "كسرى أبرويز الثاني". لكن كسرى[١] هذا كان مخلصاً للملك موريس، إذ كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠-٥٩١م، بسبب مؤامرة داخلية في الإمبراطورية الفارسية، حيث أمده موريس بجنوده لاستعادة العرش، وزوجه ابنته، لذلك كان يدعوه "بالأب"[٢]، ولما عرف بانقلاب الروم على حماه، غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة، ومن ثم إلغاء معاهدة السلام الموقعة بين الإمبراطوريتين. ثم أغار بكل قوته على بلاد الروم واستولى على مدينتي أنطاكية والقدس، ولم يتمكن فوكاس من مقاومة جيوش الفرس، خاصة بعد أن ناصرته الطوائف المسيحية الحاقدة على روما كالنسطوريين، واليعاقبة، وتبعها اليهود، مما وسع حدود فارس على حساب روما. وأرسل بعض شيوخ الروم رسالة سرية إلى الحاكم (والأسقف) الرومي في المستعمرات الإفريقية يناشدونه إنقاذ الإمبراطورية، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب "هرقل" (كان كاهناً أيضاً)، فسار بجيشه في الطريق البحرية، بسرية تامة، حتى إن " فوكاس" لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل وهي تقترب من السواحل الرومانية. استطاع هرقل أن يستولي على عاصمة الإمبراطورية دون مقاومة تذكر، وقتل فوكاس الخائن. ولو كانت نوايا كسرى طيبة في حقيقة الأمر، لكان اصطلح مع الروم بعد قتلهم فوكاس، ولاستقبل هرقل كخير صديق أخذ بثأر حليفه، وصاحب نعمته وصهره موريس، بأحسن طريقة. ولكنه كشف نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب، وبالطبع لم يتمكن هرقل

---

(١) كسرى بن هرمز وهو خسرو برويز.

(٢) في عام ٥٨٩ قام قائد جيش هرمز الرابع (٥٧٩-٥٨٩) بهرام قوبين بخلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثاني ابن هرمز، ثم أعلن نفسه ملكاً بعد عام واحد من ذلك الوقت. ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه؛ فرفض بهرام طلبه، ففر كسرى إلى هيرابوليس في سورية الرومانية؛ وعرض عليه الإمبراطور اليوناني موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية. ووافق كسرى على هذا الطلب؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ سنة ٥٩٦؛ منظر جيش روماني يُجلس على العرش ملكاً فارسياً.

من إيقاف طوفان الفرس، فضاع من الروم تدريجياً كل ما ملكوا من البلاد في شرق العاصمة، وجنوبها. واستبدل براية الصليب في العراق، والشام، وفلسطين، ومصر، وآسيا الصغرى "درفش كاوياني"[1]، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت عليها جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم القحط، وفشت الأمراض الوبائية، ولم يبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق، وأضحى الشعب في العاصمة خائفاً، يترقب هجوم الفرس عليها وسقوطها بأيديهم. وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة، وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة. وبدأ عباد النار يستبدون برعاياهم الروم للقضاء على المسيحية، وسخروا علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين، وأرغموا الناس على عبادة الشمس، واغتصبوا الصليب المقدس، وأرسلوه إلى "المدائن".

- هل وصلت الهوة بين روما وفارس إلى هذه الدرجة؟!!!

- بالتأكيد. ويمكن قياسها من خطاب وجهه كسرى إلى هرقل من بيت المقدس قائلاً: "من لدن الإله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل. إنك تقول: إنك تثق في إلهك! فلماذا لا ينقذ إلهك أورشليم من يدي!؟" وعندما أرسل إليه سفيراً راجياً الصلح، صاح كسرى في تكبر وإذلال شديدين: " لا أريد هذا القاصد! حتى يهجر إلهه الصليبي، ويعبد الشمس إلاهتنا".

- وكيف كان رد هرقل على كل هذا الهوان؟

- لقد استبد به اليأس والقنوط، وقرر الهرب من روما عائداً إلى قصره الواقع في "قرطاجنة" على الساحل الإفريقي؛ فلم يعد يهمه أن يدافع عن الإمبراطورية، بل

---

(١) راية الفرس. وكانوا يحملونها معهم في الحروب، أو ينصبونها فوق قصورهم في أثناء احتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأغلى أنواع المجوهرات. عن "إيران در زمان ساسانيان" (باللغة الفارسية).

كان شغله الشاغل هو إنقاذ نفسه. وبالفعل، تجهزت السفن الملكية، وتوجه هرقل إليها ليبحر نحو منفاه الاختياري.

- هل وصل الأمر إلى هروب هرقل تاركاً إمبراطوريته لمصيرها المشؤوم بهذه البساطة؟

- لم يكن الأمر بالبساطة التي تظنها، فقد تداعت الإمبراطورية الرومانية وسقطت ممتلكاتها كما تسقط الأوراق الذابلة في الخريف، ووصل الفرس إلى شواطئ البوسفور، وهددوا القسطنطينية من الشرق. وليت الأمر اقتصر على هذا فقط؛ ففي السنة ٦١٧ عبر الدانوب جمع غفير من الصقالبة ناقلين معهم عيالهم وأمتعتهم، فانتشروا في البلقان وجرز إيجه وشواطئ آسية، وعاثوا في البلاد فساداً، وطوقوا تسالونيكية وحاصروها شهراً كاملاً. ولم تكد تنجلي المحنة وينقضي عامان حتى كرّ الصقالبة كرةً أخرى جارين وراءهم الآفار، ومازالوا حتى بلغوا إلى ضواحي القسطنطينية، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا، ولم يتراجعوا إلا بعد أن زاد لهم هرقل الإتاوة[1]، وأصبحت الإمبراطورية الرومانية لا تتعدى حدود القسطنطينية المهددة من الجهتين، كما أفلست الخزائن وأصبحت خاوية نتيجة فقدان خراج الأقاليم ونتيجة الحصار الاقتصادي.

- وهل هرب فعلاً؟

- كاد يفعل، ولكن في هذه الساعة الحرجة تحايل عليه الأسقف باسم الدين والمسيح، ونجح في إقناعه بالبقاء، ثم اصطحبه إلى قداس "سانت صوفيا" حيث عاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذي اختاره الله له.

- وهل تغير كل شيء بعد هذا؟

---

(١) يقول "بتلر" عن قبائل "الآفار" في كتابه "فتح مصر" أنها: "كانت في عامي ٦٢٢، ٦٢٣ م تجوس خلال الديار وتخرب فيها، بل كادوا يوقعون بهرقل نفسه في إحدى المرات، ويحتلون العاصمة".

- ليس تماماً، فكل ما تغير بعد مضي ستة أعوام على الحرب، هو أن الإمبراطور الفارسي رضي أن يصالح هرقل، ولكن على شروط معينة هي أن يدفع له " ألف تالنت[1] من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب[2] من الحرير، وألف جواد، وألف فتاة عذراء".

- هذه شروط مخزية جداً.

- دون شك، ولكن مع هذا كان من الممكن أن يقبلها هرقل لولا المدة القصيرة التي أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة، والمحدودة الأرجاء.

- إذن فقد كان حال الروم يومئذ ذليلاً يدعو إلى اليأس والقنوط فعلاً.

- هذا هو ما كنت أحاول قوله. وفي تلك الحالة البائسة، نزلت كلمات الله تعالى على لسان رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٦] صدق الله العظيم. وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب إدوارد جيبون: "في ذلك الوقت، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية". وكما ترى، فإن أي قوة بشرية، مهما كانت، لم يكن في وسعها أن تقول إن هذه الدولة المحطمة ستنتصر والهزيمة تأتيها من كل مكان؟ ولكن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال، ومن بيده قلوب الناس، وأقدارهم. فلم تكد تنزل سورة الروم بهذه البشرى، حتى أخذ انقلاب يظهر على ساحة الإمبراطورية الرومانية.

---

(١) ميزان يوناني قديم، يقدر بنحو ستة وعشرين كيلو جراماً. وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه.

(٢) الثوب يقدر بثلاثين متراً من القماش تقريباً.

- ما طبيعة ذلك الانقلاب؟

- يصفه جيبون على النحو التالي: "إنها من أبرز البطولات التاريخية، تلك التي نراها في هرقل؛ فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية في الكسل، والتمتع باللذات، وعبادة الأوهام في السنين الأولى، والأخيرة (إشارة إلى رد فعله تجاه الإسلام) من حكومته. كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله، استسلم لمصائب شعبه، ولكن الضباب الذي يسود السماء ساعتي الصباح والمساء، يغيب حيناً من الوقت لشدة الشمس في الظهيرة. وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل، فقد تحول " أرقاديوس القصور"[1] إلى قيصر ميدان الحرب فجأة، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس، وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة، تبياناً لأسرار هذه اليقظة، والنوم. وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية، فقد انقطع عن اللذات كافة، حتى إنه هجر ابنة أخته "مارتينا" التي تزوجها لشدة هيامه بها، مع أنها كانت محرمة عليه".

- ولكن حتى وإن انقطع هرقل عن لذاته واستفاق من غفوته، فما الذي يستطيع فعله في ظل كل تلك الظروف؟

- كان هذا رأي الكثيرين، فعندما خرج هرقل مع جنوده بدا لسكان "القسطنطينية" أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الإمبراطورية الرومانية. ولكن مع هذا أعد هرقل بَحْرِيته للإغارة على الفرس من الخلف، وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى أرمينيا، وشن على الفرس هجوماً مباغتاً في الميدان نفسه الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس لما زحف على أراضي مصر والشام. لم يستطع الفرس مقاومة هذه

---

(١) أركاديوس (٣٧٧-٤٠٨م)، أحد أباطرة الرومان، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول، تولى العرش سنة ٣٩٥م، واشتهر بالجبن.

الغارة المفاجئة، فلاذوا بالفرار. وكان الفرس يملكون جيشـًا كبيراً في آسيا الصغرى، ولكـن هرقل فاجأهم بأسـاطيله مرة أخرى، وأنزل بهم هزيمـة فادحة. وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد هرقل إلى القسـطنطينية عن طريق البحر، وعقد معاهدة مع "الأفاريين"، واستطاع بنصرتهم أن يسـد سيل الفرس عند عاصمتهم. وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما، شن هرقل ثلاث حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥م، واسـتطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسـود، واضطر الفرس إلى الانسـحاب من جميع الأراضي الرومية، وأصبح هرقل في مركز يسـمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية الفارسية. كانت آخر هذه الحروب المصيرية تلك الحروب التـي خاضها الفريقان في "نينوى" على ضفاف نهر دجلة في كانون الأول/ديسمبر عام ٦٢٧م. وتكللت أعمال الحرب بفتح "دستجر" وهي مدينة على ثمانين ميلاً من المدائن (عاصمة الفرس) وذلك في شـباط/فبراير سنة ٦٢٨م. ولما لم يستطيع "كسرى أبرويز" مقاومة سيل الروم، حاول الفرار من قصره الحبيب "دستكرد"، ولكن ثورة داخلية نشـبت في الإمبراطورية، واعتقله ابنه شرويه، كما أخبرتك سالفاً، وزج به في سجن داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه في اليوم الخامس من اعتقاله، بعد أن قتل ابنه المتمرد ثمانية عشـر من باقي أبنائه أمام عينيه. ولكن شـرويه نفسه لم يسـتطع أن يجلس على العرش أكثر من بضعة أشـهر كمـا رأينا، حيث قتله أحد أشقائه الناجين. وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي، ولم يكن من الممكن، أو المعقول في هذه الأحوال السـيئة، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم، فأرسل "قباد الثاني" ابن كسـرى أبرويز الثاني يرجو الصلح، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس[١].

---

(١) في هذا يقول بتلر: "وهكذا انتهت الحرب الصليبية الكبرى بنصر عجيب قلَّ مثله في التاريخ بما يثيره في النفوس".

- وهكذا صدق ما تنبأت به الآيات الست الأولى من سورة الروم بشكل إعجازي.

- تماماً، فقد رجع "هرقل" إلـــى عاصمته في آذار/مارس عام ٦٢٨م، في احتفال مهيب، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واســـتقبله آلاف مؤلفة من الجماهير خارج العاصمة، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون.

- أي في حدود المدة المقررة في القرآن تماماً!!!

- أجـــل، وأضف إلـــى ذلك أن أحداً لم يطالبه بالتنبـــؤ بانتصار الروم، فضلاً عن تحديـــد مدة محددة لذلك الانتصار، وهي مدة ليســـت بالطويلة التي تتناســـى فيها، أو يظهر لها تفســـيرات أخرى! تخيل معي ماذا كان ســـيحصل للدعوة لو انقضت تلك البضع سنين ولم تتحقق النبوءة؟!!!

- فعلاً. فما الذي جعل الإســـلام يفرض على نفســـه ذلك التحدي القاسي؟ ففي حال عدم تحقق النبوءة كانت الدعوة سَـــتُوْءَد في مهدها، ويتهالك عليها المغرضون، بل ينفض عنها حتى أتباعها أنفسهم.

- تماماً، وتحققها الإعجازي دليل على أنها جاءت من لدن عالم الغيب والشـــهادة. وأضف إلى هذا أيضاً أن في تلك الآيات وجهاً إعجازياً من نوع آخر تماماً.

- وما هو؟

- إقـــرار حقيقة جغرافية لم تكـــن معروفة عند أحد في ذلك الوقت فالآية الثالثة تخبر أن الروم خســـروا المعركة في أدنى الأرض. ومراحل الحرب التي كانت بين الروم والفرس وأســـفرت عن هزيمة الروم وخســـارتهم للقدس، حصلت حول حوض البحر الميت في منطقة تتقاطع فيها كل من ســـورية والأردن وفلســـطين. وقد جاءت العلوم الجيولوجية لتؤكد أن مســـتوى ســـطح الأرض في هذه المنطقـــة يبلغ ٣٩٥ متراً تحت ســـطح البحر، أي إنه أكثر أجزاء اليابســـة انخفاضاً، وأدنى بقعة على سطح اليابسة على الإطلاق.

كان أبراهام قد سمع عن ذلك من قبل[١]، ولكنه فسره بشكل بعيد عن الوحي الإلهي، فقال معقباً:

- لا بد أن ذلك كان معروفاً في ذلك الزمن عند أهل الاختصاص.

- هذا مستحيل تماماً، فحتى في زمننا الحاضر لا يمكن قياس ارتفاع تضاريس سطح الأرض نسبة إلى سطح البحر، وتحديد أكثر المناطق انخفاضاً في الكرة الأرضية دون الاستعانة بكفاءات بشرية مدربة وكثيرة العدد، ودون استخدام تقنيات معقدة للمسح والقياس والاتصال!

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

شبهة الاقتباس

استيقظ أبراهام بعد منتصف الليل، ونظر إلى ساعته بخمول، ليقدر أنه قد استغرق في النوم أكثر من عشر ساعات، ولكنه عاد فأغلق عينيه بإصرار، كأنه ينتقم من اليومين الفائتين اللذين لم يحظَ بهما ولو بغفوة صغيرة. وبعد عدة مرات من التقلب في الفراش ذات اليمين وذات الشمال، أيقن أنه لن يستطيع معاودة النوم ثانية، فقام متثاقلاً إلى الحمام وفتح صنبور المياه على آخره ثم وقف تحت المرذاذ، محاولاً أن يستعيد بعض نشاطه. وبينما هو مستسلم لسيل المياه المنهمرة، مرت على رأسه مقاطع من حوارات اليومين الماضيين بشكل عشوائي، وتوقف كثيراً عند ما قاله الشيخ خطاب، وعند تعهده بالتفكير الجدي بالإسلام إن أقنعه ذلك الرجل وأنه قد أقنعه فعلاً.

فكر أن يذهب لشراء نسخة من القرآن ويعيد قراءتها ثانية، ولكنه تذكر ما قرأه عن انشقاق القمر وقرب الساعة، فطرد الفكرة من رأسه بسرعة؛ فهو لن يسمح لإعجابه بشخص ما وتأثره الكبير بذكائه وقوة حجته وشخصيته وسعة علمه أن يحرفه عن الطريق الذي يسلكه. كان أبراهام مشوشاً جداً وأحس أن عقله قد صار أشبه بكرت ذاكرة إلكتروني امتلأ عن آخره، ولم يعد فيه أي مكان لمعلومة إضافية. وشعر أنه لا بد أن يصفي ذهنه تماماً قبل أن يبدأ بتحليل تلك المعلومات المتراكمة، وقرر ألا يفكر بأي موضوع جدي ريثما يريح أعصابه.

ارتدى ملابسه بسرعة، ونزل إلى الشارع، وهو يفكر أين يمكن أن يذهب في مثل هذا الوقت المتأخر. وفي النهاية قرر أن يرمي كل تحفظاته السابقة وراء ظهره، ويحظى أخيراً ببعض اللهو كالآخرين، عله يخلي ذهنه تماماً من تلك الأفكار المتناقضة التي تزاحمت فيه.

استقل أبراهام سيارة أجرة موصياً سائقها أن يقله إلى أشهر وأفخم ملهى ليلي في لندن. وفي الطريق مرت السيارة من أمام كشك عربي للمأكولات السريعة، فتنشق رائحة الفلافل الشهية، متذكراً أنه لم يتناول شيئاً من الطعام بعدُ، فطلب من السائق أن يتوقف وينتظره ريثما يحضر شيئاً ليأكله.لم يكد أبراهام يصل إلى الكشك، حتى تناهى إلى سمعه صوت قرآن خافت ينبعث من داخله، فتسمر واقفاً، وقد عاد إلى مخيلته حديث الشيخ خطاب البارحة عن سورة الروم، فسَرَت بجسده رعشة خفيفة، ثم ما لبث أن استدار نحو سيارة الأجرة حيث حاسب سائقها، وقفل راجعاً إلى الكشك منكس الرأس.

وقف أبراهام يقضم شطيرته بصمت وهو يستمع إلى القرآن، سارحاً في سورة الروم وما سمعه عن إعجاز في كلمة "أدنى الأرض". وتذكر الفتى الألماني المتعطش لتعلم لغة القرآن، فنظر بحسد إلى عاملَي الكشك الأسمرين المنهمكين في إعداد السندوتشات، وهو يغبطهما على معرفتهما للغة العربية، وفهمهما لما يسمعانه من القرآن. وفي هذه اللحظة بالذات مرت فتاة ليل كاسية عارية، فاشرأبّ رأسا الشابين ليَلْتَهما جسدها بأعينهما الشبقة، وظلا يتابعانها بنظرهما حتى غابت تماماً، وهما يتغامزان ويتضاحكان، غير آبهين بصوت القرآن من ورائهما.

غادر أبراهام المكان مشمئزاً وهو يلعنهما من كل قلبه. فبعد أن أجهد نفسه أخيراً في تسويغ فكرة الذهاب إلى ملهى ليلي، تخلى عن فكرته المجنونة خجلاً من النزر اليسير الذي عرفه عن القرآن. وها هما مسلمان يصدح القرآن فوق رأسيهما بلغتهما الأم، فتعلو ضحكاتهما وتعليقاتهما فوقه، دون أن يستطيعا مقاومة النظر إلى فتاة مستهلكة، تعرض لحمها الرخيص في الشارع.

كثيراً ما فكر أبراهام في الإسلام فعلاً، ولكنه لمثل هذه الأسباب ولأسباب كثيرة غيرها كان يطرد ذلك من رأسه دائماً، قامعاً أي محاولة للتفكير بجدية في ذلك الدين وفهم كتابه. فهمجية المسلمين وتواكلهم وشبقهم الجنسي وعلاقتهم بالإرهاب،

بالإضافة إلى ضعف دولهم وتخلفها، لا يشـــجع ذاك كلُّه مطلقاً على مجرد تخيل أنه سيصبح واحداً منهم في يوم من الأيام، فلو أن دينهم وكتابهم حق، لما كان هذا حالهم.

تابع أبراهام سيره دون هدى وهو يشتم الإسلام والمسلمين بعصبية زائدة، مستعرضاً في رأســـه كل الصور السلبية التي تنشرها الدعاية العالمية عن الإسلام والمسلمين، ثم ما لبث أن تذكر كلام الشـــيخ خطاب عن غواية الشيطان وتلاعبه بالناس فتوقف عن المشي، ولسبب لم يدركه وجد نفسه يردد الدعوة الإسلامية التي نصحه به.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال أبراهام في نفسه وهو يحاول وضع حد لتلاعب الشيطان به ومحاولته لحرفه عن التفكير الســـليم. فهذان الشـــابان لا يمثلان الإسلام، وتشغيلهما لشريط قرآن لا يعنـــي أنهما ملتزمان به، وربما فعلا ذلك من قبيل العادة التي اكتســـباها في وطنهما الأم، فإن كثيراً من المســـلمين، كما يقول أحمد، يستمعون القرآن للتبرك فحسب! ولا يعيرون أدنى انتباه لفهم معانيه أو العمل بها.

مر على رأســـه طيف صديقه الوحيد أحمد، وتذكر مسلمي مسجد آخن وإستس والشـــيخ خطاب، ووجد أن هناك صوراً كثيرة مشـــرفة لمسلمين متدينين بصدق، وهم بالـــذات، لا أولئك المتخلفون، من يجب النظر إليهـــم بكونهم ممثلين عن ذلك الدين. فالشـــيخ الذي تحدث معه البارحة هو بروفيسور من الطبقة الراقية في دولة عريقة متقدمة، ولها تاريخ في اســـتعمار جزء كبير من العالم الإسلامي، مع أنه يفوقها عدداً وعدة بمئات المرات، ومع ذلك فقد اختار طواعية، وبعد دراســـة مستفيضة، أن يعتنق دين المقهورين، وهو ليس الوحيد الذي فعل ذلك من قومه، بل أسلم غيره الكثيرون في أوربا وأمريكا ممن يفوقونه علماً ومركزاً ونسباً.

وجم أبراهام مفكراً، ثم ما لبث أن هتف هاتف في رأسه مجدداً:

- هـــؤلاء أقلية، وربما لو تعرضوا لاختبار، أو لفتنة مناســـبة لقدرهم، كما تعرض الشابان العربيان اللذان أعجبتُ بهما قبل قليل، لاكتشفت حقيقتهم أيضاً.

ثم عادت الصور السلبية عن الإسلام والمسلمين تومض في رأسه مجدداً، واسترجع ما قرأه من القرآن في الطائرة عن انشقاق القمر وقرب الساعة، فتساءل قائلاً:

- أيـــن الإعجاز في هذين الخبرين اللذين يخبر العلم باســـتحالة حصول أولهما، ويخبر تقادم الزمن بكذب الآخر تماماً؟!!!!

لكنه ما لبث أن استدرك مسلّماً:

- وماذا عن بقية الإعجازات التي يثبتها العلم بما لا يدع مجالاً للشك؟!

عاد الصوت من داخله ليقول:

- إن القرآن ليس به إعجاز، والمعجز فيه هو ما سرق من الكتاب المقدس.

- ولكن الكتاب المقدس المفترض أن القرآن قد سرق منه، هو نفسه مليء بالأخطاء، وليس فيه تلك الإعجازات أصلاً.

- ألم تتأكد من اختفاء أجزاء من الأســـفار المقدســـة؟ لمـــاذا لا يكون الإعجاز في القرآن مسروقاً من بعض تلك الأسفار التي وجدها محمد؟

توالت الهواتـــف في رأس أبراهام، وتوالى رده عليها. ثم توقف ذاهلاً ونظر حوله، لحسن الحظ كان الشارع خالياً، فلو سمعه أحد لقال إنه مجنون يكلم نفسه.

كان الوقـــت فجراً، ومع ذلك وجد جمهـــرة من الناس بدأت بالخروج من باب أحد المباني في آخر الشارع! تملكه الفضول وأراد أن يعرف ما ذلك المكان الذي يعمل حتى هذا الوقت المتأخر، فســـارع الخطا ليكتشـــف حقيقة الأمر، ولكنه ما لبث أن بطأ من وتيرة تســـارعه عندما اقترب أكثر، ملاحظاً أن أغلب الخارجين ليســـوا من الشباب والفتيـــات كما كان يتوقع، بل هم من الرجال الملتحين!!! لقد كان ذلك المبنى مســـجداً وهؤلاء مسلمون فرغوا لتوهم من صلاة الفجر. توقف أبراهام مفكراً؛ أيتابع المشي أم يستدير ويغير طريقه؟ وفي النهاية قرر أن يمضي قدماً، بل أن يتحدث مع إمام المسجد ليعرف منه كيف غفل هو ورفاقه عن أن الحق الذي يتغنون بوجوده في القرآن هو في الحقيقة مسروق، أو على الأقل مقتبس من الأسفار المقدسة.

سأل أبراهام عن الإمام فأشاروا إلى رجل باكستاني ضخم الجثة، كثير اللحم، شعور نعور، لدرجة يصعب فيها تمييز حدود لحيته السوداء الكثة عن حدود وجهه الذي اكتوى بلهيب الشمس الحارقة، وهو ما أورث أبراهام شعوراً بعدم الراحة وفكر بالعودة من حيث أتى، ولكن الإمام كان قد انتبه لسؤاله عنه، فأقبل بنفسه مرحباً وهو يكلمه بطيبة لا تتناسب مع ضخامة حجمه، وسرعان ما اكتشف أبراهام أن الحديث مع ذلك الإمام المسمى "رحمة الله" سيكون سلساً أكثر مما كان يتصور، فقد كان متبسطاً يتقبل كل احتجاجاته المستفزة برحابة صدر، ويفندها بصبر وأناة دون أن يظهر شيء من الضيق لتجرئه عليه. وهذا ما شجع أبراهام على أن يبسط أمامه كل شكوكه، واعتراضاته وانتقاداته دون حرج. وعندما وصل الحديث إلى موضوع المقارنة بين اعتماد أسفار الكتاب المقدس، وبين تدوين القرآن قاطعه أبراهام قائلاً:

- كل ما تقوله رائع ومنطقي يا سيدي، وقد أتفق معك تماماً أن القرآن لم يطرأ عليه أي تحريف منذ عهد محمد، ولكن ألا تعتقد أن التشابه الكبير بينه وبين التوراة يعني أنه قد نقل عنها أو على الأقل اقتبس منها؟ أي إن القرآن، وإن لم يحرف على مر العصور، إلا أنه منذ البداية كان مجرد نقولات من قصص إبراهيم ونوح ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء الإسرائيليين، بعد أن حورها بما يتفق مع آرائه وأهدافه.

- هذه الفرضية يسقطها العقل والمنطق لعدة أسباب؛ أولها أن الدقة التي تمت فيها رواية هذه القصص في المصدرين هي دقة متفاوتة، فأسفار التوراة كتبت كما تعرف من قبل مؤلفين مجهولين، وأضيف إليها إضافات من قبل شارحين مجهولين أيضاً، بالإضافة إلى الظروف القاسية التي مرت على المجتمع الإسرائيلي وفقدان التوراة وإعادة كتابتها، والإضافات التي حدثت من الموروث الشعبي الذي يمتلكه اليهود، والذي يتم إدخاله من قبل مؤلفين مجهولين لا نعلم مدى دقتهم ولا دقة المصادر التي ينقلون عنها. ثم هناك الإضافات التي تحدث من قبل نساخ مجهولين أيضاً لا نعلم

مدى موثوقيتهم وأمانتهم في النسخ، فضلاً عن جهل مقدرتهم الفنية على ضبط عملية النسخ، فلا يمكن الجزم بمطابقة قصص التوراة لما حدث فعلاً في أحداث القصة الواقعية التي تمتد عبر أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد على أقل تقدير، وهو عصر النبي إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. في حين أننا نجد ما ورد في القرآن هو أكثر دقة وصدقاً وتفصيلاً، فضلاً عن أنه لم يطرأ عليه تغيير لكونه كلام الله المحفوظ.

- لو كنت أؤمن بأن القرآن كلام الله المحفوظ أو كلام الله أصلاً، لما كان هناك داع للنقاش. فهل تستطيع أن ترجح مصداقية تلك القصص في القرآن على أصولها في التوراة بمعزل عن قدسية القرآن التي تدعيها؟!

- بالطبع، ولكنني قصدت أولاً أن أذكرك بما تعرضت له قصص التوراة من التغيير، وكيف حفظت قصص القرآن منه. ولو ناقشنا فرضيتك بغض النظر عن قدسية القرآن الكريم وصحة جميع ما فيه من كلام الله عز وجل وحفظه من قبل الباري جل ثناؤه، وتحدثنا بالمنطق والعقل فحسب لوجدنا أنه بوجود قصة وردت في مصدرين، وحدث اختلاف في رواية كل مصدر، فلا يعني هذا أن أحد المصدرين قد نقل عن الآخر، فربما يكون هناك مصدر ثالث أخذا منه كلاهما وهو الحق. ولاسيما أن أياً من المصدرين لم يذكر أنه قد أخذ قصته من المصدر الآخر. وأيضاً فمن الممكن أن يكون أحد المصدرين غير دقيق في نقله، وهذا أمر شائع في الروايات التاريخية، فلماذا لا يتم العمل بهذا المنظار حين يتعلق الأمر بالقرآن؟ ثم من المعلوم أن أول ترجمة عربية للتوراة كانت بعد ظهور الإسلام بقرن من الزمان، حيث كان أسقف إشبيلية يوحنا أول من ترجم التوراة إلى العربية عام ٧٥٠م. ثم ترجمها سعدية بن يوسف عام ٩٤٢م، وكتبها بأحرف عبرية، ثم كتبها يافث بن علي في أواخر ذلك القرن بأحرف عربية. ويعجب المرء كيف ينسب إلى النبي ﷺ الاطلاع على كتب لم يكن بمقدور الأحبار والرهبان في ذلك الزمان أن يطلعوا عليها كاملة.

- ولكـــن ماذا لو كان هناك أحبـــار قد اطلعوا على جزء كبيـــر منها، وحدثوه بها مشـــافهة، فنقل ما اســـتحفظه منهم إلى القرآن، وهكذا يكون القرآن نسخة محرفة عـــن الأصل منذ وقت كتابته، وبذلك لا لزوم لهـــا، فالأمر لا يحتاج إلى إعلان قرآني جديد يســـتعرض أمامنا قصصاً أنزلت قبلاً في التوراة، فقد ورد في القرآن قصص خلق العالم، وســـقوط آدم وحواء، والطوفان، ونجاة نـــوح وبناء الفلك، وقصة إبراهيم وتبشيره بولادة إســـحاق، وقصة لوط وتخريب سدوم وعمورة، وقصة يعقوب ويوسف وبيعه، ومراودة المرأة له، وقصة موسى، وغيرها من قصص الأنبياء التي نعرفها أصلاً.

- بل احتاج الأمر بالتأكيد إلى إعلان جديد!! فإنه لما حصل التبديل والتحريف لزم التصحيح، فكان مـــن الطبيعي أن يقص الله الحق ويدفع به الباطل، ويـــرد كرامة أنبيائه مما ألصق بهم، ويصحح العقيدة. وهذا طبيعي فالله يهدي عبيده لأحسن الطرق دائماً ولا يتركهم ضالين.

- إذا كان الأمـــر كذلك، فلماذا وردت هـــذه القصص في القرآن مقطعة، وفي كل ســـورة ترى جملة أو جملتين، بخلاف التوراة التي ذكـــرت كل قصة بالترتيب وأوردت موعد حدوثها ومكانه بتدقيق. فلماذا اقتبسها القرآن وزعم أنها تنزيل من رب العالمين؟

- الحق ليس معك كاملاً في ذلك، فقصة يوســـف عليه السلام وردت كاملة في سورة يوســـف. على العمـــوم لا يهمني ذلك الآن، إنما يهمني أن أنبهـــك أنك وضعت يدك على جوهـــرة فاعرف قدرها؛ وهي تكرار القصة في القرآن في أكثر من موضع، ويغاير في كل موضـــع بين ما يذكره كل مرة من عناصر القصة وأســـلوبها وعباراتها وألفاظها بلا أدنى خطأ أو تعارض أو اختلاف، لأن كل مشهد من القصة يعرض في سورة ما، لا بد أن يخدم سياق السورة التي ورد فيها. فمع أنه يتكلم على نفس القصة، إلا أنه يعرض من عناصرها ومشـــاهدها ويعدل في عباراتها وألفاظها بما يخدم سياق السورة التي ورد فيها بلا جور على المعنى. فها أنت ذا ترى ثانية أن ما تعترض عليه أنت من أسلوب القرآن هو حجة لي ويخدمني في إثبات أن قائله ليس بشر. فسبحان من أنزل هذا الكتاب!

- هذا عن القصص، ولكن ماذا عن التشـــريعات التي اقتبســـها القرآن من التوراة مكرراً إياها؟

- إن المشـــرع واحد وهو الله تعالى، وعندما يتشـــابه تشريع في التوراة مع تشريع في القرآن، فهـــذا معناه أن التحريف لم يطله تماماً، وليس أن القرآن اقتبس منه. ثم لماذا لا تقول المِثْل عن الإنجيل وقد اقتبس عن التوراة أيضاً، ما دمت تأخذ الأمر على هذا المحمل؟

- شـــتان بين اقتباس القرآن عن كتب الأولين وبين ما اقتبسه الإنجيل؛ فلا يغرب عنك البتة أن المسيح تعلم التوراة وعلمها وشرحها لغيره، وكان يستشهد بها ويدل عليها في أحاديثـــه، ويذكر النص وقائله كما ورد في التوراة. في حين اقتبس نبيك من كتب الغير مدعياً نزول الكلام عليه من الله مباشرة بواسطة جبريل. هل تلاحظ معي عظم الفرق؟ المســـيح لم يقتبس أقوال الله من التـــوراة واضعاً إياها في كتاب خاص مدعياً أن الله أنزله عليه.

- ذلك التفضيل لا يصح في هذا المقام، كما أنه ليس بمصلحتك، ألا تلاحظ معي بأنه لو لم يحرف كتاب الله لما كان هناك داع لنزول كتاب آخر؟ وأن الكتاب الآخر لابد أن ينزل لتصحيح الأول، وليس للاستشـــهاد الحرفـــي به؟ وإلا لما كان له لزوم، بل ولما كان وحياً!!!

صمت أبراهام مرتبكاً، فقد كان ذلك منطقياً فعلاً، ولم يفكر به بتاتاً قبل ذلك، ثم ما لبث أن قال معانداً:

- ألا تلاحظ أنك بذلك تشكك بالمسيح ووحيه؟ وهذا ينسف ما جاء به دينك!

- كلا بالطبع، ولكنك تعلم الظروف التي تم بها اعتماد تلك الأناجيل الأربعة، ورفض أناجيل أخرى كثيرة. أفلا يحق لي أن أتهم كتبة الأناجيل المعتمدة بأنهم استشهدوا من أنفسهم، ربما بحسن نية، ببعض الأقوال من التوراة على لسان المسيح بقصد الشرح أو

ربط الإنجيل بالتوراة، أو حتى للإعلاء من شـــأنه حسب ظنهم؟!!! ومن ثم فلا المسيح قال ذلك ولا كتبة تلك الأناجيل شـــاهدوه يفعل، ولا ســـيما أن الاقتباس ليس من جهة الأناجيل وكلام عيســـى فقط، بل من غيره أيضاً مثل: (١بطرس: ١: ٢٤ ـ ٢٥) مع (إشعياء: ٤٠: ٨)، ومثل: (رؤيا: ٢٢: ١٢-١٣) مع (إشعياء ٤٤: ٦، ٤٨: ١٢)، ومثل: (رؤيا: ١٧: ١٤، و١٩: ١٣- ١٦) مع (تثنية: ١٠: ١٧)، ومثل :(رؤيا: ٢: ٢٣) مع(إرميا: ١٦: ٢١، و١٧: ١٠)... إلى آخره.

- ولكـــن التشـــابه بين القرآن والكتب الســـابقة في الأحداث مـــع الاختلاف في التفاصيل يثبت اقتباس الرســـول منها ويبطل مزاعم الوحي المنزل. فعلاقات الرسول الوطيدة مع المســـيحيين واليهود قبل بعثته وبعدها، مكنته من سماع الكثير من أقوال التـــوراة والإنجيل وحفظها غيباً ولكن ليس بدقة. ولهذا ورد في القرآن: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] فأوجه الشبه بين القرآن وما سبقه من كتب لم تأتِ مصادفة، ولها أسس في حياة الرسول.

- حســـناً، إذا كان هذا ينطبق على كتب اليهود والنصارى التي اطلع عليها الرسول ﷺ واقتبس منها كما تزعم، فما حال كتب الهندوس التي لم تكن معروفة قط في شبه الجزيرة العربية آنذاك؟!!!

- ماذا عنها؟

- إن الله تعالى لم يترك قوماً إلا وأرســـل إليهم أنبياء ورســـلاً، وليس مســـتبعداً أن ديـــن الهندوس كان ســـماوياً، ولكنـــه حرف أيضاً على مر الزمـــان، فلا تزال فيه شـــذرات منه تبشر بنبينا عليه الصلاة والسلام، بل وتذكره بالاسم في الكتب المقدسة عندهم مثل كتاب "الســـامافيدا" الذي ورد فيه ما نصه: "أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبســـت من النور كما يقبس من الشـــمس"، وجاء في كتاب "أدروافيدم أدهروويدم" المقدس عندهم أيضاً: "أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد

بين أظهر الناس... وعظمته تحمد حتى في الجنة، ويجعلها خاضعة له وهو المحامد".

وجاء في كتاب هندوسي آخر هو بفوشيا برانم "بهوشي بهوشي برانم": "في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم، والملك يطهره بالخمس المطهرات"، وفي قوله الخمس المطهرات إشارة إلى الصلوات الخمس التي يتطهر بها المسلم من ذنوبه كل يوم، فكيف تفسر هذا؟!!! وكما ترى فإن فهمك لآية ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦] كان خاطئاً، ولك عذرك، فلا ينقص ذلك من قدرك، ولو سلمنا جدلاً بصحته تكون أنت بذلك مقراً بأن القرآن صرح بالتشابه بينه وبين الكتب السابقة! فمالي أراك تنكر عليه بعد ذلك هذا التقرير! وتسرد مواضعه وكأنها خفيت عن الباقين!!!

أطرق أبراهام خجلاً، فتابع رحمة قائلاً:

- سأحاول أن أوضح لك ما جهلت من معنى الآية، وهو أن ذكر هذا القرآن وأن الله سينزله على عباده موجود في كتب السابقين، حتى بعدما حرفت. وكما أظهر الله ذلك في الكتب التي أهلكها التحريف تماماً، فإنه يظهره أكثر في تلك التي لا يزال بها الكثير من الحق الذي لم يطله التحريف، وأعني بذلك ما تسميه بالكتاب المقدس.

- هذا ليس صحيحاً.

- بل صحيح تماماً يا بني، وسوف أسوق الأدلة على ذلك لاحقاً إن أردت، ولكن دعنا نحاول عدم الخروج من الموضوع إلى آخر قبل استكماله.

- أوافقك على ذلك.

- أنت تصور الأمر وكأن محمداً عليه الصلاة والسلام، واضع القرآن من وجهة نظرك، نقل عن الكتب السابقة وأخفى الأمر ولم يصرح به. ثم أتى آخرون واكتشفوا الخدعة! وأظهروها للناس وقالوا هذه هي مواضع التشابه بين القرآن وبين سابقيه! وهذه هي التفاصيل التي اختلفت. إذن: فهو ليس وحياً إلهياً، بل مجرد اقتباس، بل واقتباس غير دقيق أيضاً. والأمر ليس كذلك مطلقاً!! ولا يخفى عليك لو تدبرت هذا

المنطق ما فيه من الخطأ! فالقرآن يصرح لك بأن كتابه جاء ليهيمن على كتب سابقيه ويصحح ما فيها من أخطاء ويكرر ذلك في أكثر من موضع.

- فلتوضح لي الأمر إذن.

- لم يدَّعِ رسول الله ﷺ ولا أي مسلم أن القرآن الكريم بمعزل عن باقي الكتب السماوية، بل خلاصة عقيدة المسلمين أن القرآن وكل الكتب السماوية من رب العزة سبحانه وتعالى. لذا فما كان مشتركاً فيرجع إلى وحدة المصدر، وما يتميز به القرآن هو أن الله قد تولاه بحفظه بعد أن أضاع أتباع الرسالات السابقة الأمانة فقامت عليهم الحجة بتحريف كتبهم. وبتعبير آخر، فإن الإسلام (دينَ الله) ليس بدعة أو شيئاً جديداً لم يسمع به الناس من قبل[1]، وحتى تتضح الصورة وتقر بأن هذا أمر مسلم به منذ البداية، فلنقرأ ماذا يقول القرآن حول هذا الشأن: ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [**الأحقاف** : ٩]،

---

(١) الإسلام ليس بدعة أو شيئاً جديداً لم يسمع به الناس من قبل، فقد كانت هناك بعض الآثار من ديانة إبراهيم مختلطة بكثير من الأوهام والخرافات. ويقول القرآن في سورة الزخرف: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [**الزخرف** : ٢٦ - ٣٠]. فدعوة إبراهيم عليه السلام ظلت باقية في هؤلاء القوم حتى جاءهم النبي محمد عليه الصلاة والسلام يعيدهم إليها مرة أخرى. فبخصوص الصلاة فهي لم تكن بدعة، بل كانت مفروضة على كل الأمم السابقة، ثم خلف بعد ذلك من أضاعها واتبع الشهوات ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [**مريم** : ٥٨ - ٥٩]. وكذلك الصوم؛ فقد كتب على المسلمين كما كتب على الذين من قبلهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [**البقرة** : ١٨٣]. والزكاة كذلك: ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [**البينة** : ٤ - ٥]. والحج شريعة موجودة قبل النبي محمد منذ أمر الله إبراهيم ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [**الحج** : ٢٧]. وسيأتي تفصيل كل هذا وأكثر من كتبهم المقدسة إن شاء الله تعالى.

وهكذا فالنبي الكريم لم يأت بشيء جديد مبتدع، بل جاء مذكراً بشيء قديم يعرفونه: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١]، ولكنه مصحح له. كما أن تعريف القرآن للإسلام يكون باعتباره مكملاً للأديان السماوية السابقة وخاتماً لها، وقد أشار القرآن في عدة مواضع إلى هذه الفكرة. ويعرض القرآن الإسلام لا على أنه دعوة جديدة مستقلة عن سواها، تنافسها وتنازعها الحقيقة، بل إن الإيمان بمحمد يتبع الإيمان بجميع الأنبياء، من غير تمييز بينهم: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦].

- دعك من هذا الادعاء، ولنتحدث بالمنطق فقط. فالمنطق يقول إذا كان هناك كتابان متشابهان في بعض النصوص، وكان أحدهما قد صدر قبل الآخر بكثير، فهذا دليل لا يقبل الشك على أن الجديد اقتبس تلك المعلومات من القديم. أليس كذلك؟

- تأمل معي؛ فلو ألفت كتاباً ثم أعيد طبعه مرات عديدة في دول مختلفة، ثم ألفت كتاباً آخر به معلومات ذكرتها في كتابك الأول، فهل الكتاب الثاني مقتبس عن الأول؟ ولو كان هناك تناقض في معلومة بكتابك وإحدى الطبعات غير المعروفة الأصل أفمن الطبيعي أن تكون المعلومة في النسخة المعاد طبعها بظروف مجهولة (وإن كانت أقدم) أصح من المعلومة في كتابك الذي أنزلته حديثاً؟!!!

- أذكرك ثانية أنني لا أؤمن بأن القرآن منزل من عند الرب.

- حسناً، فلنتحدث بالمنطق الذي تؤمن به، ولنأخذ مثالك بعينه؛ فلو ألف أحدهم كتاباً وادعى كاتب آخر أن ذلك الكتاب وردت فيه اقتباسات من كتابه الذي كان قد أصدره قبل فترة طويلة من الزمن، هنا سينظر القاضي في المادة المدعى بأنها مقْتَبَسَة؛ فإذا كانت المادة بلفظها ومعناها، أو بمعناها وعبر عنها بكلام آخر، فلا ريب سيحكم للكتاب الأقدم، إذ إن المقتبس في عملية الاقتباس أسير المقتبس منه قطعاً،

ودائـــر فـــي فلكه، إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبـــس إلا ما ذكره المقتبس منه؛ فهو أصل، والمقتبس فرع لا محالة.

- أرأيت.

- مهلاً. ولكن إذا تشابه ما كتبه الاثنان وثبت أن ما كتبه الثاني كان أصح، أو عرض الوقائع بشكل أحكم وأكثر دقة، وبشكل لا يتعارض مع مكتشفات العلم والتاريخ كما في الكتاب الأول، وضم تفاصيل أغفلت فيه، ففي هذه الحال لا تقبل الدعوى ويفترض أن الكتاب الثاني قد تخطى ما في الكتاب الأول، حتى وصل إلى مصدر الوقائع نفســـها، واستقى منها ما استقى بغض النظر عن حداثته النسبية، فهو إذن ليس مقتبساً وإنما مؤســـس حقائق تلقاها من مصدرها الأصيل، ولم ينقلها عن ناقل أو وسيط كالكتاب الأول. أظن أنك إلى هنا متفق معي تماماً، أليس كذلك؟

- تابع.

- حســـناً، إن القرآن قد عرض الوقائع عرضـــاً يختلف عن عرض التوراة الحالية لها، وأضاف جديداً لم تعرفه تلك التوراة في المواضع المشتركة بينهما، وصحح أخطاء "خطيـــرة" وردت فيها في مواضع متعددة، وثبت أنه في حال اختلافه مع التوراة حول واقعة ما، يكون الصحيح بشـــهادة المنطق والعلم والتاريخ هو ما ذكره القرآن، والباطل ما جاء في التوراة الحالية، بل وفوق ذلك انفرد القرآن بذكر "مادة" خاصة به ليس لها مصدر سواه[1]، وهكذا فدعوى الاقتباس باطلة، ويكون للقرآن في هذه الحالة سلطانه الخاص به في اســـتقاء الحقائق، وعرضها. فلا اقتباس لا من توراة ولا من إنجيل ولا من غيرهما.

---

(١) يقول د. موريس بوكاي: "القرآن فوق المستوى العلمي للعرب، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعلماء في العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمي المتقدم في عصر العلم والمعرفة في القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا عن أمي، وهذا يدل على ثبوت نبوة محمد، وأنه نبي يوحى إليه". وقد أسلم هذا الطبيب الفرنسي لاحقاً والحمد لله.

- ألا ترى أنك مبالغ كثيراً بثقتك في القرآن؟

- مطلقاً. وسوف أعرض عليك بعض صور التشابه بين التوراة والقرآن لأطبق عليها تلك الأسس المتقدمة، ثم أترك لك الحرية التامة في الحكم على ما سوف تسفر عنه المقارنة.

- هات ما عندك.

- فلنبدأ بآدم عليه السلام وعلاقته بخالقه؛ فهو أول نبي وأول مخلوق خلقه الله. وكون آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعاً يجعل الاهتمام به مضاعفاً. فلننظر كيف جاء ذكره في كل من التوراة والقرآن، ومعها نرى- إن شاء الله- الفارق بينهما، ونتيجة هذا الفارق.

- تفضل.

- جاء في الآية السابعة والعشرين من سفر التكوين في الإصحاح الأول: "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا"، وتلك هي أول وقفة لنا مع أول ذكر للإنسان في التوراة؛ فمن سياق الآية نجد أن الله خلق الإنسان كشبهه!!! دلالة هذا الكلام أن الإنسان (آدم) لو نظر إلى صورته عرف صورة الله. فأين التمييز بين المخلوق والخالق؟؟؟ بل من أين تأتي الخشية من الخالق إن كان المخلوق على صورة الخالق؟؟ ثم أضف إلى هذا ما هو أشد خطورة، إذ إن للإنسان أعضاء يخجل من ذكر اسمها، فهل نتخيل وجودها في الله؟ حاشاه سبحانه. والآن كيف النظرة الإسلامية بخصوص هذه النقطة؟ إن أول قاعدة في ذلك هي أن الله سبحانه وتعالى قال عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، فالإنسان مخلوق مثل آلاف الملايين من المخلوقات الأخرى. ولا تبدو أهميته عن غيره إلا بحمله للرسالة، وبمقدار طاعته لله. في الآية نفسها في سفر التكوين: "فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض"، وتلك نقطة تتفق مع العقيدة

الإســـلامية؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠]. وفي الآية العشـــرين من الإصحاح الثالث بنفس السفر: " فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية". إذن آدم في التوراة التي بين أيدينا قد ســـمى البهائم والطيور جميعها بأسماء ابتدعها. ما معنى أن يســـمي أحدهم ذلك حماراً وذاك تيساً، هذا بِطريق وتلك عنقاء؟ خاصة أنها مجرد أســـماء، وهي ستتغير ملايين المرات حسب اللغات واللهجات التي سيتحدث بها أبناؤه؟ والقرآن كان أشـــمل وأقرب للمنطق فيقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْـمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١]، ليس أسماء الطيور والبهائم؛ وإنما علمه الأســـماء كلها. وهذا العلم تكريم لسيدنا آدم لم تخبر به التوراة التي قصرته على صورة لا تبدو الحكمة واضحة من ورائها.

- ولكن الرب لم يكرم آدم بالعلم، بل طرده من الجنة عندما أكل من شجرة المعرفة!

- هذا في التوراة الحالية، بل زاد النســـاخ أيضاً أن الله قد خاف -والعياذ بالله- من أن يأكل أيضاً من شـــجرة الخلود "فيصبح كواحد منا"!!! أما في القرآن فقد جاء العقاب والطرد علـــى عصيان كلام الله وكفى بذلك من معصية. كذلك فالقرآن يذكر توبة سيدنا آدم على الفور، على عكس التوراة التي لم تذكر له توبة على الإطلاق؛ يقول تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِـن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧]، والفاء للسرعة والتعقيب. ثم في الآية ٢٥ من نفس الإصحاح والسفر: "وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأتـــه وهما لا يخجلان" ثم لما فعلا المعصية، نقـــرأ في الآية ٧ من الإصحاح: "فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان.. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفســـهما مآزر" فما هي نظرة العقل والمنطق في هذا؟

- ألم يرد ذلك نفسه في القرآن؟

- كلا؛ لأن الأصل في القرآن الستر، أما الأصل في التوراة الحالية فهو العري. فيقول تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**الأعراف** : ٢٧]، فالفارق هنا كبير وجوهري جداً؛ فسيدنا آدم والسيدة حواء كانا أصلاً مستورين، ولكن الشيطان عراهما بالمعصية فسقطت ملابسهما من عليهما، ثم سارعا في البحث عن الستر الذي كان يسترهما: ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ [**الأعراف** : ٢٢]، والخصف هو الإلصاق أو الربط، وهذا أكثر منطقاً من "خياطة" أوراق الشجر!

- هات مثالاً آخر.

- نتابع مع قصة هابيل وقابيل ابني آدم بعد أن قدم كل منهما: "فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابين، وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقابين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك ؟ إن أحسنت أفلا رفع؟؟. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها، وأنت تسود عليها. وكلم قابين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقابين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخي؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك متى عملت الأرض؟؟ تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض فقال قابين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل أنك قد طردتني اليوم على وجه الأرض، ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني فقال له الرب: لذلك كل من قتل قابين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقابين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قابين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن" تكوين (٤ : ٦- ١٦). أما نصوص القرآن الأمين: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ**

قَرَبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣٢]. وكما ترى يتفق المصدران حول نقطتين اثنتين فقط، وهما مسألة القربان، وفي قتل أحد الأخوين للآخر.

- وهل ستتناول كل اختلاف على حدة وبالتفصيل؟!!!

قال أبراهام فزعاً، فأجاب رحمة الله الباكستاني ضاحكاً:

- كلا، ما دمت ملولاً هكذا[1]، ولكن تأمل معي أخطرها فحسب، وهو حديث ذلك القاتل الخاطئ مع الله حديث رجل لرجل، تعالى الله عما يصفون. بل تأمل معي فظاظته مع الذات الإلهية التي لو صدرت من إنسان لأبيه لعد عاقاً فظاً غليظاً بكل المقاييس، فكيف تصدر من "مربوب" خاطئ إلى "ربه" وخالقه؟! ولا غرابة في هذا؛ فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه بأن يرجع عن غضبه على بني إسرائيل، بل وهدده بالاستقالة من النبوة إذا هو لم يستجب لأمره!!! ثم تأمل في سؤال الرب له ومحاولة قابيل لخداع الرب كأنه لا يعرف، وتأمل طرده واختفاءه من وجه الله، وأين يختفي من الله؟ وهل هذا عقاب أول جريمة قتل في البشرية؟!!! ثم ما معنى خوفه من الناس (أي ناس في ذلك الزمان؟)، ولماذا يعاقب من يقتص من القاتل عقاباً مضاعفاً سبع مرات،

---

(١) ولمن يريد الاستزادة فقد أتيت بهذا المقال من شبكة بن مريم الإسلامية - عن المسيح الحق. وعنوان الرابط هو: http://www.ebnmaryam.com/web/modules.php?name=News&file=article&sid=62.

في حين ينجو القاتل نفســـه بفعلته وبأمر من الله نفســـه؟ وبعد ذلك تأمل الخطاب القرآني، فهل لعاقل بعد هذا أن يدعي اقتباس القرآن من التوراة؟! وهل تكون الصورة أفضل من الأصل لغة ومعنى؟!! لغة لبديع النص القرآني بعكس ركاكة النص التوراتي، ومعنى لسمو التعبير القرآني الذي لم تتدخل بصياغته أو التعديل عليه أي أياد بشرية. فالحمد لله على نعمة الإسلام.

- وماذا أيضاً.

- ما رأيك بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؟

- ولكنها طويلة.

- إنـــك أنت من طلبـــت الرد على أن تلك القصص تكرير لا لزوم له وغير دقيق لما ورد فـــي التوراة! وعلى كل الأحوال فلنكتفِ بلقطة واحدة تبدأ من مراودة امرأة عزيز مصر ليوسف عليه السلام ليفعل بها الفحشاء، وتنتهي بقرار وضع يوسف في السجن.

- أظـــن ذلك كافياً، ولكن لا داعي لقراءة النصـــوص كاملة، بل ادخل في المقارنة رأساً.

- كما تريد. إن التوراة تخلو من الإشارة إلى تغليق الأبواب، وتقول إن يوسف ترك ثوبـــه بجانبها، وهرب وانتظرت هي قـــدوم زوجها وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهل بيتها. ولم يكن يوسف موجوداً حين دخل العزيز، ولم يدافع يوسف عن نفسه. كما تخلو من حديث الشـــاهد، وتقول إن العزيز حمي غضبه على يوســـف بعد سماع المرأة، وأمر بوضع يوسف في السجن، ولم يتشاور في أمره مع أحد. كما تخلو التوراة من حديث النســـوة اللاتي لُمْنَ امرأة العزيز على مراودتها فتاها عن نفسه. أما القرآن فيشير إلى تغليق الأبواب وأن يوسف هرب منها، فَقَدَّتْ ثوبه من الخلف، وحين وصلا إلى الباب، فوجئا بالعزيز يدخل عليهما، فبادرت المرأة بالشـــكوى في الحال. ويوسف كان موجوداً حينها ودافع عن نفســـه قائلاً: ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِـــي** ﴾ [**يوســـف** : ٢٦]،

ويذكر حكم الشـــاهد بناء على الجهة التي قُدَّ ثوب يوســـف منها من قُبُلٍ أو من دُبُر. كما يذكر اقتناع العزيز بذلك الدليل، ولومه لامرأته وتذكيرها بخطئها، وتثبيت يوسف على العفة والطهارة. ويذكر حديث النســـوة بالتفصيل، كما يذكر موقف امرأة العزيز منهن، ودعوتها إياهن ملتمســـة أعذارها لديهن، ومستمرة في كيدها ومصرة على أن ينفذ رغبتها، وبعد مداولة بين العزيز وحاشـــيته في هذه المستجدات يرون أن الأسلم سجن يوسف حتى حين.

- يبـــدو أن الكتابـــين لم يتفقا إلا في "أصل" الواقعة مـــن حيث هي واقعة وكفى، ويختلفان بعد هذا في كل شيء تقريباً.

- أجل، فالتوراة والقرآن متفقان على "عفة يوســـف" وإعراضه عن الفحشـــاء، ثم اختلفـــا بعد ذلك؛ فالتوراة تقول: إن يوســـف ترك ثوبه كله لدى المرأة وهرب، والقرآن يقول: إنه لم يترك الثوب بل أمســـكته المرأة من الخلف، ولما لم يتوقف يوســـف عليه الســـلام اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة في ثوبه. فأي الروايتين أليق بعفة يوســـف المتفق عليها بين المصدرين؟

- الموضوع ليس موضوع لباقة.

- تأمل معي يا صديقي، فإذا سلمنا برواية التوراة فإن يوسف يكون فيها قد خرج "عرياناً" وترك ثوبه لدى غريمته؟! ومن ثم يمكن أن يشـــك بعفته فعلاً، لأن الرجل لا يخلع ثوبه هكذا سليماً.

- ربما أخلعته ثوبه.

- التوراة لم تقل ذلك. ولكن لو ســـلمنا بهذا الافتـــراض فكيف تتغلب عليه امرأة وتخلع عنه ثوبه بكل ســـهولة إن لم تكن لديه رغبـــة؟ والخلاصة أن رواية التوراة فيها شبهة إدانة ليوسف، وهذا يتنافى مع العفة التي وافقت فيها القرآن المجيد. أما رواية القرآن فهي إدانة صريحة لامرأة العزيز، وبراءة كاملة ليوسف عليه السلام، ولهذا قلت

إن قصة القرآن في هذا الموضع وغيره من المواضع صححت القصة الواردة في التوراة الحاليـــة، ولم تقتبس منها وتزد عليها كما يدعـــي البعض. بل اعترف بعض المفكرين الغربيين أنفسهم ببطلان هذه الشبهة، مثل الكونت الفرنسي "هنري دي كاستري" فقد قال: "ولقد يســـتحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد من مطالعة التوراة والإنجيل".

- لمـــاذا تفترض دائماً أن الخطأ هو ما في التوراة، وأن الصواب هو ما في القرآن ؟! أليس ذلك تحيزاً منك للقرآن لأنك مسلم؟ لم لا تفترض العكس؟

- لم أتحيز للقرآن لأنني مســـلم ولأنه كتابي كمـــا تدعي، بل لأنه لم يرد في ذلك الكتاب قط ما هو خلاف الحق، وقد ثبتت هذه الحقيقة في كل مجالات البحوث التي أجريـــت على آيات القرآن العظيم في كل العصور. فالتوراة مثلاً قد أشـــارت إلى أن هذه القصة حدثت في عهد فرعون، أما القرآن فقد أشـــار إلى أن ذلك كان في عهد ملك، وقد ثبت تاريخياً أن دخول يوســـف ووجـــوده بمصر كان في عهد الملوك الرعاة "الهكســـوس"[1]، فهل القرآن مقتبس من التوراة فعلاً؟ أم هو ذو سلطان خاص به فيما يقول ويقرر؟

- لنسلم جدلاً بما تقوله، وأن القرآن أنزل من عند الله، ولن نستغرب أوجه الشبه بينه وبين التوراة والإنجيل بسبب وحدانية المصدر، ولن نستغرب الاختلاف بالتفاصيل بسبب التصحيح، ولكن هل لك أن تشرح لي أسباب وجود الخرافات والأساطير الوثنية كعاد وثمود في القرآن؟ وكيف دخلت هذه على "اللوح المحفوظ"؟

- هي ليست كذلك عندي، ولا يحق لك اعتبارها خرافات وأساطير متعللاً فقط بأنـــك لم تجدها في كتبك المعتمدة!!! خاصة أنـــك تعرف الرد على ذلك! ثم عندما

---

(١) أي في الفترة بين (١٧٣٠ إلى ١٥٨٠) قبل الميلاد. وهذا أحد ما تنبه إليه العالم الفرنسي موريس بوكاى في كتابه: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم صفحة ٢٦٤ من الترجمة العربية للكتاب.

يذكر مثلاً سيدنا نوح في القرآن فلماذا تقولون هذا اقتباس من التوراة! وحين لا يذكر عندكم سيدنا صالح عليه السلام تقولون هذا لا سند له عندنا فهو من الأساطير والخرافات؟ ألم يرد في الآية الثلاثين من الإصحاح العشرين في إنجيل يوحنا: "وآيات أخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة"، فها هو ذا الإنجيل لم يستطع أن يحصر كل معجزات المسيح وحده، فهل يجمع كل ما جاء على وجه الأرض منذ خلق آدم عليه السلام؟؟؟؟ وكمثال ثانٍ؛ يهوذا ١:٩: "وأما ميخائيل رئيس الملائكة فلما خاصم إبليس محاجاً عن جسد موسى لم يجسر أن يورد حكم افتراء بل قال لينتهرك الرب"، وهذه المخاصمة الواردة في العهد الجديد لا توجد على الإطلاق في أي سفر من أسفار العهد القديم. فهل تطبق القاعدة نفسها عليها؟؟؟ وكذلك أرد من الناحية العلمية التطبيقية أن آثار مدن صالح موجودة بجانب المدينة المنورة، وتسمى مدائن صالح، فهل أنكر ما رأته عيناي؟!

- وماذا عن تضمن القرآن لبعض القصص والتشريعات التي لم تذكر في الكتاب، ولكن ورد كثير منها في أسفاره الخفية كالأناجيل المفقودة وكتب الشريعة الشفوية وكتب دراسة التوراة كالتلمود والمدراش والترجوم؟!!!

- ماذا تعني؟

- أنا أعرف أنه ليس بمقدور فرد، مهما كان، أن يكتب وحده كتاباً بهذا الإعجاز وله ما يؤيده في أسفار الكتاب المعتمدة والمخفية، ولكن أليس من الممكن أن القرآن ليس من عند الله؟ أليس ممكناً أن قوماً من أهل الكتاب قد أعطوا لمحمد بعض الكتب المخفية، وأعانوه على تفسيرها وإعادة صياغتها؟

ابتسم رحمة الله قائلاً:

- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان : ٤]. يا بني إن الحديث عن فرضية افتراء محمد عليه أفضل الصلاة والسلام للقرآن استقاءً من تلك الأسفار، يوجب عليه أن يقوم بالخطوات المستحيلة التالية؛

أولاً: تعلمه القراءة سراً، ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨]، وهذا مستحيل في بيئة مغلقة غير علمية أو حضارية كمكة في ذلك الزمان، فلم يتهمه بهذا أحد من معاصريه.

ثانياً: تعلم جميع لغات أهل الكتاب القديمة على كثرتها سراً، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣].

ثالثاً: لم يَدَعْ صحيفة من صحف أهل الكتاب إلا وقرأها سراً، مع أن فرصة الاطلاع عليها كاملة لم تتوافر حتى لأحبارٍ ورهبانٍ في ذلك الزمان، فعدد هذه الكتب كان كبيراً جداً، أما عدد النسخ من الكتاب الواحد فكان قليلاً، لأن النسخ كان يدوياً، هذا غير حرق كثير منها على أيدي الأحبار والأباطرة. ومثل هذه الكتب لم تصبح معروفة لدينا إلا بعد ذلك بزمن طويل جداً. كذلك لم تكتشف في مكان واحد ولا تتبع طائفة واحدة. كما أن حجم الكتاب في الماضي كان كبيراً وعلى هيئة قراطيس فيستحيل تداولها سراً. وكما علمت سابقاً فإن العديد من تلك الكتب أخفيت عمداً، وبشكل لم تكن لتكتشف به في ذلك العصر قط[1].

رابعاً: استبعد ﷺ التفاصيل غير المنطقية من هذه الكتب، بل وصححها كما ذكرنا سابقاً، ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩]. صدق الله العظيم.

خامســـاً: فصل ﷺ بين الكتب المختلفة حول القضيـــة الواحدة بما لا يتعارض مع العلم والمنطق والمكتشفات التي ستظهر بعده بقرون!!!

سادســـاً: جمع ﷺ من هذا الكتاب ما يســـتقيم مع ذلـــك، ثم عرض كل قصة في موضوع محدد ولغرض معين وفي موضع مناســـب، ثم عرض كل ذلك في صورة بيانية معجزة بعد إضافة تفاصيل لم تكتشف كتبها حتى الآن.

ســـابعاً: أضاف ﷺ إلـــى القرآن تنبؤاته بالغيب؛ كانتصار الروم في بضع ســـنين، وضَمِن تحققها في وقت كانت هي أبعد ما تكون عن التحقق.

ثامناً: أضاف ﷺ إلى القرآن أنواع الإعجاز العلمي والتشريعي والتاريخي والبلاغي والعددي.

تاســـعاً: علم ﷺ صفات النبي المنتظر وألقابه فخطها في القرآن لنفسه، ثم تحكم في مسار حياته حتى تطابق مع ذلك النبي المنتظر.

فقاطعه أبراهام قائلاً:

- يكفي، فهذا فرض يترتب عليه المحال فعلاً.

من صور الهيمنة

راح رحمة الله يشرح لأبراهام ماهية القرآن الذي يتهمه بأنه مقتبس من الأسفار، موضحاً أنه يشتمل على ٦٢٣٦ آية تتناول التشريع في مختلف جوانب الحياة الإنسانية، إلا أنـــه يتضمن كذلك ١٢٠٠ آية ذات صبغة علميـــة ترتبط بمختلف مجالات العلوم، مثل علم الكونيات وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم الأحياء وعلم الأجنة وعلم الوراثـــة... إلى آخره، وليس في هذه الآيات ما يتعارض مع أي حقيقة علمية ثابتة، بل إن منها ما يعد إعجازاً علمياً لم يتوصل إليه الإنسان إلا مؤخراً.

وأخـــذ يضرب المثال تلو المثال على ذلـــك[1]، ثم مر على بعض صور إعجاز القرآن الأخـــرى كالإعجاز البلاغـــي والغيبي، وكذا العددي مثل تكـــرر كلمتي الدنيا والآخرة بشـــكل متوازن (١١٥ مرة لكل واحدة)، وأن الأمر ليس مجرد مصادفة فهو يتكرر مع أغلـــب المتقابلات المهمة مثل كلمتي ملاك وشـــيطان (٨٨ مرة لـــكل واحدة)، والحياة والمـــوت (١٤٥ مرة لـــكل طرف)، والرجل والمرأة (٢٤ لكل منهما)...إلخ، وشـــرح كيف ذكرت الصلاة (بأوقاتها الخمســـة) في القرآن الكريم ٥ مرات. واليوم ٣٦٥ مرة (عدد

---

(١) لقد تطرقت في هذه الرحلة إلى بعض صور إعجاز القرآن الكريم بما تقتضيه الحاجة، لذا لم أر داعياً لمزيد من الإطالة، ولكن من أراد الاستزادة فيستطيع أن يعود إلى كتب كثيرة قيمة مثل: بحوث المؤتمر العالمي (من الأول وحتى الثامن) للإعجاز في القرآن والسنة (مجموعة كبيرة من العلماء)، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة للأستاذ يوسف الحاج أحمد، والموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني للدكتور سمير عبد الحليم، إعجازات حديثة علمية ورقمية للدكتور رفيق أبو السعود، والإعجاز العلمي في القرآن للدكتور السيد الجميلي، والإعجاز العلمي في القرآن للدكتور زغلول النجار، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، والإعجاز البياني للقرآن، ومسائل ابن الأزرق للدكتورة عائشة عبد الرحمن، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني وكثير غيرها.

أيام السنة)، والشهر ١٢ مرة (عدد أشهر السنة)، والسنة ١٩ مرة (عدد السنوات التي تستغرقها الدورة الفلكية الكاملة لعودة الشمس والأرض والقمر إلى نفس إحداثياتها السابقة). وأن عدد آيات الرحمة يساوي عدد آيات العذاب، وعدد آيات الجنة يساوي عدد آيات النار. كما حدثه عن علاقة ذكر البحر باليابسة؛ فقد جاء ذكر الأرض ١٣ مرة في حين ذكر البحر ٣٢ مرة، وكيف أنه بجمع الاثنين يكون الرقم ٤٥، وبقسمة العدد المذكور للأرض أي ١٣ على ٤٥ يكون الحاصل ٢٨.٨٨ ٪ أما البحر فيكون ٧١.١١ ٪، وكيف أن هذه هي النسبة الفعلية لتوزيع المياه واليابسة على ظهر الأرض حسب المعلومات الجغرافية التي لم تكن معلومة يوم نزل القرآن. إلى أن انتهى أخيراً إلى نتيجة مفادها أن القرآن الكريم ليس فقط غير مقتبس من بقية أسفار الكتاب، بل مهيمن عليها أيضاً. هنا وجد أبراهام منفذاً للاعتراض بعد مدة طويلة من الانبهار لم يجرؤ فيها على فتح فمه، فقاطعه قائلاً:

- لماذا تكرر كلمة الهيمنة دائماً؟!!! فقد تكون محقاً في تلك الإعجازات التي تكلمت عليها قبل قليل، ولكن ذلك لا يعني الهيمنة التي تدعيها، خاصة أنك تقول إن القرآن وبقية أسفار الكتب من عند الله، فكيف يهيمن كتاب على آخر وكلاهما من المصدر نفسه كما تدعي؟!

- القرآن وكل الكتب السماوية أتت من المصدر نفسه، هذا صحيح، ولكن القرآن هو الوحيد من بينها الذي لم يكلف الله تعالى البشر فقط بالحفاظ عليه، بل تعهد هو بحفظه إلى يوم القيامة، ولذلك فالقرآن يصحح ويهيمن على "ما بين أيدينا من الكتاب"، وليس الكتاب كما أنزله الله تعالى، فهو وقتها لم يكن بحاجة إلى تصحيح ولا هيمنة، أما الآن بعد تدخُّل أيد بشرية بصياغته وترجمته، واستبعاد بعض نصوصه، وإضافة بعض الشرح في أصل متنه، فقد أصبح التصحيح والهيمنة واجبين من قبل الكتاب الأخير كمرجع ورقيب وحاكم عليها. ولأقرِّبَ إليك الأمر أكثر افترضْ -ولله

المثل الأعلى طبعاً- أن شركة مايكروسوفت أنزلت نظام تشغيل معيناً، ولكن الفيروسات غزتــه وغيرت من محتواه، وبعض الهكرز قلدوه، فأنزلت الشــركة نظاماً آخر، وآخر. وفي النهاية أنزلت النســخة النهائية من نظام التشغيل بحيث تكون محمية ضد العبث والتقليد بشــكل تام تماماً، ألا تكون تلك النســخة مصححة للنسخ الأخرى ومهيمنة عليها، بحيث أن أي تغير في النسخ القديمة يمكن اكتشافه بسهولة عن طريق مقابلته بالنسخة النهائية، التي وإن كانت أكثر النسخ حداثة، هي الأصل، لأن الشركة المصنعة تؤكد اســتحالة غزوها بأي فيروس، واســتحالة العبث بنظامها أو تقليدها ولو اجتمع أســاطين الهكرز من جميع أنحاء العالم ومعهم الجن والشــياطين؟ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] [بني إسرائيل:٨٨].

- أنا أود أن أعثر على الحقيقة أينما كانت، وأقســم أنني محايد بشــأن القرآن تماماً، على الأقل في هذه اللحظة، فأنا لا أستطيع أن أنفي بعد ذلك كله أنه قد يكون من عند الله فعلاً، ولكنني لا أستطيع أن أحتمل الادعاء بأنه يهيمن على التوراة وبقية أسفار الكتاب، وإن لم تكن تستطيع إثبات ذلك بالمنطق فالأفضل أن تنتهي.

- بل أستطيع. وليست الإعجازات التي ذكرتها هي الصورة الوحيدة لتلك الهيمنة؛ فهناك صور عديدة أخرى، إحداها الفصل بين الكتب المختلفة حول القضية الواحدة، وقــد تمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْــرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦].

- أعطني مثالاً واضحاً.

- موضوع صلب المسيح، والمخطوطات المكتشفة حديثاً التي تؤكد قول القرآن الذي جاء بعدها من أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب.

فقاطعه أبراهام مجدداً:

- لقد سمعت عن هذا. أعطني مثالاً آخر؟

- من أمثلة ذلك اختلافهم حول موضع رسو سفينة نوح، حيث تقول التوراة الحالية جبل "أراراط" (سفر التكوين ٨:٤)، وقد صحح القرآن ذلك وأقر أنه جبل "الجودي".

- هذا لا يدل أن القرآن أصدق من التوراة.

- في عام ١٨٢٩ تسلق "فريدريك باروت" أستاذ الفلسفة في جامعة دوربات جبل أراراط باحثاً عن السفينة، فاعتبر أول شخص في العصر الحديث يرعى هذه المهمة في محاولة إثبات زعم التوراة بطرائق علمية، لكنه لم يحقق ضالته، فزعم أن السفينة قد تكون مطمورة تحت طبقات الجليد في قمة الجبل. وتلاه المؤرخ "جيمس برايس" الأستاذ في جامعة أوكسفورد عام ١٨٧٦م، حيث وجد قطعة من الخشب في قمة الجبل، وكان مقتنعاً بأنها من بقايا السفينة مع أن العلم أثبت عكس ذلك. وفي الثمانينيات قام رائد الفضاء السابق "جيمس أيروين" بريادة جديدة لكنه لم يعثر على شيء. وبعد انتشار صور التقطتها الأقمار الاصطناعية لنتوء في قمة جبل أراراط عادت حمى البحث بتمويل المليونير "دانيال مك كيفرن" الذي دفع منحة قدرها ٩٠٠، ٠٠٠ دولار لأي فريق علمي يقوم بالبحث عن السفينة، إلا أن "مجلة الجغرافية الوطنية" الشهيرة استبعدت أن تكون الصورة الجديدة صورة حقيقية. وفي ٢٠٠٤ زعمت إحدى البعثات أنها اكتشفت السفينة، وقدمت المجموعة صوراً ومخططات عن بعثتها، إلا أن الأكاديميين أنكروا النتائج[1].

- ومن الذي أثبت أن القرآن هو المحق وليس التوراة؟

---

(١) يستحيل أن يبقى أثر أو حتى حفرية لسفينة أو غيرها عند جبل أرارات؛ لانفجار بركان هذا الجبل عام ١٨٤٠م وهو ما أثبتته بعثة علمية روسية، وأعلنته في نيسان/ أبريل ٢٠٠٥م في وكالة: "إنترفاكس" للأنباء، وهي بعثة مركز كوزموبويسك للأبحاث العلمية "Cosmopoisk scientific research center". ومما ذكرته هذه البعثة أن ما ظن أنه أخشاب متحجرة من السفينة لم يكن سوى نباتات متحجرة بفعل النشاط البركاني سالف الذكر.

- المكتشفات الحديثة ومصادر أخرى قديمة لا تخطر على بالك.

- فلنبدأ بالمكتشفات الحديثة أولاً.

- كما تريد[١]، ففي عام ١٩٤٨ تم اكتشـــاف جسم عملاق يشبه السفينة[٢] بواسطة راعي غنم كردي عند ســـفح جبل في جنوب تركيا، ويســـمى هذا الجبل بلغة الأكراد Cudi ويُنطـــق judi. وموقعه بالقرب من الحدود التركية مع ســـورية والعراق، وكان ســـبب ظهور الســـفينة التي كانت مختبئة لآلاف من السنين تحت الوحلة الطينية هو

---

(١) المعلومات التالية من كتاب (نوح عليه السلام بين أهل الكتاب وأهل الإسلام) تأليف م/ محمد محمود الغرباوي. وأنصح بقراءته، فبالإضافة إلى سوق المؤلف للصور والأدلة التي تثبت أن ما اكتشف في جبل الجودي هو سفينة نوح عليه السلام، فهو يفند أيضاً ادعاءات من قالوا أن السفينة قد هبطت أولاً على جبل الأراراط ثم انجرفت من على قمته مع تناقص المياه، فابتعدت عنه مسافة ٢٠٠ ميل!!! ويفند كذلك ادعاءات من قالوا إن مكان الاكتشاف "الجودي" هو ضمن منطقة الأراراط التاريخية التي كان يقصدها الكتاب المقدس عندما قال إن السفينة استقرت على جبال الأرارط، ومن ثم فإن القرآن والكتاب المقدس متفقان. كما يكشف ألاعيب من يطلقون على مكان اكتشاف السفينة اسم "الأراراط" تبادلياً مع الاسم الحقيقي "الجودي" في المقالات والأبحاث المختلفة وكأنهما جبلٌ واحدٌ (بعضهم استخدم صور الاكتشافات وكتب تحتها أنها صور للسفينة عند جبل الأراراط) ومن يقولون أن الجودي كان يسمى قديماً بالأراراط، وغيرهامن الألاعيب.

(٢) أخطأت التوراة الحالية في وصفها لشكل سفينة نوح؛ إذ نجد فيها الطول ستة أضعاف العرض! فهي إذاً مستطيلة جداً وهم يرسمونها كذلك، ويسمونها بالإنجليزية Noah's ark، أي "تابوت نوح"، والتابوت هو الصندوق أي مستطيل كذلك، ولو واجهت هذه السفينة أمواجاً عاتية لانفلقت؛ لأن المقدمة مستوية، هذا ما يجزم به علماء هندسة السفن و"الديناميكا المائية" hydrodynamics. وإذ إن القرآن هو المهيمن والمصحح لسابقيه زمناً من الكتب، فقد صحح هذا الخطأ بلطف شديد، إذ عبر القرآن الكريم عن وعاء نوح ثمان مرات بالفلك (الفَلْكة لغةً (كما في لسان العرب) هي المكان المستدير المرتفع من الأرض، والفَلَك هو المدار الواسع، والفُلك قياساً اصطلح للسفينة الكبيرة)، وفي مرة واحدة ذكر "السفينة".. ﴿**فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [**العنكبوت**: ١٥]، وذلك لإظهار جزئية شكل ذلك البناء الذي يمخر المياه والذي صنعه نوح، وهو أنه شكل السفن الحالية التي لها مقدمة شبه مدببة تقشر وجه الماء، فالسَّفْن هو القشر في المعاجم.. وصدّق شكل أثر السفينة على ما ذهب إليه القرآن الكريم وأنها ليست على هيئة صندوق كما تقول التوراة الحالية.

توالي الأمطار الثقيلة وبعض الهزات الأرضية على المنطقة[١].

ثم أراه رحمة الله صورة[٢] ملتقطة بالقمر الصناعي لمنطقة الاكتشاف محدداً عليها خط سير السفينة، وتبين مكان استقرار السفينة وموقع كل من جبل الجودي وجبل الأرارت حيث تفصل بينهما مسافة ٢٠٠ ميل. وأراه أيضاً صورة لإحدى المرساتين الحجريتين العملاقتين للسفينة، تم العثور عليهما في المنطقة، وعن طريقهما تم تعيين مسار السفينة، قائلاً:

- وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٣].

- وما المصادر التي لا تخطر على بالي؟

- الترجوم أونكيلوس (Targum Onkelos On Genesis) والمدراش Genesis

---

(١) من أهم ما اكتشف في موقع السفينة بالجودي وذكره فيلم "رون وايات" الوثائقي هي "المسامير" المعدنية rivets، وقد وجدت كبيرة الحجم وعلى هيئة المسمار "البرشام"، وبالطبع طرأ عليها تغيرات مع الزمن مع تداخل مادة "السيليكا" من محيط السفينة الرملي. وجدت ذلك بعثة الباحث الأمريكي "رون وايات" RON WYATT في أواخر سبعينيات القرن العشرين حين استخدم لأول مرة "كاشف معادن" l detector أشبه بكاشف الألغام في الموقع، ووجدوا دليلاً على ترسبات معدنية داخل الجدران، ثم عاود الكرَّة عام ١٩٨٤م وأخذ عينة من تلك الترسبات وحللها في معامل مختصة فتبين أنها خليط معدني من صنع الإنسان، ألا يذكرنا ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣]؟ والدسار هو "المسمار المعدني" كما تقول المعاجم اللغوية الكبيرة المعتمدة كلسان العرب وتاج العروس وغيرها. والحق أن هذه الجزئية لم يذكرها أي كتاب سوى القرآن الكريم، مع أن قصة نوح -كما أسلفنا- تذكر ليس فقط في التوراة والكثير من مخطوطات أهل الكتاب، بل والكثير من أدبيات الشعوب القديمة أيضاً.

(٢) معلومات اكتشاف السفينة ووصفها وصورة المرساة والخريطة المحدد عليها مكان الاكتشاف تجدونها في الموقع الإلكتروني للعالم David Allen Deal وهو: http://www.noahsark-naxuan.com

(٣) خلاف سابقيه من الكتب، تحدى القرآن الكريم بالإبقاء على سفينة نوح، وأن ذلك يعد آيةً من آيات الله، فقد قال تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥]. وسياق الآيات لا يحمل لبساً أن الضمير في: "تَرَكْنَاهَا" يعود إلى السفينة؛ فهي ذات الألواح والدسر، وهي التي جرت بأعين الله ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾. أغلب التفاسير فسرت الضمير في كلمة: "تَرَكْنَاهَا" المذكورة في الفقرة القرآنية السابقة على أنه يعود إلى السفينة.

rabba ذكرا أن السفينة رست على جبل "الجودي" أو " كاردو"[١].

- هذا صحيح. فقد قرأت ذلك فعلاً، ولكن هل هذا معناه أنكم تعتبرون كتب دراسة التوراة وتفسيرها أصح من التوراة؟

- كلا بالطبع، ولكننا نؤمن أن كثيراً مما أخفي أو حُرِّف في كتاب الله قد وجد طريقه إليها.

- كنت أتمنى أن تجيب بذلك حتى يكون حديثك منطقياً فعلاً كما آمل، فهذا ما توصلت إليه بالفعل[٢]، ولكن إذا كان القرآن دقيقاً إلى هذه الدرجة، فكيف تفسر قوله أن هامان هو وزير فرعون (القصص ٢٨ : ٦ و٨) الذي أمره ببناء صرح له، مع أنّ هامان كان في بابل، وجاء بعد فرعون بنحو ألف سنة. والأغرب أن بعض فقهائكم يعترف بذلك؟ (الرازي في تفسير غافر ٤٠ : ٣٦ و٣٧).

- هامان مذكور في القرآن في ستة أماكن مختلفة كأحد المقربين إلى فرعون، أما التوراة فتذكر لنا أن هامان لم يُذكر في حياة موسى عليه السلام على الإطلاق، بل كان وزيراً وخليلاً لـ"أحشوريش" ملك الفرس الذي يدعوه اليونان "زركيس". وكثير من الذين يريدون أن يطعنوا في القرآن ويدّعوا وجود أخطاء تاريخية قد استغلوا ذلك أبشع استغلال... إلى أن فكت طلاسم الأبجدية الهيروغليفية المصرية قبل ٢٠٠ سنة تقريباً[٣]، وخلال ترجمة نقش من النقوش المصرية القديمة تم الكشف عن اسم (هامان)، وهذا الاسم أشير إليه في لوح أثري في متحف "هوف" في فينا وفي

---

(١) وقد شايعهم في ذلك البابليون والمؤرخ اليهودي يوسيفوس في كتاب "العاديات اليهودية". من المعروف أن اليونانيين والرومان يسمون الكرد "كاردوك" أو "كاردوكي" كما سماهم السومريون جودي.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع رواية الهروب إلى العاصفة، وأيضاً: رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٣) لغز الهيروغليفية تم حله سنة ١٧٩٩ باكتشاف حجر رشيد الذي يعود إلى ١٩٦ قبل الميلاد. وتعود أهمية هذا الحجر إلى أنه كتب بثلاث لغات: اللغة الهيروغليفية والديموقيطية واليونانية، وبمساعدة اليونانية تم فك لغز الهيروغليفية من قبل "شامبليون"، وبعدها تم معرفة الكثير حول تاريخ الفراعنة.

مجموعة من النقوش كشـــفت لنا أن هامان كان في زمن وجود موسى في مصر، وقد رُقي إلى أن أصبح مديراً لمشاريع الملك الأثرية. وها هي ذي النقوش تكشف لنا حقيقة هامان على عكس ما ذكرته التوراة ورداً على الزعم الخاطئ لمعارضي القرآن.

- غريب!!!

قال أبراهام بدهشة، ثم أردف ساهماً:

- هل تعرف أن اســـم والد إبراهيم في تاريخ يوســـيفوس[١] كان "آثر"؟ وهو قريب جـــداً من آزر كما هو مكتوب عندكم، وبعيد جداً عن "تارح" كما هو مكتوب في التوراة الحالية.

- كلا؛ لم أكن أعرف هذا! وأشكرك من كل قلبي على هذه المعلومة الرائعة. وعلى كل الأحـــوال فأغلبية المصادر خارج تأثير الأســـفار المعتمدة هي أقـــرب إلى الرواية الإســـلامية منها إلى الروايات التوراتية والإنجيلية الحالية. وأحد الأمثلة الجيدة على ذلك "بردية أيبـــور" (The Papyrus Ipuwer أو Admonitions of Ipuwer) المكتشـــفة في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي[٢] في منطقة منفيس قرب أهرامات ســـقارة، وهي تتألف من١٧ صفحة مكتوبة باللغـــة الهيروغلوفية القديمة، وتعود إلى

---

(١) يوسيفوس هو مؤرخ يهودي شهير من القرن الأول الميلادي، وقد قال في شأنه موقع truth.net٤ لإرسالية أمريكا الشمالية (المعمدانية) SBC، North American Mission Board ما يلي: "يشكل يوسيفوس أوسع وأشمل مصدر رئيسي عن التاريخ اليهودي محفوظ لغاية اليوم من العصور القديمة. وقد بقي هذا العمل سليماً إلى حد كبير على ضخامته (ما يعادل ١٢ مجلداً). وقد استطاع يوسيفوس بسبب الإشراف الإمبراطوري من قبل أباطرة روما الفلافيين (فاسباسيان، تيطس، ودوميتيان) أن يشير إلى تفاصيل دقيقة في سجلاته، وهو امتياز لم يتوافر لكتبة الأناجيل" (!!!) مع أنهم يدعون أن الروح القدس (الله بزعمهم) هو من أشرف على كتبة الأناجيل، مما يفيد بتصريحهم الضمني أن إشراف الأباطرة يمتاز على إشراف الروح القدس بالدقة!!!

(٢) وذلك استناداً إلى أول مالك لها هو جورجيوس، ولا يعرف بدقة تاريخ العثور عليها ولكن المتحف الوطني في ليدن-هولندا (the Museum of Leiden or Rijksmuseum van Oudheden) اشترى البردية في عام ١٨٢٨م.

عصـــور الفراعنة[١]، وقد تم ترجمتها في عـــام ١٩٠٨م، وتفاصيل قصة المصائب التي حلت بمصر وفرعونها فيها، تتفق مع ما ذكره القرآن بالنســـبة إلى القحط (الســـنين) وقلة الثمرات والجراد والقمل والضفـــادع والطوفان والدم[٢]، ولكن ليس فيها أي أثر لما زاد على ذلك في سفر الخروج[٣]، مما يوحي أنها أضيفت في عصور لاحقة بهدف المبالغة والتشويق، والله أعلم.

- لقد اطلعت في الإنترنت[٤] فعلاً على ترجمة لتلك البردية، كما اطلعت على بعض تلك المصـــادر التي تقصدها، ولكن ما المانع من أن يكون محمد قد اطلع عليها أيضاً، واستعان بها في كتابة القرآن؟!!

- هل تلمح إلى أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كان مطلعاً على المستقبل، وتجول عبر الإنترنت أيضـــاً؟! أم ربما تقترح أنه قد قام بعمليات الحفر والتنقيب في مختلف أرجاء العالم دون أن يشعر به أحد، ثم ترجم البرديات والمخطوطات التاريخية التي توصل إليها، ثم أعادها جميعاً إلى باطن الأرض، وأعماق الكهوف بســـرية تامة، كـــي تظل المعلومات الـــواردة فيها خافية عن الآخرين في عصـــره؟!! وهل معنى ذلك أن البشـــرية قد انتظرت أكثر من اثني عشـــر قرناً حتى وصلـــت علومها في البحث والتنقيب وفك شـــيفرات الأبجديات المندثرة إلى مســـتوى مقارب لعلم الرسول عليه الصلاة والسلام، وبدأت عند ذلك بإعادة اكتشاف بعض ما أخفاه؟!!!

---

(١) بعض العلماء قدر أنها تعود إلى المملكة الوسطى، ولكن لا يوجد أي دليل يقيني يحدد متى كتبت وإلى أي أسرة فرعونية تعود، وتم تصنيفها في المتحف تحت رقم(٣٤٤).

(٢) (سورة الأعراف: ١٣، ١٣٢، ١٣٦)

(٣) جاءت الضربات في الكتاب المقدس كالآتي: الدم، الضفادع، تحويل تراب الأرض بعوضاً(!)، الذباب، موت المواشي، غبار يخرج القروح والبثور في الناس والبهائم كلها، البرد والنار بين البرد(!)، الجراد، ظلام كثيف على أرض مصر تلمسه اليد(!)، موت كل بكر في أرض مصر من البشر والبهائم. الخروج الإصحاحات ٧-١١.

(٤) يمكن مراجعتها في منتديات الديار العربية < المنتديات العامة < القسم الإسلامي< موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الصفحة ٢ من ٩٠

http://www.topforums.net/showthread.php?t=94668&page=2

قال رحمة الله باسماً، فظهر الحرج على وجه أبراهام، وأطرق رأسه قائلاً:

- حسناً، وما الصور الأخرى لتلك الهيمنة؟

- إظهار المخفي من تلك الكتب مثلاً، وقد تمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ [**المائدة**: ١٥]، من أمثلة ذلك ما ذكرته "رسالة جيمس" المكتشفة ضمن مخطوطات نجع حمادي من تشبيه لمملكة السماء (وهي المملكة الإلهية؛ أي دولة نبي آخر الزمان أي النبي المنتظر وأتباعه) بنخلة خرج منها شطؤها، ويتطابق هذا التشبيه مع قوله تعالى عن محمد رسول الله والذين معه: ﴿ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ** ﴾ [**الفتح**: ٢٩].

- وماذا أيضاً؟

- هل قرأت قصة إبراهيم عليه السلام في مخطوطات قمران؟

- أجل.

- إذن أنت تذكر أنها روت أن الملك المصري خطف سارة زوجة إبراهيم عليه السلام، ثم اضطر إلى إعادتها بعد الكوارث والكرب التي حلت عليه، ولا يوجد بها ذكر لادعائه عليه السلام أن زوجته هي أخته كي ينجو من القتل على يد الملك الذي رغب فيها كما أضيف إلى التوراة الحالية. كما نرى أيضاً أن سفر صموئيل من قمران يختلف كثيراً مع النص الماسوري المعتمد، وأغلبه يماثل النص السبعيني والباقي يختلف عن كليهما لكنه يتفق مع النص السامري[1]!!! ومن أمثلة اختلاف كتب هذه الجماعة مع كتب اليهود هو تحريم الزواج من ابنة الأخ أو الأخت كما في القرآن، في حين يحلله اليهود لعدم وجود (والأدق لفقدان) نص يحرمه.

- هذا صحيح أيضاً.

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

- ليس هذا فقط؛ فإنجيل يعقوب المعروف بإنجيل الطفولة يذكر كلام المسيح عليه السلام في المهد، وإنجيل توما يذكر أن عيسى عليه السلام قد صنع من الطين هيئة اثني عشر عصفوراً، ثم أمرهم أن يطيروا، فطاروا والناس ينظرون إليهم. كما ورد في إنجيله أيضاً ذكر معجزة النخلة التي هزت جزعها مريم عليها السلام. وقد أتى ذلك كله في القرآن، فمن أين عرف القرآن بذلك لو لم يكن من عند الله تعالى، خاصة أن تلك الأناجيل كانت لا تزال مفقودة عند نزوله؟!!! أرأيت، فحتى المكتشفات الأثرية التي ظلت مختفية من قبل ميلاد المسيح إلى عصر قريب، بل وكتب التاريخ التي استشهدت أنت نفسك بها، والتي لا علاقة لها بالإسلام وكتبت قبل القرآن بقرون طويلة انحازت أيضاً إلى جانبه. وهذا ما كنت أعنيه بهيمنة القرآن على بقية الأسفار التي بين أيدينا.

- أجل. هل هناك صور أخرى للهيمنة؟

- بالطبع، إن تصويب الأخطاء في كتب السابقين هي أيضاً صورة من صور هيمنة القرآن الكريم، فلم يكتف القرآن الكريم بعدم ذكر تلك الأخطاء، بل صححها كذلك. وقد تمثل ذلك في قوله تعالى (بعد ذكر بعض قصص أهل الكتاب): ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ** ﴾ [**الكهف** : ١٣].. ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ** ﴾ [**مريم** : ٣٤].. ﴿ **نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ** ﴾ [**القصص** : ٣].

- وهل الحق أن يقول القرآن أن الله قد أنزل مائدة من السماء على يسوع والتلاميذ، وسمى سورة كبيرة باسم "المائدة"، مع أن المائدة كانت أرضية وليست من السماء، وكانت تحوي خبزاً ونبيذاً فقط!!!

- إن من يقول ذلك هو غير دارس للإنجيل وغير دارس للتوراة؛ وذلك لأن في إنجيل يوحنا أن الحواريين طلبوا آية من السماء "فقالوا له: فأية آية تصنع ؛ لنرى ونؤمن بك؟ ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية. كما هو مكتوب: أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا" (يو ٦: ٣٠-٣١) لقد طلبوا مائدة من السماء ؛ لأنهم قالوا: "آباؤنا

أكلوا المن في البرية" بعد قولهم: "فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟" واستدلوا على أكل آبائهم للمن بقولهم:" مكتوب في التوراة أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا"، وهذا يدل على أن آباءهم أكلوا المن والسلوى في سيناء. والنص هو: "وأمطر عليهم منّاً للأكل وبرّ السماء أعطاهم" (مزمور ٧٨: ٢٤).

- أنت تخلط الأمور، فتلك لم تكن مائدة.

- ألم يسمها داوود عليه السلام كذلك في قوله عنهم: "قالوا: هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية؟" (مز ٧٨: ١٩).

- فعلاً. وماذا كان في هذه المائدة غير الخبز والنبيذ.

- وهل تظن أن الله ينزل خمراً؟ لقد كان بها -والله أعلم- خبز وسمكة عظيمة كما جاء في كتب التفاسير لابن كثير وغيره.

سرح أبراهام في شعار السمكة التي يلصقه المسيحيون على سياراتهم[1]، وقال متنهداً:

- حسناً، وماذا أيضاً.

- تقول التوراة: "أن كل من أهلك نفساً من إسرائيل فالكتاب يحسبه كأنه أهلك العالم جميعاً. وكل من أحيا نفساً فالكتاب يحسبه كأنه أحيا العالم جميعاً" (التكوين:١٠:٤). وقد جاء القرآن ليصحح هذا الخبر الذي خصه بنو إسرائيل بأنفسهم مستبيحين دم الأغيار فقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

- اضرب أمثلة منطقية، فطبيعي أن يقول محمد ذلك مادام هو ومن اتبعوه ليسوا من بني إسرائيل.

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

- لم يقل ذلك محمد عليه الصلاة والسلام بل الله سبحانه وتعالى، ربه ورب بني إسرائيل. على أية حال فهناك أمثلة أخرى لا أظن أنك قد تجد عليها مأخذاً، مثل وصف حاكم مصر بالملك وليس بالفرعون زمن يوسف عليه السلام كما بينا سابقاً. وقد علمنا أنه في ذلك الزمن كانت مصر محتلة من قبل الهكسوس ذوي الأصل الكنعاني، وهذا يضفي مزيداً من المنطق على وصول يوسف إلى ذلك المنصب المهم وتمكينه في الأرض التي يسيطر عليها ملوك من قومه، واستدعائه لعائلته الكبيرة، التي وجدت مرتعاً خصباً في مصر باعتبارهم أقرباء يوسف ومن نفس قوم الطبقة الحاكمة. كما يفسر ذلك اضطهاد أحفادهم على يد الفراعنة بعد أن استرجعوا مصر وساموهم سوء العذاب.

- هذا منطقي فعلاً.

- وبالنسبة إلى شريعة الشك بارتكاب الزنا، حيث تجبر الزوجة المتهمة على شرب ماء مخلوط بغبار الأرض، فإن لم تكن بريئة تسبب هذا الماء في سقوط فخذها وتورم بطنها حسب زعم التوراة الحالية؛ فقد صوب القرآن الكريم ذلك واستبدل به الملاعنة المنطقية المذكورة في سورة النور. كما أن الكتاب يبيح تعدد الزوجات، وهو مضبوط في التلمود البابلي بأربعة كحد أقصى.

- أعرف هذا.

- هذا جيد. ومن أمثلة ذلك، تصحيح الأخطاء في تصورات بني إسرائيل حول الألوهية والملائكة والنبوة. فمن جهة الألوهية، لا نقرأ في القرآن الكريم كما في التوراة الحالية أن الله، تعالى عن ذلك، يحزن (تكوين ٦: ٥-٧)، أو يتعب (تكوين ٢: ٢-٤)، أو ينام ويعيط من الخمر (المزامير ٧٨: ٦٥)، أو يندم على الشر الذي قال سيفعله!!!!! (الخروج ٣٢: ٩ - ١٤)، أو يصارع نبيه يعقوب الذي يقدر عليه والعياذ بالله، مع أن التوراة تقول إن يعقوب كان ناعماً، ولم يقدر على أخيه عيسو وهرب منه!!!(القصة موجودة في سفر التكوين ٢٧: ١- ٤٥)، وليس هذا فحسب، بل يرجوه الله أن يتركه،

ثم يباركه ويسميه بإسرائيل مكافأة له لأنه تركه يذهب قبل أن يطلع الفجر!!!(تكوين ٣٢: ٢٥-٣٠)، ويقولون إن معنى هذا الاسم في اللسان السامي القديم هو غلب الله[1]، تعالى الله عن وصفهم علواً كبيراً. بل نقرأ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

- أوافقك في ذلك، ولكن هناك من يفسر ذلك بالرمزية، وأن يعقوب تصارع في واقع الأمر مع ملاك مرسل من الله وليس مع الله نفسه.

- هذا تلاعب بالتلاعب. فبعد هذا المقطع مباشرة جاء في التوراة الحالية: "وسمى يعقوب ذلك المكان فنوئيل (يترجمونها بـ"وجه الله") وقال: لأني نظرت الله وجهاً لوجه "(سفر التكوين ٣٢: ٣٠) وليس يعقوب وحده من نسب إليه في التوراة الحالية أنه رأى الله وجهاً لوجه؛ ففي سفر الخروج أيضاً (٣٣: ١١) أن الرب كلم موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه!!! بل ورد في سفر الخروج أيضاً أن كثيرين رأوا الرب أيضاً: "ثُمَّ صَعِدَ مُوسَى وَهَرُونُ وَنَادَابُ وَأَبِيهُو وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ، وَرَأَوْا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ، وَتَحْتَ قَدَمَيْهِ أَرْضِيَّةٌ كَأَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ الشَّفَّافِ تُمَاثِلُ السَّمَاءَ فِي النَّقَاءِ، وَلَكِنَّ اللهَ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ لِيُهْلِكَ أَشْرَافَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَرَأَوْا اللهَ وَأَكَلُوا وَشَرِبُوا" (٢٤: ٩). الغريب في الموضوع أنهم قد نسوا حذف ما جاء في سفر الخروج (٣٣: ٢٠) من قول الرب لموسى: "وَلَكِنَّكَ لَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي يَرَانِي لاَ يَعِيشُ"!!! وكذلك سكت المسيحيون عن تناقض ذلك مع ما صرح يوحنا في (١: ١٨) بأن الله لم يره أحد قط. وهذا ما يؤكده أيضاً يوحنا في رسالته الأولى (٤: ١٢) بقوله: "ما من أحد رأى الله".

- أعترف بهذا كله.

---

(١) هم يدعون أن اسمه بداية كان يعقوب لأنه عقب أخاه عيسو في الولادة، ثم سمي إسرائيل بعد تلك الحادثة، ولفظة إسرائيل كما يدعون مكونة من كلمتين ساميتين قديمتين هما: "سرى" (שָׂרָה) بمعنى غلب، و"إيل" (אֵל) بمعنى الله، أما في مصادرنا الإسلامية فتقول أن اسمه بداية كان إسرائيل أي "عبد الله"، وأنه سمي يعقوب لاحقاً بمعنى المبيضة عيناه من الحزن (بعد فقدان ابنه يوسف عليهما السلام).

- أرأيت. ومـــن أمثلة هيمنة القرآن أيضاً تصحيح مـــا ورد عن الملائكة والنبيين، فلـــم نقرأ في القرآن مثلاً أن هارون قد صنع العجل الذهبي لبني إســـرائيل وأمرهم بعبادتـــه (خروج ٣٢: ١- ٦)، مع أن التوراة الحاليـــة قد نصت في مواضع لا تحصى على أن هارون عليه الســـلام كان نبياً من الأنبياء، وأن الله قد أجرى على يديه كثيراً من المعجزات، بل أكدت أن المعجزات كانت تجري على يد هارون وليس على يد موسى عليهما الســـلام. فقد جاء في الخروج ٧: ٨- ١٣ ما نصه: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قائـــلاً: "إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قائلاً: هَاتِيَا عَجِيبَـــةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَاناً". فَدَخَلَ مُوسَـــى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلا هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَاناً. فَدَعَا فِرْعَوْنُ أيضاً الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو مِصْرَ أيضاً بِسِحْرِهِمْ كَذلِكَ. طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتِ الْعِصِيُّ ثَعَابِينَ. وَلكِنْ عَصَا هَارُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ. فَاشْـــتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْـــمَعْ لَهُمَا، كَمَا تَكَلَّمَ الرَّبُّ". فهل يمكن لأي إنســـان عاقل أن يصدق أن هارون عليه الســـلام قد ضل كما ضل قومه فقام بصناعة العجل ليكون إلهاً له ولبني إسرائيل؟!!!

إن من أبســـط قواعد الاعتقاد أن الله ســـبحانه وتعالى إذا ما اختار شـــخصاً ليكون رسولاً أو نبياً فإنه يعصمه من الوقوع في الخطأ، وخاصة في الأمور العقائدية. ومما يؤكد أن هذا النص التوراتي قد عُدِّل بأيدٍ بشـــرية وليس بنص الوحي الذي أنزله الله تعالـــى هو وجود تناقضات أخرى كثيرة فيه؛ منها أن النص يقرر في بدايته أن هارون عليه الســـلام قد قام بسبك العجل باســـتخدام الإزميل، ومن ثم يقول في آخر النص أنه ألقى الحلي الذهبية في النار فخرج العجل منها! ومنها أن موســـى عليه الســـلام قد أمر المؤمنين من بني إســـرائيل بقتل أقربائهم الذين عبدوا العجل، وقد فعلوا ذلك، وعليه فإن هارون لا بد أن يكون أول المقتولين، وبيد أخيه موســـى عليه الســـلام لأنه هو الـــذي صنع العجل وهو الذي بنى له مذبحاً وأمرهـــم بعبادته. ولكن هارون عليه

السلام لم يقتل بل بقي وزيراً لأخيه موسى عليه السلام لفترة طويلة بعد الخروج، مما يؤكد بطلان هذه الفرية. وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم وقرأنا قصة العجل نجد أن أحداثها واضحة وضوح الشمس، ولا يمكن للعقل أن يرتاب في صحة أحداثها لما فيها من تسلسل منطقي ولتماشيها مع أبسط قواعد الاعتقاد.

- تابع.

- كما نقرأ في التوراة أن الملائكة (أبناء الله) عاشرت أبناء البشر بالحرام، وفي التلمود أنهم عصوا الرب وتآمروا ضد بني إسرائيل كما ورد في بشأن جبريل عليه السلام وغيره. لكننا نقرأ في القرآن: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧] و: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨]. إن ميلاد القرآن إذن تنقية ما اعتقده السابقون في الذات الإلهية وتنزيه لها، وهو كذلك براءة للملائكة وتنزيه لجميع الأنبياء والمرسلين عن قصص نكاح المحارم والزنا والشرك والوثنية التي تنسبها الأسفار الحالية إليهم.

- أجل. لطالما حيرتني هذه الأمور فعلاً، فالقصص التي درسناها في التوراة عن الأنبياء، لا تتفق مع تعاليمهم مطلقاً.

- ليس القصص التي في الكتاب فقط، بل بالكتب الأخرى التي تسميها دراسة التوراة وتفسيرها؛ مثل ما روي فيها عن كفر سليمان عليه السلام واستخدامه للسحر. وقد ذكر القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وصححه بإخبارنا عن الملك الذي وهبه له والذي لم يكن لأحد قبله ولا ينبغي لأحد بعده؛ من التسلط على الجن وفَهْمِ منطق الطير والحيوان وتسخير الرياح تجري بأمره.

- فعلاً؛ فمع خلو التوراة من هذه الأخبار تماماً، إلا أنها وردت بإسهاب في الترجوم والتلمود وغيرها من الكتب؛ فيقول ترجوم sheni في التعليق على ما ورد في سفر الملوك الأول: "وتكلم سليمان بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفاً وخمساً، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت على الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن دبيب السمك" (٤: ٣٣-٣٤)، وجاء أيضاً أنه كان متسلطاً على كل الحيوان الذي يدب على الأرض، وعلى طير السماء، وكان يفهم ألسنتها جميعاً. حتى إنه كان يتحدث مع الأشجار. كما كان متسلطاً على الجن وعلى أرواح الظلام. وجاء في كتاب "وصية سليمان" Solomon's Testament، الذي يرجع تاريخه إلى الفترة ما بين القرن الثاني والقرن الرابع الميلاديين، وصف لسلطان سليمان على عالم الجن والعفاريت من خلال خاتم سحري يضعه في إصبعه، وتسخيرها في أعماله العمرانية، وهو يذكر بالتفصيل أنواع هؤلاء الجن ووظائفهم ومهاراتهم؛ فبعضهم يطيرون نحو قبة السماء من أجل استراق السمع ومعرفة الأوامر التي يصدرها الله إلى الملائكة، وبذلك يتنبؤون بالحوادث المقبلة.

- مع تلك المبالغة الواضحة في بعض تلك الأمور، إلا أن هذا تصديق لما توصلنا إليه من أن ما أخفي من الكتاب قد وجد طريقه إلى كتب التفسير والأسفار المخفية، ولكن بعضها شوه كثيراً. فسليمان عليه السلام كان يأتيه الوحي من الله تعالى، وليس بحاجة إلى أن يرسل الشياطين للتجسس على السماء، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

- وأن الجن قد بنوا له هيكل الرب في أورشليم، وقصوراً وأبنية إدارية ومرافق عامة كثيرة، وحفروا له في أرضه نهراً. وبعضهم كان يغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، والبعض الآخر يحفر في المناجم لاستخراج الياقوت والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة.

- وقـــد جاء هذا أيضاً بالقرآن: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٢ - ١٣].

- كما كان هناك ملاك مســـخر له يحمل بيده ســـوطاً نارياً يجلد كل من تسول له نفسه عصيان أمر سليمان، فيحوله إلى رماد.

- لا ريب أن اليهود قد أدخلوا بعض الأخبار الأسطورية على ملك نبي الله سليمان عليه السلام.

- ولكن التوراة تقول إن سليمان كان ملكاً وليس نبياً!

- في البداية، هل تؤمن بأن ســـليمان كان لـــه كل هذا الملك على الحيوان والطير والجن والإنس؟

- أؤمـــن بأن ملكه كان يتجاوز كثيراً حدود الملك العادي، وأنه تمتع بقدرات خارقة، ولكن ليس بكل التفاصيل الخرافية الواردة في تراثنا بالطبع.

- حســـناً، إذا كان الباقي صحيحاً، فمن تظنه مصدر ملك ســـليمان وحكمته التي جعلته يتحدث بثلاثة آلاف مثل كما يقولون: الله عز وجل، أم خاتم ســـحري وطلاسم وعلاقات مع الجن كما يزعمون؟

- الرب طبعاً، فلو كان الأمر سحراً واتصالاً بالجن لما عجز الكثيرون عن الإتيان بمثله.

- وهـــل يؤتي الله كل هذا الملك والخوارق لغير نبي؟!!! وهل تظن فعلاً أنه بعد كل هذا قد تبع آلهة نسائه وكفر، كما تدعي التوراة؟!!!

- لقد حدث هذا في أيامـــه الأخيرة، لذلك عاقبه الرب بتمزيق مملكته، وهذا ما حدث فعلاً؛ فقد ثار عشرة أسباط على ابنه وانقسمت المملكة إلى مملكتين متحاربتين.

- لقد حدث هذا بعد موت سليمان؛ أي إن العقاب لم يطله شخصياً، وأظنك تتفق معي على أن المنطق والتفكير الســـليم ينزهان الله عز وجل عن أن يأخذ أحداً بجريرة سلفه، أليس كذلك؟

- ليس المنطق والتفكير السليم فحسب، بل آيات عديدة ومتكررة في الكتاب المقدس بعهديه أيضاً.

- إذن، ففساد بني إسرائيل من بعد سليمان وتصديقهم ما رَوَتِ الشياطين عن ملكه وضياع التوراة، هو ما أدى إلى تمزيقهم.

- أنت محق تماماً. وماذا لديك من صور الهيمنة أيضاً؟

- التوضيح والفهم العميق، ومناسبة اللفظ القرآني، وهو نوع من صور التصحيح لكنه لطيف خفي. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن موسى حين اقترب من الشجرة: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٨]. المقصود بمن في النار هو موسى، أي من في نطاقها، ومن حولها أي الملائكة. ثم قوله ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، أي نزِّهوه تعالى عن أن تقولوا مثل التوراة الحالية أنه قد كلم موسى متجسداً في وسط الخليقة !! ومن أمثلة ذلك قوله تعالى لموسى: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [القصص: ٣٢]، وقوله: ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ يصحح ما ورد في العهد القديم من أن موسى أخرج يده بيضاء، ولكن برصاء!! وإن القرآن لم يشترط أن الطوفان عم كل الكرة الأرضية[1].

- كيف ذلك؟

- الناظر في القرآن يرجح أن طوفان نوح عليه السلام كان طوفاناً محلياً، فالقرآن ينفي مسألة عالمية رسالة نوح تماماً، في خمسة مواضع ذكر فيها الله تعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه، ولم يقل إلى الناس كافة أو إلى العالمين. فلو لم يكن مرسلاً إلى قوم خاصة وكان هؤلاء هم الناس الموجودين على الأرض لكان الكلام غير دقيق.

- ولم لا يكون أرسل إلى قومه ثم دعا عليهم فأغرق الله العالم كله؟!!!

---

(١) لم يذكر القرآن أن الطوفان عم الأرض كلها، وإنما ذكر أن قوم نوح قد أهلكوا بالغرق. الأساس في التفسير (٥/ ٢٥٦٠) عند تفسير الآيات عن قصة الطوفان في سورة هود.

- فمـــا ذنب هؤلاء الأبرياء الذين لـــم تصلهم الدعوة؟ ولمَ تُهلك الأرض كلها بذنب قوم كفرة؟ ثم إن النص القرآني يقول: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَـلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَـنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّـهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨]، والآية صريحة في وجود أمم مع نوح، والله أعلم[1].

- ولكـــن القرآن يقر بأن الرب قد طلب من نـــوح حمل زوجين من كل حيوان على الأرض!

- مـــن المعروف أن هناك حيوانات غير موجودة إلا في المناطق الباردة، وغيرها لا توجد إلا في المناطق الحارة وهلم جراً، فكيف أتت هذه الكائنات من مناطقها إلى نوح عليه السلام، وكيف استوعبتها السفينة مهما كبرت؟ إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، والأمر على قدر الاســـتطاعة، فإذا أمره أن يأخذ مـــن كل زوجين اثنين فهو يأمره أن يأخـــذ من كل ما يجده ومن كل ما هو حوله زوجين اثنين، وليس الكل المطلق؛ لأن هذا مما لا يطيقه ولا يقدر عليه سيدنا نوح ولا غيره.

- تريد أن تقول إن الطوفان كان على قرية صغيرة فقط؟!

- إذا كان الطوفان محلياً وعلى قوم بعينهم، فلا يعني ذلك أنه أغرق قرية أو مدينة فقط، ولا مانع من أن يكون هؤلاء القوم قد عاشوا على بقعة كبيرة من العالم بل وحتى قارة كاملة، خاصة أن نوحاً قد لبث فيهم تسع مئة وخمسين عاماً.

---

(١) اختلف المفسرون في شأن المقصود من ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود: ٤٨] على ثلاثة أقوال: منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات!! لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم، فلهذا السبب جعلهم أمماً، ومنهم من قال: بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً!!! ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا، وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، ومنهم من قال: المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك!!! وهنا تأثروا بأهل الكتاب الذين يجزمون بأن الطوفان قد عم الأرض كلها، مع أن هذا مناقض لظاهر الآيات، والله أعلم.

تذكر أبراهام حديث مكسيم عن الأخطاء العلمية الشنيعة في التوراة، واستحالة أن يعم طوفان واحد كل الكرة الأرضية[١]، فقال ساهماً:

- يبدو أن صور هيمنة القرآن كثيرة فعلاً.

- لا داعي للملل يا بني، سأعطيك مثلين جامعين لأغلب صور الهيمنة، ستجد فيهما من إظهار المخفي من كتب أهل الكتاب أو بين ثنايا التوراة، ما يحتاج إلى ترابط وتنسيق وتصحيح وتوضيح وهدف لكل قصة.

- تفضل.

- أولهما قصة البقرة. وهذه القصة على قصرها في القرآن، لم ترد كاملة في الأسفار القانونية، ولكن لها خمس قرائن مشتتة في التلمود والترجوم، بل وثلاثة أسفار من التوراة في العدد١٩: ١-١٣، تثنية ٢١: ١- ٩و...

- أعرف هذا؛ فقد تكلم أحد الكتب على عمر البقرة، والآخر على لونها، وثالث ذكر أنهم ذبحوها وما كادوا يفعلون، ولكن...

قال أبراهام مقاطعاً، إلا أن رحمة الله عاد إلى صُلب الموضوع وقاطعه بدوره قائلاً:

- إن أياً من تلك الأسفار لم يذكر سبباً لذبح البقرة أو علاقتها بالقتيل، أما القرآن فقد ذكر القصة كاملة وبعبارات قليلة موجزة.

- أعرف أعرف، فقد قرأت هذه القصة في بداية القرآن[٢]. وما المثال الثاني؟

---

(١) راجع رواية الهروب إلى العاصفة للمؤلف.

(٢) في سورة البقرة، وخلاصة القصة أن جريمة قتل وقعت في بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، ولم يُعرف القاتل، فتدافعوا في ذلك وصارت الاتّهامات متبادلة، وأراد الله تعالى أن يكشف لهم القاتل بواسطة معجزة مادية محسوسة، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أنه يأمرهم بذبح بقرةٍ، أي بقرة كانت بدون تحديدٍ لمواصفاتها، ولكن طبيعة اليهود في التلكؤ والمماطلة والجدال جعلتهم يسألونه عن عمر البقرة أولاً، ثم عن لونها ثانياً، ثم عن عملها ثالثاً، وأخيراً ذبحوها وما كادوا يفعلون، وأمروا بضرب القتيل ببعضها فضرب، فأحياه الله فأخبر عن قاتله وقال: قتلني فلان، وقيل: ثم مات في وسط دهشة بني إسرائيل. وهذه القصة توضح بجلاء تنطع بني إسرائيل، وسوء أدبهم مع أنبيائهم، وتشددهم في الأحكام، وكيف أن الله شدد عليهم، وقد كره لنا كثرة السؤال.

- قصة أصحاب السبت، التي تحدى القرآن بوجودها عند اليهود، وذلك بقوله دائماً قبل سرد القصة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ﴾.. ﴿ وَاسْئَلْهُمْ ﴾.

- ولكن هذه القصة غير موجودة فعلاً في كتبنا.

قال أبراهام بعصبية، لم يستطع أن يكبح جماحها هذه المرة، فسأله رحمة الله بدهشة:

- أنت يهودي؟!!!

- في الحقيقة أجل، أو على الأقل كنت كذلك حتى زمن غير بعيد... أعتذر كثيراً على ردة فعلي الحمقاء، فالحقيقة هي هدفي وليست العصبية القومية. وأعترف فعلاً بوجود قرائن عديدة لهذه القصة في التوراة والتلمود والترجوم[1]، ولكن دعنا نتكلم بحيادية تامة، وكما احتملت ما قلته عن كتبي فلنتحدث كذلك بنفس الحرية عن كتابك.

- تفضل.

- لو كان ما قلته صحيحاً في شأن إعجاز القرآن، واختياره من الله ليكون الكتاب الأخير والمهيمن على بقية كتبه، فيصدقها (يصححها) ويحكم في المختلف فيها، ويظهر

---

(١) هذه القصة نجد لها عدة قرائن في كتب اليهود. أولى تلك القرائن نجدها في التوراة الحالية، إذ يخاطب الله بني إسرائيل فيقول: "احتقرت مقدساتي ونجست سبوتي" (حزقيال ٢٢ : ٨). أما كيف نُجست أيام السبت هذه؟ فلم يذكر هذا السفر ولا بقية أسفار الكتب القانونية (التوراة الحالية)، لكننا نجد قرائن أخرى لكيفية إفساد أيام السبت والاحتيال عليها في كتب الحَلَقاه (قصص اليهود القديمة) التلمودية (المذكورة في التلمود) وبعد التلمودية (JUDAISM IN ISLAM P. 69-70)(المكتوبة في زمن ما بعد التلمود) التي تنص على أنه من المسموح به نشر مصائد للوحوش والأسماك ليلة السبت لجمعها جمعاً طبيعيّاً يوم السبت. والطائفة الوحيدة التي حرمت نشر الشباك ليلة السبت هي طائفة اليهود القرائيين في كتب الحَلَقاه عندهم. آخر تلك القرائن نجدها في بعض كتابات الربيين القدماء;(BESKITA RABBATI 97.3 TANHUMA WA-YEHI 6) وفي الترجوم الأورشاليمي (الترجمة الآرامية القديمة للتوراة)، حيث يتنبأ يعقوب بعقوبة لأبناء إفرايم بن يوسف في أوقات لاحقة نتيجة إمساكهم السمك بأفواههم في سنوات بعد يعقوب، فيصيبهم لثغة ويواجهون نهايتهم مثل السمك (THE LEGENDS OF THE JEWS(ON JOSEPH 375) P.138). المعروف أن السمك لم يكن يوماً محرماً عند اليهود. فلابد إذاً أن أكلة السمك المعنية كانت بشكل غير شرعي كما في حالة أصحاب السبت.

المخفي منها، إلى آخره من كل صور الهيمنة التي تدعيها، ألا يستوجب كل ذلك أن يشار إليه في تلك الكتب!!! وأنا أتصور بماذا ستجيب وكيف ستستشهد بالكتب الخفية، ولكنني أذكرك بما قلته من أن الهيمنة هي على ما بين أيدينا من الكتاب، ولذلك فلا بد أن تكون تلك الإشارات ليست فقط في تلك الكتب الخفية، بل في الكتب المعتمدة أيضاً إن صح ادعاؤك، وأنا قد درستها جميعاً ولم أجد فيها ما يشير إلى القرآن بتاتاً. ألا يعني ذلك أن القرآن، مع كل ما به من إعجاز ومنطق وموافقة للعلم والتاريخ والأخلاق، لا يعدو أن يكون كتاباً عبقرياً وملهماً، ولكنه مستحدث ولا يدخل في خطة الرب لخلاص البشرية؟!!!

إشارة القديم والجديد إلى الأخير

عدل رحمة الله الباكستاني جلسته قائلاً:

- لقد تحدى القرآن الكريم بقية أسفار الكتاب بأنه قد ذكر فيها كما قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٦]، وهذه هي الآية التي استشهدت بها أنت بنفسك قبل قليل[١].

- ولكنني لا أجد أثراً لهذا الذكر كما تفسره أنت.

- ستجده إن أمعنت النظر؛ فقد جاء في آخر أسفار التوراة الحالية (سفر ملاخي)، في الإصحاح الأخير (الثالث) منه، في آياته الأخيرة[٢] فقرة عجيبة نصها كالآتي: "حينئذ تكلم خائفو الرب الواحد مع صاحبه وأصغى الرب وسمع وكتب "كتاب تذكرة" أمامه لخائفي الرب المتفكرين في اسمه... فتتوبون وتميزون ثانية بين الصديق والمنافق تتكلم". هذه الفقرة تتحدث عن فريق من أتباع موسى كتب الله لهم كتاباً سماه كتاب "تذكرة".

- أجل. وماذا في ذلك؟

---

(١) من رحمة الله بعباده أن الله لم يُرد لبعض النصوص أن تُحذف مع الذي حذف أو تُبدل مع الذي بُدل أو تُنقح مع الذي نُقح، لكي يجعلها مصدراً ولو صغيراً لبقية نور الحق لمن يريد الهدى من هؤلاء، ولكيلا يكون لهم حجة يوم القيامة بادعاء جهلهم بمعرفة الإسلام أو رسالة النبي الخاتم ﷺ ونبوته، فيكون كتابهم بهذه النصوص حجة عليهم وكافياً لإدانتهم يوم الدينونة، إذ كان يكفيهم على الأقل قراءة كتابهم، وإلى هذا المعنى يشير الحق عز وجل في القرآن الكريم فيقول: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

(٢) ١٦-١٨ وذلك الإصحاح يحتوي على ٢٤ آية فقط، وبقية الآيات الأخيرة (١٩-٢٤) تتحدث عن مجيء يوم الرب.

- لقـــد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْـرِ لَـمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيـمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ - ٤٢]، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْـكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤]، كما قال: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَـاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس : ١١ - ١٢]، وتكررت هاتان الآيتان في ســـورة المدثر: ٥٥-٥٦، وفي ســـورة عبس: ٨٠-٨١. فالقرآن يســـمى بـ"الذكر" و"التذكرة" أيضاً؟!!! أنت يهودي، ألا ترى معي أن كلمة "ذكر" بالعربية هي مماثلة لكلمة "زكر" في العبرية؟

- هذا مجرد تشابه بالألفاظ؛ فكتاب تذكرة كما يقول المفسرون هو مجرد "قائمة" بأسماء خائفي الرب.

- أي إن صفة التذكرة هذه ليست للبشر خائفي الله، بل لإنعاش الذاكرة الإلهية؟!!! ما الذي يقولونه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

طأطأ أبراهام رأســـه خجلاً، فذلك التفسير يقود إلى هذا فعلاً؛ ولكنه ما لبث أن رفع رأسه قائلاً بتحدٍّ:

- ما دليلك على أن كتاب التذكرة هذا ليس مجرد قائمة أسماء؟

- أنه ترتب عليه التوبة والتمييز "فتتوبون وتميزون"؛ أي إنه كتاب فاعل مؤثر، وليس مجرد قائمة بأســـماء أفراد، والدليل الآخر جاءنا من مخطوطة اكتشفت حديثاً لهذا النص وهي وثيقة دمشق.

- تلك التي وجدت ضمن مخطوطات البحر الميت؟

- أجـــل. وقد ذكـــرت أن كتاب التذكرة هذا ســـوف يبقى عند اللـــه حتى "يوحى الخلاص والصـــدق لمن يطيعون النبي المنتظر"، أي إن هناك علاقة واضحة بين النبي المنتظر وكتاب التذكرة.

- إذن فقد ذكر القرآن فعلاً في نهاية العهد القديم!!!!

- وذكر الإسلام ونبيه في بداية العهد الجديد أيضاً، وتحديداً في (لوقا ٢:١٤).

- تقصد ترجمة القس الكلداني لتسبيح الملائكة عند ميلاد المسيح بـ"الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام! وللناس أحمد".

- أجل. فكيف سمعت عن ذلك؟

- تلك قصة طويلة، ولكن ما الذي يجعلك تتفق مع ترجمته من السريانية وتتجاهل الترجمة اليونانية.

- لأنه من المنطقي أن الرعاة السريانيين الذين ذُكروا في الآية لم يكونوا من خريجي أكاديمية أوربية، وقد سمعوا جمهور الجنود السماوية يترنمون بتلك الأنشودة العجيبة، فلا يمكن إذن أن تكون الأنشودة باليونانية التي كتب بها إنجيل لوقا. ومن البدهي أنهم كانوا يرتلون التسبيح باللغة الآرامية السريانية التي كانت هي اللغة الشعبية الشائعة أكثر من غيرها زمن بعثة عيسى عليه السلام.

- ولكن الباحثين يجمعون على أن فلسطين آنذاك كانت بمنزلة لوحة فسيفسائية، وأن سكانها كانوا خليطاً من كل أمة ولسان، وكانوا يتكلمون بدرجات متفاوتة: العبرانية (لغة أعضاء السنهدرين، ومعلمي الشريعة، والقائمين على تسيير الهيكل وإدارة الشؤون الدينية اليهودية)، والآرامية بلهجاتها (لغة عامة الناس من مختلف المدائن والقرى)، والإغريقية (لغة اليونان والهيلينيين من أهل فلسطين المتأثرين بالثقافة الهلينستية) واللاتينية (لغة الطبقة الحاكمة الرومانية).

- وأنت تعتقد أن الرعاة ينتمون إلى أي شريحة من الشرائح التي ذكرتها؟

طأطأ أبراهام رأسه مجدداً، فتابع رحمة الله قائلاً:

- وبناء على ذلك يجب البحث عن نشيد الملائكة في اللغة الأصلية، لأن لوقا إنما كتب كتابه متخذاً كثيراً من المؤلفات المتقدمة مادة له.

- ولكن لو كان الأمر كذلك فعلاً لذكر الإسلام ومحمد لأكثر من مرة واحدة، أليس كذلك؟

- لقد حدث هذا فعلاً، وسأكتفي بما ورد في سفر واحد هو سفر إشعياء: ولنبدأ

في الإصحاح التاسع ٩: ٢ - ٧: "الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور، أكثرت الأمة، عظم لها الفرح، يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد، كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة، لأن نير ثقله وعصا كتفه وقضيب مسخره كسرتهن كما في يوم مديان، لأن كل سلاح المتسلح في الوغى (الحرب) وكل رداء مدحرج في الدماء يكون للحريق مأكلاً للنار، لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه (خاتم النبوة) ويدعى اسمه عجيباً مشيراً (إلى) إلهاً قديراً (محمود من الله) أباً أبدياً رئيس "السلام" لنمو رياسته و"للسلام" لا نهاية، على كرسي داوود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن فصاعداً غيرة رب الجنود تصنع هذا".

- وماذا في ذلك؟

- أنت يهودي ويبدو أنك دارس للتوراة، فقل لي من فضلك ما معنى كلمة السلام بالعبرية.

- "شالوم".

- هل استخدم أشيعا هذه الكلمة في نبوءته؟!!!

استرجع أبراهام النص في مخيلته، ثم قال بدهشة:

- كلا.

- أي كلمة استخدمت إذن؟

أطرق مفكراً، ثم قال بصوت مخنوق:

- "شيلاميم".

- قل بالله عليك. أليست شيلاميم بالعبرية وبدون حرفي التعظيم "يم" قريبة جداً من "إسلام" بالعربية؟ كما "شمائيل" قريبة من "إسماعيل" مثلاً؟! ألم تشتق الكلمتان من الحروف نفسها ومن الأصل نفسه؟ ألا يتضح المعنى بذلك ويستقيم الكلام مرة أخرى:

"رئيس الإســـلام لنمو رياسته وللإسلام لا نهاية (الشريعة الخاتمة إلى يوم القيامة)"؟ وإذا كان المقصود بها الســـلام كما تدعون وليس الإسلام فلماذا لم تكن الكلمة شالوم كما هو متعارف عليه في اللغة العبرية وفي نصوص الكتاب المقدس الأخرى؟!!

احتضن أبراهام رأسه بكلتا يديه، وقال ساهماً:

- لا أعرف.

- وفي نفس الســـفر الإصحاح ٤٢ الآية ١٤ جاء ما يلي: "لقد أمســـكت "سلامي" منذ زمن طويل"[1]، فقل لي ثانية، ما الكلمة العبرية التي ترجمت عنها كلمة سلامي؟

- شيلاميم.

- أليس هذا أظهر للمعنى وأسلم للسياق أيضاً؟!! وهل هذا من قبيل المصادفة أن تتكرر شيلاميم في نبوءتين تشيران إلى النبي الكريم إلا أن يكون المقصود بها الإسلام نفسه؟

فقال أبراهام بقنوط:

- لا أدري.

- حسناً، في الإصحاح السابق نفسه ورد قبل آيتين ٤٢: ١١: "لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي ســـكنها قيدار لتترنم سكان ســـالع من رؤوس الجبال ليهتفوا" فما البلاد التي سكنها قيدار؟

- مكة، لأن قيدار هو ابن إسماعيل الذي ورثه على الزعامة.

- ومن هم سكان سالع؟

- لا أدري.

---

(١) يدور الحديث هنا باللغة الإنجليزية اعتماداً على النسخة الإنجليزية من الكتاب المقدس، أما ترجمتها العربية فقد تحولت بخفة مبتكرة إلى: "لقد صمت منذ الدهر"، وفي ترجمة أخرى "طالما سكت يقول الرب وصمت وضبطت نفسي".

- سالع هي جبل سلع بالمدينة المنورة، وهو جبل يقع غرب المسجد النبوي، ولهذا الجبل أهمية تاريخية فلقد وقعت على سفوحه أو بالقرب منه عدة أحداث مهمة، أهمها غزوة الخندق التي تجمع فيها المشركون في جهته الغربية وكان يفصل بينه وبينهم الخندق، وكان سفح جبل سلع مقر قيادة المسلمين، إذ ضربت خيمة لرسول الله ﷺ ورابط عدد من الصحابة في مواقع مختلفة منه، وعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة قادماً من أرض قيدار ترنم أهل المدينة قائلين: "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع".

رفع أبراهام رأسه قائلاً:

- هذا ليس كافياً.

- ألم يرد في السفر نفسه (إشعياء ٢١: ١٣) "وحي من جهة بلاد العرب"؟!

- هناك رأي يقول إن معنى كلمة "عرب" الواردة في النص تعني "مساء"، أي:Ereb، وArabia. وأنها تتحدث عن كل قاطني الظلمة[١]، وتشير إلى من يعيش في العالم ولذات العالم، وتجارة العالم ما هي إلا فقر ومساء[٢].

هز رحمة الله رأسه بأسى قائلاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ألم يتوقفوا عن التلاعب بكتابهم حتى اليوم؟!!!

ثم قام إلى المكتبة وتناول منها بعض المعاجم والقواميس العبرية المختصة قائلاً:

- فسرت الكلمة كالعرب أو بلاد العرب في

Strong's Hebrew and Greek Dictionaries:

From H6150 in the figuratively sense of sterility; Arab (that is, Arabia), acountry

---

(١) القمص تادرس يعقوب الملطي من تفسيرات وتأملات الآباء الأولين - تفسير سفر إشعياء - كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتنج.

(٢) القمص أنطونيوس فكري ٢ في تفسير سفر إشعياء - كنيسة السيدة العذراء بالفجالة.

وكذلك في: East of Palestine: - Arabia.

A comprehensive etymological dictionary of the Hebrew language for readers of English. By Ernest H6152 David Klein. Ernest Klein. Baruch Isarel -1987) foreword by Haim Rabin.At The Hebrew university of Jerusalem p 499 وأيضاً في:

A complete Hebrew – English pocket – Dictionary to the old testament. compiled by Prof. Karl Feryerabend. Ph. D.. of Cothen. Germany. p 2586 The chaldee paraphrase on the prophet Isaiah. translated by REV. C. W. H. PALI. P 66.

وكذلك في شرح وتعليق"راشي" Rashi's Commentary، وفي "ترجوم يوناثان"، وفي الفولجاتا، وفي النسخة الإنجليزية المنقحة، فكيف لا يخجلون من الاستمرار بالتحريف مع كل هذه الشواهد التي أصبحت اليوم في متناول الجميع؟!!!!!!!!!!!!

- لقد سمعت البارحة فقط أن عملية تحريف الكتاب المقدس لا تزال مستمرة حتى اليوم، ولم أصدق ذلك، ولكن يبدو أن هذا الكلام صحيح تماماً، وإن كان بوتيرة أبطأ وأكثر تواضعاً من السابق بكثير، نظراً لاختلاف الظروف.

- هذا دقيق تماماً، ففي المثال السابق بالذات تحولت عبارة "وحي من جهة بلاد العرب" بخفة متناهية إلى "وحي على العرب"[1]!!! وليس هذا فحسب! بل غيروا كل الآيات التي تنبأت على منطقة ما، إلى شكل يطابق صيغة نبوءة الوحي الذي سيأتي من بلاد العرب مثل (ترجمة الفانديك):

"رؤيا على بابل" التي تحولت إلى: "وحي من جهة بابل رآه إشعياء بن آموص" (إشعياء ١٣:١).

---

(١) مثل : الترجمة العربية المشتركة" و "الأخبار السارة" .

و"وحي على موآب" تحولت إلى: "وحي من جهة موآب. إنه في ليلة خربت عار موآب وهلكت.إنه في ليلة خربت قير موآب وهلكت" (اشعياء ١٥:١).

و"وحي على دمشق" صارت: "وحي من جهة دمشق. هوذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم" (إشعياء ١٧:١).

و"وحـــي على مصر" صارت: "وحي من جهة مصر. هوذا الرب راكب على ســـحابة ســـريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهـــه ويذوب قلب مصر داخلها" (إشعياء ١٩:١).

إلى آخر ذاك التلاعب الذي خرجوا منه بالقول إنه لو كانت نبوءة أشعيا تدل على نبي من بلاد العرب، فهل يا ترى كان هناك -وفق هذه الآيات- وحي جديد ونبي جديد في كل من بابل وموآب ودمشق وغيرها؟؟!!!

- هل وصل بهم الأمر إلى ذلك؟

- أجـــل، وكأننا لا نزال في العصور المظلمة ولا نملـــك آلية للتحقق من أكاذيبهم. وكما ترى فإن النص العبري في قواميســـهم أنفسهم يظهر كذبهم في معاكسة المعنى. تأمل معي:

وحي من جهة بابل رآه إشعياء بن آموص מַשָּׂא, בָּבֶל--אֲשֶׁר חָזָה, יְשַׁעְיָהוּ בֶּן-אָמוֹץ. وحـــي من جهة موآب. إنه في ليلة خربت عار موآب وهلكت.إنه في ليلة خربت قير موآب وهلكت מַשָּׂא, מוֹאָב: כִּי בְּלֵיל שֹׁד דֹּד עָר מוֹאָב, נִדְמָה--כִּי בְּלֵילֹשֶׁד דֹּד קִיר-מוֹאָב, נִדְמָה. وحي من جهة دمشق. هوذا دمشق تزال من بين المدن وتكون رجمة ردم מַשָּׂא, דַּמָּשֶׂק: הִנֵּה דַמֶּשֶׂק מוּסָר מֵעִיר, וְהָיְתָה מְעִי מַפָּלָה. وكما ترى فالحديث هنا عن رؤيا أو وحي "على" (أي تنبؤ بكوارث)، ولا أثر لعبارة "من جهة" التي أقحموها فقط للتشكيك بنبوءة نبي بلاد العرب. فكما رأينا النص في المثال الأخير في الأصل العبري: מַשָּׂא, מִ

צָרִים وينطق "مسا متساريم" أي وحي مصر، وإذ إنه يتحدث عن كوارث فهو وحي على مصر. فمن أين أتى المترجمون بالعبارة من جهة كذا؟!!! وقس على ذلك باقي الأمثلة. كما اتفقت جميع النصوص أيضاً في مجيء اسم المكان بعد كلمة " מַשָּׂא " مباشرة بدون أي فاصل بينهما، إلا نص أش ٢١: ١٣ فقد جاء هكذا مسبوقاً بحرف الجر "בַּ" (بمعنى "في") وهو: מַשָּׂא. בַּעֲרָבמַשָּׂא + בַּ + עֲרָב وترجمة النص الحرفية (מַשָּׂא) (مسا) وحي (בַּ) (بـ) في (עֲרָב) (عرب) بلاد العرب أي: "وحي في بلاد العرب". وهذا هو ما يجعل هذه الفقرة -أحد أركان النبوءة- مختلفة عن باقي الفقرات التي يحاول أن يفند بها المعترضون هذه البشارة، فهي تحدد مكان الوحي الذي سيتكلم به النبي القادم:...أرض العرب.

- هذا منطقي.

- والآن نكمل النبوءة: "وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار. وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم" (إشعياء ٢١: ١٣ ١٧-)، ولاشك أن النص السابق لا يتحدث عن أحد سوى النبي ﷺ وأصحابه الكرام. فهل نزل وحي في بلاد العرب غير القرآن؟! وهل من نبي هاجر من مكة إلى المدينة واستقبله أهل تيماء غير محمد ﷺ وصحبه؟! وهل غيرهم قهروا مجد قيدار (مكة).

- ما زالت تيماء موجودة إلى الآن[1]، تحمل اسم إحدى محافظات المملكة العربية السعودية، ولكنها كانت أرضاً لليهود.

---

(١) تقع بلدة تيماء بشمال المملكة العربية السعودية على مسافة ٤٢٠ كيلو متراً شمال المدينة المنورة، وكانت تتبع إمارة حائل، وهي اليوم تتبع إمارة تبوك، ويقدر سكانها بسبعة آلاف نسمة.

- تيماء هي الأرض التي شـــهدت أول قدوم لليهـــود في الجزيرة العربية ثم انتقل معظم هؤلاء اليهود إلى المدينة، فأصل يهود المدينة من أهل تيماء المخاطبين في النص، وتخبرنا كتب السيرة أن ما بقي من اليهود في تيماء قد عرضوا الصلح على الرسول، وسلموا أنفسهم، وذلك بعد سقوط خيبر.

أطرق أبراهام مجدداً وهو يفكر في الحديث الذي دار بينه وبين أحمد حول انتظار يهود الجزيرة لنبي آخر الزمان الذي يجدونه في كتبهم باســـمه محمد[1]، لكنه ما لبث أن رفع رأسه ثانية، وقال مكابراً:

- ولكن لم يرد ذكر محمد صراحة في التوراة!!!

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

رغم أنف التزوير

تبسم رحمة الله قائلاً:

- ألم يرد في سفر التثنية الإصحاح ١٨ الآيات١٧-١٩على لسان موسى عليه السلام: "قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه".

- إن المقصود من وجهة النظر اليهودية هو يوشع بن نون، أما من وجهة النظر المسيحية فهو يسوع، ولا علاقة لنبيكم بها بكلتا الحالتين.

- ولكن البشارة تشترط شرطين: الأول أن ذلك النبي من وسط إخوة بني إسرائيل، والثاني أنه مثل موسى عليه السلام. والشرطان السابقان لا ينطبقان إلا على رسول الإسلام ﷺ؛ فهو من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ أي من وسط أخوة بني إسرائيل. كما أن موسى عليه السلام ومحمداً ﷺ، كليهما كان صاحب شريعة جديدة، ورسالة مستقلة، وجاءا بقوة وسيطرا على قومهما. وبذلك فإن شرط المثلية وقرب المكانة بين ذاك النبي وموسى عليه السلام متحقق في النبي ﷺ. كما أن يوشع بن نون والمسيح عليهما السلام كانا من بني إسرائيل وليسا من وسط إخوة بني إسرائيل. ولو كان المراد واحداً منهما لقال الله: (أقيم لهم نبياً منهم)، بل لم يكن هناك داع لتحديد من أين يخرج ذلك النبي، لأن خروجه من بني إسرائيل هو أمر مألوف لا يحتاج إلى توضيح أو تحديد. وينتفي الشرط الثاني أيضاً لأنه لا يوشع ولا عيسى كان مثل موسى؛ فيوشع كان فتى موسى، ولم يحمل شريعة جديدة، وعيسى أيضاً لم يحمل شريعة جديدة، كما أن النصارى يؤمنون بأن المسيح هو ابن الله، وأنه شريك معه في

الألوهية، فكيف يقولون بعد ذلك إن عيسى مثل موسى؟!!

- ربما كنت محقاً في ذلك، فالتوراة نفسها تنفي أن بني إسرائيل قد يقوم فيها نبي مثل موسى بعده (سفر التثنية الإصحاح ٣٤، الآيات من ٥ إلى ١١).

- أرأيت!!! فكيف يدعي بعد ذلك أهل الكتاب أن النبي الذي وصفه الله بأنه مثل موسى قد خرج أو سيخرج من بني إسرائيل؟!!! ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] ، كما يقول القرآن على لسان المسيح عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦].

- ولكن الأناجيل ليس بها ذكر لأحمد، وترجمة تسبيح الملائكة بأحمد أمر عارضه الكثيرون.

- لقد ورد في إنجيل يوحنا (١٦ : ١٢-١٦) على لسان المسيح عليه السلام أيضاً وهو يخاطب تلاميذه قبل أن يرحل: "لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي"، ثم يواصل المسيح عليه السلام الحديث عن ذلك المعزي قائلاً: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه (مثل كتبة الأناجيل وناسخيها) بل كل ما يسمع يتكلم به (وحي مباشر لا مكان به لخطأ بشري "إن هو إلا وحي يوحى") ويخبركم بأمور آتية (ما أكثر النبوءات وأوجه الإعجاز التي تكشفت للآن من القرآن الذي أنزل على نبينا ومن سنته) ذاك يمجدني (ينفي عنه الإهانة والصلب وما ألصقوه به)".

- هم يقولون إن المعزي ليس بشراً إنما هو الروح القدس، روح تدخل في نفوس المؤمنين لتزيدهم إيماناً.

- إذا كان المقصود روحاً وليس بشراً، فلماذا اشترط المسيح إتيانها برحيله؟!!! ألم تكن حاضرة؟! أليس المسيح مؤيداً بالروح القدس؟! وهل هذه الروح أفضل عندهم من المسيح حتى يقول "من الخير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي"؟! وهل هذه الروح تتكلم بما تسمع ولا تتكلم من نفسها؟! وهل تخبر بأمور آتية؟! وكيف تكون الروح القدس لا تتكلم من نفسها بل تحتاج إلى أن تسمع ما ستتكلم به؟! "لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية"، أليست إلهاً كما يدعون؟!!، كيف يكون إلهاً من لا يتكلم من نفسه؟!!!!

- ولكنهم يقولون إن الروح القدس قد جاءت وحلت في تلاميذ المسيح بعد عشرة أيام من رحيله.

- هل كانت هذه المدة كافية حتى يتهيؤوا للأمور التي كان يريد المسيح أن يخبرهم بها، ولكن منعه من قولها عدم قدرتهم على احتمالها قبل عشرة أيام؟!!! كما أن الروح القدس التي يدَّعون أنها المقصودة بالمعزي كانت موجودة قبل أن يرحل المسيح تساعده وتؤيده، ويقولون إن بعض الصالحين كانوا ممتلئين منها، فلماذا يقول المسيح إذن إن لم أنطلق لا يأتيكم؟!! هل هناك أدنى شك الآن أن الذي يتحدث عنه المسيح بشراً وليس روحاً أو إلهاً؟! وإذا كان بشراً فمن يكون غير محمد ﷺ الذي جاء بعد عيسى عليه السلام وليس بينهما نبي آخر!!

- حتى وإن كان ذلك صحيحاً فهو لم يشر إليه بالاسم، بل قال المعزي.

- المعزي موجودة في الترجمات الحديثة فقط، ولكن في الترجمات القديمة، بل في كثير من الترجمات الحالية ورد بدلاً منها كلمة باركليت (أو فارقليط في بعض النسخ العربية) دون ترجمة.

- أعرف، فما الفارق بين كلمة يونانية وترجمتها؟

- فرق كبير؛ فالترجمة مضللة، وكلمة باركليت مشتقة من إحدى كلمتين يونانيتين؛ إما بيركليتوس أو باراكليتوس. الكلمة الأولى معناها الذي يحمد أو محمد أو أحمد، والثانية معناها المعزي أو الحامي أو المدافع. ومع أن المترجمين يصرون على أن الباراكليتوس هي الكلمة المعنية، يقول الكثيرون إن البيركليتوس هو أصل الكلمة، وأنها قد حرفت لاحقاً إلى الباراكليتوس ضمن ما حرف طمساً للحقيقة كي لا تحمل النبوءة على النبي ﷺ.

- إذا كان الأمر كذلك فإن الفصل في هذا الخلاف غير ممكن.

- بل ممكن، وقد سأل أحد كتاب المسلمين (عبد الوهاب النجار) الدكتور "كارلو نيلنو" الحاصل على الدكتوراه في آداب اليهود اليونانية القديمة عن معنى كلمة بيركلوتس فقال: "الذي له حمد كثير"، كما اعترف "أدوين جونس" في كتابه "نشأة الديانة المسيحية" أن معنى الباركليت هو محمد (عليه الصلاة والسلام)، لكنه يطمس اعترافه بكذبة وطامّة لا تنطلي على أهل العلم والتحقيق، فهو يقول بأن المسيحيين أدخلوا هذا الاسم في إنجيل يوحنا جهلاً منهم بعد ظهور الإسلام، وتأثرهم بالثقافة الدينية للمسلمين!!!!!!

- لكن الجميع يقولون إن باركليت معناه المعزي، والمعزي هو الروح القدس!!!

- حسناً، من المفترض أن الروح القدس هو أحد أطراف الثالوث، وينبغي وفق عقيدتهم أن يكون التلاميذ مؤمنين به، فلمَ أوصاهم عيسى عليه السلام بالإيمان به؟!!! "قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنوا". ثم ماذا تفهم من المعزي؟!!! وإذا كان الروح القدس هو المقصود فلماذا سمي بهذا الاسم الغريب؟!!!

- لا أعرف.

- يوحنا استعمل في حديثه عن الباركليت أفعالاً حسية (الكلام والسمع والتوبيخ) في قوله: "كل ما يسمع يتكلم به"، هذه الصفات لا تنطبق على الألسنة النارية التي هبت على التلاميذ يوم الخمسين؛ إذ لم ينقل أن الألسنة النارية تكلمت يومئذ بشيء. أما الروح فغاية ما يصنعه إنما هو الإلهام القلبي، وأما الكلام فهو صفة بشرية لا روحية. ودليل آخر على ذلك هو فهم أوائلهم لقول يوحنا بأنه بشارة بكائن بشري. فقد ادعى "مونتنوس" (مونطانس) في القرن الثاني (١٦٠-١٨٧م) أنه هو الباركليت القادم وتبعه الكثيرون من ذوي الشأن في المسيحية، وعرفت هذه الحركة بـ"المونطانيّة"[١]، ولم يتفق اللاهوتيون على تسمية المونطانية بالبدعة أو الهرطقة، بل صنفوها كـ"حركة نبويّة زهدية" (تقشفية) ولم تدنها الكنيسة رسمياً قبل عام ٣٨١ ميلادية. وحتى بعد ذلك بقيت كتابات رموزها وأبرزهم العلامة الشهير ترتليانوس، محل تقدير واحترام. ومثل مونطانس ادعى "ماني" أيضاً أنه الباركليت النبي المنتظر.

- أعرف هذا.

- ممتاز. فلو كان فهم مونطانس وماني للباركليت أنه الأقنوم الثالث لله ما تجرؤوا على هذه الدعوى، وإن تجرؤوا، ما كان قد تبعهم أحد أصلاً؛ مما يدل أن المسيحيين آنذاك لم يعتبروا الباركليت روح القدس أو أحد أقانيم الله، وإلا لقامت القيامة على مدعي الألوهية ولم تقعد، ولكنه وصل إلينا الكثير من الكتابات ضدهم، وليس فيها من يتهمهم بأنهم انتحلوا صفة أقنوم من أقانيم الله.

- أجل هذا منطقي جداً.

---

(١) montanism وحسب الموسوعة الكاثوليكية العربية فقد سببت "نزعتها النبويّة غير المضبوطة" (حسب تعبير الموسوعة) ردّ فعل شديداً من قبل الكنيسة، أدّى إلى إدانتها وانفصال مونطانس وأنصاره عن الكنيسة. ومع ذلك امتدّت الدعاية المونطانّية إلى الغرب منذ القرن الثاني، واستمرّت حتى القرن السادس. وقد عرف عن المونطانيين تخليهم عن الشؤون الدنيوية، واشتراكهم في الممتلكات وانصرافهم إلى أشد أعمال النسك وأخشنها.

- ثـــم إن الباركليت يجيء بعد ذهاب المســـيح من الدنيا، فالمســـيح والباركليت لا يجتمعان في الدنيا. وهذا ما يؤكد أن المعزي لا يمكن أن يكون الروح القدس الذي أيد المسيح طيلة حياته. بل وكان مع بني إسرائيل طويلاً؛ "أين الذي جعل في وسطهم روح قدسه" (إشعياء ٦٣: ١١).

- وهذا منطقي أيضاً.

- إن الباركليت كما يدل حديث عيســـى عليه الســـلام هو بشر مرسل. (١٤: ١٦): "وأنا سأســـأل الأب، فيهب لكم معزياً آخر". فيستخدم النص اليوناني كلمة (allon) للدلالة على الآخر من نفس النوع فيما تســـتخدم كلمة (hetenos) للدلالة على آخر من نوع مغاير، وإذا قلنا إن المقصود من ذلك رسول آخر أصبح كلامنا معقولاً، ونفتقد هذه المعقولية إذا قلنا: إن المقصود هو روح. بمعنى آخر إن كان عيســـى المعزي هو ابن الله وإله، والعياذ بالله تعالى مما يصفون، فإنه يقول إن الله ســـيبعث لهم ابناً آخر له (إلهاً آخر) غير عيســـى! وإن كان عيسى يعني أن المعزي هو الروح القدس، فإنه يقول إن الله ســـيبعث روحَ قدس آخر!!! وكلا المعنيين باطل. فلم يرسل الله ابناً آخر له، ولا روح قدس آخر، ولكن المعنى يستقيم إذا كان عيسى رسول الله، فإن ذلك يعني أن الله تعالى ســـيبعث لهم رسولاً آخر غيره. ويخبر أيضاً أن رسالته ستكون خاتمة الرسالات السماوية "يكون معكم إلى الأبد". وسبب إخباره لهم بذلك هو وجوب الإيمان به واتباعه عند ظهوره. "لقـــد أنبأتكم منذ الآن بالأمر قبل حدوثه، حتى إذا حدث تؤمنون". وهو يصفه بأنه "ســـيّد هذا العالم"، ويؤكد مجيئه، وأنه ذو أفضلية على من قبله، ويخبرهم أنه بلغهم البشـــارة بأمانة "لأن ســـيد هذا العالم آت (محمد عليه الصلاة والســـلام) وليـــس له يد علي، وما ذلك إلا ليعرف العالم أني أحب الأب، وأني أعمل كما أوصاني (بالتبشير بخاتم رسله)". وهو ينبئهم بالمصاعب التي ستواجههم قبل قدوم المعزي ١٦: ١-١٤: "قُلت لكم هذه الأشـــياء لئلا تعثروا. سيفصلونكم عن المجامع، بل تأتي ساعة،

يظنّ فيها كل من يقتلكم بأنه يؤدي عبادة لله.... وقد قلت هذه الأشياء لكم لتذكروا إذا أتت الساعة أني قُلتها لكم. ولم أقلها منذ البدء، لأنّي كنت معكم. أما الآن، فإني ذاهب إلى الذي أرسلني". وهذه الاضطهادات التي عانوها من الروم وقعت بعد يوم الخمسين الذي حل عليهم الروح القدس فيه! كما يقول المسيح: "فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً"، أين شهد الروح القدس للمسيح؟ وبم شهد؟ في حين نجد أن رسول الله ﷺ شهد للمسيح بالبراءة من الكفر وادعاء الألوهية والبنوة لله، كما شهد ببراءة أمه مما رماها به اليهود، فينبئهم المسيح بأن الرسول القادم سيكون عنده العلم الحق بتمامه، وسينزهه عما نسب إليه (١٦: ١٣-١٤): "فمتى جاء هو، أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله، لأنّه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث، سيُمجّدني لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم". ألا يتكلم المسيح هنا بصراحة عن سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟!!!

- كيف يمكن أن يسمى محمد في الإنجيل بـ"رئيس العالم"؟!!

- ألم يرد في رؤيا يوحنا ١٩: ١٠ - ١٦ "فخررت أمام رجليه لأسجد له فقال لي انظر لا تفعل أنا عبد معك ومع أخوتك الذين عندهم شهادة يسوع، اسجد لله فإن شهادة يسوع هي روح النبوة (ثم) رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً وصادقاً!! وبالعدل يحكم ويحارب وعيناه لهيب نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو وهو متسربل بقميص مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين كتاناً أبيض نقياً ومن فمه يخرج سيف ماض ليضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد وهو يدوس معصرة خمر، سخط وغضب الله القادر على كل شيء وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب".

- هذا النص يتكلم على يسوع نفسه.

- هل يسوع يقول على نفسه أنه عبد معك ومع إخوتك الذين عندهم شهادة يسوع؟!! وهل يكون ذلك من قبيل المصادفة أيضاً أن يكون ذلك الذي رآه يوحنا في الرؤيا يلقب بـ"الصادق الأمين" وهو لقب محمد عليه الصلاة والسلام!! وهل يسوع المسالم هو من حارب، وهل هو من داس معصرة الخمر، مع أنهم يدعون بأنه قال إن الخمر دمه ويتناولونه في قداديسهم؟ وهل يسوع من كان على كتفه خاتم النبوة؟!!!

- وهل محمد رب الأرباب؟

- أنت يهودي وتعرف بالتأكيد أن رب في العبرية والآرامية -كما في العربية- تعني السيد أو المعلم. وفي العهد القديم تكرر هذا بكثرة، ففي سفر القضاة مثلاً سمي الملك رباً في أربع مرات وذلك في الإصحاح السادس ابتداء من الفقرة الحادية عشرة.

- أعرف هذا. ولكن ماذا عن الإنجيل؟

- في هذه النقطة بالذات فإن الأمر في الإنجيل أكثر وضوحاً؛ فقد ورد تفسير كلمة رب على لسان كاتب السفر نفسه في أول إصحاح فيه، وبشكل لا يحمل اللبس: "فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما: ماذا تطلبان، فقالا: ربي (يقول تفسير الكتاب المقدس أنها كلمة آرامية) -الذي تفسيره يا معلم- (هذه العبارة من أصل المتن) أين تمكث؟ فقال لهما: تعاليا وانظرا، فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم" (إنجيل يوحنا ١: ٣٨). وكرر تفسيره مرة أخرى في الإصحاح قبل الأخير في حوار بين المسيح ومريم المجدلية: "قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك وقالت له بالعبرية: ربوني -الذي تفسيره يا معلم- فقال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (إنجيل يوحنا ٢٠: ١٦-١٧). كما جاء في إنجيل لوقا (٢٢: ٧) على لسان المسيح: "فَالْحقا بِهِ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي يَدْخُلُهُ. وَقُولاَ لِرَبِّ ذلِكَ الْبَيْتِ: يَقُولُ لَكَ الْمُعَلِّمُ...". وهكذا، فمع أن كلمة رب قد استخدمت في كل أسفار الكتاب بما فيها الإنجيل للدلالة على الله، ولكنها استخدمت بهم أيضاً أكثر من مرة بمعنى سيد من البشر.

- وهل جاءت هذه الكلمة في القرآن أيضاً في غير معنى الله؟

- بالطبع؛ فقد جاءت على لسان يوسف في حديثه عن العزيز: ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ [**يوسف** : ٢٣]، وفي حديثه عن ملك مصر ﴿ **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾ [**يوسف** : ٤٢]، ﴿ **ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ** ﴾ [**يوسف** : ٥٠]. ومع ذلك أجد تعبير رب الأرباب أو حتى سيد الأسياد أو معلم المعلمين هو من قبيل مبالغة النساخ وتلاعب المترجمين، والله أعلم؛ فقد فعلوا ذلك في نصوص كثيرة أخرى، منها بعض الصفات التي وردت في الكتاب المقدس عن الرسول ﷺ التي جاءت في سفر نشيد الإنشاد ٥ : ٩، حيث تصف أنثى لصاحباتها أوصاف من تحبه، وتستفيض في شرح هذه الصفات التي لا ينطبق الكثير منها إلا على النبي ﷺ فتقول:"حبيبي أبيض وأحمر معلم بين ربوة (بين عشرة آلاف في النسخة الإنجليزية)، رأسه ذهب إبريز قصصه مسترسلة حالكة كالغراب... يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد، بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق... حلقه حلاوة وكله مشتهيات هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم". وكثير من هذه الصفات هي مما وصف به الرسول في كتب الحديث مثل صحيح البخاري وغيره.

- هل تصفون رسولكم بأنه مشتهى من النساء؟!!!!!!!!

- كلا بالطبع، بل قصدت الباقي. ولكن كلمة "كله مشتهيات" هي ترجمة قد تلاعبوا بها كالعادة. فكيف هي بالعبرية يا سيد دوخافيتسكي؟

- لا أذكر.

- سأريك الترجمة الإنجليزية التي تحوي الأصول العبرية للكلمات غير المفهومة، وتستطيع التأكد لاحقاً من الأصل العبري.

ثم أراه النص الآتي:

He is “altogether lovely”(“machmadim” in hebrew) frind o daughters of Jerusalem.

- يـــا إلهي. أجـــل، الآن تذكرت، لقد وردت في النســـخة العبرية هكذا: "محمديم מחמדמ".

- وإذ إن تلك الزيادة المضافة لكلمة محمد أي "im" تستخدم عندكم للتعظيم، فإن هذا يدل على أن المقصود اسم وليس صفة. أليس كذلك؟

- أجل، لكن هذه الكلمة تحتمل معنى الحمد، وتحتمل أحياناً معنى الاشتهاء[1].

- أن يقال: (إنه المشـــتهى العظيم هذا هو حبيبي وهذا هو خليلي) هو الأنسب أم أن يقال: (إنه محمد العظيم هذا هو حبيبي وهذا هو خليلي)؟!! سأســـمعك إياها في العبرية لأنعش ذاكرتك: "حِكو مَمْتَكيم فِكلّو محمديم زيه دُودي فَزيه ريعي".

- هذا صحيح. ولكن هل تعرف العبرية؟

- فقـــط ما يتعلـــق بحبيبي محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التســـليم. وكما ترى، أمصادفـــة أيضاً أن تأتي كلمـــة محمديم تحديداً في الموضع الذي يتوقع ذكر اســـم الشـــخص المقصود فيه؟!! ومن النصوص التي لا تزال توجد للآن فيما بين أيدينا من الكتاب وذكر بها اسم النبي ﷺ صريحاً هو ما ورد في سفر حجي ٢ : ٦-٩: "لأنه هكذا قال رب الجنود هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم، فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود، لي الفضة ولـــي الذهب يقول رب الجنود، "مجد هـــذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول" قال رب الجنود، "وفي هذا المكان أعطي السلام" قال رب الجنود". وكلمة مشتهى التي وردت في النص هي ترجمة لكلمـــة HEMDA "حمدا" في العبرية، وحروفها أيضاً هي الحروف نفســـها التي يشتق منها اسم النبي ﷺ بالعربية. والعجيب أن المسيحيين قالوا أن HEMDA هو المســـيح عليه الســـلام وليس محمداً ﷺ!! وأحســـب أن أي

(١) تتألّف من الحروف العبرية الأربعة: (ميم - حيت - ميم - دالت) بالإضافة إلى ميم التعظيم، ويقابلها في العربية: (ميم - حاء - ميم - دال) "محمد" وهذا الاسم يحتمل حسب قاموس "بن يهوذا" أربعة معان هي: المحبوب - المُشتهى - النفيس - المحمَّد.

منصف عندما يقرأ النص السابق لن يجادل في أن البيت المذكور بالنص هو البيت الحرام بمكة الذي صار مجده أعظم من مجد البيت الأول، أي أولى القبلتين المسجد الأقصى الذي تسمونه هيكل سليمان. وأن السلام الذي ملأ البيت هو الإسلام، وأن HEMDA ليس أي واحد سوى محمد ﷺ. ولست أدري من أجل من يعبث بآيات الله وكتبه هكذا!!! ومن أجل من يترجم الإسلام إلى السلام والسلامة تارة، ومحمديم وحمدا إلى المشتهى تارة، وبكة إلى البكاء تارة أخرى؟!!!

- هل يعقل هذا؟!!

- أجل ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المدثر: ٣١]، صدق الله العظيم. وثمة كتاب قديم اسمه "الدين والدولة" لـ"علي بن الطبري"، وقد كان صاحب هذا الكتاب نصرانياً وهداه الله للإسلام وتوفي في عام ٢٤٧هجرية. يقول في كتابه: "جاء في سفر أشياء (أشعيا): إني جعلت اسمك محمداً يا محمد يا قدوس الرب اسمك موجود من الأبد". ويقول أيضاً في الكتاب نفسه الذي كتبه قبل نحو ألف ومئتي سنة: جاء في سفر حبقوق: "إن الله جاء من التيمان والقدوس من جبل فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده". والنبوءة السابقة التي ذكرها صاحب كتاب الدين والدولة منذ اثني عشر قرناً هي النبوءة نفسها التي ذكرناها قبل قليل ولكن غير متضمنة اسم النبي ﷺ صريحاً. وأيضاً كلمة (حمده) مذكورة بدلاً من(تسبيحه). والكلمة كما وردت في النسخة الإنجليزية هي praise وترجمتها بالعربية التسبيح و(الحمد) أيضاً. وصدق الله إذ يقول: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٠].

- لقد اكتشفت فعلاً بعض النسخ القديمة من أسفار التوراة، وبالذات سفر أشعيا. وهي تختلف فعلاً عما بأيدينا.

- هل قرأت سفر أشعياء المكتشف، والذي عدوه من أسفار الأبوكريفا؟

- لقد اطلعت عليه ولم أقرأه كله. لماذا تسأل؟

- لأنـــه يحوي نصاً قاطعاً يتكلم على معراج لنبي آخـــر الزمان يتطابق مع معراج النبي ﷺ: "ورأيت كيف صعد (المشيخ نبي آخر الزمان) إلى السماء السابعة، فيما كل الصديقين والملائكة يمجدونه حينئذ رأيته يجلس عن يمين المسجد الأعظم"، فمن هو النبي الذي عرج به حتى السماء السابعة، أليس هو النبي محمداً ﷺ؟! وهذا ما يجعلنا نفهم المقصود مما ورد في نصين مختلفين من التوراة الحالية يبدو أنهما يتحدثان عن الموضوع ذاته.

- حقاً؟ وما هما؟

- الأول هو: "ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشـــر آتياً على ســـحاب السماء فبلـــغ إلى القديم الأيـــام (الله تعالى) وقُرِّب إلى أمامه، وأوتي ســـلطاناً ومجداً وملكاً فجميع الشعوب والأمم والألســـنة يعبدونه (يعظمونه) وسلطانه سلطان أبدي لا يزول ملكه ولا ينقرض"(دانيال ٧: ١٣-١٤).

- هذه الفقرة يفسرها المسيحيون على أنها مسير رمزي لناسوت يسوع المسيح.

- حقـــاً!!! إذا كان الأمر كذلك فلمَ لمْ يذكر شـــيئاً عن هـــذه المرحلة المزعومة من ناسوت المسيح التي صعد فيها إلى السماء وقرب من الله الذي أعطاه سلطاناً ومجداً إلـــى الأبد، فنحن لا نجد أي أثر على ذلك لا في الأناجيل ولا في بقية أســـفار العهد القديم ولا في التقليد ولا حتى في أي من كتابات الآباء!!!

- هذا صحيح أيضاً، وما النص الآخر؟

- "غنوا لله، رنموا لاسمه، أعدوا طريقاً (بترجمة أخرى "مهدوا") للراكب في القفار باســـمه واهتفوا أمامه، أبو اليتامى وقاضي الأرامل الله في مســـكن قدسه" (المزامير ٦٨: ٤-٥). والغريـــب أن كلمة "القفار" قد وردت مختلفة تماماً في الطبعات المختلفة:

"البراري" و"السحاب" و"السماء". وإذ أنت يهودي ودارس للتوراة، فلابد أنك تعرف أصل هذه الكلمة باللغة العبرية والآرامية.

- أجل، إنه "عرفات"، ومعناها الحرفي كما درسنا "الصعود إلى السماء"، واصطلاحاً "السماء السابعة".

- ألا تنطق بالعبرية: "بعرفات" والباء حرف جر[١]؟

- أجل.

- أي الراكب أو الصاعد على عرفات، فهي نبوءة عن جبل عرفات والحج إليه، فهل يوجد الآن جبل لله (يذهب إليه الناس بالملايين للحج) في أي دين سماوي إلا جبل عرفات؟!! والآية التي بعدها: "لماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدن الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه. بل الرب يسكن فيه إلى الأبد". فهل يوجد الآن جبل لله يَنْشُده الناس (بأعداد كبيرة) ويسبحون الله عز وجل فيه ويحمدونه ويهللون له فيه إلا جبل عرفات الذي بمكة؟!!![٢] كما أن النبي عليه الصلاة والسلام قد ركب البراق وأسري به إلى السماء من مكة بالذات[٣].

- يا إلهي.

---

(١) تستطيعون التأكد من اللفظ عن طريق هذا الرابط العبري بالصوت:
http://www.mechon-mamre.org/p/pt/pt2668.htm
(ملاحظة: إن ترجمة المزمور وضعت رقم أربعة للعدد، أما الترجمة العبرية فالعدد بها رقم خمسة من المزمور نفسه رقم ثمانية وستين) ثم الضغط على(Listen to this Chapter in Hebrew) وانتظروا حتى العدد الخامس وستسمعون (بعرفات) واضحة وضوح الشمس.

(٢) هناك عدة نبوءات عن عرفه وعرفات، مثل: "صوت صارخ بالصحراء... قوّموا في عرفه سبيلاً لإلهنا". تجدها بالصوت على الرابط:
http://www.imanway1.com/horras/showthread.php?p=199382#post199382

(٣) ونجد أيضاً النص التالي في (المزامير ٦٨: ٣٣): "للراكب على سماء السموات القديمة. هوذا يعطي صوته صوت قوة".

- وإخفاء هذا الاســم هو بسبب الترجمات والمعاني المختلفة، مع أنه حري بهم ألا يترجموا الأسماء أصلاً بل يتركوها كما هي، فالأسماء لا تترجم.

- ولكــن هل " أبو اليتامى" و"قاضــي الأرامل"، كما تقول بقية النبوءة، تنطبق على نبيكم؟!

- لقد جاء ذكر اليتامى والإحسان إليهم في أكثر من عشرين موضعاً في القرآن الكريم[1]، وبأكثر من ذلك بكثير في أحاديث الرسول عليه السلام. ويكفي أنه شجع على كفالة اليتيم بقوله ﷺ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشــار بالســبابة والوســطى"[2]. والأمر نفســه ينطبق عليه ﷺ في ترغيبه التكفــل بالأرامل بقوله: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل" (رواه البخاري ومســلم)، وفي تشديده على إعطائهن حقوقهن الكاملة، ومنها أنه لا جناح عليهن أن يتزوجن بعد انقضاء العدة[3]. وهي كذلك تستشــار حتى في

---

(١) على سبيل المثال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة بسند صحيح. وعن يحيى بن سعيد بن دينار مولى آل الزبير قال: أخبرني الثقة أن رسول الله ﷺ قال: ما من بيت مدر ولا شجر أكرم من بيت فيه يتيم. رواه أبو يعلى الموصلي. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه فقال ﷺ: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك). رواه الطبراني، ورواه أيضاً الإمام أحمد بسنده قال الهيثمي تبعاً لشيخه الزين العراقي: صحيح. والحديث صححة الألباني؛ انظر حديث رقم: ٨٠ في صحيح الجامع. وقد عدَّ الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن ؟، قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات). صحيح البخاري، باب الوصايا، حديث رقم ٢٦١٥.

(٣) عدة الأرملة أربعة أشهر وعشر ليال لاستبراء الرحم.

أمـــر فطام الولد، ولا يحق لأحد أن يُخـــرج الأرملة من بيتها قبل انقضاء عام كامل مضمونة لها فيه معيشـــتها وإقامتها من إرث زوجها المتوفى، بالإضافة إلى ميراثها الشـــرعي منه. والأرملة حرة بمجرد انقضاء عدتها أن تفعل بنفســـها ما تشاء في حدود شـــرع الله. أما في التوراة فنقرأ كيف تورَّث أرملة الأخ المتوفى لأخيه (تثنية ٢٥ : ٥)، أما الأرملة المســـيحية فتَستحب لها ملتها ألا تتزوج بعد زوجها المتوفى، كما قال بولس في كتابهم.

وضع أبراهام رأسه بين كفيه مجدداً، وقال بقنوط:

- ولكن الكل يجمع أن محمداً هو نبي كاذب!

- لقد اشتهر عن الرسول ﷺ الصدق حتى قبل بعثته، وكانوا في الجاهلية يلقبونه بالصادق الأمين. ومن المعلوم ضرورة أنه لا يمكن لرجل كاذب، مداوم على الكذب لمدة ثلاث وعشرين سنة (هي فترة رسالة نبينا الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم)، ويدعي كل يوم أنه أتاه وحي جديد من الله تعالى، ومع هذا لم يستطع أحد أن يلاحـــظ ذلك عليه ويعرف حقيقته. فـــإن من كان في قلبه خلافُ ما يبطن فلا بد أن يزِلَّ، وأن تُعرَف حقيقته بفلتات لسانه ولحن قوله طوال هذه المدة. أليس كذلك؟

تنهد أبراهام بيأس قائلاً:

- لقد قرأت قصة محمد وبعضاً من أحاديثه، وكلها تظهر ما تقوله عنه فعلاً، ولكن ما أدراني أنها ليست مجرد قول مزخرف؟ كما أن بها بعضَ الحوادث التي تبعث على الشك.

- اعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين، وأرخيت لها عنان الشك، وتركتها تفترض أســـوأ الفروض في الواقعة الواحدة، والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة، فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة، لا تملك أن تَدفع هذا اليقين عن نفسك، إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشـــك في ســـلامة عقلك، فنحن قد نرى الناس يدرســـون

حياة الشعراء في أشعارهم، فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة؛ تتمثل فيها عقائده، وعوائده، وأخلاقه، ومجرى تفكيره، وأسلوب معيشته، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط خيلته، وكشف رغوته من صريحه؛ ذلك أن للحقيقة قوةً غلابة تنفذ من حُجُبِ الكتمان، فتُقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول.

- لا أدري.

- أتعلم أنه في مؤتمر حوار الأديان الذي عقد في قرطبة بإسبانيا عام ١٩٧٧ ألقى الدكتور "ميجيل إيرناندث" بحثاً بعنوان "الجذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التي كونتها المسيحية عن النبي محمد" ﷺ قال فيه: "لا يوجد صاحب دعوة تعرض للتجريح والإهانة ظلماً على مدى التاريخ مثل محمد. إن الأفكار حول الإسلام والمسلمين ونبيهم محمد استمرت تسودها الخرافة حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ولم يمنع الاحتكاك المباشر بين الطائفتين من انتشار هذه الخرافات... لقد سبق أن أكدت في مناسبة سابقة الاستحالة من الوجهة التاريخية والنفسية لفكرة النبي المزيف التي تنسب لمحمد ما لم نرفضها بالنسبة لإبراهيم وموسى وأصحاب النبوات الأخرى من العبريين الذين اعتبروا أنبياء. إنه لم يحدث أن قال نبي بصورة بينة وقاطعة أن عالم النبوة قد أغلق. وفيما يتعلق بالشعب اليهودي، فإن عامل النبوة ما يزال مفتوحاً ما داموا ينتظرون المسيح المخلص. أما فيما يتعلق بالمسيحية، فإنه لا يوجد أي تأكيد قطعي يدل على انتهاء عالم النبوة. وأي قارئ لرسائل القديس بولس الرسول وآثار الحواريين وسفر الرؤيا يعلم ذلك جيداً. وفيما يتعلق بي، فإن يقيني أن محمداً نبي لدرجة أني حاولت في دراسة لي، كتبت عام ١٩٦٨، أن أشرح أن محمداً كان نبياً حقاً من وجهة النظر الدينية المسيحية نفسها".

- لا أعرف ماذا أقول.

- دعنـــا نقرأ ما جاء في إنجيل متى الإصحـــاح٧: ١٥: "احترزوا الأنبياء الدجالين الذين يأتون إليكم لابسين ثياب الحملان ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم، هل يجنى من الشـــوك عنب أو من العليق تين؟ هكذا كل شجرة جيدة تثمر ثمراً جيداً، أما الشجرة الرديئة فإنها تثمر ثمراً رديئاً، لا يمكن أن تثمر الشجرة الجيدة ثمراً رديئاً، ولا الثمرة الرديئة ثمراً جيداً، وكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتطرح في النار، إذن من ثمارهم تعرفونهم". والمسيح عليه السلام بهذه الكلمات الرائعة يبين لتلاميذه كيف يفرق بين النبي الصادق والنبي الكاذب، ومجرد وضع ذلك المقياس بين النبي الصادق والنبي الكاذب يعتبر دليلاً على إمكانية بعث نبي آخر بعد المســـيح عليه الســـلام، ولو كان المسيح هو آخر الأنبياء لكفاه أن يقول: "لا تتبعوا أحداً يأتي بعدي"، إلا أنه بذلك يؤكد قدوم نبي بعده ولكنه يحذرهم من تصديق الدجالين الذين سيدَّعون النبوة بغير وجه حق.

- فعلاً.

- وأنا أهيب بك أن تنظـــر إلى الثمرة التي أخرجها محمد ﷺ. لقد أخرج أجيالاً تعبد الله وتوحده، وتســـبح بحمده، وتحترم وصاياه، وتؤمن بكتبه، وتوقر جميع أنبيائه وتعلي من قدرهم. أخرج محمد أجيالاً تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتُحِل الحلال، وتحـــرم الحرام، وتنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتنشـــر دين الله في كل أرجاء المعمورة، وتقيم العدل وتحمي المظلومين وتشجع العلم.

تذكر أبراهام بائعي الفلافل فأفلتت منه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- ربما كان ذلك سابقاً، أما الآن فلا أظن ذلك.

- لماذا!!! فها هم أولاء المســـلمون الآن نحو مليارين من البشـــر، وعلى كل عيوبهم ونقائصهم فهم أقل أهل الأرض ارتكاباً للزنى الذي قبحه الله ومحمد والمسيح وموسى، وأقل أهلها شـــرباً للخمر الذي نهى عنه الله ومحمد والمســـيح وموســـى، وأكثر أهل

الأرض اتباعاً لوصايا الله ومحمد والمسيح وموسى!! وهذا أمر لا ينكره إلا جاحد، ولا يستغربه إلا حاقد. وذاك هو حالهم في وقت ضعفهم وتفرقهم وذلتهم، وبُعدِهم عن أصول دينهم، فما بالك بهم إذا عادوا إلى أصول الدين واتحدوا واستعادوا مجدهم وقوتهم؟!!!

مشكاة واحدة

وجد أبراهام فعلاً أن المسلمين على "شبقهم الجنسي" الذي يأخذه عليهم إلا أنهم فعلاً أكثر الشعوب محافظة على الأخلاق، وأقلهم ارتكاباً للزنى؛ فأغلب الشعوب الأخرى ينتشر فيها الاختلاط ويمارس أفرادها الزنى منذ الصغر، ويبارك أهلهم صداقاتهم المختلطة، وتعترف قوانينهم بالعلاقات المحرمة شرط ألا تكون بالإكراه، ولا تنظر مجتمعاتهم بأي نوع من الاستهجان لسكنى رجل وامرأة بالغين معاً دون زواج، وبعض المجتمعات تنظر إليه نظرة إيجابية تماثل نظرتها إلى الزواج الحقيقي، بل بعضها يسمي إقامتهما معاً بـ"الزواج المدني" حتى دون أن تكتب مجرد ورقة بهذا الزواج المزعوم.

كما وجد أبراهام أن المسلمين فعلاً أقل الناس استهلاكاً للخمور، بما في ذلك غير الملتزمين منهم. ومع أنه ممنوع في كثير من بلادهم، إلا أن الدين، وليس القوانين، هو من يردعهم عن الخمر. فعندما تجد في العالم المسيحي أو حتى في إسرائيل مطعماً أو (سوبر ماركت) لا يبيع الخمور ولا يسمح بتناولها فيه، فأنت تعلم علم اليقين أن صاحبه لا ريب مسلم، ولن يخطر ببالك بتاتاً أنه مسيحي أو يهودي. والمسلمون الذين يمنعون الخمر في مطاعمهم وسوبر ماركاتهم في أوربا وأمريكا وإسرائيل يعلمون جيداً أن قوانين تلك الدول تسمح بل تشجع على ذلك، كما أنهم يدركون جيداً أنهم بهذا يخسرون الكثير من المال، فكثير من رواد تلك المطاعم يغادرونها فوراً عندما يعلمون أن الشرب فيها ممنوع كما رأى ذلك بنفسه مراراً. وكثير من المشترين يفضلون شراء حوائجهم من محلات تبيع الخمور كي لا يضطروا إلى الذهاب إلى أكثر من سوبر ماركت واحد في تبضعهم. ونسبة المسلمين الذين يضحون بهذا المال في سبيل ربهم

هي نسبة معتبرة مع أنهم في تناقص كما لاحظ مؤخراً، ولكن مع ذلك، فإن نسبة المسيحيين واليهود الذين قد يفعلون مثلهم تقترب من الصفر كثيراً.

وجد أبراهام أيضاً أن المسلمين أكثر الشعوب حفاظاً على الوصايا العشر[1]، فليس لهم إله إلا الله، ولا يسجدون لصنم، ولا يعظمون صورة أو شعاراً أو أي شيء آخر كما تفعل بقية الشعوب، وهم أكثر الشعوب إكراماً لوالديهم وأشدهم ترابطاً أسرياً وصلة للرحم، كما أن نسبة جرائم القتل والسرقة في بلادهم هي الأدنى على مستوى العالم. وهم يستكبرون أن يشهدوا بالزور، ونسبة الخيانة الزوجية بينهم هي الأقل فعلاً مقارنة ببقية الشعوب، ومن ثم فهم يحافظون على الوصايا العشر أكثر من بقية الشعوب التي تنتهكها بانتظام، وللأسف الشديد فإن أكثر الشعوب انتهاكاً للوصايا العشر هم اليهود والمسيحيون أنفسهم. هذا رغم ابتعادهم (المسلمين) عن دينهم ورغم كثرة عيوبهم وضعفهم وتفرقهم!!!! أستطيع أن أتخيل الحال فعلاً أيام التزامهم بدينهم وصلاحهم وقوتهم ووحدتهم!!!

وقرآنهم. آآآه من قرآنهم؛ إنه فعلاً لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. أما الكتاب المقدس بعهديه فقد تلاعب به الباطل ذات اليمين وذات الشمال. ولكن أصحاب العهد القديم والعهد الجديد هم أنبياء إسرائيل، ومهما عبثت الأيادي بأسفارهم يظلون أنبياء إله إسرائيل، وستظل كلمات الله بها كالجواهر وإن غطتها القمامة، أما محمد فهو من الأمم.

---

(١) سفر الخروج ٢٠ : ٢ : "أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك، ٣ : لا يكن لك آلهة أخرى سواي، ٤ : لا تنحت لك تمثالاً ولا صورة، ... ، ٥ : لا تسجد لهن ولا تعبدهن، ... ، ٧ : لا تنطق باسم الرب باطلاً، ... ، ١٢ : أكرم أباك وأمك، ... ، ١٣ : لا تقتل، ١٤ : لا تزن، ١٥ : لا تسرق، ١٦ : لا تشهد على قريبك شهادة زور، ١٧ : لا تشته بيت جارك، ... ، ولا شيئاً مما له". وهذا ما يُسمّونه بالوصايا العشر. وقد ورد نص الميثاق والوصايا في: (البقرة ٨٣ - ٨٤) و(الأنعام ١٥١ - ١٥٣) و(الإسراء ٢٢ - ٣٩).

كانت الحيرة قد بلغت أشدها عند أبراهام، ولم يعد يعرف من يصدق؛ العهد القديم أم العهد الجديد أم القرآن الذي يبدو أنه فعلاً "العهد الأخير"[١]، كما سمع في إحدى المحاضرات المسجلة للداعية "أحمد ديدات"؟ فقال له رحمة الله كأنه قد أحس بما يدور بخاطره:

- إن الدين عند الله هو الإسلام، الذي هو دين جميع أنبيائه وأتباعهم[٢]، وهناك أمور عديدة اشتركت فيها جميع أسفار الكتاب على مر الزمان[٣] تثبت أن ما جاء به

---

(١) عن رسول الله ﷺ: - قال كعب: "عليكم بالقرآن فإنه أحدث الكتب عهداً بالرحمن". فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١٣/ ٥٠٨، وإسناده حسن. وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال: "كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم، وعندكم كتاب الله، أقرب الكتب عهداً بالله، تقرؤونه محضاً لم يشب؟"، الجامع الصحيح للبخاري، برقم: ٧٥٢٢. وعن عمرو بن عاصم عن كعب، قال رسول الله ﷺ قال: "..عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ فَهْمُ الْعَقْلِ وَنُورُ الْحِكْمَةِ وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَأَحْدَثُ الْكُتُبِ بِالرَّحْمَنِ عَهْداً" سنن الدارمي. حديث رقم ٣١٩٣ (موسوعة الحديث الشريف الإلكترونية: الإصدار الأول ١، ١ / شركة صخر لبرامج الحاسب). كما قال رسول الله ﷺ: "لا نبي بعدي" (رواه البخاري) و: "أنا آخر النبيين وأنتم آخر الأمم" رواه مسلم (الصحيح ١٨ / ٥٥) الترمذي (الجامع ٤ / ٢٣٢) وأحمد (الفتح الرباني ٢٤/ ٧٦) الحاكم (المستدرك ١/ ٥٣٦).

(٢) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، و: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

(٣) إن تصريح القرآن بتحريف الكتاب هو في البعض وليس في الكل لأن القرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣. فكلمة(نصيباً) هنا جاءت نكرة وبعدها لفظة (من) للتبعيض، والمعنى: أوتوا قدراً محدوداً من الكتاب وليس الكتاب كله، ويؤيده قول الله عز وجل في القرآن: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا﴾ [المائدة: ١٤]. فقول الله عز وجل أنهم نسوا حظاً أي ليس كل ما ذكرناهم به، والجزء الباقي الصالح للاحتجاج به من كتبهم محكوم بمدى تصديق القرآن له: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، لأن القرآن هو الكتاب الخاتم، وهو كل الكتاب الذي أراده الله للبشر، وهو الكتاب المحفوظ حقاً: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢]. فقوله عز وجل: ﴿لا رَيْبَ﴾ أي إنه هو الكتاب الحق، فأي استشهاد من هذه الكتب التي حرف بعض ما فيها يتوقف على مدى مطابقته للكتاب الحق المحفوظ من عند الله وهو القرآن الكريم.

الأنبياء جميعاً لا يختلف في مضمونه وفي أهدافه بعضه عن بعض. ولذلك يقول الله في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وأذكر هنا كلمة النجاشي عظيم الحبشة حينما عرض عليه زعيم المسلمين اللاجئين إلى دياره، (جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه) أموراً من التي يدعو إليها الإسلام، فرد النجاشي قائلاً: "إن هذا وما أتى به المسيح ليخرجان من مشكاة واحدة".

- كيف ذلك، ولكم أمور كثيرة تختلف جذرياً عما كان عليه أهل الكتاب!

- مثل ماذا؟

- الصلاة والسجود كما في الإسلام، وحجكم للكعبة.

- ذكر برنابا أن المسيح كان يغتسل قبل الصلاة بحسب أمر الله في كتاب موسى، وكان يصلي باستمرار في أوقات ثابتة (الفجر- الظهر - العشاء) ويصوم في أوقات محددة، كما ذكر أن التلاميذ كانوا دائماً يصلون مع المسيح بانتظام ويصومون ويبكون متأثرين بتعاليم المسيح، وكذلك مريم أم المسيح عليهما السلام كانت دائماً تصلي لله وتبكي (فصل ٢٠٩).

- ولكن لا ذكر لذلك في الأناجيل المعتمدة، بل جاء فيها أن التلاميذ لم يكونوا يصلون ولا يصومون (مرقص ١٢:١٦)، لدرجة أن اليهود انتقدوهم بسبب ذلك، فقام المسيح بالدفاع عن تلاميذه وشتم من ينتقدهم (مرقص ٢:١٩).

- أظنك تستطيع تمييز الأصل عن الإضافات المتأخرة، والتي لا يستقيم المعنى بها بتاتاً. فقد جاء في إنجيل متى عن المسيح: "ثُمَّ تَقَدَّمَ قليلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ وَكَانَ يُصَلِّي" (متى ٢٦: ٣٩)، وفي متى أيضاً أنه قال لإبليس عندما طلب منه أن يسجد له قائلاً: "أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي". حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: "اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ" (متى عدد ٤)، وورد في رؤيا يوحنا ٧: ١١: "وجميع الملائكة كانوا واقفين حول العرش والشيوخ والحيوانات أربع

وخروا أمام العرش على وجوههم وسجدوا لله". كما ورد في سفر التكوين ١٧: ١- ٣: "ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملاً. فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً. فسقط (خر) إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً". وورد في المزمور ٩٥: ٦: "هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا". وورد في سفر الخروج ٣٤: ٨: "فأسرع موسى وخر إلى الأرض وسجد". ولا يزال السامريون إلى الآن تحتوي صلواتهم على ركوع وسجود، بالإضافة إلى أنها تسبق بوضوء. أما عن الحج، فقد ورد في مزمور ٨٤: ٢: "عابرين في وادي بكة يصيرونه ينبوعاً".

- أظنك محقاً في هذا، فقد تكلمت مع صديق عربي، وأقنعني بهذا فعلاً، مع أنني لم أعترف بذلك وقتها[١].

- هداك الله يا بني. وستتأكد من أننا، أنا وصديقك العربي، محقان في أكثر من ذلك إنشاء الله تعالى.

- وماذا عن صومكم؟

- في أول الإسلام كان الصيام عندنا كما كان عند من قبلنا؛ أي يفطر المسلمون من صلاة المغرب حتى صلاة العشاء، ثم يمسكون إلى الغد حتى تغرب الشمس[٢]، ثم نزل التخفيف تشريعاً جديداً مفصلاً في قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فنُسخ المنع السابق وأبيح لنا الأكل والشرب والنساء طيلة الليل.

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

(٢) كان يحرم على الصائم الأكل والشرب والوطأ من حين ينام أو يصلي العشاء، فأيهما حصل أولاً حصل به التحريم، وتكون مدة الإفطار هي مدة ما بين المغرب والعشاء فقط، وإذا نام بعد المغرب وقبل العشاء حرم عليه الأكل.

- لم خفف عنكم بالذات؟

- لأننا آخر الأمم وأضعفها وأقلها عمراً وبسطة في الجسم.

- ولماذا ثلاثين يوماً؟

- هذه هي سنة الله منذ القدم، وإلا فلم واعد موسى عليه السلام ربه ثلاثين يوماً وليلة قضاها صائماً قبل موعد كلامه مع الله جل جلاله. وقد لاك موسى بعض النبات كي يغطي على رائحة فمه، ولكن الله تعالى عاتبه، لأن ريح فم الصائم عنده أطيب من المسك، وزاده عشر ليال لذلك. وربما حدثت فتنة بني إسرائيل عندما تأخر عليهم موسى أكثر من فترة الصيام المعهودة للصيام والله أعلم، فعبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري. وقد قال القرطبي في جامعه عن الشعبي وقتادة وغيرهما: "إن الله تعالى كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيَّروا، وزاد أحبارهم عليهم عشرة أيام"، وقد ورد في إنجيل متى الإصحاح ٤ الفقرة ٢: "فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً". وهناك أيام أخرى يصوم فيها المسلم تطوعاً، ونرى أن عموم اليهود المتدينين كانوا كذلك فعلاً، فقد جاء في إنجيل لوقا ٥: ٣٣: "وقال بعضهم ليسوع: تلاميذ يوحنا يصومون ويصلون كثيراً، ومثلهم تلاميذ الفريسيين، أما تلاميذك فيأكلون ويشربون". وقد جاء في صموئيل الأول والثاني: و"صاموا إلى المساء" (٢ صم١:١٢)، وكذلك أهل نينوى (يونان ٣:٥-٧)، وشعب أستير (أستير ٤:١٥ و١٦). قال الرب بفم يوئيل النبي: "قدسوا صوماً، نادوا باعتكاف"(يؤ ٢:١٥). وقد كان داوود عليه السلام يصوم نصف الدهر فيفطر يوماً ويصوم يوماً.

- ولكن الثلاثين يوماً الأساسية عندكم يجب أن تكون في شهر رمضان بالذات، وهذه بدعة إسلامية لم تكن قبلكم.

- ربما لم يكن الأمر كما تظن؛ فقد جاء في تفسير ابن كثير من رواية عباد بن منصور عن الحسن قال: "والله لقد كتب الله الصيام على كل أمة خلت كما كتبه علينا

شـــهراً كاملاً"، وعن ابن عمر مرفوعاً قال: "صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم"، وأخرج الطبري بســـنده عن السدي ونقله "صاحب الدر المنثور" في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٣] قال: "أما الذين من قبلنا فالنصارى كُتب عليهم رمضان، وكُتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم، ولا ينكحوا النســـاء شهر رمضان، فاشتد على النصارى صيام رمضان، وجعل يتقلب عليهم في الشـــتاء والصيف، فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا الصيام في الفصل بين الشـــتاء والصيف، وقالوا نزيد عشرين يوماً نكفر بها ما صنعنا فجعلوا صيامهم خمسين".

- ربما كنت محقاً في ذلك، فقد قرأت عن الظروف التاريخية التي صاحبت تغيير المســـيحيين في وقت وكمية، بل وحتى طبيعة صومهم[١]، ولكن ماذا تستطيع القول في الحدود عندكم، فهي أكثر قسوة ومختلفة كثيراً عما عند اليهود والمسيحيين.

---

(١) مراحـل تبديل الصـيام في المسيـحية طـويلة ومعقدة، مرت بزيادة ونقصان لأسباب دينية واجتماعية وحتى سياسية، وتراوحـت ما بين الامتناع الكامل عن الطعام والشراب إلى السماح بأنواع متغيرة منه، إلى أن وصـل إلى ما هـو عليه اليـوم. ولن نخـوض هـنا في تلـك التفاصيل المملة ولكن نكتـفي بنقـل فقرة من موقـع كنيسـة الاسكندرية الكـاثوليكي تحـت إشـراف دار الـقديس بطـرس للبرمجـة والنشر الأب د. يوأنس لحظي جيد،

http://www.coptcatholic.net/section.php?hash=aWQ9NjM0

بعد التصرف بحذف بعض الجمل غير اللازمة في هذا الموضوع: "كان المسيحيّون في زمن الرسل يصومون من الفجر وحتّى الغروب، ثم بدأت الكنيسة تبدّل طريقة صومها تدريجيّاً، من ناحية الشكل أوّلاً ثمّ من ناحية المضمون. في البداية استبدلوا يوميّ الاثنين والخميس بيوميّ الأربعاء والجمعة، و في القرن الثالث الميلاديّ، قرّرت الكنيسة إنشاء صوم قانونيّ. أي صوماً يمارَس سنويّاً في تاريخ محدّد. وتمّ اختيار يوميّ الجمعة العظيمة والسبت، وسمحتَ فيه بتناول الماء. وفي القرن الرابع الميلاديّ أصبحت ممارسة الصوم الأربعينيّ شائعة، فجعلته الكنيسة صوماً قانونيّاً وإجباريّاً، ودرجت العادة على متابعة الصوم يوم الأحد بالامتناع عن تناول بعض الأطعمة. وفي أيّام الأسبوع، تناول وجبةٍ واحدة فقط يوميّاً بعد صلاة الغروب، لكنّ المؤمنين احتالوا على الصوم، وبدأوا ينعمون بالمآكل والمشارب اللذيذة الّتي تحترم في بنيتها الممنوع الغذائيّ الّذي تفرضه الكنيسة في الصوم، ممّا أدّى، في الآونة الأخيرة، ببعض المعلّمين إلى رفض صوم الطعام، أو الصوم الغذائيّ، والدعوة إلى تكثيف الحياة الروحيّة والإكثار من أفعال الرحمة في فترة الصوم".

- فلنلق نظرة سريعة على أهم الحدود الشرعية في الإسلام؛ فالجَلْد قد جاء في التثنية الإصحاح ٢٥: ١- ٢: "إذا كانت خصومة بين أناس وتقدموا إلى القضاء ليقضي القضاة بينهم فليبرروا البار ويحكموا على المذنب. ٢ فإن كان المذنب مستوجب الضرب يطرحه القاضي ويجلدونه أمامه على قدر ذنبه بالعدد". والرجم ورد في سفر التثنية الإصحاح ٢٢ :٢١: "يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت". وحد الارتداد في الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية، والتوراة مليئة بالحدود الأخرى الأكثر قسوة من حدود القرآن.

- أعرف هذا جيداً. ولكن في العهد الجديد ليس هناك شيء من ذلك كله.

- لأن الإنجيل هداية لبني إسرائيل وإعادة لهم إلى الطريق القويم وتبشير بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وليس كتاب تشريع وحدود. فالتشريع والحدود في العهد القديم، وقد أقر المسيح عليه السلام معظمها كما تعرف، وكذلك فعل أتباعه الأولون. حتى المسيحيون الحاليون لا يزالون يعتبرون أن التشريع المسيحي يستقي من العهد القديم، وإن كانت تفسيراتهم وتورياتهم قد أفقدته الكثير من معناه. ثم إن الإنجيل لا يخلو من العقوبات القاسية كما تقول.

- كيف ذلك؟

- خذ مثلاً قول المسيح في العظة على الجبل: "ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم " (م ت ٥: ٢٢)، وكذلك قوله: "يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً" (متى ٢٣: ٢٧)، وقوله لبطرس لما استحى من أن يغسل رجله: "إن لم أغسلك لا يكون لك معي نصيب" (يوحنا١٣: ٨)؛ أي إنه يفقد نصيبه الأبدي بمجرد هذا الخطأ. ومن عقوبات العهد الجديد العقوبة التي أوقعها بولس على خاطئ كورنثوس بأن: "يسلم (مثل) هذا الرجل إلى الشيطان،

حتـــى يهلك جســـده، فتخلص روحه في يوم الرب"!!! (١ كـــو ٥ : ٥)[١]. وكذلك الحكم على "حنانيا" و"سفيرا" بالموت لما اختلسا جزءاً من "مالهما" وأنكرا ولم يعطهما بطرس الرســـول فرصة للتوبة[٢]، لذلك قيل: "فصار خوف عظيم على جميع الكنيســـة وعلى جميع الذين ســـمعوا بذلك" (أعمال ٥ : ١١) أما العقوبة فـــي القرآن على الاختلاس والسرقة، إن كان يمكن أن نسمي هذا اختلاساً أو سرقة، فهي قطع اليد.

- ولكن قطع يد السارق يعتبر همجية كاملة. وأنا لا أتكلم هنا على الكتاب فحسب، بل أنظر إلى الأمر من ناحية إنسانية بحتة.

- إن عقوبة قطع اليد للسارق غير المحتاج للنقود إلا للتربح، أرحم بكثير من عقوبة قطـــع يد المرأة في التـــوراة الحالية: "إِذَا تَخَاصَمَ رَجُلانِ رَجُلٌ وَأَخُـــوهُ وَتَقَدَّمَتِ امْرَأَةُ أَحَدِهِمَا لِتُخَلِّصَ رَجُلَهَا مِنْ يَدِ ضَارِبِهِ وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَـــكَتْ بِعَوْرَتِهِ فَاقْطَعْ يَدَهَا وَلا تُشْفِقْ عَيْنُكَ"!!! (تثنية ٢٥ : ١١-١٢).

- أعترف أن هذا ولا ريب تحريف ســـاذج، وتظهر فيه مصالح شـــخصية وتدخل بشري واضح. ولكن ما شروط قطع اليد عندكم؟

- هناك شروط صارمة لقطع يد السارق في الإسلام. فبداية لابد أن يكون السارق

---

(١) مع أن بولس وقتها كان غائباً عن المدينة أصلاً، وكل معلوماته عن الجريمة هي ما وصله عنها من إشاعات، إلا أنه أصدر حكمه القاسي (عن بعد ودون تحقيق) بذريعة أنه كان حاضراً معهم بالروح كما قال في رسالته الأولى! الغريب أنه ناقض حكمه وانتقل إلى النقيض تماماً، فعفا عنه كما جاء في رسالته الثانية المنسوبة إليه!!

(٢) أعمال ٥، وحسب الأناجيل المعتمدة فقد كان كل شيء مشتركاً عند الجماعة المسيحية الأولى ولم يكن فيهم أحد محتاج، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج (اعمال٣٤ : ٤ و٣٥). ولم يكن أحد ملزماً بأن يفعل هذا (أعمال ٤ : ٥)، ولكنه مع ذلك عندما أحضر حنانيا جزءاً من ثمن قطعة الأرض التي باعها، ووضعه عند أرجل الرسل متظاهراً بأنه الكل، وبخه بطرس لأنه كذب على الروح القدس فسقط ومات في الحال، كما حدث ذلك لامرأته سفيرا، التي جاءت بعد ثلاث ساعات، وإذ لم تكن تدري بما قد جرى، كررت كذب زوجها، فوقع لها المصير نفسه!!!

بالغاً عاقلاً، ولا بد أن تكون هناك حكومة إسلامية، ومن ثم ستوفر له عملاً يحميه من سؤال الناس، أو إعانة تكافلية من بيت مال المسلمين، إن لم يكن قادراً على العمل. ثم لابد أن تزيد قيمة المسروقات عن سبعة عشر جراماً من الذهب أو ما يعادل ذلك نقداً. ويجب أن يكون ما سرقه ليس طعاماً أو دواء، ويجب ألا يكون له حق فيما سرقه، فلو سرق من مال أبيه أو من مال الحكومة، فلعله كان يعتقد أن له حقاً فيه لم يصله، وبذلك تكون عليه عقوبة أخرى غير قطع اليد. وكذلك الأمر لو كان الجاني دائناً لصاحب المال المسروق، وكان ذلك الرجل مماطلاً وجاحداً، وسرق منه ما يوازي حقه فقط. فبالله عليك لو اجتمعت كل هذه الشروط عند شخص ما وسرق؛ فماذا يكون عقابه عندك من ناحية إنسانية؟

- لو كان بالغاً راشداً يعي ما يفعله، وكانت الدولة توفر له ما قلت، وسرق مبلغاً ليس تافهاً ولم يكن ذلك اتقاء جوع أو لمداواة مرض، ولم يكن له أي حق فيما سرقه، فهو بالتأكيد يستحق قطع الرقبة.

- هذا صحيح. ولا تنسَ أن هدف الحد الأساسي هو "الردع" وليس الانتقام. وقطع اليد كان رادعاً تماماً، وحقق الهدف من ورائه بدقة؛ فقد نعم الناس آنذاك بالأمان، ولم تقطع في أول ٤٠٠ سنة من الخلافة إلا ٦ أيادٍ على اتساع رقعة الدولة الإسلامية. أما هنا فلا تزال السرقة مستمرة وتتطور شرورها وأساليبها كل يوم عن اليوم السابق، ولا ينام الواحد منا هنا إلا وقد أغلق بابه بسبعة أقفال، ومع ذلك لا يأمن. فماذا حققت السجون المكتظة؟!!! وأذكر هنا حادثة رواها الشيخ "د. طارق سويدان" عندما كان يدرس بأمريكا في ولاية أوكلاهوما. فحينها أصدر حاكمها قراراً بإطلاق سراح المساجين ذوي الجرم البسيط لأن سجون الولاية مكتظة بمليوني سجين، ولم تعد تتسع للمجرمين الجدد، الذين ارتكب كثير منهم جرائم أكبر. وعندما سألوه عن السر في عدم بناء سجون جديدة أجاب بأن كل مسجون يكلف الولاية ٣٥ ألف دولار سنوياً. فبالله عليك قل

لي هل ردعت السجون من يفكر بارتكاب الجريمة، مع كلفتها الهائلة التي تثقل ميزانية الدولة؟! ألم يكن أفضل لو كان لديهم نظام تكافلي كالذي كان أيام الخلافة الإسلامية، وأعطوا كل سنة لمليوني عاطل وعاجز مبلغ ٣٥ ألف دولار حتى ينشئوا مشروعاً يحقق لهم حياة طيبة؟!!! وكيف سيكون حال المجتمع آنذاك ومن الذي سيسرق؟!!!!!

- ربما كان معك حق في ذلك في تلك العصور، أما الآن فالوضع في المجتمعات العصرية أكثر تعقيداً وليس بهذه البساطة.

- إذن كيف تفسر تزايد إقبال المواطنين هنا في بريطانيا العظمى على "المحاكم الإسلامية"[1]؟! أليس لأنهم يرتاحون للاحتكام إليها أكثر من محاكمهم حسب ما جاء في تقرير صحيفة "الدايلي إكسبريس"؟ إن التشريع الإسلامي يا ولدي صالح لكل العصور، ويحتوي على النواة القابلة للتكيف مع البيئة المحيطة كي تثمر في مختلف المناخات. وأستعين هنا بمثل آخر أورده الدكتور السويدان في تلك الجلسة نفسها. ففي أواخر السبعينيات انقسم المسلمون إلى فئتين بشأن المصارف؛ الأولى قالت إن التعامل مع المصارف حرام لأنها ربوية، ولا يجب أن نتعامل معها بأي حال من الأحوال. والثانية قالت إن الضرورات تبيح المحظورات، وإننا مجبرون على التعامل معها في هذه الظروف. بعد ذلك خرج بعض العلماء وقالوا إن هذه القاعدة لا تنطبق على المصارف؛ لأنه يمكن إيجاد البديل الشرعي، وهذا ما حصل فعلاً، وخرج الشرع علينا بما يسمى بـ"المصارف الإسلامية". وهذه المصارف قد بلغ عددها حالياً نحو٢٦٠ مصرفاً إسلامياً في أكثر من ٦٠ بلداً، وتشارك بنحو٣٠ ٪ من التجارة العالمية، وأصولها تقدر بنحو٢٦٦٥ مليار دولار، بزيادة ٢٣,٥ ٪ سنوياً، وربح ١٥٪. وعلى حداثة تلك المصارف، فهذه النسب هي من أعلى النسب في التاريخ المصرفي. وفي الأزمة المالية الأخيرة

---

(١) يذكر أن المحاكم الإسلامية في بريطانيا بدأت العمل في عام ١٩٩٦م. وهي تنتشر حالياً في جميع أرجاء بريطانيا، ويبلغ تعدادها ٨٥ محكمة.

كانت أقل من تأثروا سلباً، وأصبح نظامهم المصرفي القائم على الشريعة الإسلامية قدوة للجميع، وكثير من المصارف العريقة تدرسه حالياً بعناية لتطبيق ما يناسبهم منه.

- أعرف هذا، فقد اطلعت على هذا الموضوع جيداً عندما كنت في الولايات المتحدة. هل من أمثلة أخرى على أن الأديان الإبراهيمية الثلاثة خرجت من مشكاة واحدة.

- يوجد طبعاً، وهي كثير. فـ"الحجاب" مثلاً قد ورد في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ١١: ٥، ٦، ١٠، ١٣: "وأما كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها لأنها والمحلوقة شيء واحد بعينه. إذ المرأة إن كانت لا تتغطى فليقص شعرها، وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تقص أو تحلق فلتتغطَّ. لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة. احكموا في أنفسكم.هل يليق بالمرأة أن تصلّي إلى الله وهي غير مغطاة". وورد في نشيد الإنشاد: ٤: ١ "ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك".

- وهذا أيضاً صحيح. ولعلمك الخاص لا يزال الأرثوذكسيات اليهوديات المتدينات يغطين شعورهن إلى الآن.

- وكذلك المسيحيات المتدينات عندما يدخلن إلى الكنيسة، وكذلك الراهبات في الدير. ولكنني لا أفهم، أيظنون أن الله موجود فقط في الكنيسة أو الدير، وغير موجود في الشارع أو مكان العمل أو بقية الأماكن؟!!!

- ربما يظنون أنه إن التزمت طائفة منهم بذلك، أعني الراهبات، فيسقط الفرض عن باقي النساء. والله أعلم كما تقولون. ولكن فلنعد إلى موضوعنا، هات أمثلة أخرى من فضلك.

- "السلام" تحية الإسلام. فقد جاء في إنجيل لوقا الإصحاح ١٠ الفقرة ٥: "وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلام لهذا البيت"، وصدق الله إذ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧]، وأن الله قد فرض "الجهاد" على المؤمنين؛ فقد ورد في سفر العدد في

بداية الإصحاح ٣١: "وكلم الرب موسى قائلاً انتقم نقمة لبني إسرائيل من المديانيين، فكلم موسى الشعب قائلاً جردوا رجالاً فيكونوا على مديان ألفاً واحداً من كل سبط من جميع أسباط بني إسرائيل ترسلون للحرب". و"الختان"؛ فقد ورد في سفر التكوين الإصحاح ١٧ الفقرة ٢٤، ٢٥: "وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته"، وكذلك المسيح وكل تلامذته كانوا مختونين. و"الأضاحي"؛ فقد ورد في سفر الملوك الأول الإصحاح ٨ الفقرة ٦٢، ٦٣: "ثم إن الملك وجميع إسرائيل معه ذبحوا ذبائح أمام الرب، وذبح سليمان ذبائح السلامة التي ذبحها للرب من البقر اثنين وعشرين ألفاً ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألفاً". و"الزكاة"؛ فقد ورد في سفر الخروج (٣٠: ١٣) أن الزكاة واجبة على من بلغ سن العشرين. كما جاء في سفر العدد، الإصحاح ٣١، الفقرة ٣٧، ٣٨: "وكانت الزكاة للرب من الغنم ست مئة وخمسة وسبعين والبقر ستة وثلاثين ألفاً وزكاتها للرب اثنين وسبعين".

- يا إلهي، هذا صحيح، فكيف لم أنتبه لذلك سابقاً؟!!!

قال أبراهام ساهماً وهو يفكر بذلك وبغيره من الحقائق التي تكشفت له، خاصة أنه قد كان يستغرب سابقاً كيف يمكن لبدوي أمي من الصحراء أن يأتي بها. تذكر ما جاء في أشيعا ٢٩: ١٢: "ويدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة"[١]. في حين كان يستعرض كيف أن كثيراً من تلك الحقائق موجود فعلاً في الكتب المقدسة، وإن عتم على معظمها أو أعيد تفسيره بما يبعده عن معناه الواضح. ترى إن لم يكن القرآن نتاج عبقرية إنسان، ولا سرقة من التوراة والإنجيل،

---

(١) وهي شبيهة فعلاً بما حصل فعلاً مع رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام حين نزل عليه الوحي والقرآن. والترجمة الإنجليزية لهذا النص هي: .. 'Then the book is delivered to one who is illiterate saying, read this, please and he says, I am not literate' New king Jemes Bible - special edition, Hillwood Ministries, U.S.A.

فما مصدره غير الله[1]؟ ثم نظر إلى رحمة الله الذي كان مسترسلاً بالحديث:

- وهكذا يتبين لنا أن منبع الوحي، ومصدر الرسالات جميعاً، من عند الله الواحد. وهو ما أعطاه الله للأنبياء، وما أعطاه لعبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

- لماذا كان رسولك أمياً؟

- هذا يظهر لنا الحكمة الإلهية العظيمة في أن يكون آخر الأنبياء وصاحب الرسالة الخاتمة الجامعة لكل ما قبلها لا يقرأ ولا يكتب؛ وذلك حتى لا يرتاب المبطلون، ولا يتشكك المتشككون. فأنى لمن لا يقرأ ولا يكتب أن يطلع على تاريخ الأمم وميراث الأنبياء إلا أن يكون الصادق المصدوق، الذي رفع الله قدره فأكرمه بوحي السماء، وأفاض عليه من نعمه فجعله خاتم الأنبياء، فكان فضل الله عليه وعلينا جليلاً، وخيره مسبغاً وجزيلاً. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

- إذا كان الأمر كذلك، فكيف تفسر إذلال الإسلام لأهل الكتاب، ومطالبة القرآن بأخذ "الجزية" منهم ظلماً وعدواناً، مع ذلتهم وصغارهم؟ أليس في هذا تضييق على الذميين، ناتج عن تعصب أو عن بغضاء؟ أليست عقوبة فرضت عليهم مقابل الامتناع عن الدخول في الإسلام؟!!! فما معنى أن يخير الناس بين الجزية أو الإسلام أو الحرب؟!!!

---

(١) اعترف الدكتور "ماردريس" المستشرق الفرنسي بعظمة القرآن الكريم، وذلك بعد أن كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة(٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرار فيها، ففعل، وقال في مقدمة ترجمته الصادرة ١٩٢٦م: "أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جل وعلا، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الخالق الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهاً، والحق الواقع أن أكثر الكتّاب شكاً وارتياباً قد خضعوا لسلطان تأثيره.

شبهات حول الإسلام

أجاب رحمة الله بهدوء:

- هـذا ليس صحيحاً بالمطلـق يا بني، وبقاء الأقليات الدينية في بلاد الإسـلام واعتراف الحكومات الإسـلامية بحقوقها يشـهد على ذلك، والأمر لم يكن كذلك في بلاد المسيحية التي لم تكن تقبل إلا ديناً واحداً ومذهباً واحداً في طول البلاد المسيحية وعرضهـا، والباقي مصيره القتل والحرق، أو الإبادة الكاملة إن اسـتطاعت إلى ذلك سـبيلاً. ولم يبدأ هذا بالتغير إلا في عصر النهضة والتنوير، بعد أن فقدت الكنيسـة الرومية سلطتها.

- هذا صحيح فعلاً؛ فقد أبادت الكنيسـة والإمبراطورية الرومانيتان كل الديانات الوثنية، وكل الطوائف المسيحية التي حاولت تقديم رؤية مخالفة لرؤية التأليه والتثليث، وكانت الكنيسـة تفتخر بذلك دوماً[1]، ولولا الإرادة الإلهيـة لنجحوا في إبادة اليهود أيضاً.

---

(١) يشهد على ذلك كنيسة، على بُعد ٧٠ كيلومتراً من براغ، كانت لأحد الأديرة التابعة لفرقة السيسترسيين الكاثوليك، ترجع إلى القرن العاشر، وبينما كانت الكاثوليكية تنتشر بصورة متواصلة، تراكمت جثث ضحايا المعارك الدينية المختلفة سواء مع البروتستانت أو الأريوسيين أو الكاتار والبوجوميل والفودُوّا، . . وكل معركة من هذه المعارك تحصد الآلاف من ضحايا التعصب. وفي عام ١٨٧٠ طلب القس المسؤول عن هذه الكنيسة من الفنان التشيكي فرانتيشك رينت Frantisek Rint أن يعيد تزيين الكنيسة بعد ترميمها تخليداً لتاريخها "المجيد". فقام باستخدام الهياكل العظمية لأربعين ألف إنسان لتصبح الكنيسة نبراساً وشاهداً على التاريخ الكنسي الأصيل. ويتغنى مؤسس الموقع الإلكتروني الخاص بهذه الكنيسة الفاضحة، بالمستوى "الإبداعي" للفنان رينت هذا، على أنه استطاع عمل النجف الرئيسي باستخدام كل أنواع وأشكال العظام الآدمية التي يحتوي عليها جسم الإنسان، كما قام بجمع عظام الآلاف من القتلى داخل وعاء زجاجي، على شكل أجراس ضخمة، وضعها في أركان الكنيسة الأربعة!

- لقد حاولوا ذلك كثيراً، ويكفي أن أذكرك بإعلان "فيليب" ملك فرنسا في سنة ١٣٠٦م أنه: "على كل يهود فرنسا (الذين يتمتعون بحق المواطنة) أن يختاروا بين ثلاثة: إما الخروج النهائي من فرنسا، وإما القتل، وإما التنصُّر! فأي الخيارين كان أرحم وأبعد عن نشر الدين بالقوة، الخيار الإسلامي أم المسيحي؟!!! وأذكرك أيضاً أن اليهود قد انقسموا وقتها إلى فريقين، تنصر أحدهما على مضض، وتوجه القسم الآخر إلى البلاد الإسلامية لما اشتهرت به من الحرية الدينية، والسماح للأقليات المختلفة بممارسة شعائرهم، على عكس ما يحاول ادعاءه اليوم بعض المغرضين لياً لعنق الحقيقة، فالإسلام مع كل محاولاتهم الدؤوب لتشويه صورته هو الدين الوحيد الذي يجعل العلاقة مع الأقلّيات عبارة عن عقد "عقد الذمة"، يلزم أتباعه المسلمين بشروط عديدة لمصلحة الأقليات.

- صحيح أن خيار الجزية الإسلامية أرحم من خيار القتل المسيحي، ولكن كلاهما ظالم. فهل من العدل والتسامح أن يدفع الإنسان نقوداً كي يسمح له بالحفاظ على دينه؟!

- هذا مفهوم خاطئ تماماً للجزية؛ فهذه الكلمة في اللغة العربية أتت من (جزا يجزي) بمعنى (كافأ يكافئ) عما أسدى إليه، أي إنها مال يدفعه أهل الكتاب، ومن يلحق بهم إلى المسلمين مقابل حق أو خدمة أو واجب يقوم به الطرف الآخر. فهي إذن نوع من "الضرائب" في المفهوم الحديث نظير الخدمات التي تقدمها الدولة الإسلامية لهم، وهذا متعارف عليه الآن في كل الدول، كما أن المسلمين أنفسهم كانوا يدفعون ضرائب أكثر من جزية أهل الذمة بكثير، مثل الزكاة والصدقة، والتبرع بتجهيز المقاتلين، والخراج على من حصلوا على الأراضي، بالإضافة إلى التجنيد الذي هو الأهم وكان أصحاب الأقليات مرتاحين من ذلك كله.

- حتى إن وافقتك على ذلك، فهذا يعني أن الإسلام أحدث الضرائب على أساس طائفي، وأنا أستبعد أن الله قد أمر بذلك فعلاً.

- أنبياء إسرائيل عليهم السلام قد أخذوا الجزية من الأمم المغلوبة، بل واستعبدوهم حسب الكتاب المقدس الحالي، كما صنع النبي يشوع مع الكنعانيين حين تغلب عليهم، "فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر. فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم وكانوا عبيداً تحت الجزية" (يشوع ١٦/١٠).

- فعلاً. فكيف لم أفكر بذلك؟

تمتم أبراهام بخجل، كأنه يسمع ذلك للمرة الأولى. فتابع الشيخ كلامه قائلاً:

- كما أمر المسيح أتباعه بدفع الجزية للرومان، وسارع هو إلى دفعها، فقد قال لسمعان: "اذهب إلى البحر وألق صنارة، والسمكة التي تطلع أولاً خذها، ومتى فتحت فاها تجد أستاراً، فخذه وأعطهم عني وعنك" (متى ١٧: ٢٤-٢٧). ولما سأله اليهود (حسب العهد الجديد) عن رأيه في أداء الجزية أقر بحق القياصرة في أخذها، "فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: يا معلّم نعلم أنك صادق، وتعلّم طريق الله بالحق، ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا: ماذا تظن، أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟.. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، وما لله لله" (متى ٢٢: ١٦-٢١). ولم يجد المسيح غضاضة في مجالسة ومحبة العشارين الذين يقبضون الجزية ويسلمونها للرومان (انظر متى ١١: ١٩)، واصطفى منهم متى العشار ليكون أحد رسله الاثني عشر (انظر متى ٩: ٩). ويعتبر العهد الجديد أداء الجزية للسلاطين حقاً مشروعاً، بل ويعطيه قداسة ويجعله أمراً دينياً؛ إذ يقول: "لتخضع كل نفس للسلاطين، السلاطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة... إذ هو خادم الله، منتقم للغضب من الذي يفعل الشر. لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضاً بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً، إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، فأعطوا

الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام" (رومه ١٣: ١-٧).

- وهذا صحيح كذلك! فكيف لم أنتبه لهذا أيضاً؟

- كما يعترف العلماء المعاصرون أن الجزية ليست من محدثات الإسلام (كما يدعي البعض حالياً!)، بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم، وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى في القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين، وفينيقية يومئذ من أعمال الفرس، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال في مقابل حماية الرؤوس. والرومان وضعوا الجزية على الأمم التي أخضعوها، وكانت أكثر بكثير مما وضعه المسلمون بعدئذ. فإن الرومان لما فتحوا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات، و١٥جنيهاً في السنة، أي نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين، وكانت تؤخذ من الأشراف، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم. وكان الفرس أيضاً يجبون الجزية من رعاياهم[1]، لكن الإسلام كعادته لا يتوقف عند ممارسات البشر السابقة عليه، بل يترفع عن زللهم، ويضفي خصائصه الحضارية. فقد ارتفع الإسلام بالجزية ليجعلها، لا استعباداً للمقهورين، ولا إتاوة يدفعها المغلوبون لغالبهم، بل لتكون عقداً مبرماً بين الأمة المسلمة والشعوب التي دخلت في رعويتها؛ عقداً بين طرفين، ترعاه أوامر الله بالوفاء بالعهود واحترام العقود، ويوثقه وعيد النبي ﷺ لمن أخل به. وتجلى ذلك بظهور مصطلح أهل الذمة، الذمة التي يحرم نقضها ويجب الوفاء بها ورعايتها بأمر النبي ﷺ. وقد قدر النبي ﷺ الجزية بحسب الأحوال، وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين وأعدائهم القادرين. في الوقت الذي لا يؤخذ شيء من النساء والصبيان، ولا من أهل العاهات، ولا تؤخذ من مجنون، ولا من مريض مرضاً غالباً، ولا من كبير

(١) تاريخ التمدن الإسلامي، "جورجي زيدان"، ج ١١ بتصرف.

في السن، ولا من عبد، ولا من الرهبان ونحوهم. وكثيراً ما كانت تقدر الجزية باعتبار ما يبقى في أيدي الناس من دخلهم بعد نفقاتهم. وقد وصف المستشرق "غوستاف لوبون" الجزية التي فرضها المسلمون على أهل الذمة بأنها مبلغ بسيط يقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب.

- ألم يكن هناك قدر معلوم للجزية في الإسلام؟

- بلى، وهي دينار عن كل بالغ راشد قادر على القتال. ولكن قيمة الجزية يمكن أن تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأشخاص والأحوال، والأمر في ذلك واسع.

- إلامَ يستند تغير مقدارها؟

- على ألا يكلف أحد فوق طاقته، وقد يكون الدينار فوق طاقة البعض، بل إن الفقير منهم إذا احتاج، يعطى من سهم "المؤلفة قلوبهم" كي يعيش معيشة تتوافر فيها كفايته، كما فعل الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه مع اليهودي المسن الأعمى، حين رآه يتكفف الناس، فسأله: مالك؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له: "انظر هذا وضرباءه، (من هو في مثل وضعه) فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب"، ثم وضع الجزية عنه وعن أمثاله. وفي رحلته إلى دمشق أيضاً أمر عمر بن الخطاب بإعالة المقعدين من أهل الذمة من بيت مال المسلمين.

- هل تحاول الإيحاء بأن الجزية كانت ضماناً أو تأميناً ضد العجز والمرض والفقر؟

- بل أصرح بأن هذا وجه مشرف واحد فقط من بقية وجوهها المشرفة الأخرى. فهي في الأساس ضريبة على المواطن الذمي للدولة نظير تمتعه بالأمن دون أن يشارك في القتال. وما دام ذلك المواطن قد أدى حق الدولة عليه، فالدولة أيضاً يجب أن تؤدي

حقه عليها كأي مواطن آخر بغض النظر عن دينه أو لونه. ويذكر التاريخ أنه حين فتح "أبو عبيدة بن الجراح" الشـــام، وأخذ الجزية من أهلهـــا الذين كانوا يومئذ ما يزالون على دينهم، بلغه أن الروم قد أعدوا جيشـــاً عظيماً لاسترداد الشام منهم، فرد الجزية إلى الناس وقال لهم: "لقد سمعتم بتجهيز هرقل لنا وإنا لا نقدر على حمايتكم، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم"[1].

- إذن ما معنى ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[2]؟!!!

- معناها: وهم مسَلِّمون، أي التســـليم وإلقاء السلاح والاعتراف بالوضع الجديد لحكمهم من قبل الدولة الإســـلامية وخضوعهم لذلـــك. وينبغي ألّا يفهم الصغار هنا بمعنى الهوان والذلة والإهانة لهم، أو الزراية عليهم، أو الشـــماتة فيهم، أو ظلمهم أو إيذائهم، أو تكليفهم فوق طاقتهم، أو عقوبة لهم؛ فكل ذلك لا يتفق وســـماحة الإسلام وعظمته، وما عرف من حسن معاملة الرسول وصحابته لأهل الذمة.

- أهذا فهمكم الشخصي لمعنى الآية فحسب، أم أنه ما سار عليه المسلمون وطبقوه فعلاً؟!

- لقد كان هذا الفهم متمثلاً في نهج رسول الله ﷺ ونهج أصحابه من بعده. فقد ورد النهي عن التشديد على أهل الذمة في الجزية والخراج، والحث إلى الرفق واللطف بهم في كل حال، وألّا يكلفوا ما لا يطيقون. وأمر الخليفة عمر ألا يكلفوا فوق طاقتهم، وألّا يلزمـــوا من مال ما لا يطيقونه، ولا يجوز أن ينادى على أملاكهم للبيع عوضاً عن الجزية. وقد مر مرة في ســـفره إلى الشام ببعض عماله وهو يعذب الذميين في أداء الجزية، فقال: "لا تعـــذب الناس، فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم

---

(١) كتاب "الدعوة إلى الإسلام"، لـ"توماس أرنولد" و"فتوح البلدان" للإمام "أبي الحسن البلاذري".

(٢) يقصد الآية الكريمة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

القيامـــة"[١]. وكتب الخليفة "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه إلى بعض عماله قائلاً: "لا تبيعن لهم في خراجهم حماراً ولا بقرة ولا كسوة، شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحداً منهم ســوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبح لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج، فإنما أمرنا أن نأخـــذ منهم العفو[٢]، فإن أنت خالفـــت ما أمرتك به، يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك". ومن يقرأ بتدبر وإمعان ما كتبه "ابن القيم" في كتابه "أحكام أهل الذمة" عن الجزية يرى عظمة الإسلام وسماحته في معاملة الذميين وإكرامهم.

- من الطبيعي أن يتحدث المســلمون عن تاريخهم بمثاليـــة، ولكن هل كان الواقع كذلك فعلاً؟!

- يقول المؤرخ سير توماس أرنولد في كتابه "الدعوة إلى الإسلام" موضحاً الغرض من فـــرض الجزية ومبيناً على مَن فُرضت: "ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المســيحيين - كما يردد بعض الباحثين - لوناً من ألـــوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإســـلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة؛ وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهـــم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المســلمين"، وأنا لن أنقل لك فقط شهادات المؤرخين الغربيين المتعاطفين مع الإســـلام والمتأثرين بسماحته كي لا تتهمني بالانتقائية والتخير، ولكنني سأنقل لك مقتطفات من كلام مؤرخين اشـــتهروا بعدم تعاطفهم مع الإسلام، ولكنهم غير حاقدين، كانوا يتحلون بشـــيء من العدل والحيـــاد. فيقول ول ديورانت في قصة

---

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف.

(٢) العفو هو ما يفضل عن احتياجاتهم الرئيسية. وفي الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "أنه أتي بمال كثير فقال مخافة العنت والمشقة على أهل الذمة: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني". المغني (٩/ ٢٩٠)، أحكام أهل الذمة (١/ ١٣٩).

الحضارة: "لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زيّ ذي لون خاص، وأداء ضريبة عن كل شخص باختلاف دخله، وتتراوح بين دينارين وأربعة دنانير، ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء والشيوخ، والعجزة، والعمي والفقراء، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنان ونصف في المئة من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم".

ويقول المؤرخ آدم ميتز في كتابه "الحضارة الإسلامية": "كان أهل الذمة يدفعون الجزية، كل منهم بحسب قدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون، وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار". فهل ينبغي بعد هذا كله -وهذا بعضه- أن يقال: إن الإسلام بأسلوب فرض الجزية على أهل الكتاب يكرههم على التحول عن دينهم إلى الإسلام، أو أراد إذلالهم، أو ظلمهم[1]؟؟؟!!!

- لا أعرف ماذا أقول. فإن كان ما تدعيه حقاً، فعدل المسلمين الأوائل كان ملائكياً وليس بشرياً!!!

- لأن العدل عندهم لم يكن مبنياً على نظام بشري، بل نظام أنزله الله تعالى في كتابه الحكيم، والتاريخ يشهد بصحة ما أقوله. وأحد ما حفظه لنا التاريخ من ذلك هو حادثة سمرقند التي فتحها القائد "قتيبة بن مسلم" عنوة، وعندما عرف أهلها قوانين الإسلام، أرسلوا وفداً منهم إلى الخليفة "عمر بن عبد العزيز" يشكون إليه أن تلك القوانين العادلة

(١) مقتبس من: "آيات مظلومة بين جهل المسلمين وحقد المستشرقين"، ص ١٨٩- ١٩٦، د. عمر بن عبد العزيز أستاذ المذاهب ومقارنة الأديان بكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر.

التي درسوها، لم تُراعَ عند فتح بلادهم. فكتب الخليفة لعامله هناك "سليمان بن أبي السرح" يطلب منه التحقيق في شكواهم، فأحال قضيتهم إلى قاضي سمرقند "جميع بن حاضر الناجي"، الذي استدعى شهودهم وشهوداً من جيش قتيبة، فشهدوا أنه لم ينبذ إليهم عهدهم، بل فاجأهم بالفتح. فحكم بخروج الجيش الإسلامي منها ومعه جميع المسلمين الذين دخلوها بعد الفتح، وصادق الوالي والخليفة على الحكم. وفيما هم يحزمون أغراضهم ويبيعون ممتلكاتهم جاء وفد السمرقنديين يرجونهم البقاء بعدما رأوا من عدلهم وصدقهم، ودخل الكثيرون من أهلها بالإسلام وصارت مركزاً من المراكز الإسلامية الكبرى. وغير ذلك كثير. ويشهد التاريخ على أنه لم تراع حقوق "أهل الذمة" وحرمتهم كأقلية، تحت حكم أي دولة على مر العصور، كما روعيت في دولة الخلافة، وبخاصة وهي في أوج قوتها، عندما كانت لا تزال تسير على نهج القرآن والسنة ووصاياهما.

- إذا كان الأمر كذلك، فلم تنعتون اليهود والمسيحيين بكل صلاة تصلونها بالمغضوب عليهم والضالين؟

- لأن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والمسيحيون فقدوا العلم. ولهذا كان الغضب لليهود ﴿ **مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ** ﴾ [**المائدة** : ٦٠]، والضلال للمسيحيين ﴿ **قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [**المائدة** : ٧٧] . فاليهود وصفهم الله عز وجل في أكثر من موضع بأنهم "يعلمون"، فصفتهم الواضحة هي العلم وعدم العمل، وكتمان العلم الذي في كتبهم إذا خالف أهواءهم، وبذلك استحقوا الغضب، بخلاف من لم يعلم. فالمسيحيون لما كانوا قاصدين الحق لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، فقد ضلوا. وليس من طلب الحق فضل عنه، كمن أدرك الحق فكتمه ولم يعمل به. ولتقريب الأمر إليك أكثر انظر مثال اختلافهم في عيسى عليه السلام وتباينهم فيه؛ فاليهود افتروا رغم ما عندهم من العلم بنبوته، والمسيحيون غلوا به وضلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق.

- هذا من وجهة نظرك الإسلامية، حيث يظل المسيحيون ضالين، أما من وجهة نظر الكتاب المقدس فالأمر مختلف تماماً، فالله: "يريد أن الجميع يؤمنون وإلى معرفة الحق يقبلون".

- أنت لم تفهمني، ولذلك لم تُجِد اختيار نقطة اعتراضك جيداً. فالله في علم اللاهوت الإسلامي -أو ما نسميه نحن بالعقيدة- له نوعان من الإرادة: الأول هو "إرادة كونية" بمعنى أنه يقدر الأشياء فتشرق الشمس من الشرق وتغرب من الغرب، وفلان يعيش وفلان يموت... إلى آخره! والنوع الثاني هو "الإرادة الشرعية"؛ أي إن الله عز وجل يريد لجميع البشر الهداية والرشاد، ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٧] ولكن ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [النحل: ٩٣]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل: ٩]. فالله يريك الطريق ويترك لك حرية الاختيار، وإلا لماذا يحاسبك بالنهاية إذا كنت مقهوراً على الكفر أو الإيمان؟! وأنت تخلط ما بين المفهومين؛ فقلت لي إن الله يريد من الجميع أن يؤمنوا، إذاً لماذا أنا غير مؤمن بما يسمى يهوه رب الجنود وبابنه يسوع كإله له ثلاثة أقانيم؟ هل إرادة الله عندك كسرت عند حاجز إرادتي أنا؟!!! فلا تقل كلامك جزافاً وتدبر فيه قليلاً.

- حسناً، وماذا عن غير اليهود والنصارى؟!

- لم يقتصر التسامح الإسلامي على اليهود والنصارى فحسب؛ فقد عاهد رسول الله ﷺ مجوس هجر أيضاً، وأجاز أخذ الجزية منهم لقاء تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية مثل أهل الكتاب، كما أن المسلمين الذين فتحوا الهند اجتهدوا كذلك بمعاملة الهندوس كأهل ذمة أيضاً باعتبار أن لهم أيضاً شبهة كتاب[1].

---

(١) جاء في الكتب الهندوسية القديمة المعروفة باسم "بورانا": "من صحراء العرب سيخرج محمد، له أصحاب عديدون، وسيكون محصناً ضد الخطايا ومحمياً من أعدائه. طبعه ملائكي. سيقتلع الشيطان وعبادة الأصنام، بل وكل الشرور والخطايا من جذورها، وسيكون فخراً للإنسانية جمعاء". النص الأصلي باللغة الهندوسية موجود في ص ٢٤٣، من كتاب "انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح" لأحمد زكي.

- لا أعرف، إن ما تقوله منطقي ولكن.

- ولكن ماذا؟

صمت أبراهام وهو يبحث عن مطعن آخر بالإسلام دون جدوى، فيبدو أن الإسلام فعلاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم قال فجأة كمن وجد ضالته أخيراً:

- وماذا عن هوس نبيكم بالنساء ونهمه باللذات الجنسية[1]؟!

- لو كان سيد خلق الله كما تقول، لما اكتفى عليه الصلاة والسلام بزوجة واحدة طيلة سنوات زهرة شبابه، (من الخامسة والعشرين حتى الخمسين) ولا سيما أنها

---

(١) لم يكن ليخطر ببالي أن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم قد يتهم بهذا، ولكنني فوجئت بذلك وبأفظع منه بكثير منتشراً بكثافة متزايدة وبشكل كبير في منتديات الكتابيين (حتى المحترمة منها، وبالذات الدينية) في أثناء بحثي في أزمة الرسوم المسيئة ومختلف الردود عليها والمواقف منها، وعلى سبيل المثال لا الحصر أنقل هنا هذا التعليق لأحدهم (اسمه في ذلك المنتدى، منتدى منظمة أقباط الولايات المتحدة، هو adelkl وتاريخ تسجيله: Sep ٢٠٠٥. وتعليقه هذا جاء في ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٧، وأعتذر عن الكفر الوارد فيها، فناقل الكفر ليس بكافر، كما أعتذر أيضاً عن الأخطاء اللغوية والركاكة في التعبير، فقد نقلتها كما جاءت دون أي تعديل): "يا شباب العالم مش محتاج يعرف شى عن محمد العبد الاسود العالم كلة يعرف مين محمد حتى الملسمين ويعرفون بما يحتوى الاسلام من زنا ونهب وسرقة كل شى مباح في الاسلام حتى الزنا ان تزنى باى وحدة مدام مش مسلمة ونهب اى انسان غير مسلم كل شى مباح وبنكتبلة في الجنة صواب ويخش الجنة ويلاقى في الجنة مش عارف سبعين فتاة يعاشرهم وفاكة وغيرة من الملزات الجسدية والشهوانية بتاعتهم يعنى من الاخر كل تفكيرهم في الزنا وحتى رسولهم اللى بيقولو علية رسول الرحمة وين الرحمة اللى تخلى رسول يتزوج من طفلة ولا اى نبى يطلق امراة من زوجها علشان حليت في عينة واى وحدة تحلى في عين النبى مباحة لية انة ينكحها علشان نبى الرحمة يا شباب شوفتو نبى بالطيبة دى يا ترى كل مسلم تاكد من مراتة كم رجل نكحها قبلة وبعدة. يا شباب يا مسلمين الرسومات دى حصلت مع محمد ولا لا انتو دايما بتزعلو من الحقيقة لان بالرسومات او غير الرسومات كل شى معروف بس معلش هو الرسام افتكر ان الرسومات دى في اطفال مش عارفة محمد وحكياتة الوسخة وريحتة النتنة من القذارة لكن اقولكم الطفل في بطن امة بيصرخ من قزارة محمد وقزارة الاسلام وانة هيطلع للدنيا هيلاقى حاجة في الدنيا وسخة اسمها الاسلام" انتهى. ولا أستطيع أن أعلق على هذا الحقد والجهل إلا بقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم اهدهم للحق، وقدرنا على الرد بالحسنى ما استطعنا يا أرحم الراحمين.

كانت أرملة، ولديها طفلان[1]، وتكبره بخمسة عشر عاماً، ولم يطعن أي مستشرق أو مؤرخ أو شاعر أو كاتب في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام قبل زواجه من السيدة خديجة أو في أثناء الزواج.

- ربما ضحى بشبابه من أجل مالها، وبعد موتها عوض ما حرم منه.
- يبدو أنك لا تعرف سيرة من تتحدث عنه وتاريخه.
- بل أعرفه جيداً.
- فبمن تزوّج بعدها؟
- لا أعرف بالضبط، ولكنه تزوج من الكثيرات.
- لقد تزوّج بعدها بأرملة أخرى تعدت الستين عاماً، وهي سودة بنت زمعة العامرية.

وقد فعل ذلك عليه الصلاة والسلام جبراً لخاطرها وأنساً لوحشتها بعد وفاة زوجها وهي في سنّ كبيرة، وليس بها ما يرغّب الرجال والخطّاب. كما كان أهلها بمكة من المشركين، ولم يكن هناك من يرغب في رعايتها بعد أن توفي زوجها بعد عودتهم من الحبشة، أفمثل هذا الزواج يكون من أجل الشهوة وتعويضاً لما فات؟!!! إن هذا يدلّ على أنّ الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم كان عنده أهداف من الزواج إنسانية وتشريعية وإسلامية ونحو ذلك. وقد بدأ تعدد زواج الرسول عليه الصلاة والسلام مع عائشة ثم حفصة رضي الله عنهما لتشريف أبويهما أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً، وقد كان هذا عند المسلمين شرفاً ليس بعده شرف، فعندما تزوج عليه الصلاة والسلام السيدة "جويرية بنت الحارث"، أطلق المسلمون أسراهم وردوا إليهم كل أمتعتهم قائلين: " أيعقل أن يكون أصهار الرسول عليه الصلاة والسلام عندنا أسرى!؟" حتى إنه قيل: "لم تكن امرأة أعظم بركة على قومها منها"، فقد أطلق سراح كل قومها وما لبثوا أن دخلوا في الإسلام.

---

(١) تزوجت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أولاً من عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وولدت له بنتاً، ثم توفي عنها، فتزوجت أبا هالة بن زرارة بن نباش بن زرارة بن حبيب بن سلامة بن عدي، فولدت له هند بن أبي هالة، ثم توفي عنها فتزوجها الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

- ولكنه بالغ كثيراً بالزوجات بعد ذلك. كما أن عائشة تلك كانت طفلة[١]، وكان هو في الثالثة والخمسين تقريباً[٢].

- كانت السيدة عائشة رضي الله عنها مخطوبة قبل ذلك[٣] لشخص آخر، ولما ذهب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عاد أبو العريس في أمر زواج ابنه بسبب دخول أبي بكر الصديق في الإسلام، فعرضت خولة بنت حكيم على رسول الله ﷺ الزواج من عائشة. ففكّر الرسول في رفض بنت أبي بكر في البداية، ولكن أبت عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة ومكانة أبي بكر عنده، والتي لم يظفر بمثلها سواه.

- دعك من هذا. فالأهداف الاجتماعية والتشريعية لم تكن السبب وراء زواجه من عائشة بالذات، فقد كانت بكراً، وفوق ذلك طفلة صغيرة، أليس كذلك؟

- جاء في موسوعة "قصة الحضارة": "وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقترب من العبادة، إلى الكدح طوال ما بقي من حياتها.

---

(١) من الثابت طبياً أن أول حيضة تبدأ بعد بدء مرحلة البلوغ بسنتين. فأول حيضة والمعروفة باسم المينارك menarche تقع بين سن التاسعة والخامسة عشرة. أما علامات البلوغ في الفتيات فهي:

١. تغير الصوت نحو الطبيعة الأنثوية.

٢. استدارة منحنيات الجسم فتأخذ زوايا الجسم تدورات لطيفة بسبب الترسيب الانتقائي للدهون.

٣. نمو الحلمتين والثديين بتأثير هرمون الإستروجين.

٤. وجود بعض الميول النفسية مثل الخجل والانعزال والميل إلى الجنس الآخر.

٥. النمو السريع للرحم والمهبل وباقي الأعضاء الجنسية.

٦. ظهور أول حيضة. ود. دوشني - وهي طبيبة أمريكية - تقرر أن الفتاة البيضاء في أمريكا قد تبدأ في البلوغ عند السابعة أو الثامنة، والفتاة ذات الأصل الإفريقي عند السادسة.

(٢) نقلت صحيفة "ديلي تلغراف" البريطانية عن زفين دريفاهل، عالم الاجتماع في معهد ماكس بلانك للأبحاث الديمغرافية في مدينة روستوك بألمانيا أن خطر وفاة رجل متزوج بامرأة تصغره ما بين ٧ و٩ سنوات يتقلص بـ١١ بالمئة المقارنة بالزوجين من العمر نفسه. وكلما كان فارق العمر أكبر، كانت حياة الرجل أطول. يشار إلى أن الدراسة شملت مليوني زوج في الدنمارك.

(٣) ذكرها مطعم بن عدي لابنه كما جاء في رواية الإمام أحمد عن زواج الرسول عليه الصلاة والسلام بعائشة وسودة في الجزء الثاني من سيرة ابن كثير.

ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلاً. وكان في وسع أبيها أن يئدها حين مولدها إذا رغب في ذلك، فإن لم يفعل، فلا أقل من أن يحزن لمولدها، ويواري وجهه خجلاً من الناس، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح. وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأي شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدي للعروس ثمنها (مهرها)". وجاء أيضاً في الموسوعة نفسها: "وكانت شؤون الزواج يتولاها الآباء، كما يتولونها في معظم البلاد المتمدنة؛ فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد. أما بعد هذه السنين فكان لها أن تختار. وكانت البنات يزوجن في العادة قبيل سن الثانية عشرة، ويصبحن أمهات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. ومنهن من كن يتزوجن في سن التاسعة أو العاشرة". إذن من وجهة نظر التاريخ والعادات والتقاليد كان أمراً معتاداً زواج الفتاة في هذا السن الذي هو حسب الظروف المعيشية تكون فيه ناضجة بما فيه الكفاية لمتطلبات الزواج. ولم يعترض أي من أعداء الرسول عليه الصلاة والسلام على الأمر، فقد كان أمراً معتاداً حسب البيئة والظروف وقتها، ولا يصح قياس الأمر نفسه على واقعنا وفي ظروف مختلفة بعد ألف وأربع مئة عام. ولو أن في زواج الرسول صلى الله عليه وسلَّم من السيدة عائشة، أيَّ مأخذٍ في أعراف العرب وقتها لأُخِذ على النبي صلى الله عليه وسلَّم هذا الزواج، بل إن البيئة وقتها تسمح بأن تأخذ امرأةً في سن أمك، وتسمح بأن تأخذ امرأةً في سن ابنتك؛ كما أنّ قريش التي كانت تتربّص بالرسول ﷺ الدوائر لتأليب الناس عليه من فجوة أو هفوة أو زلّة، لم تُدهش حين أُعلن نبأ المصاهرة بين أعزّ صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أيّ أمر طبيعي.

- وما علاقة العرف في أمر كهذا؟!!!

- إذا قلت: أنا أكلت اللحم. فماذا تقصد؟ لحم الضأن أو لحم البقر، لأنك إذا أكلت سمكاً تقول: أكلت سمكاً. فإذا حلف إنسان بالطلاق ألّا يأكل لحماً، أفبإمكانه أن يأكل سمكاً؟ نعم بإمكانه، مع أن السمك لحم، لكن العرف أن اللحم هو لحم الضأن أو البقر، والسمك شيءٌ آخر. لذا ففي الموضوعات التي لم يكن هناك حكمٌ شرعي يعود الأمر إلى العرف، وهذا موضوع طويل في أصول الفقه، فالعرف أحد المصادر التشريعية؛ فهو الذي يحكم القضايا التي ليس فيها حكمٌ شرعي. والفارق في السن كان مألوفاً في عصر النبي، ولو كان هناك مطعنٌ في هذا الموضوع لما سكت أعداء النبي، ولجعلوا من هذه القضية قضيةً كبيرةً جداً. ولا تنس يوسف النجار خطيب السيدة مريم كما جاء في العهد الجديد، كان عمره تسع وثمانون، وعمرها أحد عشر عاماً!!! مما يعني أن الفرق بينهما ثمانية وسبعون عاماً.

- أعرف هذا، ولكنني أظنه يدخل في تحريفات العهد الجديد.

- بالتأكيد، ونحن نعتقد أن يوسف النجار كان هو من تكفل بها بعد وفاة كفيلها السابق زكريا عليه السلام ولم يكن خطيبها، ولكنني قصدت أن أنبهك على تفسير كتبة العهد الجديد ذلك بالخطبة، يعني أن وصول الفارق في السن إلى نحو ٨٠ عاماً بين الخطيبين لم يكن مستهجناً عند تدوين ذلك. ثم ماذا عن عهدك القديم؟ أليس سن الزواج استناداً إلى شرحه هو ثلاث عشرة سنة للولد واثنتي عشرة ونصفاً للبنت؟ فإذا بلغ كل منهما هذا السن كان له حق ولاية التزويج لنفسه بمقتضى ما ورد في المادة(م ٢٣- ٣٤) من مجموعة ابن شمعون[1]! ألم يتزوج إبراهيم عليه السلام من "قطورة"،

---

(١) في الحقيقة لا يجوز تحديد سن للبلوغ على الإطلاق؛ لأن البلوغ (كما أوضحنا قبل قليل) يختلف من شخص لآخر، ومن بيئة لأخرى، وهذه مسألة لا خلاف فيها بين العقلاء. وتحديد سن الزواج فيه ظلم وجور على الأشخاص؛ لأننا إن حددناه بالسابعة عشرة مثلاً لكان فيه ظلم لمن قد بلغ وهو دون هذه السن، فكيف يصح منعه حينئذ من الزواج وقد تاقت نفسه إليه، وله القدرة عليه؟ فهذا التحديد مصادم للطبيعة البشرية المحافظة، وللشريعة الإسلامية، التي تحث الشباب على المسارعة في الزواج متى قدروا عليه.

وكان عمره يتعدى المئة عام، وأنجب؟! (تكوين ٢٥ : ١)؟ ألم يتزوج موسى عليه السلام وكان عمره تسعون عاماً؟! (عدد ١٢ :١). إذن فاستمرار الرجل بالزواج حتى عمر متأخر، وفارق السن الكبير بينه وبين من يتزوجها كان أمراً معتاداً في تلك العصور. وبلاد العرب في فجر الإسلام لم تشذ عن ذلك، فقد عرض عمر على أبي بكر أن يتزوج ابنته الشابة "حفصة"، وهو أكبر منه نفسه. وتزوج عمر بن الخطاب ابنة علي بن أبي طالب وهو أيضاً أكبر من أبيها نفسه. أما الآن فإن هذه الأمور قد اختلفت تماماً، وليس من المناسب الحكم عليها وفق مقاييسنا العصرية.

- ولماذا عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر؟ فهل رفضها عريسها كما رفضت عائشة من قبل، فتزوجها نبيكم لهذا السبب أيضاً؟

- بل توفي عنها زوجها، وكان عمر رضي الله عنه يبحث لها عن زوج آخر، فعرضها على أبي بكر الصديق وعلى عثمان بن عفان رضي الله عنهما اللذين لم يوافقا، فحزن حزناً كبيراً إلى أنْ شرَّفه الرسول عليه الصلاة والسلام بالزواج من ابنته.

- أنا أعرف جيداً أن تعدد الزوجات كان غير مستهجن بالعرف، بل أؤمن تماماً أنه كان مفضلاً في الدين، وأنه كان لازماً على الأنبياء بالذات[1]، ولكن ألا ترى معي أن نبيكم قد بالغ كثيراً في ذلك التعدد لدرجة أخرجته من مصلحة النبوة في التعدد؟

- فماذا تسمي ما ترووونه في الكتاب عن أن داوود عليه السلام كانت له عشرات الزوجات، وسليمان عليه السلام كانت له سبع مئة زوجة وثلاث مئة سرية؟!!!

- وماذا عن المرأة التي طلقها نبيكم من زوجها ليتزوجها هو بعد أن رآها فأعجب بها.

---

(١) راجع الفصل (الموقف) نفسه المشار إليه في الحاشية قبل السابقة.

- لا أستغرب أن تقول هذا[١] عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه بعد أن نسبتم قصة مشابهة لذلك إلى نبيكم داوود عليه السلام، بل جعلتموها ضمن كتابكم المقدس[٢]. لقد تزوج الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لأسباب تشريعية أيضاً؛ فزواجه من السيدة "زينب" التي تتحدث عنها كان لغرض تشريعي، حيث كان العرب يعتبرون الابن بالتبني له كل حقوق الابن؛ من حرمة وغيرها، فنزلت الآيات التي أمرت بدعوة الأبناء لآبائهم والتعامل مع أبناء التبني كإخوة في الدين وليس كأبناء بالنسب. ثم جاء اكتمال التشريع الخاص بهم بزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من مطلقة ابنه بالتبني (زيد بن حارثة) الذي كان يسمى قبل تحريم التبني بـ(زيد بن محمد). وقد كانت السيدة "زينب بنت جحش" تفخر بهذا الأمر، وتتباهى به على بقية أمهات المؤمنين وتقول لهن: "زوجكن أهاليكن وزوجني ربي من فوق سبع سموات"[٣].

---

(١) ذكرت هذه القصة الموضوعة في بعض كتب السلف مع تضعيفها. فقد قال الإمام القرطبي المفسر: فأما ما روي أن النبي ﷺ هوي زينب امرأة زيد، وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق، فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته. وعلق ابن كثير على ذلك قائلاً: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. وقال الإمام ابن العربي المالكي رحمه الله تعالى: فأما قولهم: إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه؛ فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم تخطر بباله، فكيف يتجدد له هوى لم يكن، حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة، وقد قال الله له: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين، فيخالف هذا في المطلقات، فكيف في المنكوحات المحبوسات؟!

(٢) يقصد ما ورد في التوراة الحالية من أن داوود عليه السلام رأى زوجة أوريا الحثي وهي تستحم، فأعجب بها وأمر أن تأتي إليه ليقضي حاجته منها، وعندما حملت، أرسل إلى زوجها المحارب، واحتال عليه كي يجامعها، فيظن أن المولود منه. ولكن أوريا رفض التمتع بنعم الدنيا وإخوته يقاتلون. وبعد عدة محاولات فاشلة، لم يجد داوود بداً من إعادته إلى أرض المعركة مع رسالة للقائد بجعله في مقدمة الهجوم والحرص على أن يقتل فيه. وبعد ذلك تزوج امرأته التي أنجبت له سليمان فيما بعد. تنزه أنبياء الله عن هذا الافتراء تنزيهاً كبيراً.

(٣) البخاري، كتاب التوحيد.

ولمعلوماتـــك الخاصة كانت زينب ابنة عمته، أي إنه لم يرها، كما يدّعون، للمرة الأولى بعـــد أن تزوجت من ابنه بالتبني. كما أنه تزوجها وهي بنت خمس وثلاثين ســـنة، أي إنها في عرف ذلك الزمان لم تكن مغرية بتاتاً. ولابد أن تعرف أن زيجاته عليه الصلاة والســـلام كانت كلها (ما عدا زواجه من الســـيدة عائشة) من أرامل أو مطلقات. وكان الزواج من هؤلاء يعتبر عطفاً وفضلاً لرعايتهن هن وأولادهن. ولو أراد الرســـول عليه الصلاة والسلام الزواج من الأبكار الجميلات، لتبارى أشراف القبائل، وأولهم أصحابه رضوان الله عليهم قبل غيرهم ليحظوا بهذا الشرف. ولكن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن حياة بهجة وسعادة وسهرات، بل كانت حياة حكم ودعوة وجهاد وسفر وصلاة وقيام ليل حتى تورمت قدماه، فأين الوقت للزواج من أجل المتعة؟!!!

- لا أدري، ربمـــا كل ما تقوله هو منطقي بالفعل، ولكنني مع ذلك ما أزال أشـــك في أن الإســـلام قد جاء من المشكاة نفسها التي جاءت منها اليهودية والمسيحية، فهو يختلف عن كليهما.

- قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا ﴾ أي إن أمة محمد هـــي أعدل الأمم وخيرها في كل أمور الدين، وَسَـــطاً فـــي الأنبياء بيْن من غلا فيهم كالنصـــارى، وبين من جفاهم وقتلهم كاليهود، في حين آمن المســـلمون بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك. ووســـطاً في الشـــريعة، لا تشديدات اليهود، ولا تهاون النصارى. ووســـطاً في باب الطهارة والمطعم، لا كاليهـــود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكَنَائِســـهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حُرِّمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا يُنَجِّســـون شـــيئاً ولا يحرِّمون شـــيئاً، بل أباحوا ما دَبَّ ودَرَج. فلهـــذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجَلَّها، ومـــن الأعمال أفضلها. ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾، بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، فَيحْكُمُون على الناس من سائر

أهل الأديان، ومن ذلك ما يكون يوم القيامة إذا سـأل الله تعالى المرسلين عن تَبْلِيغهم، والأمم المكذبة عن ذلك فأنكروا أنَّ الأنبياء بلَّغتهم، عندئذ يَسْتَشهدُ الأنبياء بهذه الأمة لما عندها من الكتاب المهَيْمن على ما سـبقه من الكتب، وإِخْبَارِه عن بلاغ الأنبياء كما أُمِرُوا. ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] فيزكي شهادة أمَّته التي هي أكمل الأمم وأجْوَدُها وأتمها إخلاصاً ومتابعة.

شهادة الملك أوفا وإنكار روبن هود

خرج أبراهام من المسجد منكس الرأس، وهو يشعر بالحيرة والضياع، وتضارب الأفكار، فرغم عدم اعترافه بذلك مطلقاً، إلا أنه صار الآن موقناً تماماً بتفوق الإسلام، وأنه -بطريقة أو بأخرى- من الله فعلاً. كان قد شعر بذلك مراراً، ولكنه كان دائماً ما يجد تبريرات للتهرب مما سيترتب عليه تسليمه واعترافه. آخر وأقوى مرة جاءه بها ذلك الشعور كان في أثناء حديثه مع الشيخ خطاب، آنذاك تمنى لو كان ينهل من نفس المنبع الذي يستمد منه الشيخ قوته، ولكنه وأد تلك الفكرة فوراً، مرجعاً تأثره واقتناعه إلى إعجابه بالشخصية الطاغية لذلك الرجل المهيب. ولكن يبدو أن إعجابه واقتناعه كان بالإسلام ذاته، فها هو ذا الإمام رحمة الله الباكستاني الذي لا يمتلك شيئاً من هيبة الشيخ خطاب وقوة حضوره وشخصيته المؤثرة، قد استطاع أيضاً إقناعه، بل بالمنطق وقوة الحجة نفسيهما. وكذلك فعل إستس قبلهما على اندفاعه وتسرعه وحبه للصدام، وهذا أيضاً ما كان من أصلان على رعونته وحبه للنساء والخمر، وكذلك أيضاً فعل أحمد منذ البداية على وداعته ومسالمته ومثاليته! ومع اختلاف طبائعهم وجنسياتهم ومشاربهم وثقافاتهم واختصاصاتهم، إلا أن كلاً منهم قد أفحمه بالمنطق نفسه. إذن فالأمر لا يتعلق بالأشخاص بل بالعقيدة ذاتها!!! فالإسلام فعلاً هو دين واقعي عقلاني لا تنقصه قوة الحجة ولا المنطق السليم، وهو دائماً ما يجتاز كل الاختبارات من جهة العقل والأخلاق وتنظيم الحياة بمختلف مجالاتها، ولا يستطيع أحد أن يأخذ عليه أي مأخذ إلا من جهة الجدل الذي يعتمد على الأهواء والأفكار المسبقة والمثاليات غير القابلة للتطبيق أو حريات وحقوق العصرانية التي ثبت له مكرها وخبثها. ومع أن أبراهام كان يلجأ إلى بعض ذلك أيضاً في أثناء حديثه مع المسلمين الذين التقاهم،

إلا أنه هو نفســـه قد اضطر غير مرة أن يأخذ جانب الإسلام في نقاشه مع الآخرين. أحس أبراهام أنه يفقد بالتدرج كل الأعواد التي يتعلق بها كي لا يغرق في بحر الإسلام، فأسرع الخطا لاشعورياً، كأنه يهرب من صياد يوشك أن يلقي عليه شباكه.

ظل يهيم في الشـــوارع نفسها دون هدى محاولاً العودة إلى الطريق الذي أتى منه، إلا أن صورة رحمة الله كانت تلاحقه دون هوادة، تعيد عليه الحجة تلو الأخرى، وتفند كل اعتراضاته على الإســـلام، وبدا وكأن رحمة الله قد وسعته من الجوانب كافة رغماً عنـــه. عبثاً حاول الهروب، وفي النهايـــة أيقن أبراهام أنه لن يجد الطريق إلى الفندق بنفســـه، فأوقف أحد المارة طالباً المساعدة. أخبره الرجل أن الطريق طويل جداً، ومن الأفضل أن يستقل إحدى وسائل المواصلات، إلا أن أبراهام أصر على العودة سيراً على الأقدام مهما بعدت الشـــقة. أخذ الرجل يحاول تقريب الوصف عن طريق الاســـتعانة بمعالم لندن الرئيســـية كنقاط علام، وما إن ذكر اســـم المتحف البريطاني، حتى تذكر أبراهـــام دينار الملك أوفا الذي تحدث عنه أحمد، فطلب من الرجل أن يكتفي بوصف الطريق إلى المتحف فحســـب. كان المتحف أكثـــر قرباً إليهم بكثير، لذا لم يجد الرجل صعوبة هذه المرة في إرشاد أبراهام لضالته. وما كاد ينتهي من توصيف الطريق حتى شـــكره أبراهام بتلعثم، ومضى مهرولاً باتجاه المتحف حتى وصله لاهثاً، ثم سأل بلهفة عن "شـــعبة المسكوكات القديمة" وهو يتمنى من كل قلبه أن يكون أحمد كاذباً، أو على الأقل مبالغاً فيما رواه عن الدينار الإسلامي.

وقف أبراهام منكسر الفؤاد ينظر بيأس إلى الدينار ونقوشه الإسلامية التي تذكره بتلك اللوحات الجدارية في شقة أحمد، ولكنه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه محاولاً إقناع نفســـه بأن هناك -لا ريب- سبباً أكثر منطقية مما افترضه أحمد بشأن وجود كتابات إســـلامية على تلك العملة الإنجليزية العتيقة. لم يكن أبراهام ممن يســـلِّمون بســـهولة لكل ما يســـمعونه أو يرونه بأم أعينهم أيضاً، حتى وإن كان مقنعاً، فقد عقد

العزم على ألا يرضى بأقل مـــن اليقين الكامل قبل أن يبدأ التفكير بجدية في تحويل مسار بحثه عن الحقيقة نحو أكثر شيء رفضه في حياته.

طلب أبراهام مقابلة أحد المســؤولين في المتحــف للتحدث معهم عن تلك القطعة الذهبية، ولكن المعلومات البســيطة التي قدموها له لم تشف غليله. وفي النهاية تمكن عن طريق أحــد الموظفين في الإدارة من الحصول على رقــم هاتف الدكتور "روبرت براون"، أحد خبراء المســكوكات المهتمين بهذا الموضوع. وبالفعل اتصل به، وحدد معه موعداً بعد أن عرف نفســه علــى أنه باحث في الأديان والحضــارات، يحتاج بعض المعلومات لإتمام كتاب يعمل على تأليفه حالياً.

حياه الخبير بلباقة قائلاً:

- مرحباً بك سيد دوخافيتسكي، تفضل بالدخول.

- أشكرك كثيراً د.براون.

- أرجوك تفضل بالجلوس.

- شكراً.

- هــل أتيت خصيصاً إلى إنجلترا كي تجمع المعلومــات عن النقوش العربية على العملة الإنجليزية الأثرية؟

- هذا أحد المواضيع التي أعمل عليها هنا حالياً.

- كيف أستطيع أن أخدمك؟

- فلنبدأ بالتعريف بذلك الملك الغامض ومكانته الفعلية.

- الملك أوفا كان واحداً من أعظم ملوك أوربا وأكثرهم شهرة في العصور الوسطى. فقد اســتطاع على امتداد عصره الذي استمر تسعة وثلاثين عاماً (٧٥٧ - ٧٩٦م) أن يوحد الممالك الأنجلوساكسونية لأول مرة في التاريخ، ويخرجها من عزلتها بعد جهود مضنية بذَلها في مختلف الميادين العســكرية والدبلوماســية والاقتصادية حتى بلغت

بلاد الإنجليز في عصره مكانة سامية تمتعت فيها بالثروة والأمن والرفاهية بفضل مشروعاته الاقتصادية والعمرانية وتشريعاته العادلة. فاستحق عن جدارة لقبي "ملك إنجلترا" (Rex Anglorum) و"ملك كل بلاد الإنجليز" (Rex totius Anglorum Patriae). بل اتسع نفوذه ليتخطى حدود بلاده، وترك بصماته القوية على مجريات أمور السياسة الأوربية بشكل عام، وهو ما أجبر شارلمان العظيم والبابوية على مهادنته في بعض الأحيان، على كرههما الشديد له، واشتهارهما بتدبير المؤامرات ضده، ودعم منافسيه وأعدائه. والأثر المهم الباقي من عهده هو السور الذي اكتشف مؤخراً، والذي بناه بين مارسيا وويلز، وقد اصطلح المؤرخون على تسميته بخندق أو سور أوفا OFFA`S DYKE. وهو يعد من وجهة النظر الهندسية أعظم عمل إنشائي أقيم على سطح الأرض في أوربا على امتداد تاريخها القديم والوسيط.

- ما الذي يميز ذلك السور من غيره؟

- يبلغ طول السور مئتين وواحداً وأربعين كم، وقد تم اكتشاف قرابة مئة وتسعة وعشرين كم منه أفادت في تحديد ملامحه وأبعاده الحقيقية إلى حد بعيد. وهو عبارة عن خندق بعمق ستة أقدام (نحو مترين) يوجد في الناحية الغربية المطلة على ويلز، وأعلاه من الشرق (أي جهة مرسيا) يوجد سور ارتفاعه خمسة وعشرون قدماً (نحو ثمانية أمتار)، ومن ثم فإن الذي يريد عبور السور من الغرب إلى الشرق، عليه أن يتسلق ستة وخمسين قدماً (سبعة عشر متراً تقريباً)، وهي تمثل عمق الخندق بالإضافة إلى ارتفاع السور من الجانبين. وهو يمتد نحو مناطق جبلية يصل ارتفاعها في بعض المناطق إلى ألف وأربع مئة قدم عن سطح البحر تقريباً[1].

---

(١) يبدو أن الهدف من وراء بناء الملك أوفا لذلك السور العظيم هو تعويق أعوان البابوية من عبور الحدود إلى مملكته لإثارة النفوس وتحريض الأهالي على الثورة ضده، طبقاً للاتفاق بين البابوية وويلز لمحاربة أفكاره "المعادية للكنيسة والإيمان"، كما جاء في المصادر. لمزيد من التفصيل راجع كتاب "عصر أوفا ملك إنجلترا"، للدكتور مصطفى حسن الكتاني أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد في كلية الآداب - جامعة أسيوط.

- إذا كان الملك أوفا بكل هذه الأهمية والمكانة في العصور الوسطى، فما سر ندرة ذكره في كتب التاريخ؟!

- أنت محق في كون هذا الملك لم ينل حظه المفترض من الدراسة المتكاملة الجوانب، فلسبب ما مَرَّ أغلب المؤرخين المعنيين بتاريخ الجزر البريطانية على عصره مرور الكرام! وفريق آخر قد أهمل الإشارة إليه تماماً!! وكل ما دُوِّنَ عن تاريخ هذا الملك لا يتعدى نتفاً أو شذرات مبعثرة هنا وهناك، يشوبها التناقض والغموض، أو على أفضل تقدير، فصل أو بعض فصل في كتب بعض المؤرخين المتخصصين أمثال ستنتون Stenton ووايتلوك Whitelock وورمالد Wormald وهارت Hart.

- هل تعرف معنى تلك الكتابات العربية المنقوشة على ديناره؟

- أجل.

قال الدكتور براون وهو يتجه نحو مكتبته، حيث تناول أحد المجلدات، ثم جلس بجانب أبراهام وهو يريه صور الدينار الذهبي قائلاً:

- هذه الكتابة هنا هي عبارة يطلق عليها المسلمون لقب "شهادة"، وهي تعني أنه "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، وتجد تتمتها على الحافة: "محمد رسول الله"، أما هذه الكتابة فهي تعني: "أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله".

- هل هي آية قرآنية فعلاً.

- لا أدري، فأنا لم أقرأ القرآن، ولكن هذا ما يقوله المسلمون[1].

- وماذا عن الوجه الثاني؟

- بين محمد ورسول بالعربية كتبت باللاتينية كلمة REX التي تعني الملك، وبين رسول والله كتب اسم الملك: OFFA، وتلك الكتابة العربية على الحافة تعني "بسم الله. ضرب هذا الدينار سبع وخمسين ومئة".

---

(١) العبارة مقتبسة من الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وقد تكررت ثلاث مرات في القرآن في: التوبة ٣٣، الفتح ٢٨، الصف ٩.

- هل هذا تاريخ؟

- أجـــل. وكما يفهم من إمضاء الملـــك أوفا فإن هذه القطعة ضربت خلال الأعوام ٧٥٧-٧٩٦م. وســـنة ١٥٧هـ الواردة في قطعة النقـــد تصادف عام ٧٧٤م، وهي ضمن فترة حكم الملك أوفا.

- كيف تفسر كل هذا؟

- أوه يـــا عزيزي. لقد كتبت بحـــوث عديدة حول هذه القطعـــة النقدية، وألقيت محاضرات كثيرة حولهـــا، وقدم المؤرخون فرضيات ونظريات عديدة لتفســـير ذلك، وتضاربت الأقوال والأدلة، فلا تتوقع مني إجابة سريعة شافية.

- حسناً، ما أهم تلك الفرضيات؟

- الفرضيـــة الأولى تقول إن الملك أوفا اســـتعمل هذه الجمل والكلمات العربية والآيـــات كزخرفة أو كزينة دون أن يفهم معناها. الفرضيـــة الثانية تقول إن الملك أوفا قد عقد سنة ٧٨٧م معاهدة مع البابا "أندريان الأول" تقضي بقيام الملك بدفع جزية ســـنوية إليه سميت بـ"بنس بطرس"، وقد تكون هذه القطع الذهبية قد سكت خصيصاً لهذا الغرض. والفرضية الثالثة تقول إن الملك أوفا قد ســـك هذه النقود لمســـاعدة الحجاج مـــن مواطنيه من الراغبين في الحج إلى أورشـــليم في محاولة لتســـهيل تعاملهم في الديار المقدسة التي يسيطر عليها المسلمون... أي إن السبب كان سياسياً.

- أهذه هي كل الفرضيات؟

- كلا؛ فهناك فرضية أخرى لا أميل إليها شـــخصياً، ولكنها للأسف تفرض نفسها بقوة، دون أن تدع أي مجال لتجاهلها.

- أهي فرضية إسلام الملك أوفا؟

- أجل.

- لنناقش كل هذه الفرضيات بالترتيب. فمن الواضح أن الفرضية الأولى لا تتفق مع المنطق الإنساني السليم، إذ من المستحيل أن يقوم "ملك" بكتابة جمل لا يعرف معناها على النقود التي يقوم بسكها، ومن أجل الزينة فقط، خاصة أن هذه الجمل هي الشهادة التي تلخص أساس العقيدة الإسلامية.

- ولكن بعض ملوك أوربا المنبهرين بالحضارة الإسلامية قاموا بكتابة أسمائهم باللغة العربية على النقود التي سكوها، أمثال "ألفانسو الثامن"، و"فاسيلس ديميتريش"، وبعض أمراء النورمان أمثال "وليام دروجر". بل إن الإمبراطور الألماني "هنري الرابع" سك اسم الخليفة العباسي "المقتدر بالله" على نقود بلده لإعجابه به[1].

---

(١) للتدليل على عظم المكانة التي كان يتمتع بها أسلافنا نورد هذه الرسالة من ملك أقوى الدول الأوربية إلى ملك مملكة إسلامية منشقة (فما بالكم بدولة الخلافة نفسها؟) يوقعها بأنه "خادمه المطيع". نص الرسالة: "من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، وبعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان، ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز تتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة وحدب من اللواتي سيتوافرون على تعليمهن. ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص. من خادمكم المطيع جورج ملك إنجلترا". جواب الخليفة الأموي في الأندلس: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد: إلى ملك إنجلترا وايكوسيا واسكندنافيا الأجلّ... اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا والسلام. خليفة رسول الله في ديار الأندلس هشام الثالث". مصدر عربي: كتاب الاستذكار لابن عبد البر- المجلد الأول، مصدر إنجليزي: كتاب العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى للمؤرخ الإنجليزي السير جون دوانبورت. اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً.

- لكن هل كتب أحد منهم على نقوده الشـــهادة التي لابد أن يتفوه بها كل من يريد أن يدخل في ذلك الدين، أو كتب آية قرآنية أو ما يفيد بكون الإسلام هو الدين الحق وأن الرب سيظهره على الأديان كافة؟

- كلا.

- إذن هذه الفرضية مرفوضة تماماً، وأخشى أن الأمر كذلك بالنسبة إلى الفرضية الثانيـــة، فهي فرضية غريبة جداً وغير واقعية؛ إذ كيـــف يطلب البابا الكاثوليكي من ملك ما، أو على الأقل يقبل منه كتابة شـــهادة الإسلام على نقود الجزية التي فرضها عليه؟!!! هذا يبدو مستحيلاً بكل المقاييس. فالمقام البابوي كان آنذاك من أعدى أعداء الإسلام، ومن الطبيعي أن يرفض البابا رؤية شعار عدوه وعقيدته على النقود المرسلة إليه ممن يتقي غضبه، حتى وإن كان على شكل زينة أو زخرفة.

- في الحقيقة أنا أيضاً أستنكر هذه الفرضية، فتبقى النظرية الثالثة هي الأقرب إلى المنطق.

- ولكن المســـلمين في ذلك العهد (الخلافة العباسية) لم يكونوا يمنعون، ولا حتى يضعون أي عقبات أو عراقيل أمام المســـيحيين من جميع الأقطار المسيحية في الحج إلى المدن المقدســـة لديهم. بل كان المســـيحيون يتجولون في كل الأراضي الإســـلامية بمنتهى الحرية، ســـواء في عهد الملك أوفا أو قبله أو حتى بعده. أي لم تكن هناك أي حاجة إلى مثل هذا التدبير، ولكنني شـــخصياً أعتقد أن الملك كان عاجزاً آنذاك عن القيام بســـك النقود، لذلك اضطر إلى القيام بســـك نقوده في إحدى بلاد الخلافة، وهناك قاموا بســـك النقـــود بالطريقة التي اعتادوا عليها، مكتفين بنقش اســـم ذلك الملـــك بلغته المحلية. ما رأيك بهذه الفرضية الجديـــدة؟ ألا تبدو أكثر منطقية من كل الفرضيات الأخرى؟

تنفس أبراهام الصعداء وهو يظن أنه قد حل الإشكال بمنطق معقول، ينفي احتمال إسلام ذلك الملك الإنجليزي الكبير، وما يتبع ذلك الاحتمال من إشكاليات أكثر تعقيداً؛ مثل افتراض أنه لم يكن الوحيد الذي أسلم بمملكته، ما دام قد سك نقوداً عليها شهادة التوحيد وتتداول على نطاق واسع بالمملكة دون خوفه من اعتراض أحد من الكنيسة أو البلاط. ثم التفت إلى الخبير بزهو قائلاً:

- كيف لم يفكر أحد بذلك من قبل؟!!

- أخشى أن هذا الاحتمال يبدو أضعف من كل الاحتمالات السابقة، إذ إن أهم إنجاز باق حول حكم هذا الملك هو تأسيسه وسكه لنوع جديد من العملات تحمل اسم الملك واسم ضاربها[1]، وهناك الكثير من العملات التي تحمل صورة الملك أوفا، أو صورة زوجته الملكة "كانثريز". وقد استخدم هذا النظام في سك النقود في إنجلترا لعدة عصور، وأستطيع أن أريك هنا عدة نماذج أخرى من النقود التي تم سكها في عهد هذا الملك.

أخذ د. براون يستعرض عليه صور مسكوكات الملك أوفا بالترتيب، فلاحظ أبراهام أن العملات التي سكها ذلك الملك كانت في بداية حكمه تحوي علامة الصليب المسيحية على أحد وجهي العملة، وصورته على الوجه الثاني. ثم حملت العملة علامة ليست بالصليب ولكن مشابهة له إلى حد ما، وضعت بحجم صغير، ثم تلاشت في السنوات الأخيرة من عصره فضلاً عن اختفاء صورته. وفي النهاية قفز أوفا قفزة كبيرة، فنقش عبارات التوحيد الإسلامية على ديناره الذهبي جنباً إلى جنب مع اسمه، فتساءل في نفسه: أكان ذلك مصادفة فعلاً!!! ثم قال بيأس:

- أي إن احتمال عجز ذلك الملك عن سك النقود في بلد غير بلده غير وارد أيضاً؟

- للأسف غير وارد على الإطلاق.

---

(١) الموسوعة البريطانية.

- حسناً، بافتراض أن الملك أوفا قد اعتنق الإسلام فعلاً، فلا بد من وجود وثيقة، أي وثيقة، تدل على ذلك. فهل تم العثور على شيء كهذا؟

- كلا.

- إذن فهو لم يُسْلِم قطعاً.

- أنا أيضاً أتمنى ذلك، ولكن الحياد والأمانة العلمية تحتمان عَلَيَّ أن أذكر أن أصحاب تلك الفرضية، وبالذات المؤرخون، يرجعون السبب في ذلك إلى أن الكنيسة الإنجليزية قد قامت بالقضاء على كل الوثائق العائدة إلى هذا الملك بسبب اعتناقه الإسلام.

- إلامَ يستندون في ذلك؟

- إلى الإشارات التي وردت في بعض المصادر عن خطر الملك أوفا على العقيدة المسيحية، مثل أنه: "هدد بالخطر سلطان الكنيسة الرومانية مباشرة، وأنذر بإخراجه من إنجلترا"[1]، كما أنهم يستندون في ذلك أيضاً إلى أن وثائق عصر الملك أوفا بالذات، دون غيره من الملوك الإنجليز، قد اختفت تماماً!!!

تذكر أبراهام حديثه مع إستس عن سوابق عديدة للكنيسة في هذا المضمار، مما جعله لا ينفي ذلك الاحتمال مطلقاً. ولكنه سأل الخبير قائلاً:

---

(١) وردت هذه العبارة الخطيرة على لسان المؤرخ ستنتون Stenton، op. cit، p. ٢١٥. ومع أنه لم يفصل هذا الخطر الذي ينذر بإخراج سلطان الكنيسة من إنجلترا، إلا أنه من الواضح أن ذلك يتفق تماماً مع فرضية إسلام الملك أوفا. وبالذات إذا أخذنا بعين الاعتبار أن البابا قد أرسل إلى إنجلترا بعثة مسيحية عام ٧٨٦م، على رأسها أسقف أوستيا المشهور بتجاربه التبشيرية فضلاً عن مجموعة أخرى من كبار رجال الدين المسيحي! والبابوية لم ترسل قط مثل هذه البعثة إلى دولة يفترض أنها مسيحية أصلاً، خاصة أن الهدف المعلن لتلك البعثة هو "إعادة تجديد وتثبيت الإيمان في نفوس الإنجليز" بعد "سوء أحوال المسيحية في بلاد الإنجليز" على حد تعبير المصادر!!! للاطلاع على تلك المصادر، وعلى بقية الإشارات (مثل قيام الملك أوفا بـ: "أعمال أدت إلى تقويض دعائم الإيمان"، وإجراءات "من الخطورة لدرجة أن البابوية اعتبرتها خطراً ماحقاً هدد إنجلترا كلها بالخروج من حظيرة المسيحية") وتحليلها، راجع الكتاب المشار إليه سابقاً: عصر أوفا ملك إنجلترا، وهو كتاب قيم استعنا به مراراً في هذا الفصل.

- وأنت يا سيدي ماذا تظن؟

- لا أدري. ولكن ربما كان أصحاب هذا التحليل قد بالغوا قليلاً، فالكنيسة ليست بهذا الجبروت[1]، وهي لم تستطع أن تخفي وثيقة أخطر من ذلك بكثير، بنودها مستقاة ومستنبطة من القرآن بشكل مباشر، وتوحي أكثر أن أحد ملوك إنجلترا اللاحقين ربما قد أسلم فعلاً، أو على الأقل كان في طريقه إلى الإسلام لولا التآمر عليه.

- أي وثيقة وأي ملك تقصد؟!!!

---

(١) هذا ليس واقعياً. فقد كشف كتاب ترجم أخيراً إلى العربية وقائعَ وأحداثاً تاريخية عن جانب بسيط من العالم السري لجاسوسية البابوية التي صارت تعرف بالفاتيكان، ورأى أن البابوية التي هي أقدم منظمة في العالم وصانعة الملوك والتاريخ قد استعانت طوال خمسة قرون بجهاز تجسس سري يدعى "الحلف المقدس" أو "الكيان" كما دعي في وقت لاحق لينفذ مشيئته. وجاء في الكتاب الذي ألفه المراسل التلفزيوني الأمريكي المقيم في إسبانيا "إريك فراتيني" أن أربعين من الباباوات اعتمدوا على هذا الجهاز لتنفيذ سياساتهم، وأنه حتى الآن له دور غير مرئي لمواجهة حالات الارتداد عن الدين المسيحي، والانشقاقات والثورات والدكتاتوريات والاستعمار والترحيل والاضطهاد، وشن الهجمات والحروب الأهلية، والحروب العالمية، والاغتيالات والاختطاف. وسبقت الطبعة الأولى للكتاب -واسمه "الكيان.. خمسة قرون من جاسوسية الفاتيكان السرية"- باللغة العربية طبعات إنجليزية وإسبانية وفرنسية لاقت رواجاً منقطع النظير. وأوردت دار النشر في تعريفها بالكتاب نقلاً عن محتوياته أموراً قد يرفضها البعض وينسبها إلى أعداء للفاتيكان. وجاء في التعريف: "يروي فراتيني القصة الكاملة لجهاز المخابرات المقدس هذا، لقد تورط الكيان في قتل ملوك، ودس السم لدبلوماسيين، وتمويل دكتاتوريي أمريكا الجنوبية وحماية مجرمي حرب، وتبييض أموال المافيا والتلاعب بالسوق المالية، والتسبب بإفلاس مصارف وتمويل مبيعات أسلحة لمقاتلين أدينت الحروب التي يشنونها". ومن التعليقات على الكتاب قول صحيفة "أل بي" الإسبانية عنه إنه "قصة حقيقية تتخطى أي رواية لجون لوكاريه (الروائي البريطاني الشهير في عالم القصص البوليسية والتجسس والسياسية). وجاء في التمهيد للكتاب: "البابوية هي المؤسسة الرسمية الأقدم في العالم، إنها المؤسسة الوحيدة التي ازدهرت في العصور الوسطى وأدت دوراً رائداً في النهضة الأوربية، وهي أحد اللاعبين الرئيسيين في حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة له، وفي الثورة الفرنسية وعصر الصناعة ونشوء الشيوعية وسقوطها".

- أقصد وثيقة "الماجناكارتا" Magnacarta الشهيرة[١]، والمؤرخة سنة ١٢١٥م "أول وثيقة لحقوق الإنسان"، والملك الذي أصدرها هو "جون لاكلاند" John Lackland.

- جون لاكلاند (بلا أرض) الذي خلف أخاه ريتشـــارد قلب الأسد Richard the Lion-Heart [٢]؟!!! ملكاً لإنجلترا ودوقاً للنرويج عام ١١٩٩م؟!!!

---

(١) الماجنا كارتا كلمتان لاتينيتان، معناهما في العربيّة العهد الأعظم. كفلت الحريات الفرديّة لجميع الشعب. وبدأت بالمقدمة التالية: "من جون ملك إنجلترا (وهذا يوحي بأنه هو من أصدرها ولم يجبره النبلاء عليها كما ادعوا لاحقاً) بعناية الله تعالى. . . . إلى كبار أساقفته، وأساقفته، ورؤساء أديرته، وحملة ألقاب إيرل وبارون. . . وجميع رعاياه الأوفياء. تحية. اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر"، ثم عد ٦٣ مادة حقوقية. ثم ختمه بعبارة: "وقعناه بيدنا بحضور الشهود، في المرج المعروف باسم ريمنيد في اليوم الخامس عشر من شهر يونيه من السنة السابعة عشرة من حكمنا". ثم ما لبث أن نشبت الحرب بين الملك جون والنبلاء ثم تُوفي الملك جون في أثنائها في سنة ١٢١٦م. وقد وافق ملوك إنجلترا في السنوات اللاحقة على مواد هذه الوثيقة، واعتُرف بها جزءاً من القانون الأساسي لإنجلترا. وخلال القرن السادس عشر توارت الماجنا كارتا إلى حد كبير، بيد أنّ بعض أعضاء البرلمان بعثوا فيها الحياة من جديد خلال القرن السابع عشر الميلادي، وظلّ البرلمانيون يستخدمون موادها في مواجهة الحكم الاستبدادي لملوك آل ستيوارت، واعتبروا ما ورد بها يخولهم رقابةً دستوريةً على سلطة الملك. وتذرعوا ببعض موادها لتدعيم حججهم بالأسانيد القانونية، مثل عدم جواز إصدار قانون أو فرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان، واستندوا إليها في المطالبة أيضاً بضمانات للمحاكمة أمام هيئة محلّفين، والحماية ضد الحبس التعسفي، وغير ذلك من الحقوق. وفي القرن الثامن عشر وصف السير وليم بلاكستون، المحامي البريطاني ذائع الصيت، المبادئ المثالية للوثيقة بأنها تمثل الحقوق القانونية للناس كافة، وذلك في مؤلّفه المشهور "تعليقات على القوانين الإنجليزية". . وفي ١٩٥٧ اعترف اتحاد المحامين الأمريكي بفضل الماجنا كارتا على القانون والدستورية الأمريكيين بإنشاء نصب لها في رنيميد. وافتتح في ٢٤ أيار/ مايو ٢٠٠٣ محل الماجنا كارتا داخل المثلث البرلماني في كانبرا، أستراليا. يذكر أنه لم يبق في بريطانيا من النسخ الأصلية للماجنا كارتا غير أربع نسخ: نسختين بالمكتبة البريطانية في لندن، والثالثة في كاتدرائية سالزبري، والرابعة في كاتدرائية لنكولن. وتُعد النسخة الموجودة في كاتدرائية لنكولن أفضل حالاً من النسخ الأخرى.

(٢) مع أن ريتشارد قلب الأسد استبطأ وفاة أبيه، وحاربه ليرثه، (انتصر عليه أبوه بعد أن انفض عنه أتباعه، ثم عفا عنه. بعد ذلك تعاون ريتشارد مع عدوه اللدود ملك فرنسا فيليب أغسطس ضد أبيه الملك العجوز هنري، وهذه المرة تمكن من إلحاق الهزيمة بوالده! وتم عقد صلح مهين مع الملك هنري الذي توفي قهراً بعد ذلك الصلح بقليل.) وبالرغم من كونه عاقاً لوالده، وسيئ الأخلاق، وشاذاً جنسياً، وسريع الغضب، وغادراً، ودموياً، بل ولصاً عسكرياً ومجرم حرب سيئ السمعة، مع أنه لم يهتم بإنجلترا أصلاً، وأمضى أكثر أوقات حياته خارجها (كان اهتمامه منحصراً في أملاكه الفرنسية)، فقد صنعت الدعاية منه بطلاً قومياً إنجليزياً، وألّفت حول شخصيته العديد من الملاحم والقصص الأسطورية، وذلك تمجيداً لدوره في محاربة صلاح الدين، ونكاية بخليفته الملك جون، الذي تمرد على الكنيسة، وإضعافاً لشأنه.

- أجل.

- لقد أجبره النبلاء على كتابتها، فكيف تصدر أول وثيقة لحقوق الإنسان في عهد رجل شرير اشتهر بالظلم والاستبداد، وفوق هذا كله خان أخاه حين كان منشغلاً بمحاربة "صلاح الدين الأيوبي" الذي احتل "المملكة اللاتينية" في أورشليم؟!!!

- للأسف هناك تزوير وتشويه كبيران في التاريخ؛ ففي الحقيقة كان جون حاكماً عادلاً ورشيداً على عكس ما أشيع عنه خلال القرون التي تلت عصره. كما كان ذا مقدرة إدارية وحربية فذتين، ولكنه اتبع سياسة خاصة في إنجلترا وضعته في صراع مع البابا "إنوسنت الثالث"، فما كان من البابا إلا أن وضعه ومملكته عام ١٢٠٨م تحت ما يسمى بـ"الحرمان" الذي حرم البلاد من خدمات الكنيسة. وقد أظهر الملك جون حينها مقدرته بوصفه حاكماً قوياً، فأجبر أسكتلندا على قبول الخضوع، وظل يكبح أمراء ويلز، ووضع أيرلندا تحت قبضته القوية، ولكن سياساته لم تنل الرضا بين النبلاء ورجال الدين الإنجليز، وعندما فشل في إعادة سيطرته على الأراضي الفرنسية التي فقدها عام ١٢١٤م، ثاروا ضده بمساعدة الأمير الفرنسي "لويس"، وريث الملك "فيليب أغسطس"، الذي بدا واثقاً من النصر، إلا أن الملك جون حاصر أعداءه في لندن والمقاطعات المجاورة، ولكنه مات فجأة، وتسلم عرشه ابنه "هنري الثالث". وتشير بعض الوثائق المعتبرة إلى أنه قد قرأ القرآن وتأثر به، وحاول اعتناق الإسلام سراً، وأنه طلب من سلطان الموحدين[1] "محمد الناصر"

---

(١) الموحدون: سلالة بربرية حكمت في شمال إفريقية (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) والأندلس سنوات ١١٣٠- ١٢٦٩م، ومقرها مدينة مراكش، وعلى فترات متقطعة مدينة إشبيلية. تأسست الدولة على يد قبيلةِ مصمودة من المغرب وزناته من الجزائر، لكن سرعان ما أطاحت زناته بمصمودة واستأثرت بالحكم بدعم من حكام الدولة. أطلق عليهم تسمية "الموحدون" لكون أتباع هذه الطريقة كانوا يدْعون إلى توحيد الله قاطعاً مما جعلهم ينكرون أسماء الله الحسنى باعتبارها أسماء لصفات مادية. قاد بن تومرت (١٠٨٠- ١١٣٠م)، الذي ينحدر من صلبه أمراء الموحدين، أتباع حركته الدينية المتشددة، وكان يدعو إلى تنقية العقيدة من الشوائب. أطلق بن تومرت عام ١١١٨م الدعوة لمحاربة المرابطين، واتخذ من قلعة تنملل -على جبال الأطلس- مقراً له. استطاع خليفته عبد المؤمن (٣٠/ ١١٣٣-١١٦٣م) أن يستحوذ على السلطة في المغرب (سقوط مراكش عام ١١٤٧م) ومن ثم على كامل إفريقية (حتى تونس وليبيا عام ١١٦٠م) والأندلس(١١٤٦-١١٥٤م).

ملك المغرب والأندلس وإفريقيا في ذلك العصر، أن يتحالف معه ضد خصومه في أوربا. كما أبدى رغبة شديدة في دراسة الإسلام وتعرّفه عن كثب، لكي يعلن إسلامه في الوقت المناسب.

- وبالطبع استغل السلطان المسلم تلك الفرصة بمنتهى السرور؟

- من تلطف الأقدار أن الأمور لم تجرِ على هذا النحو.

- هل رفض السلطان تلك الفرصة الثمينة لنشر دينه وتوسيع رقعة ملكه؟!!!

- أجل، فقد شك أن في الأمر مؤامرة صليبية للغدر به.

- كيف حدث هذا؟

- لقد أرسل الملك جون إليه وفداً مكوناً من ثلاثة أشخاص، أراد له أن يكون سرياً[1]، ولكن خطته كانت قد كشفت وأجهضت من قبل خصومه. فقد كان أحد أعضاء الوفد متعاوناً معهم، وقام بدور مشبوه استطاع من خلاله أن يشكك في نوايا الملك جون أمام السلطان محمد الناصر.

- أي إنه تمكن من أن يدقّ "إسفيناً" من الشك والريبة بين السلطان المسلم والملك الساعي للارتداد عن المسيحية.

- أجل. ويبدو أنه قد نجح فعلاً في إثارة ريبة السلطان بنوايا الملك جون، ورغبته

---

(١) جاء تفصيل ذلك في كتاب The Tatars Khan's English الذي صدر سنة ١٩٧٨ في بريطانيا للمؤرخ الإنجليزي Gabriel Rany. ويعلق المؤلف قائلاً: "هذه الحلقة الواقعية المنسية من التاريخ البريطاني سجّلها "ماينو باريس" المؤرخ الإخباري الدقيق لأحداث القرن الثالث عشر، الذي أخذ حقائقه واستقاها من مصادرها. وحسب ما يقول باريس فإن رجال الوفد الثلاثة كانوا مكونين من البارونين: توماس هاردنجتون ورالف فيتز نيكولاس، والسيد روبرت دي لندن. (لاحقاً صدر بحقه حرمان كنسي ونفي من بريطانيا بسبب دوره في ثورة الماجنا كارتا) غير أن باريس لم يقدم أي تفسير لضم الكاهن اللندني إلى الوفد، إلا أن السبب الأكثر ترجيحاً هو أن الملك جون لاكلاند عهد إلى السيد روبرت بإدارة شؤون أبرشيته الخاصة؛ ولذلك فهو من المقربين والموثوقين، ومن ثم فإن إشراكه في الوفد يشكل ضمانة ضد البارونين كي لا يمارسا عليه خداعاً في أثناء تأدية المهمة".

باعتناق الإسلام "في الوقت المناسب"، فرفض طلبه في التحالف بين بريطانيا والأندلس، ضد المحور الصليبي في فرنسا وإسبانيا، والمتحالف مع كنيسة رومه[١]. ليس هذا فحسب، بل سخر منه واتهمه بالحماقة وقصر النظر وعدم الجدية[٢]، ما أدى إلى خسارة كل من الملك جون والسلطان الناصر[٣] كلٌّ على حدة. فبعد هزيمة الموحدين تم إحكام الحصار على الملك جون من قبل الكنيسة والدول الأوربية المتحالفة معها، مما أدى في نهاية المطاف إلى عزله واتهامه بالظلم والفساد، ثم الجنون والهرطقة، وأخيراً قتله.

---

(١) كان لهزيمة الملك القشتالي ألفونسو الثامن في "معركة الأرك" التي وقعت عام ١١٩٥ م الأثر الكبير في توطيد حكم المسلمين في الأندلس وتوسعة أراضيهم فيها، وقد تركت تلك المعركة أثراً في قلب ألفونسو الثامن الذي كانت نفسه تحدثه بالانتقام مع أنه اضطر إلى عقد هدنة مع الموحدين بعد تلك المعركة. وبالفعل استغل الملك ألفونسو الهدنة في تحصين مملكته وكذلك في تأليب بقية مسيحيي أوربا ضد المسلمين، واستطاع أن يجلب ود منافسيه السياسيين في أيبريا ملوك البرتغال ونافاره وأراگون. ثم نقض ألفونسو الهدنة عام ١٢٠٩ م بقيامه باقتحام "حصن رباح" في وسط الأندلس وأغار على جيان وبياسة وأجزاء من مرسية. وبعث إلى البابا إنوسنت الثالث يدعوه إلى إعلان حرب صليبية في أوربا. وقد استجاب له البابا فأمر بمساعدته وأعلنها حرباً صليبية لا يحل الغفران على من لا يساعد أو يشارك فيها. أرسلت الدويلات الإيطالية وفرنسا الجنود والمؤن لدعم التحالف المسيحي. إثر ذلك أعلن السلطان محمد الناصر الجهاد وأمر بتجهيز الجيوش لإيقاف المد الصليبي، وسار بقواته إلى الأندلس واستقر في إشبيلية وأرسل جزءاً من جيشه لتحرير قلعة رباح ذات الموقع الاستراتيجي، وبعد حصار دام ٨ أشهر استطاع المسلمون أن يفتحوا ذلك الحصن.

(٢) جاء في المصدر السابق حرفياً أن: "الملك جون قد بكى حين وصله الرد، وربما اعتقد أن باروناته قد خدعوه وخانوه".

(٣) مع أن الموحدين انتصروا في البداية، إلا أنهم ما لبثوا أن هزموا هزيمة قاسية على يد التحالف الصليبي الموسع في معركة "حصن العقاب" (١٢١٢م)، ولم يقم للحكم الإسلامي المركزي بعد تلك المعركة قائمة في الأندلس. فبعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس على يد المسيحيين، وسقوط معظم أجزائها في إفريقيا على يد القوى المحلية، قامت دولة المرينيين على أراضي دولة الموحدين، وقاموا بعدة معارك في بلاد الأندلس، ولكن النصر لم يكن حليفهم فيها.

- يبدو أن الجميع قد تآمروا على ذلك الملك المسكين.

قال أبراهام ساهماً، لكنه ما لبث أن أردف معترضاً:

- ولكن هذا مخالف لكل ما كنت أسمعه عن شرور الملك جون، وبطولات "روبن هود" في محاربة ظلمه واستبداده.

أفلتت ابتسامة ساخرة من فم الخبير، وقال موضحاً:

- بغض النظر عن كل الأساطير الخرافية، فقد كان هناك رئيس عصابة لصوص اسمه روبن هود فعلاً، وربما استعان الملك ريتشارد بعصابته، لتشديد الحصار على أخيه المارق على سلطة الكنيسة، وعلى الأغلب كان لروبن هود وعصابته فضل كبير في إسقاط حكم الملك جون. ولكن رغم إعدام الملك جون واتهامه بالظلم والاستبداد والجنون، وتعرض سيرته وعهده للتشويه والتزييف التاريخي، إلا أن وثيقة الماجناكارتا الشهيرة تشير إلى عدالة حكمه، وتثبت ظلم خصومه واستبدادهم.

- كيف تفسر مئات الروايات والأفلام عن روبن هود "نصير الفقراء والمستضعفين"؟.

- للأسف فقد جرت العادة على تزييف التاريخ وتفاصيل الأحداث المهمة لمصلحة المنتصر، وقلب الحقائق رأساً على عقب. وكما استخدمت الحكايات والأساطير في ذلك سابقاً، تستخدم حالياً البرامج التثقيفية والأفلام السينمائية للهدف نفسه.

- وآخرها فيلم "روبن هود"[1] الذي يعرض حالياً.

- هل شاهدته؟

- لم أشاهد هذا الفيلم بالذات، ولكنني شاهدت العديد من الأفلام الأخرى عن روبن هود.

- أنصحك بمشاهدته.

---

(١) لمزيد من المعلومات حول ذلك الفيلم يمكنكم زيارة موقعه الرسمي على الشبكة العنكبوتية:
http://www.robinhoodthemovie.com.

- بم يختلف عن الأفلام الأخرى[1]؟!

- لقد تحدث بطله "راسل كرو" Russell Crew عنه قائلاً: "حاولنا في هذا الفيلم أن نبعد المتفرج قليلاً عن سينما البوب كورن (البوشار)، ونقول له شيئاً جاداً، على الأقل هذه المرة". وبالفعل فإن فيلمه يخرج من عباءة الترفيه والإبهار البصري الملتصق بالملحمة التقليدية والفلكلورية.

- هل خرج الفيلم عن نطاق الأكليشيه النمطية لشخصية روبن هود؟

- للأسف ليس تماماً، ولكنه على الأقل خطا الخطوة الأولى نحو الخروج من أسر التقليد المشوه للتاريخ. وخفف الجرعة الأسطورية حول ذلك "اللص الشريف"، مقدماً شيئاً من الحقيقة.

- شيئاً من الحقيقة؟

- أجل. فالمشروع الأساسي قد انطلق من رؤية أكثر واقعية وقرباً من الحقيقة ومن المصداقية التاريخية، ولكنه خضع إلى تعديلات جذرية في طريقه إلى الإنتاج. وتقول القصة الخلفية للمشروع إنه في العام ٢٠٠٧، اشترت "يونيفرسل استوديوز" و"إيماجن انترتاينمنت" سيناريو بعنوان "نوتنغهام" Nottingham بتوقيع إيثان رايف وسايرس فوريس، يقدم عمدة (شريف) نوتنغهام كمحور الأحداث، ورؤية سلبية لـ"روبن هود"

---

(١) من المعروف عن ريدلي سكوت (مخرج الفيلم) دفاعه المستميت عن النسق التاريخي الواقعي لأحداث التصوير وأماكنه، وهو ما يكلفه الكثير من الميزانيات المرصودة لإنتاج أفلامه (بلغت تكلفة إنتاج هذا الفيلم ٢٣٧ مليون دولار حسب موقع www.thewrap.com) ولكن غالباً ما تكون النتائج مبهرة على صعيد التواصل البصري والروحي مع جماليات الأمكنة والمزيد من الإقناع التاريخي. وقد رأينا ذلك في أفلام سابقة للمخرج مثل "مملكة السماء" و"سقوط الصقر الأسود". ومع أن استعادة تفاصيل الأمكنة والأحداث في أزمنة غابرة كما في فيلم روبن هود، هي استعادات مستحيلة، خاصة مع غياب الوثائق التاريخية والشواهد الملموسة، إلا أن المخرج قد نجح في إضفاء بعض المصداقية والكثير من التناغم على السينوغرافيا الضخمة والشاسعة التي يلجأ إليها عادة في أفلامه ذات النسق الملحمي. حتى قال أحد النقاد إن "ريدلي سكوت في "روبن هود" لا يصنع تاريخاً بل يستعيده". يذكر أن "مهرجان كان" قد اختار هذا الفيلم لافتتاح دورته الأخيرة في أيار/ مايو ٢٠١٠.

مستندة إلى الجانب التاريخي أكثر من الجانب الأسطوري. ولكن ملاحظات الممثل راسل كرو على السيناريو[١]، وكذلك المخرج سكوت[٢] دفعت بالمنتجين إلى إسناد مهمة الكتابة الثانية لبراين هيلجلاند، ومن ثم واجه السيناريو أزمة إضراب كتاب هوليوود، لينتقل بعدها إلى الكاتب بول ويب الذي مزج شخصيتي العمدة وروبن هود. ولكن الأحلام كانت قد بدأت تراود سكوت بإنجاز نسخته الخاصة عن شخصية "روبن هود" الأسطورية، وهكذا عاد السيناريو إلى هيلجلاند وأعلن المخرج قبيل بدء التصوير[٣] أن عنوان الفيلم سيكون روبن هود وليس نوتنغهام.

- إلى أي مدى خرج الفيلم عن مسايرة الركب؟

- إنه يبتعد قليلاً عن العنصرية الدينية والقومية في كثير من أحداثه، مقترباً من الحياد في بعض الأمور؛ مثل اعترافه بخطأ الحملات الصليبية المقدسة ووحشيتها، بل وكفرها، عندما جاء فيه على لسان روبن هود مخاطباً الملك ريتشارد قلب الأسد (قائد الحملة الصليبية الثالثة): "عندما سفكنا دم ٢٥٠٠ مسلم في عكا بفلسطين نظرت إليّ امرأة قبل أن أقتلها، ولكنها لم تكن خائفة مني بقدر ما كانت مشفقة علي؛ لأنني أمارس عملاً يثبت أنه ليس لدي رب". ثم يتحدث عن حمامات الدم والمذابح التي طالت الأسرى المسلمين في فلسطين وقربَ أسوار عكا بما يشبه إدانة أخلاقية وتاريخية متابعاً: "الحرب الصليبية حولتنا إلى كفار بعد تلك المذبحة"[٤].

---

(١) كان قد تم اختياره لتجسيد شخصية شريف نوتنغهام.

(٢) ريدلي سكوت كان قد تعاون مع نجمه المفضل روسل كرو في فيلم جلادياتور "المصارع" والذي نال كل منهما عنه الأوسكار كأفضل مخرج وأفضل ممثل.

(٣) بدأ في آذار/ مارس ٢٠٠٩م.

(٤) أحذر القراء الأعزاء من الاعتماد على الترجمة العربية لذلك الفيلم، ومحاولة فهم النص الإنجليزي مباشرة، فيبدو أن التحريف الورع للترجمة قد وصل إلى الأفلام أيضاً، وذلك حرصاً على عدم التشويش على إيمان البعض، ورغبة بحرمان البعض الآخر من حجة إضافية من طراز (وشهد شاهد من أهلها). وقد جاء في مقال بعنوان "فيلم روبن هود" للناقد البحريني منصور الجمري: "والملاحظ أن المترجم=

- وكيف تناول شخصية الملك جون؟

- للأســـف لم يخرج الفيلم كثيراً عن الصورة النمطية الظالمة لذلك الملك المسكين، فقد صوره كشـــخص مستهتر ولعوب ولا يمكن الوثوق بقراراته، ضعيف الشخصية ولا يهتم للشعب، ولكنه اقترب من الحقيقة كثيراً عندما سلط بعض الضوء على المؤامرات والخيانة التي تعرض لها، حتى من قبل خاصته الذين ائتمنهم[1].

- حســـناً، وبافتراض إســـلام الملك أوفا، ومن ثم الملك جون، ألا يتبع ذلك محاولة الثاني إحياء ذكرى الأول؟!!! وإذ إن هذا لم يحصل، فإنه يضفي ظلالاً من الشك حول الموضوع برمته.

ســـرح الدكتور براون واجماً وهو يحك رأسه دون أن يجيب، فأعاد أبراهام ما ظن أنه تشكيك بنظرية إسلام الملكين قائلاً:

- من المســـتحيل اعتناق ملك لأحد الأديان، ثم يتجاهل سلفه الذي سبقه إلى ذلك الدين. أليس كذلك؟...لماذا لا تجيب؟!!!

- ربما وضعت يدك على عقدة الموضوع دون أن تدري يا بني.

- ماذا تعني؟

=الذي استخدم لكتابة الترجمة العربية على الفيلم لم يكن مرتاحاً مما قاله روبن هود، لذا فقد شطب هذا الاعتذار للمسلمين. هذه رسالة أولى مهمة في الفيلم. . . رسائل سياسية أخرى عديدة حملها الفيلم، وهو يطرح مراجعة تاريخية للأسطورة، ويربطها بأحداث وقعت فعلاً بحسب كتب التاريخ، والفيلم يستحق المشاهدة، ولكن مع ضرورة عدم قراءة الترجمة العربية المصاحبة له؛ لأنها منحازة ضد المسلمين، و(غبية) في الوقت ذاته". صحيفة الوسط البحرينية - العدد ٢٨١٣ - الخميس ٢٠ أيار/ مايو ٢٠١٠م الموافق ٠٦ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

(١) صحيح أن الفيلم قد كشف شيئاً من الحقيقة من باب الكشف عن الحقائق والإتيان بجديد، وانتزاع الإبهار بالإضافة إلى الربح الوفير، ولكن ذلك لا يخرج كثيراً عن النهج المرسوم، بل يضيف أكاذيب جديدة مقابل الحقائق التي أوردها. مثل التلميح الخبيث لتأثير مزعوم للماسونية في صياغة وثيقة الماجنا كارتا، حين يخبر السير والتر بطل الفيلم روبن بسرٍّ خطير، ألا وهو أن "كاتب الماجناكارتا كان والد روبن(!) وأنه كان بناءً(!!) وفيلسوفاً ينادي بالحرية(!!!) وسيادة القانون وأن الحكم للشعب. لذلك تم إعدامه"!!!!

- جاء في حوليات المؤرخ "روجر أوف ويندوفر" صديق الملك جون وكاتم أسراره[١]، أن الملك جون قد قام بجهود جبارة من أجل استخراج جثة الملك أوفا ودفنها في المكان اللائق، وتكريم ذكراه بما يستحق.

- ماذا؟!!!

- ألم أقل لك إنك وضعت يدك على العقدة.

- وهل كان مكان دفن الملك أوفا مجهولاً؟! ألا يفترض أن يدفن الملك داخل كتدرائية أو كنيسة العاصمة؟

- هذا لو كان مسيحياً. الغريب أن كل تلك المصادر قد أهملت مكان دفنه، دون غيره من ملوك الإنجليز كما جرت العادة بناء على التقاليد الإنجليزية الملكية العريقة.

- فأين كان يبحث الملك جون إذن؟

- يبدو أن ذكرى الملك أوفا قد ظلت حاضرة لفترة طويلة في قلوب شعبه، مع أنه تم إخفاء كل الوثائق المتعلقة به. فمصادر القرن الثالث عشر[٢] قد اعتمدت على الروايات المتواترة على ألسنة الأهالي، نقلاً عن أجدادهم وأسلافهم المعاصرين للملك أوفا، والتي أفادت أن الملك أوفا قد مات في بلدة أوفلي Offly[٣] ثم نقل جثمانه إلى بلدة بيدفورد Bedrord الصغيرة، (٤٥ ميلاً شمال غرب لندن) حيث دفن داخل مصلى صغير كائن بمبنى متداع على الحافة المباشرة لنهر الأوسك The Usk الذي يعرف حالياً بنهر أويس Ouse. وهو نهر مشهور بفيضاناته الجارفة، كما لو كان الذين دفنوه اختاروا هذا المكان المشبوه عن عمد على أمل أن تجرف الفيضانات المبنى بمن فيه ليزول كل أثر للملك، ويصبح نسياً منسياً.

---

(١) Roger of Wendover 1، pp. 166-167 وجاء الخبر نفسه في مصدر آخر هو Matthew of Westminster، 1، pp. 382-383. يذكر أنه بعد قتل الملك جون وتسليم الحكم لابنه الملك هنري الثالث، تم خلع روجر أوف ويندوفر من منصبه بتهمة الإسراف!!!

(٢) توفي المؤرخ روجر أوف ويندوفر في ٦ أيار/ مايو ١٢٣٧م.

(٣) يبدو أنها بلدة أقامها أوفا وسميت على اسمه، ثم اندثرت على مر السنين، أو لعل البابوية قد غيروا اسمها ضمن حملتهم لإزالة كل أثر يذكر الناس به.

- هل حدث هذا فعلاً؟

- يبدو ذلك. فقد ذكر روجر أن المبنى غار في أعماق النهر مع تقادم السنين بفعل الفيضانات المستمرة.

سرح الدكتور بروان ثانية، ثم تابع قائلاً:

- الغريب أن الحرمان الأول من البابوية بحق الملك جون (١٢٠٨م) قد صدر تحديداً في أثناء محاولته رد الاعتبار لذكرى الملك أوفا.

- كيف رد الملك جون على ذلك؟

- كان رده عنيفاً؛ فقد أصدر قرارات تتلخص في مصادرة أملاك الكنيسة وحبس رجال الدين. وعندما بدأت البابوية بتحريض الملوك على حربه، طلب الملك جون المعونة العسكرية من الموحدين في الأندلس[١]، فطار لب البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وأصدر قراراً جديداً بالحرمان (سنة ١٢١٣) مع قرار عزله عن الملك، مطالباً الملوك المجاورين والنبلاء الإنجليز بمحاربته وانتزاع كل أملاكه ومصادرتها كـ"غنيمة"[٢]، تماماً كما فعل سلفه البابا أدريان الأول مع الملك أوفا.

- هل نجح البابا أدريان مع الملك أوفا كما نجح البابا أنوسنت مع الملك جون؟

- كلا، على كثرة محاولاته. ومنها تحالفه مع ملك "كنت" محرضاً على الخروج عن طاعة الملك أوفا، ومهاجمته في مرسيا، ولكن أوفا هزمهم هزيمة ساحقة في بداية عام

---

(١) يذكر أن المؤرخ روجر أوف وندوفور أيضاً قد أشار إلى أن الملك جون قد أرسل سفارة إلى أمير المؤمنين الخليفة الموحدي "محمد الناصر لدين الله" (١١٩٥-١٢١٣) برئاسة كل من البارونين توماس هاردنجتون Thomas Hardington ورالف فيتز نيكولاوس Raleph Fitz Nicholas فضلاً عن أحد كبار رجال الدين المقربين إليه وهو روبرت أوف لندن Robert of London حيث عرضوا على الخليفة رغبة الملك جون الملحة في اعتناق الإسلام هو وشعبه وإلحاق إنجلترا بدولة الخلافة. Roger of Wendover، II pp. 283-286.

(٢) للمزيد من تفاصيل الصراع بين الملك جون والبابا أنوسنت راجع قصة الحضارة لول ديورانت، المجلد الرابع، ص ١٩٣-٢٠٢.

٧٨٥م، واكتسح بعدها "كنت" بكاملها، ثم أعلن ضمها لأملاكه مباشرة، وظلت كذلك حتى وفاته في العام ٧٩٦م. ثم حرض البابا "إيثلبرهت" ملك إيست إنجليا لمحاربة الملك أوفا بسبب عداوته للكنيسة وللعقيدة الكاثوليكية، وهنا وقعت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار أوفا أيضاً، ونجح في أسر ملك إيست إنجليا في أيار/مايو ٧٩٤ وقتله بيده. ومن ثم أصدر البابا قراراً باعتبار ملك أنجيليا "قديساً شهيداً"، وأمرت الكنيسة بحفظ جسده في كاتدرائية هيرفورد التي أقيمت تخليداً لذكراه. الغريب في الأمر أن إيثلبرهت لم يكن مؤهلاً لنيل صفة القداسة بأي حال من الأحوال، خاصة إن قارناه بملوك آخرين معاصرين له مثل شارلمان العظيم "حامي المسيحية في الغرب" والذي لم يحظ بهذا الشرف. مما يدل على الأهمية الكبيرة التي أولتها الكنيسة لمحاربة أوفا.

- هل استسلمت البابوية بعد كل تلك الهزائم؟

- كلا بالطبع، بل بدأت تبعث بالمبشرين والجواسيس ومثيري الشغب عبر ويلز التي ظلت وحدها تحت سيطرة البابا.

- لابد أن السور الذي بناه الملك أوفا قد أعاقهم كثيراً.

- يبدو ذلك؛ فقد كان ذلك الملك لا يقهر فعلاً، ولولا موته (المفاجئ) وهو يعد العدة لمهاجمة ويلز، فلربما تمكن من إخضاع آخر معقل للكنيسة الرومانية في بلاد الإنجليز.

- كيف مات؟

- لا أدري. فكل المراجع والمصادر التي وصلتنا عن الملك أوفا قد أهملت التطرق إلى أسباب موته، واكتفت الحوليات الأنجلوساكسونية The Anglo – Saxon Chronicle بالإشارة في عبارة مقتضبة إلى "موت أوفا فجأة عام ٧٩٦م".

- يبدو أن كل عصر كان مختصاً بتزييف التاريخ بطريقته الخاصة. ففي عصر البابا أوربان الأول صار الملك المغمور محارب الإسلام قديساً صاحب كتدرائية خاصة لتخليد ذكراه، في حين اغتيل الملك العظيم ودفن بمبنى متداع على حافة نهر كثير الفيضانات،

وأبيـــدت جميع الوثائـــق المتعلقة به. أما في عصر البابا أنوســـنت فتكرر الموضوع ذاته ولكن بأســـلوب مختلف تماماً، فهذه المرة كانت حريتهم أضيـــق ولم يتمكنوا من إخفاء الوثائق كافة، فاستعاضوا عن ذلك بوسائل أكثر عصرية وأنسب لظروف الوضع آنذاك، مستخدمين الحكايات الشعبية التي وفرت لهم مجالاً أوسع في التزييف والتشويه.

- ربما كنت محقاً في تحليلك.

- أظنني كذلك. فقد طغت الحكايات الشعبية على الحقائق التاريخية حتى صارت هي التاريخ المسلم به.

ثم هز رأسه بيأس قائلاً:

- يـــا للتزييف! الناقض للعهـــد إيثلبرهت عدو الملك أوفا صار قديســـاً، ورئيس العصابة روبن هود عدو الملك جون صار بطلاً أسطورياً.

- أنـــت تدرس التاريخ، لذا يجـــب أن تعرف أكثر من غيرك أنـــه مليء بالتزييف والأكاذيب، وما هذه إلا بعض الأمثلة البسيطة.

- هل كل هذا يعني أن إنجلترا كان يمكن أن تكون دولة إســـلامية لولا الدســـائس والمؤامرات؟! (الكلمات الإنجليزية ذات الأصـــل العربي[1]) يا إلهي... هل تتصور هذا

---

(١) يُذكر أن انجليزية العصور الوسطى كانت مليئة بالمفردات ذات الأصل العربي مثل كلمة chap = شاب، وكلمة athel = أثل (يقول لسان العرب: " أثل: أثلة كل شيء أصله. وكل شيء قديم: أثيل ومؤثل ومتأثل. يقال: مجد مُؤثّل وأثيل، ومال مؤثل أي مجموع ذو أصل) وكانت تستخدم في الانجليزية بمعنى "نبيل". ويقول المستشرق تايلور W. tailor في بحث نشرته جامعة اكسفورد بعنوان: الكلمات العربيه في اللغه الإنجليزيه = Arabic Words in inglish: "هناك حوالي الف كلمه ذات أصل عربي في اللغه الانجليزيه، وآلاف اخرى مشتقه من هذه الكلمات انتقلت من العربيه بعد التحريف و التعديل في النطق. ومعجم أكسفورد يضم ٤٠٥ من هذه الكلمات ومن بينها ٢٨٣ تعد من الأهميه بحيث انها قد أدرجت في قاموس أكسفورد للجيب"، ومن هذه الكلمات نذكر: صك = Cheque (شيك)، الصفر = Cipher، ترجمان = Dragoman، جره = Jar، شراب = Syrup (sherbet، sorbet = shrub)، تعرفه = Tariff، قميص = Camise، عطار = Attar، ليفه = Loofa، فردوس = Paradis، حوش = House، قط = Cat. ومن أوضح بقية الكلمات: وادي = Wadi، =

د. براون؟!!!

- أنا شخصياً لا أتصور ذلك مطلقاً، ولا يهمني أي دين أصلاً، ولكن يبدو أن بعض مفكرينا قد تصوروا ذلك جيداً.

- مثل من؟

- مثل المفكر والأديب الأيرلندي ذائع الصيت "جورج برنارد شـــو" الذي قال: "لقد اطّلعـــت على تاريخ هذا الرجل العظيم محمـــد، فوجدته أعجوبةً خارقةً، لا بل منقذاً للبشـــرية، وفي رأيي، لو تولى العالَـمَ الأوربيَّ رجلٌ مثلُ محمد لشَفاه من علله كافة... لقد نظرت دائماً إلى ديانة محمد بأعلى درجات الســـمو بسبب حيويتها الجميلة. إنها الديانـــة الوحيدة في نظري التي تملك قدرة الاندماج... بما يجعلها جاذبة لكل عصر، وإذا كان لديانة معينة أن تنتشـــر في إنجلترا، بل في أوربا، في خلال مئات الســـنوات المقبلة، فهي الإسلام... إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشـــروط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافـــق الحياة.... ما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد ليحل مشـــاكل العالم". أما المفكر والفيلسوف والمؤرخ الاسكتلندي الكبير "تومـــاس كارلايل" فقد أغدق الكثير الكثير من الإطـــراء والمديح على النبي العربي إذ قال: "إنما محمد شهاب قد أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[١].

=قانون = Canon، ذيل = Tail، كوب = Cup، ، بلسم = Balsam، لعق = lick، البراري = Prairie، نظير = Nadir، سفري = safari، جن = Jinn، هذا غير كلمات أخرى أقل وضوحاً مثل: guess بمعنى خمن، وأصلها من الفعل (جسّ) العربي، و Candel بمعنى الشمعة، من القنديل العربية، و Guide بمعنى دليل من كلمة القائد العربية، Admiral أو Amiral بمعنى قائد عسكري (بحري) من كلمة أمير الـ بحر بعد حذف "بحر".

(١) عن مقالة "هل نصدّق الرسام الدنماركي المأفون أم فلاسفة الغرب ومفكريه؟" للدكتور فيصل القاسم
http://www.quran-m.com/firas/arabic/?page=show-det&id=1709&select-page=17

انشق القمر

جلس أبراهام في غرفته في الفندق يفكر بالأحداث الأخيرة، فما تكشف له هنا في لندن في ثلاثة الأيام الماضية، يكاد يكون أكثر مما تكشف له طوال السنوات الثلاث من بحثه عن الحقيقة متنقلاً بين البلاد. ولكن كل ما تكشف له إلى الآن كان يزيده إدراكاً بمدى بعده عن الحقيقة التي يبحث عنها. نظر بيأس عبر النافذة إلى سماء لندن الملبدة. كانت الغيوم قد أحاطت بالشمس وحجبت إشراقها، وتساءل في نفسه عن أي إمكانية للخلاص. فالشمس التي لجأ إلى نورها بعد أفول قمر ديانته السابقة، تكاد لا ترى وسط كل الكم الهائل من الزيادات والحذف والتحريف الذي تكشف له عن طريق القس سينوج وليئور، وعن طريق إستس والشيخ خطاب والإمام رحمة الله الباكستاني، بل وعن طريق تربلا ود براون أيضاً.

فتح التوراة عله يجد فيها ما يخلصه من حيرته، فوقع نظره على سفر حبقوق (نبي من بني إسرائيل) الإصحاح ٣: ١١: "الشمس والقمر وقفا في بروجهما، لنور سهامك الطائرة، للمعان برق مجدك"، فتذكر ما قاله رحمة الله عن الإسلام ورسوله وكتابه، فقام يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وهو يفكر في قول السيد المسيح للتلاميذ الذين قدموا إليه على انفراد سائلين: "قل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟". فأجابهم بذكر علامات كثيرة، منها "وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء" (متى ٢٤: ٣ – ٣٥). ظل على هذا الحال فترة طويلة من الزمن، حتى كاد يجن؛ فكل ما توصل إليه إلى الآن يقود إلى أن الحقيقة التي يبحث عنها قد تكون في آخر مكان كان ينتظر أن يجدها به. وفي النهاية قرر الترويح عن نفسه قليلاً بمشاهدة التلفاز، إلا أن البرامج

المعروضة كانت تافهة كالعادة، فانتقل إلى قناة الـ"بي بي سي" الإخبارية، عله يجد فيها شيئاً مثيراً، أو يعرف على الأقل إن كانوا سيعيدون بث برنامج الأسفار المستبعدة، أو اللغز الكبير، اللذين كان يتحرق شوقاً لمشاهدتهما بعد حديثه مع القس سينوج وليئور.

كانت البي بي سي تعرض في ذلك الوقت برنامجاً حوارياً[1]، بدا له مثيراً بعض الشيء. فمقدمه كان يحاور ثلاثة من العلماء الأمريكيين، حول إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية لمليارات الدولارات على "مشاريع غزو الفضاء"، في الوقت الذي يتضور فيه ملايين البشر من الجوع. فظل العلماء يبررون هذا بدعوى أن ذلك يفيد البشرية في مجالات شتى كالزراعة والصناعة وغيرها. ثم جاء ذكر إحدى أكبر الرحلات تكلفة، والتي كانت إلى سطح القمر، وكلفت نحو ١٠٠ مليار دولار. فسألهم المذيع مستهجناً:

- ألكي تضعوا علم الولايات المتحدة على سطح القمر، تنفقون مثل هذا المبلغ؟!!!

رد العلماء بأنهم كانوا يدرسون التركيب الداخلي لذلك الكوكب التابع، كي يستفيدوا من مدى تشابهه مع الأرض. وبينما كانوا يتجادلون في هذا، قال أحدهم مستعرضاً أحد أكثر اكتشافاتهم غرابة في ذلك المجال:

- فوجئنا بأمر عجيب؛ وهو حزام من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه. فأعطينا هذه المعلومات إلى الجيولوجيين الذين تعجبوا بدورهم، وقرروا أنه لا يمكن أن يحدث ذلك إلا أن يكون القمر قد انشق في يوم من الأيام، ثم التحم، وأن تكون هذه الصخور المتحولة ناتجة من الاصطدام لحظة

---

(١) هذا البرنامج عرض فعلاً في البي بي سي وكان من أهم أسباب إسلام أحد الإخوة الإنجليز المهتمين بالإسلام. واسمه الآن هو "داوود موسى بيتكوك" ويرأس حالياً "الحزب الإسلامي البريطاني" وينوي أن يخوض الانتخابات القادمة باسم الإسلام الذي ينتشر في الغرب بمعدلات كبيرة.

الالتحام[1].

صعق أبراهام بما سمعه، وأطرق ساهماً، وقد تزاحمت الأسئلة وهي تعصف برأسه:

- هل يكون الرب قد استجاب لتضرعي في الطائرة، وأرشدني إلى الحق فعلاً؟! هل مشاهدتي للتلفاز في هذا الوقت بالذات، ووقوعي على البرنامج، الذي يكشف الإعجاز العلمي لتلك الآية هو من قبيل المصادفة؟!! هل أراد الرب من وراء ذلك هدايتي، بعد أن أعماني الشيطان عن فهم إشارته؟!!! هل سخّر الرب علماء الولايات المتحدة الأمريكية، كي ينفقوا مليارات الدولارات حتى يثبتوا إحدى معجزات القرآن، دون أن يدركوا ذلك؟!!! هل الإسلام هو الحقيقة؟!!!! هل تكون هذه الآية سبباً لاعتناقي للإسلام، بعد أن كانت سبباً في إعراضي عنه؟؟؟!!!!!

---

(١) لقد أثبت علماء الناسا فعلاً وجود شقوق طويلة جداً، وعرضوا صوراً لها، أحدها لشق بطول ١٢٥ كيلو متراً، وعمق ٤٠٠ متر، وعرض ١٥٠٠ متر، كما أن هناك الكثير من هذه الشقوق غاصت في الغبار والتراب القمري. ولم يعرفوا حتى الآن سبب وجود هذه الشقوق بشكل قاطع، فكل الاقتراحات والنظريات فشلت حتى الآن في تفسير هذه الشقوق والطريقة التي لحمت بها. اقترح بعضهم أن هناك حمماً منصهرة تدفقت منذ ملايين السنين كما يحدث على الأرض، ولكن هذه الفكرة رفضت على الفور لأن الحمم التي تتدفق على الأرض لا تشبه في شكلها هذه الحمم. فليس هناك آثار لتحطم أو انهيارات كما يحدث على الأرض. كما أن الشق ذو أطراف حادة وكأنها مرسومة ومشكلة بيد ماهرة، فهي انسيابية وقاعها ممهد. وكذلك الوصلات البارزة على سطح القمر ملساء وناعمة، وكأنها صنعت بشكل متقن، وهي لا تشبه أي تضاريس جيولوجية على سطح الأرض أو غيرها من الكواكب المعروفة. والصور التي عرضتها الناسا تبين وكأن لحاماً ماهراً قام بلحام سطح القمر المتمزق. وفي تقرير نشره الاتحاد الجيوفيزيائي الأمريكي عام ١٩٧٠ أكد أن الطريقة التي تشكلت بها هذه الشقوق تناقض النظريات المألوفة كافة!!! وأحد التفسيرات المهمة هو ما يقترحه المهندس Ralph Juergens أن هناك صدمة كهربائية عنيفة جداً، تماماً مثل ضربة البرق، وذلك بسبب مؤثر فضائي مجهول (شحنات كهربائية قادمة من الفضاء الخارجي)، اقتربت من القمر وأحدثت فيه ما يشبه انفراغ شعاع البرق، فأحدثت هذه الشقوق ثم عادت فلحمتها كما يتم اللحام الكهربائي للمعادن بواسطة التيار الكهربائي. ومهما يكن سبب هذه الشقوق، ومهما تكن طبيعة تشكلها، إلا أن العلماء لا يشكون بتاتاً في وجودها، وهي دليل مادي على وجود انشقاق في سطح القمر، فسبحان الله العلي القدير!

قلب صفحـــات ترجمة معاني القرآن، وإذا به يطالع تفســـير الآية الكريمة: ﴿ قَدْ جاءَكُـم بَصائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَـا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، عندئذ لم يتمالك نفسه، ووجد الدموع تنهمر من عينيه، فكفكف عبراته وأمسك ســـماعة الهاتف طالباً من المقسم مكالمة دولية لألمانيا، وما إن جاءه صوت أحمد على الطرف الآخر، حتى سأله مباشرة دون تحية أو سلام:

- حدثني عن حادثة انشقاق القمر، التي وردت في القرآن.

- ماذا تعني؟

رد أحمـــد بارتباك، وهو يحاول أن يفهم مغزى الســـؤال، ولكـــن أبراهام لم يعطه فرصة للتفكير، وزاد من حيرته عندما قال لاهثاً:

- أعني متى وكيف حصلت بالتفصيل؟

- حســـناً، حســـناً، بعدما أظهر الله تعالى أمر الرســـول ﷺ، وآمن به الكثيرون، طلب منه مشـــركو مكة أن يسأل ربه ليشق لهم القمر فرقتين إن كان صادقاً، متعهدين بالإيمان إن فعل. وكانت ليلة "بدر"، فســـأل رســـول الله ﷺ ربـــه أن يعطيه ما طلبوا، فانشـــق القمر، ورأوا نصفـــاً على جبل الصفا، ونصفاً على جبـــل قيقعان المقابل له، حتى شـــاهدوا حراء بينهما، فقالوا: "سحرنا محمد"، ثم قالوا: "إن كان سحرنا فإنه لا يســـتطيع أن يســـحر الناس كلهم"! فقال زعيمهم "أبو جهل": "اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشـــقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا". فجاؤوا، فأخبروا بانشقاق القمر، فقال المشـــركون: "هذا سحر مستمر" (أي دائم) فأنزل الله تعالى قوله: بســـم الله الرحمن الرحيم ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّـاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّـنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [القمر: ١ - ٦].

لكن لماذا تسأل؟!!!

- هل تعلم أن هناك من يؤكدون حادثة انشقاق القمر مع أنهم ليسوا مسلمين.

- أجل أعـــرف. فقد ذكرت هذه الحادثة في مخطوطـــة هندية من منطقة كيرلا محفوظة حالياً في مكتبة مكتب الهند بلندن (تحت رقم: ٢٨٠٧، ١٥٢-١٧٣)، وتتحدث عن ملك مالابار واســـمه "شاكراواتي فارماس" وكيف رأى القمر من على شرفة قصره وقد انشـــق، وهو ما يؤيده التناقل الســـماعي المســـتفيض بين أهل تلك المنطقة. كما ذكرت حادثة انشـــقاق القمر في "فالنميه" الذي هو كتاب فارسي عن الأنبياء، وأيضاً بمخطوطة فارســـية تظهر رجلاً يَنْظرُ إلى قمر منقســـم بالســـماء. وكذلك ســـجلت حضارات "المايا" القديمة هذه الحادثة[1]، وآنذاك حدث تغيير شـــامل في التوقيت في كل من الصين وبابل وكوبان، وأصبح القمر المشقوق المسجل الرسمي للوقت. أما حالياً فنتائج دراســـات مركبة الفضاء الأمريكية "كليمنتاين" التي تدور حول القمر منذ عدة ســـنوات، توصلت إلى أن القمر كان قد تعرض قبل فترة زمنية وجيزة، بالنســـبة إلى عمره الجيولوجي، إلى عملية انشـــقاق من منتصفه تماماً، بحيث انشطر إلى نصفين متساويين، ثم عاد والتحم من جديد.

أطرق أبراهام مفكراً:

- إلى متى ســـأظل أكابر، فقد انشـــق القمر فعلاً. لقد أفل قمر اليهودية أمام نور الإسلام الذي غطى على شمس المسيحية، بعد أن حجبتها الغيوم رغم حجمها وضيائها.

بعد فترة صمت قصيرة عاد ليسأل ثانية:

---

(١) هذا الرابط يهتم بالدراسات الفلكية للحضارات القديمة، ومنها حضارة maya، يوضح أن انقساماً للقمر سُجل في مخطوطات مدريد ومخطوطات فارسية http://www.mayalords.org/restfldr/persia.html وقد أشار إلى أن هناك مخطوطة فارسية تتضمن صورة بها رجل يشير إلى وجه قمر منقسم في السماء، وأن الحدث نفسه مسجل في مخطوطة مدريد صفحات ٩١-٩٢ و٩٣، وكذلك ذكرت مخطوطات هندية وفارسية هذه الظاهرة في أوقات متقاربة، أي في مطلع القرن السابع الميلادي يقارب وقت حدوث الحادثة، وقد ذكر المؤرخون وجود معبد في الصين كتب عليه: "بني عام انشقاق القمر" في تاريخ مقارب.

- وما المقصود باقتراب الساعة، وقد مضى على نزول القرآن أكثر من ١٤٠٠عام؟

عدل أحمد جلسته، محدقاً بسماعة الهاتف باستغراب، لصدور عبارة: "نزول القرآن" التي خيل إليه أن أبراهام تفوه بها، إلا أنه تابع موضحاً:

- وما الـ١٤٠٠ عام أمام عمر البشرية، الذي يقدره العلماء اليوم بملايين السنين؟ فالرسول ﷺ هو آخر النبيين، والمسلمون هم آخر الأمم، فالساعة ستأتي فيهم لا محالة. وقد قال رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والقيامة كهاتين" وأشار إلى السبابة والوسطى من أصابعه الشريفة[١].

- ولكن الرب تعهد أن يكون الكهنة والأنبياء من نسل لاوي أبناء هارون، والملوك من نسل يهودا أبناء داوود وسليمان. أما محمد فهو من نسل إسماعيل.

- أنت تعرف حجم التحريف الذي طرأ على الكتاب، وأنا لن أخوض بهذا الموضوع مجدداً، ولكني سأنبهك فقط على مقدار المغالطات في قولك هذا. فكيف يؤتي الله داوود عليه السلام زبوراً وهو ليس من الأنبياء؟! وكيف يؤتي الله سليمان عليه السلام ملكاًلم يكن لأحد قبله ولا ينبغي لأحد بعده، ثم يدعي الكتاب المعتمد أنه قد مات وهو يعبد الأوثان، ثم يدعي بأن الله كرمه بأن يجعل الملك من ذريته فقط؟! بل كيف يدعي أن هارون قد صنع العجل لقومه وأمرهم أن يعبدوه[٢]، ثم يدعي أن الله باركه وجعله أبا الكهنة جميعاً ولا تكون الكهانة ولا النبوة إلا في ذريته؟؟؟!!! إن الأمر لا يستقيم مع كل هذه المتناقضات. ثم لا تنس أنه مكتوب عنكم على لسان الله تعالى: "فأخذت عصاي نعمة وقصفتها لأنقض عهدي الذي قطعته مع كل الأسباط. فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم أذل الغنم المنتظرون لي إنها كلمة الرب"(زكريا ١١: ١٠-١١).

---

(١) رواه مسلم والبخاري.

(٢) جاء في التوراة الحالية أنه لما ذهب موسى لميقات ربه طلب بنو إسرائيل منه أن يصنع لهم إلهاً لأنهم لا يعلمون ما جرى لموسى، فأمرهم بجمع أقراط الذهب من آذان نسائهم وبناتهم وأبنائهم، وصنع منه عجلاً، وقال: هذا إلهكم الذي أخرجكم من مصر. ثم بنى له مذبحاً.

- ولكن، لماذا برأيك أخرج الرب النبوة من بني إسرائيل، وجعلها في إحدى الأمم؟

تسارعت دقات قلب أحمد بعد سماعه لتلك العبارة من فم أبراهام بشكل لا يدع مجالاً لأي لبس هذه المرة، ففيها تسليم واضح، طال انتظاره منه، بنبوة الرسول ﷺ ورسالته من الله عز وجل، ولكنه تمالك نفسه، محاولاً ألا يفسد الأمر باستعجاله، وقال محاولاً ألا يظهر شدة انفعاله وتأثره:

- إن الله سبحانه وتعالى أعلم حيث يضع رسالته، وقد نهى عز وجل في مواضع كثيرة من الكتاب عن المقارنة والمفاضلة، وحسم الأمر بأن الفضل من لدنه يؤتيه من يشاء من عباده، وأن رحمته وسعت كل شيء وغير مقتصرة على شعب بعينه. ثم إن بني إسرائيل قد حظوا بأكثر الفرص من بين جميع شعوب الأرض، نتيجة لتفضيلهم على العالمين بكثرة الأنبياء منهم.

تذكر أبراهام سفر تثنية ٣٢: ٢١: "هم أغاروني بما ليس إلهاً، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أغيرهم بما ليس شعباً[١]، بأمة غبية[٢] أغيظهم". معترفاً بأن بني إسرائيل

---

(١) مفهوم العرب يجمع تحت ظلاله كل ناطق بالضاد بلا تمييز، ففي الحديث المرسل عن النبي العربي الكريم عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أيها الناس: إن الرب واحد والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أم وأب، إنما العربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي". وسواء صح هذا الحديث أو كان مجرد قول تراثي متداول، فإنه يمثل المفهوم الذي اعتمده المسلمون لعروبتهم منذ مرحلة التكوين. وهذا التأسيس اللغوي للعروبة، بما يخلق من ثقافة ووجدان ونظرة إلى العالم والأشياء، يتجاوز الأصول القبلية والإثنية التي قد يرتبط بها أفراد أي شعب آخر. يذكر أن الحديث قد تفرد به أبو بكر سلمى بن عبد الله الهذلي البصري ولم يروه عنه إلا قرة بن سعيد. ومناسبته هي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بلغه تعصب البعض ضد سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقام مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر الحديث. ويمكن مطالعة القصة الكاملة في كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق علي شيري.

(٢) في طبعة ١٨٤٤م نجد "أمة جاهلة" حرفوها حقداً على العرب كما يقول الدكتور محمد علي الخولي في كتاب "التحريف في التوراة"، ص ٨٣.

يستحقون ذلك فعلاً[١]، ثم أردف أحمد متابعاً:

- كما أن "الأنبياء إخوة لعلات"، كما قال رسول الله ﷺ[٢]، أبوهم واحد، وأمهاتهم متعددة، أي شرائع الأنبياء متعددة ولكن دينهم واحد، وهو توحيد الله والتسليم المطلق له. وهم أمة بعضها من بعض؛ فالرسول ﷺ هو من نسل الذبيح إسماعيل عليه السلام، الذي هو الابن البكر لإبراهيم أبي الأنبياء. ومن ثم فالنبوة لم تخرج من أهل البيت.

- أجل ولكنها خرجت من الفرع الإسرائيلي على كل الأحوال. لقد حصل ذلك بشكل فجائي غير متوقع بتاتاً.

قال أبراهام بقنوط، فرد أحمد موضحاً:

- ألا تذكر ما قرأته في إنجيل برنابا على لسان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى عليه السلام؛ من بشارته به بالاسم. ولابد أنك تذكر أيضاً أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو المقصود الأرجح لترنيمة داوود، ونبوءة موسى عليهما السلام في التناخ.

هز أبراهام رأسه مسلِّماً، وهو يردد:

- بشارة يسوع، ومزمور دافيد، ونبوءة موشي.

---

(١) جاء في التوراة على لسان موسى: "إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم، لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم" (التثنية ٣٢: ٢٨)، وكذلك على لسان النبي أشعياء: "اسمعي أيتها السموات وأصغي أيتها الأرض، لأن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا عليّ، الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم، ويل للأمّة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين، تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء، على أي موضع تضربون بعد. تزدادون زيغاناً، كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس، ليس فيه صحة بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت" (إشعياء ١: ١- ٦)، ولما جاء المسيح نادى أورشليم: "يا قاتلة الأنبياء" (متى ١٣: ٣٧)؛ لكثرة من قتلوا على ثراها من أنبياء الله الكرام.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

- بل دعوة أبراهام عليه السلام أيضاً؛ وذلك عندما سأل ربه سبحانه وتعالى أن يجعل من نسل بكره الذي تركه في برية فاران رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، وهو سماهم مسلمين.

- دعوة إبراهيم، ونبوءة موسى، ترنيمة داوود، وبشارة عيسى. فعلاً لم يكن الأمر مفاجئاً بل تخطيطاً إلهياً لشريعة خاتمة، وهذا يفسر حج الأنبياء إلى بكا[1]، ووجود حجر من الجنة فيها، كما يفسر نبوءات الكتاب وكثيراً من أقوال حواريي المسيح ورسله.

وعندها لمعت عينا أحمد، كأنه فهم الموضوع، فأردف قائلاً:

- ومن المؤكد أنك استنتجت من حديثك مع القس سينوج أن بعض ما أخفي من الأناجيل يؤكد هذا أيضاً. أليس كذلك؟

- أجل. لكن تلك الأناجيل قد غابت وراء الشمس لوقت طويل، بعد أن غطت أخرى غيرها وجه ذلك الكوكب المضيء، حاجبة نوره.

صمت قليلاً كأنه يسترجع كل ما مر عليه خلال السنوات الثلاث الماضية، قبل أن يقول متابعاً:

- كما أنني اكتشفت أن دلائل أخرى كانت تتوالى أمام عيني منذ البداية، ولكنني أكابر ولم أعطها حقها. ما أشد ندمي الآن على الوقت الذي خسرته بعيداً عن الحقيقة وقد كانت ماثلة أمام عيني منذ أن بدأت في البحث عنها. فالإسلام عقيدة صافية نقية لا تعقيد فيها ولا ألغاز ولا أسرار يستأثر بها البعض دون البعض. دين لا يتعارض مع الفطرة البشرية. دين يجعل مسؤولية الإنسان أمام الله وحده، ويجعل كل إنسان مسؤولاً عن عمله وحده. دين لا يجعل بين الله والإنسان وساطة، ولا تباع فيه صكوك غفران ولا يملك أحد -حتى النبي نفسه- أن يغفر لأحد أو يدخله الجنة، بل يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة. دين جعل قلب الإنسان معلقاً بربه، لا

---

(١) راجع رواية بشارات هائمة للمؤلف.

بصورة ولا تمثال ولا قطعة خشب أو حديد على أي شكل كانت. دين لا طبقية فيه ولا أفضلية لأحد دون أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

- لا داعي للندم؛ فقد قال رسولنا ﷺ عن الرجل الذي يؤمن بعيسى عليه السلام قبل أن يسمع عنه: "إذا آمن بعيسى، ثم آمن بي فله أجران"[1]، وأنت كنت يهودياً تؤمن بموسى عليه السلام وصرت تبحث عن الحقيقة فآمنت بعيسى عليه السلام، ثم وصلت أخيراً إلى الحقيقة وآمنت بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون لك ثلاثة أجور في ذلك. وقال النبي أشعياء في ٦١: ١: "روح السيد الرب علي (الوحي) لأن الرب مسحني لأبشّر المساكين. أرسلني لأضمد جراح منكسري القلوب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالحرية.٢: لأعلن سنة الرب المقبولة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]... ٧: وعوضاً عن عاركم تنالون ضعفين من الميراث ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٣ - ٥٤].

- ولكنني سمعت عن محمد عليه الصلاة والسلام، ولمست تفوق شريعته، وعاينت الدليل تلو الدليل على أنه لا يعقل أن تكون إلا من عند الله، ومع هذا كابرت طويلاً، أقنعت نفسي بما يقال عن أن الإسلام دين مزيف جامد وأنه أصل الإرهاب والتخلف. لقد كنت أرمدَ لا أقوى أن أفتح عيني على النور المحيط بي، أزكمَ لا أستطيع أن أنعم بشذا الورد الذي يفوح من حولي.

- أنا لا ألومك على تفكيرك السابق، فتأثير الدعاية المشوهة لدين الإسلام قوي فعلاً، كما أن واقع الدول الإسلامية وكثير من المسلمين حالياً لا يشجعان على إنصاف الإسلام، ولا يساعدان على نفي الدعاية المغرضة عنه.

---

(١) رواه البخاري.

- أنت محق. فواقع كثير منكم لا يعطي الصورة الحقيقية عن دعوة رسولهم الكريم.

- أجل للأسف. فبعد أن تكاسلنا عن اتباع سنته العطرة، تكاسلنا أيضاً عن الدعوة بالموعظة الحسنة، ولم نعد قدوة. ونحن مذنبون بذلك كثيراً، وقد يكون ذنبنا هذا، هو عذراً لك في سماعك عن النبي والإسلام، وتأخر إيمانك مع ذلك، نتيجة لما رأيته من حالنا.

- هذا صحيح أيضاً. ولكن، على تدهور حال المسلمين وتكاسلهم عن الدعوة، إلا أن حقيقة الإسلام لا تزال ساطعة في القرآن وسنة النبي، ويستطيع أي باحث عن الحقيقة أن يجدها فيهما بسهولة.

- هذا إن لم يكن مبرمجاً مسبقاً على العداء للإسلام.

- أي كما كنت أنا في السابق. ولكن لا البرمجة المسبقة ولا الدعاية المغرضة، ولا حتى بُعْدُ المسلمين عن دينهم، وتقصيرُهم في الدعوة إليه، تنفي المسؤولية عني؛ فكل ذلك لا يغفر لي ذنبي في تجاهل الإسلام بعد كل الذي عرفته.

- العبرة في النهاية. ولا تنس أنه عندما يحدث "التحول" بشكل دراماتيكي فجائي، فقد يكون حماساً لا يلبث أن يخبو، ولكن الأمور ذات التأثير الصغير نسبياً والتي تحصل بالتدرج وتتيح للإنسان فرصة للتأمل والدراسة والمقارنة، يكون لها استمرارية وأثر أكبر وأبقى، حتى إن تأخرت النتيجة في الظهور.

- تحدثت قبل أيام مع مسلم جديد فضل تعبير "العودة إلى الدين الحق" على كلمة التحول، وأجدني الآن متفقاً معه تماماً على صحة ذلك التعبير. الحمد لله الذي أزال عني الغمة وهداني أخيراً إلى العودة إلى دينه الحق، وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله.

ثم أردف بالعربية في خشوع والدمع يترقرق بين جفنيه:

- أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اقشـــعر بدن أحمـــد، وطفرت الدموع من عينيه هو الآخـــر، وتمنى لو أن أبراهام بجانبه، ليقوم فيعانقه مهنئاً، ولكنه لم يملك إلا أن يهتف صائحاً من فرط التأثر:

- الله أكبر، الله أكبر. الحمد لله الذي هداك. والله لقد كنت أرى لك عقلاً، رجوت ألا يســلمك إلا إلى خير. الحمد لله، وإن الله ليفرح بعودة عبده إليه أشـــد من فرحة رجل فقد راحلته التي عليها زاده في عرض الصحراء، وأيس أن يجدها، فإذا بها تعود طائعة. الحمد لله، وله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

في تلك الأثناء كان أبراهام يكرر الشـــهادة فـــي قلبه باللغة العبرية، بينه وبين الله تعالى مباشرة، كي يســـد على الشيطان أي باب يلج منه بشبهة تظاهر أو نفاق. وظل يكررها حتى اغرورقت عيناه بالدموع تماماً، فتمتم داعياً وهو يكفكف عبراته:

- اللهم لا تضلني بعد إذ هديتني، ولا تجعل فتنتي في ديني، وارزقني أن أعمل بما فتحت به علي يا أرحم الراحمين.

ثم قال بصوت مسموع:

- هل عندك كتاب إلكتروني باللغة الروسية لتعليم الطهارة والصلاة؟

- أجل.

- أرجو أن تبعثه إلي حالاً كي أتطهر وأصلي لله تعالى. فيكفي ما أضعته من وقت حتى الآن.

- رويدك يا أخي، ليس بهذه السرعة.

- لماذا؟

- من الأفضل أن تأخذ وقتك.

- فيم الانتظار ما دمت قد عثرت على الحق أخيراً؟

- علـــى الأقل انتظر حتى ترجع إلى ألمانيا، وعندها ســـأعلمك الصلاة بنفســـي، وأشرح لك طريقة تأديتها وأحكامها وشروطها، كما سأعطيك بعض الكتيبات لتقرأها في تروٍّ وتمعن، وبعد ذلك تصلي وأنت موقن أنك بت مهيأ للصلاة.

- أنا مستعد الآن للصلاة. ولهذا أريد منك أن ترسل كتاباً يعلمني طريقة تأديتها وشروطها وأحكامها.

- فيم العجلة يا أخي؟

- وهل تضمن لي ألا أموت في الطائرة، أو حتى قبل أن أقوم من مقعدي هذا؟

- كلا بالطبع.

- إذن ساعدني كي أبدأ بالصلاة حالاً. فأنا لا أريد أن ألقى الله كافراً، بل أريد أن أعوض كل دقيقة لم أكن فيها على اتصال معه جل جلاله.

- حسناً، حسناً، سأبعث لك الكتاب حالاً. ولكن إن واجهتك صعوبة ما فلا تضغط على نفسك كثيراً، وليس عليك أن تفعل كل شيء مرة واحدة، تدرج ببطء.. شيئاً، فشيئاً.

وضع أبراهام السماعة مكانها، ثم وصل جهازه المحمول في شبكة الإنترنت وهو ينتظر الكتاب على أحر من الجمر. وما إن وصلت الرسالة حتى فتحها بسرعة، ثم ضغط على أيقونة تحميل الملف المرفق. وعندما انتهى التحميل فتح الفهرس، وبحث عن الغسل ليقرأه بتمعن. ثم قام واغتسل حسب سنة النبي الأكرم. ثم لبس ثياباً نظيفة فضفاضة، وعاد إلى جهازه يدرس كيفية أداء الصلاة[1]. كانت دقات قلبه تتسارع بوتيرة صاخبة وهو يتذكر القلق الذي أبداه أحمد حول عزمه على البدء في الصلاة حالاً. فهل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟!!! ولكنه في النهاية تجاهل تخوفات أحمد، فهو لم يقض كل ذلك الوقت في البحث عن الحقيقة كي يتكاسل عنها بعد أن وجدها أخيراً.

---

(١) باقي هذا الفصل (الموقف) هو تجربة واقعية للصلاة الأولى لأحد المسلمين الجدد وهو البروفسور "جيفري لانج" أستاذ الرياضيات في الجامعات الأمريكية كما وصفها بنفسه في كتابه الشهير "حتى الملائكة تسأل"، وقد تصرفت بها قليلاً بما يناسب ظروف بطل هذه الرواية.

أمضـــى أبراهام وقتاً طويلاً في ذلك اليـــوم وهو يدرس حركات الصلاة ويكررها، وكذلك الآيات القرآنية التي ســـيتلوها. فقد قرر أن يقرأ فواتح ســـورة القمر في أول صلاة له، ولكن المفاجأة أن أول ســـورة اصطدم بصره بها كانت ســـورة التكوير، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿إِذَا الشَّـمْسُ كُـوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٢]. فحمد الله ثانية وهو يقول:

- انكدرت النجوم وانشـــق القمر وكورت الشـــمس، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

ثم فتح سورة القمر التي كانت قبلها بكثير، فأعاد قراءتها مراراً وتكراراً بالأحرف الروســـية واللفظ العربي. فبما أن معظم ما كان سيتلوه هو باللغة العربية، فقد لزمه حفظ النصوص بلفظها العربي، وفهم معانيها باللغة الروسية. واستمر على هذا الحال لساعات طويلة، قبل أن يجد في نفسه الثقة الكافية لتجربة صلاته الأولى.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل، لذا قرر أن يصلي صلاة العشاء. فدخل الحمام ووضع جهازه المحمول على المغســـلة مفتوحاً على الصفحة التي تشرح الوضوء، وتتبع التعليمات الواردة فيـــه خطوة خطوة، بتأنٍّ ودقة، مثل طاهٍ يجرب وصفة لأول مرة في المطبخ. وعندمـــا انتهى من الوضوء، أغلق الصنبور، وعاد إلـــى الغرفة حاملاً جهازه بأطراف أصابعه والماء يقطر من أطرافه، إذ تقول تعليمات الكتاب بأنه من المســـتحب ألا يجفف المتوضئ نفســـه بعد الوضوء. وقف في منتصف الغرفة، متوجهاً إلى ما كان يحســـبه اتجاه القبلة مستفيداً من طريقة أحمد التي شـــرحها له على الهاتف. نظر إلى الخلـــف ليتأكد من أنه أغلق باب الغرفة، ثم توجه إلى الأمام، واعتدل في وقفته، وأخذ نفســـاً عميقاً، ثم رفع يده، وبراحتين مضمومتي الأصابع، رفع يديه حذو أذنيه قائلاً بصوت خافت: "الله أكبر". كان يأمل ألا يســـمعه أحد؛ فقد كان يشعر بشيء من الانفعال، إذ لم يستطع التخلص من قلقه من كون أحد يتجسس عليه. وفجأة تنبه لأنه ترك الستائر مفتوحة. فتساءل وجساً:

- ماذا لو رآني أحد؟

تـــرك ما كان فيه وتوجه إلى النافذة، ثم جال بنظـــره في الخارج ليتأكد من عدم وجود أحد، وعندما رأى ستائر النوافذ المقابلة مسدلة، أحس بالارتياح، فأسدل ستائر نافذته، ثم عاد إلى منتصف الغرفة. ومرة أخرى، توجه إلى القبلة، واعتدل في وقفته، ورفع يديه مكبراً بصوت خافت لا يكاد يســـمع. قرأ فاتحـــة الكتاب ببطء وتلعثم، ثم أتبعها بفواتح سورة القمر باللغة العربية. كان مرتبكاً، وكان يظن أن أي عربي، ما كان ليفهم شيئاً مما يتفوه به الآن لو سمعه. ثم بعد ذلك تلفظ بالتكبير مرة أخرى بصوت خافـــت، وانحنى راكعاً حتى صار ظهره متعامداً مع ســـاقيه واضعاً كفيه على ركبتيه، فشـــعر حينها بالإحراج، إذ لم ينحن لأحد في حياته، ولذلك فقد سُـــرَّ لأنه وحده في الغرفة، وأنه لم يســـمع كلام أحمد بتأدية تجربته الأولـــى أمامه. وبينما كان لا يزال راكعاً، كرر عبارة "سبحان ربي العظيم" ثلاث مرات، ثم اعتدل واقفاً وهو يقول: "سمع الله لمن حمده"، ثم "ربنا ولك الحمد". أحس بقلبه يخفق بشـــدة، وتزايد انفعاله عندما كبر مرة أخرى بخضوع؛ فقد حان وقت...السجود.

تجمـــد في مكانه، وهو يحدق في البقعة التي أمامه، فقد كان عليه أن يهوي إليها على أطرافه الأربعة ويضع وجهه على الأرض. لم يســـتطع أن يفعل ذلك، لم يســـتطع أن ينزل بنفســـه إلى الأرض، لم يســـتطع أن يذل نفسه بوضع أنفه على الأرض، شأن العبـــد الذي يتذلل أمام ســـيده. لقد خيل إليه أن ســـاقيه مقيدتـــان لا تقدران على الانثناء[1].. أحس أبراهام بكثير من العار والخزي، تخيل لعنات حاخاماته الســـابقين وأليعازر وفيكتور والأب ديمتري هو يجعل من نفســـه مغفلاً أمامهم، وتخيل كم سيكون

(١) الحمد لله على نعمة العبودية لله وحده، الحمد لله على نعمة السجود لعظمته وحده، والحمد لله أن عودنا على ذلك صغاراً، فلم ندع أي مجال للكبر أو الحرج في أن يحرمنا من تلك اللذة في الخضوع للواحد الأحد المستحق وحده للسجود. راجع فضل السجود في: رواية بشارات هائمة للمؤلف.

مثيراً للشـــفقة والسخرية من قبل مكسيم وســـينوج ورؤيل وتربلا. ثم تخيل ضحكات سفيتا وتسيبي وهافا وراحيل، وكاد يسمعهم يقولون: "مسكين أبراهام فقد أصابه مس من الجنون". وتراءى له خاله وإيوســـف وليئور، وهم يراقبونه باشـــمئزاز، فأخذ يدعو متضرعاً:

- أرجوك يا رب، أرجوك، أعِنِّي على وساوس الشيطان.

أخذ نفساً عميقاً، وأرغم نفسه على النزول. الآن صار على أربعته، ثم تردد لحظات قليلة، وبعد ذلك ضغط وجهه على السجادة بعنف، وأفرغ ذهنه من كل الأفكار، وتلفظ ثلاث مرات بعبارة: "ســـبحان ربي الأعلى". "الله أكبر" قالها ورفع رأســـه من السجود جالســـاً على عقبيه، وأبقى ذهنه فارغاً، رافضاً السماح لأي شيء أن يصرف انتباهه. "اللـــه أكبر" ووضع وجهه على الأرض مرة أخرى. وبينما كان أنفه يلامس الأرض، راح يكرر عبارة "ســـبحان ربي الأعلى" بصورة آلية، فقد كان مصمماً على إنهاء هذا الأمر مهما كلفه ذلك. "الله أكبر" وانتصب واقفاً، فيما كان يقول لنفسه:

- لا تزال هناك ثلاث جولات أخرى أمامي.

صارع أبراهـــام عواطفه وكبرياءه فيما تبقى له من الصلاة. لكن الأمر صار أهون في كل شوط، حتى إنه كان في سكينة شبه كاملة في آخر سجدة. ثم قرأ التشهد في الجلوس الأخير، وأخيراً ســـلم عن يمينه وشماله. ولما كان الإعياء قد بلغ به كل مبلغ، فقد بقي جالســـاً على الأرض، وهو يراجع المعركـــة التي مر بها. لقد أحس بالإحراج لأنه عارك نفسه كل ذلك العراك في سبيل أداء الصلاة إلى آخرها، ثم دعا الله برأس منخفض خجلاً:

- ربي اغفر لي مكابرتي وتكبري وغبائي، فقد أتيت من مكان بعيد، ولا يزال أمامي سبيل طويل لأقطعه.

وفي تلك اللحظة، شـــعر بشيء لم يجربه من قبل؛ شـــيء لا تستطيع الكلمات أن تصفـــه؛ فقد اجتاحته موجة، عبثاً حاول فيما بعد أن يتذكرها إلا بأنها كالبرودة، وبدا له أنها تشـــع من نقطة ما في صدره. كانت موجة عارمة فوجئ بها في البداية، حتى إن جســـمه بدأ بالارتعاش، غير أنها كانت أكثر من مجرد شـــعور جسدي، فقد أثرت في عواطفه أيضاً بطريقة غير اعتيادية. وبدا وكأن رحمة الله قد تجسدت في صورة محسوسة، وأخذت تغلفه وتتغلغل في داخله. ثم بدأ بالبكاء من غير أن يعرف السبب، فقد أخذت الدموع تنهمر على وجهه بغزارة، ووجد نفســـه ينتحب بشدة. وكلما ازداد بكاؤه، ازداد إحساســـه بأن قوة خارقة من العطف والرحمـــة تحتضنه. لم يكن يبكي بدافـــع من الشـــعور بالذنب لتأخره في إدراك الحق، مع أنه كان يشـــعر أنه يجدر به ذلك، ولا بدافع من الخزي، ولا حتى بدافع السرور. لقد بدا الأمر وكأن سداً قد انفتح مُطْلِقاً عنان مخزون عظيم من القلق والخوف والغضب بداخله.

ظل لبعض الوقت جالساً على ركبتيه، منحنياً إلى الأرض، منتحباً ورأسه بين كفيه. وعندمـــا توقف عن البكاء أخيراً، كان قد بلغ الغايـــة في الإرهاق. كانت تلك التجربة أغرب من أن يســـتطيع إخبار أحد عنها. كانت جارفة، وغير مألوفة، إلى حد لا يسمح بإيجاد تفســـيرات عقلانية لها، ولكن نتيجتها كانت أوضح من الشمس؛ فقد أدرك كم كان بحاجة إلى الصلاة، كم كان بحاجة ماســـة إلى الصلة الحقيقية مع الله ســـبحانه وتعالى، وقرر عدم قطع هذه الصلة في أي حال من الأحوال. وتساءل بينه وبين نفسه:

- أليس هذا أكبر دليل على صحة الإسلام، وكونه الدين الحق؟!! بعد أن كان مجرد التفكير في دخولي الإســـلام، ليس أمراً مســـتبعداً فحسب، بل أمر لا يحتمل التصور بأي حال من الأحوال.

بـــدأ أبراهام حينها يوقن أن رحلته قد حققت هدفها فعـــلاً، وانتهت بهدايته إلى الصراط المســـتقيم؛ صراط المســـلمين الذين أنعم الله عليهـــم، غير اليهود المغضوب

عليهم ولا المسيحيين الضالين. ثم تذكر كلمة "آمين"؛ تلك الكلمة التي نبهته على أن انتهاء رحلته بالوصول إلى الحقيقة، لا يعفيه من القيام برحلة أخرى لا تقل عنها أهمية، وهي رحلة السير على ذلك الصراط المستقيم ليصبح فعلاً من الذين أنعم الله عليهم. كرر كلمة آمين مرة أخرى، فقد كان يعرف أن الوصول إلى الهدف لا يكفي، وأن الأهم هو الحفاظ عليه. وفي حالته لا يكفي الوصول إلى الصراط المستقيم، بل يجب عليه السير فيه إلى النهاية، من خلال التفقه في الدين والالتزام بالسنة، كي لا يكون مجرد مسلم بالاسم كالكثير من مسلمي اليوم، الذين هم كغثاء السيل، لا يضرون ولا ينفعون، وتتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. كان عازماً على ألا يفقد الحقيقة، بعد أن وجدها أخيراً. ثم قام ورفع يديه مكبراً، ليصلي ركعتي شكر لله على ما آتاه من فضله، ويقوم الليل، بانتظار بزوغ فجر جديد.

تمت بعون الله

د. إيهاب محمد عويص

كيف نشأت فكرة هذا الكتاب

نواة هذا العمل كانت تجربة واقعية خضت غمارها عندما تغربت في رحلة طويلة إلى الخارج بهدف الدراسة الجامعية، ابتداء من ألمانيا (الغربية آنذاك)، ومروراً بهنجاريا، إلى أن حط بي الرحال أخيراً في روسيا، التي تزوجت إحدى بناتها، وتخرجت، ثم تخصصت من جامعاتها ومشافيها، واكتسبت جنسيتها. وكان أكثر ما صدمني في أثناء فترة دراستي الطويلة هو مقدار التفاوت الشديد بين مستوى بلاد العرب التي نشأت وتربيت بين ربوعها، وبين مستوى بلاد الروم[1]، من غربها[2] إلى شرقها[3]، كما صدمت أكثر بتفسيرهم لاغتصاب بلدي فلسطين، وجعلي لاجئاً يهيم في الأرض دون وطن، كتنفيذ لوعد إلهي، وإشارة على قرب عودة الرب!!!

كنت آنذاك منبهراً بحضارتهم وعلومهم، بل بأسلوبهم في الحياة كذلك، ولم أكن واثقاً من أن معلوماتي القديمة كانت أصدق، فقط لأنني تعلمتها أولاً، ومنذ الصغر!

(١) "روم" في المفهوم المسيحي التقليدي تعني "أصيل"، حيث أن أصل المسيحية عندهم هي الرومانية.
(٢) أكثرهم روم كاثوليك.
(٣) أكثرهم روم أرثوذكس.

فأتباع دين الروم هم الأكثر عدداً، ويربون حالياً على المليارين[١]، كما أنهم الأكثر تقدماً في العالم كله من جهة العلم والثروة والسلطان، ولا يعقل أن يكون كل هؤلاء على خطأ، ويكون مليار ونصف مليار مسلم[٢] على الحق! وهم غير قادرين حتى على ردع ستة ملايين مشرد[٣] جاؤوا من مختلف أصقاع الأرض ليستوطنوا عقر دارهم ويغتصبوا عروس عروبتهم جهاراً نهاراً وسط عشرات الدول العربية المحيطة بهم من كل جانب، ومثلهم من الدول الإسلامية الأخرى حولها. وما يزيد الطين بلة هو أن تلك الأرض المغتصبة بالذات كانت قبلة الإسلام الأولى وثالث الحرمين الشريفين، ووصفت وحدها في القرآن الكريم بـ "الأرض المقدسة"(المائدة ٢١). لذلك، ولأسباب أخرى، فقد نزعت من رأسي ما تعلمته من أن الإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وتجاهلت ما تؤكده أسرتي من أن نسبنا يمتد إلى أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام، وعزمت على

---

(١) طبقاً للإحصائيات الواردة في دليل عام ٢٠١٠ الذي سلمه أمين سر دولة الفاتيكان الكاردينال ترشيزي برتونيه للبابا بندكت السادس عشر، فإن عدد الكاثوليك في العالم قد ارتفع إلى مليار و١٦٦ مليوناً في العام ٢٠٠٨، فيما بلغت نسبة المسيحيين بصفة عامة (بجميع طوائفهم)٣٣٪ من سكان العالم. وقد جاء في صحيح مسلم: "قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً؛ إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك" (رواه مسلم).

(٢) هذا هو المشهور وفقاً لإحصائيات سنة ١٩٩٨التي بلغ فيها عدد المسلمين ١,٦٧٨,٤٤٢,٠٠٠ نسمة. ولكن التقريرات الحالية تتعدى المليارين والله أعلم. يذكر أن قسماً كبيراً من المسلمين يعيشون كأقليات معتبرة في دول غير إسلامية مثل: الهند (١٦١ مليون مسلم)، وإثيوبيا (٢٨مليون مسلم)، والصين (٢٢ مليون مسلم)، وروسيا (١٦ مليون مسلم)، وتنزانيا (١٣ مليون مسلم).

(٣) بلغ عدد سكان الكيان الصهيوني وفق الإحصاءات الرسمية الصهيونية في نهاية ٢٠٠٨ نحو ٧ ملايين و٣٧٠ ألفاً، من بينهم ٥ ملايين و٥٧٠ ألف يهودي، يشكلون ما نسبته ٧٥,٥٪، ونحو مليون و٤٩٠ ألف عربي، بما في ذلك سكان القدس الشرقية والجولان، أي ٢٠,٢٪، في حين لم يصرّح نحو ٣٢٠ ألفاً، أي ما نسبته ٤,٣٪، عن ديانتهم. ويقيم نحو ٥٠٠ ألف مستوطن يهودي في الضفة الغربية، بما في ذلك شرقي القدس؛ التي يبلغ عدد مستوطنيها اليهود نحو ١٩٠ ألفاً.

مواجهة موروثي بمنتهى الجرأة، ومهما كلفني الأمر، كي أحسم ترددي نهائياً، وأختار باقتناع كامل، الجهة التي سوف أصدقها وأنتمي إليها بقية حياتي.

وما أعظم ما خرجت به من تلك التجربة؛ فقد فتحت لي آفاقاً واسعة، مكنتني من سبر أغوار معظم الأمور المحيرة، وإجلاء العديد من الأوهام المغررة، وحل الكثير من الألغاز العصية على الإدراك. وأهم ما في الأمر، أنها جعلتني أقدر تمام النعمة التي منَّ الله تعالى بها علي إذ جعلني مسلماً، وكفى بها من نعمة.

ومع أن رحلتي في البحث عن الحقيقة والتحرر من الأوهام قد انطلقت من افتراض خطأ الإسلام، وانتهت بأن عدت إلى الله تعالى صاغراً، ومسلّماً بدينه؛ إلا أنني رأيت ألا أدخل بطل رحلتنا بتلك المتاهة التي عانيت منها سنوات عجافاً؛ فتسليط الضوء على ذلك ليس هو الهدف الرئيسي الذي أنشده من وراء هذا العمل. لذا فقد جعلت بطل هذه الرحلة من أتباع أقدم دين سماوي معروف، ومن نسل الأنبياء والكهنة اللاويين الوارد ذكرهم في الكتب السماوية، ثم مهدت له طريقاً مستقيماً يبدأ بالتيقن من وجود الله عز وجل، بعد المرور على بعض أشهر العقائد الإلحادية لمشركي هذا العصر ووثنييه، ثم يغطي بتدرج منطقي عقائد أشهر الفرق اليهودية والطوائف المسيحية، ومن ثم يغوص في جذورها مقارناً أصولها العقدية بمناهجها العصرية. وفي نهاية المطاف يختم بحثه في إخضاع كل ذلك إلى الكتاب بعد أن يخضعه هو نفسه للبحث.

وقد استلهمت اسم بطل هذه الرحلة "أبراهام"[1]، وتدرج مسيرته في رحلة بحثه عن الحقيقة وتحرره من الأوهام، من اسم جده (المفترض) "إبراهيم" عليه السلام أبي الأنبياء، ومسيرته في البحث عن الإله الحق، بعد عدم اقتناعه بآلهة آبائه وأوهامهم، حيث تنقل عليه السلام في جدله الفلسفي مع قومه من عبادة النجوم إلى القمر ثم إلى الشمس، حتى يوصلهم في النهاية إلى الخالق الحقيقي جل جلاله، المستحق وحده للعبادة.

---

(١) اللفظ العبري لاسم إبراهيم عليه السلام.

أما أبراهام المفتقد لعصمة جده الكبير ورسالته وعزمه، الذين قدموا له الحقيقة الحنفية من الله مباشرة، فلم يسعه إلا أن يبحث عنها بجهده الخاص، بعد أن بدأت الشكوك تراوده حول عقيدته السابقة وتعاليمها، ليتخذ بحثه صورة صراع حاد بين العقل والدين، قاده إلى الخوض في رحلة طويلة من المجادلات الفلسفية مع ذاته أولاً، ثم مع قومه وأقوام أخرى، مقارناً بين نجوم النظم الإلحادية[١]، وأقمار الفرق اليهودية[٢]، وشموس الطوائف المسيحية[٣] حتى يصل في النهاية، وبتوفيق من الله عز وجل، إلى النور المبين المنزل من الله عز وجل، والذي يجيب عن مختلف تساؤلات عقله بعد تشككه، ويعمر قلبه بعد خرابه، ويملأ روحه بعد خوائها، محطماً أصنام الموروث، ومتحملاً نيران مجتمعه، لتصبح برداً وسلاماً عليه، تاركاً كل شيء وراء ظهره ومهاجراً إلى الله تبارك وتعالى، ليبذل في سبيل مرضاته الغالي والنفيس.

كان في نيتي، عندما بدأت هذا العمل سنة ٢٠٠٧م، أن يكون على شكل رواية أدبية اعتيادية كي تعم الفائدة المرجوة منه أوسع شريحة ممكنة من القراء، متعمداً الابتعاد عن التعقيد الممل قدر الإمكان، وفي الوقت نفسه أن أعطي صورة متكاملة

---

(١) اتخذت كثير من العقائد الوثنية كعبدة الشيطان، والحركات العلمانية الدينية كالصهيونية، والنظم المضادة للأديان كالماسونية والشيوعية من النجوم شعاراً لهم.

(٢) يعتقد اليهود أن مصيرهم مرتبط بالقمر مباشرة، وخسوفه آية سوء لهم. أما خسوف الشمس فآية سوء لبقية الشعوب، التي على عكسهم يرتبط مصيرها بالشمس. كما أن تقويمهم قمري.

(٣) حسم المسيحيون رسمياً في القرن الرابع الميلادي مسألة تبديل يوم عطلة السبت إلى يوم الأحد (يوم الشمس لدى الروم الوثنيين سابقاً) والذي لا يزال يحتفظ بمعناه الحرفي إلى الآن في بعض اللغات الأوربية العريقة، مثل Sunday بالإنجليزية وSonntag بالألمانية. ومع أن بعض الأرثوذكس يؤكدون أن تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام هو ١/٧، إلا أن أغلب المسيحيين يحتفلون به في ٢٥/ ١٢، وهو عيد آلهة الشمس عند الرومان الوثنيين. ويقول الأسقف "بارنز" أن هذا التاريخ (٢٥كانون الأول/ ديسمبر) قد صادف يوم احتفال كبير بعيد وثني قومي في روما، ولم تستطع الكنيسة أن تلغي هذا العيد، بل باركته كعيد قومي لشمس البر فصار ذلك تقليدياً منذ هذا الوقت. دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف شامبرو. وبينما يتجه اليهود في صلاتهم نحو القدس والمسلمون نحو مكة، تتجه كنائس المسيحيين نحو الشرق. كما أن تقويمهم شمسي.

عن مواضيعه المختلفة بشكل سلس، دون أن يكون ذلك على حساب التفاصيل المهمة، إلا أن المدة الطويلة التي قضيتها في جمع المعلومات محاولاً قدر الإمكان تغطية مواضيعه المتشعبة على الوجه الأمثل، قد أخرجت العمل عن تصنيفه الأول، متجاوزاً لما ينتظره الناس عادة من رواية أدبية، حتى إن كثيراً ممن عرضته عليهم قد وصفوه بأنه صار أشبه بموسوعة مختصرة في الأديان والحضارات! وأنا بالطبع لا أدعي هذا بأي شكل من الأشكال، بل إنني لا أصنف هذا العمل المتواضع حتى كبحث توثيقي أو كدراسة أكاديمية، على غزارة المعلومات والحقائق الموثقة فيه. ولا أدعي أنني قد أتيت بجديد لم يتنبه له أو يفكر به أحد قبلي؛ فجل هذا العمل هو عرض متواضع لمختارات من بعض الدراسات الأكاديمية المنشورة سابقاً عن الأديان والحضارات، والفضل فيها يرجع بعد الله تعالى إلى أصحابها بالذات، وليس لي منه إلا الجمع والتنسيق والتقريب. وحتى ما يمكن أن يعتبر جديداً في هذا العمل، فهو ليس أكثر من إعادة ترتيب المكعبات للوصول إلى الشكل الأكثر قرباً من الحقيقة، ووضع النقاط على الحروف، ومن ثم تحليل المعطيات للوصول إلى النتيجة المنطقية[1].

وفي الختام، فإني أشهد الله تعالى أنني قصدت من وراء هذا العمل وجهه الكريم، ولم أشرك معه أحداً في قصدي وأنا أعلم. فإن أحسنت في شيء، فهو توفيق منه جل جلاله، وأطمح إلى مثوبة منه، إنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وإن أخطأت أو قصرت في أشياء أخرى، فذلك من نفسي القاصرة، واتباع هواها بغير علم والعياذ بالله. فأرجو عفوه وهدايته، إنه يغفر الذنوب جميعاً ويهدي من يشاء، وهو أعلم

---

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء في رواية الهروب إلى العاصفة عن تحليلي لظهور الصهيونية، وما جاء في رواية بشارات هائمة من رصد المفاهيم المسيحية الجديدة حول اليهود و "دولة إسرائيل" وإعادة بناء الهيكل وأيضاً حقيقة أصل المارونية، وكذلك تحليل شخصية بولس واحتمال برائته ووجود أكثر من بولس واحد. وما جاء في هذه الرواية من محاولة الوصول لمعرفة هوية الصحابي ضغاطر الأسقف، وسبب تراخي هرقل في مواجهة الإسلام، وكذلك سبب سرعة توغل الإسلام في الأندلس.

بالمهتديـــن. وأنا أدرك جيداً أن كثيـــراً من الناس من مختلف التوجهات لن ترضى عن صراحتـــي في نقطة أو أخـــرى، ولا عن تطرقي إلى مواضيع يعتبرونها حساســـة أو محرمة، وأنهم ســـيهاجمونني بشـــدة، ولكنني لم أضع في حسباني إلا إرضاءه وحده، فهـــان علي غضب بعض خلقـــه. وأعوذ بالله من أن أَضِل أو أُضَل أو أن أَذِل أو أُذل أو أن أَظلم أو أُظلم أو أن أَجهل أو يُجهل علي، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

د. إيهاب محمد عويص

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
إهداء	٥
تقديم	٧
تمهيد	١٧
تأليه التوحيد	١٩
الأرثوذكس الثلاثة	٢١
بدعة أم أساس؟	٣٨
روما	٦١
قسطنطين ونيقية	٧٣
القانون	٩٠
تلمس الطريق	١٠٣
السياسة مرة أخرى	١١٧
هارفارد وأكسفورد	١٣٠

الصراع	١٤٩
من ألاعيب الشيطان	١٥١
بعض النجاح بعد قرون من الفشل	١٦٩
المستقبل... لمن؟	١٨٢
وشهد شاهد من أهلها	١٩٣
بين الرهبنة وتعدد الزوجات	٢١٢
كشف المستور	٢٢٩
أسفار مخفية	٢٣١
امتحان القبول	٢٥١
اللغز الكبير	٢٧٢
تفنيد النبوءات	٢٩٤
بين المسيح والمصلوب	٣١٢
استجواب الرواة	٣٢٢
نهايات مختلفة لحدث واحد	٣٣٨
بين الإبادة والتحريف	٣٥٣
هل يوجد اسم للخالق في الكتاب؟!	٣٧٥
تسميات مستحدثة	٣٩٠
من الدير إلى المسجد	٤٠٧

سرقات لاهوتية	٤٢٤
ألغاز وحلول	٤٣٩
لغز ضغاطر	٤٤١
جمع الخيوط	٤٥٩
بلبلة في الإمبراطورية	٤٨١
رسالة أم مراسلات؟	٤٩٨
كيف رضخ سيد القطب الأوحد في العالم لسيد مدينة صغيرة	٥١١
غُلِبَتِ الرُومُ	٥٢٦
شبهة الاقتباس	٥٤٠
من صور الهيمنة	٥٦٣
إشارة القديم والجديد إلى الأخير	٥٨٦
رغم أنف التزوير	٥٩٦
مشكاة واحدة	٦١٤
شبهات حول الإسلام	٦٢٨
شهادة الملك أوفا وإنكار روبن هود	٦٤٧
انشق القمر	٦٧١
كيف نشأت فكرة هذا الكتاب	٦٨٩
الفهرس	٦٩٥

كهولة قبل البلوغ

قد يصل المرء إلى مفترق طرق يصبح مضطراً عنده لأن يختار بينها، وبطل روايتنا في هذا الموقف لا ينقصه العلم ولا التجربة، فقد قضى ردحاً من الزمن يجمع المعلومات ويحلل ويقارن، كما لا تنقصه الجرأة واتخاذ زمام المبادرة؛ فقد تحدى الموروث واتخذ قرارات مصيرية أثرت في حياته برمتها، لكننا نراه رغم ذلك يقف حائراً متردداً، فكل الدلائل تشير إلى طريق وعر حف بالمكاره، وفي اتجاه يعاكس تماماً كل ما كان يتوقعه.

رواية
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

ISBN 978-9948-16-1288